

1
نسخة معالجة
وصفحات فردية

سلسلة دراسات محكمة في اللغة والأدب والنقد
تصدر عن مؤسسة السراج للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة - لندن



التداولية في البحث اللغوي والنقدي

www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

تحرير
أ.د. بشرى البستاني



التداولية في البحث اللغوي والنقدي

اسم الكتاب: التداوليس في البحث اللغوي والنقدي
اسم المحرر: أ.د. بشري البستاني
اسم الناشر: مؤسسة السياب (لندن)

ISBN: 978-1-906228-40-8

مؤسسة السياب للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة - لندن



محمولة
جميع الحقوق محفوظة

جميع الحقوق محفوظة باستثناء اقتباس فقرات قصيرة لغرض النقد أو المراجعة، فإنه لا يجوز إعادة إنتاج أي جزء من هذا الكتاب أو تخزينه في نظام الاسترجاع أو نقله بأي طريقة من دون الحصول على إذن مسبق من الناشر.

All rights reserved. Except for the quotation of short passages for purposes of criticism or review, no part of this publication may be reproduced, stored in retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, without written permission of the publisher.

الطبعة الأولى

٢٠١٢

Lower Teddington Road3
Kingston upon Thames
Surrey KT1 4ER
London - UK
www.sayyab.org
contact@sayyab.org

أعوذ المصنفون

بأ:
خطوات للنشر والتوزيع - دمشق حرمانا

بووصة الكتب

القاهرة ٢٥ في شريف، وسط البلد

دار أجيال

القاهرة، ٥ ش المصانع: المهندسين

رائق:

مؤسسة السياب - شارع المنفي - بغداد

لجنة الاستشارة

- | | |
|--|---------------------------------|
| أستاذة الآداب والنقد - الولايات المتحدة الأمريكية | أ.د. حاتم المسكر |
| أستاذ الآداب العربية الحديث - كلية الآداب - جامعة سيدي محمد بن عبد الله - المغرب | أ.د. حسن الغرفي |
| أستاذ علم اللغة الحديث - كلية الآداب - جامعة عين شمس - مصر | أ.د. سعيد حسن يحيوي |
| أستاذ الآداب والنقد المقارن - جامعة فيلادلفيا | أ.د. صبر الدين المناصرة |
| أستاذة علم اللغة الحديث وعضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة | أ.د. كمال محمد بشر |
| أستاذة علم اللغة - كلية دار العلوم - جامعة القاهرة | أ.د. محمد عبد العزيز عبد الدايم |
| أستاذ الآداب العربية - كلية دار العلوم - جامعة القاهرة | أ.د. مراد عبد الرحمن مجرنة |
| أستاذ الآداب الأندلسي ونقده - الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا | أ.د. منجد مصطفى بهجت |
| أستاذة النقد - كلية الآداب - جامعة القاهرة | أ.د. سامي سليمان |
| عضو النادي الأدبي الثقافي بجدة | أ.د. حسن النعمسي |

شروط النشر

- المواد المرسلة إلى السلسلة لا ترسل إلى أية جهة أخرى للنشر ولا سنوطف - آسفين - التعامل مع أصحابها.
- على الباحث أن يؤكد من أن دراسته كاملة، مدققة لغوياً، خالية من الأخطاء الإملائية والنحوية، وعدد مخالفته لأي نظام للحماية الفكرية.
- يضع الباحث بعد اسم الدراسة (الاسم، المؤهل، التدرج العلمية، جهة العمل ومقرها، البريد الإلكتروني)
- تكون العناوين الجانبية قصيرة ومحددة بوضوح وغير مرقمة. تكون الأشكال والخرائط والرسوم البيانية على درجة عالية من الجودة باللونين الأبيض والأسود مع تجنب التظليل
- ترتب البحوث وفق الآتي: (العنوان، مدخل، متن البحث، المصادر والمراجع).
- يتراوح حجم الدراسة بين (٥٠٠ - ١٠٠٠) كلمة مطبوعة باستخدام برنامج ميكروسوفت ورد، وبمسافة مفردة بين السطور، مع محاذاة الأسطر من اليمين واليسار وترك هوامش متسعة.
- توحد الهوامش والإحالات أسفل كل صفحة اعتماداً الأصول العلمية المتعارف عليها في البحوث الأكاديمية، بما في ذلك المنهجية السليمة في التوثيق والإشارات فضلاً عن وضوح العبارة وسلامة اللغة.
- تعرض البحوث المقدمة للنشر على محكمين من ذوي الاختصاص وعلى مقومين لغويين، وهيئة تحرير السلسلة حتى إعادة المواد إلى أصحابها لغرض إجراء أي تعديل أو إعادة صياغة تقررها اللجنة المحكمة.
- تعبر الموضوعات المنشورة عن وجهة نظر كاتبها، وليس بالضرورة أن تعبر عن وجهة نظر السلسلة.
- هيئة السلسلة الاستشارية الحق في قبول أو رفض المواد المرسلة لغرض النشر، ولا تعاد المواد المرسلة سواء نشرت أم لم تنشر.

المحتويات

مقدمة

التداولية من كينونة اللغة السورية إلى آفاق التواصل . ١. ٤. بشرى البستاني ٢٨ - ٩

الفصل الأول

التداولية ... مرجعيات .. ورؤى

- | | | |
|---------|--------------------------------------|---|
| ٥٢-٢١ | د. مؤيد آل صويحت | التداولية .. قراءة في النشأة والمفهوم |
| | كلية الآداب - المستنصرية - العراق | |
| ٩٤-٥٥ | د. سامي شهاب أحمد | التداولية وصلتها باللسانيات البنيوية والسميائية |
| | كلية التربية - جامعة كركوك - العراق | |
| ١١٥-٩٥ | د. جبار موسى الخطيب | الفن والتواصل .. ملامح من تداولية الخطاب |
| | وزارة التربية - العراق | |
| ١٢٦-١١٧ | د. خالد خليل | الدلالات والتداوليات .. علاقة وإشكاليات |
| | تربية ابن رشد ، جامعة بغداد ، العراق | |
| ١٤٤-١٢٧ | د. محمد صالح سعد الله | التعدّد التداولي من الحدث اللغوي إلى التواصل التقني |
| | كلية الآداب ، جامعة الموصل ، العراق | |
| ١٥٨-١٤٥ | د. أحمد عليان حمدي | التداولية الأدبية .. دراسة نقدية |
| | كلية الآداب ، جامعة الموصل ، العراق | |

الفصل الثاني

التداولية، مفاهيم، وأفاق

- ١٩٨-١٦١ د. جبهة مبروك محمد
كلية الدراسات الإسلامية - دبي
ثلاثية القرآن والنس والسميات، مقاربة للشواذ النحوية تداولياً
- ٢٢٨-١٩٩ د. هشام إبراهيم عبد الله الخليفة
خبير بوزارة التربية، العراق
الاستدلال على التقري المقصود من اللفظ الكلامي غير المباشر
- ٢٤٢-٢٢٩ د. فاطمة داؤد
كلية الآداب والعلوم
جامعة عبد الحميد بن باديس - الجزائر
العبارة ونظريات التواصل
- ٣٧٢-٢٤٩ د. هيثم محمد مصطفى
كلية الآداب، جامعة الموصل، العراق
بين نظرية السياق ونظرية الاستلزام الحوارية مقاربة تداولية
- ٢٩١-٢٧٢ د. سوسن صالح سرية
كلية التربية للبنات، الجامعة العراقية، العراق
مشكلة اللفظ والمنطق في تعلم اللفظ والترجمة رؤية دلالية -
تداولية
- ٢٠٨-٢٩٢ د. محمود خليف العياشي
الكلية التقنية، العراق
قضية النشر مقولة تداولية في مشروع الجماعات الفسرة

الفصل الثالث

مسارات الرؤى في التطبيق

- | | | |
|---------|--|---|
| ٢٩٩-٣٢٩ | أ. د. عبد العلوم بن هبسي
جامعة وهران . الجزائر | ▪ الفعل الكلامي النفسي ، قصيدة ، (وتطلت لغة الكلام ...) نموذج |
| ٢٤٦-٢٦٢ | د. هشام محمود شهاب
كلية التربية ، جامعة الموصل . العراق | ▪ الأفعال التداولية عند الخطيب القزويني |
| ٢٦٢-٣٨١ | د. روثاء يحيى الطافخيني
كلية الآداب . جامعة الموصل . العراق | ▪ الاحتجاج في الخطاب الشعري العربي الحديث ، قصيدة (لا تصالح لأمل
بقل تموجها |
| ٢٨٢-٤٦٤ | د. عبد الله بيوم الرعشدي
كلية التربية . جامعة الموصل . العراق | ▪ إنجازية أفعال الكلام . مقاربة تداولية تضامج من الشعر العباسي |
| ٤٦٥-٩٥٤ | م. م. نور وهيد
كلية التربية - جامعة الموصل - العراق | ▪ الانتماء التطاهلي ، دراسة تداولية في آيات من سورة الأنعام |

تصدير

ونحن نُدون آخر المُطوّر في مُنجزنا المعرفي هذا يسرني باسم مؤسسة الشّباب للطباعة والنّشر أن أكتب تصديراً لباكورة عمل سلسلة ((الأن))، وهي سلسلة لدراسات مُختصة في اللغة والأدب والنّقد، وتحديداً للكتاب الأول فيها ((التداولية في البحث اللغوي والنقدي)).

لقد جاءت فكرة سلسلة ((الأن)) لتكون مكملة لعمل مؤسسة الشّباب للطباعة والنّشر التي أخذت على عاتقها تبني الأعمال الثّقافية والمعرفية الرّصينة، الأكاديمية منها وغير الأكاديمية، مُنطلقة من الإيمان بضرورة الإفادة من خبرة الثّقافات المتقدمة في العالم وهي تعتمد أسلوب السّلسلة لطرح اختلاف وجهات النّظر وتعدد زوايا الرّؤيا داخل أطر الموضوع الواحد، مؤمنة بأنّ الجهد المعرفي الجماعي يُضفي على الموضوع المطروح غنى وبراء، ويفتح للبحث العلمي أبواباً جديدة لم تكن لتتوفر في البحث المنفرد.

تأسست مؤسسة الشّباب في العاصمة البريطانيّة لندن عام ٢٠٠٧ بدافع ثقافي معرفي وهي تنشر باللغتين العربيّة والإنكليزية. وفيما يخص الأعمال العربيّة فإنّ

المجال مفتوح لجميع المخطوطات من لغة وأدب وشعر ورواية ونقد وممّرح وتاريخ وغيرها من حقول البّراسات الإنسانية. أمّا فيما يتعلق باللغة الانكليزية فقد تعمدنا ان نكون مختصين كي ننافس دور نشر بريطانية وأمريكية لما تتمتع به تلك الدّور من باع طويل في مجال النّشر. فتخصصنا بدراسات التّرجمة من العربية للإنكليزية وبالعكس فكانت لنا مجلة السّهاب لدراسات التّرجمة *STJ* وهي مجلة محكمة تضم في هيئتها الاستشارية أساتذة من خيرة المتخصصين في العالم وكذلك سلسلة دراسات في التّرجمة *STSS* التي يرأسها أ. د. سعيد فايق ومعه فريق من الاساتذة المتخصصين، كما نشرنا حتى هذا العام أربعة كتب لاقت رواجاً في جامعاتٍ عالمية.

لقد أخذت المؤسسة على عاتقها ترجمة الأدب العربي بجميع أجناسه، القصة، والرواية، والشّعر وغيرها من الأجناس الأدبية التي كان يكتنفها الغموض في ذهن القارئ الأوربي فنشرنا خمسة كتب حتى هذا العام وهي أولاً: قصص عراقية معاصرة ترجمة علي المنّاع وعليا الربيعي، ثانياً: ليالي المُسيد سلمان للفاص كريم عبد، ترجمها ايرك وينكل، ثالثاً: عشر قصص عراقية ترجمها فرد براغنل ورمضان سدخان، رابعاً: رائحة الثّناء لمحمود عبد الوهاب، ترجمها رمضان سدخان وفرد براغنل، خامساً: قصص قصيرة مغربية، ترجمها مايك هول وعلي المنّاع وفي طريقنا لترجمة قصص عربية وقصص سورية يعمل على ترجمتها كل من المترجمين مايكل هول، فرد براغنل، علي المنّاع، إلن كالرك، ولم ننس الطّفّل في زحمة العمل إذ كان للمؤسسة سلسلة في أدب الطّفّل ثنائي اللغة.

ولإيماننا بضرورة نشر ثقافة حرفية صناعة الكتاب في الوطن العربي فإن قرارات المؤسسة في قبول هذه المخطوطة أو رفض تلك لم تكن قرارات شخصية قائمة على العلاقات الخاصة أو الرّأي المنفرد، بل كانت مبنية على أسس معرفية من الاستشارة والتروي، إذ أسسنا منذ البداية هيئات استشارية في جميع الحقول، ولاسيما في ما يخص الأعمال الإبداعية.

شكري وتقديري لكل المشاركين في إنجاز كتاب التّداولية في هينته العلمية والفنية، وأخص منهم الباحثين الذين كان لجهدهم الفضل في إنجاز عملنا البكر، والدّعوة مفتوحة لكل الباحثين العرب أينما كانوا للمشاركة في تحرير كتابنا الثاني الموسوم ((رواية ما بعد الحداثة، ما وراء السرد)) والكتاب الثالث الموسوم ((الترجمة وصراع الحضارات)) من أجل تشكيل جو علمي معرقي يفتح باباً للإبداع النقدي والثقافي الذي ما تزال الخيارات متاحة أمامه بالرغم من كل العقبات التي تعترض الابداع والمبدعين في الثقافة العربية وظروفها الزاهنة، ومن الله التوفيق.

علي النّساع

رئيس مجلس إدارة المؤسسة

مُقَدِّمَةٌ

التداولية من كينونة اللغة الصورية إلى آفاق التواصل

أ. د. بشرى البستاني

■ الحمد لله الذي أشرق بنوره الأرض
وعلى القمر ظلام، والصلاة والسلام
على من فتح فضاء العلم للإنسانية
من المهد إلى اللحد، مُسرِعاً بابَ الأمل
بدوام القدرة على استقبال المعرفة
مادام في الإنسان نبضٌ يتوق، مبشراً
بالتجدد الدائم والقدرة على
الفتوحات السنوية بمعارفها ولطائفها
وكشوف لذتها الأبدية، كي يبقى هذا
المخلوق المكرّم بالامتخلاف على
الأرض حاملاً أميناً للرسالة، جديراً
بالأمانة من خلال تطويره الدائم
لأدواته في الصبرورة والتحقيق.

كانت اللغة وما تزال موضع اهتمام الباحثين مذ وعى الإنسان أهميتها في تشكيل مفردات حياته الخاصة والعامة، كونها الطريقة المثلى والأكثر إقصاداً والأرقى درجة في سلّم العمليات الذهنية وفي تشكيل أي حدث تخاطبي قادر على إنجاز فعل يتّسم بكفاءة التواصل المطلوب، فقد شغلت اللغة الإنسان في أصلها وطبيعتها، أي نظام ترميزي يشتغل على بنية صورية حسب؟ أم هي بنية ذات طبيعة وظيفية لها علاقات وثيقة بجوانب الحياة المعرفية كافة، ذلك إن طبيعة اشتغال اللغة يُعدُّ أمراً معقداً، كونه يعمل على تحويل المرجع أو الشيء المادي إلى رمز لغوي، وتحويل المجرد من الفكر والمُشاعر إلى مادي محسوس عبر الجملة أو الأصوات التي تحتوي ذلك الفكر وتلك المشاعر ملفوظة أو منطوقة، بالرغم من كونها غير قابلة للاختزال في منظومة إشارية مهما كانت تلك المنظومة معبرة، ويجعل من التواصل بها يحتاج لمؤازرة غير اللغوي، مما يقع في حقل العمليات الاستدلالية التي ينطليها الفهم، فالبحث عن المعنى لا يقتصر على الإنتاج والتأويل في البنية اللغوية المجردة كما فعلت البنيويات وما حولها من لسانيات حسب؛ لأن ذلك لن يتيح لعملية الفهم أن تستكمل مداها إلا من خلال سياق تنضافر فيه عوامل غير لسانية وتلعب فيه استراتيجيات المؤول ومن يخاطبهم دوراً في تحقيق هدف الحدث اللغوي الكامل، معتمدة في ذلك على تفاعل حيوي للمعارف المشتركة والظروف التي تكتنف المرسل والمخاطبين معاً من خلال دراسة مجمل الأحوال التي تتعلق بعملية الإنجاز اللغوية- السياقية والمقامية بكل ما تتضمنه مفردتا السياق والمقام من اشتياكات زمانية ومكانية ونفسية وأيديولوجية - إنتاجاً وتلقياً - ومن ظروف خاصة وعامة يمكن لها أن تحبط بعملية التواصل، على أن ما تقوم به اللغة في عملية تحويل المرجعيات إلى شبكة علاقات لغوية هو من أعقد العمليات الذهنية التي تجري في خلايا العقل الإنساني، وهي عملية لم يتمكن المختبر التشريحي ولا النفسي ولا النقدي التحليلي من فك كنه أسرارها، ولذلك كان هذا السر وسبق لمنى بعيد مدار بحث ومحاولات تفسير وتأويل.

إن تعريف ابن جني للغة أنها أصوات يُعبر بها كل قوم عن أغراضهم وحاجاتهم، يُدخل اللغة باعتقادنا في صميم العملية التواصلية، فالتعبير لا ينبع من قراع، ومفردة القوم تؤثر الدائرة الواسعة التي يجري بها الحدث اللغوي، والمشاركة الفاعلة التي تنم من خلالها، ومفردة أغراضهم توحى بأهمية ما يجري وتُسبغُه وسعة حقله ومضامينه، كونه يشمل الحياة بكل فعاليتها ووقائعها وأحداثها، ومهما تحدثنا عن

ذكاء ابن جني في طروحاته اللغوية والصوتية ودقتها إلا أن ما طرحه من قضايا وإن كانت موضع اهتمام القدماء لكنها لم تُنل من البحث اللغوي العربي الحديث ما يضعها في إطارها المهيم من التأسيس الموضوعي لما جرى من تطور في الدرس اللغوي الغربي المعاصر وما كان يجب أن يُصار إلى التأسيس عليه واستكمال ما جاء به اللغويون العرب والنداء الذين درسوا مقاصد الأدب وجمالياته في تراثنا القديم تحليلاً واستقصاءً، شأننا في ذلك شأن حقولنا المعرفية والحياتية الأخرى التي لم تُؤسس فيها على بؤر تراثنا أكثر الأحيان، بل انصرفنا للأخذ من الغرب مباشرةً منقطعين عن معارفنا وما فيها، وعبوراً لمراحل زمنية قد لا يجوز القفزُ عليها إلا لضرورات إجرائية يأتي هيدجر ليمنح اللغة الإنسانية مرةً أخرى ما نستحق من اهتمام إذ يؤكد أن اللغة بيتُ الوجود، حاويته ومستوعبة أحاسيس ناسه ومشاعرهم، وأنشغالات حياتهم وإيمانهم وزمنهم الفاهر المتجبر الذي يلفُّ كلَّ شيء بمعطفه الخرافي ماضياً نحو الأمام، منسرباً ومغيباً كل شيء، إنها اللغة مرةً أخرى تتربع على عرش البحث متمكنةً من الغلود والتخليد، فهي وحدها التي تمكنت من احتواء الزمن والحياة إذاً، بأنوثتها المقتدرة التي كثرت في دراستها النظريات واختلفت الفلسفات، لكنها ظلت وستظلُّ فاتحةً أبوابها المشرعةً على كلِّ قول جديد، وكلِّ جديد فيها سيؤول إلى قديم حين يقتحمه الرأي الآخر. إن الاهتمام الذي أولته النظريات اللغوية المجردة والمناهج النصية للغة حين سجدت النصوص داخل حدود البنية الصورية ونظرياتها المعرفية، ألحق باللغة نفسها العزلة وحرمتها من الخصوبة التي لا يمكن لها أن تنبض في الأعماق إلا من خلال تفاعلها الحيوي مع الحياة ومرجعياتها وأحداثها وتوجهاتها، ولذلك ما لبثت تلك النظريات أن انحسر مدتها وما انبثق عنها من توجهات الشكلانية ثم النقد الجديد في أمريكا فالنيوية التي هيمنت على النقد فترةً من الزمن منتصف القرن الماضي، إذ انتهت النظريات الجديدة التي تلتها إلى خطورة عزل اللغة عن مجريات الحياة، وخطر مكنية الثقافة باستلاب إنسانيتها واقتصارها على المادي المحسوس من خلال هيمنة التكنولوجيا وما اكتنفها من جفاء، وأهمية العودة إلى فصح ألق النص على المعنى ومرجعياته فكانت بدايات النظريات الجديدة في جذور البحث التداولي وفي نظريات القراءة التي أولت اهتمامها بالنص والقراءة أولاً، ثم أعطت السلطة الكلية للقارئ في بناء المعنى، ولعلَّ قولتهم السائدة، (لا يوجد قراءتان متطابقتان للقارئ الواحد لنص واحد) ما هي باعتقادي إلا مقولة تداولية ناتجة عن فهمهم لأهمية تباين اللحظة القرآنية وما يحيطُ بها من ظروف نفسية وخارج نصية تختلفُ من لحظة

لأخرى، ليختلف معها الفهم تفسيراً وتأويلاً، ثم جاء التفكيكُ ليمنحَ بناءَ المعنى للقارئ كلباً وليفعلَ فعله التَّمويضية للنص في الاختلاف والإرجاء واللا أصل وغياب الحقيقة التي يكمنُ فيها سرُّ المعنى وضياع الاستقرار والثبوت وإساءة القراءة واللا أثر جزاء النشيت والتشذير والتشظي. وكان عبر هذا وذاك ينمو وينتطور تيارٌ جديد يولي الاهتمام لأطراف عدة لا مناص من تفاعلها لإنتاج دلالاتٍ نثاءً مع ظروف تشكلها وتلقها معاً، فليس النصُّ وحده حاوي المعنى، ولا المبدعُ أو المرسلُ/ المتكلمُ وحده منتج الدلالة، وليس السامعُ أو الفارئ أو المخاطب، وليس هو تفاعلٌ هؤلاء معاً؛ لأن هناك ظروفاً تتدخل في تشكيل الحدث التخاطبي تدخلاً لا بد منه شئنا أم أبينا. من هنا دخل السياقُ عاملاً حاسماً في ترميم الأبعاد التي لا بد من تفاعلها في تحقيق عملية الفهم وتفعيلها، وتطور هذا الاتجاه المهيج فيما استقرَّ عليه البحثُ اللغوي الحديث بمصطلح التداولية التي كان منشؤها نتاج التفاعل بين كلي الفلسفات والعقول المعرفية ذات العلاقة بإنتاج المعنى كالفلسفة وعلم الاجتماع وعلم النفس والمنطق وعلم السياسة والظروف الاقتصادية والإيديولوجيات المهيمنة وغيرها.

تعدُّ ترجمات مصطلح البراغماتية إلى العربية لتتضمن مصطلحات عدة منها التداولية والتخاطبية، وتتعدد في الترجمة للعربية المصطلحات المقابلة للتداولية إلى التبادلية والتواصلية والقصدية والمقامية، ومنهم من أطلق عليها الفعليات، وذلك بسبب سعة الأفق الذي اشتملت به وكثرة القضايا التي تداخلت فيها على وفق مداخلٍ أخرى لسلك اللغة في الفلسفة التحليلية وعلم الاجتماع وعلم النفس المعرفي واللسانيات. وهذا الفرع الذي يعنى بالتخاطب يتمُّ بدراسة كيفية انتقال المعنى ليس فقط على أساس المعرفة اللغوية (كالنحو والمعجم والدلالة.. الخ.) بين متكلم ومستمع، بل وعلى أساس سياق الكلام المنطوق وسياق الاستقبال، والمعرفة بوضع المتشاركين في التخاطب، وكذلك يقصد المتكلم وظروف الكلام. ولذلك عمد بعضهم إلى تخصيص مصطلح السياق سمة للعلاقة بين مكونات النص وظروفه، بينما جعل المقام سمة لما يحيط بالمخاطبين، وفي هذا الصدد تشرح التداولية مصطلحاً ومفهوماً وإجراء كيف يتمكن مستخدمو اللغة من التغلب على الغموض الواضح وعلى المشاكل التي تعترض عملية فهم قصد المتكلم، طالما أن المعنى يعتمد على طريقة الكلام ومكانه وزمانه وما إلى ذلك من محددات وظروف محيطة.

ويطلق على القدرة على فهم المعنى المقصود من متكلمٍ لأخرٍ مصطلحُ كفاءةٍ

التخاطب التي يقابلها بالإنكليزية *Communicative Competence*. من هنا فإن أيّ كلام منطوق يصف وظيفة تخاطبية *Communicative Function* سيطلق عليه مصطلح ما وراء التخاطب الذي هو بالإنكليزية *Metapragmatics*

لقد تعددت الآراء التي تناولت بالبحث الأسس والجذور التي كانت المرتكزات الأولية للتداولية المعاصرة، فمنهم من يؤرخ لها منذ القدم، إذ كانت تُستعمل كلمة *Pragmaticus* اللاتينية، وكلمة *Pragmaticas* الإغريقية بمعنى (عملي). ومنهم من يُرجع تأسيسها إلى الفلاسفة التحليلية للفيلسوف غوتلوب فريجة ثم فنكنشتاين والفلاسفة التحليلية مطلع القرن العشرين، هذه الفلسفة التي أكدت أهمية وضع اللغة موضع الدراسة والتحليل ضمن أي منهج فلسفي، إذ أكد الألماني فنكنشتاين أن المعنى لا يتسم بالثبوت ولا التحديد ما دامت ظروف التخاطب في تغير دائم، وتبعه في ذلك الفلاسفة الذين تأثروا به وأهمهم أوستن وسيرل واضعاً نظرية أفعال الكلام، وغيرهما من فلاسفة أكسفورد الذين كان لهم أثر مهم في تطوير البحث التداولي من أمثال غرابس والذين عملوا على وضع مفردات الجهاز المصطلحي لهذه النظرية/ المنهج وتطويره، بما جعلها تتغلغل في جوانب عدّة من جوانب التدريس اللغوي والمعرفي والبلاغي والنقدي، بل وفي جوانب متباينة من الحياة في ميادينها المهمة قانونية كانت أم معرفية أخرى، كما يشار إلى إسهامات موريس عام ١٩٣٨ في إشارته المهمة للتداولية وهو يقسم علم العلامات على حقول ثلاثة هي النحو في دراسته لأهمية العلاقة بين العلامات، والدلالة التي تدرس علاقتها بالأشياء، والتداولية التي تدرس علاقة العلامات بمستعملها ومفسريها، متأثراً في تقسيمه ببيرس الذي لم يُقسم تقسيمه بهذا الوضوح. وهكذا نجد الدارسين مختلفين في تحديد بداية انطلاق التداولية، من القدم إلى الفلسفة التحليلية، ثم لموريس، ولتناقشات جون أوستن في جامعة هارفارد الذي كان همّه تأسيس اختصاص في فلسفة اللغة وليس في اللسانيات، وهناك رأيٌ ينفرد بالتأريخ لها بمطلع سبعينات القرن الماضي حين أُلّ البحث التداولي إلى تطوير شروطه ومحاوره على يد بول غرابس ١٩٧٥.

أما من بعيد جذور التداولية -مصطلحاً حديثاً- من الباحثين العرب إلى أصول تراثية عربية فإنهم ينظرون إلى وجود الاتساقية القائمة في كتاب سيبويه والتي أرجعها الباحثون لبعيد تداولي كما ينظرون إلى محاججات الجاحظ للمشعوبية وإلى اهتمامه بفن الإقناع، وما اهتم به ابن قتيبة في كتابه الشعر والشعراء من مراعاة الشاعر

العربي لنوع المخاطبين في توجيه شعره وفي اهتمام عبد القاهر الجرجاني وابن رشد والقرطاجني وغيرهم من النقاد والمفكرين العرب بالمتلقي، وفي تعريفهم البلاغة أنها مطابقة الكلام لمقتضى الحال واهتمامها بالمقام، وفي نظرية الخبر والإنشاء وأسسها الأيستولوجية التي عدّ الدكتور مسعود صحراوي ظاهرة الأفعال الكلامية مندرجةً ضمنها وغيرها مما تناوله التراث العربي في مباحثه النقدية واللغوية والبلاغية. لكن هل يعني ذلك وجود التداولية - الحديثة - في التراث العربي القديم، أم يعني وجود فكر تداولي افنضته حاجة متقدمة في الإبداع والتلقي معاً، وتفسير ذلك يعود باعتقادي إلى نضج الفكر الثقافي والمعرفي الناجم عن التواء الحضاري المخصب الذي اتسمت به تلك العصور العربية مما جعل تفكير المبدعين في ذلك الزمن القديم يُتسم بالشمولية وبالمقدرة على تحليل الظواهر وتأويل الأحوال وتعليل ما هو مبدعٌ أصيل من الفن والعلوم وما له صدى في نفس المخاطب عما دونه بما يعلل ويفسر ويرجع للأسباب والآثار معاً، لأن العلوم المعاصرة التي أنضجتها تراكمُ الجهد الإنساني عبر التاريخ لا ترجع إلى الوراء، بل تمتصُ الخبرة الماضية التي اكتسبها لتؤسّمَ عليها، ومن خلال الثنّاصِ الثقافي والحضاري الشمولي تُنتج ما هو متطورٌ معاصرٌ ومطورٌ وأكثر نضجاً وتقدماً، وإذا كان الغربيون قد أفادوا من تراثنا وطوّروه وبنوا عليه عبر فنونٍ عديدةٍ فإن علينا ألاّ نحفل الآخر نتائج سكونيّتنا التي يمكنُ إرجاعها هي الأخرى لأسباب وأسباب.

إن تفاوت تعريفات التداولية وتباينها كان الناتج الطبيعي لتفاوت مقاصد معرفتها فهناك مَنْ حصر مجالها في الخطاب على العكس من اللسانيات التي اهتمت برصد الجملة، ومنهم مَنْ حصرها في دراسة العلاقة بين العلامات ومفترقها، ومنهم من فتح حقلَ دراستها بحيث جعلها ندرس كلّ ما يحيطُ بالمتكلمين وبعملية التواصل نفسياً وظرفياً واجتماعياً، ومنهم من اهتمَّ بدراستها للأدب ورمزيته ومجازاته وحججه في ضوء توجهاتها الجديدة، وعلى أية حال فإن التداولية لم تعد اليوم مسألة مهمّلات اللسانيات؛ لأنها صارت حقلًا مهمًا كُتبت فيه المئات من الكتب في أوروبا وأمريكا لكن لم يُترجم منها للعربية إلا القليل، ولعلّ هذا الإقبال الذي لقيه الدرس التداولي في الغرب واهتمامه بدراسة العلاقة بين اللغة وبينها اللغوية والسياق كان كما ذكرنا ناتج ردّ الفعل على المناهج النصية التي عزلت البنية الصورية للغة عن محيطها وما صحب ذلك من عزل اللغة عن الإنسان وقضاياها وعن المرجعيات الخارجية ذات

الحضور والفاعلية في النص وذات العلاقة المباشرة بالإنسان، بينما أكدت التداولية على الشروط القبليّة والأوضاع المشتركة بين المتخاطبين التي أطلق عليها (علم الاستعمال اللغوي) مؤكدين أهمية العوامل غير اللغوية المحيطة في تأويل القول وفهم المقاصد والظروف التي لا بدّ لها من التدخل للتأثير في بناء المعنى الناتج عن القول، وهذا ما يعطيها الأهمية التي تتمتع بها الآن في الدرسين التنظيري والتطبيقي.

وحول مهمات التداولية دار جدلٌ كثير كذلك، ولعلّ المتفق عليه أن مهمتها تأكيد فعل السباق في العملية التواصلية وأهميته في الكشف عن المغيبات المتضمنة داخل الخطاب والتي كان لها الأثر الكبير في تحديد معاني النصوص؛ لذا كان هدفها السعي لفهم العوامل خارج لغوية لتوظيفها من أجل فهم أعمق للخطاب، انطلاقاً من حاجة الحدث اللغوي لما يحيط به ويؤثر فيه خارج النص، وما ورد فيها من ردّ على ما جاءت به اللسانيات البنيوية وما جاء في طروحات جومسكي من أن اللغة أداة تجريدية قابلة للانفصال عن مستعملها وعن استعمالاتها معاً، فضلاً عن أهمية عملها في ردم الفجوة التي كانت قائمة بين البنى اللغوية المجردة ونظريات التواصل وما يتبع ذلك ليس من إعادة اللغة لمسرح الحياة حسب، بل ومن إعادة نبض الحياة للغة التي هي واحدة من أهم مظهرات الوجود الإنساني والكشف عن دواخل هذا الوجود والإيحاء بمضمراته والإعلان عن أهدافه وحفظ جوهر تراثه وحضارته.

إن تأكيد التداولية على أهمية الظفر بالمعنى كان الحافز الأهم - وسيظل - لتبسيط الدرس في هذا الميدان، فوصول المعنى للمتخاطب هو الهدف من تفعيل اللغة عبر التخاطب، والمعنى هو هدف كلّ الجدليات التي تنموها الحياة وتسمى لتطوير ذاتها من خلاله، المعنى هو هدف الخطابات الرصينة بأنواعها سياسية واجتماعية واقتصادية وفلسفية، والتأسيين للمعنى هو هدف الآداب والفنون بكل توجهاتها، ومن ثم فهو هدف الإنسان الطامح إلى بناء منظومات قيم وتشكيل جمالياتها بوعي يدرك أنّ تحقيقه لن يكون إلا من خلال دمج المعرفة بالجمال، ففضية بناء المعنى كانت المتركز الرئيس الذي حفز نظريات وفلسفات متعددة على اقتراح طرائق مختلفة لملاءمة الفجوات والفراغات في النصّ سبيلاً للوصول إلى استخلاص الدلالات حينما تغيب أو تحاط بالغموض والغلالات والإبهام، ولذلك وضع فلاسفة التداولية شروطاً في غاية الأهمية لاستنتاجه واستخلاص مراميّه، منها مبدأ التعاون بين المتخاطبين من أجل فهمه حتى وصلت بعض الشروط إلى المطالبة بالتحضر والتهديب في الحوار من

أجل إنجاح عملية التواصل واستمرارها وصولاً إليها للغاية المطلوبة. لكن تلك الشروط التي تناولت الاقتصاد والوضوح وتجنب الإسهاب واللجوء للمترادفات تعرضت للانتقاد من قبل مبدعي الأدب؛ لأنها قد لا تلائم كل المقامات التي يتم فيها التواصل، فالوضوح مثلاً قد لا ينسجم وفنون الأدب التي تحكفها طرائق معينة في التعبير والرميز والتشكيل، كما أن حرية الإبداع ترفض إملاء أي شرط من الشروط في تعبيرها عن التجربة الفنية؛ لأن هذه التجربة محكومة بذاتها وبما تُمليه عليها شروط اللحظة الإبداعية وحدها.

ومما يوجه للتداولية من نقد، نشوؤها عبر مجموعة من النظريات المنسجمة من حيث النظر إلى أهمية السياق الذي يتم فيه وعبره الحدث التواصلي، وتفاوتها تبايناً من حيث التوجهات وإريك جهازها المصطلحي وغموضه بل وإبهامه أحياناً باعتراف فلاسفتها الغربيين، كل ذلك جعل طروحاتها النظرية لا تتسم بالتمامك المطلوب ولا التلاؤم والانسجام كونها تشتغل في حقول متباينة تمتد من السهامة والقوانين إلى الأدب والنقد عبر حقول نفسية وحياتية ومعرفية عدة، وإها متهمة بإشاعة الفوضى بالدرس اللغوي والنقدي مما يؤكد حاجتها لاستكمال درسها وتفصيل مفرداتها، فضلاً عن افتقارها للمعيارية التي توغرت في المناهج الأخرى مغللين الهشاشة والتشويش الذي لحقها بكونها تتعامل مع نصوص متعددة الفضاءات وهذه النصوص تحركها محنة الإنسان في حياة تنسم بالقلق والأزمات مما يوجب عليها معالجة أزماتها في الانتقادات الموجهة لها، ولهذه الانتقادات سمتان: إيجابية وسلبية، الأولى داعية لمواصلة البحث والتطور والإضافات المستمرة مما يعمل على توسيع أفق مجالاتها وتركيز مصطلحاتها وفتح آفاقها ما دامت التطورات المعرفية قائمة وسريعة التحولات، والثانية تعمل على إرباك الدارس والمهتمين بهذا الحقل من خلال اللبس وعدم الوضوح وحاجة هذا الدرس لكثير من الانسجومات، فضلاً عن اختلاف الدارسين في مدى صلاحيتها لدراسة وتحليل الأجناس الأدبية لافتقادات مفردات جهازها المصطلحي إلى الانتظام مستثنين من ذلك فن المسرحية كونه قائماً على الحوار أو التخاطب حيث يدخل الحجاج محوراً مهماً فيها، وفي هذا باعتقادنا نوعاً من القصور في فهم الأدب والفنون كون الحوار كامناً في صميم كل نص منذ اشتعال الحضارة المعاصرة وانتقال الفنون بأزماتها من الغنائية إلى الدرامية، وما دامت النصوص لا تتحقق إلا حين تفتح على التلقي وتصير مشروعاً للحوار مع القارئ.

ولعل من المهم القول إن تفرعات التداولية وتشعب معاورها وحقول اشتغالها دعا بعضهم إلى مقترح إطلاق مصطلح (تداوليات) عليها وليس تداولية واحدة، لكن يمكن القول إنها بالرغم من كلي الإرباك والغموض والتشعبات واختلاف الرؤى في طرائق التعامل البحثي معها إلا أنها نجحت في بناء جهاز مصطلحي يتسم بالغمي والثراء، وأن هذا الجهاز أسهم وسيسهم في اجترار طرائق تحليلية لبني الخطابات المختلفة وفي حقول عدة منها، إذ تدخل فيها مباحث متعددة من العلوم التي أشرنا إليها، وفي اللغة تراسم فضاء عملها في النحوي والبلاغي والصوتي والنقدي وغيرها، وقد تطور الكثير من مصطلحاتها حتى تشكل من بعضها نظريات صار لها مجالات اشتغال واسعة، وقد طرح كتاب التداوليات الذي أعده وقدم له الدكتور حافظ إسماعيلي علوي في مبدان جهازها المصطلحي مئة وثمانية وخمسين مصطلحاً وإن كان الكثير مما ورد منها مشتركاً فيما بينها وبين المناهج الأخرى ولا سيما البنيوية والسمياء والتأويل. ولعل أهم هذه المصطلحات التي تحولت إلى نظريات هي أفعال الكلام (*Speech Acts*) والاستلزام التخاطبي (*Conversational Implicature*)، ونظرية السياق (*Theory Contextual*)، والحجاج (*Argumentation*) على سبيل المثال، مما ستوضح قضاياها في بحوث هذا الكتاب.

قام كتابنا على مقدمة وثلاثة فصول، كان الفصل الأول منها بعنوان (التداولية مرجعيات ورؤى) وتضمن خمسة بحوث، أولها بعنوان (التداولية، قراءة في النشأة والمفهوم) للدكتور مؤيد آل صويبت، تناول فيه تعديدات التداولية، التي انصبّت غالباً على معالجة العلاقة بين المتكلمين والسياق الذي يرد فيه المنقوطة، وقد نُجّصت التداولية في دراسة الآثار اللغوية التي تظهر من الخطاب، وينظر إلى التداولية على أنها مبحث لساني جديد، لكنّ البحث فيها يمكن أن يورغ له منذ عصر أقدم، كما عني البحث بنشأة التداولية ويتلمس خطوطها في الاتجاه التحليلي في (الفلسفة التحليلية)، وهو الاتجاه الرئيس في فلسفة اللغة، أو التهاز الغالب في الفلسفة المعاصرة الذي ركّز على موضوع اللغة، وحاول تقييز مهمة الفلسفة وموضوعها وممارستها. ومن المعاور الأخرى التي عولجت في هذا البحث: (مهام التداولية، والتداولية والعلوم الأخرى، ونظرية أفعال الكلام، والأقوال الوصفية والأقوال الإنجازية، وتصنيف الأفعال الكلامية من حيث الأفعال الصريحة والأفعال الضمنية).

وكان البحث الثاني بعنوان (التداولية وصلتها باللسانيات البنيوية والسميائية)،

للدكتور سامي شهاب أحمد، الذي أكد أن الألسنية واحدة من الدراسات التي سجلت حضوراً فاعلاً في ساحة المدونة النقدية؛ لما لها من تأثير مباشر في النص الإبداعي، فهي تتعامل مع النص بوصفه كينونة قابلة للمناورة نتيجة ما يقبع في جسدها من أصوات وتراكيب ودلالات، ولكنها مناورة لا تتخطى حدود النص مما يجعل إمكانية سقوطها في هوة المساءلة أمراً واقعاً، وعليه أخذ الحقل النقدي دوره في السؤال عن مكان الخلل والاضطراب الذي اغترى الدراسات الألسنية التي اهتمت بالنص على حساب المبدع والمنطقي، مما ولد في النهاية تياراً آخر للألسنية مهمته تخطي حاجز النص وإيجاد فرصة التواصل المعرفي، عن طريق الخروج إلى الواقع وقد مثل هذا التيار التداولية. تضمن البحث تمهيداً وثلاثة محاور، تناول التمهيدي الإشكالية المصطلحية التي نتجت عن الترجمات غير الدقيقة لمصطلح التداولية، وتناول المحور الأول: التداولية وصلتها باللسانيات البنوية، وفي المحور الثاني عالج البحث التداولية وصلتها بالسميائية، وخصّص المحور الثالث للتحديث عن الجهاز المصطلحي المفاهيمي للتداولية.

أما البحث الثالث فكان موسوماً بـ(النص والتواصل ملامح من تداولية الخطاب) للدكتور جبار سويس الذهبي، وقد حاول إلقاء الضوء على جملة من المفاهيم التداولية في الدرس اللساني المعاصر الذي اتخذ من النص والخطاب أداة لأليات التواصل اللغوي. متناولاً الآليات التي اعتمدت في ميدان الاتصالات الهاتفية من خلال عرض خطاطة شانون، ومن ثم عرض البحث آليات علماء اللغة في وصفهم لعملية التواصل، ومفهوم الخاصية النصية التي لا بد لأي قطعة من الكلام أن تتضمنها كي تكون نصاً، والتي تعتمد في جانب كبير منها على علاقات تداولية تتمثل في العلاقات الخارجية التي تحكم النص والتي يطلق عليها دي بوجراند (سياق الموقف) الذي يشمل المحيط الثقافي والاجتماعي والمعرفي والتاريخي. وأيضاً المعايير النصية. ومن ثم تناول مفهوم التداولية معتمداً مقارنة معرفية لأسس النظرية وآلياتها، رابطاً بينها وبين مجموع المفهومات التي قدمها البحث بوصفها سياقاً تواصلياً، تقوم أساساً على تفسير النص بوصفه فعلاً كلامياً، أو بوصفه سلسلة من أفعال كلامية، فضلاً عن التطورات التي طرأت على التداولية والإضافات عليها من خلال بيان أهمية العلاقة القائمة بين اللغة بوصفها رموزاً ودلالات، والعلاقات الخارجية (التداولية) التي تحكم النص اللغوي وتؤثر في الباطن والملفني والرسالة على حدٍ سواء.

بينما عالج البحث الرابع وعنوانه (الدلالات والتداوليات... علاقة وإشكاليات)

للدكتور خالد خليل العلاقات والإشكاليات التي تعبري مسيرة الدلالات والتداوليات والعلاقة بينهما، من حيث إن المشتغل بإستمولوجيا الفكر اللساني والتأريخ لاتجاهاته تمكن من أن يميّز بين تيارين لسانيين رئيسين هما: نيار بنيوي صوري، يقف في مقارنته اللغوية عند حدود بنية اللغات الطبيعية، ولا يكاد يتعداها. وهو ما نجده في اللسانيات البنيوية، بشقيها الأوروبي (ديسوسير) والأمريكي (بلومفيلد). وتياراً وظيفياً تواصلياً، يحاول وصف بنية اللغات الطبيعية، من خلال ربطها بما تؤدّيه اللغات من وظائف داخل المجتمعات البشرية، وتعدُّ المقاربة البنيوية اللغة بنية مجردة.

تخلّت اللسانيات البنيوية عن البحث فيما وراء الكينونة اللغوية بمفهومها الشكلي الذي يركّز على الشكل دون المادة، وراحت تُقصي الإنجاز اللغوي المتجسّد في الكلام، من خلال تركيزها على دراسة اللغة بذاتها ومن أجل ذاتها، فتحوّل الدرس اللساني مع البنيويين إلى علم صوري مغلّق ذي إجراءات داخلية خالصة، لا يأخذ بالحسبان عناصر التواصل اللغوي، مثل أحوال التخاطب والطبقات المقامية المختلفة التي يُنجزُ فيها الخطاب وربطها بما تؤدّيه اللغات من وظائف داخل المجتمعات البشرية.

وجاء البحث الخامس (النقد التداولي من الحدث اللغوي إلى التواصل التقني) للدكتور محمد سالم سعد الله مؤكداً أنّ الممارسات المعرفية المطروحة في معالجة المصطلحات النقدية ومناهجها تنسم أحياناً بغياب تحديد النمق النقدي على المستوى المعرفي، من حيث كونه متواليات معرفية متعايشة مع التسيج العلمي والبيئي المحدد ضمن رقعة إقليمية معينة، وعلى المستوى اللغوي بوصفه إمكانات دلالية تمنح التركيب معاني عدة، ولهذه الأخيرة ارتباطات منها: ثقافية واجتماعية وسياسية ونفسية.

ويحيط الدرس النقدي المتعلق بالتداولية تنظيراً وتطبيقاً - إشكاليات عدة تبدأ مع مرحلة ولادتها الفلسفية والأبعاد الدلالية الذرائعية، مروراً بعلاقتها مع مرحلة تطورها العلمية مع نظريات التواصل وتحليل الخطاب، وليس انتهاءً بالآليات المنهجية التي وُظفَتْها للاشتغال، ونظراً للصعوبة المعرفية التي تعبري مسيرة التداولية فقد تحولت عند البعض إلى أيقون تصطبغ به بحوثهم دون تحديد منهجي أو إجرائي لأبعادها العلمية والمنهجية؛ لذلك يسعى هذا البحث لبيان الكيفية التي تتم بوساطتها دراسة التداولية، وبيان إمكانية تحديد مسارها: من الفلسفة إلى الفلسفة، ومن الفلسفة إلى النقد، ثم من النقد إلى التقنية، وذلك من خلال ثلاثة محاور: (المسار الفلسفي،

المسار النقدي، المسار التقني).

تقدم هذه المسارات رؤية نقدية للتعامل مع التداولية وبيان مسيرتها الفلمصية والمنهجية، وتحديد أهم الآليات النقدية التي تمارسها في اشتغالها النصية، فضلاً عن التعريف بالتداولية التقنية التي تُعنى بدراسة الحوارات التفاعلية ومتابعة طرائق التواصل بين المتحاورين في الواقع التقني الافتراضي، كما تُعنى بتنسيق أنظمة المحادثة بين المستخدمين والحفاظ على سياق تطور الخطاب وتنميته وتفاعله. بينما كان البحث السادس موسوماً بـ(التداولية الأدبية، دراسة نقدية) للدكتور أحمد عدنان، الذي حاول إلقاء الضوء على مفهوم مصطلح التداولية الأدبية (Literary Pragmatics) الذي ينطلق من التصور القائل بأن البيئة اللغوية للنص الأدبي لا تتقيد دائماً بقيود النحاة، بل إن لها علاقة بالآثار المترتبة على النص وبما يؤديه، وأنها علاقة بكيفية إنتاج المتلقي له واستهلاكه، فهي تعني بالتواصل الأدبي والتعاون الفعال بين المؤلف والمتلقي، الذي هو نتيجة لوجود رسالة شخصية من المؤلف إليهم، ومن أجل أن يكون ذلك التواصل ناجحاً ينبغي أن يتبع مبادئ معينة أهمها: مبدأ التعاون ومبدأ الاستلزام ومبدأ العدول، كما أن لهذا التفاعل أساليب موجودة في النص الأدبي أهمها نطق الصوت أو النطقية، وتداخل النصوص، ويحاول هذا البحث في نهاية المطاف أن يقدم نقداً لعدد من أفكار هذا المفهوم، تشجيعاً لثقافة النقد وحصراً لثقافة الاتهار، كون المؤلف له السلطة الكاملة على نصه فهو الذي يصوغ نصه الأدبي وينظمه بطريقة مخصصة، وهو الذي أبدع تلك الصورة وأوجد ذلك الرمز ووظف ذلك التراث وأوجد تلك الشخصية في الرواية أو المسرح وصاغ ذلك الحوار وصور ذلك المكان ووصفه... إلخ، وهو الذي يأخذ هذا المعنى ويقتبس معنى آخر ويتناص مع نصوص أخرى، وهو الذي يصرح بمعنى الجملة هنا ويوضحه ليمتدح أي تأويل متوقع للقارئ، وبمضيه في جملة أخرى ليمتدح القارئ جزءاً من سلطته ليستمتع بمتعة التأويل والبحث عن الدلالة وليفعل آليته الذهنية التأويلية، وكلاهما مفيد كذلك بسلطة النص وقواعد اللغة التي يكتب بها أو التي يحلل بها النص الأدبي.

أما الفصل الثاني فكان عنوانه (التداولية، مفاهيم وأفاق) وتضمن خمسة بحوث الأول منها بعنوان (ثلاثية القارئ والنص والساق، مقارنة للشواذ النحوية تداولياً) للدكتور جودة مبروك محمد، إذ عمل على مقارنة الشواذ النحوية مقارنة تداولية منطلقاً من أن اللغة ظاهرة إنسانية، يتحقق وجودها بالفعل الكلامي، وهو العنصر

الملموس في عملية التواصل بين أفراد الجماعة اللغوية الواحدة، ومن الظواهر اللغوية ما هو شائع وما هو نادر الوجود، ويبدو أن الأخير في حالة صراع من أجل البقاء مع سابقه، وكان من حظ العربية أن وُجِدَتْ بها شواذ نحوية حفظها التاريخ، ولا يتوقف أمرها على النظام التركيبي، فهناك شواذ صرفية ودلالية وصوتية، ويتطرق البحث إلى دراسة ظاهرة الشذوذ النحوية على وفق معطيات حددتها التداولية اللسانية، ويكشف عن خصائصها التركيبية في ضوء ما اشتهرت به من صفة الشذوذ والإهمال، وهدف إلى دراسة الظاهرة في ضوء مَلَكَات المتلقي والنص والمسياق بقسميه الداخلي والخارجي، وقد انقسم البحث على ثلاثة أقسام: الأول عن خصائص القارئ، والثاني عن النص والثالث عن السياق.

وجاء البحث الثاني موسوماً بـ(الاستدلال على المغزى المقصود من الفعل الكلامي غير المباشر) للدكتور هشام إبراهيم عبد الله الخليفة محاولاً تأصيل (نظرية الفعل الكلامي) *Speech-Act Theory* التي ظهرت في العصر الحديث على يد اللغويين والفلاسفة الغرب وبيان سبق اللغويين العرب والمسلمين في تأسيسها، وقد ركز بشكل خاص على ظاهرة أفعال الكلام غير المباشرة *Indirect Speech Acts* التي اقترن اسمها بالفيلسوف ميرل *Searle*، الذي بدأ البحث بعرض مركز لنظريته في الفعل الكلامي غير المباشر: تعريفاً ومصداً ووجوداً وعلاقة بفرضية المغزى الحرفي والخطوات الاستدلالية التي يمكن للمستمع أن يتوصل بها، ثم تناول إسهام اللغويين العرب ولاسيما البلاغيين في الكشف عن هذه الظاهرة ابتداء من استعمال الجرجاني والسكاكي للاستدلال في الكشف عن المفازي والمقاصد الفعلية للكلام بصورة عامة ومروراً بتحليل ظاهرة المجاز المركب التي استعملها البلاغيون في تحليل الفعل الكلامي غير المباشر بالمصطلح المعاصر، وفي الختام تم التركيز على توسيع البلاغيين من شراح التلخيص لتحليل أفعال الكلام غير المباشرة ولاسيما كشفهم للخطوات الاستدلالية التي يستعملها المستمع للوصول إلى المغزى المقصود من الكلام والتي تكاد تكون مطابقة للخطوات التي وردت في طروحات (سيرل) بشأن الموضوع نفسه، كل ذلك من خلال أمثلة اقتبست من شراح التلخيص وبخاصة (ابن يعقوب المغربي) في كتابه (مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح).

أما البحث الثالث فكان بعنوان (الحجاج ونظريات التواصل) للدكتورة فاطمة وداؤد وتناول قضية الحجاج في الدرس البلاغي المعاصر الذي تبنى في حقلين مهمين:

الحقل اللساني، والحقل النغدي، وانفلت الحجاج ليصبح فرعاً من فروع نظرية التواصل، ومن هنا تناولت الباحثة العلاقة بين الحجاج ونظريات التواصل، وتوضح الارتباط الوثيق بين البلاغة وهذه النظريات والسيميانيات في مجال وصف الخصائص الإقناعية للنصوص وتقويمها إذ شكلت البلاغة والديالكتيك والمنطق مصادر الحجاج وأطره، فكان (فن الجدل- وتقنيات الاستدلال- وفن الخطاب) روافد للدراسات المعاصرة، حيث برز الحجاج وتواصل كميحت أساسي في البلاغة الحديثة اعتماداً على الأبعاد الاجتماعية لهذه البلاغة. إن الإشكال المطروح في البحث هو: ما العلاقة بين نظريات التواصل والحجاج؟ وكيف استلهم الحجاج بعض رؤاه من التفكير السيمياني والنظريات التواصلية؟ ما العلاقة بين البلاغة والحجاج، والتواصل؟ وقد حاولت المحاور هنا الكشف عن نظريات التواصل التي تعددت توجهاتها، ملقن الضوء على أهمية الحجاج في هذه النظريات، من خلال دراسة التأثير والتأثر عن طريق الفعل الكلامي أو الإنتاج الكلامي، فكل عبارة منطوقة تخدم غرضاً معيناً مما يجعل الكلام سلسلة من النشاطات التي يتم بها تصميم العبارة وتنفيذها.

وحاول البحث الرابع الموسوم (بين نظرية السياق ونظرية الاستلزام الحوارية، مقارنة تداولية) للدكتور هيثم محمد مصطفى الاشتغال على نظريتين من نظريات اللغة والعمل على كشف المقاربة بينهما تداولياً بالنظر إلى بنية المعنى فهما من حيث المستوى الأدائي والوظيفي في النص وما ينتج عن ذلك من تلاؤم مع الجو الخطابية ومقاصد أطرافه، هما (النظرية السياقية *Contextual Theory*) و (نظرية الاستلزام الحوارية *Conversational Implicature*)، والنظرية الأولى تعنى بالسياق التواصلية *Communicative Context* للألفاظ والعبارات بدراسة كل ما يحيط بالحدث اللغوي من ظواهر لغوية ك(المقام، والمتكلمين، ومقاصدهم، وحيثيات الاستعمال) وغيرها وأثر ذلك في استخلاص المعنى من النص أو الخطاب. في حين تعنى النظرية الثانية بالبحث عن معايير وضوابط (القدرة التواصلية *Communicative Competence*) وسيلة لاستقصاد المعنى في شكله التداولي المطلوب، ذلك أن أصل الخطاب حسب تفرضه هذه النظرية وجود قوانين حوار ومحادثة خاصة يلتزم بها المخاطب بالكيفية التي يتطلبها الغرض متسماً في ذلك بالوضوح والإبانة قدر المستطاع لتحقيق المقصود التخاطبي، غير أن المتكلم عادة ما يتجاوز إحدى محاور هذه المحادثة فيلجأ إلى خرقها ويتوسل لإدراك المعنى بغرض سياقي وأداء لغوي غير مباشر، أو مستلزم من مق

خطابي آخر يتقصده المتكلم قصداً، سعياً إلى خلق الدلالة المتضمنة من القول.

وتوجه البحث الخامس الموسوم بـ(مشكلة اللفظ والمنطق في تعلم اللغة والترجمة، رؤية دلالية تداولية) للدكتورة سوسن صالح سرية إلى دراسة بعض المشاكل التي يواجهها دارس ومدرس اللغة الأجنبية إضافة إلى المترجم والتي تتعلق بابتعاد اللغات في بعض الأمور عن المنطق مما يصعب عملية الفهم والتواصل بين المعلم والمتعلم، وبعض هذه المشاكل دلالية وبعضها تداولية وبعضها نحوية وبعضها صرفية بل وبعضها حسية، ولكن البحث لا يسعى لتصنيفها، كما لا يحاول البحث تفسيرها أو محاولة فهم هذه الظاهرة بل يكتفي بالإشارة إليها والتنبيه لوجودها لأن تفسيرها لا يخضع للمنطق، ويركز البحث على الاختلافات بين أربع لغات تسنى للباحثة دراستها أو تدريسها وهي العربية والإنكليزية والألمانية والصينية.

وقد طرح البحث أسئلة مثل: هل تخضع اللغة للمنطق؟ وهل تشترك الأمم المختلفة في منطق واحد؟ وعندما يتحدث الناس من أمم مختلفة عن الأشياء نفسها هل تتطابق الصور المنطقية التي تخلقها عقولهم وبالتالي يتحدثون عن الفكرة ذاتها بنفس الأسلوب والمنطق؟ وهل يرى الناس من أمم مختلفة الأشياء بالمتظار نفسه؟ وهل تستمع آذانهم للأصوات والموسيقى بالطريقة نفسها؟ وهل يمكن تطبيق بعض المفاهيم التداولية على كل اللغات بطريقة متكافئة؟

وبارتأى البحث السادس الموسوم (قصيدة النثر، مقولة تداولية في مشروع الجماعة المفسرة) للدكتور محمود خليف الحياثي أن تكون قراءته لمصطلح قصيدة النثر قراءة تداولية من خلال مشروع ستانلي فش والجماعات المفسرة، ولاسيما إن هذا المصطلح شهد أحداث إشكالية في الخطاب النقدي العربي بين الرفض والقبول، إذ إن كلا الطرفين المرشحين منهم والمشككين - قد انطلقوا من معايير تاريخية ونصية وأسلوبية حكيمهم النقدي على قصيدة النثر، فكانت قراءتنا التداولية قائمة على أساس وتطبيق مركزية خطاب المرشحين والمشككين بقصيدة النثر التي قادتنا إلى أن نتوجه باتجاه ثالثاً لقراءتنا لهذه القصيدة على أنها مقولة تداولية من إنتاج جمالي الجماعة المفسرة التي تعيد كتابتها حسب الظروف والسياقات المتغيرة، وبتطبيق التداولية في تحديد الجنس الأدبي (قصيدة النثر) بعيدة عن الثبات الخليلي باختلاف الثقافات والأزمان وطبيعة المؤسسة الأدبية والسياقات المتعلقة بمؤسسات الأخرى التي تشكلت بالطريقة نفسها، والتي سوف تكون

عرضة للتغيير المستمر، وإن انفتاح الأدب أو قصيدة النثر بوصفها مقولة تداولية تستوعب في المستقبل أي تجديد وانتهاك يتبلور على ضوئه جنس جديد مرتبط بصيرورة المجتمع وتداولية الجماعة المفسرة.

وجاء الفصل الثالث الموسوم (مسارات الرؤى في التطبيق) متضمناً خمسة بحوث أولها بعنوان (الفعل الكلامي النصي، قصيدة وتعطلت لغة الكلام لمُصدّي زكريا أنموذجاً) للأستاذ الدكتور عبد الحلیم بن عيسى مفيداً من نظرية أفعال الكلام في التحليل النصي إذ جرت في الدراسات المعاصرة تحولات كبيرة. انتقلت من الاهتمام بالجملة إلى ما هو أشمل وأعم: أي النص، وكان من نتائج ذلك أن استدعى الاهتمام به ضرورة الانفتاح على مكوناته وعدم البقاء في الإطار النسقي الذي انبنت عليه المناهج البنوية التي أقصت عمداً المعطيات الخارجية في الممارسة النصية، وقد تم ذلك في رحاب الدراسات التي دعا فيها روادها إلى الأخذ بعين الاعتبار ما تُعلمه معطيات العملية التواصلية في الكشف عن مكان السياق وفعاليته؛ وقد بين (أوستين *Austin*) وتلامذته أنه لا يمكن ضبط الفعل الإنجازي الذي يقوم عليه الفعل الكلامي من غير الأخذ بعين الاعتبار معطيات مسرح القول الذي يُنتج فيه، وهذا البحث يندرج ضمن هذه الرؤية التي تضبط طبيعة هذه النقلة، والأسباب التي أدت إليها، وتوضيح كل ذلك عمد إلى مدونة أدبية لتطبيق إجراءات هذا المنهج في النص الشعري. وانطلق فيها من إشكالية البحث عن طبيعة الفعل الكلامي النصي، والكشف عن التصور الذي يضبط ويحدّد كميّات تحديد قوته الإنجازية الكلية. ويحاول البحث الثاني الموسوم (الأبعاد التداولية عند الخطيب القزويني، التقديم والتأخير في كتاب الإيضاح نموذجاً) للدكتور هناء محمود شهاب إضاءة جانب من جوانب تراثنا البلاغي في ضوء مستجدات النظريات اللسانية المعاصرة، فتراثنا البلاغي - كما يرى الكثيرون - ما يزال في حاجة إلى أن يتم التعامل معه تعاملاً استكشافياً لا تعامل تركيبات بلاغية أو مهانٍ ثانية. إن فهم ما تركه القدماء وما فكروا فيه وكيف فكروا فيه ولماذا، بهدف استخلاص نظرية لغوية تعنى بالتركيب والدلالة منظوراً إليها من وجهة تداولية هو خدمة لتراثنا البلاغي وإظهار للقيم الإيجابية التي يمتلكها والتي ما تزال تغرينا بالبحث فيه دائماً، لذا وقف البحث عند مدونة بلاغية هي كتاب الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني (٧٣٩هـ) متخذاً من علم المعاني وتحديد أسلوب التقديم والتأخير فيه موضوعاً للدراسة، فضلاً عن نظره في التراكيب التحويلية التي عرضها القزويني

بأليات تداولية مبيناً أن مراعاة المقام والحوال في تلك المدونة لا يختلف عن السياق في مفهومه التداولي الحديث فضلاً عن الاهتمام بالمتلقي كونه الأساس في فهم المعنى وقصد الدلالة وهذا ما ألح عليه الفزويني في مبحث التقديم والتأخير، وتلك هي سمة اللسانيات التداولية الحديثة.

وهدف البحث الثالث (الحجاج في الخطاب الشعري العربي الحديث قصيدة لا تصالح لأمل دنقل نموذجاً) للدكتورة ورفاء يحيى المعاضيدي إلى مقارنة مصطلح الحجاج، وبيان علاقته بالتداولية، وكيف أفاد الحجاج من نظرية أفعال الكلام، عبر دراسة الأفعال الإنجازية، التي تؤسس لعملية التواصل عن طريق اللغة منطلقين من فكرة (أن كل شيء عند الإنسان تواصل) على رأي فيليب بلانشيه، والخطاب الشعري المدروس هنا هو قصيدة (لا تصالح) للشاعر أمل دنقل وحججه فيها يهدف إلى رفض الصلح مع العدو الصهيوني الذي اغتصب فلسطين وامتد اغتصابه لأراضي عربية أخرى، وهذه القصيدة تمثل هدف المؤلف في توصيل فكرة وقعت ضمن الأفق التداولي الذي يبني نفسه من خلال تواصل المتكلم مع المخاطب، بدواعٍ مقصودة عبر السياق العام للخطاب المدروس، الذي تميز بالتتابع المنطقي في المقدمة الأساسية الكبرى (لا تصالح) مروراً بعرض الموضوع بكل ملامحاته، من خلال الأسباب والمبررات منتهياً بالنتائج التي كُتبت بنيد التصالح السلمي، لأن المصالحة لا تتمتع بشرف القلب كون العدو مأكراً وغادراً.

وتناول بحث (إنجازية الشعر، مقارنة تداولية لنماذج من الشعر العباسي) للدكتور عبد الله بومر الراشدي الحديث عن مفهوم الفعل الكلامي (*Speech Acts*) بوصفه نواة مركزية في كثير من الأعمال التداولية، مشيراً إلى أهمية التمييز بين أمرين:

١- المنطوقات التقريرية التي تصف وقائع العالم الخارجي، وتكون صادقة أو كاذبة.

٢- المنطوقات الأدائية التي تُنجزها الأفعال؛ إذ أنكر أوستن أن تقتصر وظيفة اللغة على وصف وقائع العالم وصفاً يكون إما صادقاً وإما كاذباً، ورأى أن هناك نوعاً آخر من العبارات يشبه العبارات الوظيفية [الخبرية] في تركيبها لكنه لا يصف وقائع العالم، ولا يوصف بصدق ولا كذب، ويؤكد البحث أن جوهر نظرية أوستن يكمن في أن الأقوال قد تكون أحياناً أفعالاً، أو بعبارة أدق: (مؤدية إلى أفعال)، وأهميتها ترجع إلى إثبات أن تلك المنطوقات ليست خالية من المعنى، وإلى تحديد السمات المميزة لها.

كما تناول البحث التمييز بين جوانب الفعل الكلامي الثلاثي، من حيث التمييز بين المنطوقات الأدائية والمنطوقات التقريرية، فضلاً عن الحديث عن إنجازة الشعور وما يتعلق بالعلاقات والأقسام المندرجة فيه، وأن التداولية بإنجازتها تصلح لدراسة مرامي الشعر وتأكيد القيم التي تضمنها.

وتناول البحث الخامس موضوع (الاقتضاء التخاطبي، دراسة في آيات من سورة الأنعام (للباحثة نور وليد التداولية بتعاريفها وأبعادها الأخرى وكيفية تطبيق هذا المنهج في القرآن الكريم، واختار آيات من سورة الأنعام لدرستها من خلال الاقتضاء التخاطبي، وهو المغيب من الكلام الذي يمكن استنتاجه من خلال الخطاب والذي يلقي ضوءاً ليعين المخاطب على عملية الفهم، إذ إن قدرة اللغة العالية على الإيجاز والتكثيف هي التي منحت الألفاظ القدرة على تكثيف معانيها عندما تُضم إلى بعضها في سياق تواصل، فعولج ذلك في مبحثين الأول ((الاقتضاء الخاص)) الذي يعتمد السياق في فهم النصوص وإدراك مكنوناتها بوعي، وذلك لأهميته من جهة، ولأن المتكلم لا يمكنه قول كل شيء من جهة أخرى، وكيف اقتضى السياق ألفاظاً غير مذكورة استنتجها المتلقي، وتمت دراسته في قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام إذ يقود أسلوب الآيات إلى توحيد الله تعالى من خلال التفكير والتدبر في مخلوقاته. وأمّا المبحث الثاني فدرس ((الاقتضاء العام)) الذي يحصل من دون أن يوجد سياق حالي معين ويمكن استنتاجه من خلال ألفاظه المتمثلة في (كل وبعض) وما شابههما، ودرس التنوين على أنه عنصرٌ صوتي يقتضي معاني مهمة وكيف يمكن للكلمة الذكرة المتنونة أن تدل على التعريف.

وإذا كانت الإشارة لبعض عقبات العمل مهمة للفت نظر المسؤولين والمختصين نحو المعالجة، فإن من هذه العقبات إرباك الأجهزة المصطلحية في منشئها أولاً وبعد ترجمتها للعربية ثانياً، وافتقار ثقافتنا في الوطن العربي لمؤسسة نقدية معرفية عربية موحدة الهدف تخطط وتستشرف وتنظم وتوحد. وقيل كل ذلك تؤسس لمشروع نقابي نقدي ومؤسسة ترجمية عربية لا تنهر ولا تبيع، بل تتأني وتأمل وتبدع وتعمل على خلق جو علمي معرفي حر التفكير والتوجهات، وتحصر على فن اختيار كل ما هو ضروري من المترجمات لتلبية حاجة الباحث العربي وتعزيز مصادره وترصين درسه، ولكننا جميعاً ندرك أن الثقافة جزءٌ فاعل ومتفعل في صميم الحضارة التي تشتغل داخل فضائها، ومادامت حضارتنا العربية ما تزال في ظروفها العالية تابعة ومستهلكة - بكسر اللام

- فإن حضور ثقافة مستقلة برؤاها وبأجهزتها المصطلحية لن يكون قريباً، لأن المنطق العلمي يؤكد أن المصطلح ناتج حضاري، يشتغل طردياً مع تقدم الحضارات لأنها تحتاجه في بناء كياناتها المعرفية وبلورة مفاهيمها ووجودها وتفعيل رؤاها في المجالات كافة، لكن ذلك لا يعد مبعث تطير إذ من الممكن على الأمة الحية الجذور، الواعية بأسباب تأخرها عن الركب الحضاري، والمؤمنة بأدوار النهوض الحضاري أن تحوّل عوامل الإفقار في هذا الواقع إلى عوامل حراك وتحفيز على المشاورة، وشارة صبر على البحث من أجل الإمساك بما تحتاجه معارفها من جديد متطور للأخذ به والعمل على تنميته والإضافة إليه من أجل الرفعة بالإنسان هدفا ساميا لكل المعارف والفضون، وليس آخر العنقبات المعيقة قصور الدعم المادي والمعنوي الذي تحتاجه مثل هذه المشروعات المهمة والمؤسسات الطموحة الناهضة بها على كل المستويات سواء في مستلزمات الطباعة الحديثة وما تحتاجه من تطوير ومتابعات، أم في مجال تحفيز الباحثين والعاملين على الإنجاز كافة.

وتجدر الإشارة أخيراً إلى أن تسلسل البحوث في هذا الكتاب كان قائماً على مراعاة المرتبة العلمية للباحثين توجهاً علمياً، وأسوة بالدوريات الأكاديمية والكتب المحكمة.

وفي الختام لا بد لي من وقفة عدد واجب الشكر لكل من عمل على، أو ساعد في إنجاز هذا الكتاب، وأبدأ برئيس مجلس إدارة مؤسسة السياب للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة في لندن الدكتور علي المناع الذي كان لهواجيمه المعرفية في أكثر من جانب أثرهم في إثراء هذه العملية العلمية بدءاً من المقترح وعبوراً بالمتابعات وانتهاء بالإشراف على جوانب العمل كلها، أعانه على ذلك خبيراً في إصدار أكثر من سلسلة بالإنكليزية قبل هذه السلسلة العربية. وبهاء الشكر لمدير عام المؤسسة الفنان جواد المظفر، للمقدرة الفنية التي نسقت وصممت فحوّلت دغل الحروف لأفق من ضياء يزهر بجمالية الفن وألق الاتساق مصحوباً بخبرة منهجية وفحص دقيق، تجلّى كل ذلك في حواراتي الدائمة مع الطرفين من أجل الوصول بالعمل إلى أفضل المستويات، وللمشاهب أعضاء السكرتارية فضل المتابعة والإعلام والتصويب اللغوي، الدكتور عرفات فيصل والأسناد مراد حميد، ولطالبي وزميلي المشاهير، الدكتور محمد مسالم سعد الله جمال الحوار العلمي الدائم تحليلاً لوجهات نظر الباحثين كلما داهمني التعب من اصطدام الآراء وتقلبات الرؤى، والشكر لابنتنا المنجزة الأنسة سناء الكعبي على جهدها ومؤازرتها لمشاريع المؤسسة المعرفية بصبر ومواظبة.

وإذا كان شكر الباحثين الذين تجاوزوا معنا حقاً لهم وواجباً علينا، فقد أخرجنا من حقهم التقديم احتفاءً بختام المسك، فتحية تقدير لكل الأقسام التي أسهمت في الكتاب الأول من هذه السلسلة والتي اتسمت بالجرأة وهي تخوض في ميدان ما يزال قلبساً ومُلتبساً في معظم جوانبه، لأسباب ذكرت في المعوقات، فشكراً لهم، وتحية لجهدهم الذي أسهم في إنجاز هذا العمل البكر، على أمل أن نلتقي بهم في موضوعات جديدة على صفحات كتب أخرى من صفحات سلسلة (لأن) دراسات في اللغة والآداب والنقد، ومن الله سبحانه التوفيق كله، هو الأول والآخر، له الحمد والشكر أولاً وأخيراً.

بشرى البستاني

محررة الكتاب - ورئيسة التحرير

الفَصِيحُ الْأَوَّلُ

التداولية .. مرجعيات وروى

- | | |
|-----------------------|--|
| د. عزيد آل صويقت | التداولية .. قرارة في التثابة والافهور |
| د. سامي شهاب أحمد | التداولية وصلاتها باللسانيات الينوية والعيمانية |
| د. جبار صويقت النهي | النمى والتواصل .. ملامح من تداولية الخطاب |
| د. خالد خليل | الدلالات والتفويلات .. علاقة وإشكاليات |
| د. محمد سالم سعد الطه | النقد التداولي من العلى القوي إلى التواصل التقنى |
| د. احمد عدنان حمدي | التداولية الأدبية .. دراسة نقدية |

التداولية

قراءة في النشأة والمفهوم

د. مؤيد آل صوينت*



❖ مدخل

التداول لغةً: مصدر تداول، يقال: دال يدول دولاً: انتقل من حال إلى حال، وأدال الشيء: جعله منداولاً، وتداولت الأيدي الشيء: أخذته هذه مرة وتلك مرة^(١). التداولية اصطلاحاً: يسود الإبهام كثيراً من المصطلحات والمفاهيم المتاخمة للحقل التداولي، فالتداولية نفسها عبارة عن مجموعة من النظريات نشأت متفاوتة من حيث المنطلقات، ومتساوقة في النظر إلى اللغة بوصفها نشاطاً يمارس ضمن سياق متعدد الأبعاد، وعلى الرغم من عدم الوضوح الذي اكتنف التداولية، فإن مجمل الأفكار والملاحظات والتساؤلات- التي لم تتمكن المدارس اللسانية (ومنها البنيوية) من الإجابة عنها - قد وجدت سبيلها في هذا الاتجاه.

تعني لفظة *Pragma* في الإغريقية فعالية أو عملاً أو مسألة^(٢)، وتعني التداولية عند رائدها الأول (نشارلز موريس ١٩٣٨م): ((دراسة العلاقة بين العلامات ومفسريها))^(٣)، فهي تهتم بمنتهي اللغة لا باللغة فقط، ويعدّ هذا التعريف المؤسس الوعاء الذي انصببت فيه التحديدات اللاحقة التي ترى أن اللغة بوصفها نشاطاً كلامياً، تتحكم فيها مجموعة من الشروط الذاتية والموضوعية فأى ((تحليل تداولي يستلزم بالضرورة التحديد الضمني للسياق الذي تؤول فيه الجملة))^(٤).

* كلية الآداب - الجامعة المستنصرية

(١) يُنظَر: لسان العرب مادة: دول

(٢) يُنظَر: شظايا لسانية: ٥٩.

(٣) وصف اللغة العربية دلاليًا: ١١٧، ويُنظَر: تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية: ٨.

وشظايا لسانية: ٢٩.

(٤) تحليل الخطاب المسرحي: ٨.

ويتجاذب التداولية أكثر من تعريف، فقد حدثت على أنها: اتجاه في الدراسات اللسانية، يعنى بأثر التفاعل التخاطبي في موقف الخطاب، ويستتبع هذا التفاعل دراسة كل المعطيات اللغوية والخطابية المتعلقة بالتلفظ، ولاسيما المضامين والمدلولات التي يولدها الاستعمال في السياقات^(١)، وتشمل هذه المعطيات:

- معتقدات المتكلم ومقاصده، وشخصيته وتكوينه الثقافي ومن يشارك في الحدث اللغوي.
- الوقائع الخارجية، ومن بينها الظروف المكانية والزمانية والظواهر الاجتماعية المرتبطة باللغة.
- المعرفة المشتركة بين المتخاطبين، وأثر النص الكلامي فيها^(٢).

وقد تعددت تحديدات التداولية، وإن اتصبت كلها - كما أسلفنا - في معالجة العلاقة بين المتكلمين والسياق الذي يرد فيه الملفوظ، إلا أن اختلاف تصور السياق وإدراكه جعل تلك التحديدات تختلف. فمن الباحثين من يحددها بأنها ((أقوال تتحول إلى أفعال ذات صبغة اجتماعية بمجرد التلفظ بها))^(٣)، وهذا التحديد أقرب إلى الفعل الكلامي منه إلى التداولية كما سيأتي في مبحث (الأفعال الكلامية).

ومنهم من يلخص التداولية في دراسة الأثار اللغوية التي تظهر من الخطاب، وتنظر في عنصر الذاتية للخطاب، ويشمل هذا التداول ضمائر الشخص ومبهمات الزمان والمكان، وينظر في الجانب الضمني والتلميحي والحجاجي للكلام، والسياق يفرض على الباحث احترام مجموعة من قوانين الخطاب في أثناء مخاطبته الآخر^(٤).

وحددها بعض الباحثين بوصفها ((الدراسة التي تعنى باستعمال اللغة، وتهتم بقضية التلاوم بين التعابير الرمزية والسياقات المرجعية))^(٥)، ونلمح في هذا التحديد إعطاء المجال أهمية خاصة، وهو ما تحفل به التداولية كثيراً لكنه ليس المجال الوحيد الذي تتناوله بالدرس والمعالجة، ورُصد للتداولية تعريف آخر ((أنها تمثل دراسة تهتم باللغة في الخطاب، وتنظر في الوسميات الخاصة به))^(٦)، وينزع هذا التعريف إلى حصر مجال التداولية في الخطاب والابتعاد عن الدراسة التقليدية للجملة. في حين يعرض (فيرشورن) تعريفاً عريضاً بقوله ((تدرس التداولية كل شيء إنساني

(١) يُنظر: البراهمة وعلم التركيب: ١٢٥.

(٢) يُنظر: البحث اللساني والمسمياتي (بحث): ٣٠٦-٣٠٣.

(٣) تحليل الخطاب المسرحي: ٨.

(٤) يُنظر: شطايا لسانية: ٥٩.

(٥) النص والسياق: ٢٢٣.

(٦) التداولية واللسانيات www.droob.com.

في العملية التواصلية، سواء كان نفسياً أو بايولوجياً أو اجتماعياً^(١)، يضع (لنفسه) تعريفاً أضيق فيقول ((التداولية دراسة العلاقات بين اللغة والسياق كما هي مقعدة أو كما تعكسها بنية اللغة))^(٢).

ويعرف (فان دايك) الخطاب التداولي بأنه ((الخطاب الذي يهتم بالعلاقات المطردة الموجودة بين بنيات النص والسياق))^(٣).

وترى (فرانسواز أرامنكو) أن الشروط القبلية هي جوهر التداولية فتحدها بالقول: ((هي دراسة الشروط القبلية التواصلية كما هي، فلا يوجد لها طابع يرتبط بالظروف التجريبية، بل بشروط تواصلية عامة))^(٤).

ولا يتعد مفهوم (هلل) عن التعريف السابق فهو يرى أن التداولية هي ((دراسة الارتباط الضروري لعملية التواصل في اللغة الطبيعية بالتكلم والسماع بالمقام اللغوي وبالمقام غير اللغوي وارتباطها بوجود معرفة أساسية وبسرعة استحضار تلك المعرفة))^(٥).

ومن الباحثين من يعطي التداولية مفهوماً أكثر عمومية بالقول ((إن التداولية أحدث فروع العلوم اللغوية، وتعنى بتحليل عملية الكلام والكتابة ووصف وظائف الأقوال اللغوية وخصائصها خلال إجراءات التواصل بشكل عام))^(٦).

ويقدم (مسعود صبحراوي) تعريفاً إجرائياً للتداولية إذ يربطها بالتواصل على نحو يجعلها شديدي الالتصاق فهو يحددها ((هي إيجاد القوانين الكلية للاستعمال اللغوي، والتعرف على القدرات الإنسانية للتواصل اللغوي، وتصير (التداولية) من ثم جديدة بأن تسمى علم (الاستعمال اللغوي))^(٧).

وتعنى التداولية بالشروط والقواعد اللازمة للملاءمة بين أفعال القول ومقتضيات المواقف الخاصة به، أي العلاقة بين النص والسياق، ويلاحظ باستمرار تلك العلاقة الوثيقة بين التداولية والدلالة والنحو، إذ يجمع بينهما مستوى السياق المباشر، بما يجعل التداولية قاسماً مشتركاً بين أبنية الاتصال النحوية والدلالية والبلاغية^(٨)، ويأتي

(١) شطايا لسانية: ٥٩.

(٢) المرجع نفسه: ٥٩.

(٣) النص والسياق: ٢٧٥.

(٤) المقاربة التداولية: ٨٤.

(٥) السيمياء وفلسفة اللغة: ٤٥٥.

(٦) الخطاب القرآني: ٢٨، ويُنظر: بلاغة الخطاب وعلم النص: ٢٦.

(٧) التداولية عند العلماء العرب: ١٦-١٧.

(٨) يُنظر: علم لغة النص: ٢٣٨، وبلاغة الخطاب وعلم النص: ٢٦، واللسان والميزان: ٤١.

مفهوم التداولية هذا ليعطي بطريقة منهجية منظمة المساحة التي كان يشار إليها في البلاغة بعبارة (مقتضى الحال) التي خرجت من رحمها المقولة الشهيرة (لكل مقام مقال).

ولعل انصرافها إلى المقام جعل بعض الباحثين يرى فيها ((دراسة لهيمنة المقام على معنى العبارة))^(١)، أو هي ((العلم الذي يدرس تأثير المقام في معنى الأقوال))^(٢)، ويرى الباحث أن التداولية هي: دراسة الاستعمالات الفعلية لحظلة الكلام وما يتولد عنها من دلالات في المقامات الخطابية، في إطار التواصل ومقاصد الخطاب اللغوي. فالتداولية نتجاوز الوصف التركيبي للجملة ودرجة نحويتها، (وهذا مدار علم التركيب) أو علاقة المعجم المكوّن للقضية بالخارج، (وهذا مدار علم الدلالة) وتتخذ موضوعاً للبحث: القول منزلاً في المقام المعين، وتؤكد أثر المعارف غير اللغوية في تأويل الأقوال وفهم المقاصد، فثمة قضية جوهرية بالنسبة إلى التداولية تكمن في تحديد العلاقات بين هذين المقامين: الداخلي والخارجي للعبارة، وفي رؤية كيف أن المقام الثاني يتدخل في بناء المقام الأول والتفاعل بين الاثنين في تأويل الملفوظ وتفسيره.

◆ نشأة التداولية

ينظر إلى التداولية على أنها مبحث لسالي جديد، لكن البحث فيها يمكن أن يؤرخ له منذ القدم، إذ كانت تستعمل كلمة *Pragmaticus* اللاتينية، وكلمة *Pragmaticas* الإغريقية بمعنى (عملي) ويعود الاستعمال الحديث والمتداول على تأثير (البراغماتية)^(٣). وإذا حاولنا البحث عن الجذور الأولى (للتداولية) فيمكن تلمسها في الاتجاه التحليلي في الفلسفة (الفلسفة التحليلية)، وهو الاتجاه الرئيس في فلسفة اللغة، أو التيار الغالب في الفلسفة المعاصرة الذي ركّز على موضوع اللغة، وحاول تغيير مهمة الفلسفة وموضوعها وممارستها.

وقد تأثر بالتجديد الفلسفي الذي جاء به (فريجه) عدد من الفلاسفة منهم (هوسرل) و (كارناب) و (هيتهنشتاين) و (اوستن) و (سيرل)، وتجمع بين هؤلاء الفلاسفة مسألة عامة مشتركة، مفادها: أن فهم الإنسان لنفسه وعالمه يتركز في المقام الأول على اللغة، فهي التي تعبّر له عن هذا الفهم، وتلك رؤية مشتركة بين جميع تيارات الفلسفة التحليلية واتجاهاتها، ويمكن إجمال سمات الاتجاه التحليلي بما يأتي:

(١) القاموس الموسوعي: ٦٧٧.

(٢) التداولية اليوم: ٢٦٤، ويُنظر: التركيب الإعلامية: ٥٧.

(٣) يُنظر: التداولية واللسانيات.

١. ضرورة التخلي عن أسلوب البحث الفلسفي القديم ولاسيما جانبه الميتافيزيقي.
 ٢. تغيير بؤرة الاهتمام الفلسفي من موضوع (نظرية المعرفة) إلى (التحليل اللغوي).
 ٣. تجديد بعض المباحث اللغوية وتعميقها، لاسيما مبحث الدلالة، والظواهر اللغوية المتضرعة عنه^(١).
- ويتكون الاتجاه التحليلي من تيارات فرعية أهمها تيار اللغة الاعتيادية عند (مور ورسل وفتغنشتاين)، وتيار اللغة الاصطناعية الذي يدرس اللغة الشكلية أو الصورية، وهو الاتجاه الذي تمثله الوضعية المنطقية بزعامه (كارناب وأير)، وتقوم على التحليل المنطقي للجمل والقضايا اللغوية، وتيار أفعال اللغة بزعامه (سيرل واوستن) ضمن مدرسة أكسفورد^(٢).
- ولم يكن المنهج الوظيفي التداولي محط اشتغال هذه التيارات كلها، فقد اهتم منهج الوضعية المنطقية باللغات الصورية المصطنعة، ونهض منهج (دافبوس) بشروط الصدق، وبذلك خرجت من الاهتمام التداولي، فلم يبق ضمن الاهتمامات التداولية إلا تياران هما: التيار الفلسفي الاعتيادي، وتيار أفعال اللغة.
- ويرى بعض الباحثين أن بدايات التداولية - لاسيما نظرية أفعال اللغة - زامت نشأة العلوم المعرفية، فقد جرى التفكير في معالمها في سياق عقلية جديدة هي العقلية التي مكنت من ظهور العلوم المعرفية^(٣).
- ويمكن القول إن البداية الفعلية للتداولية تبلورت من أعمال فلاسفة اللغة، لاسيما مناقشات (جون اوستن *J. Austin* ١٩٥٠ م) في جامعة هارفارد، ويجب أن نذكر هنا أنه لم يفكر في تأسيس اختصاص فرعي للسانيات، وإنما توخى تأسيس اختصاص فلسفي جديد هو فلسفة اللغة، ووضع (أوستن) وتلميذه (سيرل) نواة التداولية، وطورا من وجهة نظر تحليلية مفهوم (الفعل اللغوي)^(٤).
- وفي العام ١٩٥٧ م نشر فيلمسوف آخر هو (بول غرايس) مقالاً في الدلالة كانت له أهمية تاريخية، وبعد مرور عشر سنوات ألقى (غرايس) (محاضرات وليام جيمس) هذه

(١) يُنظر: التداولية عند العلماء العرب: ٢٢، والفلسفة واللغة: ٢٠٦.

(٢) يُنظر: الفلسفة واللغة: ٢٠٢، واللسانيات الوظيفية: ٣٦.

(٣) يُنظر: التداولية اليوم: ٤٣.

(٤) يُنظر: الفلسفة واللغة: ١٠٤.

المحاضرات التي لم تسمح فقط بإحداث تقدم في مستوى معرفتنا باللغات الطبيعية، وإنما أحدثت تغييراً طال حتى هندسة اللسانيات، فاكتشاف الأبعاد التداولية للغة فتح آفاقاً أرحب وأنتج أسئلة جديدة ستكون مسوغاً للاعتراف بالتداولية بوصفها أحدث بحث أفرزته اللسانيات الحديثة، البحث الذي يولي الشروط الخارج-لغوية أهمية قصوى والمتعلقة بالمقام والمتكلمين ومقاصدهم، وحيثيات الاستعمال والأفعال اللغوية، أو بعبارة التوليديين أصبحت جزءاً من دراسة الإنجاز^(١).

ويرى (صلاح فضل) أن تيار تحليل الخطاب التداولي أخذ يفيد في الأونة الأخيرة من جملة المبادئ السيميولوجية، غير أن بدايته كانت تدين في الازدهار إلى اتجاهين كبيرين في تحليل الخطاب منذ عقد الستينيات أحدهما لغوي يبحث في علاقات النص على مستوى (ما فوق الجملة) الواحدة^(٢)، إذ بدأت تطفو فوق سطح الدرس اللساني مقولات تداولية جديدة مثل (البؤرة) و (الاقتضاء) و (الاستلزام الخطابي)^(٣).

وفي أواخر الستينيات تُبني مفهوم (كارناب) الذي ساوى بين التداولية والسيميائية الوصفية، وأدخل (كارناب) مفهوم السياق المتضمن هويات المشاركين في الحدث الكلامي والمحددات الزمانية والمكانية والمعتقدات ومقاصد المشاركين^(٤).

ويذهب بعض الباحثين إلى تاريخ أقرب للتداولية، إذ يؤرخ لها ببداية السبعينيات^(٥)، ولم أجد فيما اطلعت من نشاطه هذا الرأي.

وخلاصة القول إن الدرس التداولي نشأ في أجواء معرفية انكبت على اللغة دراسة وفهماً وتوضيحاً، وأسهمت اسهاماً واضحاً في فتح قضايا لدراسة ظواهر دلالية وتداولية كانت توهم بأنها مهملة أو مهمشة، إذ تم الانتقال من الإرث الموسيري وتأثيرات المدرسة البنيوية للغة في تهيئة الأجواء لبروز اللسانيات التداولية وما صاحبها وأنبثق عنها من اتجاهات لسانية وظيفية أعطت الدرس اللغوي روحاً جديدة لم يألفها من قبل بطريقة منهجية وعلمية.

(١) يُنظر: البحث التداولي عند سيبيويه (بحث). ٢٤٥-٢٤٦.

(٢) يُنظر: بلاغة الخطاب وعلم النص ١٠٥-١٠٦.

(٣) يُنظر: نماذج التحليل النحوي في القرن العشرين: ٢٧٠.

(٤) يُنظر: بلاغة الخطاب وعلم النص: ١٠٦.

(٥) يُنظر: شطايا لسانية: ٦١.

❖ مهام التداولية

لا يزال الجدل يمور مهام التداولية وإسهامها في اللسانيات المعاصرة، فالقواعد التداولية تحاول أن تبحث عن المشتركات الدالة لفحوى الخطاب والبيئات التي ترد فيه، وهذا يعني اجتراف درامية منظمة تسمى للكشف عن العلاقات بين متواليات الجمل والقضايا التي تحملها، وتتطاع للتعرف على الروافد الخارج - لغوية، وتسخيرها لفهم أكمل للخطاب المروم تلقيه ودرسه.

وتقف مجموعة من الأسباب للانشغال بالتداولية مؤخراً، بعضها تاريخي وبعضها غير ذلك، فقد بدأ الاهتمام بها بوصفها منهجاً يمثل ردة فعل على معالجات (جومسكي) للغة بوصفها أداة تجريدية أو قدرة ذهنية قابلة للانفصال عن استعمالاتها ومستعملها، فضلاً عن التوصل إلى اقتناع مفاده أن المعرفة المتقدمة بالنحو والصوت والدلالة لم تستطع التعامل مع ظواهر معينة ذات أهمية بالغة، ويمكن عدّ الإدراك المتزايد بوجود فجوة بين النظريات اللسانية من جهة ودراسة الاتصال اللغوي من جهة أخرى سبباً آخر للاهتمام بالتداولية.

ومن الأسباب الأخرى، توجه معظم التفسيرات اللسانية إلى سمة لغوية أخرى أو إلى جوانب معينة من داخل النظرية، وبظهور الحاجة إلى تفسير ذي مرجعية خارجية، ظهرت الوظيفية اتجاهاً ممهداً للتداولية.

وتسعى التداولية من طريق الأهداف المحددة لها إلى الإجابة عن تساؤلات من النمط الآتي: من يتكلم؟ من يقع عليه الكلام؟ ماذا تفعل حينما تتكلم؟ ما قيود الحديث؟ أين يكمن الغموض في الكلام؟ لماذا يكون التلميح أبلغ من التصريح...؟

وتكمن وظيفة التداولية في استخلاص العمليات التي تمكن الكلام من التجذر في إطاره الذي شكّل الثلاثية الآتية: المرسل، والمتلقي، والوضعية التبليغية، فالتحليل التداولي يستلزم بالضرورة التحديد الضمني للسباق الذي تؤول فيه الجملة^(١).

وتتلخص مهام التداولية في:

- دراسة (استعمال اللغة) التي لا تدرس (البنية اللغوية) نفسها، وإنما تروم دراسة اللغة في الطبقات المقامية المختلفة، أي بوصفها (كلاماً محدداً) صادراً عن (متكلم محدد) وموجهاً إلى (مخاطب محدد) بل (لفظ محدد) في

(١) يُنظر: النص والسباق (داهك): ٢٩، والعلامانية وعلم النص: ١٧٣، وتحليل الخطاب المسرحي: ٨.

- (مقام تواصل محدد) لتحقيق (غرض تواصل محدد).
- شرح كيفية جريان العمليات الاستدلالية في معالجة الملفوظات.
- بيان أسباب أفضلية التواصل غير المباشر، وغير الحرفي على التواصل الحرفي المباشر.
- توضيح أسباب فشل المعالجة اللسانية الينوية في دراسة الملفوظات.
- تجسير العلاقة بين الأنشطة الإنسانية الآتية: اللغة والتواصل والإدراك؟ - بيان القواسم المشتركة بين الفروع المشتغلة بهذه الأنشطة (أي علم اللغة وعلم التواصل وعلم النفس المعرفي)، ودراسة الوجوه الاستدلالية للتواصل الشفوي، فتقيم من ثم روابط وشيجة بين علمي اللغة والتواصل.
- العناية بالشروط اللازمة كي تكون الأقوال اللغوية مقبولة وناجحة وملائمة في الموقف التواصل^(١).
- دراسة كيفية ربط اشتراطات نجاح الملفوظ وأسس التفاعل الإلغوي بينية الخطاب وتفسيره.
- دراسة مكونات التخاطب (المخاطب، والمخاطب، والخطاب والمساق)، وتأثيرها في المقولات اللغوية من ناحية التفسير والتأويل^(٢).
- ويشير بعض الباحثين إلى أثر التداولية في تعيين المجال التجريبي القائم على القواعد المتواطأ عليها في اللغة، والبرهنة على نجاح العبارة بوصفها فعلاً إنجازياً، ومبادئ فعل مشترك لإنجاز التواصل مع بنية الخطاب^(٣).
- ويمكن القول بشكل عام إن الجانب التداولي يضم أثر الملقني، والموقف، وهدف النص، والمقام، ونوع المعلومة المطروحة، وأنواع التفاعل، وأشكال السياقات، وكيفية التواصل، وغير ذلك مما يختص بالعلاقة بين العلامات ومستعملي هذه العلامات.

٥. التداولية والعلوم الأخرى

تعد بنية النص معرفة معقدة ذات أبعاد أفقية وتدرج هرمي بها حاجة إلى الفسق المتكامل من علم النحو، وعلم الدلالة، والتداولية، وينبغي أن نذكر هنا، أن

(١) يُنظر: التداولية عند العلماء العرب: ٢٦-٢٧، و الخطاب القرآني: ٢٨.

(٢) يُنظر: وصف اللغة العربية دلاليًا: ١١٨.

(٣) يُنظر: النص والسياق: ٢٥٠، والصورة الشعرية: ٢٩.

تأويل الملفوظات يوافق نوعين من التصنيفات: الأول ترميزي ولغوي، والثاني استدلالي وتداولي. وفي ضوء هذا المنظور تعد التداولية بمنزلة شعبة لسانية مناظرة للشعب التقليدية: كعلم الأصوات الوظيفي، وعلم التركيب وعلم الدلالة.

وينبأ المستوى التداولي في النظريات الوظيفية موقفاً مركزياً، إذ يحدد والمستوى الدلالي الخصائص الممثل لها في المستوى التركيبي والصرفي. في حين أنه في النظريات غير الوظيفية - إذا وجد - لا يقوم إلى جانب المستوى الدلالي إلا بدور تأويلي^(١).

وتوليد الدلالة ووضع العلامات (أي التواصل في الواقع) يكمن في ثلاث علاقات بنية: العلاقة الدلالية: وهي علاقة العلامات بالأشياء، والعلاقة الإعرابية وهي العلاقة القائمة بين العلامات نفسها، والعلاقة التداولية وهي علاقة العلامات بالمخاطبين. لذا يصف موريس التداولية بأنها ((قسم من الدلالاتية يعنى بالصلة القائمة بين العلامات ومستعملها))^(٢).

ويقول بعض الباحثين لبيان الفرق بين التداولية والعلوم اللسانية الأخرى إن الأقوال في مقام التركيب يليني بعضها على مقتضى صورها، لكن الأقوال في مقام الدلالة ينني بعضها على بعض على مقتضى مضمونها، فتكون القيمتان اللتان تتحدد بهما الأقوال في هذه الطبقة الثانية هما: (صادق) و (كاذب). أما الأقوال في مقام (التداول) فينني بعضها على بعض أساساً على مقتضى استعمالها، فتكون القيمتان اللتان تتحدد بهما الأقوال في هذه الطبقة الثالثة هما (متفق عليه) و (مختلف فيه)، إذا صح هذا، صح معه أن الانبناء التركيبي غير الانبناء الدلالي وغير الانبناء التداولي^(٣).

ونشير هنا إلى أن مفسر الخطاب ينتقل بين هذه المستويات الثلاثة مستنداً إلى تصورات ومفاهيم وقيود اصطلاحية ومعرفية، وتتأزر هذه المستويات لتقديم تفسير يتسم بالتكامل والشمولية، فالتحليل يقوم بتحليل العلاقات بين العلامات في المستوى الأفقي، وتحلل الدلالة صلة العلامات بالمدلولات والواقع، وتعنى التداولية بتوصيل علامات العلامات، فهي تعتمد المنجز المقدم من المستويات السابقة لتنظر إلى علاقة الكل المنجز بالمتكلم وما يحيط به من أحوال، فمعاني المدونة اللفظية قد تتغير في أثناء تغير الوضعية الاجتماعية والنفسية للباحث (المتكلم).

ويشترك المحوران الدلالي والتداولي في أنهما مختصان بما يتجاوز الرمز اللغوي نفسه إلى أبعاد أخرى، غير أنهما بفتراق في أن الدلالة تدرس المعنى المجرد خارج إطار

(١) انظر: اللسانيات الوظيفية: ١٤.

(٢) وصف اللغة العربية دلالية: ٧٥. وعلم لغة النص: ١٢٨.

(٣) انظر: اللسان والميزان: ٤٣.

المقام، أما التداولية، فتهتم بما يرمي إليه المتكلم من معانٍ تتجاوز المعنى الدلالي للكلمات، بما يستدعي الإحاطة بالمقام والمرجعية الثقافية للمتكلم والمخاطب معاً^(١).
وينبغي ألا يغيب عن ذهننا أن التداولية والدلالة كلاهما معني بقضية المعنى،
وبوضوح (لغتس *Lech*) الفرق بينهما بالجملتين الآتيتين:

١. ماذا تعني (أ)؟

٢. ماذا تعني أنت ب(أ)؟

إن الفرق بينهما هو أن الدلالة تهتم بالمعنى *Meaning* في نفسه (الجملة رقم ١) في حين تستحضر التداولية لفهم المعنى عنصر المتكلم (*Speaker*) أو مستعمل اللغة (الجملة رقم ٢) مع ما يقصده من قصود^(٢).

ويُفرق (طه عبد الرحمن) بين الدلالة والتداول، فيصِف الدلالة بأنها مؤشر إلى معنى معين، في حين أن التداول يشتمل على ثلاثة عناصر، هي: عنصر ذاتي يتمثل في التعبير عن معتقدات المتكلم ومقاصده واهتماماته ورغباته، وعنصر موضوعي يتمثل في الوقائع الخارجية ومن ضمنها الظروف الزمانية والمكانية، وعنصر ذاتي وبدل على المعرفة المشتركة بين المتخاطبين^(٣).

وعلى الرغم من الكلام السابق لبيان الفرق بين الدلالة والتداولية، يمكن أن يوسم علم الدلالة بكونه أقرب الحقول إلى التداولية، يقول (كرستال) في معرض حديثه عنهما: ((يُدرس كلاهما تصميم المتكلم وتأثير التفوه في السامع والتضمينات الناجمة عن التعبير عن شيء ما بطريقة والمعرفة والعقائد والافتراضات المسبقة... عن العالم الذي يتحدث عنه المتكلم والسامع))^(٤).

ويقول (اوستمان) ((وحدة التحليل في علم الدلالة المعنى، أي معنى الكلمة والعبارة والتركيب الأوسع... ويمكن القول أن وحدة التحليل في التداولية وظيفية اللغة))^(٥).

ويقدم مجيد الماشطة فرقاً بين الحقلين بقوله: دعنا ننظر في هذا المثال: (هنالك حصان في الحديقة). فيقول: تهتم الدلالة بحقيقة أن الحصان (وهو الحيوان) موجود في الحديقة وليس في خارجها. أما التداولية فتهتم بالمعنى الإضافي الذي يضيفه المتكلم حينما يقول هذه الجملة ضمن سياق معين: ما الغرض الكامن في ذهن هذا المتكلم؟

(١) يُنظر: علم الدلالة السيميائية والبراغماتية: ١٥٧-١٦٣.

(٢) يُنظر: البعد التداولي عند سيبيويه: ٣٦٨.

(٣) يُنظر: البحث اللساني والسيميائي (بحث): ٢٩٩.

(٤) سظايا لسانية: ٦٣.

(٥) المرجع نفسه: ٦٣.

ربما يقصد المتكلم تحذير الأطفال من الخروج إلى الحديقة، ويقصد آخر أن نستعمل الحصان للذهاب إلى مكان ما، ويقترح ثالث أن نسرقه. تدرس الدلالة -إذن- المعنى الثابت المشترك لكل السياقات المحتملة، وتدرس التداولية الهالة التي تحيط بالمعنى الثابت والتي تتغير من سياق لأخر وهي بالتأكيد ليست أقل أهمية من الناحية العملية^(١).

وهناك من الباحثين من يرى عدم جدوى إقامة تلك الحدود بين العلمين، فكلا العلمين يتناول المعنى وهذا الأخير ذو صلة بالمقام، وإذا احتج بأن الدلالة محصورة في المعنى المجرد خارج إطار المقام والتداولية تختص بالمعنى المتصل بالمقام، فإن هذا التقسيم يخل عند تطبيقه، فكثير من التراكيب تتجرد من مضامينها الدلالية إن أغفل المقام، فالعرب تفهم معنى المثل (يداك أو كنا وفوك نفع)^(٢)، بالإشارة إلى المقام الذي انبثق منه المثل، وهي قصة الرجل الذي نفع زقاً وأراد بوساطته أن يعوم في البحر وهو لا يعرف السباحة فغرق، فكان أن قال رجل كان يرفبه هذا المثل، الذي صار يضرب في مواقف مشابهة... فليس من الممكن إذن أن يكون للجملية معنى دلالي بمعزل عن المقام. ويقال الأمر نفسه في هذا الضرب من القصص التي ذهبت مثلاً في الآداب واللغات كلها^(٣).

ويرى الباحث صعوبة الوصول إلى نظرية منسجمة ذات حدود واضحة بشكل قاطع لبيان التداخل بين التداولية والعلوم الأخرى، فالدرس التداولي درس ممتد على مساحات معرفية واسعة ومختلفة بما يجعله حقلاً يركز على مناطق متداخلة: علم الدلالة وعلم اللغة الاجتماعي والسياقات خارج - اللغوي، بيد أن الحدود غير قابلة للتحديد الدقيق حتى الآن، فالارتباط وثيق بين المحورين الدلالي والتداولي، وكلاهما يحتاج إلى المقام والسياق عند النظر فيه، غير أن المحور التداولي ((يوحي اهتمامه للعلاقة بين التراكيب اللغوية والمقام مباشرة. أما المحور الدلالي فيدرس أولاً الصلات بين الرموز اللغوية ومسمياتها، وهو بالإضافة إلى ذلك يلتفت إلى المقام، ولكنه لا يعنى بتفصيل القول فيه، تاركاً عبء ذلك على التداولية))^(٤).

وينبغي أن نذكر هنا أن التداولية حملت ندوب تطورها المتصل باللسانيات الخالصة، فأقردت مجالاً لدراسة الاعتماد المتبادل بين اللفظة والسياق الاجتماعي لم

(١) يُنظر: المرجع نفسه: ٦٤-٦٣.

(٢) يُنظر: مجمع الأمثال: ٢١٩/٣.

(٣) يُنظر: علم الدلالة السيميائية والبراغماتية: ١٥٧.

(٤) التراكيب الإعلامية: ٥٧.

يكن متوفراً قبل ظهور التداولية منهجاً للتحليل والفحص، لذا التداولية أقرب لأن تكون مستوى إضافياً في الدرس اللساني يملأ الفجوات التي تركتها المستويات الأخرى.

٢

نظرية أفعال الكلام

تقع نظرية الأفعال الكلامية في موقع متميز من المنهج التداولي في تصورات اللسانيين المعاصرين وتشكل جزءاً أساسياً من بنية النظرية بحسب العلماء المؤسسين للتداولية^(١).

وتعد هذه النظرية من بين أهم النظريات التي حاولت بحث العلاقة بين اللغة والاتصال، فقد مثلت مقولة (مالينوفسكي) ((إن اللغة أسلوب عمل وليست توثيق فكري))^(٢) الحجر الأساس للنظرية، فدلالة الملفوظات تتداخل بين التقرير والأداء، وترتبط مباشرة بالموقف الذي تقال فيه أو تنجز فيه، لذا نجد أن لاينز يقول: يجب علينا في تحليل الأفعال الكلامية أن نضع في بالنا أن الجمل نطق ضمن سياقات معينة، وأن جزءاً من معنى المنتطوق يستمد من السياق الذي ينتج فيه^(٣)، ويذكر مالينوفسكي أن اللغة ((وسيلة من وسائل الفعل وليست أداة للتأمل))^(٤).

يعود مصطلح (الأفعال الكلامية) إلى (بوهلر ١٩٣٤م)، وقصد به الاقتضاء الموافق للكلام، ومع ازدهار تحليل الملفوظ (كبنية للبحث) تبنوا رواد التداولية وعلى رأسهم (أوستن ١٩٦٢) فأكسبه المدلول الحالي^(٥).

والفكرة الأساسية عند (أوستن) هي أن دراسة المعنى يجب أن تبعد عن التراكيب الجوف مثل (الجلد الأبيض) بمعزل عن سياقاتها، لأن اللغة -عادة - تستعمل داخل سياق الكلام لتأدية الكثير من الوظائف، فحينما نتكلم فإننا نقدم اقتراحات، ونبلل وعوداً، ونوجه الدعوات، ونبيدي مطالب، ونذكر محظورات، وما إلى ذلك، فاللغة مؤسسة تتكفل بتحويل الأقوال التي تصدر بضمن معطيات ميساقية إلى أفعال ذات صيغة اجتماعية، حينما يقول القاضي (فُتحتُ الجلسة) يكون قد أنجز فعلاً اجتماعياً

(١) يُنظر: النص والسياق: ٢٥٥، والتداولية عند العلماء العرب: ٥.

(٢) علم الدلالة: ٢١٢.

(٣) يُنظر: اللغة والمعنى والسياق: ٢٠٠.

(٤) علم اللغة الاجتماعي: ١٢٢، والمدارس اللغوية التطوير والصراع: ٢٣٤، ودلالة السياق: ٢٢٣.

(٥) يُنظر: اللغة والدلالة: ٦٤.

هو فتح الجلسة، تقول (أوركينيوني): ((إن الكلام بدون شك هو تبادل للمعلومات ولكنه أيضاً تحقيق لأفعال مُسبَّرة وفق مجموعة من القواعد... من شأنها تغيير وضعيته المتلقي وتغيير منظومة معتقداته و/أو وضعه السلوكي، وينجز عن ذلك أن فهم قول معين يعني التعريف بمحتواه الإخباري وتوجيه التداول))^(٦٨).

إذا تتبعنا تقسيم (أوستن) للجمل والقضايا والعبارات، لا نجده يقول بالتقسيم التقليدي أي تقسيمها إلى خبرية وإنشائية، ومن ثم الاحتكام إلى معيار الصدق والكذب، وإنما ينطلق من موقف جديد هو أن كل الجمل والعبارات مهما كانت طبيعتها - قابلة - ومعدة للتواصل ومن ثم فإن الوحدة الأساسية للغة هي الأفعال الكلامية التي ((تم إنتاجها في الموقف الكلي الذي يجد المتخاطبون أنفسهم فيه))^(٦٩)، وإذا اعتدنا الأقوال أفعالاً، فإنها تعمل وتسمى لتحقيق شيء ما أو غرض ما، وعلى وفق هذا المنظور فإن القضية لا تتعلق بالصدق والكذب فقط، بل بالسياق والمناسبة أيضاً. يقول: ((إن صدق أو كذب حكم ما، لا يتعلق بدلالة الكلمات وحسب، بل بالمناسبات الدقيقة التي تم فيها))^(٧٠).

وقد ميز (أوستن) نوعين من الأقوال:

▪ النوع الأول: هي تلك الأقوال التي تصف حالاً معيناً لشيء أو شخص ويسمى (الأقوال التقريرية).

▪ النوع الثاني: فهي لا تصف ولا تخبر وغير خاضعة لمعيار التصويب، بل ميزتها الأساسية أن التلفظ بها يساوي تحقيق فعل في الواقع ويسمى (الأقوال الإنشائية) وسنعرض لها بشيء من التفصيل فيما يأتي من البحث.

وفي مسيرورة بحثه عن الفروقات الدقيقة بين هذه الجمل والملفوظات، اكتسب (أوستن) شهرته بوصفه أحد الأعمدة الأساسية للتداولية، لكن، ولجأزة نقاط الضعف عند أستاذه قام (سيرل) ((بدفع نظرية أفعال الكلام إلى أقصى حدودها البلاغية الممكنة من حيث أنه قسم الأفعال نفسها إلى أفعال مباشرة وأفعال غير مباشرة، وقام بتطوير بعدين أساسيين من أبعاد اللغة أمثلها أوستن في نظريته وهما: المقاصد والمواصفات، فمقاصد الأفعال اللغوية، ولكي تفهم، لا بد لها من توفير

٦٨. جليل الخطاب المسرحي: ١٧٥-١٧٦، وينظر: الفلسفة واللغة: ١٠٤، واللسانيات الوظيفية: ٦٨.

٦٩. هينما يكون الكلام هو الفعل: ٤١.

٧٠. المجمع نفسه: ٤١.

مواصفات يتفق حولها المتخاطبون))^(١).

❖ الأقوال الوصفية والأقوال الإنجازية:

ميز (أوستن) نوعين من الأقوال:

▪ **الأقوال الوصفية (المنطوق التفريري):** هي تلك الأقوال التي تصف حالاً معيناً لشيء أو شخص، وقد أسماها النحاة العرب بالأساليب الخبرية، وهي ((أن الكلام إن احتمل الصدق والكذب لنفسه، بحيث يصح أن يقال لقائله إنه صادق أو كاذب. إنه سمي كلاماً خبيراً، والمراد بالصادق ما طابقت نسبة الكلام فيه الواقع وبالكاذب ما لم تطابق نسبة الكلام فيه الواقع))^(٢)، ومن خصائصها أنها تصف حالة الأشياء في الكون التي تسبق التلفظ، بحيث لا يبرهن وجود هذه الحالة بالتلفظ^(٣).

▪ **الأقوال الإنجازية (المنطوق الأدائي)** وتقابل ما يسمى في العربية الإنشاء الإيقاعي، وهي لا تصف، ولا تخبر، ولا تمثل، وغير خاضعة لمعيار التصويب، ولكن ميزتها الأساسية أن التلفظ بها يساوي تحقيق فعل في الواقع، وهي أقوال توجد بوجود شروط وملايسات معينة يقترب التلفظ بها بتغيير حالة الأشياء في الكون، مثال ذلك:

١. أعلن الجلسة مفتوحة. ٢. أتحدك على صعود الجبل. ٣. أمرك بفتح الباب.
وينبغي أن تتوافر هذه الأقوال على مجموعة من الشروط، فقول القاضي: (أعلن الجلسة مفتوحة) ينتج منه فعل الافتتاح؛ وهو الوحيد الذي له الحق في ذلك، والمثال الثاني يمثل فعل التحدي، وللتحدي شروط، أهمها القدرة على القيام به.
أما المثال الثالث فيمثل الأمر، ولتحقيق الأمر لابد أن يكون هناك أمر ومأمور، ونسق تحليلي يسمح بتحقيق الأمر، هذه الشروط يسميها أصحاب الفلسفة التحليلية بـ(القواعد التأسيسية) التي سيأتي الحديث عنها لاحقاً.

إن أفعال الكلام حين إصدارها تنجز وضعيات جديدة، فقد أنجز التلفظ بالمثال الأول افتتاح الجلسة بعدما كانت مرفوعة، ومن ثم، فإن الحقيقة الوحيدة التي

(١) فلسفة التواصل: ١٢، ويُنظر: نظرية الأفعال الكلامية، والموسوعة الفلسفية: ١٢٣.

(٢) الأساليب الإنشائية: ١٣.

(٣) يُنظر: التداولية اليوم: ٢٢٢.

تستند إليها الأفعال الكلامية هي الإنجاز^(١). ومن أمثلة الأفعال الكلامية في العربية بعض صيغ العقود مثل (بعثك) و (أنت حر).

هيمنت فكرة الأدائية على ذهن (اوستن) حتى أصبح لا ينظر بحدّة إلى هذين القسمين بوصفهما متميزين، بل حاول النظر إلى الجمل أو المنطوقات بمعيّار الأدائية التي تحققها هذه المنطوقات بالفعل. ولذا إن جملة مثل (في الحقل ثور)، قد تكون تحذيراً وقد لا تكون، فإذا كانت تحذيراً تصبح جملة (أدائية)، وقد تكون خبرية فقط تبعاً للظروف المحيطة بالملفوظ^(٢).

والفعل الإنشائي يتميز بكون مرجعيته ودلالته تظهران في الفعل الذي يشكل نأديته، حينما يأتي على صيغة المتكلم المفرد في الزمن الحاضر، فقولنا (أعدك) لا يعني أنني قمت بالوعد فقط، ولكنني حققت فعلاً موافع الوعد، إن قولنا لأحدهم (تهنتك) يجعلنا نقوم بفعل التهنتة، ولكن حينما نقول (أشتمك) فإن الكلام هنا ليس إنشائياً. إن هذا الكلام نعود مرجعيته إلى فعل الشتم، ولكنه لا يساعد على تحقيق هذا الفعل.

الغرض من الكلام المزبور بيان تميز الفعل الكلامي من الإنشائي من جهة البنية اللغوية، وبما أن الفعل الإنشائي يتحقق بصيغة المفرد والمتكلم في الزمن الحاضر، فإن الفعل الكلامي لا يشترط ذلك، إذ بإمكانه أن يتحقق بكلمة مثل (شكراً) للدلالة على الشكر.

ويرى بعض الباحثين أن علامة الفعل الكلامي، غالباً، هي صيغة الأمر، والأمر قد يتحقق بوسائل أخرى غير لغوية مثل الإشارة والحركة^(٣). ويبدو لي أن هذا الكلام غير دقيق، فماهية الفعل الكلامي هي الإنجاز الذي يتحقق من طريق الملفوظ. لذا أسمى اوستن كتابه (كيف ننجز الأشياء بالكلام) فهو مرتبط بالكلام والنطق، أما الأفعال التي تتحقق من طريق الإشارة فهي غير داخلية في حقل الأفعال الكلامية وإنما تدخل في مجال السيمياء.

➤ أنواع الأفعال الكلامية

ميز الباحثون في المنهج التداولي ثلاثة أنواع من الأعمال اللغوية:

(١) يُنظر: تحليل الخطاب المسرحي: ١٥٧، والمقاربة التداولية: ٦١، وعلم الدلالة (بالمر): ٢٤٥.

(٢) يُنظر: دلالة السياق: ٢٢٥.

(٣) يُنظر: تحليل الخطاب المسرحي: ١٦٣.

- أ- العمل القولي (الفعل التعبيري) ويقصد به الأصوات التي يخرجها المتكلم، أي جملة الأفعال الصوتية والصرفية والتركيبية والدلالية.
- ب- العمل المتضمن في القول (الفعل الغرضي) ويراد به أن المتكلم حين يلفظ بقول ما فهو يتجزئ معنى قصدياً أو تأثيراً مقصوداً، وهو ما أسماه (اوستن) قول الفعل وقد اشترط لتحقيق هذا المعنى الإنجازي ضرورة توفر السياق المعرفي الاجتماعي كالوعد على سبيل المثال.
- ج- عمل التأثير بالقول (الفعل التأثيري): ويعني أن الكلمات التي ينتجها المتكلم في بنية نحوية منتظمة محملة بمقاصد معينة في سياق محدد تعمل على تبليغ رسالة وتحدث أثراً عند المتلقي أو المستمع. ويتمثل بما يحققه القائل بقوله من نتائج وما يتجزئ عنه من تبعات، كإزعاج المخاطب وتخوفه وإقناعه أو حمله على سلوك معين أو صرفه عنه^(١).
- وبالقراءة الفاحصة للتقسيم السابق نجد أن (اوستن) يرجع أفعال الكلام إلى (فعل الكلام) و(قوة فعل الكلام) و(لازم فعل الكلام)^(٢)، ويمكن بيان هذا بتحليل المفهوم الآتي: (إن لم تتعلم فسأهجرك) ففعل الكلام إنما هو التلفظ بهذه الجملة في حدّ نفسه، أما الفعل الإنشائي فيتمثل في التهديد أو التحذير، في حين أن الفعل التأثيري يتعلق في هذه الحال، بامتثارة الخوف أو العدوانية أو التصميم على التعلم. ويشترط علماء التداولية في تحقيق (الفعل الغرضي) عامل القصد، والمقصود بذلك، أن الفعل الإنشائي الذي يصدر عن شخص يرفض في قرارة نفسه دلالته، يعدّ فعلاً غير متحقق، فإذا قال شخص معزباً شخصاً آخر: إنا لله وإنا إليه راجعون، وهو لا يشعر بأي أسف نحو ذلك الشخص، فلا نقول إن فعل التعزية قد تحقق لأن المتكلم قد يقصد أشياء أخرى وراء تلفظه بصيغة التعزية^(٣).
- وقدم (سبرل) تلميذ (اوستن) محاولة لتطوير هذا التقسيم الثلاثي، ودمج الفعلين (التعبيري والغرضي) في نوع واحد أطلق عليه (الفعل التلفظي)، وقصد به النطق بكلمات على نحو معين، ومسمى القسم الثالث (الفعل التأثيري) تسمية أخرى هي الفعل

(١) يُنظر: الفلسفة واللغة: ١٠٧-١٠٨، والتداولية اليوم: ٢٦٢، ومدخل إلى علم النص: ٢٢، ونحو نظرية أسلوبية لسانية: ص ٢١٥.

(٢) يُنظر: نظرية أفعال الكلام العامة: ٧.

(٣) يُنظر: تحليل الخطاب المسرحي: ١٥٨.

القضوي^(١)

وعرض الباحث المغربي (طه عبد الرحمن) أنواع الأفعال الكلامية على النحو الآتي:

- **الفعل الكلامي:** وهو فعل التلطف بصيغة ذات صوت محدد وتركيب محدد وتركيب مخصوص ودلالة معينة.
- **الفعل التكلمي:** وهو الفعل التواصل الذي تؤديه هذه الصيغة التعبيرية في سياق معين.
- **الفعل التكليمي:** وهو أثر الفعل التكلمي في المستمع^(٢).

وقدم الباحث العراقي هشام عبد الله الخليفة مصطلحات أخرى للمفاهيم السابقة

وهي:

- فعل القول. - الفعل الكلامي. - الأثر البواسطة- كلامي.

وهذا التقسيم - كما هو واضح - تقسيم مصنوع لفرض التحليل، فهذه الأفعال غالباً ما تحصل جميعها في أن واحد عند النطق بالمقولة ولا يختار المنكلم فعلاً دون آخر^(٣).

❖ تصنيف الأفعال الكلامية:

قدم باحثو الحقل التداولي تصنيفاً للأفعال الكلامية، وهذا التصنيف يعتمد على الاختلافات المقترنة بأفعال الكلام:

أ- فهي قد تختلف بحسب علاقتها بالعالم الخارجي (أو ما يسميه اللغويون العرب: الخارج)، يقول (سيرل) إن جزءاً من أهداف بعض الأفعال الكلامية ينصب على محاولة مطابقة الكلمات أو محتواها الخبري للعالم الخارجي، أما البعض الآخر فيحاول مطابقة العالم الخارجي للكلمات، تقع المقولات الإخبارية التقريرية ضمن النوع الأول، في حين تعدّ المقولات الطلبية ضمن النوع الثاني (وهذا الكلام يكاد يطابق كلام اللغويين والبلاغيين العرب نصاً).

ب- وهي تختلف بحسب الوضع النفسي الذي تعبّر عنه، وهنا يستعمل

(١) يُنظر: دلالة السياق: ٢٢٠، ومدخل إل علم النص: ٢٦.

(٢) يُنظر: اللسان والميزان: ٢٦٠.

(٣) يُنظر: نظرية الفعل الكلامي: ٨٠.

التداوليون ثلاثة أفعال تبنى عليها الأفعال الأخرى، والأساميات هي (يعتقد) و (يريد) و (ينوي) على افتراض أن الإخبار أو التفسير يتضمن الاعتقاد بالقضية، في حين يتضمن فعل الأمر الرغبة في القضية.

ج- وهي قد تختلف بحسب الغرض أو القصد من الفعل الكلامي، وهذا أهم المعايير الثلاثة^(١).

وفي ضوء هذه المعايير صنفنا الأفعال الكلامية على النحو الآتي:

١. التقريرات (التوضيحات). يتعهد المتكلم فيها أن محتوى التفوه حقيقي. وأن كلماته تطابق العالم الخارجي. مثل التفوه الذي يبدأ بـ أنا أؤكد، اعتقد، استنتج، افترض.
٢. التوجيهات: يحاول الباث دفع السامع إلى فعل شيء ما لفظي أو غير لفظي. مثل: يسأل، يتحدى، يصرخ، يسمع... الخ، وخلافاً للتمثيلات تحاول التوجيهات أن تجعل العالم يطابق الكلمات: يقوم السمع بعمل ذي نتيجة إيجابية للمتكلم، فتأتي النصيحة بعمل لصالح السامع، أما السماح فيعني أن المتكلم لن يعترض على ما سيقوم به السامع من عمل لمصلحته وقد يكون على حساب المتكلم، وهذه المجموعة تحوي أفعالاً صريحة (يأمر، يطلب) وتشمل أفعالاً خفية مثل (يتحدى).
٣. التعهدات (الالتزاميات) يلزم المتكلم نفسه بعمل ما، مثل أضمن، اتعهد، أعد، أقسم، ويكون الاتجاد بمطابقة العالم للكلمات، كما هي الحال في التوجيهات، لكن في هذا الصنف، المتكلم نفسه هو الذي يتعهد بالقيام والعمل. ومن ثم يكون للقصد أو النية شأو في هذا الصنف.
٤. التعبيرات (المعبريات) وهي أقل وضوحاً من الأصناف الأخرى، إذ لا توجد هنا علاقة متحركة بين الكلمات والعالم الخارجي. ومفردى هذا الصنف من المقولات هو التعبير عن حالة نفسية يحددها شرط صدق النية المتعلق بموقف يحدده المحتوى الخبري، مثال ذلك الأمثال (يشكر)، (يعتذر)، (يرثي).
٥. الحكميات (الاعلانيات) وهي أفعال يتغير العالم بعد النطق بها، وتتضمن أغلب الأفعال الشعائرية، ومن أمثلتها: استقبل، أنت مفصول، وهي تتطلب مؤسسات غير لغوية تحدّد قواعد استعمالها، مثل المحكمة أو

(١) يُنظر: نظرية الفعل الكلامي: ١٢٤. والنحلل اللغوي للنص: ١٣٣. واللسانيات الوظيفية: ٢٦.

لجنة، وبعد الصنف الأخير مفتاح التداولين أو مدخلهم لاكتشاف نظرية
أفعال الكلام^(١).

ويشير الباحثون إلى تداخل هذه التصنيفات، إذ يتدخل السياق أحياناً ليجعل من
فعل الحكم فعل ممارسة أو بالعكس. وهكذا في جميع المجموعات، كما أن هذا
التقسيم لم يحظ بإجماع الباحثين في الحقل التداولي، فالأفعال الكلامية أفعال كثيرة
يستحيل حصرها في مجموعات تصنيفية محددة.

❖ الأفعال الصريحة والأفعال الضمنية:

لاحظ التداوليون أن التأويل الكافي لجمل اللغات الطبيعية يصبح متعذراً إذا
اكتفينا بما تحتويه الصيغة من معلومات، وأبرز مثال على ذلك المثال المشهور (هل
يمكنك أن تناولي الملح؟). وظاهر العبارة الاستفهام، ولكن دلالتها لا تشير البتة إلى
الاستفهام، وإنما تشير إلى الطلب^(٢).

انطلاقاً من هذه الإشكالية، تطرح على أنفسنا السؤال الآتي: كيف للمتكلم أن
يقول شيئاً يصوغه في عبارة خاصة وهو يقصد شيئاً آخر؟ ولكي نكون أكثر دقة، نقول
انطلاقاً من المثال السابق: هل بإمكانك أن تناولي الملح؟ لِمَ الانتقال من الاستفهام إلى
الانتماس بالضيطة دون غيره من الأفعال الكلامية الأخرى؟ رصد التداوليون أن مثل
هذه الأساليب أضحت أعرافاً في لغات متعددة، وحاولوا تفسير ذلك انطلاقاً من
دراسة أفعال الكلام والمعلومات المشتركة بين المتكلم والمستمع وقدرة المتلقي على
القيام باستنتاجات.

ميز التداوليون ثلاثة أنواع من الملفوظات، المعنى الحقيقي، والاستعارة، وفعل
الكلام غير المباشر، وخلصوا إلى نتيجة مفادها أن المعنى الحقيقي ينتصب وجوده بين
الملفوظ والمعنى الذي يقصده المتكلم ويفهمه السامع، وهو ما يتحقق ضمن سمات
سياقه محددة. أما الاستعارة فعلى العكس من ذلك، فهي تجبر المتلقي على الانتقال
من المعنى الحقيقي إلى المعنى الذي يسند للمتكلم إلى قوله، مثال ذلك قولنا (لباس
الجوع)، أما الفعل الكلامي غير المباشر فهو فعل إنشائي ثانوي، فقولنا (إنك تدوس
قدمي) هو فعل ثانوي للمطلب من شخص الكف عن دوس القدم، أو فعل أولي لتأكيد
دوس القدم^(٣).

(١) يُنظر: التحليل اللغوي للنص: ١٣٣، ودلالة السياق: ٢١٣، ونظرية الأفعال الكلامية (بحث): ١٢٣٥-

١٢٣٦، ونظرية الفعل الكلامي: ١٢٤-١٢٦، وتحليل الخطاب المسرحي: ١٦٠.

(٢) يُنظر: تحليل الخطاب المسرحي: ١٦٤، وعلم الدلالة (بالمر): ٢٤٥.

(٣) يُنظر: تحليل الخطاب المسرحي: ١٠٦.

ونقول هنا: إن القائل ((مضى أراد بالضبط ومصطفة حرفية ما قاله كان العمل اللغوي المتحقق مباشراً))^(١). و((إذا أراد خلاف ما يفهم من ظاهر اللفظ وبلغ أكثر مما قال وسمع كان العمل اللغوي المتحقق غير مباشراً))^(٢). وفي مثال (الملح) أراد القائل الالتماس وتوسل بالاستفهام لتحقيق مقصده، وعند (سيرل):

▪ الالتماس: عمل أولي (مقصود/ دلالة غير حرفية).

▪ الاستفهام: عمل ثانوي (غير مقصود/ دلالة حرفية).

وتبعاً لذلك، فإن العمل اللغوي غير المباشر يتمثل في أن القائل يحقق عملاً أولاً متضمناً في القول بوساطة عمل ثانوي متضمن في القول. وهو يقصد ذلك والمخاطب يعلم ذلك.

ولاحظ التداوليون أن للمقام أثراً في التفرقة بين المعنى الحرفي والمعنى القضوي، لتأمل المثال الآتي: يكتب الأستاذ (أ) للأستاذ (ب) مقماتلاً عن استعداد الطالب (ج) لمتابعة دراسته الجامعية في قسم الفلسفة، فيجيب الأستاذ (ب) أن الطالب (ج) لاعب كرة ممتاز.

إذا تفحصنا الجمولة الدلالية للجملة وجدنا أنها تدل على معنيين في الوقت نفسه: معناها الحرفي بأن (الطالب ج) من لاعبي الكرة الممتازين، ومعنى صديق مقامياً (أن الطالب ج) ليس له أي استعداد لمتابعة دراسته الجامعية في قسم الفلسفة)^(٣).

إن الفكرة الأساسية التي تطرحها الأفعال الكلامية غير المباشرة هي معرفة كيف يمكن للباحث أن يقول شيئاً ويعني ذلك، وهو في الوقت نفسه يريد أن يقول شيئاً آخر، ومن ثم، معرفة إمكانية المخاطب في فهم الفعل الكلامي غير المباشر، لذا يأخذ (سيرل) بالفرضية الآتية في الأفعال الكلامية غير المباشرة: ((يستطيع المتكلم أن يبلغ المخاطب أكثر مما يقوله بالفعل استناداً إلى مقدرات المخاطب والاستدلالية))^(٤) وبوجه أدق، فالنموذج التفسيري لما هو غير مباشر من الأفعال الكلامية يتضمن نظرية الأفعال الكلامية، وبعض المبادئ للمشاركة في الحديث، على غرار تلك المبادئ التي وضعها (غرايسر) وخلفية مسبقة من المعلومات المشتركة بين المتكلم والمتلقي، كما أنه يفترض قدرة المخاطب على إقامة الاستدلالات.

(١) التداولية اليوم: ٢٦٨.

(٢) المرجع نفسه: ٢٦٨.

(٣) يُنظر: اللسانيات الوظيفية: ٢٢.

(٤) نظرية الأفعال الكلامية (بحث): ١٣٤٠، ويُنظر: المقاربة التداولية: ٧١-٧٢.

المصادر والمراجع

- الأساليب الإنشائية في النحو العربي، عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط ٣، ١٩٨١
- بلاغة الخطاب وعلم النص، د. صلاح فضل، عالم المعرفة، الكويت، ط ١، ١٤١٣ هـ، ١٩٩٢ م.
- تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية، عمر بلخير، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط ١، ٢٠٠٣ م.
- التداولية اليوم - علم جديد في التواصل، أن رويول، وياك موشلار، ترجمة: د. سيف الدين دغفوس، د. محمد الشيباني، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط ١، ٢٠٠٣ م.
- التداولية عند العلماء العرب - دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، د. مسعود صحراوي - دار الطليعة - بيروت، ط ١، ٢٠٠٥ م.
- التراكيب الإعلامية في اللغة العربية، د. حنان إسماعيل عمايره، دار وائل للنشر، عمان، ط ١، ٢٠٠٦ م.
- الخطاب القرآني - دراسة في العلاقة بين النص والسياق، د. خلود العموش - عالم الكتب الحديث، الأردن، ط ١، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م.
- دلالة السياق، د. ردة الله بن ردة بن ضيف الله الطلعي، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ط ١، ١٤٢٤ هـ.
- شظايا لسانية، د. مجيد الماشطة، مطبعة السلام، البصرة، ط ١، ٢٠٠٧.
- الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي والتفصي، محمد الوالي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط ١، ١٩٩٠ م.
- العلاماتية وعلم النص، إعداد وترجمة: منذر عياشي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط ١، ٢٠٠٤ م.
- علم الدلالة السيميائية والجراماتية في اللغة العربية، شاهر الحسن، دار الفكر، عمان، ٢٠٠١ م.
- علم اللغة الاجتماعي، هديسون، ترجمة د. محمود عباد، عالم الكتب، القاهرة، ط ١، ١٩٩٠ م.
- فلسفة التواصل، عمر مهيب، منشورات الاختلاف، بيروت، ط ١، ٢٠٠٥ م.
- الفلسفة واللغة - نقد المنعطف اللغوي في الفلسفة المعاصرة، د. الزواوي بغوره، دار الطليعة، بيروت، ط ١، ٢٠٠٥ م.
- القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان، أوزوالد ديكرو، جان ماري سيشايفر، ترجمة د. منذر عياشي - المركز الثقافي العربي، بيروت، ط ٢

- ٢٠٠٧ م.
- لسان العرب، للإمام العلامة أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأفرنجي المصري (ت ٧١١ هـ)، دار صادر، بيروت، ط ١، ٢٠٠١ م.
- اللسان والميزان، أو التكوثر العقلي، د. طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط ١، ١٩٩٨ م.
- اللسانيات الوظيفية، مدخل نظري، د. احمد المتوكل، منشورات عكاظ، الرباط، ١٩٨٩ م.
- اللسانيات والدلالة، د. منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، سوريا، ط ٢، ٢٠٠٧ م.
- اللغة والتأويل - مقاربات في الهرمينوطيقا الغربية والتأويل العربي الإسلامي، عمارة ناصر، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت ط ١، ٢٠٠٧ م.
- اللغة والدلالة آراء ونظريات، عدنان بن ذريل، منشورات اتحاد الأدباء والكتاب العرب، دمشق، ط ١، ١٩٨١ م.
- اللغة والمعنى والسياق، جون لايفز، ترجمة عباس صديق الوهاب، مراجعة د. يوثيل عزيز، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط ١، ١٩٨٧ م.
- المدارس اللغوية التطور والصراع، جيفري سامبسون، ترجمة: د. أحمد نعيم الكراعين، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط ١، ١٤١٣ هـ.
- الموسوعة الفلسفية العربية، معن زيادة، معهد الإنماء العربي، ط ١، ١٩٨٨ م.
- مدخل إلى علم الدلالة، فرانسوا بالمر، ترجمة: د. خالد محمود جمعة، دار العروبة، الكويت، ط ١، ١٩٩٧ م.
- مدخل إلى علم النص، مشكلات بناء النص، زتسيلاف واورزيناك، ترجمه وعلق عليه: أ. د سعيد حسن بحيري، مؤسسة المختار، مصر، ط ١، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.
- المقاربة التداولية، فرانسواز أرمينكو - ترجمة د. سعيد علوش - مركز الإنماء القومي - الرباط، ط ١، ١٩٨٦ م.
- مناهج الدرس النحوي في العالم العربي في القرن العشرين، د. عطا محمد موسى - دار الإسمراء - عمان - الأردن ط ١، ٢٠٠٢ م.
- نحو نظرية أسلوبية لسانية، فيلي سانديرس، ترجمة: د. خالد محمود جمعة، دار الفكر، سوريا، ط ١، ١٤٢٤ هـ، ٢٠٠٣ م.
- النص والسياق - استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، فان دايك، ترجمة عبد القادر قنيتي، أفريقيا الشرق، بيروت ط ١، ٢٠٠٠ م.
- نظرية أفعال الكلام العامة، نظرية الفعل الكلامي - بين علم اللغة الحديث والمباحث اللغوية في التراث العربي والإسلامي، أ. هشام عبد الله الخليفة، مكتبة

- لبنان ناشرون، بيروت، ط١، ١٦، ٢٠٠٧م.
- نظرية أفعال الكلام العامة، ج. أوستن، ترجمة عبد الصادق قنيتي، أفريقيا الشرق، ١٩٩١م.
- وصف اللغة العربية دلاليًا، محمد محمد يونس علي، منشورات جامعة القاتح، ليبيا، ١٩٩٣.

❖ الدوريات

- البحث اللساني والسيميائي، طه عبد الرحمن، ندوة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، جامعة محمد الخامس، ١٤٠١هـ
- البراغماتية وعلم التركيب، عثمان بن طالب، الملتقى الدولي الثالث في اللسانيات، الجامعة التونسية، تونس، ١٩٨٥.
- البعد التداولي عند سيبويه، مقبول إدريس، عالم الفكر، وزارة الثقافة والفنون والآداب، الكويت، م٢٣، ١٤، يوليو، ديسمبر ٢٠٠٤.
- التداولية واللسانيات، عادل السامري، [www. Doroob.com](http://www.Doroob.com)

التداولية

وصلتها باللسانيات البنوية والسيمائية

د. سامي شهاب أحمد*

❖ مدخل

تعدُّ الألسنية واحدة من الدراسات التي سجلت حضوراً هاماً في ساحة المدونة النقدية؛ لما لها من تأثير مباشر في النصّ الابداعي، فهي تتعامل مع النصّ بوصفه كبنوة قابلة للمناورة نتيجة ما يقبع في جسدها من أصوات وتراكيب ودلالات، ولكنها مناورة لا تتخطى حدود النصّ مما يجعل امكانية سقوطها في هوة المسألة أمراً واقعاً، وعليه أخذ الحقل النقدي دوره في السؤال عن مكان الخلل والاضطراب الذي اعترى الدراسات الألسنية التي اهتمت بالنصّ على حساب المبدع والمُتلقي، مما وُلد في النهاية تياراً آخر للألسنية مهمته تخطي حاجز النصّ وإيجاد فرصة التواصل المعرفي، عن طريق الخروج إلى الواقع وقد مثل هذا التيار التداولية، فيعد ان كان علم الأصوات وعلم التراكيب وعلم الدلالة يتعامل مع النصّ بانغلاق تام حيث الحصول على الدلالات في ضوء ما تفرزه الأصوات والتراكيب؛ جاءت التداولية لتعلن تمرداً على هذا الضيق وراحت تؤسس لنفسها نهجاً مغايراً مقادير الاهتمام بالتواصل المعرفي؛ وذلك من خلال الاهتمام بالأداء الكلامي الذي ظل هامشياً في الدراسات الألسنية السابقة بسبب اهتمامها بالكفاية اللغوية، أي أنّ التداولية اهتمت بأقطاب المثلث التواصلي وهي (المبدع، والنص، والمُتلقي) بعد أن كانت الدراسات الألسنية السابقة تهتم بالنصّ كسيرونة متكاملة، ولا قيمة للمبدع (المُرسل) والمُتلقي (المُرسل إليه) معاً، وعليه فالتداولية هي الدراسة الألسنية التي تهتم بعلاقات العلامات بِمُفترقها، لأهميتها ارتباطاً في هذا البحث تسليط الضوء عليها ولاسيما في منحى ارتباطها باللسانيات البنوية من جهة، والسيمائية من جهة أخرى، فضلاً عن جهازها المنطقي المفاهيمي، وقد تضمنت خطة البحث ثلاثة محاور وتمهيد.

التمهيد: تناولنا فيه الإشكالية المصطلحية التي نتجت عن الترجمات غير الدقيقة لمصطلح التداولية، فمصطلحات مثل الترائعية، والجراماتية،

والاتصالية، والتنفعية، والمقامية. وما نحو ذلك ناظرت مُصطلح التداولية مما أربك الفارئ العربي وجعله يحتار في الاختيار.

المحور الأول: التداولية وصلتها باللسانيات الينوية، وفيه تطرقنا إلى نقاط الالتقاء والافتراق بين الاثنين، وبيان أهمية التداولية في تجاوز عثرات الينوية.

المحور الثاني: التداولية وصلتها بالسيميائية، وفيه تحدثنا عن النور الريادي الذي لعبته السيميائية في ايجاد كيان التداولية، فالتداولية عُدت الوريث الشرعي للسيميائية لتشابه الالهات وأغلب النتائج معها.

المحور الثالث: الجهاز المصطلحي المفاهيمي للتداولية: وقد عرضنا في هذا المحور أهم مُسلمات النظام في التداولية، وهي أربعة أركان: الأفعال الكلامية، الاستلزام الحوارية، الافتراض المسبق، الإشارة (العناصر الاشارية).

وأخيراً نتمنى منه تعالى التوفيق والسداد، ونتمنى من قارئنا الكريم ان يغفر لنا هفواتنا. لأن الخطأ مِنَّا والصوابُ من العليل.

التمهيد

❖ الاشكالية المصطلحية

إن تحديد المفاهيم والمصطلحات في إطار ثابت أمر غاية في الصعوبة؛ كونها تنتمي إلى حزمة من التشابك المعرفي والفلسفي التي تتغير فيها تلك المحددات بحسب القنوع البشري من جهة والتلون الفكري للنقاد من جهة أخرى. فمن الصعوبة بمكان تحديد الهوية المصطلحية لأي علم أو فلسفة أو نظرية إلا في إطار ترسيم الملامح الجوهرية التي ينطلق منها؛ ومن خلالها يتم تمييزها عن الملامح الجوهرية لمعارف أخرى. هذا الاختلاف والاختلال لا يُعدُّ عيباً بل إنه يُعني القدرات الفكرية لاصطلاح المفاهيم المتباعدة واكتساب معارف متنوعة تُؤهل النقاد لوضع حجر الأساس لأي علم أو فلسفة أو نظرية كانت؛ وبعد ذلك تأتي مرحلة وضع القوانين والشروط وهلم جرا.

إن المنظومات الفكرية مُتشعبة الرؤى نتيجة لتشعب النظام الاستيعابي للنقاد؛ إذ إن النقاد ينتمون إلى تيارات ومذاهب ومدارس واتجاهات متناقضة فيما بينها. هذه التعددية في الانتماء تعمل على جعل الساحة المعرفية عرضة للمساجلات والجدال ومن ثمة بعد مخاضات عميرة تُولد مسارات المعارف وتتقوَّب في أنظمة خاصة يُمكن بين خلالها الانطلاق إلى رحاب التوصيف الأمثل لتلك المعارف. وعلى وفق التنوع المعلوماتي في المنظومات الفكرية المختلفة فإن المدونة الفكرية تعمل على راب الصدع وتبيد الموقف من خلال فرزنة هويات مصطلحية مهمتها عنونة فلسفتها أو نظريتها أو هلمها بقدر ما يُميز انتماء هذا المصطلح إلى هذه أو تلك من المعارف؛ مع انسحاب هذا المفهوم أو المصطلح إلى ساحة معارف أخرى في المنظومة الفكرية في بعض الأحيان، ولكن هذا لا يمنع من ممارسة ترسيم الملامح في أقل تقدير.

وفي ضوء ما تقدم فإن التداولية - التي تنتمي إلى اللسانيات - كمصطلح شابته كثير من المصطلحات كثيراً من اللغظ والاضطراب جزاء تشعب النظام الاستيعابي - لم يأسفنا - للنقاد. وهو ما يجعل القارئ في حيرة ولا يعرف إلى أي منها يهتدي. ويبدو أن التداولية كمصطلح هي أكثر المصطلحات تواتراً في الكتب؛ لأنها بحسب نظامها عمل على تشخيص علاقة العلامات بمُفسرها. أي معرفة مقاصد المتكلم ومدى أهلية تلك المقاصد في تحقيق التواصل مع الآخرين. وهذا يعني أن التداول سمة في المصطلح لا يدفع بمصطلح التداولية - من وجهة نظرنا - نحو الاستعهار.

لقد ناظر مصطلح التداولية في المدونة النقدية مصطلحات كثيرة وهي الذراعية،

والنَّفعية، والاتصالية، والتبادلية، والسَّاقية، والوظيفية، والبراجماتية، والبراجماتيك، والبراغماتية، والبراغماتيك، والمقامية وغيرها. وهذا راجع إلى تداخل الحقول المعرفية والفلسفية فيما بينها؛ مما حدا بالمترجمين التشتت في الإمساك بتلابيب المصطلح المحدد الذي يُناسبهم. وقد أشار إلى ذلك مهيجان الرويلي وسعد اليازجي بقولهما: ((ونتيجة لنداخل حقولها بحقول مجاورة فإن لها كثيراً من الترجمات في اللغة العربية، منها التبادلية والاتصالية والنفعية إلى جانب الذرائعية))^(١)، وفي الصُّدد نفسه ذكر محمود احمد نحلة تعدد تعريفات التداولية ((وكان لهذا التعدد أثر في ترجمة المصطلح إلى اللغة العربية: فقد تُرجم إلى الذرائعية، والمفصديّة، والمقاميّة، والتداوليّة. والتداوليّة أكثرها شيوعاً وأقربها إلى طبيعة البحث فيها))^(٢). ويحسب التعدد المصطلحي ينبغي علينا ايضاح الشائع من تلك المصطلحات في ضوء ما مُتوفر بين ايدينا من مصادر تنوعت فيها الرؤية بشأن التداولية كمصطلح، ولطغيان مصطلح التداولية على المصطلحات الأخرى فليس أمامنا من يد من الابتداء به.

لقد اصطلح أن روبرول وجاك موشلار في كتابهما (التداولية اليوم علم جديد في التّواصل) التداولية على هذا العلم الالمني إذ قالوا: ((لقد تحدثنا عن التداولية، وينبغي عدم خلطها بالنفعية ذلك التيار الفلسفي الأميركي الذي يمثل أساساً الأميركي وليام جيمس *William James* وجون ديوي *John Dewey* أورتشارد رورتى *Richard Rorty* قبل أن تظهر بمدة طويلة دراسات في هذا المجال))^(٣)، فهما لم يستعملا أيّ مُصطلح سوى التداولية: حتى أن عنوان كتابهما (التداولية). وقد انطلق فيليب بلاتشيه ليعزز قيمة مصطلح التداولية في السّاحة النقديّة عبر كتابه (التداولية من أوستن إلى غولفمان)؛ وتعامل مع التداولية على قدر كبير من الأهمية بوصفها المرجعية الفكرية للتواصل المعرفي الفكري، ولهذا ناسب التداول معنى الاتصال والتواصل. وبرز المصطلح عنده من العنوان وانتهاء بصفحات الكتاب، وقال مُفتتح حديثه عن هذا العلم: ((يبدو مصطلح التداولية *Pragmatique* على درجة من القموض إذ يقترن به في اللغة الفرنسية المعنيان التاليان (محسوس؛ وفلان للحقيقة)؛ أمّا في الإنكليزية وهي اللغة التي كُتبت بها أغلب النصوص المؤسسة للتداولية فإنّ كلمة *Pragmatics* تدل في الغالب على ماله علاقة بالأعمال والوقائع الحقيقية. وهكذا يبدو لأول وهلة أنّ الحقل الذي فتحه هذا الاختصاص العلمي

(١) دليل الناقد الأدبي: ١٠٠.

(٢) آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ٥٢.

(٣) التداولية اليوم علم جديد في التواصل: ٢٨-٢٩.

المستحق تداولية ضخم وتُلقي عموماً بوصفه كياناً غامضاً، أو قل جراباً جديداً تُوضع فيه الأعمال الهامشية التي لا تنتهي إلى الاختصاصات المؤسسية. وهي اللسانيات، وعلم الاجتماع، والآنثروبولوجيا، وعلم النفس الاجتماعي، والدلالية إلخ، نحو المشاكل التي أثارها هذه الاختصاصات ولم تتوصل إلى معالجتها بشكل مرضي^(١).

كما أن مسعود الصحراوي في كتابه (التداولية عند العلماء العرب) يلتزم بمصطلح التداولية عنواناً ومضموناً؛ بل إنه تصدى لمن اضطرب في الترجمة وعلل الفرق بين التداولية والفلسفة النفعية الدرائعية، فالتداولية عند الصحراوي علمٌ جديدٌ للتواصل إذ قال: ((فالتداولية ليست علماً لغوياً محضاً بالمعنى التقليدي علماً يكتفي بوصف وتفسير البنى اللغوية ويوقف عند حدودها وأشكالها الظاهرة، ولكنها علم جديد للتواصل يدرس الظواهر اللغوية في مجال الاستعمال ويدمج من ثمّ مشاريع معرفية متعددة في دراسة ظاهرة التواصل اللغوي وتفسيره))^(٢).

ويُعدُّ صابر الحباشة من أكثر المشتغلين بميدان علم التداولية وله بصمة واضحة في المدونة التقديرية عبر آثاره التي تركها؛ فهو قد ترجم كتاب (التداولية من أوستن إلى غوتمان) وله كتاب عن التداولية عنوانه (التداولية والحجاج - مداخل ونصوص) ركز فيه على (الحجاج) بوصفه أحد أركان التداولية إذ قال: ((ينناول هذا البحث منزلة الحجاج في التداولية بوصفه أحد أهم أركان التداولية إلى جانب نظرية الأعمال اللغوية))^(٣). هذه الحصيلة المعرفية هي التي دفعت الحباشة إلى تأليف هذا الكتاب بهذا الوضوح في قوله: ((لقد اشتغلنا على التداولية اشتغالاً حثيثاً، سواء في البحث الجامعي أم في التعريب أم في التدريس والمحاضرة، وقد تكوّن لدينا رصيدٌ جعلنا لا نزال في محاولة تيسير هذا المبحث على طلابه من خلال عرض بعض الأفكار وتبسيطها على الفرضيات؛ وتعريب بعض النصوص الواردة في هذا الباب))^(٤).

ويُعدُّ كتاب الجيلالي دلاش (مدخل إلى اللسانيات التداولية - لطلبة معاهد اللغة العربية وآدابها) الذي ترجمه محمد يحياتن أحد الكتب التي تناولت مصطلح التداولية بوضوح والاصرار على ربطه بحاضنته الأصيلة علم اللسانيات، وبذلك أصبح المعرفة التي في ذهن القارئ بأن التداولية امتدادٌ شرعيٌّ للدراسات اللسانية، وهي حلقة من حلقاتها؛ كونها تهتم بالفصديّة ومحاوِر الاتصال وكل ما كان خارج اهتمام

١. التداولية من أوستن إلى غوتمان: ١٧.

٢. التداولية عند العلماء العرب: ١٦.

٣. التداولية والحجاج - مداخل ونصوص: ١٥.

٤. المرجع نفسه: ٧.

اللسانيات السابقة، وقد صرح المترجم بحياتن بذلك بقوله: ((أما عن سبب اختيارنا لهذا الكتاب فمرده إلى أنه يُعالج تخصصاً لسانياً حديثاً هو اللسانيات التداولية، ونمكننا أن نُعرِّفه بإيجاز شديد بقولنا: إنَّه تخصصٌ لسانيّ يدرس كيفية استخدام النَّاس للأدلة اللغوية في صُلب أحاديثهم وخطاباتهم، كما يُعنى من جهة أخرى بكيفية تأويلهم لتلك الخطابات والاحاديث))^(١).

وقد أفرد محمود احمد نحلة في كتابه (آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر) فصلاً كاملاً عن التداولية وأهميتها في الدراسات اللسانية، ولقيمتها احتلت التداولية الفصل الأول من الكتاب، وجاء اهتمامه بالتداولية كونها تستند في مضمونها إلى جملة من المرتكزات اللغوية التي تخدم مسيرة عمله، فمصطلح التداولية كان حاضراً ويقوِّد في خطاب نحلة ويمكن أن نختصر مفاهيم التداولية التي تواترت وهي ((التداولية: هي دراسة الأسس التي نستطيع بها أن نعرف لِمَ تكون مجموعة من الجمل شاذة *anomalous* تداولياً، أو تُعد في الكلام المحال. التداولية: هي دراسة اللغة من وجهة نظر وظيفية. التداولية: هي دراسة كل جوانب المعنى التي تُهملها النظريات الدلالية. التداولية: هي دراسة جوانب السياق. التداولية: فرعٌ من علم اللغة يبحث في كيفية اكتشاف السامع مقاصد المتكلم))^(٢).

وقد نال مُصطلح البراجماتية حصة تُذكر في المدونة النقدية، ولاح في الألقاق افتراضه بالتداولية، على الرغم من أنه يختلف عنها، وستوضح هذا الاختلاف في النهاية. ومن الذين كتبوا عن البراجماتية على أنها التداولية كارل-ديتريخ بوتنغج في كتابه (المدخل إلى علم اللغة)، وترجمه وعلّق عليه سعيد حسن بحيري، وفيه قدّم كارل ديتريخ بنده عن البراجماتية ولم يستَخدم مُصطلحاً آخر، من ذلك نذكر ((تعني الطرائق اللغوية البراجماتية الحديثة أكثر من كونها ليست إلا استكمالاً للدُّرس اللغوي الحالي، فهم نعني وبقية بالنسبة لعلم اللغة؛ لأنَّها غيرت علم اللغة ذاته))^(٣). ومن الذين تحدثوا عن البراجماتية احمد شفيق الخطيب في كتابه (قراءات في علم اللغة)، فقد أعطى ثُبناً عن نشأة المُصطلح ومعناه العام ومجالاته والتعريفات المتعددة المتعلقة به، فضلاً عن علاقته بالمجالات الأخرى، وذكر أن الاهتمام بالبراجماتية ازداد كثيراً لأسباب كثيرة وهذا واضح في قوله: ((شهدت الدراسات اللغوية في السنوات الأخيرة تزايداً في الاهتمام بالبراجماتية *Pragmatics*، ومن بين أسباب تزايد هذا الاهتمام هو أنه جُمع

(١) مدخل إلى اللسانيات التداولية: ١.

(٢) آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ١١-١٢.

(٣) المدخل إلى علم اللغة: ٣٣٣.

كرد فعلي لتناول عالم اللغة الأمريكي نعوم تشومسكي للغة باعتبارها أداة مجردة، أو قدرة عقلية منفصلة عن استخدامات اللغة ومستخدامها والوظائف التي تقوم بها^(١). وقدّم الخطيب تعريفات للبراجماتية لتكون مفاتيح معرفية تفيد القارئ لفهم ماهيتها. ويمكن ذكر مقتطفات من تلك التعريفات ((من بين التعريفات المحتملة للبراجماتية هي أنها دراسة جميع جوانب المعنى التي لا تحتويها أو لا تنتظمها النظرية الدلالية... ومن بين تعريفات البراجماتية ما يقوم على التفرقة بين معنى الجملة *sentence* ومعنى المنطوق *utterance*... ومن تعريفات البراجماتية أيضاً ذلك التعريف الذي يتخذ من الرُّبط بين المعنى والسياق اسماً له... ومن بين التعريفات الأخرى للبراجماتية هي أنها دراسة مقدرة مُستخدمي لغة ما على ربط الجُمَل بالسِّيَاقَات التي تعتبر هذه الجُمَل مقبولة أو ملائمة فيها))^(٢).

ومن المصطلحات التي سجلت حضوراً في المدونة النقدية لتصبح قرينة للتداولية مُصطلح الذرائعية، وهو مصطلح تعامل معه المترجمون على أنه التداوليّة نفسها، فقد استخدم ميغان الرويلي وسعد البازعي في كتابهما (دليل الناقد الأدبي) الذرائعية على أنها تُمثل أحد الاتجاهات التي ظهرت في مرحلة ما بعد البنيوية؛ كون اللسانيات البنيوية لا تعبر المصطلح ووسائل الاتصال اهتماماً لذا جاءت الذرائعية لتسد هذا الفُجْو. فالذرائعية ((ركزت على ما أهملته اللسانيات، فإذا ركزت اللسانيات على علم التركيب وعلم المعاني فإنّ الذرائعية وهذا أساس سمعتها العملية وأساس ارتباطها بالتبادل والمنفعة ركزت على الجانب الاتصالي. أي علاقة الإشارة بمن يستخدمها))^(٣).

وعلى هامش ما عُرض؛ وما وجدناه من تنوع مُصطلحي أريك القارئ يُمكن القول: إنّ التعدد في المفاهيم والمصطلحات واشتباك المعارف والتعاليق بين الفلسفات ليس هيباً على الدوام؛ إلا في حال تضليل القارئ كلياً عبر ملاءمته خازنته الفكرية بمفاهيم تنافي الحقيقة، في حين أنّ هذا التنوع من جهة أخرى يُثري الحركة المعرفية ويُعطيها بُرعات تقدمية لكونها تجعل القارئ يُفكر مراتب ومراتب للوصول إلى الحقيقة بنفسه؛ فليدها تتوسع المعارف وتصل إلى مراتب من الرُّقي. وعليه فإنّ ما حصل لمصطلح الذرائعية من اضطراب لا يمكن عدّه اختلالاً كبيراً؛ لأنّ المصطلحات المتواترة وإن كانت مختلفة التسمية إلا أنّ جوهرها الابداعي واحد. فتعريفات البراجماتية والذرائعية من مُشابهة للتداوليّة حتى من حيث آليات عملها، لهذا نرى على سبيل المثال أنّ قهليب

١- إراءات في علم اللغة: ١٢٥.

٢- المرجع نفسه: ١٢٩-١٣٠.

٣- دليل الناقد الأدبي: ١٠٢.

بلا نشيه لا يرى بعداً مفاهيمياً بين ما أطلق عليه *Pragmatisch* والتداولية *Pragmatics* إذ قال: ((وان لفظ براغماتيش *Pragmatisch* الذي استعمله كانط ليس بعيداً عن استعمالات لفظ التداولية الذي نجده عند التداوليين وعند ملهميم المباشرين مثل بييرس، حيث نجد عندهم مفهوم القصد ومشروع العمل))^(١). ولكن الترجمة أدت دورها في ايجاد هذا الوضع، فمما يُسجل على الترجمة انحرافها عن الاستدلال الحرفي للكلمة الغائبة في المؤلف الغربي، فهي قد ترجمت شيئاً واصطلحت عليه شيئاً آخر، حتى أن محمود احمد نحلة قال ان اصحاب مدرسة اكسفورد على سبيل المثال اوستن وسيرل وغرايس فضلاً عن كارناب لم يستخدموا مصطلح التداولية؛ على الرغم من أنهم المؤسسون لهذا العلم اللساني ((ومن الغريب أن أحداً منهم لم يستعمل مصطلح التداولية فيما كتب من أبحاث))^(٢)، وعليه فإذا ما كان المؤسسون لم يستخدموا مصطلح التداولية فمن أين تسمل إلى منظومة الفكر العربي، والاجابة على ذلك نجيبه الترجمة. لذلك نجد فرقاً بين هذه المصطلحات من حيث العمل لا من حيث الجوهر، فهناك فرق بين النفعية والتداولية على سبيل المثال من حيث اللفظة الإنكليزية والمضمون كذلك، وهذا واضح في قول بلا تشيه: ((وعلينا أن ننظر في الروابط الموجودة بين النفعية *Pragmatisme* والتداولية *Pragmatique*. إن النفعية نظرية فلسفية عامة للعقلانية الملاحظة بوصفها مُتصلة بالمصالح الأساسية للإنسان، ولقد تطورت في الولايات المتحدة الأمريكية في مُنتصف القرن العشرين))^(٣)، وقد عرف أن روبول وجاك موشلار النفعية بقولهما: ((النفعية *Pragmatisme* هي مذهب يتخذ القيمة العملية التطبيقية قياساً للحقيقة، معتبراً أن الحقيقة المطلقة غير موجودة وأنه لا شيء حقيقياً إلا كل ما ينجح. صاغ هذا المذهب بييرس عام ١٨٧٩ وطوره كل من جايمس وديوي، وكان ولا يزال مذهباً ذائع الصيت في الولايات المتحدة الأمريكية))^(٤)، فالاختلاف اللفظي واضح المعالم بين النفعية والتداولية بحسب اللغة الإنكليزية، فضلاً عن كون التداولية علماً ألسنياً، في حين أن النفعية نظرية فلسفية للعقلانية، على الرغم من اقترابها من حيث الجوهر العملي في التعامل مع النصوص؛ عبر الاهتمام باللغة. هذا الفرق بين النفعية والتداولية ينسحب كذلك على الفرق بين النزاعية والتداولية من حيث اللفظ المترجم والمضمون، وهذا ما أوضحه مسعود

(١) التداولية من أوستن إلى غولمان: ٢٧-٢٨.

(٢) افاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ١٠.

(٣) التداولية من أوستن إلى غولمان: ٢٨.

(٤) التداولية اليوم علم جديد في الفواصل: ٢٨-٢٩.

الصحراوي بقوله: ((التداولية: ترجمة للمصطلحين: المصطلح الإنكليزي *Pragmatics* بمعنى هذا المذهب اللغوي التواصلي الجديد الذي نُعرّف به في هذه المقالة، والمصطلح الفرنسي *Pragmatique* بنفس المعنى، وليس ترجمة لمصطلح *Pragmatisme* الفرنسي؛ لأنّ هذا الأخير يعني الفلسفة النفعية الذرائعية، أمّا الأول فيُراد به هذا العلم التواصلي الجديد الذي يُفسر كثيراً من الظواهر اللغوية كما أشرنا، ولذلك لا تتفق مع الباحثين العرب الذين ترجموا مصطلح *Pragmatics / la pragmatique* بالذرائعية أو الذرائعية أو غيرها من المصطلحات المتحاولة معهما))^(١). وعليه فإن الاختلاف جاء بسبب قصور فهم المترجمين للمصطلح الحقيقي، ومع ذلك تبقى التداولية الرائدة في الشهرة والتوصيف على حساب المصطلحات الأخرى.

وتتلخص مهام التداولية في ((دراسة استعمال اللغة التي لا تدرس البنية اللغوية ذاتها، ولكن تدرس اللغة عند استعمالها في الطبقات المقامية المختلفة. أي باعتبارها كلاماً محدداً صادراً من متكلم محدد وموجهاً إلى مخاطب محدد بلفظٍ مُحددٍ في مقام تواصلي محدد لتحقيق غرضٍ تواصلي محدد))^(٢).

وأهم ما تميز به التداولية كما يرى ذلك بعض الباحثين:

- ١- أنّها تقوم على دراسة الاستعمال اللغوي، أو هي لسانيات الاستعمال اللغوي، وموضوع البحث فيها هو توظيف المعنى اللغوي في الاستعمال الفعلي من حيث هو صيغة مركبة من السلوك الذي يُنتج المعنى.
- ٢- ليس للتداولية وحدات تحليل ولا موضوعات مُترابطة.
- ٣- تدرس اللغة من وجهة وظيفية عامة، معرفية واجتماعية وثقافية.
- ٤- تُعدّ التداولية نقطة إلتقاء مجالات العلوم ذات الصلة باللغة.^(٣)

وأخيراً ينبغي القول: إنّ مصطلح التداولية قد تواتر في المعجم الفكري للنقاد والباحثين العرب على نحو كبير، ولم يصطلح عليه الغربيون كما اسلفنا، ولذلك فإن فهمنا له كان مستقفاً على نحو أكبر من المؤلفات العربية لوضوحها وطريقة عرضها؛ بخلاف الكتب الغربية التي حملت غموضاً في طرائق الإيضاح إلى جانب الغموض والإرباك في ترجمتها.

(١) التداولية عند العلماء العرب: ١٥.

(٢) المرجع نفسه: ٢٦.

(٣) ينظر: أفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ١٥-١٤.

المحور الأول

التداولية وصلتها باللسانيات البنائية

يُعدُّ الجهاز المفاهيمي في أية منظومة فكرية معرفية دلالة استبشارية على تقبيد العلوم بأطر مفصلية ثابتة تميزها عن غيرها؛ مع بقاء رمان التغيير والتحول مفتوحاً لدعم الثابت المُتأسس وتسيير الرؤى المُستقبلية نحو تحقيق مكاسب جديدة وهكذا لتحقيق الأفضلية والأهمية قدر الامكان. فالمنظومة الفكرية ننضوي تحت لوائها مجاميع معرفية تعمل الواحدة منها بأسلوبٍ مفاير عن الأخرى على وفق الآليات والشروط التي تحكم هذه المجموعة أو تلك، ويتواشج أواصر المجموعة الواحدة يَتَمَكَّنُ الجهاز المفاهيمي الذي تنطلق منه الارهاصات وحينئذ تترى الساحة المعرفية لاستقبال الآراء المُتضادة بغية الوصول إلى مرامي مقبولة أو شبه مُقيدة يمكن عدّها المفتاح الاصولي لهذا العلم أو تلك الفلسفة وهلم جرا. فعلى هامش الدراسات الأدبية والنقدية التي حظيت بها الساحة المعرفية تبلورت ثلاث منظومات فكرية حددت مسار تلك الدراسات، وهي منظومة ما قبل الحدائنة، والحدائنة، وما بعد الحدائنة. وقد تعاملت كل منظومة مع النصوص الإبداعية بأسلوبٍ مفاير عن الأخرى، فمَنْظُومَةُ ما قبل الحدائنة على سبيل المثال اشترطت الاهتمام بأحد أقطاب المثلث التواصلي ألا وهو مُبدع النص واخرت النص ومُتلقيه وابتعدت عن دائرة اهتمامها. وهذا ماثل في (المنهج التاريخي، والنفسي، والاجتماعي، الخ). في حين أن منظومة الحدائنة اهتمت بقطب النص واهملت المُبدع والمُتلقي وهذا ماثل في الالسنبة ولا سيَّما بنسختها البُنويَّة. أمَّا منظومة ما بعد الحدائنة فكانت مُزدوجة الاهتمامات فمنها ما اهتم بقطب المُتلقي فقط كما فعلت ذلك التفكيكية عندما فسحت المجال كثيراً للمُتلقي لتأويل النصوص حسبما تشببه نفسه لإيمانها بموت المرجعيات وتجدد المعاني إلى ما لا نهاية. ومنها ما اهتم بأقطاب المثلث التواصلي كما هي الحال لدى نظريات القراءة والتلفي وأكثر منها التداولية.

ولكي نكون على مقربة من هذه المنظومات فإن توجهنا دفعنا لأن تكون التداولية مرآة عاكسة لما تمخض وتبلور في تلك المنظومات من ملامح قوائين تعمل بأسس جديدة؛ حتى سُميت نتيجة لتلك القرابة باللسانيات التداولية، وهي على الرغم من انطلاقها من النص فإنها لم تهمل المُبدع والمُتلقي، وأهم من ذلك تفاعلية التواصل بينهما، وعليه سنبين صلتها باللسانيات البُنويَّة (الحدائنة) وباللسانيات السيميائية (ما بعد الحدائنة) لتكتمل الرؤى وتنتضج.

لم تكن التداولية ولهذه الصُدفة الأنية بل هي مُسلخة من حواضن معرفية مُتعددة جعلتها تكون أكثر شمولية في ركائزها وآلية عملها؛ لأنّ اعترافها المُتسبب قولب نظامها بالتفرع والوقوف على أدق تفاصيل العمل وصولاً إلى غاية مُحددة، وأقرب هذه الحواضن هي اللسانيات، وهذا ما أشار إليه مسعود الصحراوي بقوله: ((إنّ أقرب حفل معرفي إلى التداولية *Pragmatique* في منظورتنا هو اللسانيات، وإذا كان الأمر كذلك فانه من المشروع البحث في صلة هذا العلم التّواصلية الجديد باللسانيات وبغير اللسانيات من الحقول المعرفية الأخرى التي يشارك معها في بعض الأسماء المعرفية نظرية كانت أم إجرائية))^(١)، وفي ضوء تشعب مفاهيمها كونها نهلت من مجالات معرفية كثيرة تبقى اللسانيات واحدة من العلوم التي لها السبق الكبير في تبلور المفاهيم التداولية. ولهذا فهي صنوّلاً يتجزأ من اللسانيات، لذلك ((فهي تداولية تسمى إلى أن تكون مُندمجة في اللسانيات لا تكلمة لها، بل جزء لا يتجزأ منها))^(٢)، ولكن هذا الاندماج له حساباته، فالتداولية ليست صورة تطابقية بكافة أدواتها الإجرائية مع اللسانيات السابقة عليها، وإنما هي جهة داعمة لفكر التطوير الوظيفي والادائي معاً. فاللسانيات اللغوية التراكيبية انكفأت على دراسة مُعطيات التّواصل العلائقي بين ملفوظات الجُمْل والعمل على إيجاد المُنجز الوظيفي لهذا التّواصل، وهي لا تمتلك إرادة الخروج إلى محك المحيط الخارجي أو حتى البحث عن المعنى بيهئته الشمولية. أي أنّ عملها ينحصر بمعرفة العلاقات بين الملفوظات ليس إلا. في حين أنّ التداولية تخطلت حدود التّوصيف التراكيبية وحدود الدلالة المُتجزئة من ذلك التّوصيف مُتجهة صوب معرفة علاقات العلامات بمفسيها، وهي بذلك تقترّب من الجمهور لما قدمته من تحفيز مباشر للاهتمام بأقطاب المُثلث التّواصلية. وانطلاقاً من نظرية (فودور) الذي ميّز بين النّظام المركزي والمنظومات الطرفية فإنّ أن روبول وجاك موشلار قالاً بأهمية التّفسيح الذي جاء به سبرير وولسن بحسب استنادهما إلى نظرية فودور لتتميز التداولية الفعلية عن اللسانيات السابقة عليها، وهذا واضح في قولهما: ((ينترج سبرير وولسن بوضوح تداوليتيها ضمن مقارنة فودور، وبحسب ما يذهبان إليه فإنّ اللسانيات -بالمعنى المذكور أعلاه- علم الأصوات الوظيفي وعلم التّركيب وعلم الدلالة تُوافق منظومة طرفية هي تلك المنظومة المُختصة بمعالجة المُعطيات اللغوية، ومقابل ذلك فإنّ التداولية تندرج بوضوح ضمن النّظام المركزي، وبالفعل ليست العمليات

(١) التداولية عند العلماء العرب: ١٥.

(٢) التداولية اليوم علم جديد في التواصل: ٤٧.

التداولية سوى العمليات العادية للنظام المركزي، أو على الأقل البعض منها. ومن هذا المنطلق يُمكن دراسة التأويل التداولي للأقوال-في رأي سيرير وولسن- من إيضاح طريقة اشتغال عمليات النظام المركزي^(١)، واستنادا إلى الفيصل الساطع الذي فصل بين المنظومتين وجعل الرؤى تتمحور في محددات خاصة؛ دأب المعنيون بهذا المجال إلى إيجاد المشتركات والاختلافات على حد سواء لترسيم الحدود النهائية بين اللسانيات اللغوية والدلالية وبين اللسانيات التداولية. وأحسن التقسيمات -من وجهة نظرنا- التي ميزت بين الدراسات الألسنية هو تقسيم احمد المتوكل؛ فهو يرى أن النظريات اللغوية التي ذاع صيتها في القرن العشرين قد انحسرت في اتجاهين هما اللسانيات التصويرية واللسانيات الوظيفية، فاللسانيات التصويرية تناولت اللغة عن طريق انماطها بمعزل عن وظيفتها. أي الانكفاء على دراسة النسق في ضوء المستويين التركيبي والدلالي ولا تتجاوز لتلك المسلمات، في حين ركزت اللسانيات الوظيفية على التواصل المعرفي عن طريق الاهتمام بظروف الاستعمال اللغوي^(٢)، وهذا ما تبنته التداولية وسلكته طريقاً في منهاجها.

ولكي تكون الصورة أقرب إلى ذهنية المثقفي -عن طريق بعدها عن التشظي المعلوماتي وما يتوالد عنه من فضاءات مفتوحة- نحاول الابتعاد عن توصيف اللسانيات لكثرتها واختلاف أليات عملها ونكسر جل همنا لبیان البنيوية التي تُعدُّ النموذج المتمامي الذي تمخض عن الدراسات الألسنية الصوتية والتركيبية والدلالية. ووقوفنا على البنيوية جاء نتيجة للآليات التي استندت إليها والقضايا التي عالجتها؛ على وفق انفلاقها على نفسها وعدّها العمل الإبداعي وحدة كاملة. وهذا يُعدُّ رهاناً خاسراً من وجهة نظر التداولية، ويكمن وجه التقارب بين البنيوية والتداولية في أن كليهما تتعامل مع النص كوجود له هيئته؛ إلا أنهما يختلفان من حيث الوظيفة. إذ إنَّ التداولية تتجاوز النص -الذي تبجله البنيوية وتجعله محوراً الاوحد- إلى ما هو خارجه، فهي ترى أن لغة النص جهاز ادائي تواصل مع الغير وليس قوالب جامدة لها مدلولات ثابتة في أطر ضيقة. وهذا ناتج عن تشاكل عناصر اللغة النصية مع المحيط الخارجي لإقرار عملية الاتصال المنفعي بين طرفي الاتصال وهما المرسل والمُرسل إليه. ولكي نكون في مأمن من اللبس ينبغي علينا إيضاح بعض جوانب المنهج البنيوي بعد اكتمال مراحل نظريته.

(١) التداولية اليوم علم جديد في التواصل: ٧٤-٧٥.

(٢) ينظر: الوظائف التداولية في اللغة العربية: ٥٢.

إنّ البُنيويّة كمنهج خاص لدراسة الأنظمة اللغوية في النّص ابتدأت بدراسات دي سوسير، وحركة الشكلانيين الرُّوس، وحلقة براغ التشيكية، وحركة النُّقد الجديد في أمريكا، فضلاً عن الدّراسات اللغوية الأخرى التي انتشرت وشاعت في القارنين الأوروبيّة والأمريكية.

كما كان لدراسات وآراء كلود ليفي شتراوس، ورولان بارت، وتزفيتان تودوروف، ولاكان، والتومير، وميشال فوكو، ورومان جاكوبسون، وجيرار جينيت، وادوارد ساير، وليونارد بلومفيلد وآخرين الأثر البارز في ابصار المنهج البُنيوي النُّور بشكله النّهائي وحجزه مقعداً مرموقاً ضمن المناهج النُّقدية الأخرى التي كانت سائدة والتي تهتم بدراسة الآثار الأدبية للتوصل إلى مكنوناتها الداخليّة عبر مجموعة من الوقفات التحليلية المختلفة تبعاً للقوانين الخاصّة بها.

وإذا ما عدنا هذه المزة إلى تسمية البُنيويّة بهذا الاسم فإنّ ذلك يدفعنا إلى الخوض مجدداً في مسألة مُصطلح (البنية) وهذا بالطبع سيُجعل بحثنا بعيداً عن مراميه وعن جوهر القضية. لذا سنتجاوز ذلك بالتّوجُّه مُباشرة عن تسمية البُنيويّة بهذا الاسم. فتهنيانوف وهو أحد أعلام الشُّكلانية الرُّوسية يُعدُّ ((أول من استخدم لفظة بُنية في السّنوات المُبكرة من العشرينيات وتبعه رومان ياكوبسون الذي استخدم كلمة البُنيويّة لأول مرة عام ١٩٢٩))^(١)، وإذا ما تجاوزنا التسمية والإبحار في مضامين البُنيويّة فإننا سنخضع لجملة من القضايا التي عالجتها والتي بيّنت ما كان خافياً، فهي تنظر إلى العمل الأدبي على أساس وحدة متكاملة في ذاتها غير خاضعة لسلطان التّأثيرات الخارجيّة. وهذا يعني أنها ترفض ما كان مُتواتراً عند المناهج الأخرى من حيث كون الأثر الأدبي صوره مُحاكية للواقع، وتؤمن ايماناً مُطلقاً بأهميّة القيمة الثابتة الأنية للنّص، وهي بذلك تلتزم بمفهوم التزامنيّة الذي أطلقه دي سوسير الرّامي بالانطلاق من النّص وليس من غيره ((فضي الدّراسة التزامنيّة الأنية يفوم المرء بدراسة الحالة اللغوية بكاملها في لحظة زمانية مُحددة بينما في المُقاربة التّاريخية يقوم المرء بدراسة جزء مُعين ومخصوص عبر مدى زمني ما))^(٢)، كما أنها تنطلق في تعاملها مع النّص على أساس تفسيره على وحدات؛ والنُّظر إلى هذه الوحدات كتكوين متكامل يتصلُّ بعضها مع بعض. أي أنّ هدف التّحليل البُنيوي هو التّركيز على الوحدات (الأنساق) الصُّغرى فالكبرى ومبشراً إلى النّظام الكلي، والنُّظر إلى هذه الوحدات قائم على أساس

(١) المرابا المعدية - عبد العزيز حمودة: ١٦٣.

(٢) دليل الناقد الأدبي: ٣٥، وينظر: البنيوية وما بعدها - جون ستروك: ١٤.

التكامل الناتج من اندماجها فيما بينها، وهذه هي الفرضية الجوهرية التي يتمسك بها منهج البنيوية من حيث كونه بدرس ((العلاقات القائمة بين عناصر في نظام يشترط كل منها وجود الآخر، وليس بين جواهر كل منها مستقل بذاته))^(١).

ويمكن أن نُعرّف النسق بحسب هذه الخلفية أنه نظام ذاتي مُنغبر يتكيف مع الظروف الجديدة الأنية وليس نظاماً ثابتاً وجامداً، وهو في إطاره عبارة عن مجموعة القوانين والأنظمة التي تحكم الانتاج الأدبي والفردية وتمكنه من الوصول إلى الدلالة من دون الرغبة والسعي بالاهتمام بها. هذا الاهتمام على دراسة النص دراسة مُفصلة يُمثل علامة بارزة على موت المؤلف واقصائه من العملية الإبداعية، وهذا هو جوهر البنيوية الفاضلي بعدم اعطاء ((الكاتب الفرد أو الذات أية مُبادرة أو غاية تعبيرية أو تصميم في إنتاج العمل الأدبي، بل بدلاً من هذا يقال عن النفس الواعية انها شيء مصنوع))^(٢).

وليس المؤلف وحده بحسب الوجهة البنيوية مغيباً عن العمل الإبداعي، بل حتى القارئ الذي لا يستطيع تقديم انطباعات تصورية جديدة إلا في ضوء ما تفصح عنه الانساق أو النظام الكلي القائم على جُملة من الثنائيات الضدية، على العكس من القارئ التفكيكي الذي يُسمح له بقراءة النص مرّات عدّة والخروج بدلالات عدّة في الوقت نفسه، كما أنّ عمل البنيوية ينحصر في إطار تحليلي بحث من دون الوقوف على بيان المُعطيات التقييمية، فهي تغور في أعماق النص وتقف على بُنيات لغوية دقيقة وما بها من تنظيمات تعرض التحولات البنائية عبر شبكة الثنائيات الضدية من دون الاهتمام بعملية التقييم وما تم التوصل إليه، وهذا الأمر يحيلنا على قضية ثانية ركّزت عليها ألا وهي قضية الشكل والمضمون فهي تؤكد على ضرورة دراسة الشكل والمضمون معاً كونهما يستحقان العناية نفسها، على العكس من دعوات الشكلايين القاضية بضرورة الاهتمام بالشكل الفني.

هذه القضايا التي عالجتها ووقفت عليها البنيوية تلفي بنا نحو شاطئ التقسيم وذلك من حيث وجود بليوتين إحداهما لغوية وأخرى أدبية، وهما يختلفان في الكثير من الأمور مع الاحتفاظ بجوهر الثبات الذي تدعو إليه البنيوية أي قواعدهما العامة التي لا يمكن الحياد عنها.

وإذا ما أردنا التعرف على الفترة الزمنية التي عملت فيها كل منهما فإننا نجد ((أنّ

(١) البنيوية وما بعدها: ١٥. وينظر: المرابا المحدبة: ١٧٧.

(٢) البنيوية والتفكيك الأدبي - جيرارد جنيت - ترجمة وتعليق - د. نزهة كسيبي - مجلة البيان - العدد - ٢٦٢ - ٢٦٤ - ١٩٨٦: ٤٤.

النموذج البنيوي للغة قد استمر منذ أيام سوسير حتى منتصف الخمسينيات حيث تخطاه النموذج الثوليدي، أما البنيوية الأدبية فقد بدأت في براغ عام ١٩٢٨ لمظهر في الثلاثينيات كثير من الدراسات البنيوية الهامة في الأدب وبخاصة لدى مدرسة براغ^(١). فالبنوية اللغوية في جوهرها تقف على دراسة الأنظمة اللغوية وما يطرأ عليها من تغيرات في ضوء الإنتماء للنص. أي الوقوف على دراسة الأصوات والتجرب والبيئات الصورية والتركيبية وغير ذلك. وهذا الشيء نفسه نجده في البنيوية الأدبية؛ مع فارق دراسة النظام اللغوي ضمن علم اللغة عند البنيوية اللغوية ودراسة النظام اللغوي في الأدب عند البنيوية الأدبية، فالبنوية ترى أن الأدب ((صيغة متفرعة عن صيغة أو هوبنية ضمن بنية أشمل هي اللغة (أي الكتابة كمؤسسة اجتماعية) أي تحكمه قوانين وشفرات واعراف محددة تماماً كما هي اللغة كنظام، ويصبح الأدب من هذا المنظور نوعاً من الممارسة الفعلية مقارنة مع الكتابة عموماً))^(٢).

هذه الصحوه المتعكسة وتحول المسار اللغوي إلى الأدبي شهدت ذروتها عندما قدم كل من جاكسون وتينانوف نظرية تدعو إلى وجود أنظمة أدبية إلى جانب اللغوية تزامنية في جوهرها يمكن قياسها على اللغة قياساً دقيقاً يعمل على وفق القواعد والقوانين^(٣). إلا أن هذه الندوة بلغت قممها وأصبحت البنيوية الأدبية شيئاً قائماً بذاته له شروطه وأصوله في العمل على يد بروب وكلود ليفي شتراوس، فهروب تحسب له عملية الشبق في طرفي باب هذه النقطة المهمة عندما درس القصة الشعبية الروسية وحدد فيها العناصر الثابتة والمتغيرة في الوقت نفسه، وتوصل إلى اكتشاف أربعة قوانين عامة تحكم التعامل مع القصة الخرافية إلى جانب نظريته الفاحصة بالوظائف التي قال أنها تصل إلى إحدى وثلاثين وظيفة يقسمها على وحدات تحدد مراحل تطور القصة، كما أنه انتقل من دراسة القصة الواحدة الخيالية كوحدة بنائية متكاملة مفردة إلى تصور عام لكيفية البنية يسميها بالنموذج أو القصة العمدة التي تتوافر فيها كل الاحتمالات البنائية للوظائف الإحدى والثلاثين التي ذكرها.

وقد جاءت دراسة كلود ليفي شتراوس للأساطير، وهي دراسة في الأنثروبولوجيا البنيوية متكاملة لدراسة بروب، وعنيفة فصلاً من التخطيط ما بين البنيوية اللغوية والأدبية، وقد انطلق في دراسته للأسطورة ومسرحية أوديب ملكاً من جوهر البنيوية

(١) بوس البنيوية: ليونارد جاكسون: ٩٥.

(٢) دليل الناقد الأدبي: ٣٧. و البنيوية والنقد الأدبي - جيرارد جيتيت - ترجمة وتعليق - د. نزيه كسبي - مجلة البيان - العدد - ٢٦٢-٢٦٤ - ١٩٨٦: ٤١.

(٣) ينظر: بوس البنيوية: ٨٠، والمرابا المعدي: ١٩٢.

اللغوية المعتمدة في تحليلاتها على الانساق الصغرى فالكبرى وصولاً إلى النظام العام أو الكلي، وذلك بغية الوصول إلى إقامة نموذج لنسق أدبي عام باستخدام أدوات المنهج التجريبي الذي استندت إليه البنيوية منذ البدء، وذلك من أجل تأسيس قاعدة علمية مكتملة تضاهي وتمائل القاعدة العلمية التي تستند إليها البنيوية اللغوية^(١). واستناداً إلى هذا التأسيس للبنيوية الأدبية يمكن عرض ما يخص البنيويتين باختصار وهي كالآتي:

١. وصلت البنيوية اللغوية إلى أوج قمتها في الخمسينيات والستينيات وبعدها جاءت البنيوية الأدبية لتعلن بزوغها بعد نهاية الستينيات. لهذا فإن البنيوية وصلت إلى ذروتها ولاسيما في فرنسا كما يقول محمد عناني ((ابان الستينات كما هو معروف في كتابات رولان بارت وجيرار جينيت و أ.ج. جريماس ورومان جاكوبسون وتزفيتان تودوروف))^(٢).
٢. تُركز البنيويتان على أدبية الأدب وليس على وظيفة الأدب، أو معنى النص وهذا يعني أنه يستوجب على النُقد البنيوي دراسة النص عبر قراءته للبني الصغرى والعلاقات التي تربطها وصولاً إلى النظام الكلي والعلاقة التي تربطها بهذا النظام.
٣. تؤكد البنيوية الأدبية على جانبين مهمين الأول: إن بنية النص الأدبي شأنها بذلك شأن بنية اللغة تمثلُ نسقاً مُتكاملاً. الثاني: إن البنيوية هروب من الذات بل نقيض لها.
٤. ترى كل من البنيويتين أن الكل أكبر من مجموع اجزائه، على النقيض من مفهوم البناء العضوي للنص الأدبي عند النقاد الجدد.
٥. تؤكد البنيويتان أن المعنى يستمد ويستخرج من النسق باختلافه.
٦. الأصوات في البنيوية اللغوية تقابلها المايتمات في البنيوية الأدبية، والكلمات تقابلها وظائف بروب أو وحدات شتراوس التي قد تكون أحداثاً صغرى أو شخصيات، ولكن نقطة الفصل والاختلاف تأتي بعد نسق الجملة.
٧. هناك محوران يُنظمان العلاقات بين البني الصغرى وصولاً للنظام الكلي هما الأفقي الذي يعني توالي أو تتابع مُفردات الجملة أو وحداتها الصغرى، والرأسي أو ما يُسمى العمودي وهو الخطّ الوهبي الذي يضم مُفردات تحمله تمثل

(١) ينظر: المرزا المحدبة: ١٩٨ - ٢٠١.

(٢) المصطلحات الأدبية الحديثة - محمد عناني: ١٠١.

حصيلة لغوية يكتسبها الكاتب^(١).

٨. تهتم البنيوية الأدبية بشيء آخر فهي تُحاول القيام بإيجاد قياسي بين البنية النظامية للغات وبين المعايير الثقافية التي تَمْتَنِدُ إليها الأشكال الفنية المختلفة^(٢).

وعلى الرغم من حساسية القضايا التي تناولتها البنيوية وما تبعها من رفض لأغلبها من التداولية فإن القضية التي شغلت بال النقاد وحملت مدى أرحب من الإشكاليات وأسست شرحاً في المفاهيم ما بين البنيوية والتداولية هي قضية اللغة والكلام. أو ما أسماها نعوم تشومسكي الكفاية اللغوية والأداء الكلامي. فالبنيوية قد اهتمت باللغة بوصفها نظاماً له قدسيته والتداولية اهتمت بالكلام بوصفه نظاماً يضاهي النظام اللغوي. فدي سوسير الذي يُعدُّ الرائد الأول للبنيوية فَرَّقَ بين اللغة والكلام؛ فاللغة كما يرى سوسير ((في ماهيتها نظام اجتماعي مستقل عن الفرد، في حين أن الكلام هو منها بمثابة التحقيق العيني الفردي))^(٣). وعلى هذا فإن اللغة من وجهة نظر سوسير نظامٌ شاملٌ من الأنظمة والقواعد وهي ثابتة في معزاهها، في حين يُمثل الكلام الهيكل أو الجسد الحي المنتظم لتلك القواعد؛ لأنَّ الكلام تقع عليه مسؤولية استخراج المناسب من ركاب اللغة وتوظيفه بالشكل الذي يتناسب والتواصل^(٤). ولهذا ركز سوسير على اللغة واهمل الكلام. وهذا ما تبنته البنيوية في عملها ورفضته التداولية لأهمية الكلام بالنسبة إليها. أمَّا الناقد الأمريكي نعوم تشومسكي الذي أسس النظرية التوليدية والتحويلية، فكان هو الآخر مُدركاً لأهمية الفصل بين اللغة والكلام مع اهتمامه باللغة. وهذا واضحٌ في قوله: ((الكفاية اللغوية بأنها معرفة المُتكلم الضمنية بقواعد اللغة، كما يُحدد الأداء الكلامي بأنه تظهر هذه المعرفة في عملية التكلم الآتي. ويُشير إلى أنَّ الأداء الكلامي يخضع إلى عوامل نفسانية مُتعددة ولا يعكس بالتالي مباشرة الكفاية اللغوية))^(٥). وقد تبلورت مفاهيم تشومسكي بهذا الخصوص بعد سلسلة مخاضات عسيرة في تفهم لغويات نصي ما وما يتبعه من اختلاف إذا ما جاء الاهتمام بالأداء الكلامي، ونبعت مخاوفه من الأداء الكلامي لما رآه من تجدد الجُمْل وهذا يعني عملياً هتدأً غير متناهٍ من المعنى. وأشار إلى ذلك صراحة بقوله: ((إنَّ جُمْل اللغة مُتجددة

(١) ينظر: المرايا المحدبة: ١٧٤-٢١٠.

(٢) ينظر: بؤس البنيوية: ٨٠.

(٣) مُشكلة البنية - زكريا إبراهيم: ٤٨.

(٤) ينظر: المرايا المحدبة: ١٦٣.

(٥) الاسلية التوليدية والتحويلية وقواعد اللغة العربية (النظرية الاسلية) - د. ميشال زكريا: ١٨.

بصورة دائمة وعددها لا متناهٍ، مما يستتبع عدم امكانية دراسة الأداء الكلامي من خلال دراسة لانحة جمل اللغة المحتمل ورودها والتي اختبرها مُتَكَلِّمُ اللغة^(١). وهذا يعني أنَّ التعددية الجمالية تُبنى من وجهة نظر البنويين والتوليديين بخطر التشابك الدلالي، لأنها ستخرج من جمود القواعد التي تدين به البنيوية على نحو كبير - إلى حيثيات الانفتاح الدلالي الذي سيُغير المفاهيم ويُزيد احتمالية تأثيره في المقابل الذي لا يغيه البنيوية في الأساس. وهذا جوهر فاعل التزمته به التداولية؛ لأنَّ الجمل بحسب رؤية التداوليين لا تخضع إلا لسطوة الجمود واعطاء الدلالة الواحدة أو المتعددة نسبتها ضمن اطار مُفهِدٍ فوامه الرُصْفُ التركيبي، في حين أن الاداء الكلامي مُنفتح على معالم تنويرية لإمكانية النطق من تخطي الحواجز الثابتة والافلال العسرة التي كبلت بها البنيوية اللغة. وقد أشار إلى هذا الأمر بوضوح تودوروف بقوله: ((إنَّ بنية الجملة مُتصلية لأنها من مُعطيات اللغة، ولا يدخل عليها المُستخدَم الفردي سوى تعديلات طفيفة، وتكون بنية المنطوق بالمقابل أكثر ليونة ونسج بعدة تنوعات، فنرى ان المنطوق - وهو يتابع منطقي لعدة جمل - أقل شفافية من الجملة، فالجملة بالنسبة إلى شعور المتكلمين بديهية، ان صفة طبيعية تجعلها غير مدركة وبالمقابل نرى ان المنطوق يفترض دوماً قرارا من جانب المتكلم، وخاصة فيما يتعلق بتنظيمه الشامل))^(٢).

ومهما يكن من أمر التقاطب والتناظر بين اللسانيات البنوية واللسانيات التداولية؛ فان المشروع اللساني بحسب ركونه إلى واحدة من المنظومتين الفكرتين (الجدائة وما بعد الجدائة) له الأثر الفاعل في إحداث النقلة النوعية في الاجهزة المفاهيمية المتعددة تبعاً لتعدد اللسانيات. وتبقى اللسانيات التداولية الاكثر بروزاً وتأثيراً في الآخرين من بين تلك اللسانيات لإمكانية تحقيقها الأثر الاتصالي التواصلي؛ لأنَّ اللسانيات برمتها ولاسيما الصوتية والتركيبية والدلالية قد اهملت الواقع الاجتماعي ولم تُسأله مثلما سألته التداولية، ولهذا قال فيليب بلانشيه ان اللسانيات الاجتماعية قد عابت على اللسانيات السابقة لشروعها بقتل عملية التواصل المعرفي إذ قال: ((إنَّ احدي المُواخِذات الأساسية التي وجهها علماء اللسانيات الاجتماعية والتداوليون - على حد سواء - إلى اللسانيات؛ هي كونها غير قادرة على أخذ الواقع الاجتماعي للاستعمالات بعين الاعتبار. إذ لا يُمكن لأي قاعدة اعرابية أو لسانية تقتصر على دراسة السُنن *corde* داخلياً من ذلك الكفاية التشومسكية واللسان السومبري))^(٣).

(١) اللسانية التوليدية والتحويلية وقواعد اللغة العربية (النظرية اللسانية) - د. ميشال زكريا: ١٧.

(٢) الأدب والدلالة: ١٢.

(٣) التداولية من أوسن إلى غوفمان: ٣٥.

المحور الثاني

التداولية وصلتها بالسيمياء

لم يكن تيار الحدائثة الذي تزعمته اللسانيات باختلافها وتسيدها البنيوية بمنأى عن الانزلاق في هوة التيه جزاء ارتكازه على آفاق ضيقة، فهو تيار لم يتجاوز حدود النص ولم يُعْرَهِمَةً إلا للغة على حساب المُعْطِيَات الجمالية الأخرى ولاسيما التواصلية النفعية، ولهذا أصبح هذا التيار عُرضة للسوء والانتقاص من هويته العلمية من تيار مناوئ له وهو تيار ما يعد الحدائثة الذي تخطى حواجز الحدائثة وأسس قواعده الجديدة، وتمثل التخطي بتشكيل نواة معلوماتية مُغايَرة عما كانت عليه سابقاً، وهذا واضح في اغداق الأهمية للتواصل المعرفي عن طريق الخروج من شرنقة النص وانغلاقه على نفسه بما تقدمه لُغته من تراكيب وأنساق إلى قضاءات تواصلية مُتعددة مُمثلة بالعلامة التي تدفع بها النص من داخله نحو المحيط الخارجي لتمثيل الواقع الاجتماعي، مع اختلاف في المناهج والمدارس التي انضوت تحت سقف تيار أو منظومة ما بعد الحدائثة. وما يُهمنا هنا المنهج السيميائي الذي يُعدُّ الراعي الحقيقي لولادة التداولية؛ لما تضمنته من رؤية مفصلية مهمة حددت بموجها المفاهيم وازداد بذلك سقف المطالبة بالإمكانات اللازمة التي تدفع نحو زيادة الاهتمام بالواقع واحترامه عن طريق معرفة ما تؤديه الوظائف اللغوية من تأثيرات في المُتلقي، أي الانطلاق من البؤرة اللغوية القابعة في نص ما إلى عدييات الواقع الاجتماعي وذلك بفضل العلامات المُتولدة من اللغة. وعليه اتكأت التداولية على السيميائية اتكاء كبيراً حتى قيل عنها انها الوريث الشرعي للسيميائية.

لكي نبين كيف حصلت الوراثة ينبغي علينا معرفة المؤسسين الأوائل الذين يَرِجِعُ لهم المُبْتَدِئُ في تشكيل هذا النتاج، فميجان الرويلي وسعد البازعي قالا بأن أصل هذه التسمية - أي التداولية على الرغم من أنَّهما أطلقا تسمية الذرائعية الجديدة - تعود إلى ((مُنْظَرِي السيميائية مثل تشارلس موريس وتشارلس ساندرز بيرس؛ وجون ديوي على وجه الخصوص، وتختلف دالاتها حسب الحقل الذي نبعث منه))^(١)، أي أن السيميائية كانت النواة الأكثر تقدماً في تشكيل التداولية ببيتها النهائية، على الرغم من استناد التداولية لسنوات طويلة إلى اللسانيات الحدائثة التي أصبحت جزءاً منها ومُكَمِّلة لها في الوقت نفسه بعدما نهلت من افكار تيار ما بعد الحدائثة الممثل

(١) دليل الناقد الأدبي: ١٠٠.

بالسميائية؛ لأن التداولية قد أفادت من اللسانيات من جانب العلاقات اللغوية فيما بينها وما تعنيه داخل النصوص، وتحولت للإفادة من السميائية التي تجاوزت حدود النص وما تعنيه التوظيفات اللغوية خارجه. وقد أشار الجيلالي دلاش إلى وجود سميائيات كان لها الفضل في تكوين اللسانيات التداولية وهذا واضح في قوله: ((يذكر أ.ماس U.MASS ود.فندريش D.Venderich في كتابهما الموسوم بـ "Sp Rachichers" Pragmatikund) أربعة منابع أساسية أدت إلى تكون هذا التخصص. أي اللسانيات التداولية وهي على التوالي:

- السميائيات المنطقية المرتبطة بـ (نادي فينا Vienne).
- سميائيات ش.موريس التي تفرع عنها تيار طاع أعيد التفكير فيه من خلال (مكون العمل) Composante Tra ويمثله ج.كلوس G.KLAUS من ألمانيا الديمقراطية.
- الذرائعية الأمريكية Pragmatisme لـ ش.س.بيرس (C.S.Peirce))^(١).

وعلى الرغم من تأثير التداولية بالسميائيات المذكورة بدرجات متفاوتة إلا أن سميائية بيرس تُعدُّ من أكثر السميائيات تأثيراً في بناء النظام التداولي بهيئته الحالية. وقد أشار الجيلالي دلاش إلى أن تأثير العالم السميائي الأمريكي بيرس في التداولية كان كبيراً جداً، إذ كانت له اليد الطولى في المنعطف الذي حصل صوب اللسانيات التداولية، ويمثل موقف بيرس - كما وصفه (هابرماس) - العلمي بإسقاط تجربة التطور العلمي صوب السيرورة الجماعية^(٢). وقد ذكر فيليب بلانشيه أن سميائية بيرس تمثل سلفاً للتداولية لما قدمته من آراء بشأن العلامات والدلائلية وما نحو ذلك مما اهتمت به التداولية على نحو كبير ((وقد تعرضنا سابقاً إلى إسهام بيرس في التداولية، وهو الذي يعتبر مؤسس الدلائلية من خلال فلسفته النفعية (Pragmatiste) ولكن لكونه سميائياً بالأساس يُعدُّ سلفاً للتداوليين الذين جاؤوا من بعده، ويُعدُّ بيرس الدلائلية علماً يفضّل سائر العلوم لاستخدامه العلامات))^(٣). وعلى الرغم من الجهود الحثيثة التي بذلها بيرس في بناء منهجه السميائي واعتباره المؤسس للتداولية؛ فإنَّ ما جاء به الفيلسوف الأمريكي موريس يُعدُّ مهماً في وصول التداولية بمفاهيمها نحو مرحلة التأسيس الفعلي؛ فقد استخدم مُصطلح التداولية لأول مرة عام ١٩٣٨ بوصفه فرعاً من ثلاثة فروع رئيسة في علم العلامات السميائي، وهذه الفروع هي:

(١) مدخل إلى اللسانيات التداولية: ٥٠٤.

(٢) ينظر: المرجع نفسه: ٨.

(٣) التداولية من أومستن إلى غولمان: ٣٩.

١. علم التراكيب: وهو يعني بدراسة العلاقات الشكلية بين العلامات بعضها مع بعض.

٢. علم الدلالة: وهو يعني بدراسة العلاقات بالأشياء فضلاً عن التي تدل عليها.

٣. التداولية: وتعني بدراسة علاقة العلامات بمفسريها.

أما مرحلة التوضيح الفعلية والاكتمال البنائي للتداولية فكان في العقد السابع من القرن العشرين على يد ثلاثة فلاسفة هم أوستين وسيرل وغرايس، فضلاً عن دراسات كارناب^(١).

وبعد عملية البناء التأسيسي لمصطلح التداولية الذي رفع لواءه بيرس واعطاه موريس روحاً واكمل مرحلته التوضيحية أصبحاب مدرسة اكسفورد (أوستين وسيرل وغرايس) وما قدمه كارناب، يجدر بنا الوقوف على الجهاز المفاهيمي للسيمائية الذي تناول قضايا كثيرة افادت منها التداولية فيما بعد. واهم القضايا التي استندت إليها السيمائية وجعلتها محور اهتمامها (العلامة)، وكل القضايا الأخرى عولجت داخلها، والعلامة وما تؤديه من تأثير في المقابل هو ما راحت تلهث خلفها التداولية.

تعد العلامة رهينة العمل السيميائي وأحد أقطابه المهمة، وتُعرف بأنها ((شيء ما يحتل موقع شيء آخر، وهي ذات بعد تواصلية، إذ تُثير في فكر المستقبل علامة مرتبطة. وهذه العلامة المرتبطة بها هي على درجة من المطابقة تزيد وتنقص مع ما يُسميه بيرس (المؤول))^(٢). وهذا يعني أن العلاقة الاعتباطية بين الدال والمدلول التي اقترحها دي سوسير قد أخذت بعداً آخر في العلامة السيميائية: لأنَّ المؤول دخل عنصراً ثالثاً في عملية الإنتاج، وما يتحقق من مطابقة أو زيادة أو نقصان بين ما هو مخزون في ذهنه من علامات وبين العلامة المؤولة يُعدُّ انتصاراً للبعد التواصلية الذي تبغيه السيميائية، وهو ما اتكأت عليه التداولية على نحو كبير، لذلك يرى محمد عناني أن بيرس وجد ((ان العلاقة بين العلامة والعامل المفسر تعتمد على العلاقة بين العلامة وما ترمز له، فالعامل المفسر يرتبط بالشيء المشار إليه ارتباطاً يعادل -حسبما يقول بيرس- ارتباطه بالعلامة، ومن ثم يمكن اعتباره علامة أخرى أوجدتها العلامة الأصلية في ذهن الشخص الذي رآها أو سمعها وحاول فهمها))^(٣). وعليه فإنَّ العلامة الدلالية عند بيرس ثلاثية الأبعاد ((فتوليد الدلالة ثلاثي (مرجع/مدلول/دال)، ولكن أقطاب الثالوث

(١) ينظر: أفانك جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ٩. وتحليل الخطاب الشعري - استراتيجية النفاص -

محمد مفتاح: ١٢٨-١٣٩.

(٢) التداولية من أوستين إلى غولمان: ٤١.

(٣) المصطلحات الأدبية الحديثة: ١٥٦.

عند بيرس هي: المادة الدالة المكوّنة من حامل ومحمول والمدلول الذي يُمثله الدال، (المؤول)^(١)، والمؤول هو القطب الأساس في المعادلة التداولية مع الاحتفاظ بقيمة الدال والمدلول؛ لأنّ العلامة من منظور التداولية تكمن قيمتها في تحريك ذهنية المُتقبل لمعرفة مقاصد المتكلم في ضوء سياقٍ مقامي مُحدد قائم على المحاوره بين اثنين مع مراعاة الافتراضات المسبقة بين الطرفين والعناصر الاشارية التي يثبها تلك العلامة. فالعلامة السيميائية تعمل في محورين داخل النصّ أولاً، أي معانٍ ثابتة لما تدل عليه الدوال، وخارجه ثانياً، أي معانٍ مُتحركة تبعاً لما يُفصح عنه المؤول، في حين أنّ التداولية تُحوّل كثيراً على المحور الثاني الخارجي لما يُحققه من بعد تواصله عن طريق ترجمة الواقع المُحيط؛ مع عدم اهمال الاشارات الأولية المبينة داخل اللغة النصية. ولذلك فإن بيرس ((أرسي ثنائية طرفاها متمايزان وهما النمط «Type» والورود «Token». أمّا النمط فهو العلامة بما هي كيان مجرد مثالي وتقع في اللسان بالمعنى السويسري للفظ، أمّا الورد فهو الاستعمال الملموس للنمط في السياق، فالمعنى الحرفي هو من النمط؛ أمّا الدلالة في السياق فهي من الورد. ويمكن أن يكون الملقوظ حقيقة بما هو نمط، في حين انه عندما يكون وروداً فإنه يمكن أن يكون كاذباً بالنسبة إلى المرجع)^(٢).

وعلى وفق أهمية تقسيم بيرس الثنائي الممثل بالنمط والورد وما آل إليه من تعيين الادوار وبلوغ الأهلية وأحفية العلامة في بلوغ غايتها التواصلية ولا سيما في المنزى السياقي ذهب بيرس هذه المرة إلى تصنيف العلامات إلى ثلاث مجموعات هي:

- ((النوع الأول هو العلامة التي تشبه ما ترمز له أو ما تُمثله، مثل النموذج المعماري أو الخريطة وما إلى ذلك، وهو يطلق على هذا اللون الأيقونة «Icon»
- والنوع الثاني هو العلامة التي ترتبط فعلياً بما ترمز له مثل دوازة الزبح أو عقرب الساعة وهو يطلق على هذا النوع اسم المؤشر «Index».
- وأمّا الثالث فهو العلامة التي جرى العرف على ربطها بما ترمز له مثل الألفاظ، وعلامات المرور، وهو يطلق على هذا الضرب اسم الرمز «Symbol»^(٣)، وعليه فإن العلامة من هذا المنظور أكثر شفافية لاشتغالها على أرضية مُتحركة تميل بها باتجاهات مُتغايرة غرضها تقديم صورة الشيء بعدها التواصلية، لذا فالعلامات الثلاثة هي ذات أبعادٍ تواصلية

(١) التداولية من أوسنن إلى غوفمان: ٤١.

(٢) المرجع نفسه: ٤٢.

(٣) المصطلحات الأدبية الحديثة: ١٥٥. وينظر: التداولية من أوسنن إلى غوفمان: ٤٢.

مفتوحة تخرج الثابت وتتحرك به نحو التحول الذي يكون متغابراً على الدوام لتغاير الهوية الذهنية للمتلقين. وهذا يعني ان لا علامة ثابتة على الدوام إلا في أطر محدودة وضيقة؛ بل ان العلامة تنفتح إلى مديات أرحب في أفق الفضاء الذهني للمتلقي. وهذا هو البعد التواصلي الذي تبغيه التداولية ولكن شرط ان تكون العلامة في سياق مقامي مُحدد يتعارف عليه طرفا العملية الارسالية وهما المتكلم (المُرسل) وقصديته والمتلقي (المُرسل إليه) وانتاجيته. وبناء على ذلك فان العلامة السيميائية مُوجهة نحو الفعل ما دفع ذلك التداولية لأن تأخذها بعين الاعتبار. لذا طورت الأمر أكثر يتركزها على الأفعال الكلامية ولا سيما الفعل المنجز الذي ركز عليه أوستن وطوره سيرل -وهو ما سنتناولها في المحور القادم. وهذا يعني ان تأثر التداولية بالسيميائية واضح جداً في هذا المقام الذي لعبته العلامة المُوجهة نحو الفعل. وقد أشار فيليب بلانشيه إلى ان بيرس أكد اللحمة الصميمة بين السيميائية والتداولية قائلًا: ((وفي النهاية يؤكد بيرس واصلًا بين عمله كسيميائي وبين تأملاته الفلسفية أن وضع العلامة موجه نحو الفعل، ما دامت فكرة صنع الإنسان أشياء لنفسه تُعادل الآثار للمموسة والممكنة بواسطة تلك الأشياء التي يخلفها، واعتباراً لما تقدم فإن بيرس قد ألزم بوضوح الدراسة القوية بالمنظور التواصلي والدلالي الذي يسمُّ المقاربة التداولية التي تعنى بورود العلامة))^(١).

لم يكن موريس بمنأى عن التغيرات الحاصلة في ميدان السيميائية والتداولية، بل انضم إلى سيل التطورات الجارفة بغية خلق معالم جديدة تخدم المدونة النقدية للمعرفة. وتمثل برنامج التطويري بتتبع خطى بيرس ولا سيما فيما يتعلق بالثالوث الدلالي، فقد أجرى عليه تعديلاً وحصره في ثنائية وابدل أحد مصطلحاته، إذ ((أخذ موريس عن بيرس الثالوث الدلالي مُعدلاً فيه لفظ المؤول، وقد أعاد مفهمته ووضعا له تسمية جديدة وهي المُسمى (*Designatum*) والمسمى يظل مختلفاً عن المؤول (*Interpretant*)، أو الشيء المحيل عليه أو الشيء المرجعي (*Denotatum*)، ولكنه يُحيل على صنف من الأشياء أكثر من كونه يحيل على شيء محدد))^(٢). وهذا يعني ان وظيفة الدليل الثلاثية عند بيرس قد تقلصت عند موريس لا لأجل العبث أو تحويل المؤشر

(١) التداولية من أوستن إلى غولمان: ٤٣.

(٢) التداولية من أوستن إلى غولمان: ٤٤.

الاتجاهي نحو مضان الضبابية؛ بل من أجل زيادة الفائدة وترميم مكان الخلل في المسعى عند بيرس. وتمثل ذلك باهتمام موريس بالبعد السلوكي الذي يطغى على العملية التواصلية عن طريق إحداث الأثر في المستقبل. ورأى الجليلي دلائل انه حتى الجسم عند موريس يعمل على إحداث التأثير والتأثر في المحيط في آن واحد، وهذه دلالة على طغيان البعد السلوكي على فكره وتسيدته بقوة في نظريته بشأن الدليل ((النظرية السيمائية - بالنسبة إلى هذا اللساني التداولي الأمريكي - يجب تصورها كسيرورات ملوك، فالجسم من حيث هو جسم يفعل في المحيط ويفعل به. علماً بأن وظيفة المحيط وأهميته عاملان حاسمان في ارضاء حاجاته، ومن ثم فإن هناك تفاعلاً بين هذين العاملين، أن موريس لا يبتعد كثيراً عن تصور بيرس اللهم الا من حيث البعد السلوكي))^(١). وعلى هذا يبدو ان التحول نحو مضان الاتصالية أتى أكله عن طريق تبليغ الأدلة عن جريان حال التواصل نتيجة التأثير والتأثر بعملية معكوسة. هذه الأدلة لها وظائف متعددة إلا أن دلائل ركز على اثنين منها، وهي جوهر النظرية الموريسية في هذا المجال، فالأدلة عند موريس بحسب دلائل تكون مسؤولة عن نقل وظائف كثيرة أهمها وهي الأولى ان بُنية اللغة برمتها بحسب وجهة نظر اللسانيات التداولية عبارة عن نظام من السلوك، والثانية ان وظيفة الدلالة المُسمى تروى المرسل إليه إلى رد فعل ما^(٢). كما أن موريس ضيق الخناق على كل دليل، إذ وجد ان كل دليل يحتوي على أربعة عناصر رئيسية لها خصائصها الخاصة في الاداء الوظيفي، وهذه العناصر هي:

- العنصر الذي يقوم مقام الدليل أو الناقل.
- العنصر الذي تتم احالة الدليل عليه أو المدلول عليه.
- عنصر الاثر الذي يحصل لدى المرسل إليه والذي يبدو له وكأنه الدليل المؤول.
- المؤول^(٣).

إلى جانب ما تقدم فإن موريس وضع يده على الهدف الاسمي من التأثيرات السلوكية، وكيفية تحقيق المغزى المرجو منها، فقد وجد ان تأثير العلامة على المستقبل المُتلقي يجب ان تدفعه نحو ادراك وتصوير كلية الشيء. وهذا يعني اجمالاً ارتقاء الدلالة نحو سقف التوليد القوي. لهذا راح يُؤسس لمفهوم (درجة توليد الدلالة)، وميز

(١) مدخل إلى اللسانيات التداولية: ١٠.

(٢) ينظر: المرجع نفسه: ١١.

(٣) ينظر: مدخل إلى اللسانيات التداولية: ١١-١٠.

بين ثلاث درجات بحسب قوتها ((وهذه الدرّجة تبدو ضعيفة عندما لا تقوم العلامة سوى بإثارة انتباه المتقبل إلى الشيء المرجع، غير أنها تكون درجة قوية عندما تمكن العلامة المتقبل من تمثيل مجموع خصائص الشيء وهو غائب مادياً، أمّا الدرّجة الوسطى فتكون عندما تثير العلامة تمثّل الشيء عند المتقبل بذكر بعض خصائصه (فحسب))^(١).

ولا يمكن في النهاية نسيان الدور الذي لعبه كارناب المنتهي إلى مدرسة اللغة الشكلية أو الصورية ضمن (حلقة فيها) في تفعيل الانتقال من الدلائلية إلى التداولية اللسانية، وقد أكد على أن أي لسانيات هي بالضرورة تداولية ما دامت في أصلها تعيل على المتكلم. كما أثبت الطابع التجريبي الثابت للتداولية^(٢). وهذا يعني أن السيميائية بوصفها لسانية الاداء والوظيفة هي أكثر قرباً من التداولية ان لم تكن هي نفسها بوجه آخر.

(١) التداولية من أوستن إلى غولمان: ٤٤.

(٢) ينظر: المرجع نفسه: ٤٥.

المحور الثالث

الجهاز المصطلحي المفاهيمي للتداولية

تتضمن النظريات والفلسفات والتأيرات وما نحو ذلك في محتواها العملي أجهزة مفاهيمية مُصطلحية تختلف فيما بينها تبعاً لاختلاف المنظومة الفكرية العليا، فمن خلال تلك المُصطلحات المفاهيمية يعرف الناقد أو القارئ انه في ميدان هذا العلم أو تلك الفلسفة وهلم جرا، فالتداولية بوصفها علماً يبحث في علاقات العلامات بمؤولها له جهازه المصطلحي الخاص به والذي من خلاله يتمكن من معرفة أدق تفاصيل هذا العلم؛ واي المُصطلحات جذيرة بالأهلية كونها تمثل عصب العلم وحيوته. لهذا فان التداولية ارتكزت على أربعة أقطاب مفاهيمية يمكن تناولها بحسب سلم التداول والافضلية، وهي: نظرية الأفعال الكلامية، الاستلزام الحواري (نظرية المحادثة)، الافتراض المسبق، العناصر الاشارية.

❖ أولاً: نظرية الأفعال الكلامية

تُعدُّ الأفعال الكلامية أكثر المحاور التداولية اهتماماً من النقاد والباحثين، كونها تُمثل الشريان الرئيس فيها، ومن خلالها ابتعدت التداولية عن حقل اللسانيات التقليدي الممثل بعلم الأصوات وعلم التراكيب وعلم الدلالة وياشرت بتأسيس لسانية قائمة على الاهتمام باللغة الطبيعية وقرزنة قناة التواصل المعرفي بين الناس. فالفعل الكلامي من وجهة نظر التداولية هو قوة الفعل الانجازي في أحداث الاثر في المقابل، ولقيمتها فقد اهتمت به العلوم المعرفية ولكن على نحو مغاير لما جاءت به التداولية ((فعلماء النفس يرون اكتسابها شرطاً أساسياً لاكتساب اللغة كلها، ونقاد الأدب يرون فيها إضاعة لما تحمله النصوص من فروق دقيقة في استعمال اللغة وما تحدثه من تأثير في المتلقي، والانثروبولوجيون يأملون أن يجدوا فيها تفسيراً للطقوس والرُقى الساحرية، والفلاسفة يرون فيها مجالاً خصباً لدراسة علاقة اللغة بالعالم، واللغويون يجدون فيها حلولاً لكثير من مشكلات الدلالة والتركيب، وتعليم اللغة الثانية، أما في الدرس التداولي فان الأفعال الكلامية تظل واحدة من أهم المجالات فيه، ان لم تكن أهمها جميعاً، بل ان التداولية في نشأتها الأولى كانت مرادفة للأفعال الكلامية))^(١) اذن فالأفعال الكلامية مهمة في جميع الحُقُول ولا سيَّما الحقل الدلالي التداولي لما

(١) أنفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ٤٠ - ٤١.

يقدمه من توصيف عام للفعل في قوته الانجازية وفترته التأثيرية، وبذلك ينشغل الغرف التواصلي الذي على أساسه تأسست التداولية. ولأهمية الأفعال الكلامية في المنجز الوظيفي أصبحت في ميدان التداولية نظرية كاملة لها أبعادها وجذورها. وهي جذور بلورة النواة الأولى المكونة للتداولية: لأن نظرية الأفعال الكلامية تأثرت بفلسفات متعددة ساهمت في إيجاد التداولية أخيراً. لذا لا ضير من عدّ الأفعال الكلامية نظرية مهمة في اللسانيات التداولية. ولكي نكون على مقربة من تشكيلها البنائي ينبغي علينا عرض المراحل التكوينية التي ساهمت في بنائها ولا سيما ما جادت به الفلسفة التحليلية عليها ابتداء من فريجه وفتغنشتاين وانتهاء باوستن وسيرل. ويعرض تلك المراحل ستوضح النظرية الكلامية.

مثلت الفلسفة التحليلية النواة الأولى لتشكيل التداولية لاهتمامها البالغ باللغات الطبيعية بعد أن كانت مهملية في السابق في الفلاسفات الأخرى. لذلك ((يُعتبر هذا المذهب الفلسفي ردة فعل قوية على الفكر الفلسفي القديم برمته، ومن أهم ما أنكرته الفلسفة التحليلية على ذلك الفكرانه لم يلنفت إلى اللغات الطبيعية ولم يولها ما تستحق من الدراسة والبحث، فسعت إلى ردم هذه الهوة والتكفير عن هذا الذنب باتخاذ اللغة موضوعاً للدراسة باعتبارها أولى الأولويات في أي مشروع فلسفي يتوخى فهم الكون ومشكلاته فهماً صحيحاً))^(١).

ويُعدُّ الفيلسوف الألماني غوتلوب فريجه المؤسس الأول للفلسفة التحليلية في العقد الثاني من القرن العشرين، وقد خطى في مجال التحليلات اللغوية أشواطاً مهمة ولا سيما وقوفه على الدور الذي تلعبه العبارات اللغوية، فقد ميز بين مقولتين لغويتين هما اسم العلم، والاسم المحمول، وهما بالتسمية له عماد القضية الجمالية، ويمكن الفرق بين اسم العلم والاسم المحمول من حيث ان الأول يشير إلى شيء فردي معين لا يتخطاه، أي يتمم المعنى على نحو مستقل من دون الحاجة إلى لفظ آخر ليتم معناه، في حين ان الاسم المحمول تقع عليه مسؤولية وظيفة التصور، أي يستند مجموعة من الخصائص الوصفية الوظيفية إلى اسم العلم. أي انه يحتاج اسم العلم ليعطيه معنى. وعليه فان الجديد الذي جاء به فريجه في ابحائه اللغوية هو رؤيته اللسانية من خلال تمييزه بين اسم العلم والاسم المحمول، وبين المعنى المرجع، وربطه

(١) التداولية عند العلماء العرب: ٢٠. يمكن اجمال مفهوم الفلسفة التحليلية في جملة من المطالب هي: ١- برورة التخلي عن أسلوب البحث الفلسفي القديم وخصوصاً جانبه الميتافيزيقي. ٢- تخير بؤرة الاهتمام اللساني من موضوع نظرية المعرفة إلى موضوع التحليل اللغوي. ٣- تجديد وتعميق بعض المباحث اللغوية، فهما مبحث الدلالة والطواهر اللغوية المتفرعة عنه. ٢٦-٢٢.

بين مفهومي الاحالة والاقتضاء^(١).

ومهما يكن من أمر القضايا اللغوية التي تناولها فريجه فان الكلمة الفصل في كل ما ورد في فصله بين اللغة العلمية واللغة العادية، فالأولى تكون أحادية المعنى وعلى نحو صريح لأن مهمتها الأساس تكمن في وضع الحقيقة، وهي بذلك لغة مغلقة لا تحوّل فيها، ولهذا قال عنها فريجه انها ضرورية للبرهنة الحمايية، أما اللغة العادية فهي مُنفتحة على مديات أرحب من المعاني، وهذا دلالة على امكانية ثرائها التّواصلية. وبذلك يُعدُّ فريجه الواضع الأول لأساس علم الدلالة ومن ورائها التّداولية^(٢).

وضمن السلسلة التّواصلية لتطوير برنامج اللغة العادية جاء الفيلسوف الانكليزي ذو الاصل النمساوي (لودفيغ فثغنشتاين) ليضع لمساته على اللغة العادية وبيث فيها روحاً، وتمكن من ذلك على حساب الوضعية المنطقية بزعامه رودولف كارناب، والظاهرانية اللغوية بزعامه ادوموند هومرل، إذ تُعد الوضعية والظاهرانية فرعين مهمين من الفلسفة التحليلية إلى جانب فلسفة اللغة العادية التي تزعمها فثغنشتاين. ولكل منهما عملها الخاص، ولكنهما اتفقا في جوهر عام مفاده الاهتمام باللغات الصورية المصطنعة على حساب اللغات الطبيعية التي تسعى التّداولية لإخراجها إلى دائرة النّور، فالوضعية عملت على اقصاء اللغات الطبيعية من ميدانها وتحجيم دور القدرات التّواصلية فيها، واهتمت ببناء لغات بديلة ذات بعد تواصلية محدود وضيق. وهذا ما نفرت منه التّداولية. أما الظاهرانية فإنها ابتعدت عن الاهتمام بكيونة اللغة واتجهت نحو دراسة الاطر الفكرية وذلك ما جعل التّداولية غير مُهتمة بما جاءت به سوى مبدأ القصدية الذي يُعدُّ أساساً في السياق المقامي التّواصلية ما بين المخاطب والمخاطب. وهو ما عوّل عليه أوستن كثيراً في دراسة ظاهرة الأفعال الكلامية. والحال نفسها عند سيرل. وعليه لم يبق سوى فلسفة اللغة العادية التي جاء بها فثغنشتاين لتكون محط انظار التّداوليين. وذلك لبناء جهاز مفاهيمي تداولي خاص باللغة الطبيعية ولا سهماً في زيادة محورها التّواصلية عبر التركيز على الاستعمال^(٣).

وعلى الرغم من البدايات القوية والمثيرة للجدل لتأسيس نظرية الأفعال الكلامية - وهو ما وجدناه عند فريجه وفتغنشتاين- فان مرحلة النضوج والاكتمال قد ابصرت النّور على يد فلاسفة مدرسة اكسفورد، وكان أكثرهم حظوة في تطوير اداء الأفعال الكلامية هو أوستن وتلميذه سيرل، وقد أشار محمد مفتاح إلى ذلك بقوله: ((على ان

(١) ينظر: التّداولية عند العلماء العرب: ٢٠١٨. و المدخل إلى علم اللغة: ٣٤٢- ٣٤٣.

(٢) ينظر: التّداولية من أوستن إلى غوقمان: ٣٠.

(٣) ينظر: التّداولية عند العلماء العرب: ٢٠-٢٢. والتّداولية من أوستن إلى غوقمان: ٣٠-٣١.

هناك تياراً آخر وهو متداخل مع السابق اهتم بأحد الجوانب الأساسية في النداولية وهو دراسة الأفعال الكلامية، ويقوم هذا الاتجاه على فرضية أساسية مؤادها ان الكلام يقصد به تبادل المعلومات مع القيام بفعل محكوم بقواعد مضبوطة في الوقت نفسه، وهذا الفعل يهدف إلى تحويل وضع المتلقي وتغيير نظام معتقداته ومواقفه السلوكية، وزعماء هذا الاتجاه هم فلاسفة أكسفورد وعلى رأسهم أوستن^(١) وسوزل^(٢).

قدم أوستن للنداولية خدمات جليلة جعلت منها صرحاً قريداً في ميدان اللسانيات والمدونة النقدية كلاً. وترجع أهمية آرائه إلى كونه وقف على أهم عصب في النداولية وهو الأفعال الكلامية وتناولها من زاوية متعددة بغية فحص أهليتها لتحقيق في النهاية الأهلية والإستقلالية للنداولية.

جاءت آراء أوستن في الأفعال الكلامية كردة فعل على المفهوم السائد الخاص بوظيفة اللغة. وهو مفهوم يرى ان وظيفة اللغة قائمة على وصف العالم وصفاً يحتمل الصدق والكذب واطلق على ذلك المغالطة الوصفية. واتجه مفهومه المعاكس للأول نحو وجود عبارات تشبه العبارات الوصفية الوظيفية في تركيبها، ولكنها لا تقوم على وصف العالم ولا تلزم باحتمالية الصدق والكذب وهي في أساسها تؤدي فعلاً وهذه هي أفعال الكلام؛ مثل قول أحدهم لامراته (أنت طالق) فهذه الجملة لا تصف الوقائع الخارجية ولا تحتمل الصدق والكذب وإنما أدت فعلاً. وانطلاقاً من هذه الإشكالية ومحاولة حلها ميز أوستن بين نوعين من الأفعال هما:

١. أفعال اخبارية: وهي أفعال تصف وقائع العالم الخارجي وتكون صادقة أو كاذبة.

٢. أفعال ادائية: وهي أفعال تؤدي فعلاً معيناً ولا توصف بالصدق والكذب، وتوصف بان تكون موفقة أو غير موفقة. والأفعال الادائية لا تتحقق إلا بشروط الملاءمة وشروط قياسية^(٣)، إلا أن هذه الشروط لا تكون نافذة الصلاحية على الدوام لوجود أقوال ادائية انشائية (كما سماها أوستن) لا تخضع لهذه الشروط، إذ ((ان بعض الاقوال المثشكلة حول جمل من الأفعال

(١) تحليل الخطاب الشعري: ١٣٩.

(٢) ينظر: أفاق جديدة في البحث الفلوي المعاصر: ٤٣-٤٥، والنداولية اليوم علم جديد في التواصل: ٣٠.

المستعملة لا تسمح علمياً هذه المقاييس^(١)، ونتيجة للتشابه المعرفي بين الأفعال الاخبارية والادائية الانشائية من حيث عدم قدرة الشروط الموضوعية على احداث الفصل التنازلي بين الفعلين، سعى أوستن هذه المرة إلى تقييد الفعل الكلامي بأعمال خاصة، وقد قسم بناء على ذلك الفعل الكلامي الواحد على ثلاثة أفعال لكل منه خصيصته المنفردة وهي:

١. الفعل اللفظي: وهو يتألف من أصوات لغوية تنتظم في تركيب نحوي ينتج عنه معنى محدد وهو المعنى الأصلي وله مرجع يحيل عليه.
٢. الفعل الانجازي: وهو ما يؤديه الفعل اللفظي من معنى اضافي، ويكمن خلف المعنى الأصلي.

٣. الفعل التأثري: ويُقصد به الأثر الذي يحدثه الفعل الانجازي في السامع. وعلى وفق ما جاء به تنبه أوستن إلى قيمة الفعل الانجازي في إحداث الثقل النوعية في المعنى حتى عدت نظرية الأفعال الكلامية وأخذ يُطلق عليها بالنظرية الانجازية في بعض الأحيان. أمّا الفعل اللفظي فيرى أوستن انه ضروري بالوجود إذ لا ينعقد الكلام إلا به، أمّا الفعل التأثري فحظوته أقل من الفعلين الآخرين لكون أفعاله ليست كلها ذات تأثير في السامع. وعليه لا يدخل ضمن دائرة الأهمية قياساً على الفعلين الآخرين ولا سيّما الانجازي منه^(٢). وقد ذكر مسعود الصبحراوي ان للفعل الكلامي الكامل ثلاثة خصائص هي:

- ((انه فعل دال)).
- انه فعل انجازي (أي ينجز الأشياء والأفعال الاجتماعية بالكلمات).
- انه فعل تأثري، أي يترك أثراً مُعينة في الواقع، خصوصاً إذا كان فعلاً ناجحاً.

ويقوم كل فعل كلامي على مفهوم (الفصدية)^٣ وتقوم مسلمة القصدية على أسس تداولية^(٤)، واستناداً إلى القوة الانجازية في الفعل اقترح أوستن خمسة أقسام

(١) التداولية من أوستن إلى غولمان: ٥٤.

(٢) ينظر: أفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ٤٥-٤٦. والتداولية من أوستن إلى غولمان: ٥٩-٦١.

• القصدية: ان العملية التواصلية القصدية تخضع طرفين انسانيين: مرسل ومتلقي، بيد ان المقاصد انواع: أولي يتجلى في المعتقدات والرغبات التي تكون لدى المتكلم، وثانوي يكون فيما يعرفه المتلقي من مقاصد المتكلم. وثلاثي يعكس في هدف المتكلم الذي يريد ان يجعل المتلقي يعترف بأنه يريد منه جواباً ملائماً. تحليل الخطاب الشعري: ١٦٤.

(٣) التداولية عند العلماء العرب: ٤٤.

للأفعال الانجازية وهي:

- الحكيميات: تتمثل في الحكم، نحو التبرئة، الادانة، اصدار الأمر.. الخ.
- التنفيذيةات: وتقضي بمنابعة أعمال مثل، الطرد، العزل، الاتهام، الاستقالة، الخ.
- الوعديات: وهي تلزم المتكلم بالقيام بتصرف ما مثل، الوعد، الموافقة، العزم والنية، والقسم.. الخ.
- السلوكيات: وهي أفعال تتفاعل مع أفعال الآخرين مثل الاعتذار، الشكر، التهنئة.. الخ.
- العرضيات: وهي تختص بالعرض مثل، التأكيد، النفي، الاصلاح، والقول والتأويل.. الخ.

هذه المقترحات تظل ناقصة الاهلية كونها لم تضع معايير خارج العلامة اللغوية بل انكفأت على العلامة اللغوية داخلياً، وهو اقتراح لتقصائيتها لم يرض به أوستن وصرح بذلك علناً، مما دفع تلميذه سيرل لمذاركة الأمر عن طريق وضعه معايير صريحة وخارجة عن العلامة اللغوية^(٤٦).

لقد كان سيرل ملماً بما يجري في المدونة التداولية ولاسيما في مجال القوة الانجازية للفعل الكلامي وما يؤديه من عمل، فالفعل الانجازي عنده هو الوحدة الصغرى للاتصال اللغوي وان للقوة الانجازية دليلاً يُسمى دليل القوة الانجازية، مثل قوة التبرئة والتنظيم في اللغة الانكليزية مثلاً، أو علامات الترقيم في اللغة المكتوبة، كما ان الفعل الكلامي عنده لا يقتصر على ما يبغيه المتكلم أي ما يقصده بل هو مرتبط بالعرف اللغوي الاجنماعي، كما انه طور شروط الملاءمة عند أوستن فجعلها اربعة هي:

١. شروط المحتوى الفضوي.
٢. الشرط التمهيدي.
٣. شرط الاخلاص.
٤. الشرط الاماسي.

وعلى غرار ما قدمه أوستن من تصنيف للأفعال الكلامية صنف سيرل هذه الأفعال إلى ثلاثة أسس رئيسة هي:

١. الغرض الانجازي.
٢. اتجاه المطابقة.
٣. شرط الاخلاص.

وعلى وفق المعايير الثلاثة هذه صنف سيرل الأفعال الكلامية خمسة أصناف مثلما

(٤٦) ينظر: التداولية من أوستن إلى غولمان: ٦٢-٦٣. و آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ٤٦.

هناك في كتاب أوستن اثنا عشرة نقطة ضمن تصنيف الافعال الكلامية، والثلاثة الأولى تعد مهمة بالنسبة له واستنادا إليها صنف الاعمال اللاقولية الانجازية إلى خمسة أصناف:

فعل استاذة أوسنن وهي كالآتي:

١. الاخباريات: والغرض الانجازي فيها هو وصف المتكلم واقعة معينة من خلال قضية وأفعال هذا الصنف كلها تحتل الصدق والكذب.
٢. التوجيهات: وغرضها الانجازي محاولة المتكلم توجيه المخاطب إلى فعل شيء معين.
٣. الالتزامات: وغرضها الانجازي التزام المتكلم بفعل شيء في المستقبل.
٤. التعبيرات: وغرضها الانجازي هو التعبير عن الموقف النفسي تعبيراً يتوافر فيه شرط الاخلاص.
٥. الاعلانيات: ان نجاحها يتوقف على مطابقة محتواها القضوي للعالم الخارجي. واخيراً ميز سيرل بين الأفعال الانجازية المباشرة وهي التي تُطابق قوتها الانجازية مراد المتكلم. أي يكون ما يقوله مطابقاً لما يعنيه، وبين الأفعال الانجازية غير المباشرة، أي التي تخالف قوتها الانجازية مراد المتكلم^(١).

❖ ثانياً: الاستلزام الحواري

نظرية المعاداة الغرايسية + نظرية الملازمة

يُمثل الاستلزام الحواري واحداً من أهم عناصر الجهاز المصطلحي المفاهيمي للتداولية؛ لأنه يوحي قصديّة المتكلم أو ما يُسمى بالدلالة غير الطّبيعية اهتماماً كبيراً. ويُعدُّ هب. غرايس المنتمي إلى جامعة أكسفورد رائداً في مجال ايضاح جوانب هذا الاستلزام عندما اقترح مفهوم (حُكم المعاداة) في مقاله الذي اشتهر كثيراً وهو (المنطق والمعاداة). وفيه بين الفكرة الرئيسية من ذلك، وهو ان المتخاطبين عندما يتحاورون يتبعون عدداً مُعيناً من القواعد الضمنيّة اللّازمة للتّواصل، وإذا ما حدث خلل في تلك القواعد فلا تواصل يذكر^(٢). ويعسب التّفاعل الاندماجي بين المتخاطبين تحصيل عملية التّواصل، وهذا يتم من خلال التركيز على قصديّة المتكلم في بث ما يريد وقدره المخاطب في معرفة نوايا المتكلم اي قصديته، ومتمى ما حدث خرق في هذه العملية تتوقف عملية التّواصل، ولهذا ((يُشدد غرايس في التّواصل اللغوي على نوايا القائل

(١) ينظر: أفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ٤٧: ٥١، والتداولية من أوسنن إلى غوفمان: ٦٣ - ٦٤.

والتداولية اليوم علم جديد في التواصل: ٣٣- ٣٤.

(٢) ينظر: التداولية من أوسنن إلى غوفمان: ٨٤.

وعلى فهم المخاطب لهذه النوايا^(١)، ولهذا حاول غرايس ايضاح الاختلاف بين ما يُقال وما يُقصد: لأن ما يُقال هو ما تسجله الجمل من معاني ثابتة قد نعارف عليها المتحاورون، في حين ان ما يقصد هو ما تسجله الجمل من معاني غير مباشرة تتغير فيها المقاصد تبعاً لتغيير المقامات والملازمات في السياقات المحدد. وعلى وفق المعنى الصريح في ما يُقال والمعنى المُتضمن المخفي في ما يقصد راح غرايس يُؤسس لفكرة الاستلزام. وقد وجد ان الاستلزام نوعان أحدهما عرفي مفاده ان المتخاطبين قد نعارفوا على جل المعنى في هذه الجملة أو تلك. ومعاني هذه الألفاظ والجمل لا تتبدل بهما اختلفت بها السياقات، اما الاستلزام الحوارية فإنه يتغير بتغيير المقامات والسياقات التي يرد فيها^(٢). وفي اطار اشتغاله على التفريق بين المعاني الصريحة (ما يُقال) والمعاني الضمنية (ما يُقصد) قسم غرايس الحمولة الدلالية على أساس هذين المعنيين وأوضح ذلك على النحو الآتي:

١. ((فالمعاني الصريحة: هي المدلول عليها بصيغة الجملة ذاتها وتشمل ما يلي:
 - أ- المحتوى القضوي: وهو مجموع معاني مفردات الجملة مضموم بعضها إلى بعض في علاقة اسناد.
 - ب- القوة الانجازية الحرفية، وهو القوة الدلالية المؤشر لها بأدوات تصيغ الجملة بصيغة أسلوبية ما: كالاستفهام، والامر، والنهي، والتوكيد، والنداء، والاثبات، والنفي.
٢. والمعاني الضمنية: هي المعاني التي لا تدل عليها صيغة الجملة بالضرورة، ولكنّ للسياق دخلاً في تحديدها والتوجيه إليها وتشمل ما يأتي:
 - أ- معاني عرفية: وهي الدلالات التي ترتبط بالجملة ارتباطاً اصيلاً وتلازم الجملة ملازمة في مقام معين مثل معنى الاقتضاء.
 - ب- معاني محورية: وهي التي تتولد طبقاً للمقامات التي تنجز فيها الجملة (مثل الدلالة الاستلزامية)^(٣).

وفي ضوء هذا الاختلاف بين ما يُقال وما يُقصد سعى غرايس إلى تقليص الهوة بين المتخاطبين، أي بين ما يريد المتكلم وما يفهمه المخاطب (المسامع)، ولهذا وضع أربعة

(١) البداوية اليوم علم جديد في التواصل: ٥٣.

(٢) ينظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ٣٣.

(٣) البداوية عند العلماء العرب: ٣٤-٣٥.

شروط - وهي مبادئ عامة يجب ان يحترمها الطرفان - ضمن مبدأ أسماء (مبدأ التعاون)، وهذا المبدأ يشمل:

١. مبدأ الكم: اجعل إسهامك في الحوار بالقدر المطلوب من الاخبار أولاً. وان لا تزيد على إسهامك أو تنقص منه ثانياً.
٢. مبدأ الكيف: لا تقل ما تعتقد انه غير صحيح، ولا تقل ما ليس عندك دليل عليه.
٣. مبدأ المناسبة: اجعل كلامك ذا علاقة مناسبة للموضوع.

٤. مبدأ الطريقة: كن واضحاً ومحدداً، فتجنب الغموض واللبس وأوجز ورتب كلامك^(١).

ومهما يكن من أمر القوانين والمعايير التي وضعها غرايس لتقييد الحوار بين المتخاطبين: فإنها تبقى قوانين ومعايير - على الرغم من قبوليتها - غير منضبطة تمام الانضباط: لأن هناك أنواعاً من الحوارات تخالف هذه المبادئ برمتها، وهذا الاختلاف هو جذرياً الاحترام: بل ان نظرية الاستلزام الحوارية قائمة عليه: لان احترام المتكلم والسامع القوانين في مبدأ التعاون والعمل بموجها يعني ان ما يقوله المتكلم مفهوم لدى السامع، ولا قيمة للحوارية اذن لأنها تدخل في ما أسماه غرايس بالاستلزام العرفي الذي يكون معلوماً للطرفين المتحاورين. وعليه فان انتهاك قواعد اللعبة في هذا المبدأ هو الذي يولد الاستلزام، ولقد أشار أن روبول وجاك موشلار إلى أن هذه القواعد والمعايير هي مبادئ - ولهذا فهي تختلف - أكثر من كونها قواعد ومعايير، وهذا واضح في قولهما: ((ولا تمثل قواعد المحادثة مجرد معايير ينبغي للمخاطبين اتباعها فحسب بل تمثل ما ينتظرونه من مخاطبيهم، فهي مبادئ تأويل أكثر من كونها قواعد معيار أو قواعد سلوك. وعلى هذا تتخرب قواعد المحادثة بوضوح في التيار المعرفي خلال للقواعد المعيارية والتواضعية الخاصة بنظرية الأعمال اللغوية التي رأينا صلباً بأطروحات السلوكيين، فقواعد المحادثة لا تستند إلى مجرد القدرة على اكتساب حالات ذهنية بل إلى القدرة كذلك على استناد مثل هذه الحالات وخصوصاً قدرتها (نسبة مقاصد))^(٢).

ولم تقف نظرية غرايس في المحادثة إلى هذا الحد، بل انها تطوّرت كثيراً على نظرية الملاءمة التي تبناها علم النفس المعرفي الإدراكي، وقد أشار محمود الصحور إلى انها نظرية تداولية معرفية تأسست على يد اللساني البريطاني ديردرولف

(١) ينظر: أفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ٣٤.

(٢) التداولية اليوم علم جديد في النواصل: ٥٧.

والفرنسي دان سيربر، وتمثلت فائدتها بمرجها بين تيارين في أساسهما مُتناهضين الأول مجال علم النفس المعرفي ولا سيَّما النظرية القالبية لفيودور، والثاني نظرية غرايس في المحادثة. ولهذا تكمن أهميتها التداولية في أمرين:

- انها تفتحي إلى العلوم المعرفية الإدراكية.
- انها ولأول مرة عند ظهور المفاهيم التداولية حجرت موقعها في اللسانيات ولا سيَّما موقعها من علم التراكييب.

ولا يهمننا هنا بيان أثر النظرية القالبية فيها بقدر ما يهمننا بيان أثر النظرية الغرايسية، وما هي حدود التطوير الذي أحدثته فيها، لقد اهدت نظرية الملاءمة من مبدأ المناسبة القايح ضمن مبدأ التعاون الرباعي عند غرايس وعدته الأهم من بين تلك المبادئ؛ لكونه مناسباً واستدلالياً في الوقت نفسه.

- مناسب لأن المتكلم يستعمل المثير الأكثر ملاءمة لإبلاغ افتراضاته.
- وهو استدلالي لأن المُتلقي يستدل على القصد الإخباري انطلاقاً من المؤشرات المسوقة من المتكلم.

كما تُعدُّ السياق من الميزات المهمة التي تبنيتها نظرية الملاءمة؛ لأن الأشياء لا تكون محددة قبل عملية الفهم، وإنما تبني تبعاً لتوالي الأقوال^{٣٦}. وهذه أهم ميزة تفاولتها التداولية وعملت على تطوير السياق من خلالها؛ لأن السياق لا يتحدد بالتأويل من جهة نظر التداولية بل الذي يعطيه قيمته تلك المتغيرات التي تولد نتيجة توالد المقامات المقامية في كل موقف وحدث.

❖ ثالثاً: الافتراض المسبق

المسألة التداولية كثيرة على الافتراضات المسبقة كونها تمثل المفتاح الرئيس لعملية أصل المعرفي بين الناس، فالتداولية تؤمن بأن توجيه المتكلم لأفكاره وزمها صوب السامع قائم على ايمان المتكلم بامتلاك السامع معلومات تؤهله لفهم قصديّة المتكلم، وينجح الحوار إذا ما كانت قنوات المعرفة موصدة بوجه السامع؛ لأن عملية التأثير لا يروما ينتج عنها من تبادل للمعلومات والخبرات مهمة في أحداث التواصل، بل هي المسألة نعرض هذا المثال: انه في مقام نواصلي معين يتحاور (أ) مع (ب) ونحن عن الحوار السؤال الآتي:

كيف حال زوجتك واولادك

الافتراض المسبق هنا هو ان الشريك (ب) متزوج وله اولاد، وان الشريكين (أ)

٣٦ التداولية عند الفلماء العرب: ٣٦-٣٨. والتداولية اليوم علم جديد في النواصل: ٧٢-٧٤.

و(ب) تربطهما علاقة تسمح بطرح هذا السؤال. وبناء على ذلك تكون الافتراضات المسبقة ضرورية جداً ومهمة في عملية التّواصل الكلامي والإبلاغ من وجهة نظر التداوليين^(١).

ولأهمية هذا الموضوع نبه محمود احمد نجلة إلى ضرورة الحذر من الخوض في غماره لسببين: أولهما كثرة الأبحاث التي تناولت هذا الموضوع في اطار نظريات مختلفة ووجهات نظر متباينة، فليس بمستغرب أن يجد الباحث في هذا الموضوع الرأي ونقيضه، فضلاً عما يكتنف بعض هذه الآراء من غموض والتباس.

والثاني: التمييز الواجب بين الاستعمال العام للفظ، الافتراض السابق في لغة الحياة اليومية، والاستعمال الاصطلاحي في الدرس التداولي الذي هو أضيق مدى من الاستعمال العام^(٢).

❖ رابعاً: الإشارة أو (العناصر الإشارية)

تُعَدُّ العناصر الإشارية مهمة في الحاضنة التداولية لما تقدمه من خدمة التّواصل الكلامي ويتمثل ذلك في كون الكلمات والجمل والعبارات اللغوية تعتمد اعتماداً كبيراً على السياق القابضة فيه، إذ لا معنى لها إلا في ضوء هذا الانتماء وعند ذلك يحدث التغيير ويكسر طوق الثبات، ونتيجة لاهتمام الباحثين بهذا الجانب ظهر علم الدلالة المقامي الذي تفرغ مبحثه بتفحص السياقات واستخراج المقامات التّواصلية جواز الإشارات، وعليه أصبحت العناصر الإشارية مجالاً مشتركاً بين علم الدلالة والتداولية وقد أجمع أغلب الباحثين كما أشار إلى ذلك محمود احمد نجلة على أن الإشارات خمسة أنواع هي:

١. الإشارات الخاصة: وأوضحها بالاستدلال هي الضمانات الحاضرة المتعلّقة بالمتكلم، مثل (أنا، نحن، وغيرها من الضمائر).
٢. الإشارات الزمانية: وهي كلمات تدل على زمان يُحدده السياق بالقياس إلى زمان التّكلم، فزمان التّكلم هو مركز الإشارة الزمانية في الكلام.
٣. الإشارات المكانية: وهي مثل الزمانية ولكنها تدل على المكان.
٤. إشارات الخطاب: وهي إشارات لا تحيل على مرجع بل هي التي تخلق المرجع وقد تلبس إشارات الخطاب بالإحالة إلى سابق أو لاحق، ولهذا اسقطها بعض الباحثين من الإشارات.
٥. الإشارات الاجتماعية: وهي ألفاظ وتراكيب تشير إلى العلاقة الاجتماعية بين

(١) ينظر: التداولية عند العلماء العرب: ٣٠-٣١. وأفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ٢٦-٢٧.

(٢) ينظر: أفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ٢٧-٢٨.

المتكلمين والمخاطبين من حيث هي علاقة رسمية، أو علاقة ألفة ومودة من ذلك صيغ التبجيل في العلاقة الرسمية، مثل جنابك، سعادتك، معالي الباشا، وغيرها. وتُعدّ الاشارات الاجتماعية من المجالات المشتركة بين التداولية وعلم اللغة الاجتماعية^(١).

وفي الختام لا بد من الإشارة إلى أن النتائج المستحصلة من قراءة أي بحث تمثل واحدة من المفاتيح التي تساعد القارئ على بلورة ما توصلت إليه طروحات المتن، ليكون ذلك القارئ على مقربة من صورته المتكاملة من العمل؛ لأنّ النتائج النهائية تبلور كيان البحث وتعمل على فهم المراد منه، لذا فإن عملنا يلزمنا أن نقدم جملة من النتائج وهي كالآتي:

١. تمثلت الاشكالية المصطلحية بكثرة الترجمات التي أبعدت مصطلح التداولية عن ميدانه الأصل، فمصطلحات مثل النفعية والذرائعية والبراجماتية والمقامية والاتصالية وغيرها ناظرت مصطلح التداولية مما أربك القارئ العربي وشتت فكره بالاهتداء إلى الامثل منها. فتلك المصطلحات اتفقت مع التداولية في الجوهر واختلفت معها في العمل.
٢. على الرغم من تناظر المصطلحات الكثيرة مع التداولية فإن مصطلح التداولية كان الأكثر تواتراً في الدراسات والابحاث.
٣. فهمت التداولية من القارئ العربي عن طريق الكتب التي ألفها العرب، واستغلقت عليه في الكتب الغربية ولا سيّما ما أدته الترجمة من خلل في ترجمتها.
٤. عدت التداولية جزءاً مكملًا للسانيات؛ لأنّها تدرس علاقات العلامات بمفسميها، وهي بذلك تمثل الحلقة الرابعة ضمن الحاضنة الالمانية بعد علم الأصوات، وعلم التراكيب، وعلم الدلالة.
٥. اتفقت التداولية مع البنيوية في الجوهر العام وهو الاهتمام بالنص بوصفه كبنوية فاعلة، ولكنها اختلفت معها من حيث العمل، واكثر الاختلافات ظهوراً وبروزاً هو اهتمامها بالأداء الكلامي على حساب الكفاية اللغوية التي أهتمت بها البنيوية.
٦. عدت التداولية الموريت الشرعي للسميانية؛ لأن أصلها يعود إلى منظري السميانية وهم تشارلس بيرس، وتشارلس موريس، وجون ديوي.
٧. مثلت آراء بيرس سنداً في بناء النظام الخاص للتداولية، وعملت آليات موريس في ايجاد الكيان الكامل للتداولية، حتى انه عدّ أول من اطلق مصطلح

البيان جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ٦٥-٦٦. وينظر: مدخل إلى السانيات التداولية: ١٨-٤٦.

التداولية على هذا العلم عام ١٩٣٨.

٨. جاءت العلامة السيمائية لتشكل المنعطف المهم والمؤثر في نظام التداولية: كونها عملت على زيادة اللحمة التواصلية مع الواقع. وهو ما سعت وتسمى اليه التداولية؛ ولأسيما ان مهمتها هي تحقيق التواصل المعرفي، نتيجة اهتمامها بأقطاب المثلث التواصلي (المبدع، النص، المتلقي).
٩. استندت التداولية إلى جهاز مفاهيمي مُصطلحي عمل على تنميتها وجعلها مُستقلة الرؤى والمفاهيم.
١٠. أكثر هذه الأجهزة حضوراً وتأثيراً كانت الأفعال الكلامية؛ ولأهميتها أصبحت نظرية، والحال كذلك مع الاستلزام الحوارية الذي أصبح نظرية عند غرايمس، واهتمت بها نظرية الملاءمة التي تيناها علم النفس الإدراكي، فضلاً عن الافتراض المُسبق والعناصر الاشارية.

❖ المصادر والمراجع

- أفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر - د. محمود أحمد نحلة - دار المعارف الجامعية - ٢٠٠٦.
- الأدب والذلالة - ت. نودوروف - ترجمة د. محمد نديم خشفة - مركز الانماء الحضاري - حنب - ط ١ / ١٩٩٦.
- الألسنة التوليدية والتحويلية وقواعد اللغة العربية (النظرية الألسنية) - د. ميشال زكريا - المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر - ١٩٨٢.
- البُنويّة وما بعدها من ليفي شتراوس إلى دريدا-تحرير-جون ستروك-ترجمة-د. محمد عصقور-سلسلة عالم المعرفة. د.ت.
- بؤس البُنويّة-الأدب والنظرية البُنويّة-دراسة فكرية-ليونارد جاكسون-ترجمة-نانو ديب- منشورات وزارة الثقافة- دمشق - ٢٠٠١.
- تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التّناص) - د. محمد مفتاح - المركز اللغافي العربي - المغرب - ط ١ / ١٩٨٥.
- التّداوليّة عند العلماء العرب (دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي - د. مسعود الصعراوي - دار الطليعة للطباعة والنشر - بيروت - ط ١ / ٢٠٠٥.
- التّداوليّة من أوستن إلى غوفمان - فيليب بلانشيه - ترجمة صابر الحباشة - دار الحوار للنشر والتوزيع - سوريا - ط ١ / ٢٠٠٧.
- التّداوليّة والحجاج (مداخل ونصوص) - صابر الحباشة - صفحات للدراسات والنشر - دمشق - ٢٠٠٨.
- التّداوليّة اليوم علم جديد في التّواصل - أن روبول وجاك موشلار - ترجمة - د. سيف الدين دغفوس، د. محمد الشيباني - مراجعة د. لطيف زيتوني - دار الطليعة للطباعة والنشر - بيروت - ط ١ / ٢٠٠٣.
- دليل الناقد الأدبي-إضاءة لأكثر من خمسين تيارا ومصطلحا نقديا معاصرا-د. ميجان الرويلي ود. سعد البازعي-المركز الثقافي العربي-الدار البيضاء-ط/٢-٢٠٠٠.
- قراءات في علم اللغة- د. أحمد شفيق الخطيب - دار النشر للجامعات - مصر - ط ١ / ٢٠٠٦.
- المداخل إلى علم اللغة - كارل - ديتر يوننج - ترجمة وتعليق د. سعيد حسن بحيري - مؤسسة المختار للنشر والتوزيع - القاهرة - ط ٢ / ٢٠١٠.
- مداخل إلى اللسانيات التّداوليّة (تطلبة معاهد اللغة العربية وآدابها) - الجيلالي دلائش - ترجمة محمد يحياتن - ديوان المطبوعات الجامعية - الجزائر. د.ت.
- المرايا المحدبة من البُنويّة إلى التفكيك- د. عبد العزيز حمودة- سلسلة عالم المعرفة. د.ت.

- مشكلة البنية-أواضواء على البُنْيُوْتِيَّة-د. زكريا ابراهيم- دار مصر للطباعة. د.ت.
 - المصطلحات الأدبية الحديثة-دراسة ومعجم انكليزي-عربي-د. محمد عناني-الشركة المصرية العالمية للنشر-لوتنجمان-ط/٣-٢٠٠٣.
 - الوظائف التداولية في اللغة العربية - أحمد المتوكل - دار الثقافة - الدار البيضاء - ط١ / ١٩٨٥.
- ❖ النوريات
- البُنْيُوْتِيَّة والتأفد الأدبي-جبرارد جنيت- ترجمة ونحليق- د. نزيه كسيبي- مجلة البهان- العدد- ٢٦٢ - ٢٦٤ - ١٩٨٦.

النص والتواصل ملامح من تداولية الخطاب

د. جبار سويس النهبي*

❖ مدخل

التداولية بوصفها منهجا فلسفيا اشتغل في مجالات اللغة وعلاقتها، شأنها في ذلك شأن المناهج اللغوية التي أفرزها البحث اللغوي الحديث منذ الدراسات التاريخية المقارنة مروراً بالمناهج البنيوية الوصفية والمنهج التوليدي التحليلي وانتهاءً بالمناهج النحوية التي أفرزت مسارب أخرى في البحث اللغوي من بينها التداولية التي اعتمدت فلسفة بدأت ملامحها تتشكل منذ بداية القرن المنصرم مع الفيلسوف الأميركي جون سالدورف بيرس، وتبلورت مع أبحاث أوستين وسيرل منتصف القرن الماضي.

بدأت التداولية بالبحث في العلاقات القائمة بين اللفظة وامتداداتها من الناطقين بها، وتقوم على تحليل عمليات الكلام، ووصف وظائف الأقوال اللغوية وخصائصها لدى التواصل اللغوي. وسعت إلى تطوير نظرية أوستين لأفعال الكلام، أي الأنماط المنهجية أو الأصناف التي تمثل الأفعال المحسوسة والشخصية التي ننجزها أثناء الكلام. واضحة بذلك موضع السؤال التقابلي (السوسري) بين اللغة والكلام، رافضة لهذا التقابل موضوعاً غير قابل للدراسة المنهجية.

حاول البحث قبل الدخول في التعريف بالتداولية، الاطلاع على جملة من المفاهيم الأولية في الدرس اللساني المعاصر الذي اتخذ من النص والخطاب أداة للآليات التواصل اللغوي، بدأها بمفهوم التواصل الذي يعرف بأنه حوار متبادل بين متكلمي لغة مملوفاً موجهاً إلى متكلم آخر، ومُخاطب يُتوخى منه الاستماع أو الإجابة الصحيحة أو الضمنية. تناولوا الآليات التي اعتمدت في ميدان الاتصالات الهاتفية من العرض خطاطة شانون التي بين فيها أطراف العملية الاتصالية المتمثلة بطرفي المحادثة الرئيسيين الباث والمتلقي فضلاً عن الآليات المتعلقة بكل منهما وهما مصدر الباث والمتعلق بالباث، والهدف الذي تحققه عملية التواصل والمتعلق بالمتلقي، وبينها علاقة التي يعبر عنها بالإشارة النهائية الميثوتة.

مهد لتطوير تدريس اللغة العربية، وزارة التربية، بغداد، العراق

من ثم عرض البحث أليات علماء اللغة في وصفهم لعملية التواصل، الذين اعتمدوا في وصف عملية التواصل على الوظيفة الأساسية للغة التي هي وظيفة الاتصال.

من ثم عرض البحث مفهوم الخاصية النصية التي لا بد لأي قطعة من الكلام أن تتضمنها كي تكون نصاً، والتي تعتمد في جانب كبير منها على علاقات تداولية تتمثل في العلاقات الخارجية التي تحكم النص والتي يطلق عليها دي بوجراند (سياق الموقف) الذي يشمل المحيط الثقافي والاجتماعي والمعرفي والتاريخي. وأيضاً في معايير النصية. ومن ثم تناول البحث مفهوم التداولية معتمداً مقارنة معرفية لأسس النظرية وألياتها، رابطاً بينها ومجموع المفهومات التي قدمها البحث بوصفها (التداولية) سياقاً تواصلها، تقوم أساساً على تفسير النص بوصفه فعلاً كلامياً، أو بوصفه سلسلة من أفعال كلامية، فضلاً عن التطورات التي طرأت على التداولية والإضافات عليها. نرجو أن نكون قد وفقنا في بحثنا الذي أردنا من خلاله بيان أهمية العلاقة القائمة بين اللغة بوصفها مفردات ودلالات ورموز، والعلاقات الخارجية (التداولية) التي تحكم النص اللغوي وتؤثر في الباحث والمتلقي والرسالة على حد سواء، وهو الأمر الذي عنت به عناية فائقة المناهج اللغوية النصية.

منذ نهاية ستينيات القرن الماضي ظهرت مرحلة جديدة من الدراسات اللغوية، وهي ما أطلق عليه بالجيل الثاني من اللسانيات، تفرقاً له عن الجيل الأول الذي بدأ منذ ظهور الدراسات التاريخية المقارنة بعد اكتشاف الميروليم جوتز في العام ١٧٨٦م النصوص السنسكريتية، موثقاً ذلك في تقريره الذي قدمه إلى اللجنة الأمميّة بشأن اكتشافه هذه اللغة وعلاقتها باللغات اللاتينية والإغريقية والقوطية، مروراً باللسانيات الوصفية حتى التوليدية التحولية التشومسكية.

اعتمدت لسانيات الجيل الثاني النص بوصفه وحدة لسانية، متجاوزة حدود الجملة التي لم تتخل عنها حتى النظريات الحديثة منها التوزيعية والتوليدية، إلى ما هم أبعد، والقاية من ذلك معرفة العلاقات الرابطة بين أجزاء الكلام، المكونة لعملية التواصل اللغوي، ظهرت دراسات مهمة في هذا الجانب على أيدي لسانيين كبار منهم هاليداي، وبيتوفي، ودرسلر، وفان دايك، وغيرهم آخرون أثروا البحث اللساني بالعديد من النظريات التي كان غايتها تحقيق التواصل بين مستعملي اللغة، ومعرفة الأدوات اللغوية التي تقوم بعملية ربط أجزاء الكلام لتجعله نصاً ذا وحدة دلالية.

متماسكة يفهمها متلقيه.

سنحاول فيما يأتي الاطلاع على بعض المفاهيم المتداولة في الدرس اللساني المعاصر الذي اتخذ من النص والخطاب أداة لآليات التواصل اللغوي، نبدأها بمفهوم التواصل الذي يعرف بأنه حوار متبادل بين متكلم ينتج ملفوظاً موجهاً إلى متكلم آخر، ومُخاطب يتوخى منه الاستماع أو الإجابة الصريحة أو الضمنية (بحسب طبيعة الملفوظ). فالتواصل إذن يقوم بين طرفين.

وحدد العلماء في العصر الحديث عملية التواصل عن طريق تحديد عناصرها وبوسائل أكثر علمية، فقد ذكر سعيد بنكراد أن مهندسا أمريكيا كان يعمل في ميدان الاتصالات الهاتفية يدعى كلود شانون قد قدم خطاطة وضع فيها آليات العملية التواصلية:

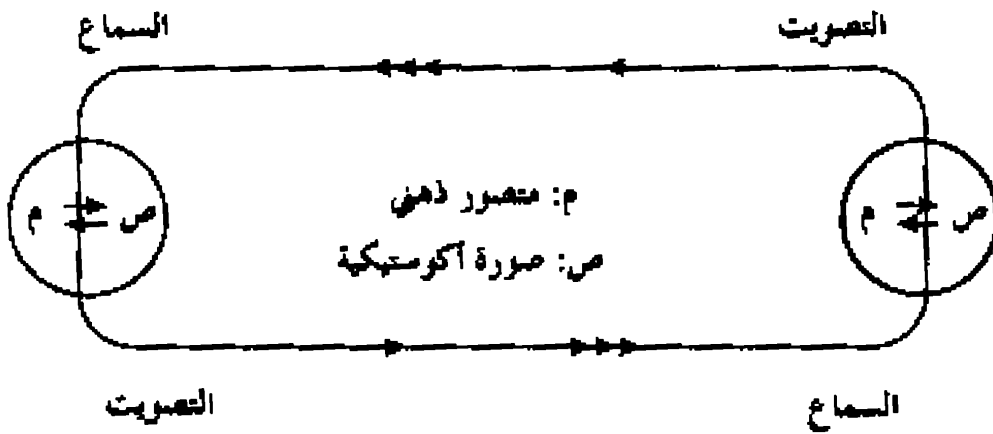
مصدر الخبر ← الباث ← الإشارة النهائية ← المتلقي ← الهدف
الإرسالية الإشارة المبتوثة الإرسالية^(١)

يتضح من الخطاطة أعلاه أطراف العملية الاتصالية المتمثلة بطرفي الإرسالية بالربط بين الباث والمتلقي فضلا عن الآليات المتعلقة بكل منهما وهما مصدر الخبر المتعلق بالباث، والهدف الذي تحققه عملية التواصل والمتعلق بالمتلقي، وبينها الرسالة التي يعبر عنها بالإشارة النهائية المبتوثة.

أما علماء اللغة، فقد اعتمدوا في وصف عملية التواصل على الوظيفة الأساسية للغة التي تضمنتها تعريفاتهم للغة، فمنذ دي سوسير الذي تحدث عن دورة الخطاب التي يفترض فيها وجود شخصين في الأقل وهو أدنى ما يطلب كي تكون الدورة تامة، شخصان ضمن دورة الخطاب أشار إليهما دي سوسير بـ(أ و ب)، ووصف دورة الخطاب هذه بالقول: ((إن منطلق الدورة موجود في دماغ أحدهما وهو (أ) على سبيل المثال، إذ تقترن ظواهر الإدراك - وهي التي نسميها المتصورات الذهنية - بما يمثل دلائل اللغوية، أي الصور الأكوستيكية المستخدمة للتعبير عن تلك الظواهر، يفترض أن متصورا ما يثير في الدماغ صورة أكوستيكية مناسبة له فإن هذه العملية تولد ظاهرة نفسية صرفة تليها عملية فيزيولوجية. وصورة ذلك أن الدماغ يبلغ إنشاء التصويت دفعة مناسبة للصورة الأكوستيكية. ثم إن الموجات الصوتية تنتشر

(١) انظر: (بنكراد) سعيد، استراتيجيات التواصل من اللفظ إلى الإيماء، مجلة علامات، العدد ٢١ -

من فم (أ) إلى أذن (ب) وتلك عملية فيزيائية . ثم أن الدورة تتواصل عند (ب) ولكن بترتيب معاكس، أولاً من الأذن إلى الدماغ - حيث تتم عملية تبليغ فيزيولوجية للصورة الأكوستيكية، ثم ثانياً في الدماغ نفسه حيث يتم ربط ذهني بين تلك الصورة والمتصور الذهني الذي يناسبها، فإذا تكلم (ب) بدوره فإن العملية الجديدة أي كلام (ب) ستسلك في تنقلها من دماغه إلى دماغ (أ) نفس المسلك الذي سلكته العملية الأولى بالذات أي كلام (أ) وتتم بنفس المراحل المتعددة بين (أ) و(ب) وهما يتبادلان حديثهما فيما بينهما على النحو الآتي:^(١)



دورة الخطاب هذه التي أشار إليها دي سوسير وأوضحها بالمخطط أعلاه. قسمها أيضاً على:

١. قسم خارجي يشمل الأصوات في انطلاقها من الفم حتى وصولها إلى الأذن وقسم داخلي يشمل الصور اللفظية والتنظام النحوي المخمزين لدى المجموعات اللغوية.
٢. قسم نفسي، وقسم لا نفسي، ويحتوي القسم اللا نفسي مجموع الظواهر الفيزيولوجية التي مفرها الأعضاء، والظواهر الفيزيائية الخارجة عن نطاق الشخص.
٣. قسم إيجابي وقسم سلبي، الإيجابي هو كل ما ذهب من مركز عملية الاقتراح لدى أحد الأشخاص إلى أذن الشخص الآخر. والسلبي هو كل ما ذهب من أذن

(١) ينظر: دي سوسير (فرديناند)، دروس في الألسنية العامة، ترجمة: صالح القرمازي ومحمد الشاوي ومحمد عجيبة، الدار العربية للكتاب، ١٩٨٥: ٣٢.

الأخير إلى مركز الافتزان عنده (الدماغ).

أما القسم النفسي الذي مكانه الدماغ فقد أطلق تسمية (المنفذ) على كل ما هو إيجابي (متصور) ← صورة، و(متقبل) على كل ما هو سلبي (صورة ← متصور).

وأضاف دي سوسير إلى ماتقدم ما أسماه الملكة الخاصة بعملية الافتزان والتنسيق التي يظهر مفعولها حينما لا يعد الأمر متعلقاً بدلائل منعزلة. وهذه الملكة - بحسب دي سوسير - هي التي تقوم بالدور الأكبر في تنظيم اللغة من حيث هي نظام. ويقصد هنا العلاقات السياقية وعلاقات الترابط التي تحكم اللغة بوصفها نظاماً داخلياً مجتمعياً، والعلاقات الميتالغوية التي تسهم في عملية التواصل بين جماعة المتكلمين فيما بينهم. ويوضح دي سوسير هذا الأمر من خلال عملية الربط بين العملية الفردية (الكلام)، والظاهرة الاجتماعية (اللغة)، فالكلام هو القاسم المشترك بين أعضاء الاتصال في البيئة اللغوية الواحدة، فهم يستعملون الدلائل نفسها مقرونة بالمتصورات نفسها⁽¹⁾. من هنا تتضح أهمية عملية التواصل التي أشار إليها دي سوسير والتي أطلق عليها (دورة الخطاب)، ذلك بربط اللغة بالسياق والعلاقات التداولية الأخرى التي يتحقق بمجموعها الاتصال اللغوي بين المتكلمين.

والتواصل من منظور علم النفس اللغوي، هو إجراء يربط من خلاله المتكلم للدلالة بالأصوات، وهي الدلالة نفسها التي يربطها المستمع بهذه الأصوات. فالمشاركون في التواصل (أو الأطراف الأساسية للتواصل) هم (الأشخاص): أنا، أو الذات المتكلمة المنتجة للملفوظ، والمخاطب أو المستمع، وأخيراً المتحدث عنه، الكائنات أو موضوعات العالم.

ويحدد مقام التواصل من طرف:

جاء المشاركون في التواصل المتعين دوره من خلال أنا، محور التلفظ، في الأبعاد الزمنية - المكانية للملفوظ أو للسياق المقامي؛ وهي علاقات زمنية بين لحظة التلفظ ولحظة الملفوظ (الجهة والزمن)، وعلاقات مكانية بين المتكلم وموضوعات الملفوظ، الحاضرة أو الغائبة، القريبة أو البعيدة، وعلاقات اجتماعية بين مشاركين في التواصل. وبهم وموضوع الملفوظ (أنماط الخطاب، والعوامل التاريخية الاجتماعية... وغير ذلك). ويُرمز لتحويلات التواصل هذه بصيغة: (أنا، هنا، والآن).

انظر: دي سوسير (فرديناند)، دروس في الألسنية العامة: 24-23.

ويتحدد وضع التواصل بالبُعد الاجتماعي، أو بطرفي التواصل والمقام بين الأنا ومخاطبيه (وكذلك بالفرق بين (أنت) و(أنتم) التي تُعبّر عن حميمية، أو عن علاقة اجتماعية مختلفة)، وبالطريقة التي يتصوّر بها (الأنا) الملقوظ، وهكذا يأخذ الملقوظ بعين الاعتبار بشكل أو بآخر، المنجز من طرف المتكلم، ويُعبّر عن ذلك بصيغ وجهات الفعل، ويظروف من مثل: (من الممكن)- (من دون شك)، أي بما يُطلق عليه (بالمُوجّهات).

وبحسب ما تقدم فإن التواصل من منظور منطري الاتصالات واللسانيين، هو نقل أخبار من نقطة إلى أخرى (مكاناً أو شخصاً)، ويتم نقل هذا الأخبار عن طريق رسالة تأخذ صيغة مُسنّنة^{١٥}.

والتوقع أن الشرط الأول لإقامة التواصل هو تمسك الإخبار بمعنى تحويل الرسالة المادية والمجردة إلى نسق من العلامات، أو إلى سنن (code) خاصيته الأساسية أن يكون عبر تعاقد مسبق نسقي ومقولي.

وعندما يحدث التواصل، فإننا نعدّ الأجزاء التي تكونه نسقا تواصليا، وتفترض خطاطة التواصل نقل رسالة ما بين مرسل ومتلقي يشتركان في امتلاك النسق الضروري لصياغة الرسالة، وينضمن النسق العناصر الآتية:

١- سنن تتضمن علامات معيّنة، ومجموعة من قواعد التأليفات الخاصة بهذا النسق العلامي في اللغات الطبيعية، وتشكل السنن من الفونيمات،

* يشير سميت بنكراد إلى أن كلود شابرول (Claude Chabrol) رصد ثلاثة تعريفات للسنن وكل تعريف من هذه التعريفات يغطي نشاطا انمائيا معيناً وهي:

١. التعريف الأول: إن مفهوم السنن يستعمل مرادفاً (لحرف)، ويتعلق الأمر في هذه الحالة بتجميع للعلامات) على وفق مبادئ جوهرية وليس شكلية، مثال ذلك كل ما يدل على السكن والتغذية، والاقتصاد، والقرابة (الاسنن الثقافية كما يستعملها بارت).

٢. التعريف الثاني: إن السنن، في هذه الحالة يعين نسقا من التقايلات الشكلية للحدود، أو القواعد الشكلية بدون مضمون لكسبي محدد. وهذه الاسنن تمكن من الكشف عن الجمل النصي (عندما تتم عملية استبدال المنفردات بالتوايت). ويدخل ضمن هذا التحديد الاسنن الفعلية، الاسنن البلاغية أو الميتالغوية كما يتصورها بارت. كما يدخل ضمنها تصور كرماس للدلالة الاصولية والنحو الاصولي.

٣. التعريف الثالث: يتحدد السنن هنا كتأليف لصور أو سمات دلالية (معالم) تمكن من إعطاء صيغ بنوي للبعد الدلالي (السردية) داخل النص. ويتم هذا الوصف بعد انجاز الاستكشاف للكسبي.

يُنظر: بنكراد (سعيد): عن التمتين السردية والتسنيين الابدولوجي، مجلة علامات، العدد الثاني، ١٩٩٤.

والمورفيمات وقواعد تأليف هذه العناصر فيما بينها (في تقابل مع الكلام المؤلف من الملفوظات المحققة، أو الرسائل).

ب- القناة، وهي المرتكز الفيزيائي لنقل الرسالة، والوسيط الذي يتم عبره نقل المسن أو الإشارات، وهو الهواء في حال التواصل اللفظي، لكن يمكن للقناة أن تأخذ أشكالاً متنوعة: موجات كهرومغناطيسية، وأضواء، وأنساق ميكانيكية أو إلكترونية مختلفة... وغير ذلك.

ج- المرسل الذي هو في الوقت نفسه مصدر الرسالة، فالمرسل - بتعبير أدق - يمتلك الآيات تسنين الرسالة والجهاز المرسل نفسه، ويُقال إن المرسل هو مكون السن بمعنى أنه يختار داخل السن عدداً معيناً من الإشارات التي تسمح بنقل الرسالة.

د- المتلقي - مُفكك السن، وهو في الوقت نفسه جهاز يتلقى الرسالة (أذن، أو جهاز استقبال) ومتلقي الرسالة (الدماغ الإنساني بالنسبة للغة المنطوقة، والمستمع بالنسبة لجهاز الاستقبال... وغير ذلك). وتحدث عملية تفكيك السن في مستوى المتلقي - المخاطب عن طريق البحث في الذاكرة عن العناصر المنتقاة من المرسل، والتي تكوّن الرسالة.

هـ- إعادة تسنين الرسالة، وهي عملية تأخذ فيها الرسالة المشفرة والمفككة التشفير صيغة جديدة، فعلى سبيل المثال حين نعلمي تلغرافاً (صيغة صوتية)، ونكتبه باعتماد المورس (صيغة ميكانيكية)، ينتقل في النهاية عن طريق ذبذبات كهربائية^(١).

وأما النصّ فهو تدوين مجموعة من الامتدادات اللفوية، أو كما يقول بول ريكور للنصّ نصّاً كلّ خطاب تثبته الكتابة، وعلى هذا التعريف، يكون التثبيت بالكتابة (نصّاً للنصّ...)^(٢). لكن هل يقتصر النصّ على كونه مدونة كلامية تتألف من جمل والية؟ نجد أنّ هاليداي وحسن يوسعان المفهوم ليشمل المنطوق والمكتوب فلا يميز تعريف النصّ عندهما على المكتوب من دون المنطوق، يقولان: ((تستعمل كلمة

(١) انظر: مادة (تواصل) (Communication) في (معجم اللسانيات) لـ (جان ديوبا) (Jean Dubois) و (ريكور) لاروس، ١٩٧٣، ٩٦-٩٩.

(٢) ريكور (بول)، من النصّ إلى الفعل: ترجمة محمد يرادة وحسان بورهية، مؤسسة عين للدراسات والبحوث اللسانية والاجتماعية، ط١، القاهرة، ٢٠٠٦: ١٠٥.

النص (*Text*) في علوم اللغة للإشارة إلى أي مقطع، منطوق أو مكتوب، ومهما كان طوله. (ليشغل كلاً موحداً)^(١). كما نجد أن كريستال وهابنه من وفهيفجر لم يقصروا تعريف النص على كونه منطوقاً أو مكتوباً، وإنما ادخلوا أصنافاً أخرى تشمل علامات الطريق والمعادنات، والنقارير الإخباريّة والصور الرمزيّة، والقصائد والإعلانات... وغيرها^(٢). ويسوغان إدخال هذه الأصناف تحت مفهوم النص اعتماداً على وظيفة النص الرئيسي، وهي الوظيفة التواصليّة (*Communicative Function*) التي (تُعرف بسمات مثل الاتساق (*Cohesion*))، والاتسجام (*Coherence*))، والإخباريّة (*Informativeness*). وهذه السمات هي التي توفر تحديد للكيفيّة التي تنشئ وحدة النصيّة أو النسيج^(٣).

والتواصليّة ليست الوظيفة الوحيدة للنص، وإنما على النص أن يتّسم بسمات أخرى، وهذا ما جعل (جون لاينز) يعترض على التعريف التقليدي للنص بكونه سلسلة من الجمل المتتابعة وظيفتها التواصل، ويرى أن هذا التعريف غير وافٍ، وعاجز عن توضيح الوحدات التي يتكوّن منها النص، سواء أجملاً كانت أم غير جمل، ((وليست مجرد وحدات متصلة مع بعضها في سلسلة، إنما ينبغي ربطها بطريقة مناسبة من حيث السياق، وعلى النص في مجمله أن يتّسم بسمات التماسك والترابط))^(٤).

فالنص - وبحسب مفهوم لاينز - لا يكون نصّاً إلا بوجود علاقات داخلية تنتظم فيها متواليات الجمل، وهذه العلاقات هي التماسك والترابط، وعلاقات خارجية يحكمها السياق. ويخلص إلى أن كلاً من النص والسياق يتّسم كل منهما الآخر، ويفترض مسبقاً كلّ منهما الآخر، وتمدّ النصوص ((مكونات للسياقات التي تظهر فيها، أما السياقات فيتم تكوينها وتحويلها وتعديلها بشكل دائم بواسطة النصوص التي يستخدمها المتحدثون والكتاب في مواقف معينة))^(٥).

ويؤكد (دي بوجراند) أهمية السياق للنص، (إذ ينبغي للنص أن يتصل بموقف

١. Halliday and R. Hasan (1976: 1).

٢. See Crystal (1991: 350).

وينظر أيضاً: هابنه من (فولفجانج)، وديتر فهيفجر. مدخل إلى علم اللغة النصي. ترجمة د. فالح بن شبيب المعصي، مطابع جامعة الملك سعود. الرياض، ط ١. ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م: ٤.

٣. See Crystal (Ibid).

٤) لاينز (جون): اللغة والمعنى والسياق: ترجمة د. عباس صادق الوهاب، مراجعة د. يونس عزيز. د الشؤون الثقافية، ط ١، بغداد، ١٩٨٢: ص ٢١٨-٢١٩.

٥) المرجع نفسه: ص ٢١٥.

يكون فيه (موقف حدوث *Situation of Occurrence*) تتفاعل فيه مجموعة من المرتكزات (..) والتوقعات (..) والمعارف (..) وهذه البيئة الشاسعة تسمى سياق الموقف (context of situation) (١).

والمساق في نظر (دي بوجراند) يشمل المحيط الثقافي والاجتماعي والمعرفي والتاريخي. وقد حدّد (دي بوجراند) معايير سبعة تجعل من النصّية أساساً لإيجاد النصوص واستعمالها وهي (٢):

١. الاتساق (*Cohesion*):

هو ما يترتب على إجراءات تبدو بها العناصر السطحية على هيئة وقائع يؤدي السابق منها إلى اللاحق، بحيث يتحقّق لها الترابط الرصقي، إذ يمكن استعادة هذا الترابط على هيئة نحوية للمركبات والتراكيب والجمل، وعلى أمور مثل التكرار، والالفاظ الكنائية، والأدوات، والإحالة المشتركة (*Co-reference*)، والحذف والروابط.

٢. الانسجام (*Coherence*):

يتطلّب هذا المهار إجراءات تلتصق بها عناصر المعرفة لإيجاد الترابط المفهومي (*Conceptual Connectivity*) واسترجاعه، وتشمل وسائل الانسجام على:

- أ. العناصر المنطقية، نحو: السببية والعموم والخصوص.
- ب. معلومات عن تنظيم الأحداث والأعمال والموضوعات والمواقف.
- ت. السعي إلى التماسك فيما يتصل بالتجربة الإنسانية. إذ إنّ ما يدعّم الانسجام

بهرق (كوزيرو) بين الموقف والسياق؛ فالسياق (*Context*) هو المحيط اللغوي الخاص للعلامة في النص، أي ما قبل وما سيقل أما الموقف (*Situation*) فهو المحيط غير اللغوي للعلامة، أو لسلسلة من العلامات بما فيه من ظروف وملايسات تصاحب الحدث اللغوي، فضلاً عن معلومات يتجاوزها المتكلم والمستمع، إذا كانت معلومات تقع بينهما. يُنظر: بحيري (سعيد حسن): اتجاهات معاصرة في تحليل النص: مجلة علامات في النقد: إصدار النادي الثقافي - جدة، ج ٨ / م ١٠٣، ديسمبر ٢٠٠٠: ١٦٠.

دي بوجراند (روبرت)، النص والخطاب والإجراء، ترجمة د. تمام حسان، عالم الكتب، ط ١، القاهرة، ١٩٩٠: ٩١.

اللصية (*Textuality*) هي الخاصية الأساسية لكل كلام، فهي مجموعة أفعال تواصلية لا يتحدث بها ككلمون بكلمات أو جمل، وإنما ينصون. والنص - الموضوع المنفصل - يجب أن يفهم أو يعقل بوصفه كونه مجموعة أفعال تواصلية، وينبغي في حالات التلقي أن توسع إلى لعبة تواصلية انتشارية فعالية تلوي الدور الذي يكون معنى التلقي. يُنظر: شميدت (س.ج): دراسة علمية للسردية الأدبية. نظرية التلقي، ترجمة قسم الترجمة في مركز الإنماء القومي: مجلة العرب والفكر العالمي. مركز الإنماء القومي، بيروت، العدد التاسع، شتاء ١٩٩٠: ٧٢.

نظر: دي بوجراند: ١٠٣-١٠٧.

متاليات أفعال بوساطة قواعد كبيرة.

وفي هذا إشارة إلى مفهوم البنية الكبرى الشاملة للنص، الذي قدّمه (فان دايك) ليقابل البنى الصغرى (الجمل) التي تكون النص، فالنص بوصفه بنية دلالية كبرى ليس مخصوصاً بالعناصر التي تكونه، إذ إنّ البنية الدلالية الكبرى هي ((بنيات دلالية معهودة كصيغة القضية المعتادة مثلا، إلا أنّها لم يعبر عنها في قول واحد أو جملة، وإنّما في تسلسل مفرد من الجمل، وبعبارة أخرى فإنّ البنيات العامة الكبرى هي من المستوى الشامل في الوصف السيمانطقي لكونها تعيّن أجزاء الخطاب وكتيبته على أساس من المعاني الجزئية للجمل))^(١).

وبناءً على ما تقدم - وبحسب فان دايك - يمكن وصف حدث ما بوساطة مجموعة من الجمل، مثل: ذهبت إلى المحطة، اشتريت تذكرة، توجهت إلى ساحة المحطة، ركبت القطار، فهذا الحدث يمكن أن يوصف على مستوى أعمّ بوساطة الجملة الآتية: (ركبت القطار)، فهذه الجملة تمثل موضوع السرد الذي عرضت فيه التفاصيل المتعلقة بالرحلة، وهذا يعني أن التفاصيل في البنية الكبرى قد ألغيت ولم يحتفظ منها إلا بمعلومة هي الأهم والأوثق صلة بالموضوع.

ويشير (فان دايك) إلى أنّ البنى الكبرى قد تختلف جزئياً من شخص إلى آخر، فالقراء سيختارون من نصّ معين عناصر مهمة مختلفة باختلاف معارفهم واهتماماتهم، وأعمالهم، وآرائهم وعليه فإنّ البنية الكبرى قد تتغير من شخص إلى آخر، إلا أنّ هذا التغير سيجد توافقاً نسبياً في مستوى التفسير الإجمالي لأحد النصوص بين مستعملي اللغة^(٢).

نخلص إلى أنّ مفهوم البنية الدلالية الكبرى، هو المعنى المستخلص من نصّ ما، أو ما يمكن أن نطلق عليه موضوع النص، أو الفكرة التي يقوم عليها النص، إذ يمكننا - وبحسب تفسير فان دايك - أن نلخص الصفحة الأولى من رواية ما في قضية واحدة (جملة تامة المعنى)، وبوساطة القواعد الكبرى يمكن تحويل قضايا كبيرة متكوّنة من أكثر من صفحة، أو أكثر من فصل إلى قضايا كبيرة أعلى مرتبة، أما البنية الكبرى لرواية بكاملها فيطلق عليها (عبارة الرواية). ويجعل (فان دايك) للبنى الكبرى قواعد كبرى من أهمها: الحذف أو الانتقاء، والتحميم، والتركيب.

(١) فان دايك: النص والسباق: ٢٤.

(٢) يُنظر: فان دايك: النص بناؤه ووظائفه: ٦٤.

فالحذف يعني حذف متتالية القضايا (الجملة) التي ليست شرطا في تفسير القضايا اللاحقة في النص، أو اختيار القضايا التي هي شروط تفسيرية.

أما التعميم فيعني استبدال قضايا بالفضية التي تنطوي عليها كل واحدة من قضايا المتتالية، مثلا: (مريم تلعب بالدمية، يوسف يلعب بالكرة، سعيد يلعب بالدراجة)... الأولاد يلعبون باللعابهم.

أما التركيب فيعني استبدال متتالية قضايا بقضية تحيل إجمالا على الحدث نفسه الذي تحيل عليه قضايا المتتالية برمتها، مثال ذلك رحلة القطار المشار إليها آنفا.

ويشير إلى أن هذه القواعد لا يمكن أن تعمل إلا على أساس معرفتنا العالم، فإننا إن لم نكن نعرف أن الرحلة بالقطار مثلا، تستدعي الذهاب إلى المحطة وشراء التذكرة... غير ذلك، لما تمكنا من استبدال التفاصيل كلها بفكرة (رحلة القطار)^(١).

ويخلص (فان دايك) إلى أن موضوع النص غالبا ما يذكر في النص، وفي هذه الحالة يعبر عن قضية كبرى مباشرة في النص بوساطة جملة موضوعية (Thematic Phrase)، وإن هناك وسائل أخرى تدل على البنى الكبرى التي يتضمنها أحد النصوص، مثل: عناوين، كلمات رئيسة، حروف مائلة، خلاصات... وغيرها^(٢).

من الملاحظ أن تقديم (فان دايك) هذه المفاهيم (التداولية والبنية الكبرى للشاملة) يعكس تأثرا واضحا بنظرية (أوستن) لأفعال الكلام، التي بدورها تعكس تأثر (أوستن) نفسه بنظرية المعنى عند (فتجنشتاين)، الذي يرى أن معنى الكلمة هو استعمالها، وأن معنى أي كلمة أو عبارة يتمثل في طريقة استعمالها في سياحة معينة، ومن ثم فإن هذا الاستعمال هو الذي يحدد معنى الكلمة أو العبارة^(٣).

والتداولية بوصفها مفهوما منطلقيا يربط اللغة بالسياق العام الذي يحكم الكلام ويؤثر في المعنى لدى الباحث والمتلقي في آن معا، نجده واضحا جليا في المفهوم الذي قدمه فتجنشتاين في مباحثه في منطق اللغة ونظرية المعنى، فإن ما أسماه (فتجنشتاين) بـ (ألعاب اللغة Language games) يستدعي استعمال اللغة في سياق اجتماعي / تداولي معين، ويستدعي أيضا استعداد المخاطب للاستجابة وتقبل ما يعنيه المخاطب لتحقيق غاية التواصل اللغوي - وهو الأمر الذي أشار إليه (فان دايك) في

(١) انظر: المرجع نفسه: ٦٤-٦٥.

(٢) انظر: المرجع نفسه، ٦٥.

(٣) انظر: هاينه من وفهيجر: ٤٤-٤٥.

مثال السيارة وحديثه عن الطلب كما قدمنا آنفاً. كما أن (فتجنشتاين) يشرق بين القضية وعلاقة القضية، فعلاقة القضية هي القلب الحسي - المتمثل بالكلمات والألفاظ المكتوبة والمنطوقة - الذي نعبر بموجبه عن القضية.

أما القضية فهي المعنى القائم في الذهن الذي نرسم به الواقع الخارجي^(١). من هنا نجد أن استعمال (فان دايك) البنية الكبرى يمثل انعكاساً لمفهوم القضية عند (فتجنشتاين). إن عودة الأثر المنطقي على الدرس اللغوي الحديث، قد جعل البحث اللغوي يقترب كثيراً من المنطق الحديث إن لم يكن منطلقاً خالصاً، ونرى هذا الأثر جلياً في كتابات فان دايك وما قدمه في مجال علم لغة النص، فهذه الكتابات مغرقة بمصطلحات المنطق ورموزه - ولاسيما كتابه النص والسياق -.

والعوامل النداولية (Pragmatics) هي التي تحدد المعنى الحقيقي للكلمات والوحدات اللغوية الأخرى، فالتلفظ يعرف على أنه فعل أو ممارسة أو تصرف وعليه يتوقف بشكل أساسي بناء ما يمكن تحقيقه بوساطة العمل اللغوي. وهذا ما بنى عليه (أوستن) خطة كتابه المسمى (كيف ننجز الأشياء بالكلمات) (How To Do Things with Words)^(٢).

تعدّ محاضرات وليم جيمس التي ألقاها الفيلسوف جون أوستن في العام ١٩٥٥، المرحلة التأسيسية لهذا النوع من الدرس اللغوي، إذ سمى أوستن من ورائها هذه المحاضرات إلى إثبات فكرته التي تقول: إن اللغة تهدف إلى وصف الواقع، إذ إن الجمل الخبرية كلها يمكن أن يحكم عليها بالصدق والكذب، فهي صادقة إذا كان الوضع الذي تصفه قد تحقق فعلاً في الكون، وهي كاذبة إن كانت بخلاف ذلك^(٣).

(١) صالح (رشيد الحاج): التحليل اللغوي ونظرية المعنى عند فتجنشتاين: عالم الفكر: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب: الكويت: العدد ٤/م: ٢٩/ أبريل - يونيو ٢٠٠٦ م: ٢٣٦.

(٢) بخوري (سعيد): ١٤١.

(٣) هذه الحقيقة من مسلمات علم البلاغة العربي. فقد عرف البلاغيون العرب الخبر بأنه ما لا يحتوي على الصدق والكذب في ذاته، والإشياء الكلام الذي يحتمل الصدق والكذب في ذاته: يقول الخطيب الفيروزي (ت: ٧٣٩هـ): "الكلام إما خبر أو إنشاء؛ لأنه إن كان نمبته خارج تطايقه أو لا تطايقه فخبر، وإلا وإنشاء؛ صدق الخبر مطابقته للواقع، وكذبه عدمها..." وقوله: "اختلف الناس في انحصار الخبر في الصادق والكاذب؛ فذهب جمهور إلى أنه منحصر فيهما، ثم اختلفوا فقال الأكثر منهم: صدقه مطابقة حكمه للواقع، وكذبه عدم مطابقة حكمه له، وهذا هو المشهور وعليه التعويل".

الفيروزي (الخطيب محمد بن عبد الرحمن)، التلخيص في علوم البلاغة، تحقيق: الأستاذ عبد الرحمن البرهومي، دار الفكر العربي، القاهرة: ٣٨.

فقد انطلق أوستن من ملاحظة بسيطة مفادها، أنّ التفريق بين الجمل الخبرية التي تصنف الكون، ويمكن الحكم عليها بالصدق أو الكذب، والتي أطلق عليها (الجمل الوصفية). والجمل الإنشائية التي لا تستعمل لوصف الواقع، بل لتغييره، فهي لا تقول شيئاً عن حالة الكون الراهنة أو السابقة، بل نغيرها، أو تسعى إلى تغييرها، ولا يمكن الحكم عليها بالصدق أو الكذب، وهذه الجمل سماها بـ(الجمل الإنشائية). وهذا لا يمنع من وجود كثير من الجمل الخبرية، التي لانصف أي شيء، ولا يحكم عليها بمعيار الصدق والكذب، ويمثل لذلك بجمل من نحو، (أمرتك بالصمت)، أو (أعدك بأن آتي بحدأ)، ففي هذه الجمل لا نقول شيئاً عن حالة الكون، بل نسعى إلى تغييره، فقايل (أمرتك بالصمت)، يسمى إلى فرض الصمت على مخاطبه، ويحتمل أنه يسعى إلى الانتقال من حالة الضجيج في الكون، إلى حالة السكون، وكذا الحال مع الجملة الأخرى، إذ يسعى قائلها إلى خلق التزام، ونوع من العقد الأخلاقي بينه وبين مخاطبه، وهذا العقد لم يكن موجوداً من قبل، وأنّ الجمل الإنشائية لها خصائص ليست في الجمل الخبرية، منها أنها تسند إلى ضمير المتكلم في زمن الحال، وتنضمّن فعلاً من مثل: أمر، و وعد، وأقسم، ويفيد معناها على وجه الدقة إنجاز عمل، وتسعى هذه الأفعال أفعالاً إنشائية، ولا يحكم عليها بمعيار الصدق أو الكذب، بل يكون الحكم بمعيار الإنجاز أو الإخفاق، فالأب الذي يأمر ولده بأن ينظف أسنانه، ويرد عليه الابن: (لا ينظف أسنانه)، لم يقل شيئاً صادقاً أو كاذباً، بل أمر، وأمره أخفق بما أنّه لم يُمتثل له، في حين لو نظف الابن أسنانه لكان أمر الأب منجزاً^(١).

وفي مرحلة لاحقة تخلى أوستن عن التفريق بين الجمل الإنشائية والجمل الخبرية، فكشف عن مفهومه الجديد الذي تجلّى في أعمال أتباعه، فقد (أقرّ أوستن بأنّ كل جملة بمجرد التلفظ بها على نحو جاد، توافق في الأقل إنجاز عمل قول، وعمل تنضمّن في القول، وتوافق أحياناً كذلك القيام بعمل التأثير في القول)^(٢).

وهو وجد أنّ أحد أتباعه المقربين، وهو الفيلسوف الأميركي (جون سيرل)، قد طوّر هذين من أبعاد هذا المفهوم وهما، المقاصد والمواضعات، إذ عدّت الأفعال الكلامية

(١) اللغوي (الخطيب محمد بن عبد الرحمن)، الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق: لجنة من أساتذة كلية اللغة العربية بالجامع الأزهر، طبعة السنة المحمدية، القاهرة: ١٣/١.

(٢) يُنظر: ريبول (أن)، و جاك وشلاز، النداءية اليوم علم جديد في التواصل، ترجمة: د. ميف الدين كورغوس، ود. محمد الشيباني، المنظمة العربية للعلوم والترجمة، بيروت-لبنان، ط ١، ٢٠٠٢: ٢٨-٣١.

(٣) يُنظر أيضاً: صلاح الدين الشريف (محمد)، تقديم عام للاتجاه اليرغماتي، ضمن كتاب أهم المدارس اللسانية، منشورات المعهد القومي لعلوم التربية، تونس، ١٩٨٦: ١١٢-١١٣.

(٤) ريبول (أن)، و جاك وشلاز: ٣٢.

والجمل المنجزة، وسيلة تواضعية للتعبير عن مقاصد معينة، ومن ثمّ تحقيقها. ويرى (سيرل) أنّ العنصر الأساسي في التواصل الإنساني ليس مقطوعاً داخلياً في اللغة، بل هو فعل القول أو إنشاء القول^(١).

تناول اللسانيون في أوروبا ولاسيّما الفرنسيون أعمال أوستن وسيرل التداولية، وطوّروها لتكون جزءاً لا يتجزأ من اللسانيات، وتوضح الفكرة التي انطلقوا منها لتطوير التداولية من ملاحظة أنّ الدلالات اللفظية تتأثر في شروط استعمال اللغة، وهي شروط مقننة، ومتحققة في اللغة، فبعض العبارات، ((من مثل (صراحة) و(فيما بيننا) لا تفهم دلالتها إلا إذا نظرنا إلى العمل اللفظي الذي تصفه وتعده. وليس إلى محتوى الجمل التي تظهر فيها. ولقد قادت تحاليل العبارات اللفظية التي تناولت الأفعال الإنشائية (فضلاً عن ذلك، وأخيراً، وفعلاً) إلى الفرضية التي [تعدّ] أنّ دلالة هذه الكلمات (المعجمية أو النحوية) تتضمن تعليمات حول كيفية استعمال الجمل في الخطاب))^(٢).

التداولية لم تقف عند حدود هذا التطور، بل شهدت إضافات كثيرة، لم تبتعد عن الفلسفة والمنطق^(٣)، فنجد منها مفهوم الاقتضاء الذي يمثل عند (فريجه) و(راسل) شرطاً للمحتوى، أو شرطاً للاستعمال، فالأقتضاءات هي المحتويات التي أ يحددها كون الجملة صادقة أو كاذبة، بل بالإمكان بيان أنّ الجملة المقتضاه صادقة بالعودة إلى التماسك المنطقي، أي أنّ جملة مثل: ملك فرنسا حكيم، تقتضي أنّ (يوجد ملك لفرنسا) وسواء أصادقة كانت هذه الجملة أم كاذبة، فإنّه بإمكاننا أن نتيين بسهولة أنّ اقتضاءها صادق دائماً، في حين ((يرى المدافعون عن اعتماق الاقتضاء شرطاً للاستعمال أنّ كل جملة نتلفظ بها ويكون اقتضاؤها كاذباً هي جمل لا معنى لها أي لا يمكن وصفها بأنها صادقة أو كاذبة))^(٤).

هذا ما حاول مؤلفا الكتاب تطبيقه على التداولية، فقد وصفا الاقتضاء بأن ((المضمون الذي تبلغه الجملة بكيفية غير صريحة. وهكذا فإن القائل إذا قال (كف

(١) يُنظر: بلانشيه (فيلسوف)، التداولية من أوستن إلى غوتمان، ترجمة: صابر العباشه، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية-سوريا، ط ١، ٢٠٠٧: ٥٥.

(٢) المرجع نفسه: ٤٧.

(٣) ليس أدل على ذلك من المصطلحات التي يستعملها اللغويون الذين تبينوا النظرية وكتبوا فيها، وخبر ذلك على قولنا كتاب فان داهك (النصر والسباق) الذي أغرقه بالمصطلحات المنطقية: في سيبل اللغويات، والمفهوم، والمحمول، والمصدق... وغيرها الكثير، حتى يغيب إل قارئه أنه يقرأ في كتاب منطق لا كتاب لغة

(٤) روبرول (أن)، وجاك وشلاز: ٤٨.

زيد عن ضرب زوجته). فإنه قال صراحة إن زيدا لا يضرب زوجته الآن. (وهذا هو المحتوى المقرر أو الإخبار). كما أنه أبلغ بكيفية غير صريحة أن زيدا ضرب زوجته فيما مضى، (وهذا هو المحتوى المقتضى أو الاقتضاء)^(٦١).

وعلى الرغم من أن الموقف التداولي من الاقتضاء لم يقدم حلاً أكثر إقناعاً من الموقف المنطقي، ((لأنه سجل نجاحاً كبيراً، لأنه جعل من الاقتضاء- الذي كان في أول الأمر مشكلاً منطقياً يستتبع مفاهيم مثل (الصدق) و (الاستلزام). وغير ذلك- مسألة تداولية، فالإقتضاء هو ما ينبغي قبوله في التواصل حتى يتسنى للمتخاطبين أن يفهموا))^(٦٢).

ويرى م. هاينمان وف. هاينمان أن اتجاه لسانيات النص نحو التداولية، الذي شهد حيزاً كبيراً في الدرس اللساني في نهاية ثمانينيات القرن العشرين، لا يقود إلى التوسع في مادة البحث فحسب، بل يقود أيضاً إلى إنجاح المحاولات الرامية إلى تحقيق التكامل في طرائق بحث العلوم المختلفة، إذ إنّ إدخال الاتجاه التداولي في بحوث لسانيات النص يعطيها أبعاداً جديدة، وعلى الرغم من ذلك ظهرت كثير من المحاولات التي ابتعدت عن الجانب التداولي، ولاسيما في العام ١٩٩٠، إذ انطلقت هذه المحاولات من النص المجرد، بعيداً عن الجوانب غير اللغوية التي تحيط بالنص، تلك الجوانب التي اعتمدها التداولية في دراستها للنصوص اللغوية، إذ إنّ النص ما هو إلا ارتباطات لفقهايات بين النص ونصوص أخرى تحكمها سلسلة من القواعد النحوية والدلالية، إطار من العلاقات التبادلية العليا بين الأفراد.

لذا وبحسب الباحثين- يتوجب على لسانيات النص الحديثة أن تتجاوز آليات بحث القديمة، وأن تحاول بيان الجوانب الحديثة في لسانيات النص، وعلم الاتصال، المستندة إلى الوظيفة التداولية، وإدخالها في علاقات النصوص الكبرى خاصة. إنّ النصوص تبين في ارتباطها بالشبكة التبادلية، أو الخطاب، الوحدات الأساسية للوصول إلى الأهداف الاجتماعية المحددة، وإنّ فهم العلاقات التبادلية، ورد على المتطلبات التبادلية، هما الوجدان الأساسيتان للسانيات النص^(٦٣).

المرجع نفسه: ٤٧. ونظراً أيضاً: جورج لايكوف، اللسانيات ومنطق اللغة الطبيعي، ترجمة: عبد القادر بن الأريحا الشرق، ١٩٩٦: ٤٧ وما بعدها.

هول (آن)، وجات وشلاز: ٤٨.

هاملز: هاينمان (مارغوت)، وفولفغينغ هاينمان، أسس لسانيات النص، ترجمة: أ.د. موفق محمد جواد، دار المأمون للترجمة والنشر، بغداد، ط١، ٢٠٠٦: ١٤-١٥.

❖ المصادر والمراجع

- بحري (سعيد حسن). اتجاهات معاصرة في تحليل النص، مجلة علامات في النقد، إصدار النادي الثقافي - جدة، ج ٨ / م ١٠٣، ديسمبر ٢٠٠٠.
- بلانشيه (فيليب)، التداولية من أوسن إلى غوفمان، ترجمة: صابر العياشة، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية-سوريا، ط ١، ٢٠٠٧.
- (ينكراد) سعيد، استراتيجيات التواصل من اللفظ إلى الإيماءة، مجلة علامات، العدد ٢١ - ٢٠٠٤.
- ينكراد (سعيد)، عن التستين المردي والتستين الأيديولوجي، مجلة علامات، العدد الثاني، ١٩٩٤.
- تزفتيان نودوروف، المبدأ الحوارية، دراسة في فكر ميخائيل باختين، ترجمة: فخري صالح، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ط ١، ١٩٩٢.
- جورج لايكوف، اللسانيات ومنطق اللغة الطبيعي، ترجمة: عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، ١٩٩١.
- دي يوجراند (روبرت)، النص والخطاب والإجراء، ترجمة د. تمام حسان، عالم الكتب، ط ١، القاهرة، ١٩٩٨.
- دي سوسير (فرديناند)، دروس في الألسنية العامة، ترجمة: صالح القرماذي ومحمد الشاوش، ومحمد عجينة، الدار العربية للكتاب، ١٩٨٥.
- ريبول (أن)، وجاك وشلاز، التداولية اليوم علم جديد في التواصل، ترجمة د. سيف الدين دغفوس، ود. محمد الشيبالي، المنظمة العربية للعلوم والترجمة بيروت-لبنان، ط ١، ٢٠٠٣.
- ريكور (بول): من النص إلى الفعل، ترجمة محمد برادة وحسان بورقية، مؤسس عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط ١، القاهرة، ٢٠٠١.
- صالح (رشيد الحاج)، التحليل اللغوي ونظرية المعنى عند فتنجشتاين، عالم الفكر المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد ٤/م ٢٩، أبريل-يونيو ٢٠٠١.
- صالح الدين الشريف (محمد)، تقديم عام للاتجاه البرغماتي، ضمن كتاب أهل المدارس اللسانية، منشورات المعهد القومي لعلوم التربية، تونس، ١٩٨٦.
- فان دايك (تون أ)، النص والسياق، ترجمة عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، ط ١، الدار البيضاء، ٢٠٠٠.
- فان دايك (تون أ)، النص: بناؤه ووظائفه مقدمة أولية لعلم النص، ترجمة جورج أبي صالح، مجلة العرب والفكر العالمي، مركز الإنماء القومي، العدد الخامس، شتاء ١٩٨٩.
- الفقي (د. صبحي إبراهيم)، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، دار القلم

- للطباعة والنشر والتوزيع، ط ١، القاهرة، ٢٠٠٠.
- القزويني (الخطيب محمد بن عبد الرحمن)، الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق: لجنة من أساتذة كلية اللغة العربية بالجامع الأزهر، طبعة السنة المحمدية، القاهرة.
- القزويني (الخطيب محمد بن عبد الرحمن)، التلخيص في علوم البلاغة، تحقيق: الأستاذ عبد الرحمن البرقوقي، دار الفكر العربي، القاهرة.
- لاينز (جون)، اللغة والمعنى والسياق، ترجمة د. عباس صادق الوهاب، مراجعة د. يوثيل عزيز، دار الشؤون الثقافية، ط ١، بغداد، ١٩٨٧.
- هاينمان (مارغوت)، وفولفغنج هاينمان، أمس لسانيات النص، ترجمة: أ.د. موفق محمد جواد الصالح، دار المأمون للترجمة والنشر، بغداد، ط ١، ٢٠٠٦.
- هاينه من (فولضجانج)، وديتر فيههجر، مدخل إلى علم اللغة النصي، ترجمة د. صالح بن شبيب المعجمي، مطابع جامعة الملك سعود، الرياض، ط ١، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

- Crystal, D. (1991). *A Dictionary of Linguistics and Phonetics* (3rd edition). London: Blackwell.
- Halliday, M.A.K. and R. Hasan (1976). *Cohesion in English*. New York: Longman.

الدلاليات والتداوليات... علاقة وإشكاليات

د. خالد خليل*

❖ مداخل

يمكن للمشغل بإستمولوجيا الفكر اللساني والتأريخ لاتجاهاته أن يميز بين تيارين لسانيين رئيسين هما: تيار بنيوي صوري، يقف في مقارنته اللغوية عند حدود بنية اللغات الطبيعية. ولا يكاد يتعداها، وهو مانجده في اللسانيات البنوية، بشقها الأوروبي (ديسوسين) والأمريكي (بلومفيلد)، وتيار وظيفي تواصل، يحاول وصف بنية اللغات الطبيعية، من خلال ربطها بما تؤدبه اللغات من وظائف داخل المجتمعات البشرية. وتعدُّ المقاربة البنوية اللغة بنية مجردة، يمكن أن تُدرَس خصائصها بغض النظر عما يمكن أن تُستعمل من أجله^(١)، في حين تجعل المقاربة الوظيفية التواصلية من اللغة أداة ((تُسخر لتحقيق التواصل داخل المجتمعات البشرية، من هذا المنظور تكثر العبارات اللغوية مفردات كانت أم جملا وسائل تُستخدم لتأدية أغراض تواصلية معينة، وتُقارب خصائصها البنوية على هذا الأساس))^(٢).

ولقد تخلت اللسانيات البنوية عن البحث فيما وراء الكينونة اللغوية بمفهومها الشكلية الذي يركّز على الشكل دون المادة، وراحت تفصي الانجاز اللغوي المتجسد في الكلام، من خلال تركيزها على دراسة اللغة بذاتها ومن أجل ذاتها، فتحوّل الدرس اللساني مع البنويين الى علم صوري مطلق ذي اجراءات داخلية خالصة، لا يأخذ بعين الاعتبار عناصر التواصل اللغوي. مثل أحوال التخاطب والطبقات المقامية المختلفة التي يهجر فيها الخطاب. غير أن هذه الثغرة سُدّت وإن على نحو جزئي بظهور الدراسات اللسانية التي تجلّت في أعمال مدرسة فيرث الانجليزية، لكنّها سُدّت بشكل جزئي بظهور التوجهات اللسانية الوظيفية التداولية، التي يهيمن فيها المقام وملابساته على اللسان، من خلال اهتمامها بكل أشكال التفاعل الاجتماعي والتفاعل الخطابية، التي تولف على المعطيات اللغوية والخطابية المتعلقة باللفظ ودراسة العلاقة بين اللغة وبينها. ذلك يعني أنّ الدرس اللساني المعاصر قد تخلّى عن دراسة اللغة بوصفها مجردة تحكمها قوانين داخلية، على نحو ما نجده في اللسانيات البنوية، أو

* أستاذة بغداد/كلية التربية - ابن رشد

مخطوطات: المنهج الوظيفي في الفكر اللغوي العربي - الأصول والامتداد ١٩.

الطبعة لسنة ٢٠.

دراستها بوصفها بنية دماغية مجردة، تُؤدّي عن طريق الانجاز الكلامي، كما هي الحال في اللسانيات التوليدية، وتجاوزها الى دراسة اللغة بوصفها علما تخاطبيا تواصلها يُعنى بالأبعاد الخطابية الاستعمالية للغة^(١).

ولما كانت التداوليات علما جديدا في التواصل، يُعنى بالوقوف على الجانب الدلالي من اللغة، فقد شاب العلاقة بينه وبين الدلاليات خلطاً بين الدارسين، فكانت هذه المسألة-مسألة الخلط- من الإشكاليات المستأثرة باهتمامات الباحثين، من الذين يُعنون بقضايا اللغات الطبيعية وإشكاليات وصفها على اختلاف توجهاتهم المعرفية، وهو إشكال تعود جذوره التاريخية الى طرح مسألة وظائف اللغة، التي برزت مع مخطط ياكوبسن^(٢). وسيحاول هذا البحث الوقوف على هذه الإشكالية، ومتابعة آراء الدارسين لها، مع التركيز على الأُمس التي انطلقوا منها وبيان الاتجاهات التي سلكوها، ابتداءً، قد يكون من الصعوبة بمكان الوقوف على تحديد جامع للتداوليات، يوحد التعريفات المتداولة وبراعي التطورات الحاصلة في هذا المجال، غير أنّ جلّ هذه التعريفات تتفق فيما بينها على أنّ التداوليات علمٌ يدرس ((العلاقة بين العلامات ومفسريها، وبما أنّ كلّ مفسري العلامات كائناتٌ حية، فمن الصواب القول إنّها تهتم بعملية انتاج اللغة، وبمنتجها، وليس فقط بالنتاج نفسه، أي اللغة))^(٣).

والتداوليات اتجاهاً في دراسة اللغة شارك في بلورته وتنمية البحث فيه دارسون ينتمون الى ميادين معرفية مختلفة، أهمها اللسانيات والبلاغة والمنطق وفلسفة اللغة وغيرها من العلوم المعنية بالجزء الدلالي من اللغة، وقد جاء ظهورها ردّاً فعل على اللسانيات التوليدية، التي اقتصرت على دراسة الجمل دراسة تجريدية، بمعزل عن السياق الذي تُنتعمل فيه، رافضة فكرة تشومسكي عن المتكلم/السامع السلبي للمثالي، يقول ليفنسن: ((إنّ الأساس الأول في نشوء المنهج التداولي كان بمثابة رد فعل على معالجة تشومسكي للغة بوصفها شيئا تجريديا، أوقصرها على كونها قدرة ذهنية بحتة، غفلا عن اعتبارات استعمالها وممتعملها ووظائفها...))^(٤). لقد أسهمت الأبحاث الفلسفية في تطوير بعض مظاهر الدرس التداولي، ويتعلّق الأمر تحديداً بما عُرف بتيار (فلسفة اللغة العادية) أو (الفلسفة التحليلية)، ومن رواده (أوسنين) و(غرايس)

(١) ينظر: في الجهاز المفاهيمي للدرس التداولي، ضمن كتاب التداوليات علم استعمال اللغة ٢٦-٢٧.

(٢) ينظر: البحث اللساني والميمبالي ٢٩١.

(٣) شظايا لسانية ٥٩.

(٤) استراتيجيات الخطاب، مقارنة لغوية تداولية ٢٦، وينظر: نظرية الفعل الكلامي ٢٠-٢١، والتداوليات والحجاج مداخل ونصوص ٢٠-٢١.

و(سورل)، ومن قبلهم فتغنشتاين في مباحثه المنطقية التي كانت المهاد النظري للدراسة التداولية. فقد لاحظ أصحاب الفلسفة التحليلية أن المشكل الأساس في الفلسفة الحديثة لا يتعلق بغموض المفاهيم والتباس الدلالة، وإنما يتعلق بالاستعمال غير السليم للغة، إذ لاحظ فتغنشتاين أن اللغة تفتقر إلى الدقة، فالكلمة الواحدة يمكن أن تدل على أكثر من معنى، وللتخلص من هذا المشكل رأوا أن التحليل الفلسفي أصبح يقتضي وصف الاستعمالات العادية للعبارة اللغوية، بدل الاقتصار على مناقشتها مجردة من تداولها في ظروف ومقامات محددة؛ لذلك اتخذ فلاسفة اللغة العادية مقولة (المعنى هو الاستعمال) شعاراً لهم^(١).

لقد صاغ أوستين نظرية (أفعال الكلام) في محاضراته التي ألقاها في جامعة هارفرد عام ١٩٥٥م، والتي جُمعت في كتاب سُمي (كيف نفعّل الأفعال بالكلمات How to Do things with Words)، ثم نُشرت في عام ١٩٦٢م، وعمد ميرل فيما بعد إلى تطوير هذه النظرية في أثناء السبعينيات والثمانينيات؛ بغية سدّ الثغرات التي تركها أوستين. أما غرايس فقد صاغ في العام ١٩٧٥م دراساته العلمية في تحليل المحادثة، فيما يُعرف في الدراسات اللسانية بأصول المحادثة^(٢).

وتختلف اللسانيات التداولية عن لسانيات دي سوسير وتشومسكي في أنها تهتمُّ بدراسة الكلام/الإنجاز، في حين اهتمَّ كلٌّ من دي سوسير وتشومسكي بدراسة اللغة/القدرة، لذلك عُنيت التداولية بالمقام اللغوي، وأعطته زخماً في عملية التحليل اللساني، على العكس من دي سوسير وتشومسكي اللذين ركّزا في النظام اللغوي نفسه^(٣)، لقد تطوّر بفعل التداولية ((المفهوم الجامد للكلام- كما شرّحه دي سوسير- في عمل ديناميكي يأخذ طابع الاستعمال. وهو أمرٌ يتيح إقحام مصطلحات ديناميكية أخرى تحلُّ محلَّ نظائرها الجامدة في تراث دي سوسير، ربما كان من أهمها استخدام غموض بدلاً من المعنى، وأصبح موضوع تحليل المحادثة بدلاً من الجملة، وأضحى اللسانيون يبحثون في مبادئ أو أصول التخاطب لبلوغ كنه مراد المتكلم بدلاً من

ينظر: فلسفة اللغة عند لودفيغ فيتغنشتاين ٢٥٣، والسانيات العربية الحديثة، دراسة نقدية في المصادر والأسس النظرية والمنهجية ٢٤٦ - ٢٤٧، والتحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد، ٤٦٤. الموقف على مفهوم نظرية (أفعال الكلام) تمكن مراجعة المؤلفات الآتية: نظرية الفعل الكلامي ١٩٥٠-٣٩، والسانيات الوظيفية - مدخل نظري ١٨ - ٢٥٠، ومقدمة في علمي الدلالة والتخاطب ٢٤ وغيرها. ينظر: تقديم عام للاتجاه البرغماتي ٩٧، ونظرية الفعل الكلامي ١٦١، ومقدمة في علمي الدلالة والتخاطب ١٥.

ينظر: تقديم عام للاتجاه البرغماتي ٩٥، ضمن كتاب أهم المدارس اللسانية.

الاقتصار على البنى اللغوية المجردة^(١).

وتكاد تكون التداوليات أقرب الحقول المعرفية الى الدلاليات؛ لجهة اهتمامها بالمعنى وتركيزها عليه، حتى ان (تشارلز موريس) ١٩٣٨ قدّم مخططاً جعل فيها التداوليات والدلاليات جزءاً من علم العلامات، الذي قسّمه على ثلاثة حقول هي علم النحو الآتي:

١. التركيب *Syntax*: وهو دراسة العلاقة بين العلامات بعضها ببعض في تركيب معين.

٢. الدلاليات *Semantics*: وهو دراسة علاقة العلامات بما تدلّ عليه.

٣. التداوليات *Pragmatics*: وهو علم يبحث في العلاقة بين العلامات ومستعملها^(٢).

ونلاحظ من خلال تصنيف موريس أن الدلاليات صارت فرعاً من فروع علم العلامات، وأن العلاقة بين العلمين علاقة الخاص والعام، والخاص هو الدلاليات غير أن الفيلسوف المغربي طه عبد الرحمن يخالف موريس، ويجعل الدلاليات جزء من اللسانيات، التي رأى أنها تنقسم على ثلاثة أقسام هي:

١. الدالّيات، ويفصد بها الدراسات التي تختص بوصف - وإن أمكن بنفسه - الدالّ الطبيعي في نطقه وصوره وعلاقاته، وبهذا تكون الدالّيات شاملاً لمستويات الدرس اللغوي، الصوتية والصرفية والتركيبية.

٢. الدلاليات، وهي الدراسات التي تختص بوصف - وإن أمكن بتفسير - العلاقة التي تجمع بين الدوال الطبيعية ومدلولاتها، سواء عُدتّ تصورات في الذهن أعياناً في الخارج.

٣. التداوليات، وهي الدراسات التي تختص بوصف - وإن أمكن بتفصّل - العلاقات التي تجمع بين الدوال الطبيعية ومدلولاتها وبين الدالّين بها^(٤).

(١) مدخل الى اللسانيات ٥٧.

• اختلف الدارسون في ترجمة مصطلح *Pragmatics*، فمنهم من ترجمه بعلم الاستعمال، كما هو الحال صلاح اسماعيل في كتابه (نظرية المعنى في فلسفة بول جرايس)، ومنهم من ترجمه بالتداولية، كما في الدلالية ٦٢، وهناك من ترجمه بعلم التخاطب، فضلاً عن ترجمات أخرى نحو (الذرائعية، والنم مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب ٥.

(٢) ينظر: مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب ١٣-١٤، وشظايا لسانية ٦٠. تقديم عام للاتجاه البرغماتي

(٣) ينظر: دلالة السياق ٣٨.

(٤) ينظر: في أصول الحوار وتجديد علم الكلام ٢٨.

يجدر ذكره هنا أن الباحث طه عبد الرحمن هو الذي صك مصطلح (التداوليات) مقابلاً عربياً للمصطلح الغربي (براغماتيقا) منذ العام ١٩٧٠م؛ لأنه بحسب رأيه يوفّي المطلوب حقّه، فهو يدلُّ على معني (الاستعمال) و(الفاعل) معاً.

وعلى الرغم من العلاقة الوثيقة بين العلمين إلا أن الدارسين يحاولون التفريق بين أليات علم الدلالة التي تصبُّ في صميم دراسة المعنى، وآليات التداولية التي حاول أن تفسّر الاستعمالات الفعلية للكلام^(١). لكن التمييز بينهما أصبح من المشكليات التي استأثرت باهتمام المفكرين (فلاسفة ومناطقة ولغويين) من الذين همون بقضايا اللغات الطبيعية ومشاكل وصفها^(٢). ويشير الباحث أحمد المتوكل إلى أن قُدّمت لمعالجة هذه الإشكالية اقتراحات مختلفة، يمكن إرجاعها إلى اقتراحين هما:

الأول: الاقتراح الأول، وينطلق أصحابه من تصور (كلاسيكي) لبنية وصف اللغات الطبيعية. وهو تصور موريس، الذي تقدم الكلام عليه، والذي يتركز الوصف بمقتضاه على مكونات ثلاثة: تركيبية، ودلالية، وتداولية.

الاقتراح الثاني يميز بين اتجاهين:

الأول يرى أنه من الأفضل منهجياً أن تدمج التداوليات في الدلاليات، أي أن يصبح ما كان في حيز المكون التداولي - بحسب تصنيف موريس - في مجال الدلالة، شريطة أن يخفى جهاز الدلاليات بكيفية تمكّنه من تمثّل المفاهيم المرتبطة بالظواهر المعتاد إسنادها إلى التداوليات.

الثاني يناقض الاتجاه الأول ويرى أنه لا توجد ظواهر معنوية لا ترتبط بسياق التواصل، وعليه يجب أن ((يقلّص مجال الدلاليات والتداوليات إلى مجال واحد، يشمل كلّ ظواهر المعنى، (بالمفهوم الواسع) وتضطلع التداوليات بوصفه، باعتبار هذه الظواهر جميعها مرتبطة بكيفية أو أخرى بسياق التواصل))^(٣).

وإن القول إنّ الفرق الجوهرى بين العلمين يكمن في أنّ علم الدلالة يدرس مستقلاً عن السياق الذي يرد التعبير فيه، في حين تهتمُّ التداولية بدراسة معنى من طريق العلاقة مع سياق التعبير، ذلك أنّ دراسة المعاني يمكن أن تكون

١- علم الدلالة ١٢.

٢- بالدلاليات والتداوليات أشكال الحدود ٢٨٧ (بحث).

٣- المرجع ٢٨٩.

((على مستويين مختلفين نسبيًا: مستوى ما قبل التحقق السياقي في مقام التخاطب... ومستوى ما بعد التحقق السياقي، فبينما يتناول علم الدلالة المستوى الأول، وهو مستوى المعنى قبل تحققه سياقيًا في مقام التخاطب، يدرس علم التخاطب))^(١) المستوى الثاني، وهو المعنى بعد أن يصير قصدًا فعليًا تبعًا للقرائن التي ينصها المتكلم))^(٢). فالدلالات - إذن - تدرس الكلام مُستقلًا عن السياق، في حين تدرس التداوليات المنجز اللفوي في سياقه التواصل، وليس بمعزل عنه: لأن اللغة تؤدي وظائفها إلا فيه، وفي هذا المعنى يقول بالمر: إن بنا حاجة إلى التمييز بين ((المعنى الاعتيادي للكلمة أو الجملة، ومعناها في ظروف مُحددة خاصة، وقد يكون هذا تمييز بين علم الدلالة والنرائعية *Pragmatics*. وقد يكون أنفع تمييز جون لايتز... بين معنى الجملة المرتبط مباشرة بالمسمات القواعدية، والمعجمية للجملة، ومعنى التفوق *utterance* الذي يشمل كل الجوانب الثانوية للمعنى، خاصة تلك المرتبطة بالنص ويمسح لنا هذا التمييز بأن نقول شيئًا ونعني آخر))^(٣)، ويمكن التصريح أخيرًا أن المقارنات وسراعاته هو المعيار الأساس للتفريق بين ماهو دلالي وماهو تداولي.

وثمة صلة بين التمييز بين الدلالات والتداوليات من جهة، والمعنى الفحوى والمعنى المقصد من جهة أخرى، وهي صلة ترسخت في الدراسات التداولية، وقد أشار إليها الباحث محمد محمد يونس علي، وقدم في هذا الشأن سياقًا لغويًا، يمكن توضيح كالاتي:

((يجلس مجموعة من الطلاب في فصل دراسي مكثف، ويقف المدرس قريبًا من جهاز التكيف، وتشتد البرودة داخل الفصل، فيبادر أحد الطلاب بالقول: الجو بارد يا أستاذ، فيتوجه الأستاذ إلى زر المكثف، ويضغط عليه لإغلاقه، ولعل جميع الطلاب وكذلك مدرسيهم يدركون أن المعنى اللفوي لجملة (الجو بارد) هو الإخبار بشم الطلاب ببرودة الجو، غير أن المدرس فهم منها أن الطالب يطلب منه بأسلوب مؤدب أن يُغلق جهاز المكثف، وما يهتفنا هنا في هذا المثال هو بيان أن معنى (الجو بارد) في المستوى اللفوي يختلف عما يقصد بها، بوصفها قولة مستخدمة في هذا السياق والجانب اللفوي في ما قاله الطالب هو تقيده... ومراعاته لمقتضيات القواعد الصريحة والنحوية واستخدامه للمفردات اللفوية في معانيها المصطلح عليها في العربية. الجانب الكلامي فهو أنه اختار هذا المنوال بالذات من بين مناوئل أخرى مما

(١) معنى التداولية.

(٢) المعنى وظلال المعنى ٨.

(٣) علم الدلالة (بالمر) ١١، وينظر: استراتيجيات الخطاب ٢٣.

لاستثماره للسياق الخارجي، لإخراج المعنى اللغويّ للجملّة من الإخبار إلى الطلب))^(١) ويمكن القول في ضوء ما تقدّم إنّ التداوليات هي معنى زائد قصد. في حين أنّ الدلالات هي المعنى الفحوى فقط. ذلك أنّ المعنى الفحوى يُفهم من مفردات اللغة أراكيها، بصورة مُستقلّة عن السياق، ويقع هذا ضمن اهتمامات الدلالات، أمّا المعنى القصد فلا يمكن التوصل إليه إلا بعد معرفة السياقات التي قيل فيها الكلام، بخلاف معرفة المخاطب والمخاطب، وإعمال القدرات الاستنتاجية، وهذا من صميم عمل اللسانيّات التداوليّة^(٢). ويربط الباحث منزع عيانيّ القصد بدلالة النصّ، ويرى أنّ مدلول القصد جزءٌ من دلالة النصّ، وليس جزءاً من دلالة الكلمة، ولذا فإنّ أيّ عملٍ يخلو من القصد لا يرقى إلى مرتبة الخطاب، وبالتالي لا يقوى أن يحافظ على مجامع الداخلي، أو على منطقته الذاتي، وسيُفقد في النهاية توجهه الاتصالي^(٣).

يؤمن الجدير بالتنويه أنّ السياق Context، وهو المحيط الذي توجد فيه الوحدة اللغويّة، سواءً كانت كلمة أم جملة، والذي يتحدّد من خلاله المعنى المقصود، يُقسّمه الدارسون على قسمين رئيسين هما:

- السياق اللغويّ، وهو ما يسبق الكلمة وما يلها من كلمات أخرى، أي إنّه البيئة اللغويّة المحيطة بالمتنصر اللغويّ، بما تشتمل عليه من عناصر لغويّة مختلفة، تفيد في الكشف عن معنى الكلمة أو الجملة.
- السياق غير اللغويّ، ويُستقىه الدارسون (سياق الحال أو المآجريات)، ويُقصد به الظروف الخارجة عن اللغة، المتعلقة بالمقام الذي ترد فيه الكلمة، ويشمل جميع الظروف المحيطة بالحدث اللغويّ ((سياق الموقف، العصر، نوع القول وجنسه... المتكلم أو المخاطب، المستمع أو القارئ، العلاقة بين المرسل والمتلقي من حيث الثقافة، الجنس، العمر، الألفة، والطبقة الاجتماعية، ظروف الجوّ، اماءات أو أية إشارات عضويّة))^(٤)

ولاحظ هنا أنّ ثمة تشابهاً بين التداوليات من جهة والسياق غير اللغوي من جهة أخرى، وهو تشابه لا يعني التطابق، ذلك أنّ التداوليات ((أعطت زخماً للسياق بمعاملة التي مستعمل اللغة، وليس سياقاً بحدّ ذاته، السياق ليس مجرد عرض للمنظور اللغوي، كما هو الحال عند مالمينوفسكي وفيرث وهاليداي، إنّه الموقف الاجتماعي

^(١) راجع إلى اللسانيّات ٥٥.

^(٢) انظر: نظرية الفعل الكلامي ١٠٢، ومقدمة في علمي الدلالة والمخاطب ١٥، وشظايا لمائة ٦٣.

^(٣) اللسانيّات والدلالة ٨٠.

^(٤) دلالة السياقات عند اللغويين ٨٢-٨٣ (رسالة ماجستير).

الذي يتمُّ الكلام فيه))^(١)، وعليه يمكن القول إنَّ التداولية هي السياق زائد قصده المتكلم، فهذان هما الأساس الذي قامت عليه التداولية^(٢).

وإذا ما عدنا إلى الثنائيات السوسيرية (اللغة / الكلام)، وعمدنا إلى محاولة استثمارها في تحديد العلاقة بين الدلالات والتداوليات، فيمكننا القول إنَّ الدلالات في ضوء ما تقدّم - تنتمي إلى اللغة، بوصفها مجموعة من القواعد والمعايير القارئة في ذهن المتكلم، أمَّا التداوليات فإتّها تنتمي إلى الكلام، الذي يُزاد به استعمال الفرد للغة وتحقيقه إيّاها من طريق الأصوات الملفوظة، أو العلامات المكتوبة^(٣)، فالمعنى الحرفي والرئيس والمركزي للمفردة أو الجملة ينتمي إلى جانب اللغة، وهذا من صميم مباحث الدلالات، وكلّ المعاني الهامشيّة وظلال المعاني تنتمي إلى الكلام، وهي من أولويات التداوليات، وانطلاقاً من ثنائية دي سوسير يفرّق الباحث هشام عبد الله الخليفة بين (المقولة) أو (القول) من جهة و (الجملة) من جهة أخرى، بحيث استعمل الأول للدلالة على ما يسمّيه جون لايتز الجملة النص، وهي الجملة القابلة للاستعمال كناناً للسلوك اللغوي واستعمل الثانية للدلالة على ما يسمّيه جملة النظام اللغوي، وهي الجملة بوصفها كياناً مجرداً ونظرياً وكجزء من النظام اللغوي^(٤).

ونتيجةً للعلاقة المتميّزة التي تصل الدلالات بالتداوليات، ظهر ميلٌ لدى عددٍ من اللسانيين إلى معاملتهما وجمعهما في إطار علم دلالة أوسع هو (علم دلالة المقام)^(٥).

إنَّ الدلالات عند جون لايتز تضمُّ قسماً كبيراً من مباحث التداوليات^(٦)، ولفظ هيربرت بركلي النظر إلى أهمية العلاقة بين التداوليات والدلالات من خلال جعل عنوان الفصل السادس من كتابه (مقدمة إلى علم الدلالة الألسني) (البراغماتية امتداداً ضروري لعلم الدلالة)، وفيه يقول: ((سنحاول في هذا الفصل القصير تقديم عرض لعناصر البراغماتية، التي يبدو أنّها تشكّل تنمّة إلى علم الدلالة الألسني))^(٧).

كانت هذه محاولة مقتضبة أردنا لها أن تكون إضاءة - ولو خافتة - في معالم الإحاطة الضرورية عن قضايا المعنى... أتمنى أن تكون كذلك.

(١) شفاها لسانيّة ٦٠.

(٢) ينظر: نظرية الفعل الكلامي ٢٣٨.

(٣) ينظر: علم الدلالة (بالمر) ١٠-١١، وعلم اللغة (المعمران) ١-٢٠٢-٣٠.

(٤) ينظر: نظرية الفعل الكلامي ٢٥.

(٥) ينظر: مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب ١٦.

(٦) ينظر: اللغة والمعنى والسياق ٨.

(٧) استراتيجيات الخطاب ٥٧٥.

❖ المصادر والمراجع

- استراتيجيات الخطاب- مقارنة لغوية تداولية، عبد الهادي بن ظافر الشهري، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ٢٠٠٤م.
- أهم المدارس اللسانية، مجموعة مؤلفين، منشورات المعهد القومي لعلوم التربية، تونس، ١٩٨٦م.
- التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد، صلاح اسماعيل عبد الحق، ط١، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٣م.
- التداولية والحجاج- مداخل ونصوص، صابر الحباشة، ط١، دار صفحات للدراسات والنشر، دمشق، ٢٠٠٨م.
- دلالة السياق، ردة الله بن ردة بن ضيف الطلحي، ط١، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤٢٣هـ.
- شظايا لسانية، د. مجيد الماشطة، ط١، مطبعة السلام، البصرة، ٢٠٠٧م.
- الظاهرة الدلالية عند علماء العربية القدامى حتى نهاية القرن الرابع الهجري، د. صلاح الدين ززال، ط١، منشورات الاختلاف ولبنان ناشرون، بيروت ٢٠٠٨م.
- علم الدلالة، أف. آر. بالمر، ترجمة د. مجيد عبد الحلیم الماشطة، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، الجامعة المستنصرية، بغداد، ١٩٨٥م.
- علم اللغة- مقدمة للقارئ العربي، د. محمود السمران، دار النهضة العربية، القاهرة، د.ت.
- فلسفة اللغة عند لودفيغ فيتغنشتاين، جمال حمود، ط١، منشورات الاختلاف، ومؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم، وناشرون، بيروت، ٢٠٠٩م.
- في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، د. طه عبد الرحمن، ط٣، المركز الثقافي العربي، بيروت، ٢٠٠٧م.
- اللسانيات العربية الحديثة، دراسة تنفيذية في المصادر والأسس النظرية والمنهجية، د. مصطفى غلفان، جامعة الحسن الثاني، عين الشق، كلية الآداب والعلوم الانسانية، سلسلة رسائل وأطروحات رقم ٤، ١٩٩٨م.
- اللسانيات والدلالة، د. منذر عياشي، ط٢، مركز الأتماء الحضاري، ٢٠٠٧م.
- اللسانيات الوظيفية- مدخل نظري، د. أحمد المتوكل، منشورات عكاظ، الرباط، ١٩٨٩م.
- اللغة والمعنى والسياق، جون لايتز، ترجمة د. عباس صادق الوهاب، مراجعة د- يونيل يوسف عزيز، ط١، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٨٧م.
- مدخل إلى اللسانيات، د. محمد محمد يونس علي، ط١، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ٢٠٠٤م.
- المعنى وظلال المعنى، أنظمة الدلالة في العربية، د. محمد محمد يونس علي، ط٢،

- دارالمدار الاسلامي، بيروت، ٢٠٠٧.
- مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب، د.محمد محمد يونس علي، ط١، دارالكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ٢٠٠٤م.
- المنهى الوظيفي في الفكر النحوي العربي- الأصول والامتداد، د.أحمد المتوكل، ط١، دارالأمان، الرباط، ٢٠٠٦م.
- نظرية الفعل الكلامي بين علم اللغة الحديث والمباحث اللغوية في التراث العربي والاسلامي، ا. هشام عبد الله الخليفة، ط١، لبنان ناشرون والشركة المصرية العالمية للنشر، بيروت، ٢٠٠٧م.

النقد التداولي من الحدث اللغوي إلى التواصل التقني

د. محمد سالم سعد الله*

❖ مدخل

يأتي اتجاه الوعي النقدي المعاصر إلى تبني صيغ جريئة في مناقشة مستجدات المشهد المعرفي، وقد اتجهت البحوث المنتمية لهذا الوعي إلى إمكانات حضور العقل المفكر من جهة، وغياب مهيمنات التفكير من جهة أخرى، وبذلك اكتسب البحث النقدي كرافق فاعلة، وآليات محددة للمناقشة والتمييز والفحص، والانتقال من مراقبة الظاهرة إلى بيان أسس اشتغالها، وتحديد سلوكيات ناجمة لاختبارها.

ومن الجدير بالذكر أن الوعي النقدي أصيب في الغالب بمدركات منطلقة من جعل النص بفعل الترجمة أو التعريب وقد لا يكون اللفظ المنقول دقيقاً أو محدداً لكل علمي، فضلاً عن حشد من المصطلحات المتتالية المتتابعة، حتى يقف القارئ منشأ متسائلاً: أين القصد وأين الدلالة؟ وبذلك اصطبغت بعض البحوث النقدية بالاصطلاحية المتوالية اصطلاحية في العنوان الواحد، وحشد من المقدرات التي تحمل معاني ودلالات عدة من مثل: (النظرية، اللسانيات، التداولية، الإجرائية، الخطاب، الواسعية) ولكل مصطلح من هذه المصطلحات ميدان معرفي ذو خصوصية منهجية علمية، وله صلة بأبجديات محددة من الفكر الفلسفي، وقد غاب عن بعض الباحثين ذلك الحشد من الخطابات التحديد النقدي المنضبط بالآليات والعناصر التي ترسم أفق الاشتغال المنهجي.

إن الممارسات المعرفية المطروحة في معالجة المصطلحات النقدية ومناهجها، تتسم بغياب تحديد النمق النقدي على المستوى المعرفي، من حيث كونه متواليات رقمية متعايشة مع النسيج العلمي والبهني المحدد ضمن رقعة إقليمية معينة، وعلى مستوى اللغوي بوصفه إمكانات دلالية تمنح التركيب معاني عدة، ولهذه الأخيرة باطات منها: ثقافية واجتماعية وسياسية ونفسية.

والمنطلق من هذا يمكننا معالجة النقد التداولي من حيث إن التداولية إمكانات

فلسفية تقرب من التواصلية وتجاوزها، وتباين مصطلح (الاختلاف) القائم على معطيات النقد التفكيكي، ومصطلح (الإشارة) القائم على منطلقات النقد السيميائي، ومبحث (الجمالية) المنطلق أساساً من إقرارات (الفن للفن)، لكنها أي التداولية لا تبعد عن إمكانات الطرح النقدي للمناهج النصية التي قدّمت للنص معالجات مهمة في كشف الجماليات وبيان الدلالات.

ويحيط الدرس النقدي المتعلق بالتداولية تنظيراً وتطبيقاً إشكاليات عدة تبدأ مع مرحلة ولادتها الفلسفية والأبعاد الدلالية النرائعية، مروراً بعلاقتها مع مرحلة تطورها العلمية مع نظريات التواصل وتحليل الخطاب، وليس انتهاءً بالآليات المنهجية التي وظفتها للاشتغال، ونظراً للصعوبات المعرفية التي تعترض مسيرة التداولية فقد تحولت عند بعضهم إلى أيقون تصطبغ به بحوثهم دون تحديد منهجي أو إجرائي لأبعادها العلمية والمنهجية، لذلك يسعى هذا البحث لبيان الكيفية التي تتم بوساطتها دراسة التداولية، وبيان إمكانية تحديد مسارها: من الفلسفة إلى الفلسفة، ومن الفلسفة إلى النقد، ثم من النقد إلى التقنية، وذلك من خلال ثلاثة محاور:

الأول: المسار الفلسفي. الثاني: المسار النقدي. الثالث: المسار التقني.

وتقدم هذه المسارات رؤية نقدية للتعامل مع التداولية وبيان مسيرتها الفلسفية والمنهجية، وتحديد أهم الآليات النقدية التي تمارسها في اشتغالها النصية، كما تتناول الحديث عن التداولية تعريفاً ومصطلحاً وتطوراً، فضلاً عن التعرف بالتداولية التقنية التي تُعنى بدراسة الحوارات التفاعلية ومتابعة طرائق التواصل بين المتحاورين في الواقع التقني الافتراضي، كما تعنى بتنسيق أنظمة المعاداة بين المستخدمين والحفاظ على سياق تطور الخطاب وتنميته وتفاعله.

❖ المحور الأول: المسار الفلسفي

تشير الدراسات التي عُنت بنشأة التداولية إلى أنها وليدة الفلسفة النرائعية البراجماتية في الحقل الفلسفي^(١)، فهناك أبعاد تجمع بينهما في القاية والمقاصد الفعلية، ولا يمكن بأي حال من الأحوال تصور انفصال التداولية معرفياً وفكرياً عن النرائعية، فقد اعتمد الاستعمال الحديث لمباحث التداولية تأثير المذهب الفلسفي

(١) التداولية من أوستين إلى غوفمان، فليب بلانشيه، ت: صابر العباشه: ١٨. وهناك من الباحثين أنكر وجود صلة بين التداولية ومذهب النرائعية أو اللغوية لاختلاف التوجهين وطرائق اشتغالهم العلمي والمعرفي، بخلاف التداولية اليوم، أن روبول وجاك موشلر، ت: سيف الدين دغفوس ومع الشيباني: ٢٧ - ٢٨

الأمريكي الذرائعي فيها، وقد قاد هذا الأخير إلى دراسات معرفية وفكرية مهمة للمعد اللساني والتواصلية لاستعمال اللغة، وفي الوقت نفسه لا تعني الصلة بين التداولية والذرائعية التطابق العلمي التام بينهما، ولا يمكن معرفياً تناولهما في سياق مفاهيمي واحد كما سيأتي لاحقاً.

وتشير الذرائعية إلى أن معيار صدق الفكرة أو الرأي هو النتيجة العملية التي تترتب عليها من حيث كونها مفيدة أو مضرة، فهي أي الذرائعية- توجه فلسفي لتفسير معنى الفكرة، والفكرة مشروع للعمل وليست حقيقة في ذاتها، إنما هي حقيقة في استعمالها وفائدتها، فضلاً عن النتائج التي تُبنى على صحتها، كما تشير إلى أن ليس هناك معرفة أولية في العقل تُستنتج منها نتائج صحيحة، بل الأمر كله مرهون بنتائج التجربة العملية التي نحل للإنسان مشكلاته، وأن الأفكار والنظريات والمعارف والنتائج تشكل بمجموعها وسائل وذرائع دائمة لبلوغ غايات جديدة^(١).

وتتحدد نقطة الالتقاء في الواقع العملي الذي يجمع بينهما، فالذرائعية تنطلق من الفكرة ليست في الصور والأشكال التي تثيرها في الذهن، وليست في انطباقها على الواقع الموجودات، وإنما في الأعمال التي تؤديها هذه الفكرة، والتداولية تتجاوز تفسير اللغة ذاتها إلى تفسيرها حال استعمالها في الواقع العملي، ثم أخذت خصوصيتها بوصفها حقلاً لسائياً من خلال عنايتها بالممارسة العملية للغة المتعلقة بالمقاصد التي يحققها الظواهر اللغوية في التواصل^(٢).

ويحدد المسار الفلسفي للتداولية بمجموعة من الطروحات التي عالجت العلاقة بين الفكر واللغة من جهة، وبين الدلالة والتواصل من جهة أخرى، وقد تضاهرت جهود عدة في صياغة المعطيات العلمية والنقدية للتداولية، ومن تلك الجهود الفلسفية^(٣):

١. جوتلوب فريجه	(١٩٢٥-)	مفهوم الدلالة وفلسفة تحليلها
٢. جون أوستن	(١٩٦١-)	مفهوم العمل اللغوي ووظائف اللغة
٣. بول غرايس	(١٩٨٨-)	مفهوم التعاون في سياق المقاصد
٤. جون سيرل	(١٩٣٢+)	تحليل الأعمال اللاحولية
٥. لودفيش فيتغنشتاين	(١٩٥١-)	طور رؤية منطقيّة لتحليل القول

١- انظر: البراجماتزم أو مذهب الذرائع، يعقوب هام: ١٥٠ - ١٥١.

٢- انظر: البراجماتزم أو مذهب الترائع: ١٥٠ - ١٥١.

٣- انظر: التداولية من أوستن إلى غوفمان: ٢٩ - ٣٠.

والتعرف على القدرات الإنسانية في عملية التواصل اللغوي، وهناك من رأى أنها العلم الذي يدرس تأثير المقام في معنى الأقوال^(١).

وتشير هذه التعريفات إلى توجه معرفي ينظر إلى التداولية على أنها تخصص لساني يحدد موضوعه في المجال الاستعمالي، أو الإنجازي ويدرس كيفية استعمال المتكلمين للأدلة اللغوية أثناء الخطاب أو الحوار في علاقة وثيقة مع المقام الذي يلجج فيه الكلام، وتبحث في العلاقات القائمة بين اللغة ومداوليها من الناطقين بها، في إطار دراسة استعمال اللغة في الخطاب، وقد أطلق على التداولية توصيفات عدة منها^(٢):

لسانيات الحوار: لأنها تدرس استخدام الناس للأدلة اللغوية في صلب أحاديثهم.

نظرية استعمالية (علم استعمال اللغة): لأنها تدرس اللغة في استعمال الناطقين بها، نظرية تخاطبية: لأنها تعالج شروط التبليغ والتواصل الذي يقصده الناطقون.

النظرية التواصلية: لأنها تدرس الرسالة اللغوية في إطار عملية وصول دلالاتها إلى المتلقي.

نظرية الأعمال اللغوية: لأنها تدرس الفعل اللغوي من حيث البعد العملي له أي استخدامه.

نظرية مقامات الكلام (*Speech Situations*): لأنها تدرس المرسل والمستقبل والسياق والأهداف والمقاصد وقوة فعل الكلام والمفوض.

نظرية التكيف اللغوي: توجه الجمعية التداولية الدولية (*International Pragmatics Association*) المعروفة اختصاراً (*IPRA*)^(٣) القاضي بدراسة استعمال اللغة من كل الأبعاد.

سلة مهملات: أطلق على التداولية سلة مهملات (*Recycle Bin*) بوصفها حاوية تودع فيها البيانات اللغوية المستعصية على التصنيف العلمي^(٤).

ويتحدد المسار النقدي للتداولية بوصفها جزءاً مهماً وحيوياً من المنهج السيميائي تعالج العلاقات بين العلامات ومستعملها، ونحديداً مع سيميائية (شارل موريس)

(1) See: *Dictionary of Literary Terms* by Harry Shaw, p. 115. and *Dictionary of world Literary Terms* by Joseph T. Shipley, p. 303

(٢) ينظر: التداولية، جورج بول، ش: قصي العنابي، ١٩ - ٢٢.

(٣) ينظر: موقع الجمعية على الإنترنت www.ipra.ua.ac.be ولها مجلة دورية تعمل اسم (*Pragmatics*)

(٤) التداولية، جورج بول، ٢٣.

(١٩٧٩) التي تتكون من المحاور الآتية^(١):

١. التركيبية (Syntax): دراسة علاقة العلامات، وتعنى بدراسة العلاقات الداخلية.
 ٢. الدلالية (Semantics): علاقة العلامة بالمرجع، تعنى بدراسة علاقة العلامات بمدلولاتها.
 ٣. التداولية (Pragmatics): دراسة العلاقات بين المرسل والمستقبل وعلاقتها بسياق الاتصال، وتعنى بدراسة علاقة العلامة بمدلولها.
- ومن المفاهيم النقدية للتداولية في الميدان السيميائي هو: الصيرورة (Semiosis) التي يعمل بموجبها شيء ما بوصفه دليلاً^(٢)، وتحوي هذه الصيرورة على مفصل ثلاثة: الممثل، والموضوع، والمؤول) وهي أقسام العلامة كما صنفها بيرس، والمهمة الأساسية تكمن في تحليل اشتغال الدليل في الاستعمال الفردي للصيرورة بوصفه وظيفة دلالية تواصلية، وتكمن أهمية تقسيم العلامة في علاقتها مع الموجودات والأشياء على عوالم الالة: (عالم الممكنات المقولة الأولانية، وعالم الموجودات المقولة الثانية، وعالم الواجبات المقولة الثالثة)^(٣).

وقد استمد (بيرس) هذه المقولات من مقولات الظاهراتية التي من أهمها: (فلسفة الكائن، ومقولة الوجود، ومحاولة الفكر لتفسير الظواهر)، لقد شكلت (الصيرورة) النظام الحيوي لتمثل الدوال التي يحيل بعضها على بعض، والسعي إلى إنتاج المعنى بتحويله من دلالة في الصورة العيانية، إلى دلالات أخرى تخضع لآلية التأويل^(٤).

كما يمثل المربع السيميائي الذي قدّمه غريماس (The Semiotic Square)^(٥) مساراً جدياً للتداولية، إذ يشير إلى أنّ طبيعة العلامات يمكن أن تُدرك من خلال علاقات تضاد والتناقض، كما تمثل عملية السمطة (Semiotization) مساراً نقدياً آخر لتداولية التي توضح حسب مايكل ريفاتير شعرية النص أو أدبيته^(٦).

وتتمش هذه العملية طاقة العلامات من خلال إخفاء السمة الإيحائية على المعطى اللغوي، وتحويله إلى نسق منمذج للعالم في إطار تواصلية ضمن ما يعرف ب(فرضية

(١) ينظر: نظرية اللغة الأدبية، حوسبه ماريا يوثولو إيفانكوس، ت: حامد أبو احمد: ٢٢٢. معجم السيميائيات، فصل الأحمر: ١٩٣. وينظر: معجم المصطلحات الأساسية في علم العلامات، دانيال ثشاندر، ت: شاكر عبد الحميد: ١٩٢.

(٢) ينظر: الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة، مارسيلو داسكال، ت: حميد لحدادي وآخرون: ١٩ - ٢٠. ينظر: ماهي السيميولوجيا، برنار توماس، ت: محمد نظيف: ٣٨ - ٤١. وعلم الإشارة: السيميولوجيا، بيير جورو، ت: منتر عياشي: ٢٢ - ٢٣.

(٣) ينظر: معجم السيميائيات: ٢٢٩. معجم المصطلحات الأساسية في علم العلامات: ١٩٤. (6) See Text Production by Michael Riffaterre, Tru: Terese Lyons, p. 114

العمل: *Praxis*)^(١)، لمعالجة دلالة العلامة بين العلامات ومستخدميها، ومعالجة علاقة العلامات بمؤولاتها، ومعالجة المظاهر الحياتية للصيرورة بطريقة شاملة، ودراسة الأفعال اللسانية والسياقات التي تنم فيها^(٢).

ويتحدد التوجه النقدي للتداولية بوصفها المسار الذي يدرس المعنى في ضوء علاقته بموقف الكلام حال استخدامه وتلقيه، وتبحث عن الفعل المنجز من الكلام وعلاقته بالمستخدم في إطار تواصل، ويتمثل الاشتغال النصي للتداولية بقضية البحث عن المعنى، ومعرفة قصدية المتكلم، وأفعال الكلام في إطار خطابي تواصل، ويمكن تحديد أهم المفاهيم النقدية التي تشغل عليها التداولية بالآتي^(٣):

١. الحدث الكلامي.
٢. القصدية.
٣. الامتزاز الحوارية.
٤. متضمنات القول.
٥. نظرية الملاءمة.

فالحدث الكلامي: أو نظرية الفعل الكلامي (*Speech Act Theory*) تتعلق بكل ملفوظ ينمض على نظام شكلي دلالي إنجازي تأثيري، أو هي نشاط مادي نحوي يتعامل مع الأفعال القولية لتحقيق أغراض إنجازية، وهي ثلاثة أفعال: (فعل القول، والمتضمن في القول، والنتائج عن القول)، وللعمل الكلامي ثلاث خصائص: (دلالته، وإنجازه، وتأثيره). والقصدية: متعلقة بتفسير الظاهرة اللغوية من خلال مرجعية خارجية متعلقة بالقصد (*Intention*). أما متضمنات القول فهي مفهوم إجرائي يتعلق برصد جملة من الظواهر المتعلقة بجوانب ضمنية وخفية من قوانين الخطاب، تحكمها ظروف الخطاب العامة كسياق الحال وغيره ومن أهمها (الافتراض المسبق) الذي له أهمية في عملية التوصيل والإبلاغ، ثم (الأقوال المضمرة) المرتبطة بوضعية الخطاب ومقامه، والامتزاز الحوارية: أو نظرية المحادثة القائمة على مبدأ التعاون الذي وضعه (غرايمس) المعتمد على عناصر أربعة هي: (الكم، والكيف، والمناسبة، والجهة). ونظرية الملاءمة: التي تعدّ توجهاً تداولياً إدراكياً يفسر الملفوظات في سياقها المناسب البنيوي والمقامي الاستدلالي^(٤).

(١) See *Theories of the Symbols by Tzvetan Todorov, p. 268*

(٢) الأسس الفلسفية لنقد ما بعد البنيوية، محمد سالم سعد الله: ١٢٠.

(٣) التداولية عند العلماء العرب: ٣٠.

(٤) ينظر: التداولية عند العلماء العرب: ٣٠ - ٤٢.

وفي المسار النقدي للتداولية حددت (أرمينكو) ثلاث مقاربات نقدية للتعامل مع التداولية بمعنى آخر جعل التداولية في ثلاث درجات هي^(٦١):

١. تداولية الدرجة الأولى: دراسة الرموز الإشارية.
٢. تداولية الدرجة الثانية: دراسة المعنى الحرفي والتواصل.
٣. تداولية الدرجة الثالثة: دراسة نظرية أفعال اللغة.

والتداولية بوصفها مساراً نقدياً تحليلياً عند أرمينكو هي جزء من السيميائية تعالج العلاقة بين العلامات ومستخدمها، ولم تظهر التداولية نقدياً إلا لضرورة دراسة العلاقة العلامات باستخدامها، إذ اتسمت دراسة علامات اللغة في القرن العشرين بحسب أرمينكو بالآتي^(٦٢):

١. المقاربة الدلالية: التي تعالج دراسة علاقة العلامات بالأشياء.
٢. المقاربة النحوية: تعالج علاقات العلامات فيما بينها في الجمل.
٣. المقاربة التداولية: دراسة علاقة العلامات باستخدامها.

ومن هنا كان للتداولية أثر نقدي بالغ الأهمية في دراسة مكونات القول وصيغ الكلام وعلاقته باستخدامه، ومن ثم كان لها دور بارز في ضبط كثير من المفاهيم النقدية والدلالية واللغوية ومن أهمها: (مفهوم الفعل، ومفهوم السياق، ومفهوم الجاز)^(٦٣).

❖ المحور الثالث: المسار التقني

تتخذ الأساليب التداولية المعاصرة أشكالاً عدة من صور الخطاب، وتمنح نفسها سمة التحول الشكلي الدلالي في اللغة الواحدة، تبعاً لمقتضيات المرحلة اللغوية يستخدم المفردات على صعيد التداول الداخلي أو التلقي الخارجي.

ويكتسب هذا التحول مراعاة التطور الآلي للتعامل مع اللغة أو مع فنونها، بمعنى مراعاة التطور التقني في الميدان اللغوي، وقد شغل هذا المسعى مساحة معرفية هامة أطلق عليها: (حوسبة اللغة)^(٦٤) أي التعامل مع اللغة ومفرداتها ودلالاتها إلكترونياً.

إن التوقف عند الأساليب التواصلية التقليدية في الميدان اللغوي اللساني قد يُوقع

ينظر: المقاربة التداولية: ٤٦ - ٦٠.

المقاربة التداولية: ٨.

المصدر نفسه: ٩.

للاستزادة ينظر: الهندسة الحاسوبية للسانيات، عبد الرحمن يودرع: www.lissanial.net الحرف بالعربي والحوسبة، محمد زكي محمد خضر: www.al-mtshkat.com

في عجز التفسير، والبعد عن وصف المتغيرات في أنساق الدلالة وصبورتها، لذا كانت الحاجة ملحة في التعامل مع تحديث بنية القول حسب نوعية النص البياني لها، أي حسب نوعية منظومة التدوين سواء أكانت فضاء كتابياً، أم كانت فضاء إلكترونياً.

يتخذ المسار التقني للتداولية مجموعة من البيانات والمعلومات والمعارف: فالبيانات هي سلاسل من رموز أو أرقام أو حروف، والمعلومات هي البيانات التي تم تجهيزها في إطار علاقات منتظمة في سياق، وتشكل المعرفة المعلومات التي يحصل عليها الإنسان تراكمياً. وتمارس المعرفة التكنولوجية دوراً مهماً وحيوياً في تعزيز التنمية الذهنية والتطبيق الحيوي بوساطة اللغة لكشف مجموعة من الأسرار الكونية والحياتية. لذا فقد تعددت التطبيقات التقنية وتنوعت، وقد منحت المعطيات التقنية إمكانات علمية هائلة لمتابعة المعلومات وتخزينها واسترجاعها، وقد أسهمت هذه الاستخدامات في تحقيق طفرة علمية متجانسة مع التقدم العلمي الذي نشهده الحضارة الإنسانية وأصبح اعتماد هذا المسار مهماً جداً لما يحققه من مزايا رخيصة ومناحة وصدقية للبيئة، وقدرة كبيرة على تخزين المعلومات، وتعامل منضبط ودقيق مع الذاكرة، وقدر على إنشاء مجموعة منسقة من الحلول، وتنفيذ عمليات علمية عدة في وقت واحد. ويمكننا الحديث عن المسار التقني للتداولية من خلال محورين:

الأول: المسار التقني للتداولية الحاسوبية.

الثاني: المسار التقني للتداولية الرسائل النصية^(١).

تعد التداولية الحاسوبية توجهاً علمياً معاصراً منبثقاً من علم اللغة الحاسوبي اللسانيات الحاسوبية (*Computational Linguistics*)^(٢) وهو علم يربط بين اللسانيات وعلوم الحاسوب، ومجال معرفي ينتمي إلى مجالات الذكاء الاصطناعي (*Artificial Intelligence*)^(٣) يسعى إلى محاكاة اللغة الطبيعية البشرية، إذ تستخدم الحواسيب لمعالجة اللغة الطبيعية ألياً، وإدراك الكلام البشري وإنتاجه بصورة ألياً والذكاء الاصطناعي نظرية متعلقة بكيفية محاكاة الذكاء البشري، وهو فضاء إلكتروني متعلق بمجموعة من العمليات المعرفية والرياضية التي تجري في مساحة الذاكرة الإلكترونية، ويسهم هذا الفضاء الإلكتروني بممارسة عمليات معقدة متعددة في زمة

(١) الرسائل النصية: هي التقنية المتعلقة بالرسائل المدونة في الهواتف المحمولة (الموبايل).

(٢) For more information, see: *Computational Linguistics: An Introduction by Ralph Grishman*.

(٣) للاستزادة حول هذا المصطلح ينظر: الذكاء الاصطناعي والفهم ومستقبله، ألن بونيه، ت: علي صبري.

أساسي وبجهد قليل^(٣).

ومن تطبيقات اللسانيات الحاسوبية: (الترجمة الإلكترونية، واسترجاع المعلومات، وأنظمة التفاعلية)^(٤).

وتصنف التداولية الحاسوبية بوصفها فرعاً معرفياً ينتمي إلى ميدان اللسانيات الحاسوبية يعني بشكل أساسي بدراسة الحوارات التفاعلية ومتابعة طرائق التواصل بين المتحاورين في الواقع التفني الافتراضي^(٥).

كما تعنى بتنسيق أنظمة المحادثة بين المستخدمين والحفاظ على سياق تطور الحوار وتنميته وتفاعله وانسيابيته وهذا يؤدي إلى^(٦):

• تمثل إجراءات متفاعلة تجسد التواصل وتخديه.

• تطور أدوات البرمجيات المتاحة للجمهور وبناء أنظمة جديدة.

• تحديث الكلام، وتطوير أدوات الكتابة.

• وتحقيق أهداف حيوية لتبادل المعلومات واستثمارها.

فإذا كانت التداولية تُعنى بدراسة اللغة حال استخدامها أو دراسة اللغة عند استخدامها ولذلك سميت علم استعمال اللغة، فإن التداولية الحاسوبية تُعنى بدراسة اللغة وتطورها في إطار الحوار الإلكتروني أي دراسة لغة التفاهم بين مستخدمي النص الإلكتروني.

وللنص الإلكتروني مزايا عدة تختلف عن النص التدويني من حيث كون هذا الأخير ينقل الفضاء الكرافي، وله سمة التركيب، ويستخدم تقنية النصوص، ويتصف بلائقية، ولفته مكونة من مفردات وجمل وسطور، ويفتقر إلى وسائل التأثير.

أما النص الإلكتروني فيشغل الفضاء الافتراضي، وله سمة الترابط، ويستخدم لغة النوافذ، ويتصف بالتفاعلية، ولفته مكونة من مجموعة أشكال وألوان وحركات صوتية وفيديو، ويُعنى كثيراً بوسائل التأثير.

النسب التداولية الحاسوبية إلى تناول وتقديم ما عجزت عنه الترجمة الإلكترونية لأن وهو بيان العلاقة بين اللغة والسياق، إذن مهمة التداولية الحاسوبية تكمن بدراسة العلاقات بين الظواهر اللغوية وسياقاتها من حيث تفسير قدرة المتكلمين على

١ مقدمة الذكاء الاصطناعي للكمبيوتر، عبد الحميد صبيوني: ١٩.

٢ علم اللغة الحاسوبي، صلاح التاجم: www.alnajem.com.

(3) See: *Computational Pragmatics Referring in Dialogue* by R. Fernand www.ling.uni-potsdam.de

(4) See: *Computational Pragmatics and Dialogue Systems* by R. Agazzi www.ling.gu.se.

توليد الكلام وبيانه في المحادثة بمعنى آخر دراسة أنظمة التعبير اللغوي وتحولاته في الفضاء الإلكتروني⁽¹⁾.

وقد أسهمت التداولية الحاسوبية بشكل فاعل في معطيات معرفية معاصرة عدة، وقدّمت منتجات علمية متنوعة، ومن ذلك⁽²⁾:

١. تصميم أنظمة قادرة على التفاعل مع الإنسان (المستخدم / المتداول).
٢. تحليل لغته وتنميتها بما يتلاءم مع طبيعة الواقع الافتراضي التواصلي.
٣. بيان كيفية التعامل بطريقة إلكترونية مع الظواهر اللغوية جميعها.
٤. بيان دلالة التعبيرات الفردية عن كيانهم ورؤيتهم للعالم والموجودات.

ويهدف تحقيق الانسجام بين الاستخدام اللغوي من جهة وبين التواصل التقني من جهة أخرى، من هنا فقد تعاملت التداولية الحاسوبية في مسارها مع مجموعة من المصطلحات النقدية منها:

١. وجهة النظر: مصطلح ينتهي إلى ميدان السردية.
٢. مبدأ التعاون: مصطلح ينتهي إلى ميدان التداولية.
٣. المرجع: مصطلح ينتهي إلى ميدان الألسنية.
٤. السياق: مصطلح ينتهي إلى ميدان الدلالة.
٥. العلامة: مصطلح ينتهي إلى ميدان السيميائية.

وتسعى التداولية الحاسوبية بوصفها ميداناً معرفياً معاصراً إلى تطوير الإدراك الحسي لدى مستخدمي النص الإلكتروني من خلال: (الرؤية العيانية، والسبب المباشر، والكلام المفهوم، والكتابة المختصرة، واللمس)، ودراسة أنظمة التواصل والتخاطب والتحاوور بين مستخدمي الشبكة العنكبوتية ويقود ذلك كله إلى تحقيق الآتي:

١. إدارة المعرفة المعلوماتية للغة الطبيعية وتنميتها.
٢. استحداث أفضل السبل والطرائق التقنية للحصول على حوار معرفي.
٣. تنمية رغبة المستخدمين في تبادل خبراتهم ومهاراتهم بخصوص إدارة المعرفة المعلوماتية.
٤. إدارة الموارد المعرفية واللغوية في المنتديات.
٥. تنظيم بنية تحتية لتقنية المعلومات، وحوسبة اللغة.

أما فيما يتعلق بمسار تداولية الرسائل النصية، فمن المهم بيان أن مؤلف

1. Computational Pragmatics Referring in Dialogue: www.ling.uni-potsdam.de

2. Computational Pragmatics and Dialogue Systems: www.litny.gy.se

التعامل مع بنية القول التداولي في المدونة النصية لرسائل المحمول يكتسب حيوية معرفية انطلاقاً من الأشكال الجديدة المتولدة من ذلك، ويدخل هذا التناول في موضوع كمبر حواجز الأجناس، وولادة أجناس جديدة قد تكون مناسبة لعصر التلقي، ولولادة نص ما بوصفه فناً حديثاً في عصر تلقيه يعطينا تصوراً معرفياً حول حاجة المدونة النصية إلى إيجاد أشكال جديدة للتعبير، وتقديم الدلالة بما يناسب المتلقي بما لتطور مستوى التفكير والاستقبال.

تكتسب التشكيل التداولي الذي ازدانت به الرسائل النصية سمة الاستجابة لحاجة نقدية أكدتها التداولية بشكل رئيس وهي (مقام القول) الذي استدعى (فطابيا) الإيجاز في العبارة، والدقة في الإشارة، واختيار المفردات بمهارة، والاقتصاد بالتركيب والتبرير، والاعتماد في الجدوى والتأثير.

وأستدعت الصيغ التداولية لرسائل المحمول أن نتعامل مع المستجدات المتداولة فيها أشكالاً أدبية وفنية متحولة، وقابلة للتحليل والتفسير وبيان الخصائص، من ذلك تحديد المعطى اللساني ومقوماته أولاً، وتأطير طرائق التداول وأساليبه ثانياً. ليس صيغ النص ومساراته ثالثاً، ثم دراسة المدونة بوصفها حاجة فكرية وثقافية لازمة أملتها سنة الإبداع الفني في التطور الشكلي، والتنوع الدلالي، ورفض الجمود الفني، وتلبية متغيرات المستخدم في إطار تواصله خطابي.

يهدير بالذكر أن الراصد لتحويلات البنية الفنية عبر مسيرتها المعرفية يجد أسساً لازمة لولادة نص معين وتراجع نص آخر انطلاقاً من معادلة تنامي التواصل المعرفي لحاجة إلى التمثيل عنها تداولياً، وتتعلق هذه الأسس بمسألتين اثنتين هما: (تطور شكل الكتابي، تطور حاجة المستخدم).

تتبع المسألة الأولى وبشكل مباشر إلى الفتوحات التقنية، وتنامي آليات التعبير الإلكتروني، المرتبطة ارتباطاً لزاماً بالتطور الحاسوبي وما يتعلق به، حتى غدا النص الإلكتروني مدونة لها خصائص معينة، وطرائق محددة للتعبير، وأساليب مؤطرة للتداول.

بالإضافة إلى أن مسألة تطور الشكل الكتابي خاضعة كما نرى لقضية صراع الفنون تنامي انطلاقاً من مبدأ (البقاء للأفضل)، بمعنى توجه المبدع للتعبير بوساطة أكثر من تلبية لحاجة المتلقي وتكوينه الحضاري، وهذا ما نلاحظه في تطور بنية رسائل البريد الإلكتروني (Email) ورسائل الهاتف المحمول وشكلها الكتابي الذي جاء نتيجة الحاجة للإيقاع المتسارع للتعامل مع الحياة المعاصرة.

تتبع المسألة الثانية فتتعلق بتطور المستوى المعرفي والثقافي للمستخدم الذي أصبح

توافقاً للتحديث المرتبط بالتعامل الآلي، مما استدعى تطور النص وتنوع طرائق تداوله، ولا شك أن التميز في لغة الشبكة الدولية للمعلومات (الإنترنت)، ولغة أجهزة الهاتف المحمول المتنوعة قد أثر بشكل كبير في صياغة النص الحديث، وتحديد ملامحه وخصائصه، ويمكننا الحديث عن ذلك من خلال محورين:

الأول: النص الإلكتروني.

الثاني: الرسائل القصيرة.

يرتبط النصان بمنظومة واحدة هي منظومة (التطور التقني)، ويتعلقان بمستوى واحد من التلقي المنتجة للجدة والتغيير، والساعي لاختصار المسافات والجهد واختزال الوقت في تحصيل قدر كبير من الفائدة والمتعة في الآن نفسه، ويهدفان إلى استنساخ نظرية الاقتصاد اللغوي في التحصيل المعرفي.

اتسم الحديث عن بنية القول في الفضاء الكتابي ضمن المدونة النصية بتحليل أجزائها ومكوناتها دلاليًا على صعيد الإشارات والعلامات والرموز، ونحوياً على صعيد الدال والمدلول والمسند والمستند إليه، وصوتياً على صعيد الوحدة الصوتية (الفونيم) فضلاً عن الوحدة النطقية (الألفون)، وصرفياً على صعيد الوحدة الصرفية (المورفيم)، فضلاً عن الرؤية التقليدية للنص على أنه نظام لغوي منسجم تحكم مجموعة من القواعد المتوالية في إطار بنيوي وصفي، أو توليدي تحويلي، أو تداولي وظيفي ضمن معادلة هرمية تركز على أساس معرفي هو أن: (الأصوات تشكل الكلمات، والكلمات تركب الجمل، والجمل تنشئ الكلام، والكلام يبني النص، والنص يعطي الدلالات).

أما الحديث اليوم تداولياً عن بنية القول في الفضاء المعرفي للنص الإلكتروني فيتضمن مسارات تحليلية عدة، انطلاقاً من تنوع مكونات النص الإلكتروني وتعدد بدءاً من التدوين الكتابي اللغوي مروراً بالتأثيرات اللغوية والحركية، وصولاً إلى التضمين الإشعاعي والعياني الصوري، وليس انتهاءً بخيارات لا نهائية لطرائق التلقين وتلبية رغبات الاكتساب المعرفي ذي الإحساس المتعدد البصري والسمعي واللمسي ونقسيم النظم البرمجية للنص الإلكتروني على وحدات وإيعازات تسهم في التوزيع الكمي لمساحة المعرفة المكتسبة.

وانطلاقاً من ذلك اكتسب النص الإلكتروني سماتٍ عصريةً أهّله لريادة عم التلقي، وأوكلت إليه مسؤوليات معرفية تتعلق بتوصيف اللغة إلكترونياً، وبم العلاقة بين النص المكتوب والنص المرئي، وبين المعرفة التدوينية والمعرفة الآلية، وإفضاء الكرافي الخطي والفضاء الإلكتروني، فضلاً عن تحديد العلاقة الدلائل

والمرجعية بين الروابط اللغوية النصية والروابط الشبكية الرقمية... إلخ. وإذا كان النص الكتابي يتمتع بسمة مميزة نظامية تفاعلية بين مكوناته تعرف بـ (خاصية الترابط النصي) المتعلقة بالنظام اللغوي وأنساقه البانية له، فإن النص الإلكتروني يقوم أسامياً على سلسلة متنوعة من الروابط الرقمية التي تصل بين مكوناته وأجزائه تعرف بـ (خاصية النص المترابط)^(١) المتعلقة بالقصد المفاهيمي، والتنظيم الإعلامي، والمنجز الإنتاجي.

والإطلاق من كون توالد الأجناس وابتناؤها بشكل حاجة معرفية. وإمكانات حياتية لا غنى عنها في التعبير عن الواقع، تواجه نصوص الرسائل القصيرة للهاتف المحمول مهمة تقديم المعنى بطريقة تقنية وضعت لها بصمتها الفنية والمعارية، وقد تشكلت هذه المدونة مجموعة من الخصائص التداولية منها:

الانطلاق من قاعدة الاقتصاد اللغوي، واستخدام لغة موجزة جداً.

القدرة الفنية على توصيل المعنى.

سلامة اللغة من التثقل والجمود والغرابة والغموض.

استخدام الكلمات ذات الوقع السهل المناسب لدى المتلقي.

البعد عن الخيال والتحليل والتعليل والتفسير.

البعد عن الأسلوب الحوارية ببعديه: (الداخلي مع الذات، والخارجي مع الآخرين)

البعد عن الأسلوب التقريرية والمردية.

استخدام الوصف بشكل كبير، مع غياب واضح لهنصري الزمان والمكان.

تمزج في مفرداتها بين الإمتاع والإقناع.

البعد عن العنونة.

استخدام فنون التناسب بين المفردات، والتوازي بين الجمل القصيرة.

استخدام فن التناغم من خلال انتهاء الجمل القصيرة عادة بحرف واحد.

استخدام فنون البلاغة العربية الجميلة والأنيقة في التشبيه والاستعارة والكناية

والمجاز المرسل والفصل والوصل والتقديم والتأخير والجناس و... إلخ.

إن آلية المخاطب التي اتسمت بها بنية القول في رسائل المحمول تشكل من صيغ

المهية على شكل نبضات إيقاعية، وفواصل دلالية ذات ترابط إشاري، تأخذ المتلقي

بمواجهة مشهد نصي ذي جزئيات تواصلية عدة، مما يتيح له إمكانية فهم المعنى،

كبرك النبيه المتسارع، والاستعداد لتقديم الرد المناسب لها.

(١) من النص إلى النص المترابط: مفاهيم، أشكال، تجليات، سعيد بقطين، مجلة عالم الفكر، الكويت،

العدد ٢ المجلد ٣٢ لسنة ٢٠٠٣: ٧١.

وانطلاقاً من أهمية التركيز على المعنى وإيجازه وتكثيفه وتواصله، فقد حافظت بلية القول للرسائل القصيرة على مساراتها اللغوية والدلالية وضبطتها، وحددت بي (سبعين) حرفاً للرسالة القصيرة الواحدة في اللغة العربية حصراً، وفي ذلك مدلولات عدة نبيها كالآتي:

١. الحفاظ على مسار بنية القول في الإيجاز والتكثيف.
 ٢. اختيار الأنسب والأصلح من مفردات اللغة لحمل المعنى.
 ٣. ممارسة سياسة (التدبير) في الحفاظ على الكلفة المحددة لكل رسالة.
 ٤. تنشيط مسار التلقي باستقبال الدلالات المتعددة من خلال المفردات الموجزة.
 ٥. بيان جماليات الحروف العربية وتآلقها من خلال فنون التناصب والتوازي والتناظر السجعات أحياناً والقافية لو تطلب الأمر.
 ٦. إبعاد المستخدم عن تناول أسلوب (السبب والنتيجة) الذي يأخذ عادة مساحات كتابية واسعة قد تكون غير محددة.
- يتضح مما تقدم في بيان المسار التقني لتداولية الرسائل النصية أن أقسام الفعل الكلامي التي تحدث عنها (أوسدين) وهي: (فعل القول، والفعل المتضمن في القول والفعل الناتج من القول) منحت الإجراء المعرفي لتشكل بنية هذه الرسائل، وأن معاني (غرابيس) المتمثلة ب(مبدأ الكم، ومبدأ الكيف، ومبدأ الأسلوب، ومبدأ المناسبات والمنطقة من مفهوم التعاون في سياق المقاصد التخاطبية، قد تمثلت تداولياً في إطار التحليل النقدي للأداء اللغوي لبنية الرسائل النصية.

المصادر والمراجع

أولاً: الكتب العربية والمترجمة:

- الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة، مارسيلو داسكال، ت: حميد لجمداني ومحمد العمري وعبد الرحيم صنكول ومحمد الولي ومبارك حنون، سلسلة البحث السيميائي (١)، دار أفريقيا الشرق، الدار البيضاء المغرب، ١٩٨٧م.
- الأسس الفلسفية لنقد ما بعد البنيوية، محمد سالم سعد الله، دار الحوار، اللاذقية سوريا، ط١، ٢٠٠٧م.
- البرجماتزم أو منهج الذرائع، يعقوب فام، السلمة الفلسفية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة مصر، ١٩٦٣م.
- التداولية *Pragmatics*، جورج بول، ترجمة: قصي العتاني، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت لبنان، ودار الأمان، الرباط المغرب، ط١، ٢٠١٠م.
- التداولية عند العلماء العرب: دراسة تداولية لظاهرة (الأفعال الكلامية) في التراث اللساني العربي، مسعود صحراوي، دار الطليعة، بيروت لبنان، ط١، ٢٠٠٥م.
- التداولية من أوستن إلى غوفمان، فيليب بلانشيه، ترجمة: صابر الجباشة، دار الحوار، اللاذقية سوريا، ط١، ٢٠٠٧م.
- التداولية اليوم: علم جديد للتواصل، أن روبول وجاك موشلار، ترجمة: سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني، مراجعة: لطيف زيتوني، المنظمة العربية للترجمة، بيروت لبنان، ط١، ٢٠٠٣م.
- الذكاء الاصطناعي واقعه ومستقبله، ألن بونيه، ترجمة: علي صبري فرغلي، سلسلة عالم المعرفة، (١٧٢)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٩٣م.
- علم الإشارة: السيميولوجيا، بيير جيرو، ترجمة: منذر عياشي، تقديم: مازن الوعر، دار طلاس، ١٩٩٢م.
- ما هي السيميولوجيا، برنار توماس، ترجمة: محمد نظيف، دار أفريقيا الشرق، ط٢، بيروت لبنان، ٢٠٠٠م.
- معجم السيميائيات، فيصل الأحمر، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت لبنان، ومنشورات الاختلاف، الجزائر، ط١، ٢٠١٠م.
- معجم المصطلحات الأساسية في علم العلامات (السيميوطيقا)، دانيال تشاندلر، ترجمة: شاكر عبد الحميد، مراجعة: نهاد صليحة، تصدير: فوزي فهي، سلسلة دراسات نقدية (٣)، أكاديمية الفنون، وحدة الإصدارات، القاهرة مصر، ٢٠٠٢م.
- المقاربة التداولية، فرانسواز أرمينكو، ترجمة: سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، ط١، بيروت لبنان، ١٩٨٦م.
- مقدمة الذكاء الاصطناعي للكومبيوتر ومقدمة برولوج، عبد الحميد بسيوني، دار

- النشر للجامعات المصرية، القاهرة مصر، ط ١، ١٩٩٤ م.
- نظرية اللغة الأدبية، خوسيه ماريا يوتويلو ليفانكوس، ترجمة: حامد أبو أحمد، سلسلة الدراسات النقدية (٢)، دار غريب، القاهرة مصر، ١٩٩٢ م.

❖ ثانياً: البحوث المنشورة في الدوريات:

- من النص إلى النص المترابط: مفاهيم. أشكال. تجليات، سعيد يقطين، مجلة عالم الفكر، الكويت، العدد ٢ المجلد ٢٢ لسنة ٢٠٠٣ م.

❖ ثالثاً: الكتب الأجنبية

- Ralph, G. (1994). *Computational Linguistics: An Introduction*. Cambridge University Press.
- Harry, S. (1972). *Dictionary of Literary Terms*. McGraw-Hill, USA.
- Joseph T. S. (1970). *Dictionary of World Literary Terms: Forms, Technique, Criticism*. USA: Boston Publishers.
- Michael R. (1983). *Text Production*, Tran: Terese Lyons. New York, USA: Columbia University Press.
- Tzvetan, T. (1982) *Theories of the Symbol*, Tran: Catherine Porter. New York, USA: Cornell University Press.

❖ رابعاً: البحوث المنشورة على الشبكة الدولية للمعلومات (Internet)

- الجمعية التداولية الدولية (IPRA) : www.ipra.ua.ac.be
- الحرف العربي والحوسبة، محمد زكي محمد خضر: www.al-mishkat.com
- علم اللغة الحاسوبي، صلاح التاجم: www.alnajem.com
- الهندسة الحاسوبية للسانيات، عبد الرحمن بو درع: www.lissaniat.net

Computational Pragmatics and Dialogue Systems R. Agerri:
www.ling.gu.se.

Computational Pragmatics Referring in Dialogue, R. Fernandez:
www.ling.uni-potsdam.de

التداوليّة الأدبية

دراسة نقدية

أ.م.د. أحمد عدنان حمدي*

ويُخيّ الدهمزا كنبت يداه
يمسرك في القهامة أن تراه

وما من كاتب إلا سيفي
فلا تكتب بخطك غير شيء

﴿ مدخل ﴾

إن مُصطلح التداوليّة هو أحد الترجمات التي تُترجم بها المصطلح الانجليزي (Pragmatics) إلى اللغة العربية، فقد تُرجم أيضاً إلى (البراغماتية والبراجماتية وعلم استعمال اللغة والبرغماتيقية والبرجماطيقية وعلم البراغماطيقا والفائداقية والتداولييات...إلخ)، وقد أثارنا استخدام الترجمة الأولى لشهرتها وتعبيرها عن المراد، وإن كان هناك من يعترض بأنّ هذا المصطلح لا يعبر عن كل المفاهيم التي تدخل ضمن هذا العقل، وأرى أن ذلك لا يضر شيئاً فبإمكاننا في لغتنا العربية أن نطلق الجزء لتعبيره عن الكل فتقول: قام الرجل رمضان إيماناً واحتساباً، وتريد صلي فالقيام جزء من الصلاة، كذلك في المصطلحات العلمية فعندما نذكر مصطلح (النحو) على سبيل المثال فإنه يشمل جميع المسائل المتعلقة بتركيب الجملة العربية، مع أنّ كلمة النحو لغة تدل على القصد والطريق فتقول: نحوت نحواً أي قصدت قصداً.

أما الدلالة اللغوية لهذا المصطلح (Pragmatics) في اللغة الانجليزية فمأخوذة من كلمة (Pragmatic) التي من معانيها الواقعي والعملية وكل ما له علاقة بالأعمال والوقائع الحقيقية⁽¹⁾.

أما التداوليّة الأدبية فهي ترجمة لمصطلح (Literary Pragmatics) ومفهوم هذا المصطلح ينطلق من التصور القائل بأن اللغة - حسب وجهة نظر الغربيين - لا تنقيد وإنما بقيود النحاة، بل إنّ البنية اللغوية للنص، في حالات كثيرة، لها علاقة بالآثار المترتبة على النص وبما يؤديه أو لها علاقة بكيفية إنتاج المتلقين للنص واستهلاكه⁽²⁾، والتداوليّة الأدبية (تعتني بدور المستخدم في الإنتاج الاجتماعي للنصوص

جامعة الموصل - كلية الآداب

التداوليّة من أوستن إلى غوفمان، فيليب بلانشيه، ترجمة: صابر العياشي، دار الحوار للنشر والتوزيع، سورية- اللاذقية، ط ١، ٢٠٠٧: ١٧. المورد قاموس انكليزي - عربي، منير البعلبكي، دار العلم للملايين، ط ٣٧، بيروت-لبنان، ٢٠٠٣: ٧١٤.

(2) Concise Encyclopedia of Pragmatics, Literary Pragmatics, Jacob, L. Mey, Elsevier Ltd., Oxford, UK, 2009, p. 549.

موسوعة التداوليّة المختصرة، التداوليّة الأدبية، جاكوب. جي. مي، ترجمة: د. أحمد عدنان حمدي.

واسمها (١).

أي أنّ التداولية الأدبية هي التواصل الأدبي والتعاون الفعال بين المؤلف والمتلقي ودورهما في إنتاج النصوص الأدبية واستهلاكها عبر الآثار المترتبة عليها والوظائف التي تؤديها.

إنّ ما نلاحظه في هذا التعريف وجود الأركان الثلاثة المتفق عليها في إي دراسة نقدية أدبية وفي أي ثقافة مهما كان انتماؤها القلمفي، وهي المؤلف والنص والمتلقي، إلا أنّ التركيز على أحد هذه الأركان بحذف الركنين الآخرين، أو بالاختلاف في تصور طبيعتها العلاقات القائمة بين هذه الأركان هو ما يميز دراسة أدبية عن أخرى.

وهذا يجعلنا نتساءل هل مفهوم التداولية الأدبية نشأ من فراغ معرفي؟ ألم يكن هناك خلفية معرفية كأن تكون فلسفية أو اجتماعية وتفاعلية أو لغوية أو نفسية انطلق منها قبل أن يطبق على النصوص الأدبية؟ وهذا ما نلاحظه من مفردات التعريف إذ إنّ التداولية الأدبية متعلقة (بالتواصل) (والإنتاج والاستهلاك) وهذا يرجعنا إلى مصطلحات علم الاجتماع، و(بالتعاون الفعال) وهذا يحيلنا على نظرية التفاعل، و(بالآثار المترتبة على النص والوظائف التي يؤديها) وهذا يحيلنا على علم اللغة والفلسفة أيضاً. وهذا ما سناقضه في الفقرات الآتية.

❖ الخلفية المعرفية لمفهوم التداولية الأدبية:

إنّ التداولية لم تتطور من داخل الدراسات الأدبية أو علم اللغة، بل نشأت في الحقول ذات الصلة بها، مثل الفلسفة وعلم الاجتماع ونظرية التفاعل، إلا أنّ اللغويين الغربيين أشاروا إليها عبر مصطلح اللّيس (aporias) الذي نشأ ضمن حقلها اللغوي المحدود، وكذلك فإنّ الدراسات الأدبية نفسها لم تكتشف التداولية، بل إنّ الفلاسفة ومنظري الأدب والتداوليين طوروا، في آنٍ واحد، مقاربات لدراسة النصوص ذات صلة بالمتلقين (٢).

إنّ هذا الكلام يشير بصراحة إلى أنّ التداولية الأدبية لم تنشأ من فراغ بل هناك خلفية معرفية انطلقت منها قبل أن تتجسد بصيغتها الأدبية وفي مقدمة تلك الخلفيات الدراسات الفلسفية واللغوية، أي أنّ مفهوم التداولية ظهر بداية عند الفلاسفة وعلماء الاجتماع وأصحاب نظرية التفاعل ثم انتقل إلى علماء اللغة وبعد ذلك انتقل إلى دراسة النصوص الأدبية، وهذا ما سنركز عليه في هذه الدراسة، إذ سنبحث عن الخلفية المعرفية لهذا المفهوم، ثم نستقصي المبادئ التي استند إليها والأساليب الأدبية

(١) المصدر نفسه: ٥٤٩.

(٢) الموسوعة التداولية المختصرة، التداولية الأدبية: ٥٤٩.

لتي تجسد بها على مستوى النص وخارجه.

❖ الخلفية الفلسفية (الذرائعية)

إنَّ التَّدَاوُلِيَّةَ الأدبية ترجع - كما أرى - إلى الفلسفة الذرائعية (أو النفعية) رجوعاً عاماً، وإن كان هناك من أرجعها إلى أبعد من ذلك إذ أرجعها إلى أرسطو وأفلاطون^(١)، ذلك لأنَّ هناك تشابهاً واضحاً بين شكلي المصطلحين، التَّدَاوُلِيَّةَ (Pragmatics) الذرائعية (Pragmatism) فكلا المصطلحين يرجعان إلى كلمة (Pragmatic) التي من لفظ اليوناني (Pragma) ومعناه العمل^(٢)، وهذا مع ذلك ارتباط واضح وجلي بين كل المصطلحين. أما على مستوى المعنى اللغوي فإنَّ أصل الكلمتين يدل على العمل الأمر العملي والواقعي وذي الفائدة، ولهذا فإنَّ الفائدة هي إحدى ترجمات مصطلح (Pragmatics) والبحث عن الفائدة والنفع والنجاح والعمل هو أساس الفلسفة الذرائعية.

فالذرائعية هي نظرية فلسفية عامة للعقلانية المادية مُتصلة بمصالح الفرد، تهزل الحقيقة بالمنفعة، وكل نظرية - كما ترى - هي أداة للعمل ولا قيمة لها إلا إذا كان لها مردودٌ عملي، فالفكر ليس سوى وسيلة للنجاح في الحياة، أي أنها تتخذ من النتائج العملية الناجحة مقياساً لتحديد قيمة الأفكار والقضايا وصحتها وصدقها^(٣)، وليس ما يقفها للواقع كما في الفلسفات المادية التجريبية. ووضوح الأفكار عن موضوع - ما - عملي بالآثار والنتائج ذات الطابع العملي الذي يمكن أن يتضمنها سواء كانت مباشرة غير مباشرة. فإذا كان لقضية ما أثر في السلوك العملي للفرد فهي قضية صادقة صحيحة، أما إذا لم يوجد له أي أثر فهي قضية لا معنى لها بل لا وجود لها، إذ إنَّ قيمة الفكرة فيما ينتج عنها من آثار.

والتَّدَاوُلِيَّة كذلك كما ذكرنا في تعريفها تهتم فيما تهتم به بالآثار المترتبة على الميوس والوظائف التي تؤديها، وهي تبحث عن ما تسميه بأفعال الكلام (Speech Act) وعن شروط نجاح الخطاب أو الكلام وفشله، ولاسيما المحادثة، وتهتم (تفاعلية) (Interaction) وغيرها من المصطلحات.

وأخيراً يمكن القول بأنَّ الذرائعية هي فلسفة أمريكية بدأها الفيلسوف الأمريكي سارلز سانتر بيرس (١٨٣٩-١٩١٤) وذاع صيتها على يد الفيلسوف الأمريكي وليم جيمس (١٨٤٣ - ١٩١٠م)، أما التَّدَاوُلِيَّة فقد انطلقت من أفكار الفيلسوف الإنجليزي

^(١) التَّدَاوُلِيَّة من أوسن إلى غوفمان: ٢٠-٢٥.

^(٢) المعجم الفلسفي، جميل صليبا، دار الكتاب اللبناني، بيروت-لبنان، ١٩٨٢، الجزء ١: ٢٠٣.

^(٣) المعجم الفلسفي: ٢٨، ٢٠٣، ٥٨٧، المورد: ٧١٤.

جون أوستن (١٩١١-١٩٦٠) وتلميذه الأمريكي جون روجرز سيرل (١٩٣٢-) أي أن هناك تقارباً لغوياً وجغرافياً بينهما وكلاهما ولدا في كنف الفلاسفة.

❖ الخلفية الاجتماعية ونظرية التفاعل:

إن تركيز التداولية وكذلك التداولية الأدبية على التواصل إنما يرجع بذلك إلى نوع من أنواع التواصل الاجتماعي لكنه ليس مجرد تواصل اعتيادي بين شخصين أو أكثر إنما هو تفاعل نشيط بين شركاء نشيطين جادين متفاعلين، أي في حالة النص الأدبي يحدث التفاعل بين المؤلف والمتلقي اللذين تحيط بهما ظروف اجتماعية لا يمكنها الانفصال عنها، بل إن العلاقة بينهما هي علاقة جدلية، مما يعني أن أياً من المؤلف أو القارئ لا يستطيعان أن يدعيا امتلاكهما النص امتلاكاً كلياً أو أن لهما سلطة مطلقة عليه، بل إن أحدهما يؤثر في الآخر^(١)، ويتأثر به، فالمؤلف يتأثر بالمتلقي عندما يريد أن يكتب نصه الأدبي إذ يفترض في ذهنه متلقياً يرغب بمخاطبته والتفاعل معه والتأثر فيه، والمتلقي بدوره يتأثر بالمؤلف من خلال ما يكتبه ويتفاعل معه عبر قراءة نصه الأدبي ومحاولة فهمه وإعادة إبداعه من جديد بقراءة تحليلية أدبية جميلة وورصينة. وهذه العلاقة هي إحدى علاقات ما سماه جاكوب، جي. مي بالإبداع المشترك (Co-creation) (فالنص لم يعد عملاً خاصاً بمؤلف فردي بل إنه يستلزم دائماً التعاون النشط والفاعل من الجمهور والقراء)^(٢).

❖ الخلفية اللغوية: علم الدلالة (السيمانية) والتداولية:

نعد التداولية تياراً لسانياً من التيارات اللسانية الجديدة التي ظهرت بعد التيار البنوي والتوليدي، بعد أن كانت مباحث التداولية مندمجة ضمن مباحث علم الدلالة إلا أن معظم اللغويين فيما بعد ميزوا بينهما، ومن أهم المسائل التي تميز بينهما أن علم الدلالة يتناول دراسة جوانب المعنى التقليدي القائم على اشتراط الحقيقة والمستقل عن السياق الشامل، إذ إن العلاقة وثيقة بين الدال والمدلول. في حين إن تركيز التداولية على ذلك بل تتناول جوانب المعنى التي تفهم وفقاً لمناسبات الاستعمال الخاصة، ويجب أن يؤخذ السياق في الحسبان وبمفهومه الواسع الذي يتضمن السياق الذي نطق فيه الكلام أي سياق الخطاب (Discourse Context) والمشارك في الحدث الكلامي والعلاقات المتبادلة بينهم، وأهدافهم، والمكان الطبيعي والاجتماع لذلك الحدث. أي أن علم الدلالة يهتم بوصف المعاني، في حين تتناول التداولية استعمال تلك المعاني، ويعبر عن هذا أحياناً بأن علم الدلالة يتبع النهج الشكلي

(١) الموسوعة التداولية المختصرة، التداولية الأدبية: ٥٥٠. تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص)

د. محمد مفتاح، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت-لبنان، ط ١، ١٩٨٥: ١٣٧-١٣٨.

(٢) الموسوعة التداولية المختصرة، التداولية الأدبية: ٥٥٠.

بين تتبع التداولية النهج الوظيفي^(١).
 أما أهم المسائل التي نعتني التداولية بها وتحظى بتوافق مناسب بين اللغويين فهي
 الآتي :

مظاهر التأدب (Politeness)،

المرجعية (Reference)،

اللمينات (Deixis)،

الامتلازم (Implicatures)،

الأفعال الكلامية (Speech Acts)

أي ما يخص الخبر والإنشاء ومطابقة الكلام لمقتضى الحال، فهي تدرس علاقة
 نشاط اللغوي بمستعمله، وطرائق استخدام العلامات اللغوية بنجاح وكهفياته،
 التناقضات والطبقات المفامية المختلفة التي يُنجز ضمنها الخطاب، والبحث عن
 عوامل التي تجعل من الخطاب رسالة تواصلية واضحة وناجحة، والبحث في أسباب
 فشل في التواصل باللغات الطبيعية... الخ^(٢).

◆ مبادئ التداولية الأدبية وأساليبها

أدبي التداولية الأدبية

إن التواصل غير العادي أو التفاعل التسيط والفعال في حالة النص الأدبي بين
 المؤلف ومجموعة من القراء المحتملين هو نتيجة لوجود رسالة شخصية
 للمؤلف إليهم، ومن أجل أن يكون ذلك التواصل ناجحاً ينبغي أن يتبع قواعد أو
 أدنى معينة أهمها: مبدأ التعاون ومبدأ الامتلازم ومبدأ العدول.
 إن هذه المبادئ هي التي أكدها في دراسته للمعادثة الفيلسوف البريطاني إتش. بول
 إيس، إذ افترض في دراسته مبدأ التعاون (Co-operation) الذي يشترط بأن يكون
 بين كل شخص في معادثة ما متناسباً مع غرضها فضلاً عن تناسبه مع أهداف

(1) *A Glossary of Semantics and Pragmatics*, Alan Cruse, published with the support of the Edinburgh University Scholarly Publishing Initiatives Fund, 2006, p. 136.

بحث علم الدلالة والتداولية، آلان كروز، جامعة أدنبرة، صندوق مبادرات النشر العلمي، ٢٠٠٦، ترجمة: أحمد عدنان حمدي.

(2) *Text and Context Explorations in the Semantics and Pragmatics of Discourse*, Teun A. van Dijk, Lungman, London and New York, 1977, p.p. 189-191.

بحث والسياق استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، فان دايك، ترجمة: عبد القادر قنهي، دار البقيا الشرق، المغرب، ٢٠١٠: ٢٥٥-٢٥٧. التداولية عند العلماء العرب، د. مسعود صحراوي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت-لبنان، ١٤، ٢٠٠٥: ٥.

المشاركين ودوافعهم وذلك من أجل أن يوضح مدى انتظام المحادثات الإنسانية ونتائجها الناجحة غالباً. واقترح أربعة مبادئ تحادثية أحر لتتنظيم طريقتنا التعاونية في التعامل مع المعلومات التحادثية وهي: جعلها كافية (مبدأ الكمية)، صادقة (النوعية)، ذات صلة (العلاقة)، ومنظمة (الأسلوب). وينبغي تفسير أي عدول عن هذه المبادئ على أنه ينطوي على معنى إضافي، إذ إن خرق أحد المبادئ إنما يتم لنقل رسالة ما على الرغم من عدم ذكرها بوضوح إلا أنها مفهومة^(١) وهذا هو مبدأ العدول على مستوى النص الأدبي.

أما مفهوم الاستلزام (*implicature*) فيتعلق بتوضيح كيفية قيام المؤلفين والقراء بالمشاركة معاً في إبداع (*Co-creating*) العمل الأدبي. وقد لوحظ كثيراً أن جوف الفن، البصري منه أو الأدبي، يكمن في طريقة حذف الأشياء، بدلا من قولها أو تمثيلها بوضوح^(٢).

ويشير مثال جريس الشهير إلى تزكية لطالب كتبها مدرس جامعي إلى مدرس آخر تتضمن بياناً لمدى حضور الطالب في الصف وتهجنته الانجليزية الصحيحة، وهي مسائل لا صلة لها بالتزكية، أي أنها تشير ضمناً إلى لزوم وجود سبب لإحجام المدرس عن التعاون، وهو أن الطالب لا يستحق تزكية حقيقية، ويفهم هذا المعنى من خلال السياق بمعناه الشامل لسياق الجمل والمكان والزمان اللذين قبلت فهما وأهداه المؤلف والقارئ ومقاصدهما، أي أنه لا يفهم من خلال الدلالة الصريحة للجمل فقط^(٣).

ويشير جاكوب إلى مثال آخر متعلق بقصة هابيل وقابيل، فعندما يسأل الله عز وجل قابيل: أين أخوك هابيل؟ يدرك قابيل - لأن الله سبحانه وتعالى علام للغيوب يعلم أين هابيل ومن الذي قتله - أن هذا السؤال ينطوي على سؤال آخر مفاده: (لماذا فعلت ما بأخيك يا قابيل؟) ومع ذلك يرفض قابيل التعاون في هذه المحادثة ويحاول أن ينكح الاستلزام (*Implicature*) المصاحب لهذا السؤال بأنه كان ينبغي عليه أن يكون (حامٍ لأخيه). إلا أن جملة اللاحقة، بعد أن أجاب على سؤال الله عز وجل بكلام تعاقب زائف (لا أعرف) تدل بالفعل على أنه قد فهم الرسالة الضمنية، إذ يقول متسائلاً (وهل أنا قَتَمٌ على أخي؟)^(٤).

إن تطبيق هذه المبادئ على النص الأدبي يمكن أن يكشف عما هو مكنون

(١) المقاربة التداولية، فرانسواز أرمينكو، ترجمة: د. سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، ١٩٨٦.

التداولية من أوستن إلى غوفمان: ١٦٥.

(٢) الموسوعة التداولية المختصرة، التداولية الأدبية: ٥٥.

(٣) المقاربة التداولية: ٥٣.

(٤) الموسوعة التداولية المختصرة، التداولية الأدبية: ٥٥.

معاني في داخله، كما في مبدأ التعاون والعدول عنه، والمعاني المكتشفة عن طريق الاستلزام، (إلا أن المبادئ الأخرى كمبدأ الكمية، ومبدأ النوعية أو الصدق، ومبدأ العلاقة أو الترابط، تبقى غامضة وخاصة باللغة العادية وربما لا تنطبق على النص الأدبي ولاسيما الشعري، بل إن طبيعة الشعر مناقضة لها، فمبدأ الكمية (يخرقه الشعر الذي هو عبارة عن تراكم صوتي وتركيبى ومعنوي مع احتياجه إلى حساب تأويلي مستخلص ما يوحي به، ومبدأ الصدق كذلك فالشاعر قد يتساءل ولا يريد جواباً، بل يريد الاستجابة في الوقت نفسه، ولا يتبقى من هذا المبدأ إذا أحسن الظن، لا صدق إحساس الشاعر، بل إنه لا ينطبق على كثير من استعمالات اللغة المضللة للأمر والناقلة للأخبار الخاطئة. ومبدأ الترابط يخرقه الشعر بواسطة التمثيل الاستعارة المؤديين إلى تعدد التشاكلات، وإن كان هذا الخرق ظاهرياً فقط)^(١).

♦ أساليب التداولية الأدبية:

إن لهذا التفاعل بين المؤلف والقارئ والتعاون بينهما واشترائهما في إبداع النص أدبي أساليب موجودة في النص تنظم هذه العلاقة بينهما، أهمها ما يأتي:

نطق الصوت (Voice) أو النطقية (Vocalization):

وهو أسلوب فعال لإبداع فضاء سردي واستمراره بمشاركة واعية ومساندة لا غنى لها من مجموعة من القراء، ولتحقيق جدلية الإبداع المشترك بين المؤلف والقارئ. وفي سياق التداولية الأدبية إعطاء صوت للشخصية القصصية في القصة يعمل به نظرها بحيث يجعلها تتكلم وترى عبرها الشخصيات الأخرى بل حتى العالم المحيط بها، فهو يركز على وضع الشخصيات في العالم الأدبي وعلى العلاقة العناصر المقدمة والرؤية التي من خلالها صورت تلك العناصر، وهو كما وصف في النص الأدبي إلى الحياة، ولا يعتمد على الأدوات اللغوية الإرشادية التعينية في النص مثل الضمائر وأسماء الإشارة وأدوات التعريف، بل يعتمد أيضاً على التعاون والاستلزام بما في ذلك العدول، فعندما لا تستوفي الظروف المناسبة لاجل استخدام هذه المبادئ، فربما نواجه ظاهرة الاشتباك الصوتي أي أن تنطق بالكلام خارج النظام والترتيب، إما بإجراء من المؤلف أو بإهماله^(٢).

الصوت في النص الأدبي القصصي مثلاً الذي لا يتفق مع ما نعرفه، بوصفنا عن الشخصية المتكلمة سيبدو متناقراً، وغير مناسب لها؛ لأننا لن نشعر بأنه لها، إذ ربما يكون هو صوت الراوي ويُحاوَل أن يخفيه بهذه الطريقة أو هو الراوي بوصفه شخصية في الرواية، أو حتى أنه المؤلف ذاته. ويشار غالباً إلى الأصوات

١. بل الخطاب الشعري: ١٤٢.

٢. مجموعة التداولية المختصرة، التداولية الأدبية: ٥٥٠، ٥٥٣، ٥٥٤.

الأخرى المتعارضة على أنها رخص أو ضرورات شعرية (*Poetic License*). كأن ينسج المؤلف للحيوانات تعبيرات (*Vocalizations*) لا تتوافق مع حالتهم الحيوانية. كما في رواية أنا كارينينا لتولستوي إذ نجد فيها أفكاراً تفال على لسان كلبة صيد الطير لاسكا، التي كانت غاضبة من ليفين وشفيقه لأنهما يستمران بالمحادثة في حين أن الطيور تطير من قبيلهم، واحدا بعد الآخر، من دون أن يكلف هذان الصيادان نفسيهما عناء التصويب نحوهم بيندقيتهما، إذ تقول: (أنظروا كم عندكما من الوقت لإجراء معادلة بينهما في حين أن الطيور نجيء وتذهب... وفي الحقيقة، هما يعبران بغير إتقان). أو عندما يسمح المؤلف بقصدية للشخصيات باستخدام وسائل تعبير تتناسب مع الخطاب المناسب للأحداث أو الشخصيات، وذلك من أجل الحصول على تأثير كوميدى هزلي، كأن يدخل المؤلف بشكل هادف اللهجة العامية المعاصرة لغة المسرحية الشكسبيرية القديمة، ففي هذه الحالة سحدث المؤلف ارتباكاً لدى القارئ وعدولاً عن النظام المتعارف عليه^(١)، فهي أصوات تتعارض مع خلفية تلك الشخصيات وتاريخها، وقد يحدث هذا العدول في النص الشعري كذلك في التداخل بين الأجناس الأدبية أو في ظل المفارقات الحادة التي تنجم عن مرارة الاشتباك بين صورتين متناقضتين ما بين الماضي والحاضر يجمع بينهما مشهد شعري أو بقصد جر القارئ إلى أقصى درجات التأثير بالحدث من خلال المقارنة التي يطرحها في مطولة (الحب ٢٠٠٣) للشاعرة العراقية بشرى اليستاني إذ تحكي عن تواصلها بالملكة العراقية (انخدوانا) في لحظة ما بعد احتلال وطنها عام ٢٠٠٣^(٢):

في الصباح استلمت رسالة عن طريق الانترنت من جلالة الملكة (انخدوانا)
الملك العراقي (سرجون الاكدي) تقول:

إنها تعب من الحرب
وأن الزرايزر لم تعد تغني في عرشها من زمن
وأن الجنة ضاقت بورود قادمة من العراق..
(وحمورابي) يقف باذخاً فوق أسوار وقصور بابل
مؤشراً بالخط الأحمر، بقلمه العراقي
تحت الحقوق الإنسانية التي دبحتها شرائعها،
والتي اتهمتها شرائع نيويورك بعصي رعاة البقر
تلك التي تحولت إلى حمم بركانية تقذفها بارجات الحضارة
على ورود نيسان العراق.

فهذا الحدث الذي يشكل توليفة مفارقة بين الحاضر والماضي من خلال تلك

(١) الموسوعة التداولية المختصرة، التداولية الأدبية: ٥٥٤.

توفت المعاصر جدا مع أحداث ما قبل الميلاد إنما هو تعبير عن غرابة ما يحدث من تلك وعدول عن الحقيقة كلها، فالرسالة التي وصلت إلى الشاعرة عن طريق نريت وليسيتها بفسدية إلى الملكة (انخدوانا) لا تنسجم مع الخطاب المناسب لهذه الشخصية، فهي تحدث ارتباكاً مقصوداً لدى القارئ وليساً وعدولاً عن النظام ما زار عليه لأنه صوت أو حدث يتعارض مع خلقية تلك الشخصية وتاريخها، وذلك على المتلقي يشعر بالمخربة المرة والأليمة، فهي رسالة احتجاج وتهكم من شرائع يورك ورعاة البقر ودعاة الحضارة، الذي استكتوا أغاني طيور الزرازير بأصوات تاريخهم غير الحضارية وغير الذكية، وأزهقوا أرواح ورود العراق حتى ضاقت نية بأعدانهم إشارة إلى كثرهم، سافتها الشاعرة على لسان تلك الملكة، وهناك نية أخرى في التقابل بين رسالة ملكة متحضرة وصاحبة شريعة حضارية حقيقية وشيئة من آلاف السنين على مسلة حمورابي شاهدة على ذلك، وبين رعاة البقر حياتهم العدوانية. للدلالة على أن أصل الحضارة الراقية والحقيقية في العراق هو أصل الفوضى والاعنداء على الانسان في نيويورك وشرائعها التي تكهمل اللبن وظلم واستلابات.

أصوات النص تُعتمد في تعدد الخطاب، وفي نمط اللهجات المتنوعة، وتمثل تلك المتعددة هذه (Multi-vocality) العلاقات الجدلية بين القوى الاجتماعية اللغوية المختلفة. فإذا كان صحيحاً أن النصوص تأتي فقط إلى حيز الوجود على أنها من إنسانية من خلال المشاركة الفعلية للمستخدم كما سبق أن بين هذه الفكرة في إيفاردن في عام ١٩٣١، فإن الرؤية التداولية للنص، ولاسيما النص الأدبي، يمكنه مشاركة المستخدم في هذه العملية بصورة رئيسة. وعلى العكس من ذلك، لا يستخدم لا يعدّ مشاركاً إلا بقدر ما كان قادراً على فهم النص الذي قدمه المؤلف لإعادة إنشائه. ويخضع هذا للظروف الاجتماعية نفسها التي تحيط به، ونتيجة لذلك فإن الحوار النصي يفترض سياقاً اجتماعياً أوسع من ذلك يفره النص الأدبي الفعلي^(١).

تداخل النصوص

الأفكار السابقة تذكرنا بأفكار ميهاتيل باختين في حديثه عن إعطاء النص لشخصياته الروائية كياناتها الخاصة ورؤاها الفكرية ولهجاتها المتنوعة، لأن العلاقات الجدلية بين القوى الاجتماعية الثقافية المختلفة والتي تتناص مع تلكهاير سابقة عليها^(٢).

١- لغة التداولية المختصرة، التداولية الأدبية: ٥٥٤.

٢- المؤلفين الإبداعي عند دوستوفسكي، م. ب. باختين، ترجمة د. جميل نصيف الكرنتي، مراجعة د.

كما أنّ أغلب ظواهر تداخل النصوص تلتقي مع المعاني التي تكلمنا عنها والمتعلق بالاستلزام والاستدلالات على المعاني الضمنية^(١) في النص الأدبي، وهذا يقودنا للحديث عن الأسلوب الثاني من أساليب التداولية ألا وهو تداخل النصوص. وهذا المفهوم يمكن عدّه من الأساليب التي تجعل المؤلف والقارئ يتشاركان إبداع النصوص الأدبية، فالنص هو نوع من العلاقة بين نص أدبي لاحق ينتمي لمؤلفه، ونصوص سابقة أو معاصرة له، سواء أكانت هذه العلاقة ظاهرة أم خفية خارجية أم داخلية. جزئية أم كلية، معتمدة على مبدأ النفي أو التضافر أو الحيث يقوم القارئ باكتشافها. فهو كما تعرفه جوليا كريستيفا (ترحال للنصوص وتداخل نصي، ففي فضاء نص معين تتقاطع وتتناقى ملفوظات عديدة مقنطعة من نصوص أخرى)^(٢). فإذا كانت الكلمات في النص كما يذهب مايكل ريفاتير تشير إلى أشياء مختلفة (تصورات ذهنية) على مستوى المحاكاة، فإن هذه الأشياء تشير إلى نصوص أخرى على مستوى السيميائية^(٣).

وبذلك فإننا إذا طبقنا تعريف التداولية بوصفها دراسة لاستعمال اللغة للتواصل الإنساني حسب ما تحدده ظروف المجتمع على حالة التواصل الأدبي، ذلك يجعلنا نقول إنّ التداولية الأدبية تعني بدور المستخدم في الإنتاج الاجتماعي للنصوص واستهلاكها^(٤)، ومن وسائل المساعدة لهذا الإنتاج هو تداخل النصوص التي يعطي فرصة للقارئ الجاد أو الكفء لاستحضار نصوص سابقة، سواء بظن مشابهة للاستلزام أو للاستدلال على المعاني الضمنية، تؤثر في إعادته لإنتاج أو فهم النص الأدبي حسب فهمه وقدرته على الاكتشاف والتأويل والخلفية المعرفية يمتلكها.

◆ نقد التداولية الأدبية

ومن أجل تشجيع ثقافة النقد وحصر ثقافة الانبهار بكل ما يقوله النقد ولكي لا نتمسق هويتنا الثقافية. لا بد لنا من الوقوف أمام هذه الأفكار ووقفه تأمل.

حياة شرارة، دار الشؤون الثقافية العامة، وزارة الثقافة والإعلام، العراق-بغداد، ط١، ١٩٨٦.

المبدأ العواري دراسة في فكر ميخائيل باختين، تزفيتان تودوروف، ترجمة: فخري صالح، دار الإ

الثقافية العامة، العراق-بغداد، ط١، ١٩٩٢، ٨٠-٨٦، ٨٤-٩٤.

(١) التداولية من أوسنن إل غولمان: ١٩٤-١٩٥.

(٢) علم النص، جوليا كريستيفا، ترجمة: فريد الزاهي، مراجعة: عبد الجليل ناظم، دار نوبتال للشؤون الدار البيضاء، ١٩٩١م: ٦١.

(٣) مشكلة الناص في النقد الأدبي المعاصر، محمد أدهوان، مجلة الأهلان، بغداد-العراق، العدد ٤٦: ١٩٩٥.

(٤) الموسوعة التداولية المنخفضة، التداولية الأدبية: ٥٤٩.

بل تلك الأفكار المعتمد عليها في التداولية الأدبية هي أن النص الأدبي أصبح منتجاً أو
 شيئاً ثقافياً، وهذه الفكرة تجعلنا نتصور أنّ النص الأدبي أصبح يشبه السلع المادية
 نتجة التي تمر بمراحل صناعية قبل إنتاجها، كأن تخضع للسيطرة النوعية والتعبئة
 تغليف والدعاية لها والمزاكات أو العلامات المسجلة... إلخ، وإن كان هذا الكلام في
 باب من جوانبه صحيحاً، إلا أنّ النص الأدبي تبقى له رسالة معينة يريد المؤلف أن
 يلها إلى متلقين بعينهم، فلا يمكن أن يتحول إلى سلعة بشكل كامل، ويشير جاكوب
 إلى هذه المسألة عندما يقول: إنّ القارئ لا يجلب كتاباً من المكتبة لكي يعيده
 إلى محاسب بل لا بد من أن يكون متأثراً بأفكار المؤلف الذي يقرأ له، نافذاً إلى
 قلبه، وهو يغيره أو يدعوه للدخول إلى خصوصية جانب من جوانب شخصيته.
 المؤلف من جانبه، لا يؤلف لمجرد كسب عيشه، منتجاً كما هائلاً من
 بل المطبوع وإن كان هناك من يفعل ذلك، بل لديه رسالة للقارئ بوصفه إنساناً
 أن يوصلها إليه، وهذا ما يفسر لماذا تُمترى الكتب وتباع، ليس لأنها لا غنى عنها من
 وجودنا المادي، بل لأنها تمثل رسالة شخصية من المؤلف إلى مجموعة من
 المحتملين^(١).

الفكرة الثانية المعتمدة في التداولية الأدبية فهي أنّ أيّاً من المؤلف أو القارئ لا
 أيعان أن يدعيا امتلاكهما النص الأدبي امتلاكاً كلياً أو أنّ لهما سلطة مطلقة
 وهذا انطلاق النقد في هذه الفكرة من تصور أنّ النص هو منتج، فإذا كان النص
 منتجاً فالمنتج لا يمكن لأحد أن يتصرف به إلا حسب لائحة التعليمات الخاصة
 من تركيبه وانتهاء باستخدامه، فجهاز الحاسوب مثلاً لا يمكن لشخص أن
 يهدمه من دون التقيد بالتعليمات المتعلقة بكيفية استخدامه والحفاظ
 إلخ، وهو ينتمي إلى مصنع معين أو شركة خاصة وله علامة مسجلة ولا يجوز
 أن يقلده أو أن يستخدم هذه العلامة، فإذا كان هذا كذلك فكيف نسمح
 بأن نقول إنّ النص الأدبي لم يعد ملكاً لأحد لا للمؤلف ولا للمتلقي بل هو
 نتاج، فلا سلطة للمؤلف على النص ولا للقارئ، بل أين سلطة النص نفسها؟
 ما أذهب إليه هو أنّ المؤلف له السلطة الكاملة على نصه فهو الذي يصوغ
 أدبي وينظمه بطريقة مخصوصة، وهو الذي أبدع تلك الصورة وأوجد ذلك
 خلف ذلك الترات وأوجد تلك الشخصية في الرواية أو المسرح وصاغ ذلك
 تصور ذلك المكان ووصفه... إلخ، وهو الذي يأخذ هذا المعنى ويقتبس معنى آخر
 مع نصوص آخر، وهو إنما يفعل كل ذلك بوعي تام وقصدية، وهو الذي
 معنى الجملة هنا ويوضحه لهنّ أي تأويل مضاد ومتوقع للقارئ، ويختمه في

١- التداولية المختصرة، التداولية الأدبية: ٥٥٦.

جملة أخرى ليمنح القارئ جزءاً من سلطته ليستمتع بمتعة التأويل والبحث الدلالة وليفعل أليته الذهنية التأويلية، وكلاهما مقيد كذلك بسلطة النص وفول اللغة التي يكتب بها أو التي يحلل بها النص الأدبي. وفي ذلك يقول الناقد الكبير القرطاجي (إن المعاني، وإن كانت أكثر مقاصد الكلام ومواطن القول تفتضي الإغماض والتصریح عن مفهوماتها، فقد يقصد في كثير من المواضع إغماضها وإغلاقها عن الكلام دونها. وكذلك أيضاً قد نقصد تأدية المعنى في عبارتين: إحداهما واضحة البر عليه. والأخرى غير واضحة الدلالة لضروب من المقاصد)^(١). ويقول أيضاً (إن الم منها ما يقصد أن تكون في غاية من البيان على ما تقدم. ومنها ما يقصد أن تكون غاية من الإغماض، ومنها ما يقصد أن يقع فيه بعض غموض، ومنها ما يقصد بيان من جهة وأن يفهم من جهة)^(٢) فللأديب مقاصده ورسائل يريد أن يرسلها متلقيه وقرائه، أي أنه لم يفعل ذلك إلا لمقصد معين أو مقاصد متنوعة واعية أو تكون غير واعية في بعض الأحيان.

الفكرة الثالثة متعلقة بمفهوم السياق إذ أن السياق قد تحول من سياق لغوي متعلق بالجملة ثم العبارة والنص، ولاشئ خارج السياق النصي، إلى ما أوسع من هذا يشمل الموضوع الذي نطق فيه الكلام أي سياق الخطاب (*course*) و *Context*) والمشاركون في الحدث الكلامي والعلاقات المتبادلة بينهم، وأهمل ومقاصدهم، والمكان الطبيعي والاجتماعي للحدث الكلامي والزمان الذي نطق والظروف الاجتماعية والثقافية المحيطة بالمستخدمين أو المشاركين أي المؤلف والقارئ، فهو سياق لغوي واجتماعي وثقافي شامل. وذلك سيتطلب بحثاً عميقاً بتاريخ حياة المؤلف، بل لا بد من استقصاء تاريخ حياة القارئ أيضاً لفهم من المؤلف وما يفهمه القارئ ويعيد إنتاجه بوصف الإبداع هو إبداع مشترك. وبذلك مرة أخرى إلى إشكالية الاهتمام بداخل النص أو خارجه، وتقديم قراءة قد تبطل النص الأدبي نفسه، توظف فيها المعرفة اللغوية والأدبية والاجتماعية والفلم والدينية بل حتى السياسية عندما نتكلم عن سلطة المركز ولا بد من تفتيتها والإحاطة بالهوامش والأقليات المضطهدة.

(١) منهاج البلاغ وسراج الأدباء، لأبي الحسن حازم القرطاجي (٦٠٨هـ=١٢١١م-٦٨٤هـ=١٢٨٥م)، وتحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، تونس، ١٩٦٦م: ٧٢.

(٢) المصدر نفسه: ١٧٧.

المراجع

الكتب العربية والانجليزية

- تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص). د. محمد مفتاح، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت-لبنان، ط١، ١٩٨٥.
- التداولية عند العلماء العرب، د. مسعود صحرأوي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت-لبنان، ط١، ٢٠٠٥.
- التداولية من أوستن إلى غوفمان، فيليب بلانشيه. ترجمة: صابر الحباشة، دار الحوار للنشر والتوزيع، سورية-اللاذقية، ط١، ٢٠٠٧.
- علم النص، جوليا كرسيفا، ترجمة: فريد الزاهي، مراجعة: عبد الجليل تاظم، دار توفيق للنشر، الدار البيضاء، ط١، ١٩٩١.
- قضايا الفن الإبداعي عند دوستوفسكي، م. ب. باخنين. ترجمة د. جميل نصيف التكريتي، مراجعة د. حياة شرارة، دار الشؤون الثقافية العامة، وزارة الثقافة والإعلام، العراق-بغداد، ط١، ١٩٨٦.
- المبدأ الحوارية دراسة في فكر ميخائيل باختين، تزفيتان تودوروف، ترجمة: فخري صالح، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق-بغداد، ط١، ١٩٩٢.
- المعجم الفلسفي، جميل صليبا، دار الكتاب اللبناني، بيروت-لبنان، (د-ط)، ١٩٨٢.
- المقاربة التداولية، فرانسواز أرمينكو، ترجمة: د. سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، (د-ط)، ١٩٨٦.
- منهاج البلغاء وسراج الأدباء، لأبي الحسن حازم القرطاجني (٦٠٨هـ=١٢١١م-٦٨٤هـ=١٢٨٥م)، تقديم وتحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، تونس، (د-ط)، ١٩٦٦.
- المورد، قاموس إنكليزي-عربي، منير اليعلبي، دار العلم للملايين، بيروت-لبنان، ط٣، ٢٠٠٣.
- النص والسباق استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، فان دايك، ترجمة: عبد القادر فنيهي، أفريقيا الشرق، المغرب، (د-ط)، ٢٠٠٠.
- Alan Cruse (2006). *A Glossary of Semantics and Pragmatics*. Edinburgh: Edinburgh University Press.
 - Jacob. L. Mey (2009). *Concise Encyclopedia of Pragmatics* (second edition). Oxford, UK: Elsevier Ltd.
 - Teun A. van Dijk (1977). *Text and Context: Explorations in the Semantics and Pragmatics of Discourse*. London and New York: Longman.

❖ الدوريات

- مشكلة الفناص في النقد الأدبي المعاصر، محمد أديوان، مجلة الأقطام، بغداد، العراق، العدد ٤-٥-٦، ١٩٩٥.

❖ المواقع الإلكترونية

bbustani.wordpress.com

الفصل الثاني

التداولية .. مفاهيم .. وأفاق

د. جودة ميروان محمد	ثلاثية القارئ والنسب والسياق، مقاربة للشواذ النحوية تداولياً
د. هشام إبراهيم عبد الله الخطيب	الاستدلال على المفرد بالصيغة من الفعل الكلامي في الجاهل
د. هائلة دلال	العجاج ونظريات التواضع
د. هيثم محمد مصطفى	بين نظرية السياقات ونظرية الاستفهام الحوارية، مقاربة تداولية
د. سوسن صالح مربية	مشكلة اللغة والمتعلق في تعلم اللغة والتجربة
د. محمود خليف الحياتي	قصيدة النثر مقولة تداولية في مشروع الجماعات المقسرة

ثلاثية القارئ والنص والسياق مقاربة لشواذ النحوية تداولياً

د. جودة مبروك محمد*

❖ مدخل

اللغة ظاهرة إنسانية، يتحقق وجودها بالفعل الكلامي، وهو العنصر الملموس في عملية التواصل بين أفراد الجماعة اللغوية الواحدة. ومن الظواهر اللغوية ما هو نادر وما هو نادر الوجود، ويبدو أن الأخير في حال من الصراع من أجل البقاء مع سابقه، وكان حظ العربية أن وجدت بها شواذ نحوية حفظها التاريخ، ولا يتوقف أثرها على النظام التركيبي، فهناك شواذ صرفية ودلالية وصوتية.

أينطلق هذا البحث إلى دراسة ظاهرة الشذوذ النحوية وفق معطيات حددتها التداولية اللسانية، وبين خصائصها التركيبية في ضوء ما اشتهرت به من صفة الشذوذ والإهمال، كما يهدف إلى دراسة الظاهرة في ضوء ملكات المتلقي والنص السياقي بقسميه الداخلي والخارجي.

وقد انقسم البحث على ثلاثة أقسام: الأول عن خصائص القارئ، والثاني عن النص والثالث عن السياق، واختتم مسطوره بالنتائج والمصادر والمراجع.

﴿ تمهيد ﴾

عن دائرة الحدث القُدأولي^(١)؛ حدّد أُنذريه- جاك ديشين^(٢) ثلاثة عوامل تؤثر في عملية التّواصل، هي: الأول: السياق الذي يجري فيه الحدث (أو التّواصل)، والثاني: خصائص النصّ، والثالث: خصائص القارئ.

وتُسهّم مجموعة من خصائص النصّ المنقول بوسائل متباينة وعبر أوساط مختلفة تشكل بهذا مهمّاً في عملية التّواصل، منها أن النصّ في بعض الأحيان ليس مكتمل النصية، فهو عبارة عن جمل قليلة ومحدودة لا تعالج قضية فكرية في الغالب؛ فالشواهد النحوية تكاد تفتقد التماسك النصي، وإنما هي قوالب تركيبية منتزعة من نصوص، شكّلت رسالة وهدفاً بناءً على كونها وثيقة مهمة من عصور الاحتجاج؛ لاحتوائها على نماذج اللغة الفصيحة غالباً، إذا استثنينا من هذا القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وبعض الأشعار المأخوذة من قصائد مشهورة، فهي نصوص مكتملة، وتُعرف سياقاتها.

كما أن المنلقي (وهو هنا النّحوي) ليس مقصوداً لذاته، فالمنلقي الحفيظ المرسل إليه في الأصل خارج السياق الوجودي اللغوي في ذلك الوقت، ومن المعتقد أن هناك صلة وثيقة بين المتكلم والمخاطب في أسلوب التفاهم وطريقة المشاركة في قواعد التركيب، ولكن بخروج النصّ إلى مستوى التمثيل النحوي، يكاد يرفى إلى ما فوق المحلية أو الجغرافيا اللغوية المحددة للمرسل والمرسل إليه الحقيقي، ومع ذلك كان هدف التّواصل الوقوف على حقيقة الاستعمال بوصف هذا التركيب أداة للتواصل في تلك العصور، ويؤكد بعض العلماء^(٣) على أن العلاقة بين المرسل والمرسل إليه من أبرز العناصر السياقية التي تؤثر في تحديد استراتيجية الخطاب المناسبة واختيارها؛

(١) التداولية: هي دراسة الاتصال اللغوي في السياق، ويذهب ليفنسون *Levinson.S.C* في كتابه (*Pragmatics*) إلى وجود متعددة عُرفت بها التداولية، محمولها أنها عند إطلاقها يُفهم أمران: الدلال والاستعمال، والاستعمال يدخل تحته أربعة عناصر: الأول أطراف التخاطب، والثاني قصودهم، والثالث السياق، والرابع المقام، ويذهب جيفري ليتش *Geoffrey Leach* إلى أن التداولية دراسة المعنى في ضوء بطروف الكلام، وأدخل في هذه الظروف المتخاطبين (المتكلم والمخاطب على حدّ سواء)، وسيق اللغوي (*the context of utterance*)، والهدف من الملفوظ (الفصيحة) (*the goal of utterance*)، فيلتهى إلى أهداف وظائف للتداولية خارج سياق الاتصال. إدرين مقبول، الأسس الإستمولوجية والتداولية للنظر للنص عند سيبويه، ص ٢٦٤، ٢٦٥، وعبد الهادي بن ظافر، استراتيجيات الخطاب، ص ١١

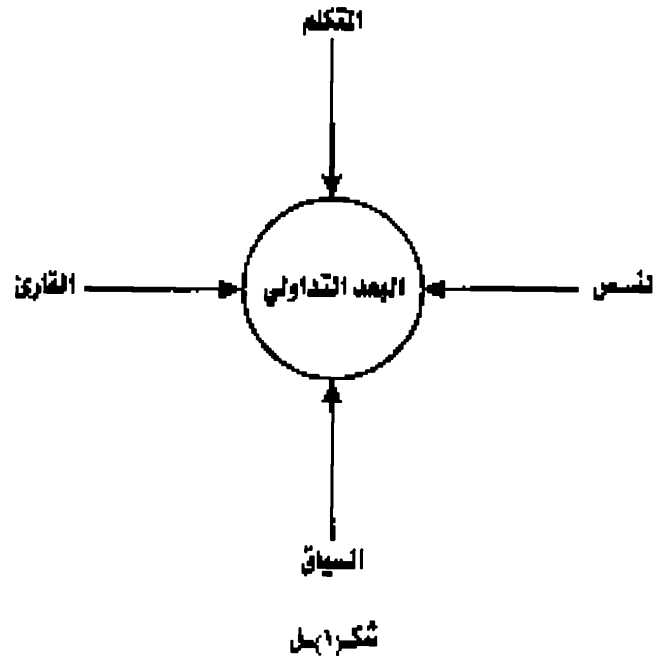
(٢) جاك ديشين، استيعاب النصوص وتكليفها، ص ١١.

(٣) عبد الهادي بن ظافر، استراتيجيات الخطاب الأصولي، ص ٤٨.

يراعها المرسل دومًا عند إنتاج خطابه، فلا يغفلها، وذلك بوصفها محدّدًا سيافيًا، له دوره في إنجاح عملية التّواصل.

وفي ظلّ هذه الشواذ التركيبية تتضح أبعاد السياق وأهميته، ليس فقط من حيث النظر إلى صحة التركيب وامتثاله للقواعد، لكن يضاف إلى ذلك مراعاة السياق المكون من قوالب ثلاثة غير لغوية: القالب المعرفي والقالب الإدراكي والقالب الاجتماعي^(١١)، وهذه يُطلق عليها العلاقات الخارجية للنص، التي تؤكد أن الذي يُبدع النصّ هو الطيف، أو الفاعل الاجتماعي عند جولدمان (Goldman)، (فكل ظاهرة إنسانية هي من عمل صاحبها الفرد، وتعبّر عن طريقته في التفكير والإحساس، إلا أن هذه الطريقة لا تكون مستقلة عن سلوك غيره من الناس، فلا وجود لها، ولا يمكن أن نفهمها إلا في علاقة صاحبها بغيره)^(١٢)، وهذا بعدُ تداولي، فإنها تكون مقهومة لكل أفراد المجموعة اللغوية.

فالتّواصل إذن لا يتحقق بشكله التام إلا من خلال مقومات أربعة هي: المنكلم والمخاطب ونص الخطاب والسياق، ويحدث اتساق بين هذه العناصر الأربعة، فتكون المحصلة النهائية هي التفاعل بين هذه المكونات التي تؤدي إلى ما يسمى التّواصل التام، كما في الشكل^(١٣):



^(١١) عهد الهادي بن ظاهر، استراتيجية الخطاب الأضبولي، ص ٤٨.
^(١٢) محمود الزبيدي، أثر اللسانيات في النقد الأدبي، ص ١٤٦.

إن الحكم على تركيب بأنه شاذ يتطلب النظر إليه من مواقف متباينة أو جهات مختلفة، ومعرفة الأسباب وراء الظاهرة قبل الحكم عليها. فبعض النصوص قد تحتاج إلى تفسير يعتمد على سياقها أو على كفاءة القارئ وخبرته، التي تؤهله لتصوير الشقائي والاجتماعي في أثناء إنتاج النص. وينصرف الاهتمام هنا إلى مكونات التواصل التداولي دون المتكلم؛ وذلك لغاية منهجية، أو للجهل به أحياناً، ولتقديم قراءة جديدة لبعض النصوص الشاذة - حسب تعبير النحاة - عن الأصول النحوية المعروفة عندهم، ولا نزع أنها تنطلق من إنكار جهودهم في التحليل، لكنها تحاول أن تنظر في بعض العناصر التي تسهم في إنتاج النصوص وتلقها، وهي المتمثلة في: خصائص القارئ والسياق والنص.

❖ أولاً: خصائص القارئ:

انبعثت فكرة الشواذ في تراثنا النحوي من صميم الصناعة النحوية، واكتفي بالتلقي من قبل النحاة أو قل المشتغلين باللغة دون الاعتماد على الجهة المتسم المتمثلة في الجمهور العربي وقتئذٍ، وهو المنتج والمستقبل الحقيقي للغة، وهو الذي بالرعاية والعناية، فأفراد المجتمع هم الذين يتعاملون مع النصوص، ويستعملون اللغة وقواعدها، وتقوم علاقة المحاوره والتواصل فيما بينهم بها، فهم يشكلون حيناً جزءاً من السياق^(١).

نعم إن الجمهور المتلقي هنا حالة خاصة، إنه عقل نحوي نافذ مدرك قواع اللغة، ولديه خبرة بالأنماط التركيبية المعيارية. تمثل عنده قانوناً يجب الالتزام به تواصله، حتى يتحقق التطابق بين طريقة الاستعمال والأحكام التركيبية المقننة من النحاة، والتي تمثل معياراً لحالة الصواب اللغوي، ومقياساً للمنطق الكلامي الأصح المتفق عليه غالباً^(٢).

(١) ومن هذا المنطلق يولي فيرث الكلام مكانة مساوية للسان، في تفرقه بينهما، وينسب رولان رباط إلى اللسان مؤسسة اجتماعية، أو منجز اجتماعي، إلا أن الكلام أساس فعل فردي، وهو فعل اختياري وإنه ويكون من التأليفات التي يفضلها يمكن للذات المتكلمة أن تستعمل شفرة اللغة بهدف التعبير تفكيرها الشخصي. انظر: محمد سبيلا وعبد السلام بنعبد المالي، (اللغة دفاتر فلسفية، تعريب مختارة)، ص ٣٦.

(٢) يفرق السيوطي في المزمهر، ج ٢، ص ٣٠٩ بين العرب المستعملين للغة السليقة وبين جمهور العلماء العرب يلاحظون في كلامهم بالطلح ما لا يمكن أن يلاحظه العلماء بعد طول مباحثة واستماع.

إن اللغة ذاتها نظام قائم على أساس من المصلحة، هكذا قال ريبارط^(١)، فهي سلطة تشريعية، اللسان قانونها؛ (لأننا لا ننسى أن كل لسان تصنيف، وأن كل تصنيف ينطوي على نوع من القهر)^(٢).

ويفرق الدكتور تمام حسان^(٣) بين موقفين؛ موقف المتكلم وموقف الباحث، فالأول يختلف عن الآخر، فمن مظاهر موقف المتكلم من الاستعمال اللغوي أن يراعي معايير اجتماعية معينة يطبقها في الاستعمال، ويقيس في كلامه على هذه المعايير، ومن ثم يسلب نشاطه اللغوي بصيغة ظاهرة الصوغ اللغوي.

وعلى هذا فتحليل أنماط لغة ما ونماذجها، هو تحليل لحقائق اجتماعية، (وفي معنا إذن أن نرى أن علم اللغة لا يدرس مجموعات ضخمة من السباقات الصوتية، بل يدرس نظامًا من الأعراف الاجتماعية، وإن المرء ليحاول أن يحدد عناصر التأليف بواعده التي تشكل ذلك النظام، التي تجعل الاتصال اللغوي بين أفراد المجتمع ممكنًا، ومن فضائل نظرية سومير في اللغة أنها وضعت الأعراف والوقائع الاجتماعية قلب البحث اللغوي)^(٤).

ويقف بجوار هذه الإشكالية قضية تأويل ما أشكل على النحاة من التراكم، فزاجها في الشواذ، ويرى الدكتور محمد مفتاح^(٥) أن العرب والمسلمين انشغلوا بكال التأويل كما انشغلت به الأمم الأخرى؛ فالأمر يرجع إلى التأويل ذاته، فهو ضرورة، فكل كائن بشري سوي يحاول اكتشاف الكون من حوله، فيحاول تفسير ما يراه، فتقوده عملية حب الاستطلاع على تلك الظواهر إلى طلب معرفة ما خفي منها بطن، وإذا كانت الظواهر أو الأفعال أو ضروب السلوك لا تتلاءم مع ما تعارف به من معارف وعادات وأعراف فإنه يلجأ إلى عملية تأويل الظواهر؛ ليجعلها تتواءم مع معارفه، وهذا يعني أن الكائن البشري يعتقد في شيء ما أنه إما أساس، وأن هناك شيئًا ثانويًا، أو فرعيًا، يمكن أن يرجع إلى الأصل أو الأساس. وإبما لا يكون التأويل أو أي إجراء يصف موقفه في صالح استكشاف الأنماط الخفية من التراث الكلامي، فإنه يفضي إلى عدم الاعتداد بالتعدد اللغوي، الأمر الذي قلنا التنوع في استعمال اللغة عبر مجموعات مختلفة من العرب، حسب اختلاف

محمد سيلا وعبد السلام بنعيد العائلي، (اللغة دفاتر فلسفية، نصوص مختارة)، ص ٨٤.

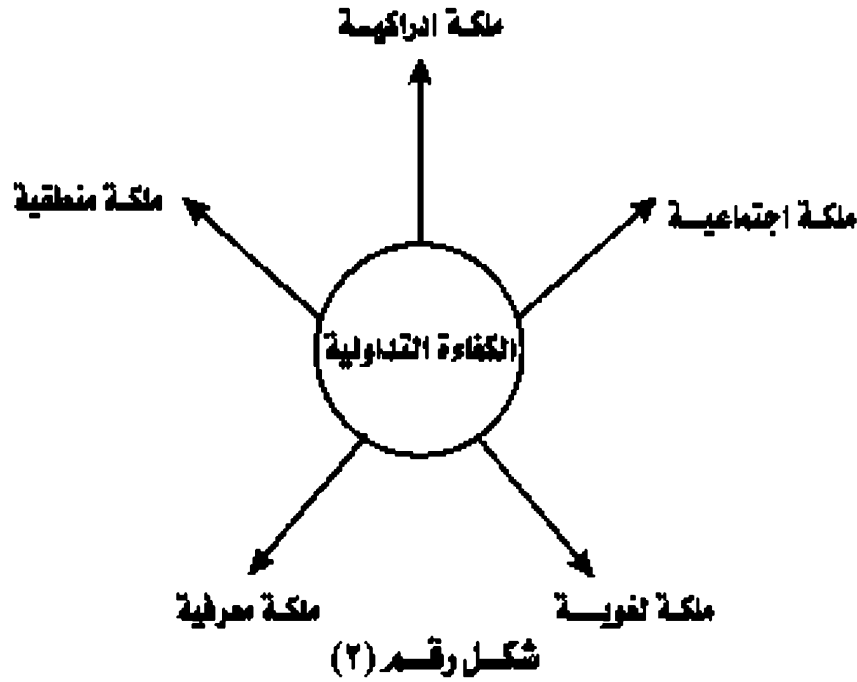
محمد سيلا وعبد السلام بنعيد العائلي، (اللغة دفاتر فلسفية، نصوص مختارة)، ص ٨٤.

تمام حسان، اللغة بين المعيارية والوصفية، ص ٣٩.

بالتان كلر، فرديناند دي سومير (أصول اللسانيات الحديثة وعلم العلامات)، ص ١١١.

محمد مفتاح، التلقي والتأويل مقارنة نسقية، ص ٢١٧.

المكان والزمان والثقافة والعادات والتقاليد والبيئة وغيرها. وعلى الرغم من كثرة ما ورد علينا من أخبار العرب وأيامهم لم نجد إشارات واضحة إلى صورة التفاعل والتواصل لمستعملي اللغة حيال الشواذ، ما عدا النحاة واللغويين، وقد سبق الحديث عن ذلك، وربما كان الأمر لا يعنهم كثيراً، فهم يفهمون ما يُقال، ولا يلتبس عليهم شيء، أو يُستصعب مما يسمعون. لقد أدرك بعض النحاة أن مخالفة الأصل المقرر ليست نوعاً من الخطأ أو اللحن الخارج عن أنظمة اللغة المستعملة، فالتمسوا في توجيههم تلك التراكيب اللغوية النظرة الاعتبارية في أنها نتاج واقع لغوي أو بيئة لغوية لها خصوصيتها، غير أن هناك فريقاً ثانياً ظل ثابتاً على كونها من الشاذ الذي لا يقاس عليه، وشيوعها في عصره لحن، ولكن توجد مفومات مكنت الفريق الأول من امتلاك الكفاءة التداولية التي تتركز على خمس ملكات؛ هي: اللغوية والمنطقية المعرفية والإدراكية والاجتماعية (حسب الشكل رقم ٢):



(١) عبد الهادي بن طاهر، استراتيجية الخطاب، ص ٥٧.

❖ أولاً: الملكة اللغوية

إذا ثبت لدينا أن الشواذ من روافد الاستعمال، فتأويل النحاة انطلق من الاعتراف ببعض الأحيان بالموقف اللغوي الذي أنتجت فيه تلك التراكيب، فدلّ حديثهم على أنها شائعة في لهجة قبيلة من القبائل أو بيئة من البيئات اللغوية. وتتجلى الملكة اللغوية في تفسيرهم لقضية التضعيف في الوصل، وإن كان خاصاً بحال الوقف في الشائع من الاستعمال العربي، وذلك في قول رؤية:

لَسْنَا حَيْثُ أَنْ أَرَى جَسَدًا فِي عَائِمًا ذَا بَفْسِمَا أَحْصَبًا^(١)
فَشَدَّ الْبَاءَ مِنْ (جَدَبًا) وَ(أَحْصَبًا)، وإن لم يقف على الباء، فقد وقف باجتلاب اللف، وفسره النحاة على أنه عامل الوصل معاملة الوقف.

لذلك من توجيههم إلامهم بفن الشعر وما يجوز فيه، ودفعهم إلى هذا أمران: الأول: إقناعهم أن القافية لها نظام صوتي خاص مفيدة به، مما قد يمنح الشاعر حرية في كتابة مخالفة القاعدة النحوية، فهي شغله الشاغل، والثاني: أن الشاعر قد تصرف بأقل الوصل معاملة الوقف، وهذا يُبنى عليه أنه يجوز للشاعر ما لا يجوز لغيره، ثم بذلك يميزون بين الموقف التواصلي وغيره، فالشاعر له ظرفه الخاص، ويمتلك حرية على التصرف بمخالفة ما هو شائع.

❖ ثانياً: الملكة المنطقية

لقد وظّف النحاة خبرتهم في التوصل إلى التوجيه الملائم بالسير وفق قواعد استدلال، وهو ما يُعرف بأصول النحو بأركانها الأربعة: القياس والنقل والسمع والتصحيح الحال، فهو علم يقيم النحو على حالة تماس الاتصال اللغوي والاحتكاك بين التراكيب المستعملة؛ ولذا يكثر في كتبهم عبارة (وقد استدلوا على ذلك بقول عمر)، ويبدلوننا أنهم طبقوا معايير الأقيسة النحوية التي وضعوها بشكل متميز.

ومن الأمثلة التي تؤكد ذلك ما استدلوا به في عرضهم للقراءة: (إنّ هذان هيران)^(٢)، فقد احتجوا في توجيههم إلى (نّ) بمعنى (نعم) بقول الشاعر:

أَلْوَا غَنَزَتْ فَغَلَسَتْ إِنْ وَرَيْمًا نَالِ الْمَتَى وَشَقَى الْغَلِيلَ الْغَادِرَ^(٣)

^(١) من ديوانه، ص ١٦٩.

^(٢) طه: ٦٣. وانظر: محمد عبد القادر، ظاهرة التأويل في إعراب القرآن الكريم، ص ٤٠.

^(٣) غير منسوب في: ابن عبيش، شرح المفصل، ج ٢، ص ١٣٠، ويستدل به النحاة على معنى (إنّ)

أي: فقلت نعم، و(أي) نعني عندهم: أقصد وأريد.

كما استدلوا من الثمر بقول رسول الله (ﷺ): (إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُهُ)

أي: نعم: الحمد لله.

من الملاحظ أن نحاة العربية وفقوا كثيراً في الاستئناس بالاستشهاد بالنقل.

◆ ثالثاً: الملكة المعرفية

إن امتلاك المعرفة يمكن من تعرف الآخر، والوقوف على المعاني المقصودة من كلامه: لذا تمكن النحاة من استدعاء هذه المعارف وتوظيفها من خلال النماذج الكلامية الشاذة.

ففي لغة إلزام المثني الألف في جميع أحواله نجد أكثر من وجه، وأكثر من طريقة في فهم الآية الكريمة السابقة في قراءة: (إِنَّ هَذَا لَسَاحِرَانِ)، فالنوجيه كان مسبقاً على أحد أمرين: أمر العامل، وأمر المفعول، وجرى النقاش حول طبيعة كل منهما، والعنصر الأول (إِنَّ) فجعلوها كما سبق بمعنى (نعم)، أو (أجل)، ولعل سيبويه^(١) يبيِّن من أوائل هؤلاء النحاة الذين ذهبوا هذا المذهب، ونُسب هذا الرأي إلى الكسائي أو في حكاية عن عاصم، وإن كان المبرد أنكر قول النحاة الذين خرجوا الآية على لغة الحارث، وقال إن أولى الأمور أن تكون (إِنَّ) ههنا بمعنى (نعم)^(٢).

وقد مكنتهم الملكة المعرفية بلغات العرب في التوجيه، فذهبوا في مناقشة للمسألة من جهة العنصر الثاني على أنها لغة من لغات العرب، وهي إلزام المثني الأول في أحواله الثلاث، فاعتمدوا على لغة بني الحارث وغيرها من القبائل المتفقة معها سابقاً.

امتازت هذه المعرفة بشمولية الرؤية، ومع هذا كانوا يعتقدون أن المعنى هو الأول في عملية التخاطب، أما الشكل فهو محور إجرائي، فالتكاملية في البنية اللغوية تشكل التركيب هي المسؤولة عن أداء الرسالة كاملة، ومن هذا المنطلق يرى النحوي محمد حماسة^(٣) أن غاية النحو- الذي هو نظام- تركز على أداء المعنى بوجه محصلة نهائية، ففي الفترة المبكرة للنحو العربي كان أتباع مدرسة الكوفة يقولون سيبويه إنه عمل كلام العرب على المعاني وأهمل الألفاظ، يريدون أنه أولى إلزام

بمعنى (نعم)، فلا تكون عاملة.

(١) النحاس، إعراب القرآن، ج ٢، ص ٣٤٤.

(٢) سيبويه، الكتاب، ج ٤، ص ١٦٦.

(٣) محمد عبد القادر، ظاهرة التأويل في إعراب القرآن الكريم، ص ٣٥.

(٤) محمد حماسة عبد اللطيف، النحو والدلالة (مدخل لدراسة المعنى النحوي الدلالي)، ص ٤٨.

إدراكي رعاية واهتماماً على حساب الجانب الصوتي، فهو يهتم بالدلالة، وليس بالدال. كما اعتنى الدرس البلاغي القديم بذلك^(١)، في نحو العبارة المشهورة: كل يليخ فصيح، عكس. فالبلّاعيون يركزون على محصلة التخاطب، وهي أداء المعنى؛ لذا اشترطوا بدود البلاغة أن تكون راجعة إلى اللفظ باعتبار إفادته المعنى بالتركيب؛ ولذلك يلوّه بليغاً في أمور ثلاثة: أن يخرج من النفس على لفظ قائم به، وأن يؤدي ما في من القائل، وأن يفيد المتلقي.

❖ رابعاً: الملكة الإدراكية

الملكة الإدراكية قدرة من القدرات التي تمكّن صاحبها من امتلاك الذاكرة التي تسبّط في معالجة المعلومات، فنشاط الأشخاص الإدراكي يتعلّق بالذاكرة إلى حدٍّ كبير، من تكلم وكتابة وقراءة واستماع، فكل شيء يتطلب الذاكرة^(٢)، كما أنه يحتاج استعداد خاص في عملية تفسير اللغة واستيعابها، ويتطلب إدراكاً بالمحيط اللغوي. لهذا نجد الإشارة إلى أن نحاة العربية كانوا قد امتلكوا فكراً يوصف بالموسوعية في تمام بكثير من معارف عصرهم، فكان لبعضهم خبرة بالمنطق والفلسفة والتاريخ والتفسير والقراءات وغيرها من العلوم التي تصقل العقلية وتؤسس مداركها فتمكّن منها من الإدراك التام للنص. وقد تجلّت بوضوح هذه الملكة على ثلاث صور:

١- إدراك النصوص الموازية، وهي التي تحمل إشكالية مماثلة أو مشابهة، فقوى ذلك من صدق الظاهرة، مما يدفع إلى الاعتراف بها، ومحاولة التوصل معها على المستوى القاعدي، على ما سيحي، وهذا أشبه بطريق الحصر للمخزون الكلامي المستعمل عند العرب، وهو مبدأ الاستقصاء الذي يعتمد على الذاكرة النشطة الفادرة على استرجاع المحفوظات في علاج المعلومات المستغربة أو المعبدة عن الوجه الشائع.

٢- إدراك الآراء الموازية، أو التوصل مع أفكار الآخرين، ويمكن في هذا السياق أن يقال: قارئ واحد لا يكفي، فقد لا يدرك الفرد المسألة من جميع جوانبها، ونخض عليه بعض أسرارها، فالحاجة تدعو إلى إدراك الآخر وقراءته، فالتفسير يتوقف على طبيعة القارئ أو المتلقي وما يمتلكه من حصيلة ثقافية

^(١) البركات حمدي، مفهوم المعنى بين الأدب والبلاغة، ص ٥٨.

^(٢) دهبين، استيعاب النصوص وتأليفها، ص ٤٠.

ومعلوماتية وتنظرية مغايرة، وقد رأينا أمثلة متعددة لهذا الموقف، على سياتي.

الثالثة: إدراك العلاقة بين النحو والمعنى، فلقد أدرك النحاة علاقة النحو بالمعنى فليس بمقدورنا فهم جمل متسقة نحويًا، إن لم يكن لها معنى، على نحو ما نعوم تشومسكي *Noam Chomsky*: تنام الأفكار الخضراء التي بلا لون غامراً (*Colorless green ideas sleep furiously*) وقد نتعرف جملاً ما نحويًا لم يكن لكلماتها معنى، نحو قولنا: اشترى الأسدُ الجبلَ الذهبي، فإنه لا خلاف أن هناك انتلافًا نحويًا، فالفاعل مرفوع، والمفعول منصوب، والصفة تامة الموصوف، إلا أن المعاني غير مستساغة، أو منالفة، وغير مفهومة.

فمن إدراكهم للنصوص الموازية ما كان مشهورًا عندهم بتعدد الشواهد، المسألة الواحدة، فذلك يمنح النظام التركيبي القوة، ومن ذلك معي، (الذي) الباء، في نحو قول الراجز:

لَنْ تَنْقَمِي ذَا حَاجَةٍ وَتَنْفَعَكَ
وَتَجْعَلِينَ اللَّذَّ عَمِي فِي اللَّذِّ مَعَكَ^(١)

واستشهدوا بشاهد آخر يقوي السابق، وهو قول أحد الهذليين:

فَخَالَتُ فِي شَرِّ مِنَ اللَّذِّ كَيْدًا
كَاللَّذِّ تَزَيُّ زَيْنَةً فَاصْطَبِدَا^(٢)

أما عن إدراكهم للأراء الأخرى، فنجدها بكثرة في كتب الخلافات، إنها تعكس الخبرة بالأخر، والتمكن من معرفة مصطلحات المدرسة الموازية وأقيسها وأصل النحوية، ومن ذلك ما نلمسه في قول البصريين في رواية قول عامر بن الطفيل^(٣): فلم أزمثلها ختامةً واحديً ونهنت نفسي بعدما كذت أفعلي فرواية الكوفيين (أفعله) يفتح اللام، على أن التقدير (أن أفعله) فحذف (أن) عملها، والبصريون لا يغلون قياس الكوفيين في هذه المسألة، فيذهبون إلى أن البيت بهذه الرواية جاء على قياس الكوفيين، ويرونه لحنًا، وأن الرواية الصحيحة

(١) الرجز بلانسية في: ابن الأثيري، الإنصاف في مسائل الخلاف، ص ٥٣٧.

(٢) الهددادي، خزنة الأدب، ج ١١، ص ٤٢٦.

(٣) وقيل إنه لغيره، انظر في تفصيل الخلاف: ابن منظور، لسان العرب (خبس) ج ٦، ص ٦٢.

(٤) البيت في الديوان ٤٧١، وسيبويه، الكتاب، ج ١، ص ٣٠٧، وابن الأثيري، الإنصاف في مسائل الخلاف، ص ٤٤٩.

(ه) بضم اللام.

كما عن الفرق بين النحو والمعنى فقد أدرك سيبويه^(١) هذا النوع في بعض الجمل. طلب (الاستقامة من الكلام والإحالة) فيقول في تقسيمه: (فمنه محالّ كذب، آل، ومستقيم كذب، ومستقيم قبيح، وما هو محالّ كذب، نحو: أتيتك أمس، غداً..... مُستقيم حسن، أتيتك غداً، وسأتيك أمس..... محالّ. (نقض لأول (بأخراه)، حملت الجبل، وشربت ماء البحر..... مستقيم كذب، قد زيداً رأيت، وكى إليك.... مستقيم قبيح، (وهو وضع اللفظ في غير موضعه)، سوف أشرب ماء أمس.... محال كذب^(٢)).

خامساً: الملكة الاجتماعية

في قواعد النحو بمفردها لا تكفي في تفسير الأنماط اللغوية جميعها، فلا بد من وسائط أخرى مناظرة، تتوافر فيها المقومات التي تجتهد في إيجاد حلّ لكثير من تحت النص، وعلى هذا ستجد هذه الشواذ مكانها من الدرس التركيبي. لقد أن الوقت لإعطاء القواعد الضمنية في بنية المجتمع اللغوية حقها من تمام؛ ومن هنا يسعى مايكل كورباليس (Michael C. Corballis) في (From Hand to Mouth: the Origins of Language) في نشأة اللغة من اليد (إلى نطق الفم) (إلى التأكيد على أننا (نستخدم هذه القواعد من دون أن ندركه حتى اللغويون لا يتفقون مع كل القواعد، ولا على الطريقة التي تُطبّق بها (٣)).

الملكة الاجتماعية تسهم في تشكيل الكفاءة على اكتشاف خصوصية اللغة في الإنسان، فلا يمتلك النحوي تلك القدرة على معرفة ما يُقال فحسب، بل يتعدّى الأمر عن الطريقة التي بها تتم عملية إصدار الخطاب إلى مخاطب معيّن حسب التواصليّة بغية تحقيق الأهداف من وراء الفعل الكلامي. ظهرت تلك الملكة في كتابات النحاة، في إلمامهم بالظرف الاجتماعي للقاتل طلب على حدّ سواء، ولعلّ ظهور التأويل والتوجيه من ثمار تلك الملكة، فقد ساء إليه في سبيل التوصل إلى قصد القائل، واجهدوا في اكتشاف فهم المخاطب (إلى المطروح من الدلالة).

١-هـ، الكتاب، ج ١، ص ٢٥، ٢٦.

٢-عبد الواحد والي، نشأة اللغة من إشارة اليد إلى نطق الفم، ص ٢٠.

٣-عبد الواحد والي، نشأة اللغة من إشارة اليد إلى نطق الفم، ص ١٩.

ويتجلى حضور الملكة الاجتماعية في رؤية النص مما يُعرف باللغات أو اللهجات وهي مظهرًا اجتماعيًّا مميزًا للجماعة اللغوية الواحدة، ودليل المحلية اللغوية. ومن الأمثلة على ذلك من قضايا شواذ التركيب فتح نون المثني وكسرونون المذكّر السالم، نحو قول جرير:

عَرَفْنَا جَعْفَرًا وَبَنِي أَبِيهِ وَأَنْكَرْنَا زَعَانِفَ آخَرِينَ

فقد جاء كسر النون من (آخرين)، وهي جمع مذكر سالم، وكان حقها الفتح، القياس.

وقول سحيم بن وثيل:

وَمَاذَا تَبْتَفِي الشُّفْرَاءَ مَيْسِي وَقَدْ جَاوَزْتَ حَدَّ الْأُرْتَعِي

فكسر النون، وكان حقها الفتح. أما المثني فنحو قول حميد بن ثور:

عَلَى أُخُوذِيَيْنِ اسْتَنْقَلْتُ عَلَيْهِمَا فَفَتْحَ النُّونَ مِنْ (أَخُوذِيَيْنِ)، وكان حقها الكسر على القياس.

فالملكة الاجتماعية تظهر في التفريق عندهم بين ما خرج عن الأصل المقرر؛ لأنه قبيل الشاذ، وما خرج عن الأصل لأنه من قبيل اللغات، وتأمل نص ابن عقيل^(١) في حديثه عن التفرقة بين نون جمع المذكور السالم ونون المثني لوظاهر كلام المصنف رحمه الله تعالى- أن فتح النون في التثنية ككسرونون الجمع في القلة، وليس كذلك كسرها في الجمع شاذًا، وفتحها في التثنية لغة.

كما أن اعتقادهم بفصاحة الأعراب دفعهم إلى الاعتداد بأقوالهم، حتى تلك لم يشتهر استعمالها، بل هو من قبيل الارتجال، يقول ابن جني: (إن الأعرابي إذا فصاحته وسمت طبيعته تصرّف وارتجل ما لم يسبقه أحد قبله)^(٢). وحكي عن الدين السيوطي أمر رؤية وأبيه في ارتجالهما اللغة دون سابق سماع، فيقول: (٣) قاسا اللغة وتصرفا فيها، وأقدما على ما لم يأت به من قبلهما)^(٤). ويقول ابن جني

(١) البغدادي، خزنة الأدب، ج ٨، ص ٩٥٦.

(٢) البغدادي، خزنة الأدب، ج ٨، ص ٦١، وابن عيثر، شرح المفصل، ج ٥، ص ١١.

(٣) البغدادي، خزنة الأدب، ج ٧، ص ٤٥٨.

(٤) انظر: شرح ابن عقيل، ج ١، ص ٧٠، ٧١.

(٥) ابن جني، الخصائص، ج ٢، ص ٢٥.

(٦) السيوطي، الاقتراح، ص ٥٢.

على نفسه: (ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب)^(١)، ويذكر الأستاذ الأفعالي أن (اللغات على اختلافها كلها حجة، والناطق على قياس لغة من لغاتها مصيب غير مخطئ)^(٢). وفي مقابل ذلك نرى سيبويه يتهم بعض العرب بالخطأ، لأن (واعلم أن ناساً من العرب يغلطون، فيقولون: إنهم أجمعون ذاهبون، وإنك ذاهبان)^(٣).

لنا من منطلق الملكة الاجتماعية التي منحهم وأكسبتهم القدرة على التفرقة بين لغة من قراءة المجتمع ومن معرفتهم بما هو في خلفية النصوص المنتجة، وأصبحوا يبنون على اتخاذ موقف بين من تؤخذ منه النصوص، ومن تُردُّ، أو وضع معايير لها.

خصائص النص

(١ - ٢)

اللغات قديمة^(٤)

ل بعض الشواذ النحوية صلة بتاريخ اللغة القديم، ومن المعتقد أن التطور لم يفتأ، وإنما وجد طريقه إلى الألسنة عبر أجيال من المتخاطبين، (واللغة العربية ليس في ماضيها وحاضرها لغة متطورة، ولا شك أنها تطورت كثيراً في نظمها خاصة بين أيام امرئ القيس وأيام الشاعر ابن هرمة، أو مسلم بن الوليد، أو فجر العباسي)^(٥).

نجد أن الحديث عن بداية مرحلة أو انتهاءها هو مجرد افتراض وليس على سبيل القول الفصل. كما أن القول بأن الظاهرة اللغوية اعتباطية، كما قال دي *Ferdinand de Saussure*^(٦) يجعلنا معتقدين عدم تصور استمرارية الفعل اللغوي ثابتاً، فليس بإمكانه حينئذ أن يقاوم فعل الزمن بتغييراته التي يجليها على

(١) جني، الخصائص، ج ٢، ص ٢٥.

(٢) عبد الأفعالي، في أصول النحو، ص ١١١.

(٣) سيبويه، الكتاب، ج ٢، ص ١٥٥.

(٤) صدر الإشارة إلى أنني اهتمت بهذه الظاهرة، وخدمت لها بحثاً إلى مؤتمر كلية دارالعلوم جامعة القاهرة (سيبويه إمام العربية) عن اللغات القديمة بعنوان: (ظاهرة الرواسب التركيبية وأشكالها في النص عند سيبويه).

(٥) حسان، اللغة بين المعيارية والوصفية، ص ٩١.

(٦) جان كور، فرديناند دي سوسير أصول اللسانيات الحديثة وعلم العلامات، ص ٩١.

الإنسان في نواحي حياته المختلفة من مسكن وملبس وعادات وتقاليد، فتؤوض الظاهرة الكلامية بأنها طائفة على الحياة، شأنها شأن الأحداث التاريخية. وتتجلى هذه القيمة خاصة في دراسة الآداب وفق المنهج التاريخي، وهي المحاولة كانت حلماً، للأستاذ محمود شاكر، فقد قصّ المرحوم الدكتور محمود الطنّام حكاية شيخه مع دراسته لشعر امرئ القيس والنايغة وزهير والأعشى، ثم شعر عمر أبي ربيعة وذو الرمة، فقد أراد لنفسه أن يدرس هذه الأشعار والدواوين وفق مسير الزمنية عبر الحقب التاريخية، وإن لم يوافق الحظ إلى فيما يصبو إليه، فقد أقام تذوقه للشعر، ولم تكن صنعة الشيخ شاكر يكرراً في تراثنا اللغوي والأدبي، بل سب محاولات جادة في نقدنا القديم، تتجلى في صورة رائعة بصحبة ابن سلام الجمعي كتابه (طبقات فحول الشعراء)، الذي يظهر فيه بوضوح تقسيماته للشعراء على عتبات التاريخ وتقسيمات الزمن، فأعطى الاعتبار للسبق الزمني، وكانت فيه الباحث حول بدء الظاهرة الأدبية، كمن أول من بدأ بكاء الديار، وأول من شعر، وغير ذلك.

كل هذا رأيناه في أكناف الأدب ونقده، أما في الدرس اللغوي فلم ينتفع بهذا جانب التحديد الزمني للفصيح والمؤد، فلم نقف على دراسة تاريخية للأمثلة اللغوية والشواهد النحوية التي تكثرت في المتون ومطولات النحاة، وإن اكتفى بعضهم طناً أنه سدّ ثغرة في الصقيع بنسبة بعض الأبيات في مصنفه، ناهيك عن كتب الترمذ والطبقات، فلم تفسر الظاهرة اللغوية تاريخياً، نحو أخبار النحويين البصريين سعيد السيرافي، وبغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي، وطبقات اللغويين للزبيدي، وإنباه الرواة على أنباه النحاة للقفطي، إلى غيرها من التراجم، وقد انشغلت هذه الكتب بتاريخ النحاة واللغويين، وهذا كان منها حسب الظن.

ويرى الدكتور علي أبو المكارم^(١) أن الإشكالية تكمن في منهج النحاة في دراسة على أنها ثابتة طيلة عصور الاحتجاج التي قد تزيد على أربعة قرون، ولم تأل لنا موس التغير، وهذا يرفضه مبدأ الارتقاء والتطور الذي يصيب اللغات جميعاً يؤثر في مصداقية أحكامهم على بعض القواعد.

(١) محمود الطنّام، في اللغة والآداب دراسات وبحوث، ج ١، ص ٢١٢.

(٢) تقويم الفكر النحوي، ٢٢٠.

◆ منهج العزل:

لقد لاحظ النحاة الفرق بين الشواذ النحوية والأنماط اللغوية الأخرى، واستناداً إلى مقارنتهم للنصوص المتنوعة أحسوا أنها مختلفة عن الصورة المثلى التي اختاروها من معياراً للسلوك اللغوي الذي عليه تقاس الصحة والخطأ، فأزمعوا أمرهم على ذلك، وإن تناولها بعضهم بالتخريج أو التقدير أو التوجيه أو التأويل، حتى تتوافق قاعدة المرضية للأصول النحوية عند كل فريق أو مدرسة.

تعود أسباب العزل على ما يُظن إلى الاعتقاد^(١) بوجود اللحن قبل الإسلام وفيه، فقد كان جانزاً من العرب وقتئذٍ، وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (أنا من العرب، وأدتني قرئت، ونشأت في بني سعد بن بكر، فأني يأتي اللحن!)^(٢). اللحن عنه إفادة بوجوده عند غيره، ويتضح في قول ابن فارس^(٣): وما جعل الله لعرب معصومين من الخطأ والغلط، فما صح من شعرهم فمقبول، وما أبته لغة وأصولها فمردود. ومن أسباب العزل التفرقة بين اللهجات المتعددة من حيث الناحية، فمنها ما عومل معاملة اللغة المشتركة، ومنها ما لم يلق لها بال، فقد نزلت لهجات بعضها على أساس من القرب المكاني من البصرة، مثل قبيلة قيس بن أسد^(٤)، كما سيأتي في أثناء الحديث عن سياق الجغرافيا اللغوية.

من ذلك اللغة المتداولة بين العرب، وقد جاءت بها تراكمات كثيرة، في مقدمتها أن الكريم، هي لغة (أكلوني البراغيث)، فلم يغلبوا الجانب الوصفي في التحليل، بل إن استقامة القاعدة عندهم كانت تقتضي أمراً آخر، فقد عدوا الواو وليس اسماً، خارقين بذلك مظهرًا آخر من طبيعة التقعيد النحوي وفلسفته بخله عندهم، فذهبوا إلى أمرين:

١- جعلها اسم، وهو الموضع المشهور لها في الاستعمال.

٢- جعلها حرف دال على الجمع، وهنا توجد إشكالية في طبيعة التقعيد على ما سيأتي بيانه. نعم لا إشكال بين المتخاطبين رغم اختلافهم في طريقة الإصدار

(١) حسان، اللغة بين المعيارية والوصفية، ص ٨٢.

(٢) ديوانه الخيري: المرجع السابق، الصفحة ذاتها.

(٣) فارس، الصحاح، ص ٢٣٦.

(٤) حسان، اللغة بين المعيارية والوصفية، ص ٨٣.

اللغوي في فهم المثالين: يخرج الرجال، ويخرجون الرجال، لكن ارتضى النم
النموذج الذي يعتقدون أنه الأوضح، وهو أفراد الفعل.

ولم تكن هذه الفكرة التي تمخضت عنها أصولهم النحوية منتظمة في الاعتد
بأحادية التقعيد^(١)، فلقد جاء تصنيفهم لبعض الكلمات، مختلفاً من سياق لآخر، ف
الفروق التي نجدها في المثالين: جاء كلا الرجلين، وجاء الرجلان كلاهما، إن تصني
(كلا) مختلف في المثالين، فهي في الأول اسم مقصور، أما في الثاني فملحقة بالم
ولعل سبب ازدواجية يكمن في الاستعمال، فالحكم عليهما في النموذج الأول لهما
التوافق التي يشهدا آخر الكلمة في السياق اللغوي المختلف، نحو: جاء كلا الرجل
ورأيت كلا الرجلين، ومررت بكلا الرجلين.

أما الحكم عليهما في نمط الاستعمال الثاني فلعلة التماثل مع إعراب قسم آخر
الاسم، وهو المثنى، حسب اختلاف السياقات اللغوي أيضاً، نحو قولنا: جاء الرجل
كلاهما، ورأيت الرجلين كليهما، ومررت بالرجلين كليهما. وربما أسهم المكمل الإضافي
الاهتداء إلى تصنيفها، فلقد فرّق النحاة بين المضاف إليه في النمطين التركيبين،
كان اسماً ظاهراً (كلا) اسم مقصور، ألفها مماثلة لألف (فتى) و(مصطفى)، وإذا
المكمل الإضافي ضمير تثنية، فإن ألف (كلا) مماثلة لألف (الرجلان)، أي علامة للتثنية
فصارت القاعدة منعكسة حسب التوضيح الآتي:

أ- المعنى النحوي: النمط الأول:

كلاهما	الرجلان	جاء
وحدتان مضافتان	وحدة تامة	وحدة مشتركة
		النمط الثاني:
الرجلين	كلا	جاء
وحدة متممة	وحدة ناقصة	وحدة مشتركة
		ب- الأثر الإعرابي:

الرجلان.....كلاهما
إعراب المثنى

جاء

(١) ربما يرجع ذلك إلى ما يعتقد بعض المعدين من أن النحاة العرب استعملوا الاتجاه الشكلي في الق
لى حليّ ما، وخصوصاً في مرحلة التأسيس عند سيبويه مثلاً، فكانت أحكامهم معيارية، يفضح ذلك
أشار إليه في باب الاستقامة من الكلام والإحالة: إذ فرّق بين صحة التركيب النحوي في الجملة
دالهما. عبد الهادي بن ظافر، استراتيجيات الخطاب الأصولي، ص ٥.

كلا^(١).....الرجلين إعراب المفعول

(٢ - ٣)

♦ أحادية النمط

عمل الحكمة التي تشكّل الفكر النحوي على أساسها تقوم على تصور لأحادية النمط القاعدي، بحيث تُصاغ الجملة على طريقة واحدة، كأن تكون مرفوعة الفاعل مرفوعة المفعول، ثم يصبح هذا قياساً للتركيب اللغوية الأخرى، وهذا ما نطلق عليه (أحادية النمط)، فلا يجرى الفاعل منصوباً، والمفعول مرفوعاً، فيخالف النحو الذي أتت به العرب^(٢)، ولكن يصحب الإنسان مع أخيه الإنسان قدر الاختلاف، ويؤكد ما يذهب إليه الدكتور سعد مصلوح^(٣) من أمر التوافق والاختلاف في الظاهرة الإنسانية، فالتجانس والتنوع قطبان متجادلان يتجاذبان السلوك البشري. إنسان الذي تشترك فيه أمة من الأمم فيه ما تتفق عليه طائفة، وفيه ما تنفرد به أمة أخرى عن البقية، وهو نتاج عن فعل العوامل الزمانية والمكانية والثقافية الاجتماعية في هذا اللسان، وبما هو مظهر لصراع عوامل الانتماء المجمعة، وعوامل التمايز في أبناء الجماعة اللغوية الواحدة.

لما تحدث التعادلية بين ما يصيب اللهجات العربية وتلك اللغات سابقة الذكر بحيث الوقوع في طبيعة الاتفاق والاختلاف، فإذا اتفقت في بعض الظواهر فإنها لم تكن في بعضها الآخر، وهو ما يتيح الفرصة لخصوصية كل لسان. ومن هذا:

فعل + فاعل + مفعول به

الزبدون عمرًا

مبتدأ + فعل + فاعل + مفعول به

بن هبرئوا عمرًا

والنا:

فعل + فاعل + فاعل + مفعول به

الزبدون عمرًا

لم يقل أحد حسب اعتقادي بأن (كلا) هنا مثنى جاء على لغة من يلزمه الألف، ولم يقل أحد كذلك الألف قلبت ياءً في حال إلحاقه بالمتنق

والخرج عن هذه الأحادية وجد وصلًا عند النحاة بالمشذوذ، ولم يقل من فوائده، منها إتاحة الفرصة للبحث في مجال الاستعمال اللغوي، والتنبيه على الأصل، وللتخفيف، وللكثرة الاستعمال، فنحن عند البحث، ظاهرة المشذوذ في النحو العربي، ص ٤٨ (٥٢).

سعد مصلوح، في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية، ص ١٥٥.

فلا يكاد يُتصوّر تحققه لوجود فاعلين في الجملة، فيصبح من الشاذ الذي لا يقام عليه، أما قولنا:

قامت فاطمة (فعل + حرف للتأنيث + فاعل)

فلا إشكال فيه، فالتاء حرف دالٌّ على التأنيث ومشعر به، وكذلك قولنا:

قامت الرجال (فعل + حرف للتأنيث + فاعل)

فإذا كان النمط الأخير جائزاً فالن تاء ليست من جنس الاسم، أما النمط التركيبي: قاموا الرجال، أو ضربوا الزيدون عمراً، فإنه غير جائز قياساً، وإن ورد سماعاً عن العرب، ومع هذه الأزدواجية تنبعث الحكمة في تطور بعض الشواذ عن أصل تركيبية، تنتمي إلى ما يُعرف بالقواعد العامة *Universal Grammar* عند نعير تشومسكي *Noam Chomsky*، ولكنها لا تخص اللغة الإنسانية، بل تنحدر وتقل مع لتشمل تلك القواعد العامة في اللغة مع المتغير اللهجي في محيطها، وتصيح القواعد العامة هي الركيزة المشتركة بين اللهجات من ناحية وبينها جميعاً وبين الفصحى من ناحية ثانية، أما الأشكال الخاصة بلغة من اللغات أو بلهجة من اللهجات في المتغيرات التي تختلف من لغة إلى أخرى.

(٢ - ٤)

❖ المخالفة التداولية:

إن طبيعة الشواذ مخالفة الشائع في الواقع اللغوي، أو المستعمل من الخطأ وإن كان لا يُنكر عليها صفة التداولية كما سبق، وإنما حُكِم عليها بالشذوذ لمخال الأصل، وهو المتفق عليه عند النحاة، وبالتالي مخالفة شروط القاعدة، وتأتي اللغوية النقدية للنحاة إلى جواز ذلك فيما هو مروري ومنقول، ومعنى جوازه هو استقامته اعترافهم بصحته، لكن يحظر معاودة استعماله، أو لا تعد معاودة محاكاته من المعقول ومن هذا النحو: إلزام المثني ألفاً في جميع أحواله: فالمثنى صيغة مشتركة في معالجة علم النحو العربي مع الصرف، كلٌّ حسب اختصاصه، فهو صيغة صلبة تدخلها مورفيمات الإعراب في نهايتها، فتتغير صورتها، تُرْفَع حينئذٍ بالألف في الرفع، وتُنصَب وتُجَرّ بالياء في حالتي النصب والجر، ومن الشاذ قول الراجز:

إِنَّ أَتْسَاهَا وَأَبْسَاهَا أَتْسَاهَا
فَدُ بَلَّغَا فِي الْمُجْبِرِ غَايَتَاهَا^(١)

وفوله أيضاً:

وَأَهَا لِسْنِي ثُمَّ وَأَهَا وَأَهَا

يَا لَيْسَتْ لِي قَاهَا ولسي عيناها^(٢)

لقد نقل ذلك الشعر عن العرب، ويتضح فيه استعمالهم للمثنى بإلزامه الألف في جميع أحواله وإعرابه إعراب الاسم المقصور، أي بالحركات المقدرة على آخره، ورغم هذه اللغة قليلة إلا أنها منقولة عن العرب.

رومناه أيضاً زيادة (من) في الكلام الموجب^(٣)؛ يذهب البصريون إلى أن (من) لا تزداد الإيجاب، ولكن تزداد في حيز النفي، ومجرورها نكرة، نحو: ما جاءني من أحد، غير أن فبين أوردوا قول العرب: (قد كان من مطر)، وعليه فزيادتها واضحة في هذا المثال، فبدل الأخفض على جواز زيادتها في الإيجاب بقوله تعالى: (يَغْفِرْ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ رَبُّكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ)^(٤)، فلو أن (من) أصلية لأدت معنى التبعيض، الذي تخالفه حسب رؤية الأخفض في قوله تعالى: (إِنَّ أَلَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)^(٥)

إن الذي احتج به الكوفيون على زيادة (من) يتضح في المثال: (قد كان من مطر)، بعينه زيادتها، أما في الآية الكريمة فلا يخلو أمر الدلالة فيها من تأويل، حسب لغة للسياق اللغوي، أما القول في (قد كان من مطر) فإنه جاء تعبيراً محفوظاً من أولهجة، وظلّ متداولاً على السنة المتحدثين، وهذا يعني أنه فقد الشهرة والانتشار، لغة المشتركة، فلا يقال: جاء من أحد، ولكن بقيت هذه الآثار، وإن كانت قليلة، من الشائع.

^(١) هذا الخلف في نصبته، فهو لروية في ملحق ديوانه ١٦٨، وله أول أبي النجم في: المعاني، المقاصد الروية، ج ١، ص ١٣٣، وله أول رجل من بني الحارث في: اليفدادي، خزنة الأدب، ج ٧، ص ٤٥٥، وهذا ما شاهد على لغة القصر في الأسماء الستة، وشاهد أيضاً على إلزام المثنى الألف في حالة النصب، لغة.

^(٢) هذا يثبت لروية في ملحق ديوانه ١٦٨، وله أول أبي النجم في: المعاني، المقاصد التحوية، ج ١، ص ١٢٢، وهو في تفصيل ذلك: أبو الفداء، الكنز في النحو والصرف، ج ٢، ص ٧٢.

^(٣) لغة الأحقاف ٣١.

^(٤) لغة الزمر ٥٢.

❖ خصائص السياق

السياق (Context) هو مجموعة الظروف التي تحفُّ فعل التلْفُظ^(١)، فعناصر لغوية وغير لغوية^(٢)، أما التسييق فهو ربط الكلام (الملفوظات) بسياق النص، فاللغة ليست حسابًا منطقيًا دقيقًا، لكل كلمة معنى محدد، ولكل جملة معنى محدد كذلك لكن الكلمة الواحدة تتعدد معانيها بتعدد استخداماتها في الحياة اليومية، وتتعدد معاني الجملة الواحدة حسب السياق الذي تُذكر فيه^(٣). وتُسمى العناصر اللغوية أيضًا بالسياق اللغوي^(٤)، وغير اللغوية تتصل بسياق التلْفُظ أو سياق الحال أو سياق الموقف^(٥)، ويمثل أبعادًا كثيرة، والنظرة إليه لا بد أن تكون من جهات متعددة، تتنوع من النص، وتنطلق من ملايسات القول والبيئة والثقافة وخصوصية المتكلم، حتى تصل إلى مواضعها من كتب النحو واللغة، حيث يتولد سياق آخر، هو سياق منبثق عن التلقي، ولا يغيب عنه أمر الرؤاة وظروف الشارحين وأحوالهم، ويشمل السياق ظروف الحاضرين من المستقبلين لكلام النحاة وشروحهم والواقع الثقافي وغيره مما يؤثر في صياغة المفاهيم وبلورة أهداف النص.

إن النص يرتبط مع الكائنات الخارجية بواسطة الإنسان بوصف الأخير به ومستقبلًا، كما يتصل بالظروف الاجتماعية والتاريخية، فالإنتاج الفكري يرتبط بأنشطة الإنسان العلمية والاقتصادية^(٦)، ولا يخفى علينا أن بعض النصوص اعتمدها النحاة على أنها شواهد أو أمثلة تقوم مقامها قد يكتنفها في الجهل بالسياق الأصلي، فبعضها يتصل بفترات زمنية قديمة في تاريخ العربية وبعضها مجهول المخرج فهو من قبيل اللهجات، وغاب عن بعضها الإمام الحقيقي بالسياق الأصلي، أو في سياقٍ غيره لا يتوافق حتمًا مع السياق الأول، ولا ندري شيئًا عن حال التلْفُظ في الإصدار، وهذا يمثل نقصًا في المعلومات عن النص للتمكن من تفسيره بشكل تام. كل هذا يشير إلى أننا نقف على نصوص لها طبيعتها الخاصة، فهي ليست لحظة، وإنما هي متباعدة في مجاهل التاريخ، مغمورة في سياقات كثيرة عبر

(١) عبد الهادي بن ظافر، استراتيجيات الخطاب الأصولي، ص ٤١.

(٢) ردة الله الطلحي، دلالة السياق، ص ٥٦.

(٣) إدريس مقبول، الأسس الإيمولوجية والتداولية للنظر التحوي عند سيبويه، ص ٣٠٩.

(٤) ويشترط فيه أن تتنظم فيه وحدات النص وعناصره، وتتصل بواسطته الجملة فيما بينها، وتترابط بينة لغوية وتداولية، ولا تكاد نتوصل إلى معنى كلمة إلا من خلاله.

(٥) عبد الهادي بن ظافر، استراتيجيات الخطاب الأصولي، ص ٤٠.

(٦) توفيق الزبيدي، أفر اللسانيات في النقد الأدبي، ص ١٤٤.

شفافة بين كثيرين من المرددین لها، وأما قائلوها فأحياناً غير معروفين. فعلى سبيل المثال حكاية المضارع واسم الفاعل من (عمى) يقال: عمى يعمى فهو عاس، وحكاية المضارع كذلك من (طفق يطفق)^(١)، فهذه اللغات تعود إلى اللغة القديمة. ولكن انتابها النحر والنسيان، فما عادت توجد في النصوص المروية، وعدت تلك البقايا شاذة في كتابها.

إن أمر السياق يرتبط بمعرفة المستوى اللغوي للمستكم وقدرته على التمثيل بمعنى لأفراد جماعته اللغوية، كما يتصل بالكيانات اللغوية، التي تختلف عن إيقاظها بعض الشيء، كما يتصل بخصائص العلاقات الداخلية في النص، نحو إهمال العامل، والإضطراب الإعرابي، وطبيعة النص الشعري بما يفرضه على الشاعر من وقافية.

وقد اخترنا أن نوضح السياق وفق قسميه الداخلي والخارجي:

(٣ - ١)

❖ الأول: السياق الداخلي:

❖ سياق إهمال العامل:

إعراب أثرٍ يجلبه العامل، وإن كان - وحده - كما يقول الدكتور أحمد قنور^(٢) - لا يبين على تبيان المعنى النحوي، فإن النحاة لم يقصدوا في البداية أنه عامل حقيقي بل على المعمولات، وإنما قصدوا أنه عامل افتراضي، يفسر التغيير الحاصل في تلك أواخر الكلمات، فالعوامل كما يرى الأنباري^(٣) ليست مؤثرة حسية كالإحراق والإغراق للماء، والقطع للسيف، وإنما هي أمارات ودلالات، وإذا كانت العوامل تدلّ الإجماع إما أمارات ودلالات فالأمانة والدلالة تكون بعدم الشيء، كما تكون الشيء، ويصور ذلك بأنه لو كان معك ثوبان وأردت أن تميز أحدهما من الآخر، تركت أحدهما وتركت صبغ الآخر. لكان ترك صبغ أحدهما في التمييز بمنزلة صبغ

والن عقل، ج ١، ص ٣١٣.

محمد قنور، مبادئ اللسانيات، ص ٢٣١، ٢٣٢.

الأنباري، الإتصاف في مسائل الخلاف، ص ٤٢.

إنَّ بعضَ العلاقات بين ألفاظ التراكيب أصابها إهمال العامل، ووُجِدَتْ بعد الشواذ تخالف قوانين الإعراب^(١). والتزمت إهمال العوامل المحفوظة، وهو ما ارتضى أن نسميه (سياق الإهمال)^(٢). ومن أمثلة ذلك: إسكان آخر المعرب المتحرك: نحو قمر حمزة لقوله تعالى: (وَمَكَّرَ السَّيِّئُ وَلَا يَجِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَفْلِهِ)^(٣)، بإسكان الهمزة في (السَّيِّئِ). وكان حقه أن يكون بكسرهما، ويبدو أنه تخفف من الكسرة. ولكن في السياق محدود، فهناك إعراب واقع على الكلمات الأخرى التي هي من تمام الآية. وفي إهمال الجازم (إذا دخل على المضارع الناقص): نحو قول الشاعر:

هَجَوْتُ زُبَانَ نَمِّ جَنَّتْ مَغْتَبِرًا
مِنْ هَجَوْرَتَانِ لَمْ تَهْجُو وَلَمْ تَنْزَا
فقال: لم تهجو، ولم يقل: لم تهج، وهو الأصل. ولكن يُلاحظ أنه قال (ولم تنز) فجزم المضارع الناقص. مما يدل على أنه ليس نظامًا تركيبياً. ولكن الترخيص العلامة الإعرابية يمثل الدافع من وراء عدم الجزم ومثله قول الشاعر:

لَوْلَا قَوَارِمٌ مِنْ ذُهَلٍ وَأَمْرِيهِمْ
يَوْمَ الصُّلَيْفَاءِ لَمْ يُوقُونَ بِالْجَارِ
فقال: لم يوقون. وكان حقه حسب النظام التركيبي السائد أن يقول: لم يوم بجزم الفعل بحذف النون. ومن هذا القبيل قوله تعالى: (إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ رَجُلٌ) سبق أن (إن) هنا من الوجوه أنها مهملة، فهي بمعنى (نعم). ومثله قول الشاعر:

أَنْ تَهْبِطِينَ بِلَادَ قَوْمٍ يَرْتَفُونَ مِنَ الطَّلَاحِ^(٤)

(١) يرى الدكتور عبد الحلام المسدي (مبادئ اللسانيات، ص ١٤٣) أن العربية تعرف في عملية التكوين التركيبي الكلمات العاملة والكلمات المعمولة. وهي تعكس أثر بعضها في بعض في التركيب، فبعض ذلك الدلالة النحوية التداولية، التي لا تكتشف إلا بالقاعدة.

(٢) عثر عنه الدكتور محمد حماسة عبد اللطيف (العلامة الإعرابية، ص ٣٢٦) بالتخصيص في اللغة الإعرابية، فذهب إلى أن النظام اللغوي يسمح ببعض الترخيص في القرائن التي تعمل متعاونة على تماسك الجملة، على أن هذا الترخيص نفسه جزء من النظام اللغوي يسمح به في الوضع المعين غرض مخصوص، ومعنى هذا أنه لم يحدث عبثاً أو تلاعباً، لكنه يُؤثّر به عن قصد وتعمد بهدف أثر معين، ولما كان النحاة لا تمنعهم إلا القواعد فقد شغلوا بها نون تبين ما ترمي إليه هذه الترخيص (٢) سورة فاطر ٤٣. فقد قرأ حمزة والأعمش (ومكر السبي) بإسكان الهمز. ابن مجاهد، المسند القراءات، ص ٥٢٥.

(٤) البيت لأبي عمرو بن العلاء، وهو في: ابن يعيش، شرح المفصل، ج ١٠، ص ٤٠٤. والفارسي، الشعر، ج ١، ص ١٠٤.

(٥) البيت بدون نسبة في: العيني، المقاصد النحوية، ج ٤، ص ٤٤٦.

(٦) سورة طه: ٦٣.

(٧) البيت للفاسم بن معن في: العيني، المقاصد النحوية، ج ٢، ص ٢٧٩. وقبل (إن) أهملت هنا

يقال: أن تهبطين، والقياس: أن تهبطي، بحذف النون للنصب.

◆ سياق الاضطراب

قد يكون العامل مؤثراً لكنه غير ثابت في جلب ذلك الأثر على معموله، فيُوصَف اضطراب؛ لعدم جريانه على حالة واحدة، ولكنه يؤدي أكثر من عمل أو تكون له من وظيفة نحوية، حسب سياقها اللغوي، وهذا يُطلق عليه باضطراب العامل، أو في الاضطراب، ومن العوامل التي تُوصَف بذلك (لات)، فقد قيل عنها إنها حرف (ليس)، ولا أظن أن عملها من قبيل الظاهرة الإعرابية بقدر ما يرجع إلى قراءة للمعنى وقصديته، في دلالتها على النفي، فكان بإمكانهم أن يقولوا في (حين) في (عال): (ولات حين مناصي)^(١) أنه منصوب على الظرفية، إلا أنهم ذهبوا إلى كونها شبهة، وتختص بالدخول على الوقت أو الحين اسماً وخبراً، مع حذف أحدهما بحذف الأول.

لم جاءت (لات) في الشعر ولا تحتفظ بهذه القيود، نحو قول الشاعر:

سَبَّ نَوَازُ وِلاَتِ هُنَّا حُتَّتِ وبدا الَّذي كالتَّ نَوَازُ أَجَّتِ^(٢)

التي جعل النحاة (هنا) بمعنى (حين) وهذا من أجل دخول (لات) عليها، وهي في (المكان)^(٣)، والدافع لهذا التوجيه هو احتفاظ (لات) بالدخول على الحين، فأولوا للمكان ليكون للزمان، وهو (هنا).

في ذلك مجيء بعض الكلمات منفاية في التصنيف حسب زعم النحاة، مثل (المشهور) عنها أنها حرف تشبيه وجزء، إلا أنها تعيء اسماً، كما في قول الأعشى:

نَوْنٌ وَلاَ نُنْ يَنْهَى ذَوِي شَطَطٍ كَالطُّغْنِ يَذْهَبُ فِيهِ الرِّثْبُ وَالْفُتْلُ^(٤)

الكاف اسم مرفوع على الفاعلية، وفعله هو (ينهى)، والتقدير: ولن ينهى ذوي

(١) المصدرية، وقيل إنها مخففة من الثقيلة، والأصل: أنك تهبطين، فخففها وحذف اسمها.
ص: ٢.

(٢) فيه اختلاف في النسبة فهو لخبيل بن نضلة في: ابن فتيبة، الشعر والشعراء، ج ١، ص ٩٥، ابن جعيل في: الأمدى، المؤلف والمختلف، ص ١١٥.

(٣) النحاة بهذا البيت على شيتين: الأولى أن (هنا) يُشَارُ بها إلى الزمان، والأصل أنها للمكان، والثاني أن (هنا) في (هنا)، وقيل إن (لات) غير عاملة.

(٤) شرح الخوازمي، شرح أبيات المفصل، ج ١، ص ٤٦٢.

ص: ٤٥٣.

(٥) النحاة بهذا البيت على شيتين: الأولى أن (هنا) يُشَارُ بها إلى الزمان، والأصل أنها للمكان، والثاني أن (هنا) في (هنا)، وقيل إن (لات) غير عاملة.

شطط مثل الطعن.

وتكثر في المؤلفات النحوية هذه الظاهرة، فيكون للعامل أكثر من سياق، ولا من أن يكون أحدهما أكثر شهرة من الآخر. ومن ذلك:

العامل	السياق الأول	السياق الثاني
أن	تنصب الفعل المضارع	تجزم الفعل المضارع
لم	تجزم القعل المضارع	تنصب الفعل المضارع
إن	نামسختنصب المبتدأ وترفع الخبر	ينتصب الطرفان بعدها
لعل	تنصب المبتدأ وترفع الخبر	تجر الاسم بعدها
كي	تنصب المضارع	تجر المصدر المؤول
القول بمعنى الظن	فعل متعد	فعل متعد بمفعولين ^(١)
عسى	من أفعال الرجاء	تعمل عمل (لعل) ^(٢)

العوامل السابقة وهي: (أن ولم وإن ولعل وكي وقال) تحتفظ بالقدرة على فيما بعدها، غير أنها تؤدي عملاً بوصف بالازدواجية من سياق لآخر.

ج- سياق التجاذب بين الإعراب والبناء؛

يؤثر الإعراب في توجيه الدلالة النحوية المعروفة بالدلالة الوظيفية، لما يشك قرينة دالة على الموقع والترتبة في التركيب بما يحمله من العلامة الإعرابية، ووجدت مجموعة من الألفاظ التي وقعت تحت طائل جدلية الإعراب والبناء، وإن كان الأصل المحفوظ لها هو الإعراب، وتعرّب وإن كان الأصل المحفوظ لها فهو سياق داخلي للنص^(٣)، ومنه (لذن)، فالمحفوظ لها أنها ظرف ملازم للإضافة.

(١) نحو قول الراجز:

فأنت وكنت زجلاً فطيناً
هكذا لغز الله إسرائيناً

فالمفعول الأول هو (هنا)، والثاني هو (إسرائيناً). العبقي، المقاصد النحوية، ج ٢، ص ٤٢٥.

(٢) وذلك في قول عمران بن حطان.

وئي نضم أقول لها إذا ما
تسبغني لعلني أو غسائي

فقد عامل (عسى) معاملة (لعل) فنصب الاسم، وحذف خبرها، الفارسي، كتاب الشعر، ج ٢، ص ٣٢٥.

(٣) تُصنّف العربية على أنها من اللغات المتصرفة أو التحليلية، ويمتاز هذا القسم بأن كلماتها لا يتغير مباتها، وبأن أجزاء الجملة يتصل بعضها ببعض بروابط مستقلة تدل على العلاقات، عبد الواحد وافي، نشأة اللغة عند الإنسان والطفل، ص ٥٧، ٥٨.

في كقوله تعالى: (وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا)^(١)، لكنه ورد معرباً في رواية أبي بكر عن النبي: (لِيُنْفِرَ بِأَمْرٍ شَدِيدًا مِنْ لَدُنِي)^(٢)، وربما يكون مثله قول الشاعر:

بِرَيْحِ الرِّيحِ الرِّيحُ فِي ظَهْرِ مِثْرِي مِنْ لَدُنِ الظُّنْرِ إِلَى العُصْبِ^(٣)

فيها احتمالان في (لدين): الأول أنها أعربت على لغة قيس، فجُرث بالكسرة، والثاني كسرت لالتقاء الساكنين. ومنه (مخ)، فهي اسم مكان الاصطحاب أو وقته، وهو فيها أنها معربة، ففتحها فتحة إعراب، لكن تتجاوزها حالة أخرى، فتجيء العين، ويرى النحاة أنها حالة بناء، ومنه قول جرير:

بِئْسَ مِنْكُمْ وَقَوَائِي مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَتْ زِيَارَتُكُمْ بِأَمْرًا^(٤)

فمد النحاة مجموعة من الحالات التي يوجد فيها ذلك السياق، نحو (قبل وبعد فتأتي معربة ومبنية حسب السياق).

سياق الضرورة

ما أقر في النظام التركيبي المتداول ما يُسميه النحاة بالضرورة، ولا سيما في الوجد قال بهذا سيبويه، عندما فرّق بين لغة الشعر ولغة النثر، فذكر أنه يجوز أن لا يجوز في النثر^(٥)، وهذا السياق له طبيعته الخاصة التي اضطرت إلى أن يخالف القاعدة المشهورة، وينحويها نحواً آخر، ولقد امتلأت كتب النحاة وألف فيها جمع من النحاة^(٦).

القول بالضرورة في كثير من الأحيان يصيب البحث بالتوقف، وعدم الاجتهاد على أمثلة تركيبية متغايرة، وهو ما يفسر اللغات التي تطورت عنها النماذج

١. الكهف: ٦٥.

٢. الكهف: ٢.

٣. الرجز، لراجز من طه، في العيني، المقاصد النحوية، ج ٣، ص ٤٢٩، وابن جني، الخصائص، ٢٢٥.

٤. من لدين، بكسر نونها، إما عن أنها اسم مجرور ب(من) على لغة قيس، وإما لأنها مبنية على كسرت لالتقاء الساكنين.

٥. جريري ديوانه ٢٢٥، والعيني، المقاصد النحوية، ج ٣، ص ٤٣٢، وللراعي النعيري في ملحق ديوانه سيبويه، الكتاب، ج ٢، ص ٢٨٧.

٦. الكتاب، ج ١، ص ٢٦.

٧. الكتاب: ما يجوز للشاعر في الضرورة، للفرّاز، وقد حققه الدكتور رمضان عبد التواب، وضرائر ابن عصفور.

المعاصرة في الفترة اللغوية المتزامنة مع البحث، نحو قولهم بفك التثنية للضرورة قول الراجز:

كَأَنَّ بَيْنَ خَلْفِهَا وَالْخَلْفِ
كَمُؤْمَةٍ أَفْعَى فَمِي يَبْسِلِي فِي فُسْفٍ^(١)

فلم يقل: بين خَلْفِهَا، وإنما قال: بين خَلْفِهَا وَالْخَلْفِ، بإفراد المتعاطفين، وهذا يدل على أن أصل المثنى العطف بالواو، غير أنه وُضِعَتْ صيغة المثنى للاختصار.

ومثله قول الراجز أيضاً:

لَيْتٌ وَلَيْتٌ فِي مَجَالِ خَلْفِكَ
كَلَامِهِمَا ذُو أَشْرٍ وَمَخْرَجِكَ^(٢)

فلم يقل (الليتان)، وإنما قال: لَيْتٌ وَلَيْتٌ.

ومثله قول الراجز أيضاً:

كَأَنَّ بَيْنَ فِكْهَا وَالْفِكِ
فَارَةٌ مِسْكَ ذِيحَتْ فِي مِسْكَ^(٣)

فالمراد: بين فِكْهَا، لكنه جاء بها على إفراد المتعاطفين ضرورة.

وربما نُعِلُّ الضرورة هنا لنعمد ذكر الفرق بين المتعاطفين، فهما ليسا متطابرا

فالدلت الأول غير الثاني، والفك الأول غير الثاني كذلك، من رؤية الشاعر، فلم يَفَكَّ التثنية.

ومن هذا قول طرفة:

أَضْرَبَ عَنْكَ الْهُمُومَ طَارِقَهَا ضَرَبْتَكَ بِالسُّوْطِ قَوْنَسَ الْفِي

والأصل فيه (أضربن) بنون التوكيد الخفيفة، حُذِفَتْ للضرورة، وبقيت الفتح

وقد تكون طريقة النطق في زمنه بنون خفيفة، لكنها لا تؤثر في الوزن، مما أتاح لنا فرصة التحقق منها.

ومثله ما عبّر عنه النحاة بأقبح الضرورات، في قول العجاج:

(١) رجز بنون تسمية في: ابن الأنباري. أسرار العربية، ص ٤٨.

(٢) الرجز لوائلة بن الأشعث أول جندريين ما لك في: البغدادي، خزنة الأدب، ج ٧، ص ٤٦١.

(٣) الرجز لمنظور بن مراد في: البغدادي، خزنة الأدب، ج ٧، ص ٤٦٢.

(٤) البيت في: فخر الدين الخوارزمي، شرح أبيات المفصل ج ١، ص ٤٣٨، وابن يعيش، شرح المفصل ص ١٠٧.

والشاهد فيه: أضرب، فقد حذف نون التوكيد في الوصل دون ساكن، وهذا نادر.

(٥) وفي جلال الدين السيوطي، شرح شواهد المغني، ج ٢، ص ٩٣٣ أنه مصنوع عند ابن بري.

يُذَرَأُ السَّرَاوُونَ غَيْرَ الْبَطْلِي إِثْكَ يَا مُعَاوِيَا ابْنَ الْأَفْضَلِ^(١)
 لقد جاء (معاوية) مرثعاً مرتين، حسب ما ذكر، فإنه رُجِمَ أولاً فأصبح (معاوي)،
 ثم ثانياً فصار (معاو)، وهذا ضرورة.
 وكان من المفيد أن يعالج هذا وفق سياقه وما نجم عنه من دلالة قد تفيد.

❖ الثاني: السياق الخارجي؛

(٢ - ٣)

❖ الخصوصية اللهجية؛

لاحظ كما سبق أن الشواذ تحمل خصائص لهجية، وقد أشار النحاة إلى ذلك،
 بما يستقى بالقباب اللهجات^(٢)، وإن غلبت على قضايا الأصوات والصرف، وقليل
 في النحو مثل (ما) الحجازية و(ما) التميمية.
 من أمثلة ذلك في التركيب: مجيء (الذون) في حال الرفع بالواو والنون، أما اللفظة
 بولاء بين العرب للاسم الموصول لجمع المذكر فهي صيغة (الذين)، وهو مبني على
 آخره، إلا أن هناك لغة نادرة جاءت عن قبيلة هذيل، وهي (الذون) في قول

نَحْنُ الذُّونُ صَبَّحُوا الصُّبْحَا
 يَوْمَ النَّخِيلِ غَارَةً مَلْخَاخَا^(٣)

عن آراء النحويين في الكلمة فمتعددة، فهي مرفوعة على أنها معرفة إعراب جمع
 السالم، وهي ليست جمع مذكر سالم على وجه الحقيقة، وهي أيضاً مبنية
 على صورة المعرب، وقيل إنها مبنية على الواو والياء.
 ومن ذلك قول الشاعر:

^(١) كان في ديوانه ١ / ٢٥٦، وسبويه، الكتاب، ج ٢، ص ٢٥٠، والبغدادي، خزنة الأدب، ج ٢، ص ٣٧٨.
^(٢) الكشكشة والششنة والكسكسة والمعننة والمخفخة والعجمجة والعجربة والمغممة والتلتة
 أحمد علم الدين الجندي، اللهجات العربية في التراث، ص ٢٥٩ (٤١٦).
^(٣) المقاصد النحوية، ج ١، ص ٤٢٦، والبغدادي، خزنة الأدب، ج ٦، ص ٢٣. وقد اختلف في
 لقب قبيل له رجل جاهلي من بني عقيل، اسمه أبو حرب الأعلم، وقيل إنها لبلى الأخيلية، وقيل إنه
 إل آخر ذلك من اضطراب نسبة البيت.

عَزَفَتْ عَلَى إِقَامَةِ ذِي صَبَاحٍ لَأَمْرٍ مَا يُتَوَدُّ مَنْ يَسْهُو
 (فذا) في قوله (ذي الصباح) من الظروف اللازمة غير المتمكنة، ولا يجوز جزؤها
 في لغة قوم من خُتَم. ومن ذلك قول جديمة الأبرش:

رَمَمَا أَوْفَيْتُ فِي عَلِيمٍ تَزَقْفُنُ تَوْبِي شَمَالًا

يأتي هذا البيت شاهدًا على توكيد الفعل بالنون الخفيفة (ترفعن) ضرورة،
 (ما) المسبوقة بـ(زُب)، وهذا نادرٌ، وذهب الشيخ محمود شاكر في تحقيقه لطبق
 فحول الشعراء^(١) في تعليقه على هذا البيت إلى أنها لغة قديمة، لم يجلبها اضطرارٌ
 ومن أمثلة ذلك أيضًا هذه اللغات:

اسم الظاهرة	اللهجة
إسكان أواخر الكلمات بإسقاط العلامة الإعرابية	لغة لبني تميم وعلى وفاقها جاءت أحسن من قراءة أبي عمرو بن العلاء ^(٤)
إلزام المثني الألف	لغة بني الحارث بن كعب ^(٥)
نصب اسم (إن) وخبرها	لغة لبعض العرب ^(٦)
عدم جزم المضارع المعتل بحذف حرف العلة	لغة طيئ وبعض بني عيس وبعض حنيفة ^(٧)
(ما) الحجازية والتميمية	لغة الحجاز وبني تميم ^(٨)
جزم المضارع المعتل في غير موضع الجزم	لهجة هذيل ^(٩)
جزم الفعل الصحيح الآخر في غير موضع الجزم	لغة بني عيس وبني ضبة ^(١٠)

(١) البيت لأتس بن مدركة الخثعمي في: فخر الدين الخوارزمي، شرح أبيات المفصل، ج ١، والبغدادي، خزنة الأدب، ج ٣، ص ٨٧. ونسب إلى أنس بن نهبك في: ابن منظور، اللسان (٥) ص ٥٠٣.

(٢) الفارسي، كتاب الشعر، ج ٢، ص ٣٩٢، وسيبويه، الكتاب، ج ٣، ص ٥١٨.

(٣) ابن سلام الجمعي، طبقات فحول الشعراء، ج ١، ص ٢٨.

(٤) محمد حماسة عبد اللطيف، العلامة الإعرابية، ص ٣٤٨.

(٥) المرجع السابق، ص ٣٤٧.

(٦) المرجع السابق، الصفحة نفسها. وقد خرج أبو حيان قراءة سعيد بن جبهر: (إنَّ اللَّيْلَ تَدْعُ اللَّيْلُ عِيَادًا أَقْتَالَكُمْ) سورة الأعراف: ١٩٤. وانظر: أبو حيان، البحر المحیط، ج ٤، ص ٤٤٤.

(٧) محمد حماسة عبد اللطيف، العلامة الإعرابية، ص ٣٤٨.

(٨) سيبويه، الكتاب، ج ١، ص ٢٨.

(٩) الزمخشري، الكشاف، ج ٢، ص ٢٣٥.

(١٠) الفراء، معاني القرآن، ج ١، ص ١٦١.

لهجاء (لندن)	لهجة قيس ^(١)
لهجاء (أز)	لهجة بني صباح من ضبية ^(٢)
لهجاء (لوم)	لهجة قوم ^(٣)
لهجاء (لم)	بعض العرب ^(٤)
لهجاء نون المثني	لهجة عن العرب ^(٥)
لهجاء تنصب المبتدأ والخبر	لهجة لبعض العرب ^(٦)
لهجاء نون المثني من (اللذان)	عند بعض ربيعة وبلجارت ^(٧)
لهجاء نون المثني وضمتها	لهجة عن العرب ^(٨)
لهجاء حرف جر	لهجة عقيل ^(٩)
لهجاء ألف المقصور ياء في حال الإضافة	لهجة هذيل ^(١٠)
لهجاء ما بعدها	لهجة هذيل ^(١١)
لهجاء (م)	لهجة ربيعة ^(١٢)
لهجاء (لندن)	لهجة (قيس) ^(١٣)
لهجاء (أنا) في الوصل كما في الوقف	لهجة بني تميم ^(١٤)

شرح ابن عقيل، ج ٢، ص ٦٥. وهناك قراءة موافقة للفتح، وهي قراءة أبي بكر عن عاصم: (قَبَيْمًا) نَسًا شَيْهِيًا مِنْ نَذِيهِ) سورة الكهف: ٢، بكسر نون (لندن) وهي رواية أبي بكر. انظر: الواسطي، القراءات العشر، ج ٢، ص ٥٤٣.

بمماصة عبد اللطيف، العلامة الإعرابية، ص ٣٤٨.

السبيل، والصفحة نفسها.

السابق، والصفحة نفسها وعليها جاءت قراءة أبي جعفر المنصور: (ألم نشرح لك صدرك)، انظر: المعتمد، ج ٢، ص ٣٦٦.

شرح ابن عقيل، ج ١، ص ٧٠.

القول مأخوذ من رواية أبيه العجاج:

بما أنت أئام الصبأ رواجعنا

شرح المفصل، ج ١، ص ١٠٤.

خزانة الأدب، ج ٦، ص ١٤.

شرح المفصل، ج ٣، ص ١٢٩، ج ٤، ص ٦٤. والبغدادي، خزانة الأدب، ج ٧، ص ١٠٤.

ابن عقيل، ج ٢، ص ٨.

الخوازمي، شرح أبيات المفصل، ج ١، ص ٥٠٢ (٥٠٤).

ابن عقيل ج ٢، ص ١٠.

ابن عقيل ج ٢، ص ٦٧.

ابن عقيل ج ٢، ص ٦٥.

إجراء الوقف مجرى الوصل

لغة بعض العرب^(١)

الجغرافيا اللغوية

يرى بعض الباحثين أن الجغرافيا اللغوية لم تُعرف بشكل دقيق في تراثنا اللغوي^(٢)، معتمداً على أنه لم تفرد لها دراسة، ولكن في الحقيقة توجد إشارات واضحة ترجّح معرفتهم بأثر المكان في الخصائص اللغوية، ولقد كانت هناك إشارات للبعد المكاني من خلال الألقاب التي كانوا يطلقونها خاصة على الشعراء^(٣)، وكذلك في منهجهم في الاستشهاد بالنثر.

وفي العصر الحديث أُطلق على مجموعة النقاط السكانية أو الجماعات التي يجمعها عدد من ظواهر الاستعمال اللغوي الموحد بينها والمأثر عن غيرها الكيان اللغوي^(٤)، التي تحدّ كلاً منها حدود حسب ما يعرف بنقاط الجذب التوزيبي، أو الحزب التوزيبي^(٥).

ويؤكد جان روسو على أثر الجغرافيا في اللغة الفرنسية فيقول: (لغات الجنوبين بدّ أنها كانت حيةً ورنانةً ونابرةً وبلغيةً وكثيرة الغموض من قرط مكانتها، أما لغات الشمال فلا بدّ أنها كانت صماءً خشنّة مقطعة وحادة ورتيبة وواضحة من قرط).

(١) كما في قول أبي النجم:

أنا أبو النجم وبخفري وبخفري

انظر: البغدادي، خزنة الأدب، ج ١، ص ٤٣٩.

(٢) نحو قول أبي النجم:

والله نجّاك بكفسي مُسلمت

من بعيدا وبفسديما وبخديت

كانت تُظوم القوم عند القلصنت

وكادت الحُرّة أن تُسغى أمث

انظر: ابن منظور، اللسان (ما)، ج ١٥، ص ٤٧٢، والمعني، المقاصد النحوية، ج ٤، ص ٥٥٩.

(٣) سعد مصلوح، في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية، ص ١٧٣.

(٤) نحو: الأحنف بن قيس، والأحول الأزدي أو الكندي، وابن أحمر الكتاني، والأخضر بن هبيرة القزويني، وأعشى قيس، وأعشى باهلة، ومجموعة الشعراء البدويين... وغيرهم.

(٥) سعد مصلوح، في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية، ص ١٧٣.

(٦) ويذكر الدكتور سعد مصلوح (في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية ١٦٤، ١٦٥) مناطق الكيان اللغوية على النحو التالي: المنطقة المركزية: وتبدو متجانسة نسبياً من حيث السلوك اللغوي، والمناطق الانتقالية: تتميز بزيادة درجة التنوع اللغوي، والجزر اللغوية: وهي مناطق معزولة لغوياً عنها حولها، باستعمال لغوي يخالف سائر النقاط المحيطة. ومنطقة المخلفات اللغوية: وهي نوع من الجزر اللغوية إلا أنها تختلف عن الجزر الأخرى بأن الظاهرة الاستعمالية التي تميزها تنتهي إلى مراحل زمنية متأخرة من تاريخ اللغة.

لها من الكلمات لا من حمن تركيبها))^(١)

ولقد كانت الخريطة عند اللغويين القدماء في الاعتداد بالاستشهاد بالنثر، وقد تجلّت في تقسيمهم للقبائل على أسام جغرافيا اللغة، فعندما تقترب القبيلة من فريش فيعتدّ بكلامها، وكلما اقتربت من العجم قلت فصاحتها، وفي ذلك يشير السهولي^(٢) إلى أنه لا تؤخذ اللغة عن حضريّ قط، ولا عن سكان البوادي مقن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين هم حولهم، فإنه لم يؤخذ عن لخم ولا عن جذام لمجاورتهم أهل مصر والقيط، ولا من قضاة وغسان وإياد لمجاورتهم أهل الشام، وأكثرهم نصاري يقرأون بالعبرية، ولا من تغلب واليمن، فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان، ولا من بكر لمجاورتهم القبط والفرس، ولا من أهل اليمن لخالطهم للهند والحبشة، ولا من بني حنيفة وسكان الهمامة، ولا من ثقيف وأهل الطائف لمخالطتهم تجار اليمن المقيمين عندهم، ولا من حاضرة الحجاز؛ لأن الذين ملأوا اللغة صادقوهم حين ابتدأوا ينقلون لغة العرب، وقد خالطهم غيرهم من الأمم، استمدت ألسنتهم.

الخبر السابق يدلنا على أن البعد الجغرافي كان مهماً في قبول اللغة أو رفضها من قبل اللغويين، كما يدل على معرفتهم بخريطة القبائل العربية.

ومن ذلك قول أحد أهل اليمن أورؤية:

فَلُصِصَ رَاكِبٌ تَرَاهَا طَاوُوا عَلاهُنَّ فَطَرَّعَ غَلاهَا^(٣)

فقال (علاهُنَّ) و(علاها)، والقياس: عليهنّ وعليها، ولكن لغة أهل اليمن تقلب الياء ساكنة المفتوح ما قبلها ألفاً^(٤)، وهذا الرجز من كلامهم.

وهناك لغات كثيرة تُصنّف تصنيفاً (قليماً، نحو (ما) الحجازية و(ما) التميمية وغيرها.

❖ سياق الموقف

يتلخص سياق الموقف في ربط الألفاظ بالحدث أو بالواقعة قبل أو في أثناء الاستشهاد، ويشمل كذلك الألفاظ التي تُذكر خلال التفوّه بالشاهد، من خلال سرد

^(١) ان جاك روسو، محاولة في أصل اللغات، ص ٧٠.

^(٢) السهولي، المزهري، ج ١، ص ٢١١، ٢١٢.

^(٣) حسب الرجز إلى أحد أهل اليمن في العيني، المقاصد النحوية، ج ١، ص ١٢٣، ولرؤية في ملحق ديوانه.

^(٤) يذوّان (عربي) تمثل إشكالية في التصنيف، فهي موزعة بين الحرفية والقلمية والاسمية، ولغة اليمن تختلف بين كونها فعلاً وحرفاً، فصورتها الحرفية هنا هي صورة الفعل.

فصية أو حادثة ترتبط بموضوع النص، فذلك يجعل القارئ متفاعلاً مع قصد المتكلم الذي عليه حال المتلفظ بالكلام، وهذا له في كتب النحو وقفة مطولة، خاصة كتب الشواهد وشروحاتها، فإنه يُختار ذكر الموقف للحاجة الإعرابية وتوضيح وجهه النحوي وشرح ما ينطوي عليه من دلالة.

ومن سياق الموقف ما اشتهر عن ثقة الراوية، فإنه يمثل موقفاً يُبين عن سلام الأخذ به من عدمه فقد اشتهر رواة أهل الكوفة في وضع الشعر، ولعله كان سبباً في إشكال موقفاً مضاداً للثقات من روايتهم، فصرف الناس إلى عدم الاعتداد بما يروونه يستدلون به، فصار هذا ونحوه كالمعدم، فالشعر الذي جاء من ناحية حماد الراوية وخلف الأحمر مشكوك فيه عند أهل البصرة، وقد أشار ابن سلام الجمحي^(١) إلى حماد من وضع الشعر، فهو عنده أول من جمع أشعار العرب، ونسبها إلى أصحابها، ويزيد في الأشعار، ويقول يونس^(٢): العجب لمن يأخذ عن حماد، وكان يلج ويكذب ويكسر.

ويورد ابن جني^(٣) سياقاً يُبين فيه عن ثقة أبي عمرو بن العلاء، فيذكر أنه لم يبق في شعر العرب إلا بيتاً واحداً، وهو ما يرويه منسوطاً للأعشى:

وأنكرتني وما كان الذي تكبرت من الحوادث إلا الشئب والصلم

ويعلق ابن جني على الخبر بقوله: (أهلا ترى إلى هذا البدر الطالع الباهر والبر الزاخر، الذي هو أبو العلماء وكهفهم، وبدء الرواة وسبقهم، كيف تخلصه من تيق هذا العلم وتحرجه ونراجعه فيه... حتى إنه لما زاد فيه على سعته وانبتاقه وتراو وانتشاره بيتاً واحداً وفقه الله للاعتراف به)^(٤).

ولقد اشتهر عن أبي علي الفارسي^(٥) الاستشهاد بشعر المولدين في النحو، وحج عبد القاهر الجرجاني جهده أن ينفي عنه هذه التهمة، إلا أن محاولته لم تلق نفع لاشتهاره بذلك.

ونحو ذلك بيت الفرزدق:

فَلَوْ كَانَ عَبْدُ اللَّهِ مَوْلَى هَجْوَيْهِ وَلَكِنْ عَبْدُ اللَّهِ مَوْلَى مَوْلَى مَوْلَيْهِ

(١) ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، ج ١، ص ٤٨.

(٢) الميوسني، المزهر، ج ١، ص ١٧٦.

(٣) ابن جني، الخصائص، ج ٣، ص ٣١٠.

(٤) ابن جني، الخصائص، ج ٣، ص ٣١٠.

(٥) ابن جني، الخصائص، ج ٣، ص ٣١٠.

(٦) انظر هذا الخبر في مقدمة كتاب الشعر، ج ١، ص ٧٤.

(٧) انظر: سيبويه، الكتاب، ج ٢، ص ٣١٢، وابن عيني، شرح المفصل، ج ١، ص ٦٤. وهذا البيت

فهناك قصة لهذا البيت يرويها النحاة واللغويون، وهي أن عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي كان يترصد بالفرزدق في شعره، مظهرًا ما فيه من أخطاء، فكان ذلك البيت من الفرزدق يهجوه فيه، وما لبث أن قال له عبد الله بن أبي إسحاق: وفي ذلك لحنت هنا، وكان حُكُّك أن تقول: مولى موالٍ، فهي قصة مشهورة، تمثل سياقًا لذلك وفن.

ومن القصص التي تُحكى عن حال الرواة من حيث الضبط ما قصَّ من نبال ميمي في زيارته لولد سعيد بن سلم الباهلي، فسألهم عما يروونه من الشعر، أشده بعضهم القصيدة التي فيها:

سمن الضواحي لم تُؤزَّفه ليلة
وانعم أبكسار الهموم وعونها^(١)
فقال الأصمعي: من رَوَاك هذا الشعر؟ قال: مؤدَّب لنا يُعرِّف بآبن الأعرابي، فقال: حضروه، فأحضروه، فقال له: هكذا رَوَيْتَهم هذا البيت برفع (ليلة)؟ قال: نعم، آل الأصمعي: خطأ، وإنما الرواية (ليلة) بالنصب^(٢).

إن القصص التي كانت تتردد بين النحاة عن أمراءهم مثلت وقائع لغوية، بُني أساسها مبدأ تواصل ميثوق به مع روايته، وربما كان نتاجها الخلافات المذهبية كرهة بين قادة الفكر النحوي، من بصرة وكوفة وغيرهم.

- لما سبق نستطيع الإشارة بإيجاز إلى أهم ما يمكن استخلاصه من محاور البحث:
- إن الأدوات التي ينبغي أن يمتلكها محلل النصوص لا بد أن تمتاز بما يُعرف بالكفاءة التداولية، وهي مجموعة من خمس ملكات؛ هي: اللغوية والمنطقية المعرفية والإدراكية والاجتماعية.
 - لا بد من دراسة اللغة، مفرداتها وتراكيبها، دراسة تاريخية، رغم صعوبة ذلك، وذلك من خلال النظر في شواهدا وأمثلة ونماذجها التي تكثر في كتب النحو واللفظ.
 - السياق له دور كبير في فهم ظاهرة الشواذ، بردها إلى المستوى الاستعمالي ودراستها في هذا الإطار، يستوي في ذلك سياق النص الداخلي، وسياقه الخارجي.
 - لا بد من إفاة النحو من علم الصرف، فالصيغة وهي شغل الصرفيين

النحاة على معاملة الاسم المنفوس المصنوع من الصرف في حال الجزر معاملة الصحيح، فأثبت الياء، وبالفتحة نهاية عن الكسرة، وهذا شاذ.

بوطي، المزهري، ج ٢، ص ٣٢٢.

بوطي، المزهري، ج ٢، ص ٣٢٢.

- يمكن أن تقدم حلولاً كثيرة لبعض ظواهر التركيب.
- إن مخالفة الأصل النحوي واللفوي ليست نوعاً من الخطأ أو اللحن، ما هي ظاهرة اجتماعية ناتجة عن واقع لفظي له خصوصيته.

المصادر والمراجع

- أحمد بن فارس، الصحاح، مطبعة المويد، القاهرة ١٩٦٠ م.
- أحمد علم الدين الجندى (دكتور)، اللهجات العربية في التراث، الدار العربية للكتاب ١٩٨٣ م.
- أحمد محمد فتور (دكتور)، مبادئ اللسانيات، ط٢، دار الفكر المعاصر، لبنان، ١٩٩٩ م.
- إدريس مقبول (دكتور)، الأسس الإستمولوجية والتداولية للنظر النحوي عند سبويه، عالم الكتب الحديث، الأردن ٢٠٠٧ م.
- الأمدي، المؤلف والمختلف في أسماء الشعراء، ط٢، (مطبوع مع معجم الشعراء للمرزباني)، مكتبة القدسي، القاهرة ١٩٨٢ م.
- ابن الأنباري: أسرار العربية، تحقيق محمد بهجة البيطار، مطبوعات المجمع العلمي العربي، دمشق ١٩٥٧ م.
- الإنصاف في مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين، تحقيق الدكتور جودة مبروك محمد، مكتبة الخانجي - القاهرة ٢٠٠٢ م.
- أندريه، جاك ديشين، استيعاب النصوص وتأليفها، ترجمة هيثم لمع، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت ١٤١١ هـ = ١٩٩٦ م.
- تمام حسان (دكتور)، اللغة بين المعيارية والوصفية، ط٤، عالم الكتب، القاهرة، ٢٠٠٠ م.
- توفيق الزبيدي، أثر اللسانيات في النقد الأدبي، الدار العربية للكتاب، تونس ١٩٨٤ م.
- جان جاك روسو، محاولة في أصل اللغات، ترجمة حمد محجوب، تقديم الدكتور عبد السلام المسدي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد (د.ت). ابن جني:
- الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، القاهرة ١٩٥٢ م.
- المحتسب في تبين وجوه شواذ الفراءات والإيضاح عنها، تحقيق علي النجدي وعبد الحلیم النجار وعبد الفتاح إسماعيل شلبي، لجنة إحياء التراث الإسلامي بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة ١٣٨٦ هـ
- جوناثان كلر، فرديناند دي سوسير (أصول اللسانيات الحديثة وعلم العلامات)، ترجمة الدكتور عز الدين إسماعيل، المكتبة الأكاديمية، القاهرة ٢٠٠٠ م.
- أبو حيان، البحر المحيط، دار إحياء الكتب العربية، بيروت، لبنان، ١٩٩٠ م.

- ردة الله الطلحي (دكتور)، دلالة السباق، جامعة أم القرى، مكة المكرمة ١٤٢٣هـ
- رؤية بن المعجاج، الديوان، تحقيق وليم بن الورد، ط٢، دار الآفاق الجديدة، بيروت ١٩٨٠م.
- ريمون طحان (دكتور)، الألسنة العربية، ط٢، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٨١م.
- سامي أدهم، فلسفة اللغة، تفكيك العفلي اللغوي، بحث إيسنمولوجي أنطولوجي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت ١٤١٣هـ ١٩٩٢م.
- سعد مصلوح (دكتور)، في البلاغة العربية والأساليب اللسانية، م. مصلوح، عالم الكتب - القاهرة ٢٠٠٦م.
- سعيد الأفغاني، في أصول النحو، المكتب الإسلامي، بيروت ١٩٨٧م.
- عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب، طرابلس الغرب ١٩٨١م.
- ابن سلام الجمعي، طبقات فحول الشعراء، تحقيق الشيخ محمود شا دار المدني، جدة (لات).
- سمير شريف استبتيبة (دكتور)، اللسانيات (المجال والوظيفة والمنهج)، المكتب الحديث، الأردن ٢٠٠٥م.
- سيبويه، الكتاب، تحقيق عبد السلام مارون، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٨٨م.
- السيرافي، شرح أبيات الكتاب، دار المأمون، دمشق ١٩٧٩م.
- السيوطي:
- الاقتراح، مطبعة دائرة المعارف، حيدرآباد - الهند ١٣١٠هـ
- شرح شواهد المغني، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت (لات).
- المزهري في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق محمد جاد المولى وعلى المومحمد أبو الفضل إبراهيم، ط٣، دار إحياء الكتب العربية، (لات)
- على عبد الواحد وآفي (دكتور)، نشأة اللغة عند الإنسان والطفل، مصر، القاهرة ٢٠٠٣م.
- العيني، المقاصد النحوية، بهامش خزنة الأدب، دار صبادر، بيروت.
- الفارسي، كتاب الشعر (أو الأبيات المشككة الإعراب)، تحقيق الم محمود محمد الطناحي، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٨٨م.
- فتحي عبد الفتاح (دكتور)، ظاهرة الشذوذ في النحو العربي، المطبوعات، الكويت ١٩٧٤م.
- فخر الدين الخوارزمي، شرح أبيات المفصل، دراسة وتحقيق مع

- رمضان، منشورات كلية الدعوة الإسلامية - الجماهيرية الليبية ١٩٩٩م.
- أبو الفداء، الكناش في النحو والتصريف، تحقيق ودراسة الدكتور جودة ميروك محمد، ط٢، مكتبة الآداب، القاهرة ٢٠٠٥م.
- الفراء، معاني القرآن، تحقيق محمد علي النجار وأحمد يوسف نجاتي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٠م.
- عبد القادر البغدادي:
- خزانة الأدب ولب لياب لسان العرب، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٨٥م.
- شرح شواهد الشافية (مطبوع مع شرح الشافية)، تحقيق محمد نور الحسن ومحمد الزفزاف ومحمد محيي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٢م.
- علي أبو المكارم (دكتور)، تقويم الفكر النحوي، دار غريب، القاهرة ٢٠٠٥م.
- أبو علي الضائي، ذيل أمالي الضائي (مطبوع مع الأمالي)، دار الكتاب العربي، بيروت، (لا ت).
- ابن قنينة، الشعر والشعراء، تحقيق أحمد محمد شاكر، ط٣، (لا توجد بيانات نشر)، ١٩٧٧م.
- قيس بن زهير، الديوان، تحقيق عادل جاسم البياتي، النجف ١٩٧٢م.
- الكنفراوي، الموق في النحو الكوفي، شرح محمد بهجة البيطار، المجمع العلمي بدمشق (لا ت).
- ابن مالك، شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، مكتبة دار العروبة (بدون تاريخ).
- المبرد، المقتضب، تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة ١٩٧٢م.
- ابن مجاهد، السبعة في القراءات، تحقيق الدكتور شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٢م.
- محمد بركات حمدي، مفهوم المعنى بين الأدب والبلاغة، دار البشير، الأردن ١٩٨٨م.
- محمد حماسة عبد اللطيف (دكتور)، العلامة الإعرابية في الجملة بين القديم والحديث، دار غريب، القاهرة ٢٠٠١م.
- محمد حماسة عبد اللطيف (دكتور)، النحو والدلالة، مدخل لدراسة المعنى النحوي الدلالي، ط٢، دار غريب، القاهرة، ٢٠٠٦م.
- محمد خليفة الدناع (دكتور)، مسالك النحاة في وجوه الروايات عرض ودراسة لشروح أبيات الكتاب، منشورات جامعة قارون، بنغازي

- ١٩٩٦ م.
- محمد سبيلا وعيد السلام بنعبد العالي، اللغة (دفاتر فلسفية، نصوص مختارة)، دار توفيقال، المغرب ١٩٩٤ م.
- محمد عبد الفادر (دكتور)، ظاهرة التأويل في إعراب القرآن الكريم (دراسة تحليلية لموقف النحاة من الفراءات القرآنية المتواترة التي تتعارض مع القواعد النحوية)، مكتبة الطالب الجامعي، مكة المكرمة ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨ م.
- محمد مفتاح (دكتور)، التلقي والتأويل مقارنة نسقية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ١٩٩٤ م.
- محمود الطنحاحي (دكتور)، في اللغة والأدب دراسات وبحوث، دار الفرس الإسلامي، بيروت ٢٠٠٢ م.
- ابن منظور، لسان العرب، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٢ م.
- ناصر المبارك، الظاهر اللغوي في الثقافة العربية، دراسة في المنهج الدلالي عند العرب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الأردن ٢٠٠٤ م.
- النحاس، إعراب القرآن، تحقيق زهير غازي زاهد، عالم الكتب ١٩٨٥ م.
- نعوم تشومسكي:
- اللغة والمسؤولية، ترجمة الدكتور حسام الهنساوي، مكتبة زهراء الشرق القاهرة ١٩٩٩ م.
- اللغة ومشكلات المعرفة، ترجمة الدكتور حمزة بن قهلان المريني توفيقال للنشر، المغرب ١٩٩٠ م.
- عبد الهادي بن ظافر، استراتيجيات الخطاب الأصولي مقارنة لدل تداولية، دار الكتاب الجديد، بيروت ٢٠٠٤ م.
- ابن هشام، شرح سذور الذهب، تحقيق عبد الغني الدفر، دار الكتب العربية (لات).
- الواسطي، الكنز في الفراءات العشر، تحقيق الدكتور خالد المشهداتي، مكتبة الثقافة الدلية، القاهرة ٢٠٠٤ م.
- يحيى رمضان (دكتور)، القراءة في الخطاب الأصولي الاستراتيجية والإعراب، عالم الكتب الحديث، إربد ٢٠٠٧ م.
- ابن يعيش، شرح المفصل، عالم الكتب، بيروت (لات).

الاستدلال على المفزى المقصود من الفعل الكلامي غير المباشر بين الفعلية الحديثة والتراث اللغوي العربي

أ.م. هشام إبراهيم عبد الله الخليفة*

❖ مدخل

البحث الحالي هو محاولة لتأصيل (نظرية الفعل الكلامي) *Speech Act Theory* ظهرت في العصر الحديث على يد اللغويين والفلاسفة الغربيين مثل جون أومتن *J. Austin* وجون سيرل *J. Searle* وبيان سبق اللغويين العرب والمسلمين في تأسيبها. بدأ البحث يركز بشكل خاص على ظاهرة أفعال الكلام غير المباشرة *indirect Speech Act* التي اقترن اسمها بالفيلسوف *Searle* يبدأ البحث بتقديم مركز جساوية (سيرل) في الفعل الكلامي غير المباشر: تعريفه ومصدر وجوده وعلاقته بفرضية الحرفي والخطوات الاستدلالية التي توصل المستمع إليه. ثم تناول بقية البحث م اللغويين العرب ولاسيما البلاغيين في الكشف عن هذه الظاهرة ابتداء من مجال الجرجاني والسكاكي للاستدلال في الكشف عن المغازي والمقاصد الفعلية بصورة عامة ومروراً بتحليل ظاهرة المجاز المركب التي استعملها البلاغيون في الفعل الكلامي غير المباشر بالمصطلح المعاصر. وفي الختام سيتم التركيز على البلاغيين من سراج القليخيص لتحليل أفعال الكلام غير المباشرة ولاسيما للخطوات الاستدلالية التي يستعملها المستمع للوصول إلى المفزى المقصود من والتي تكاد تكون مطابقة للخطوات التي أوردناها من مقالة (سيرل) بشأن نفسه. كل ذلك من خلال أمثلة اقتبست من سراج القليخيص وبخاصة (ابن المفزى) في كتابه (مواهب الفتح في شرح تلخيص المفتاح) ونتيجة البحث هي

بمصطلح (الفعلية) واستعملته في مقابل *Pragmatics* بدلاً من المصطلح المتداول (التداولية) اللغة التداولية). فهو يشمل ما تعنيه حين نتكلم عن المعنى أو المفزى (الفعلية) للكلام تمييزاً عن المفزى الوضعي الذي هو موضوع علم الدلالة. وفضلاً عن ذلك فإن أصل الكلمة الانجليزية (*Pragmatics*) التي اشتق منها المصطلح تعني (الفعل). ومن المصطلح اشتقت النسبة (فعلانية) واسم (الفعلية) على غرار (الرياضيات).

د. التدريب والتطوير التربوي

أن ما يسميه اللغويون القريبون (أفعال الكلام غير المباشرة) هي الظاهرة نفسها التي يشير إليها البلاغيون العرب عند الحديث عن خروج الكلام لا على مقتضى الظاهري خروجاً عن معناه الحرفي لإفادة معانٍ مجازية بحسب السياق، وإن خطوات الاستدلال التي يستعملها المستمع هي واحدة في الحالتين.

❖ نظرية سيرل Searle

إن المستمع حين يسمع المتكلم ينطق بقوله ما، فإنه يحتاج إلى ما يساعده في تحديد المغزى الكلامي الذي قصده المتكلم. ومن الأشياء التي يفيد المستمع منها في هذا المجال أشكال اللغوي للقولة. وكان سيرل قد اختصر هذا الجانب تحت تسمية (الوسائل الدالة على المغزى الكلامي) *illocutionary force indicating devices* (ودمك) *IFIDs* وهي تشمل أولاً: (لفظ الفعل الإنجازي) *Performative Verb*. أما ال (ودمك) الثانية فهي (الصيغة النحوية) (*mood*) فنحن نعرف أن أغلب اللغات فيها صيغ نحوية مرتبطة بمغازٍ كلامية معينة كما في حالة صيغ: الخبر والاستفهام والأمر والتعجب... التي قد ارتبطت في العرف بانجاز الأفعال الكلامية: الإخبار، والاستخبار، الطلب، والتعجب على التوالي. وذلك مما حدا ببعض اللغويين إلى اعتبار هذه المغازي جزءاً من المعنى الدلالي لتلك الصيغ.

إن هذه الوسيلة الثانية هي أيضاً لا يمكن الاعتماد عليها. ففي الإمكان التعبير عن أي من المغازي الكلامية باستعمال أي من الصيغ النحوية. ومن الناحية الثانية في الإمكان استعمال أي من الصيغ النحوية في التعبير عن العديد من المغازي الكلامية المختلفة.

إن أشهر الحلول للمشكلة التي تولدها هذه الجمل هو نظرية (سيرل) حول (أفعال الكلام غير المباشرة) *Indirect Speech Acts*. و(سيرل) من القائلين بفرضية المغزى الحرفي (فمخ) *Literal Force Hypothesis (LFH)* لأنه يفترض أن كل جملة في اللغة لها مغزى كلامي يتولد من صيغتها الشكلية أو النحوية. أي ال (ودمك) الثانية التي اشرنا إليها آنفاً. لهذا فحين تنطق بجملة صيغتها النحوية استفهامية. فانك في الأحوال وفي المقام الأول، تسأل سؤالاً بقض النظر عن أي شيء، أو أي فعل آخر يمكن أن تنجزه بواسطة ذلك السؤال. لكن إذا كان السؤال معيماً أو فيه خلل لمخالفة شروط الموفقية *Felicity Conditions* الخاصة به، بل حتى إذا كان السؤال موفقاً فإن المتكلم قد يقصد بمؤالته شيئاً آخر غير الاستفهام أو طلب الفهم. أي بكلمة أخرى فإن المتكلم قد ينجز فعلاً كلامياً آخر فضلاً عن الفعل الكلامي الذي تدل عليه الصيغة النحوية بصورة مباشرة. فهذا الفعل الأخير حسب مصطلح سيرل يمثل الفهم

الكلامي المباشر. أما الأول فيمثل الفعل الكلامي غير المباشر. وكما أسلفنا فقد ابتدع (سيرل) فكرة الأفعال الكلامية غير المباشرة ليحل مشكلة القولات التي لا تؤدي فيها الصيغ التحوية: الخبرية والاستفهامية والأمرية وظائفها الرئيسية في إنجاز الأفعال أو المغايز الكلامية: الإخبار والاستخبار والطلب. على التوالي. وهو يركز على أمثلة من القولات الطلبية أو التوجيهية كما يسميها:

١- هل بإمكانك أن تناولي الملح؟

٢- هل ستناولي الملح؟

٣- أريد الملح.

٤- عليك أن تناوليها الملح.

يقول سيرل^(١) إن (المسألة التي تطرحها الأفعال الكلامية غير المباشرة هي: كيف ينسى للمتكلم أن يقول شيئاً ويعنيه، لكنه يعني به شيئاً آخر أيضاً؟). ثم يطرح سؤالين آخرين من وجهة نظر المستمع: كيف يفهم المستمع الفعل الكلامي الأولي اللاحرفي عن طريق فهمه للفعل الكلامي الثانوي الحرفي؟ وهذا جزء من سؤال أكبر هو: كيف يكون للمتكلم أن يعني الكلام الأولي في حين هو لا ينطق سوى بجملة تعني الكلام الثانوي...؟ ولكي يجيب (سيرل) عن هذه التساؤلات فهو يحاول تزويدنا بالخطوات الاستنتاجية اللازمة للاستدلال على الفعل غير المباشر من الفعل المباشر.

ومسأجازف الآن باحتمال إملال القارئ فأورد الخطوات اللازمة للاستدلال على الفعل الكلامي غير المباشر (أو الأولي والرئيس) من الفعل الكلامي المباشر (أو الحرفي). يؤكد (سيرل) بالطبع أن المتخاطبين في المحادثة اليومية لا يمرون بخطوات الاستدلال هذه بصورة شعورية مطلقاً.

الخطوة (١): لقد سألتني (أ) عما إذا كانت لدي القدرة على مناولة الملح. (حقيقة من حقائق المحاورة).

الخطوة (٢): أنا أفترض أنه متعاون في المحاورة ومن ثم فإن لقولته هدفاً أو غاية. (مبدأ التعاون الحوارية)

الخطوة (٣): أن خلفية المحاورة ووضعها ليس فهما ما يدل على الاهتمام بموضوع مقدرتي على مناولة الملح. (معلومات وحقائق عامة).

الخطوة (٤): فضلاً عن أنه قد يعرف أن الجواب عن سؤاله هو بالإيجاب. (معلومات وحقائق عامة) (إن هذه الخطوة تسهل الانتقال إلى الخطوة الخامسة لكنها ليست أساسية).

(1) Searle, J.R. (1975). Indirect Speech Acts. In Cole and Morgan (1975: 60).

الخطوة (٥): لذلك فإن قولته قد لا تكون مجرد سؤال، وقد تكون لها غاية كلامية أبعد من ذلك (استنتاج من الخطوات ١، ٢، ٣، ٤). فما تلك الغاية؟
الخطوة (٦): إن من الشروط التحضيرية لأي فعل كلامي توجيهي أو طلبي هو مقبل المخاطب على إنجاز الفعل المذكور في المحتوى القضوي. (نظرية أفعال الكلام).

الخطوة (٧): لذلك فإن (أ) قد سألني سؤالاً يلزم من إجابته بالإيجاب، أن الشرط التحضيري لطلب مناولة الملح مستوف. (استنتاج من الخطوتين ((١)) و((٢)).

الخطوة (٨): نحن الآن نتناول العشاء. ومن عادة الناس أن يستعملوا الملح أثناء تناول الطعام، وعادة ما يناولون الملح من الواحد للأخر ويطلبون من الأخرين مناولتهم إياد. الخ (معلومات عامة)

الخطوة (٩): لذلك فإنه قد أشار ضمناً إلى استيفاء أحد الشروط التحضيرية لقبول الطلب، ويحتمل أنه يريدني أن أحقق شروط الاستجابة لذلك الفعل (استنتاج من الخطوتين ٧، ٨).

الخطوة (١٠): لذلك، ولانعدام أي مقصد آخر معقول، فإنه ربما يطلب مني أن أناول الملح (استنتاج من الخطوتين ٥، ٩).

يقول (لفنسن)^(١) إن فكرة الأفعال الكلامية غير المباشرة لاكتسب معناها إلا إذا تقبلنا فكرة المغزى الحرفي (*Literal Force*) أي الرأي القائل بأن المغزى الكلامي مَبْنِيٌّ أي يمثل جزءاً مبنياً في صيغة الجملة. ويطلق (لفنسن) على هذا الرأي تسمية (فرضية المغزى الحرفي) وتختصر على شكل (فمح) وقد حددها (كازدن)^(٢) (١٩٨١) بأنه تعني الموافقة على ما يأتي:

أولاً: أن الإنجازات الصريحة *Explicit Performatives* تسمى وتحدد مغزاها بواسطة لفظ الفعل الإنجازي الذي يرد في صدر الجملة الرئيسية.

ثانياً: وبطريقة أخرى فإن للأنماط الرئيسية الثلاثة للجملة في اللغة الانكليزية، أعني الأمرية والاستفهامية والخبرية، مغازي مرتبطة بها عرفاً، وهي الطلب (أو الأمر) والاستخبار (أو السؤال)، والتصريح (أو الإخبار) على التوالي. (وبالطبع باستثناء الإنجازات الصريحة والتي ترد بصيغة الإخبار).

(1) Levinson, S.C. (1983). *Pragmatics*. Cambridge: CUP:263

(2) Gazdar, G. (1981). *Speech Act Assignment*. In Joshi, Webber and Sag (1981).

يقول (لفنسن)^(١) إن هناك أكثر من نظرية واحدة في الاستنتاج. لكنها جميعاً تترك في المواصفات الأساسية وهي:

أ: إن المعنى الحرفي و المغزى الحرفي للقولة هما في متناول المتحاورين ويُحتمل أن من قبلهما.

ب: ولكي تكون القولة فعلاً كلامياً غير مباشر يجب أن يكون هناك مؤيد للاستنتاج. أي ما يدل على أن المعنى الحرفي أو المغزى الحرفي غير كاف لفرض المحاورة ضمن السياق، ويجب أن يعدل باستخدام الاستنتاج.

ج: يجب توفر مبادئ وقواعد محددة لاستخراج المغزى غير المباشر المقصود من المعنى أو المغزى الحرفي والسياق.

د: يجب توفر قواعد أو ضوابط لقوة فعلية تتحكم في إمكانية ورود تعبير معينة مثل (رجاء)).

وهذه المتطلبات موجودة في نظرية سيرل الشهيرة في أفعال الكلام غير المباشرة

بداية الانطلاقة: إدخال الاستدلال المنطقي على يد الجرجاني والسكاكي:

كثرت ظاهرة التحليل والاستنتاج في مدرسة عبد القاهر الجرجاني والسكاكي من بعده، ممثلةً بشراح التلخيص ومن تبعهم من البلاغيين واللغويين، الذين استعملوا المنطق والاستدلال في تحليل النصوص اللغوية. متجاوزين إطلاق الأحكام الانطباعية التي علاتها كما كان يفعل البلاغيون السابقون لهم. وفي هذا الاتجاه الجديد كان سبق للأصوليين (علماء أصول الفقه) ومباحثهم اللغوية. فالأرجح أن عبد القاهر السكاكي ومن تبعهما قد استفادوا من تلك المباحث التي أدخل فيها الأصوليون المنطق الاستدلال.

سليماً بتناول موضوع إدخال الاستدلال المنطقي على يد الجرجاني والسكاكي. ثم تلط الضوء بتركيز على بعض الأمثلة التحليلية التطبيقية من السكاكي، وعلى تناول شرح التلخيص بالتفصيل لمسألة خطوات استنتاج المغزى الكلامي غير المباشر، كما وثق لدى ابن يعقوب المغربي.

سننقّي فيما يأتي بعض المقاطع من عبد القاهر والسكاكي تبين أن إدخالهما المنطق والاستدلال في تحليل اللفظة، لم يكن مجرد نزوة أو فكرة عابرة، بل كان خطوة دراسية ومخططاً لها. سنتناول أولاً نصاً من الشيخ عبد القاهر بشأن خطوات استنتاج المعنى الكناني من المعنى اللفظي. ثم نتحول إلى بعض المقاطع من السكاكي

(1) Levinson, S.C. (1983). *Pragmatics*. Cambridge: CUP: 270

يتحدث فيها عن (علم الاستدلال) والأسباب التي دعت به إلى إدخاله في (علم البلاغة) إذ أدخل الشيخ عبد القاهر فكرة الاستدلال المنطقي إلى البلاغة من خلال تناول مشكلة (اللفظ والمعنى)، وهي مشكلة شغلت البلاغيين العرب طويلاً. كما أن اللغويين المعاصرين في الغرب هم أيضاً توصلوا إلى فكرة (الأفعال الكلامية غير المباشرة) فلم يلاحظوا للاختلاف بين اللفظ والمعنى. يقول الشيخ عبد القاهر في تحليله للمعنى المقصود في الكناية (دلائل الإعجاز)^(١):

(وإذا نظرت إليها [أي الكناية] وجدت حقيقتها ومحصول أمرها أنها إثبات لمعنى أو تعرف ذلك المعنى من طريق المعقول دون طريق اللفظ. ألا ترى أنك لما نظرت إلى قولهم (هو كئيب رمد القدس)، وعرفت منه أنهم أرادوا أنه كثير القري والضيافة، لم تعرف ذلك من اللفظ ولكنك عرفتته بأن رجعت إلى نفسك فقلت: إنه كلام جاءهم في المدح، ولا معنى للمدح بكثرة الرماد، فليس إلا أنهم أرادوا أن يدلوا بكثرة الرماد على أنه تنصب له القدر الكثيره ويطيخ فيها للقري وللضيافة. وذلك أنه إذا كثرت الطيخ القدر كثرت إحراق الحطب تحتها. وإذا كثرت إحراق الحطب كثرت الرماد لامحالة.)

أما قول الشيخ أنه (لا معنى للمدح بكثرة الرماد) فهو يدل على إدراكه الخطأ الاستنتاجية التي قال (سيرل) أنها تحصل بسبب مخالفة (قاعدة الصلة المناسبة) *Maxim of Relevance* من قواعد (غرايس) *Grice*. وقوله (إنه كلام قد تم عنهم في المدح) يشير أيضاً إلى الاستعانة بتصنيف أفعال الكلام في عملية الاستنتاج. وأما بقية الخطوات الاستنتاجية فهي تتم بمساعدة المعلومات العامة وقابلية المستمع على الاستنتاج. لكن ما يهمنا من كلام عبد القاهر المتقدم، هو الخطوات الاستنتاجية التي حلت بموجبها كيفية توصيل المستمع إلى المقزى الفعلي *Pragmatic Force* المقصود من الكلام.

وكانت هذه الملاحظات من الشيخ، ومثيلاتها كثيرات في (دلائل الإعجاز) و (أسرار البلاغة). بمثابة البذرة الأولى لفكرة إدخال القياس المنطقي والاستدلال في مباحث علم البلاغة، وإن كان الأصوليون قد سبقوه في ذلك من خلال مباحثهم اللغوية والأرجح أنه قد استعار الفكرة منهم كما أسلفنا.

ثم جاء السكاكي فبلغت الفكرة مداها وتوسعت على يده حيث ألحق بمباحث علمي (المعاني) و (البيان) في (مفتاح العلوم) فصلاً خاصاً بالمنطق والاستدلال. وم هذا يعد من الذين ساعدوا على إرساء حقل (الفعليات) *Pragmatics* على قواعد

(١) الهجراني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز، تحقيق محمد عيسى، مكتبة القاهرة، القاهرة، ١٩٦١: (٣٠).

ية ومنطقية شبيهة بما لجأ إليه اللغويون المعاصرون في الغرب. وبعد عرض طويل بعد الاستدلال المنطقي، يتحول السكاكي إلى كيفية استعمال الاستدلال في تحليل مع أمثلة توضيحية، فيقول^(١):

«أنتم إذا كان حاصل الاستدلال عند رفع الحجب هو ما أنت تشاهد بنور البصيرة، فبذلك إذا شبهت قائلاً: (خذها وردة)، تصنع شيئاً سوى أن تلزم الخد ما تعرفه تلزم الحمرة الصافية فيتوصل بذلك إلى وصف الخد بها؟...أرأيت وأحال هذه، إن أنت إليك زمام الحكم، أتجدك لاتستحي أن تحكم بغير ما حكمنا نحن، أو تهجس في نفسك: أنى يعشو صاحب التشبيه أو الكناية أو الاستعارة إلى نار المستدل! ما أيعد يميز بمجرد أن يسوغ ذلك فضلاً أن يسوغه العقل الكامل!»

وهذا الكلام من السكاكي واضح جلي لا يحتاج إلى تعليق أو توضيح. فهو يبين أن اللغة منطوقاً واستدلالاً خفيين لا غنى للمتكلم ولا للمستمع عنهما في عملية التواصل حتى في الخطاب الأدبي.

إن (مدرسة السكاكي)، وأقصد بذلك السكاكي وأتباعه مثل الفوزيني الذي لخصه في شرح التلخيص كالتفتازاني وبهاء الدين السبكي والسيد الشريف الجرجاني وسام الدين الأسقرائيني وعبد الحكيم المسالكوتي وابن يعقوب المغربي وغيرهم، كل في رأيه، نقله نوعية في حقل (علم اللغة) و(الفعليات) ليس في العالم العربي إسلامي فحسب، وإنما في العالم أجمع، لكنها بحاجة إلى إزالة الغبار عنها وإعادة تبويبها على ضوء علم اللغة الحديث.

❖ ردة فعل المحدثين على الاتجاه الكلامي

بمجرد أن هذا الاتجاه الجديد في تحليل اللغة تحليلاً منطوقاً فعليةً *pragmatically* ما يستتبع ذلك من استنتاجات في ذهن المتلقي، لم ينل قبولاً واستحساناً كتاب اللغة العربية من المحدثين والمعاصرين. والسبب يعود إلى عدم اطلاعهم على تفجيدات علم اللغة الحديث. لهذا تجددهم يكررون الموقف نفسه من هذا الاتجاه جديد، ابتداءً من جيل المرحوم الأستاذ أمين الخولي ومروراً بجيل تلامذته مثل الدكتور شكري عياد والدكتور أحمد مطلوب والدكتور بدوي طيانة والدكتور عبد العزيز عتيق وغيرهم كثير. فهم يتحدثون عن مدرستين بلاغيتين، يسمون الأولى (مدرسة المتكلمين) أو (المدرسة الشرقية)، ويقصدون بها مدرسة السكاكي وشراحه، التي انطلقت من إقليم خوارزم (جمهورية تركستان في الاتحاد السوفيتي السابق)،

السكاكي، أبو يعقوب يوسف، مفتاح العلوم، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٣٧، ٢٢٩.

ويسمون الثانية (المدرسة النوقية) أو (مدرسة الشام ومصر)، ويقصدون بها مدرسي البلاغيين الانطباعيين الذين كانوا يكتفون من الشواهد والأمثلة ويطلقون على الأحكام الانطباعية دون تحليل أو تفسير أو أدلة لإثبات تلك الأحكام كقولهم (وم اللطف ما قيل في هذا الباب قول الشاعر... الخ). لكن العبرة ليست في إطلاق الأجر وإنما في تحليلها بصورة علمية مقنعة. فمثلاً كلنا أعجب بروعة قوله تعالى في وصف الطوفان ((وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي... الآية))، لكن كم منا يستطيع أن يفسر تلك الروعة تفسيراً لغوياً علمياً؟ ولا نريد أن نستشهد بكتبي البلاغة المحدثين ففي الإمكان الرجوع إلى مؤلفاتهم حيث لا يملكون من ترديد القول (المدرسة الكلامية) أفسدت البلاغة وأزهدت روحها وأحالتها قواعد جامدة لا أثر للخيال فيها، وغير ذلك من الكلام الذي يتناقلونه الواحد عن الآخر، وهو يعود إلى الخولي والأسام. والحقيقة أن تلك المدرسة لم تتخل عن الذوق والجمال وإنما سعت إلى تفسير الجمال بصورة علمية مقنعة، ولم تقنع بإطلاق الأحكام الانطباعية على علاتها ونكتفي هنا بالإشارة إلى استغراب الدكتور شكري محمد عياد^(١) لمحاولتي الجرح والسكاكي. فقد بين الدكتور عياد، وهو من تلامذة الخولي، أن الشيخ عبد الوهاب تصور الحركة الذهنية التي تصاحب الصور البيانية بأنها حركة منطوقية إلى حد كبير وأن ذلك قد (زُتِن) للسكاكي أن يلحق بمبني (المعاني) و (البيان) مبحثاً في المنطق وأن يعد الاستعارة والتشبيه والكناية قياساً منطوقياً قد حذف منه الحد الأوسط والنتيجة. فإذا قلت: (خدها وردة) فأنت تؤلف قياساً نطقت بمقدمته وقررت لسامعك أن يبني عليها الحد الأوسط (الوردة حمراء)، ثم النتيجة: (خدها أحمر). في الحقيقة يمكن تفسير العديد من الظواهر اللغوية ولا سيما الأفعال الكلامية المباشرة بوصفها نوعاً من (القياس المضمير *enthymeme*) حذفته منه إحدى مقدمتي أو النتيجة. وتحت هذه الطريقة في التفسير يمكننا أن ندرج خطوات (سيرل) وأوردناها. لكن لغة الأدب والشعر تتضمن أكثر من ذلك: فالصورة الشعرية والوصف البلاغية ليست قياساً مضمراً بل هي قياس ناقص وضعيف وغير محدد *Indeterminate* يقوم به السامع (المتلقي) على مسؤوليته، ولا يمكنه ينسب إلى المتكلم أو الشاعر طلب القيام بذلك القياس أو قصده أو الدعوة له. فالإشعري يأتي نتيجة لقائمة طويلة وعريضة من التلويحات الضعيفة *Weak Implicatures* أي بامتثال تصوير دلالي ناقص واستنتاج غير مؤكد. وكلمة

(١) ينظر: عياد، شكري محمد (١٩٦٧): كتاب أرسطو طاليس فن الشعر، دار الكاتب العربي، القاهرة.

في التلوينات والامتتناجات، ازدادت ضعفاً ولا تحديداً ولا تعيناً، وازدادت عمقاً
 لغوية وازدادت مسؤولية المتلقي في استنباطها. وعلى ضوء هذا الكلام فإن العيب
 يهد في تحليلات السكاكي هو انه لم يركز على ضعف القياس وعدم تجديده وزيادة
 التلوينات في حالة الخطاب الشعري. والأرجح انه كان يعد ذلك من المسلمات.
 التلوينات والإيحاءات المرتبطة بالتشبيه بالوردة لا يمكن حصرها بالجمرة، فهناك
 لغة وهناك الرقة والضعف... الخ وغير ذلك من الامتتناجات المبنية على السياق
 لمومات الموسوعية الخزينة في ذهن المتلقي تحت باب أو مفهوم (الوردة) بما يحقق
 التماسك للكلام المقول.

لا تريد أن نخوض في نقاش هذه المسألة فقد أصبح موضوع الاستدلال والمنطق
 لا مفروغاً منه في علم اللغة الحديث. وفي النقد الأدبي الحديث يعتبر وصف الأحكام
 لها انطبائية أو ذوقية. شيئاً سلبياً. والتحليل اللغوي، سواء للنص الأدبي، كما في
 لطبيبات الأدبية *Literary Stylistics*، أو للكلام العادي، كما في (القطبيات)
 تحليل الخطاب *Discourse Analysis*، يعتمد بصورة أساسية على عمليات
 استدلال التي تحصل في ذهن المتلقي قارئاً كان أو مستمعاً. وقد وسع الجرجاني
 السكاكي دائرة علم البلاغة لتشمل اللغة بصورة عامة. أي أن (علم البلاغة) تحول
 إلى علم اللغة) وعلم الأسلوبيات على يديهما. لكن هذا لا يعني أن طرق التحليل
 التي جاءت بها لا تنطبق على الخطاب الأدبي.

فقد ابتعدنا قليلاً عن موضوعنا حين امتدنا في حديثنا المتقدم الذي يستحق
 المنفصلة. ولكن قبل أن نعود إلى موضوعنا ونعطي بعض الأمثلة التحليلية من
 التي، نود أن نؤكد حقيقة تجاهلها أحياناً بعض الكتاب المحدثين، وهي أن جذور
 علم السكاكي البلاغية الكلامية تعود إلى الشيخ عبد القاهر الجرجاني، الواضع
 لعلم البلاغة على أسس علمية. فهو أول من ابتعد عن النقد الانطباعي. لذلك
 لم تسمية هذه المدرسة بـ (مدرسة الجرجاني- السكاكي). وتحتاج هذه المدرسة إلى
 تقويم على ضوء اكتشافات علم اللغة الحديث، وعلى أسس موضوعية بعيداً
 عن التعصب. فقد بالغ الأستاذ الخولي وتلامذته في النهج عليها. وإن كانوا يستثنون
 عبد القاهر من هجومهم لأن ذلك يحتاج قدرأ أكبر من الجرأة والمكابرة. وهم
 لم يستثناء عبد القاهر من هجومهم لأنه، حسب رأيهم، جمع الاتجاهين معاً، فقد
 ذوقياً في (أسرار البلاغة)، وكلامياً في (دلائل الإعجاز). لكنهم نسوا أن (أسرار
 البلاغة) مليء بالتحليل العلمي الدقيق ولا يختلف في ذلك عن (دلائل الإعجاز)، وأن
 الشواهد والأمثلة فيه لا تفر من هذه الحقيقة. فقد تعامل عبد القاهر مع الأمثلة

الكثيرة بالعلمية المنطقية المعهودة فيه نفسها، فهو لم يطلق حكماً إلا
 الأسناد منطقياً بصورة مقنعة. وهم نسوا أيضاً أن عبد الفاهر هو الذي بدأ
 العلمي الكلامي في البلاغة ثم أكمل السكاكي المصيرة من بعده.
 إن الذي دعاهم إلى القول بأن عبد القاهر كان ذوقياً في (أسرار البلاغة) هو
 من الأمثلة والشواهد الشعرية، وكونه تحدث عن تحليل الجمال والقبح فهو
 مقياس كثرة الشواهد لا يصلح مقياساً لتحديد مدرسة أو اتجاه، فهو مقياس
 وليس هناك تناقض بين الإكثار من الشواهد والاتجاه العلمي الكلامي. أمم
 وتفسيره العلمي للجمال والقبح، فهذا هو عين ما تصبو إليه المدرسة الكلامية
 ترد أحكاماً مزاجية بل تعليلاً يساعد في الكشف عن المعنى الجميل، كما تفيد
 نثبت أن عبد القاهر لم يتخل عن علميته في التحليل حتى في (أسرار البلاغة
 النص الآتي، حيث حلل الاستعارة التمثيلية تحليلاً علمياً ثم قال^(١):
 (واعلم أن هذه الأمور التي قصدت البحث عنها أمور كأنها معروفة مجهولة
 أنها معروفة على الجملة، لا ينكر بيانها في نفوس العارفين ذوق الكلام والمتبحرين
 فصل جيد من رديئه، مجهولة من حيث لم تتفق فيها أوضاع تجري مجرى
 التي يرجع إليها فتستخرج منها العلل في حسن ما استحسنت، وقبح ما استهجن
 تعلم علم اليقين غير الموهوم، وتضبط ضبط المزموم المخطوم. ولعل الملال إن
 لك، أو النشاط إن فترعك، قلت: ما الحاجة إلى كل هذه الإطالة وإنما يكفي أن
 الاستعارة مثل كذا، ثم تعقد كلمات وتنشد أبيات، وهكذا يكفينا المؤونة في
 والتمثيل يسير من القول. فإنك تعلم أن قائلًا لو قال: الخبر مثل قولنا (زيد
 ورضي به وقنع ولم تطالبه نفسه بأن يعرف حداً للخبر إذا عرفه تميز في نفس
 سائر الكلام حتى يمكنه أن يعلم أن ههنا كلاماً لفظه لفظ الخبر وليس بخبر
 دعاء كقولنا: (رحمة الله عليه، وغفر الله له)... كان قد أساء الاختيار وأسرف في
 الاستغناء عما هو محتاج إليه إن أراد هذا النوع من العلم) (التوكيد من تصريفي
 إن المقاطع التي أكدتها أيضاً لا تحتاج إلى تعليق أو توضيح. فالشيخ يدافع
 الاتجاه العلمي الكلامي، ويرد على الاتجاه الذوقي الانطباعي الذي يكتفي بالقول
 الاستعارة مثل كذا ثم تعقد كلمات وتنشد أبيات.. من دون وضع القوانين التي
 إليها لاستخراج العلل في حسن ما استحسنت، وقبح ما استهجن. فهل هناك أوجه
 هذا الكلام؟

(١) الجرجاني، عبد الفاهر، أسرار البلاغة، المكتبة التجارية الكبرى بمصر، ١٩٣٢: ٢٩٥

أمثلة تطبيقية على التحليل العلمي لدى السكاكي

يتحول إلى معالجة السكاكي لموضوع مخالفة الفعل الكلامي لمقتضى الظاهر. لعل هذه المعالجة يتبين مدى فهمه وتحليله لظاهرة (الفعل الكلامي غير المخطوات الاستنتاج التي تؤدي إلى إدراك السامع للمغزى الفعلي غير المباشرة من سوق الكلام. ففي ختام قانون أو مبحث الخبر يقول السكاكي^(١١) (هذا أكثر مما يخرج لا على مقتضى الظاهر ويكون المراد به الطلب، فسيذكر ذلك القانون الثاني بإذن الله تعالى). وفي القانون الثاني المخصص لأنواع الطلب السكاكي بتحليل رائع لكيفية خروج أنواع الطلب على خلاف مقتضى الظاهر بلغة تفسيرها بموجب أصل المعنى، بل تفسر على ضوء المغزى غير المباشر الذي هو المتكلم بمعونة القرائن السياقية. ونظراً لأهمية كلام السكاكي وعمق التحليل فيه، نكتفي ببعض النصوص المنتقاة ونترك للقارئ خيار الاستزادة بقول^(١٢):

يتمنع إجراء هذه الأبواب على الأصل تولد منها ما ناسب المقام... كما إذا قلت لأبي: (أفضل هذا؟) امتنع توجه الاستفهام إلى فعل الأذى لعلمك بحاله، فما لا تعلم مما يلابسه من نحو (أستحسن؟) وولد الإنكار والزجر. أو كما إذا شتمت مولا، وإنك أدبته حق التأديب أو أوعدته على ذلك أبلغ إيعاد: (أشتمت) امتنع أن يكون المراد الأمر بالشتم، والحال ما ذكر، وتوجه بمعونة قرينة (يجمو: (أعرف لازم الشتم)، وتولد منه التهديد... أو كما إذا قلت لعبد لا يمثل (أهمل أمرى)، امتنع طلب ترك الامتنال لكونه حاصل، وتوجه إلى غير حاصل (أكثر لأمرى ولا تبالي به)، وتولد منه التهديد.

يتبين السكاكي في هذا النوع من التحليل الفعلي اللغويين المعاصرين من (سيرل) في مجال تفسير الفعل الكلامي غير المباشر. وفي باب الاستفهام يركز على تحليله بصورة أكثر كثافة وتفصيلاً بحيث يقترب من جوهر خطوات البحث التي ذكرها (سيرل). ولأهمية وعمق هذا التحليل من السكاكي سنورد منه بعضاً لكي يقارن القارئ بينه وبين خطوات الاستنتاج عند (سيرل)، يقول^(١٣):

١١- أبو يعقوب يوسف، مفتاح العلوم، مطبعة مصطفى الهادي الحلبي، القاهرة، ١٩٣٧: ١٤٥
ترجمته: ١٤٦

١٢- أبو يعقوب يوسف، مفتاح العلوم، مطبعة مصطفى الهادي الحلبي، القاهرة، ١٩٣٧: ١٥٠

(واعلم أن هذه الكلمات كثيراً ما يتولد منها أمثال ما سبق من المعاني بمعونة الأحوال... وعليه قوله تعالى (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم؟) بما التعجب، ووجه تحقيق ذلك هو أن الكفار في حين صدور الكفر منهم لا بد من يكونوا على إحدى العاليتين: إما عالمين بالله، وإما جاهلين به، فلا تالفة. فإذا قيل (كيف تكفرون بالله؟) وقد علمت أن (كيف) للسؤال عن الحال، وللكفر اختصاص بالعلم بالصانع وبالجهل به، انساق إلى ذلك فأفاد: (أفي حال العلم تكفرون أم في حال الجهل به؟). ثم إذا قيد (تكفرون بالله؟) بقوله (وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم) وصار المعنى: كيف تكفرون بالله والحال حالاً بهذه القصة؟ وهي أن كنتم أمواتاً فصرتم أحياء وسيكون كذا وكذا صير الكفر شيء عن العاقل، فصار وجوده منه مظنة التعجب، ووجه بعده هو أن هذه أمواتاً أي أن لا يكون للعاقل علم بأن له صانعاً... وعلمه بأن له هذا الصانع يأتي أن صدور الفعل عن القادر مع الصارف القوي مظنة تعجب وتعجب وإنكار وتوبيخ. إن التسلسل المنطقي في حالة الاستنتاج من الآية الكريمة (كيف تكفرون؟ وكنتم أمواتاً فأحياكم؟) بأن المغزى الكلامي المقصود ليس السؤال وإنما التوبيخ، هو على درجة من نفاذ البصيرة بحيث يذكرنا بخطوات الاستنتاج التي بها (سيرل) والتي أوردناها آنفاً. إن هذا التحليل من السكاكي وبهذه الكيفية لزماته بقرون.

ويستمر السكاكي في بقية الأبواب (الأمر والنهي والنداء) في تناول خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر. ففي باب (الأمر)، مثلاً، يبين المعاني المختلفة لصيغة حسب القرائن السياقية، وبخاصة الاختلاف في المرتبة بين المنكلم والمخاطب، وفي الموضوع بالذات كان السبق للأصوليين كما أسلفنا. وفي باب النداء يفسر أمراً صيغة الخبر بالزمن الماضي في مقام الدعاء، تفسيراً منطقياً مقبولاً، حيث يقول (...والجهات المحسنة لاستعمال الخبر في موضع الطلب تكثير، تارة تكون التفاؤل بالوقوع كما إذا قيل لك في مقام الدعاء (أعاذك الله من الشبهة وعصا الحيرة ووقفك للتقوى) لتهفأل بلفظ الماضي على عدها من الأمور الحاصلة التي الإخبار عنها بأفعال ماضية).

وهذا قريب جداً من تفسير الفقهاء والأصوليين لظاهرة استعمال صيغة الماضي الإنجازيات *Performatives* مثل (يعنك) و (زوّجتك) و (أمرتك).

❖ أفعال الكلام غير المباشرة والمجاز المركب

في التهانوي في استعراضه لتعريفات (المجاز المركب) تعريف الخطيب القزويني في (من المفتاح) وهو (إن المجاز المركب هو اللفظ المستعمل فيما شبه بمعناه الأصلي وتمثل للمبالغة في التشبيه). وهذا التعريف يبدو لنا قاصراً جداً؛ فهو يعرف بالجزء، إذ إن الاستعارة التمثيلية هي حالة واحدة من حالات المجاز المركب بكل مجاز مركب استعارة تمثيلية. ثم إن الاستعارة التمثيلية تعد مجازاً مركباً أو ليس بسبب تشبيهه أجزاء بأجزاء، بل بسبب استعمال الجملة كاملة بصورة (في غير ما وضعت له أي هي (مجاز الاستعمال) أو (مجاز الخطاب) إن جاز

وتناول سعد الدين التفتازاني هذا التعريف بالنقد وبصورة تتم عن نظر ثاقب. التهانوي^(١) مستشهداً بكلام السعد:

يتعرض المحقق التفتازاني على هذا التعريف بأنه غير جامع، لخروج مجازات ليست علاقتها التشبيهية، كالأخبار المستعملة في التعسر والتجزن أو الدعاء ونحو التحقيق ذلك أن الواضع كما وضع المفردات لمعانيها بحسب الشخص، كذلك المركبات لمعانيها التركيبية بحسب النوع. مثلاً هيئة التركيب في نحو: ((زيد قائم))، هي للإخبار بآثار القيام لزيد، فإذا استعمل ذلك المركب في غير ما وضع له، يهتد من العلاقة بين المعنيين، فإن كانت المشابهة، فاستعارة، وإلا فغيره. فحصر المجاز المركب في الاستعارة، وتعرفه بما ذكر، عدول عن الصواب... (من تصرفي)

الطبري في حاشيته على السمرقندية^(٢) يشير إلى الكلام نفسه، عند تناوله بالمجاز المركب، وينسبه إلى السعد في المطول:

((وضع له حقيقة أي وضعاً حقيقياً بأن يكون أولياً أصلياً، واحتز به عن التأويلي. وهو الوضع الثانوي التبعي لأنه ثابت للمجاز فلا يصبح نفيه. وقد تقدم له، وفي هذا تصريح بأن المركبات موضوعة. وهو التحقيق، لكن وضعها نوعي. المركب في نحو: ((زيد قائم)) موضوعة وضعاً حقيقياً للإخبار بثبوت المسند إليه، كما في المطول. فالواضع لاحظ الموضوع بأمر عام بأن قال: (وضعت كل من مسند ومسند إليه للإخبار بثبوت الأول للثاني). فهذا هو الحقيقة المركبة.) عند السعد من قوله (بحسب الشخص) أي بحسب عين الشيء الذي تشير إليه

١- محمد علي الفاروق، كشاف اصطلاحات الفنون، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٣: ٣٠٥
٢- محمد الدمياطي، حاشية على السمرقندية، المطبعة الأزهرية، ١٩٣٦: (٢٩)

المفردة وتدل عليه: وهو ما يسمى في الغرب بـ(الإشارة والدلالة *Sense and Reference*). كما في حالة العلاقة بين كلمتي (زيد) و(الشجاعة) وبين ما تشير إليه هاتان الكلمتان في الواقع.

أما قصده من قوله (بحسب النوع) فهو، كما يبدو واضحاً، يكشف عن إدراكنا سابق لزمانه لفكرة (نمط الفعل أو المغزى الكلامي) المرتبط بالصيغة التركيبية أو النحوية، وهو ما يسميه فلاسفة أفعال الكلام المعاصرون بالانكليزية *Illocutionary Act Type* وهذا يرتبط أيضاً بـ (فرضية المغزى الحرفي) *Literal Force Hypothesis* (فمح) *LFH*، التي تقول بوجود علاقة وضعية^(١) بين أنماط الجمل النحوية الرئيسية وبين (المغزى الكلامي) *Illocutionary Force* الذي تؤديه تلك الأنماط. وغالبية الأفعال الكلامية غير المباشرة تكون نتيجة للتباين بين الاثنين، مما يولد تعريضاً أو مجازاً مركب يفيد المغزى غير المباشر.

وتفريق السعد بين المجاز المفرد والمجاز المركب يذكرنا بكلام، لا يقل عمقاً ورؤيةً قاله ابن الشجري في أماليه:^(٢)

(وقد أريتك أن أكثر معاني الكلام ليس لفظ من ألفاظها إلا وهو محتمل لمعنى مباينة للمعنى الذي وضع له ذلك. فلا يكون في احتمال له لتلك المعاني ما يخرجها عن معناه الأصلي. وأقول أنه كما جاز في الألفاظ المفردة ما يتفق لفظه ويختلف معناه كذلك أن يكون في الألفاظ المركبة المفيدة ما يختلف معناه واللفظ واحد). وهذا يبين إدراكاً سابقاً لإدراك السعد للفكرة ذاتها، وهي تشكل مبدأ أساسياً لموضوع أفعال الكلام غير المباشرة.

ويلاحظ هنا أن ابن الشجري يميل إلى الرأي الذي قال به (سيرل)، فيما بعد، والقول بأن أفعال الكلام غير المباشرة تحتفظ بمعانيها الحرفية أيضاً؛ فالمتكلم ينادي الفعل غير المباشر باستعماله للفعل الحرفي. ولذلك في الإمكان الإجابة عن الاستفسار الطلبي: (هل بإمكانك أن تناولي الملح؟) بالاستجابة إلى المعنى الحرفي للصيغة هي (نعم، تفضّل، ها هو). ويجدر الذكر أن ابن الشجري يحهل على لغويين سابقين لغويين يذكروا أسماءهم، وأرجح أن يكون أغلبهم من المعتزلة، ولاسيما القاضي عبد الجبار. يبدو أحياناً متأثراً به. وهذا يدل على أن مثل تلك الأفكار كانت معروفة قبل عصره.

(١) وهذا واضح من تأكيد السعد بأن المركبات موضوعة وضماً حقيقياً نوعياً. أما الوضع التأويلي فقد المقصود به التمهيط أو التفتين بتقادم الاستعمال في المعنى المجازي غير المباشر.

(٢) ابن الشجري، أبو السعادات، الأمالي الشجرية، حيدرآباد الدكن، دائرة المعارف العثمانية، ١٣٤٩هـ.

الشجري.

إن النص المنقول عن السعد أنفاً يلخص زبنة نظرية أفعال الكلام الحديثة بصورة تنم عن عبقرية ليس لها مثيل. بل إن النص يغطي فكرة تنميط وتقنين الأفعال الكلامية غير المباشرة من خلال تفريقه الرائع بين ما أسماه (الوضع الحقيقي) أي وضع المركبات لمعانيها وضماً نوعياً وبين ما أسماه (الوضع التأويلي). فالأول هو التسمية العربية لفكرة (فمع)، والثاني هو التسمية العربية لفكرة التنميط الكلامي الذي يحصل بتفادام الاستعمال الاصطلاحي في المعنى المجازي. لكن ما يسترعي الانتباه هو استخدام السعد للفظة (الوضع) في وصف التنميط مما قد يوحي بأنه ربما كان يقول برأي مشابه لرأي (سادوك) القائل بأن المعنى غير المباشر هو جزء من المعنى الموضوعي.

إن كلام السعد التفتازاني وابن الشجري المذكور أعلاه يستحق الكثير من الدرس لما يضيق به المجال هنا. وجمع النصين نخلص إلى نتيجة مفادها أن للمفردات إشارة أو مدلولاً، بينما للمركبات مغزى أو نمط فعل كلامي. وكما أن هناك مجازاً مفرد يشمل استعمال لفظة مفردة بدل أخرى أو للإشارة إلى أخرى لم توضع المفردة استعمالاً في الأساس للدلالة عليها، كذلك هناك مجاز مركب يشتمل على استعمال نمط جملة بدل أخرى للدلالة على مغزى كلامي لم توضع الجملة المستعملة في أساس إقادته.

وملاحظة السعد المهمة في قوله ... فإذا استعمل ذلك المركب في غير ما وضع له فلا يحنث من العلاقة بين المعنيين. فهذا شبه بأفكار لغوية حديثة مثل تأكيد (سبيربر) (السن) على مبدأ الصلة أو المناسبة؛ فالمنتمع يبحث دائماً عن علاقة أو صلة بين كلام والمسياق، بل هو أحياناً يخلق العلاقة تحقيقاً لمبدأ الصلة أو المناسبة.

❖ توسيع التحليل على يد شرح التلخيص

وبالآن إذا جئنا إلى شروح التلخيص (ولاسيما الجزء الثاني ص ٢٢٢-٢٤٢) لوجدناها مليئة بجواهر التحليل النحوي الفعلية. وهي دليل موسع لتحليل أفعال الكلام يوط موقفيها ومبادئ تصنيفها وما شاكل. إن كل ما يحتاجه الباحث المعاصر هو الغبار عن هذه الكتب القديمة وعن أوراقها الصفراء، ودراستها في ضوء الشافعات الحديثة لعلم اللغة المعاصر. وأمام هذا الغضم لا يسعني إلا أن أحاول تعرض عينات صغيرة؛ فالمجال يضيق بإيراد التفاصيل الشاملة لتحليلات أحد أمال الكلامية، ناهيك عن تغطيتها كلها كما وردت في تلك المراجع. وسنورد أولاً

خطوات استنتاج المفزى الكلامي غير المباشر لصيغة الاستفهام كما وردت لدى يعقوب المغربي).

❖ خطوات استنتاج المفزى الكلامي غير المباشر في حالة الاستفهام

سأكتفي هنا باختيار أمثلة على تحليل أفعال كلامية غير مباشرة متولدة من الاستفهام، وخطوات الاستنتاج المتبعة في التوصل إلى المفزى المقصود كما وردت في واحد من شروح التلخيص، وهو كتاب (مواهب الفتح) لابن يعقوب المغربي (١١١٠ هـ). وشرح المغربي هو، في اعتقادي، واحد من أفضل الشروح، إن لم أقضلها. فهو يتسم بالتفصيل والدقة والعمق في التحليل كما لو كان الكاتب اللغويين المعاصرين في الغرب.

ولكن قبل أن نستعرض تحليلات المغربي لابد من أن نذكر، وللأمانة العلمية والتاريخية، بأن نسبة كبيرة من الفضل في تلك التحليلات تعود إلى السكاكي لأنها بصورة واضحة لا تقبل الشك^(١) كما في الأمثلة السابقة، وكذلك إلى الشريف الجرجاني، الذي نقل عنه المغربي وزاد في التفاصيل، كما يبدو لي. اكتشفت أن غالبية التحليلات الآتية التي سنوردها من المغربي، موجودة، ولو أقل تفصيلاً، في حاشية السيد الشريف على مطول السعد (ص ٢٣٥). فقد كان الشريف هو أحد السابقين للمغربي، وربما كان هو أول من جاء بهذا التحليل وللأسف للعلاقة المجازية في هذه الأمثلة، وهذه الكيفية، أي على شكل خطوات استنتاج فقد كان البلاغيون قبل ذلك يستصعبون هذه المهمة، بدليل قول السعد في المقدمة (وتحقيق كيفية هذا المجاز وبيان أنه من أي نوع من أنواعه مما لم يحتم أحد أن يقول السيد الشريف معلقاً في حاشيته على كلام السعد المذكور: (قال: (وإن يحتم أحد حوله)) أقول وذلك لصعوبة بيان علاقة المجاز وكيفية المناسبة المعنى ونحن نذكر في هذه المواضع ما يتضح به وجه المجاز فيها وتستعين به فيما عدا والسعد نفسه، وإن نؤه إلى تجنب الشراح لموضوع تفسير تلك العلاقة، فإن لم ينجز تلك المهمة في (المطول)؛ وإنما تكفل السيد الشريف بذلك في حاشيته أمثلة تطبيقية على تحليل بعض الأفعال الكلامية التي يخرج الاستفهام كالاستنباط والتعجب، ثم ترك الباب مفتوحاً لتحليل البقية بقوله: (وقس

(١) هذا شيء طبيعي فالمغربي والآخرين هم شراح تلخيص مفتاح السكاكي

(٢) التفاتاتي، سعد الدين، المطول على التلخيص، مطبعة أحمد كامل، اسطنبول، ١٣٣٠ هـ: ٢٣٥

الظواهر). ومهما يكن فإن تحليل المغربي يبقى يتميز على سواه بزيادة التفصيل
مولية، لذلك فضلناه.

السبب في اختيارنا الجمل الاستفهامية كأمثلة على تحليل الفعل الكلامي غير
هو لغرض المقارنة مع أمثلة (سيرل) حيث ركز الأخير على الجمل الاستفهامية.
المغربي^(١) (مواهب الفتاح) في شرح تلخيص القزويني لمفتاح السكاكي:

«ثم إن هذه الكلمات ((الاستفهامية (كثيراً ما تستعمل) أي تستعمل كثيراً (في)
مع أخرى (غير الاستفهام) الذي هو أصلها، فتكون في ذلك الغير مجازاً لمناسبة
فقرينة دالة في المفام وذلك ((كالاستبطاء نحو)) قولك لمخاطب دعوته فأبطأ في
((كم دعوتك؟))، فليس المراد استفهامه عن عدد الدعوة لجهله بها. ولا يتعلق
من، فقرينة الإبطاء واستثقاله، مع عدم تعلق الفرض بالاستفهام ومع جهل
بالعدد، دالة على قصد الإستبطاء، والعلاقة: أن السؤال عن عدد الدعوة،
أو مدلول اللفظ، يستلزم الجهل بذلك العدد، والجهل به يستلزم كثرة عادة أو
أنه لا يحصره الإدراك من أول وهلة. وكثرته تستلزم بعد زمن الإجابة عن زمن
والبعد يستلزم الاستبطاء. فهو كالمجاز المرسل لعلاقة اللزوم من استعمال
في الملزوم في اللازم. (التوكيد من تصرفي)

النص المتقدم غني جداً ويمكن أن يكتب عنه الكثير. فهو يبين أن المقصود من
قولنا (استفهام مجازي) هو المجاز المرسل وليس المجاز الاستعاري (التشبيهي).
وكان حرياً بالمغربي أن يقول أنه مجاز مرسل مركب، وهذا هو الأهم؛ فمجرد
جاء لا يضمن كونه مركباً لأن من المعروف أن المجاز المرسل أغلبه من النوع
فيها المجاز في المثال الذي أورده المغربي هو من النوع المركب لأنه يتضمن
جملة بأكملها (بصورتها المجموعية) لأداء فعل كلامي مغاير لم توضع له
المبرد لإضافة صفة (المرسل) للتسمية، فهو أن العلاقة في هذا النوع من
التشبيه وإنما هي السببية أو اللزومية؛ وهذه، بالطبع، من علاقات المجاز
فليس هناك شبه بين السؤال عن عدد مرات الدعوة وبين الاستبطاء، وإنما
بين الاثنين.

النص يتناول بصورة ضمنية موضوعاً طالما شغل فلاسفة أفعال الكلام في
الخص (سيرل)، ألا وهو مسألة هل أن الجملة حين تستعمل في إنجاز فعل
تبقى محتفظة بمغزاهما الأصلي الحرفي أيضاً، أم أنها تتحول كلية إلى إفاة

١٠١٣٤٢هـ: ٢٩٠

المفرد الجديد؟ لكننا سنتناول هذا الموضوع فيما بعد كما ورد عند البين والاسفراييني، فهما قد ركزا على هذه المسألة بصورة أكبر.

والآن سأوجز وأتساول جانباً واحداً من النص المذكور في أعلاه، وهو نحو الامتناع أو الاستدلال من الفعل الكلامي المباشر (الاستفهام)، على الفعل الكلامي المباشر (الاستبطاء)، ولتجاوز أن نعرض تحليل المفرد على شكل خطوات متتالية من وجهة نظر المخاطب، على غرار الخطوات التي أوردناها من سيرل (١٩٧٥)، عملية المقارنة بين الطريقتين في الاستدلال:

(أ) لقد قال لي المتكلم ((كم دعوتك؟)) وهي جملة استفهامية (حقيقة من الخطاب).

(ب) مدلول تلك الجملة الاستفهامية هو طلب معرفة عدد مرات الدعوة (حقيقة من حقائق اللغة/ فصح).

(ج) لايتعلق الفرض بالاستفهام عن عدد مرات الدعوة، (معلومات وحقائق مبدأ التعاون الحوارية، وبالأخص قاعدة الصيغة التي يسلم بها المفرد كحاصل).

(د) فضلاً عن أن المتكلم ليس جاهلاً بذلك العدد، (معلومات وحقائق عامة).

(هـ) فليس المراد استفهامه عن عدد الدعوة لجهله بذلك (استنتاج من السابقة).

(و) كان المتكلم قد دعاني فأبطأت في الجواب (حقيقة من حقائق الخطاب).

(ز) إن السؤال عن عدد الدعوة، الذي هو مدلول اللفظ، يستلزم جهل المسأله العدد، (الشرط التحضيري للاستفهام/ شروط الموقفية/ نظرية أفعال الكلام).

(ح) إن الجهل بذلك العدد يستلزم كثرته عادةً أو ادعاءً، وأنه لايجصره إلا أول وهلة (استنتاج من الخطوة السابقة).

(ط) إن كثرة عدد مرات الدعوة تستلزم بُعد زمن الإجابة عن زمن السؤال من الخطوة السابقة).

(ي) إن بعد زمن الإجابة في (ط) يستلزم أنني كنت بطيئاً في الإجابة، ومن ثم استبطائي (استنتاج من الخطوتين السابقتين).

(ك) إذن فالمتكلم بقوله ((كم دعوتك؟)) لايريد الاستفهام، بل يريد

(مجاز مركب مرسل علاقته اللزوم، أي استخدام الملزوم للدلالة على اللزوم) هذه الخطوات الاستنتاجية أخذتها كلها نصاً تقريباً من كلام المفرد الوارد

(١) إن المواصفات الأساسية لنظريات الاستنتاج متوافرة في تحليل المفرد هذا، وفي تحليل المخرجاني والسكاكي من قبله

أفعلته هو أنني أعطيت لكل خطوة رقماً أو حرفاً كما فعل (سيرل)، وأضفت
 من قوسين تفسيراً للخطوات على غرار ما فعله (سيرل). علماً أن الكثير من تلك
 مرات كان معروفاً عند اللغويين والأصوليين في العالم العربي الإسلامي لكنهم
 من المسلمات التي لا تحتاج الذكر.

سؤال الآن هو: ما الذي تركه المغربي لـ (سيرل)؟ وهل هناك خطوة مهمة ذكرها
 ولم يذكرها المغربي؟ لا أظن ذلك. إن الاختلاف الوحيد هو استخدام (سيرل)
 حيث كان المغربي واللغويون العرب يفهمونها ضمناً أو يعدونها تحصيل حاصل
 إليه. مثال ذلك أن أكثر الخطوات تدخل فيها المعلومات السياقية المشتركة
 بين المتكلم والمخاطب، وهذا ما يعده اللغويون العرب تحصيل حاصل لا
 يلى ذكره، وإن كان حديثهم عن القرائن السياقية يغطي ذلك ضمناً، كما في
 المغربي بشأن تحول مغزى الاستفهام (المناسبة بمعونة قرينة دالة في المقام)،
 مما أكدناه في النص المتقدم.

(سيرل) يشير إلى أن ما يقابل عنده الخطوة (ج) في تحليل المغربي، يحصل
 استغلال (قاعدة الصلة) من قواعد المحاوراة التي قال بها (كرايس)، لكن في
 هي في الخطوة (ج) ما يدل على إدراكه أن الفرض لا يتعلق بالاستفهام عن
 هذا يدل على إدراكه لاستغلال قاعدة الصلة في هذه الخطوة، وهو يستعمل
 (كرايس) نفسه حين يذكر (العلاقة) و (المناسبة) وهي تعابير متنوعة عن فكرة
 (سيرل) بعد الخطوة (ج) هي الخطوة الحاسمة في عملية الاستدلال على
 اللمح غير المباشر، حيث يكتشف المخاطب أن المغزى المقصود لا يتساق مع
 أو مدلولها الوضعي، والمغربي بالطبع لا يستعمل مصطلحات نظرية أفعال
 مصطلحات نظرية التلويح الحوارية، بل يستعمل مصطلحاً عربياً موازياً.
 أن يسمى المثال الذي حلله (فعل كلام غير مباشر) فهو يسميه (مجازاً)
 لأنه اللزوم أو السببية. لكن العبارة ليست بالمصطلحات والتسميات بل
 الإدراك الفعلي. لذلك أقول: من الناحية العملية والفعلية ليس هناك فرق
 بين برغم الشقة الزمنية الفاصلة بينهما.

السبكي في (عروس الأفراح) يورد نفس التحليل لنفس القولة، ولكن بصورة
 من تحليل المغربي. والسبكي يفضل أن يجعل الفعل بصيغة المضارع
 (أدعوك؟) لأنه، كما يقول، (أدل على بقاء الطلب والاستبطاء، بخلاف
 المصدر من موبخ قد انقطع غرضه من إجابة دعائه أو بعد تعذر الإجابة)

ثم يقول^(١):

(إن الاستبطاء في قولك (كم أدعوك) معناه أن الدعاء قد وصل إلى حد لا عدده. فأننا أطلب أن أفهم عدده. والعادة تقضي^(٢) بأن الشخص يستفهم عن عم صدر عنه إذا كثر فلم يعلمه. وفي طلب فهم عدده ما يشعر بالاستبطاء) (التوكيد تصرفي).

والسبكي يشير إلى أن حالات خروج الاستفهام على خلاف مقتضى الظاهر بالتعبير المعاصر استخدام صيغة الاستفهام في إنجاز الأفعال الكلامية غير المباشرة يسمى (الإعنائات). وأن ابن المعتز سماه (تجاهل العارف). وقد لاحظنا أن البلا المتأخرين أسموه (استفهاماً مجازياً) أو غير حقيقي. ولا عبرة بالأسماء. كما ذكرنا. والآن نعود إلى المغربي لنورد مثلاً آخر منه على فعل كلامي غير مباشر (العرض) - باستخدام الاستفهام. فبعد أن يقارن المغربي بين فعلي (العرض) (التحضيض). يحلل مثلاً على العرض. وهو قول القائل (ألا تنزل تصيب خيراً؟) المغربي^(٣):

(وإنما قلنا أن العرض داخل في الاستفهام لأنك إذا قلت (ألا تنزل تُصِيبُ) مثلاً، فالتهمزة فيه للاستفهام في الأصل. ومنع في الحال من إرادة الاستفهام كون الغزول في الحال وفي الاستقبال معلوماً بقرينة من القرائن. أو نزل منزلة المعلم كون السؤال عنه لا يتعلق به الفرض. والاستفهام إنما يكون عن المجهول استقبلاً مع تعلق الفرض. ولما تعذر الاستفهام الحقيقي للمعلم ولعدم تعلق الفرض حمل على الإنكار بقرينة إظهار محبة ضد مدخولها. ومعلوم أن إنكار النفي يتولد طلب ضده ومعبته فتضمن الكلام طلب الغزول وعرضه على المخاطب) (التوكيد تصرفي).

وفي هذا المثال أيضاً يمكن أن نذكر خطوات الاستنتاج فيه على غرار المثال المذكور فهو لا يختلف كثيراً من ناحية طريقة التحليل والاستنتاج. ومن خلال السطوة أكدناها يتبين إشارة المغربي لمبدأ (تجاهل العارف) أو (سوق المعلوم مساق غير لقاعدة الصلة). ولدور العرف أو المعلومات الخلفية المشتركة. وهذه كلها

(١) المسبكي، بهاء الدين، عروس الأفراح، مطبعة السعادة بمصر، ١٣٤٢هـ: ٣٠٤.

(٢) هذه إشارة واضحة إلى فكرة القرائن والمعلومات السياقية المشتركة ومنها العرف والتقاليد واستنتاج المفرد غير المباشر.

(٣) المغربي، ابن يعقوب، مواهب الفتاح، مطبعة السعادة بمصر، ١٣٤٢هـ: ٣٣٠.

أداة في مثال الاستبطاء وخطواته الاستنتاجية. ويورد الدسوقي في حاشيته^(١) آية دقيقة بشأن خطوات الاستنتاج في هذا المثال يضيق المجال بذكرها. إنما أود أن أقول أنه كان الأجدريان الأثير والعلوي أن يحللا أمثلة الأفعال البنية غير المباشرة، بنفس هذه الطريقة، وباستخدام الخطوات الاستنتاجية (أمثلاً لتحليل قول عمر (ع)) لعثمان (ع) (آية ساعة هذه؟) معرضاً به لتأخره ليلة الجمعة. فهذا مثال رائع جداً على الاستخدام اليومي المتداول لمثل هذه البنية غير المباشرة. غير أن ابن الأثير في (المثل السائر) والعلوي في (الطراز) اكتفيا بالمثال ووصفه بأنه من التعريض اللطيف والرشيح والمهرب عن الأدب. وكلاهما مهرب كافٍ لتفسير اللطافة والرشاقة والأدب في ذلك المثال على التعريض، بل هو المهرب إلى الأحكام الانطباعية الذوقية التي كانت سائدة قبل الشيخ عبد القاهر

يورد الآن بعض الأمثلة الأخرى على تحليل أفعال الكلام غير المباشرة المنجزة بحال الجملة الاستفهامية. لكي نثبت أن هذه الطريقة في التحليل كانت موجودة عند مدرسة (الجرجاني/ السكاكي) وأنها لم تكن مجرد نزوة أو فكرة عابرة بل مثال واحد ينهم.

قال المغربي شارح التلخيص في كتابه (مواهب الفتحاح)^(٢)، في معرض تحليله بحال الاستفهام لغرض (التعجب)، ما يأتي:

قال التعجب نحو قوله تعالى حكاية عن سليمان، على نبينا وعليه أفضل السلام: (أرى الهدهد؟)، فإن الغرض من هذا التركيب التعجب لأن الهدهد كان لا يغيب سليمان، صلى الله على نبينا وعليه وسلم، إلا بإذنه. فلما لم يبصره، تعجب من غيبه وعدم رؤيته، والمتعجب منه في الحقيقة غيبته من غير إذن، وإنما لم يحمل الغرض من السؤال عن حال نفسه عند عدم الرؤية لأن الإنسان أعرف بحال نفسه، فلا يستفهم عنها... (التوكيد من تصرفي)

لأن المغربي يبدي ملاحظة ذكية على هذا التفسير الشائع لعدم حمل الاستفهام كإثارة، فهو يقول إن التفسير الشائع المذكور أعلاه ينطبق فقط على الأحوال التي بالمتكلم وحده والتي لا تخفى عنه، كقيامه وعوده وجوعه وعطشه، إذ لا زيادة: (ما حال هل أنا عطشان أو جائع أو لا؟). ولهذا يصير الاستفهام في هذه

١- الدسوقي، محمد بن أحمد، حاشية الدسوقي على شرح السمند، مطبعة السعادة بمصر، ١٣٤٢هـ.

٢- ابن يعقوب، مواهب الفتحاح، مطبعة السعادة بمصر، ١٣٤٢هـ: ٢٩٢.

الحالة مجازياً. أما السؤال عن الأحوال المنفصلة أو المتعلقة بغير المتكلم أيضاً، هناك غرابة في أن يسأل المتكلم عن نفسه بها. وفي هذه الحالة يمكن الاستفهام النفس دون أن يتوجب أن يكون الاستفهام مجازياً، إذ يمكن أن يجري على الخط ومن هنا يفسر المغربي ما ذهب إليه الزمخشري وغيره من إجراء الاستفهام في الآية الكريمة على الحقيقة. فالسبب هو أن السؤال في الآية الكريمة يمكن حملها على الحال المنفصلة التي يمكن فيها الاستفهام. لنستمع إلى المغربي وهو يكمل كلامه لم (كذا يقال. ولكن هذا في الأحوال التي لا تخفى عن صاحبها كقيامه وعوده وعطشه، فلا يقال: ما حالي أي أنا قائم أو قاعد أو أنا جائع أو لا؟ وأما إن كان الأحوال المنفصلة أو ما في حكمها، فيجوز أن يستفهم الإنسان عنها كأن يقال: أودي دون سائر المسلمين؟ أي ما المسبب الذي صار متعلقاً بي وحالاً من أمة فأوجب إذابتي؟ اللهم إلا أن يقال أن الحال المنفصلة ليست في الحقيقة حالاً وإنما يمكن حمل السؤال في الآية على الحال المنفصلة التي يمكن فيها الاستفهام أجريت على الاستفهام الحقيقي عند بعض الناس كالزمخشري).

ثم يشرح المغربي في تفسير التجوز أو اللامباشرة بناء على أن الاستفهام خرج مغزى التعجب، فيقول في الصفحة نفسها (٢٩٢):

(ووجه التجوز بناء على أن الاستفهام للتعجب، أن السؤال عن الحال في المسبب في عدم الرؤية يستلزم الجهل بذلك السبب، والجهل بسبب عدمه يستلزم التعجب وقوعاً أو ادعاءً، إذ التعجب معنى قائم بالنفس يحصل من الأمور القليلة الوقوع المجهولة المسبب، فاستعمل لفظ الاستفهام في التعجب مرسلاً من استعمال الدال على الملزوم في اللازم)^(١)

ومن المغازي الكلامية التي يحققها الاستفهام بصورة غير مباشرة، (التنبيه الضلال). ويحلل المغربي المغزى غير المباشر في هذه الحالة فيقول في الصفحة (ص ٢٩٢):

((والتنبيه على الضلال نحو)) قوله تعالى ((فأين تذهبون؟))، إذ ليس له منه استعمال مذهبهم، بل التنبيه على ضلالهم وأنهم لا مذهب لهم ينجون به. ويؤكد هذا الاستعمال بالتصريح بالضلال فيقال لمن ضل عن طريق القصد:

بم

(١) أورد الأسفراييني في كتابه (الأطول ج ١ ص ٢٤٣) التحليل نفسه ولكن بأسلوب أوضح فقد التعجب لأن الاستفهام عن سبب عدم رؤيته يستلزم قلة وقوعه والجهل لسببه، إذ لا استفهام عن سبب ما يكثر وقوعه، وقلة الوقوع والجهل بالمسبب يستلزم التعجب لأنه كيفية نفسانية تباها الأمور القليلة الوقوع المجهولة الأسباب).

من نذهب؟ قد ضللت هارجع). وبهذا يعلم أن التنبيه على الضلال لا يخلو من التنبيه، والعلاقة بين التنبيه على الضلال والاستفهام أن في الاستفهام تنبيه على المستفهم عنه وذلك مستلزم لتوجيه القلب له وتوجيه القلب إلى الضلال الذي تراء واضح الفساد والهلاك والضلال، مستلزم للتنبيه إلى الضلال الذي للتنبيه عليه. فهو مجاز مرسل من استعمال الدال على الملزوم في الجملة. وقد استلزم التنبيه على الضلال على وجه الاستفهام إشارة لطيفة إلى أن إدراك الضلال بالتنبيه، وأن المنبّه كأنه أعلم به حتى أتى فيه بطريق الاستفهام الذي إنما كان هو أعلم بالمستفهم عنه^(١).

تحليل المغربي للاستعمال غير المباشر لجملة الاستفهام في إنجاز فعل (الوعيد) هذا، يتحدث بصورة صريحة عن (المعلومات المتبادلة) (*Mutual Knowledge*) التي ذكرها (سيرل) وغيره من اللغويين المعاصرين في تحليلاتهم. وهذا مما يؤكد ما ذهب إليه من أن المغربي وغيره من البلاغيين كانوا مدركين لدور المعلومات والمعتقدات المتبادلة، بصورة ضمنية من خلال تحليلاتهم، وإن لم يذكروها صراحة. فهربونها تحصيل حاصل مسلماً به. فلنستمع إلى المغربي^(٢):

«إذا علم ((المخاطب المسيء للأدب)) معك: ((ألم أؤدب فلاناً؟))^(٣) وإنما يكون العلم لأنه يستدعي الجهل، وهو عالم أنك عالم بتأديب فلان، بل يحمله على تأديبك من الوعيد بقريئة كراهية الإساءة المفتضية للزجر بالوعيد. والعلاقة كون العلم عن شأن الأدب في الإساءة مشعراً ومنها على أنه جزاء الإساءة لينزجر عنها، فيجلى ذلك الجزاء من المتكلم وعيد. فهو مجاز مرسل من استعمال اسم الملايس في الجملة. (التوكيد من تصرفي).

المعلومات والمعتقدات المشتركة والمتبادلة تعتبر جزءاً مهماً من مفهوم السياق والمضام. فإذا كانت حال المتكلم والمخاطب، مثلاً، هي المعرفة المتبادلة بينهما بالمخاطب بالتأديب، كما في المثال المذكور أعلاه مثلاً، فإن السؤال لا يحمل على

^(١) ابن إسفراييني (الأطول ج ١ ص ٢٤٢) هذه الإشارة اللطيفة نوعاً من المبالغة حيث قال: (وفي حال الاستفهام دون التصريح بكونه طريق ضلال، مبالغتان: إحداهما أن كونه ضالاً أمر واضح يكفي في مجرد الالتفات إليه. والثانية إيهام أن المخاطب أعلم بذلك الطريق من المتكلم حيث يحتاج إلى إيهام عنه).

^(٢) ابن يعقوب، مواهب الفناج، مطبعة السعادة بمصر، ١٣٤٢ هـ: ٢٩٢.

^(٣) إسفراييني تحليل هذا المثال في (الأطول ج ١ ص ٢٤٢) بتفصيل أكثر مع ذكر بدائل أخرى للتحليل

الاستفهام لأن الاستفهام يستلزم الجهل على حد تعبير المغربي. ومن هنا يتبين إلمام المهتم للمعلومات المتبادلة كعنصر فعلياتي وسياقي حاسم في تحديد مغزى الكلام على الأقل في تحديد كونه مباشراً أو غير مباشر. فهو يمثل نقطة حاسمة في الاستدلال، كما قال (سيرل)، لأنه يساعد المستمع، في مفتوح الطرق، على اتخاذ اتجاه التفسير المباشر أو غير المباشر أما تضييق الفعل الكلامي أو المغزى الملم بالذات فتتظافر فيه المعلومات المتبادلة وبقبة القرانن السياقية وقابلية المستمع الاستنتاج وقواعد المحاوره. الخ مما تقدم ذكره.

وأما بالنسبة لاستخدام الاستفهام في الإنجاز غير المباشر لفعل (التقرير)، فالمغربي نوعين من المغزى ويميز بينهما هكذا^(١):

((وكالتقرير)) ويكون لمعنيين: أحدهما التحقيق والتثبيت، كقولك، عند الانتقام أو اللوم والعزم على الشروع فيه لا على طريق الوعيد والتخويف، (إلا فلاناً؟) بمعنى: (إنك قتلته قطعاً، فلا نجاة لك من اللوم أو القتل). والعلاقة في الاستفهام مقتضى لكون المستفهم أعلم بحيث لا ينكر بل يحقق ما استفهم فاستعمل في التحقيق الذي لا يُنكر توسعاً ومجازاً بالملايسة اللزومية في الجملة تقدم. والأخر حمل المخاطب على الإقرار والجاؤه إلى ذلك الإقرار والزامه إياه لما من الأغراض، كأن يكون السامع منكراً لوقوع ذلك الفعل من المخاطب، فتسمع منه من غير قصد لحقيقة الاستفهام المستلزم للجهل: أو يكون في السامع تلذذ بسبب المراجعة في الخطاب أو نحو ذلك... والإقرار، أي حمل المخاطب الإقرار، تابع له [للاستفهام] لأن الجواب في الاستفهام إقرار. فالاستفهام من أجله على الإقرار في الجملة، فاستعمل الاستفهام في مطلق طلب الإقرار من سابق جهل مجازاً مرسلأ فيعتبر في التقرير ما يعتبر في أصله.. (التوكيد من تصريح إن النص المتقدم لا يختلف عن النصوص السابقة الأخرى في تفسيره وتم لعملية الاستنتاج أو التوصل إلى المغزى غير المباشر للجملة الاستفهامية. وبلاجم سعة أفق المحلل ورؤيته الفعلية لتنوع المغازي والتفسيرات التي يمكن أن تمثّل التحقيق، والتلذذ بسبب المراجعة والتقرير أي حمل المخاطب على الإقرار إسماع الشخص الثالث المنكر لوقوع الفعل. وهذا المغزى الأخير قريب جداً مما في المحاكمة والاستجواب. ويسمى في اللغة الانكليزية (المسؤال التقريري) *ding* *Question* والذي يقصد منه حمل المخاطب على الإقرار ليسمع الحاضرون.

(١) المغربي، ابن يعقوب، مواهب الفلاح، مطبعة السعادة بمصر، ١٣٤٦هـ: ٢٩٤

المعلومات.

المثال الأخير الذي نوردته من المغربي على تحليل أفعال الكلام غير المباشرة
لغات استنتاجها يتعلق باستخدام الاستفهام لغرض (التهمك) و (التحقيق). يقول
(١)

((وكانتكم نحو)) قوله تعالى حكاية عن الكافرين في شأن شعيب على نبينا وعليه
السلام: ((أصلواتك تأمرك أن نترك ما يعبد أبائنا؟)). فليس المراد به
السال عن كون الصلاة أمره بما ذكر، وهو ظاهر، بل قصدهم لعنة الله عليهم
بصفاف بشأن شعيب في صلاته، فكأنهم يقولون: لا قرينة لك توجب اختصاصك
بأولئنا إلا هذه الصلاة التي تلازمها، وليست هي ولا أنت بشيء. وبهذا الاعتبار
الصلاة كما يُشك في كونه سبباً للأمر، فنسب الأمر لها مجازاً عقلياً كما تقدم.
بهذا التركيب مجازاً إسنادياً، وفيه أيضاً، باعتبار أنه الاستفهام، [مجاز] لغوي.
لأنه أن الاستفهام عن كون الصلاة أمره يناسب اعتقاد المخاطب أنها أمره.
فإن ذلك يقتضي الاستهزاء بالمعتقد، إذ ليست مما يأمر أو ينهي. فهو من المجاز
بل لعلاقة اللزوم في الجملة. ((وكانتكم نحو)) قولك: ((من هذا؟)) لقصد
أنك تعرفه. والعلاقة أن المحقق من شأنه أن يُجهل لعدم الاهتمام به،
فهم عنه. فبيتهما اللزوم في الجملة..).

المثال التهمك الوارد في النص أعلاه هو مثال مركب، كما هو واضح. فقد اختلط
الغرض بالاستعارة المفردة. أو لنقل أنه يحتوي مجازاً مركباً ومجازاً مفرداً. وقد
المغربي هذا التركيب وفسره بشكل مقبول.

لكن المغربي قد تناول خروج الاستفهام لإفادة مغزى الإنكار، لكن تحليله كان
الضيق به المجال. ثم إن العصام الأصغرياني، صاحب كتاب (الأطول) في شرح
مفسر، تناول أيضاً نفس المثال على استخدام الاستفهام للإنكار، ولا بأس في أن
استعراضنا الموجز لتحليلات فعل الكلام غير المباشر، بتحليل العصام لفعل
الإن باستخدام الجملة الاستفهامية. فهو يتسم بالدقة والعلمية وبخاصة تحليل
السند (السيد الشريف الجرجاني) الذي يستشهد به. ويميز العصام متأثراً
إبه السكاكي، بين نوعين من الإنكار الأول يعني التوبيخ لعدم لياقة الفعل المنكر؛
الذي يعني تكذيب من ادعى حصول الفعل المنكر. ولنقتبس المقطع الآتي من تحليله
لغرض الإنكاري كما في قول القائل لمن همَّ بالعصيان (أتعصى ربك؟)، أو كما في

(١) ابن يعقوب، مواهب الفتح، مطبعة السعادة بمصر، ١٣٤٢هـ: ٢٠٢

قوله تعالى ((أفأصفاكم ربكم بالبنين؟))، يقول في (الأطول)^(١) (والعلاقة بين الاستفهام والإنكار بمعنى نفي اليقظة أن ما لا ينبغي مما لا يعقل بوقوعه في الماضي أو المستقبل، ويشك فيه والشك يستدعي الاستفهام، بالاستفهام أنه مما لا ينبغي، وكذا بين الاستفهام والإنكار بمعنى التكذيب، إن الكاذب، وإن ادعاه أحد، لا ينبغي أن يصدق به، غاية الأمر الشك فيه، فأفاد المعنى أن غاية الأمر فيه الشك دون الدعوى. وقال السيد المسند: إنكار الشيء بمعنى: والنفرة عن وقوعه في أحد الأزمنة. وادعاء أنه مما لا ينبغي أن يقع يستلزم المستلزم لعدم توجه الذهن إليه، المناسب للكراهة والنفرة عنه وادعاء أن لا ينبغي أن يكون واقعاً. وقس على هذا حال الإنكار بمعنى التكذيب)^(٢).

لا أظن أن أحداً يجزئ على التشكيك في علمية ومنطقية هذا التحليل: الفعلياتي من السيد الشريف الجرجاني والعصام الأسفراييني. فهذا التحليل لزمانه في بيان كيفية اكتساب القولة لمغزاها الفعلي غير المباشر والخطوات التي المستمع في استنتاج ذلك المعزى. وفي هذا النوع من التحليل يبدو جلياً أن المستفاد من علم الدلالة والفعليات وعلم النفس وغيرها من الحقول.

لقد ركزنا في هذا القسم بصورة رئيسة على ما كتبه أحد شراح المتخصصين بخصوص بعض حالات الفعل الكلامي غير المباشر المنجز باستخدام الاستفهام بما كتبه بخصوص الحالات الأخرى؟ وكيف بما كتبه الآخرون وهم أكثر؟ وكيف الذي كتب ولم يصلنا، أو وصلنا لكنه ما زال مخطوطاً لم ينشر لحد الآن؟ وما كتاب كامل مكرس فقط للاستفهام وللأفعال المجازية (غير المباشرة) باستخدامه، وهو كتاب العلامة (شمس الدين بن الصائغ) وعنوانه (روض الأقسام الاستفهام). وقد ذكره السيوطي في (الإتقان)^(٣) فقال: (وقد تستعمل الاستفهام في غيره مجازاً. وألف في ذلك العلامة شمس الدين بن الصائغ كتاب (روض الأقسام في أقسام الاستفهام)، قال فيه: قد توسعت العرب فأخرجت عن حقيقته لمعانٍ أو أشربته تلك المعاني...) ولاندري ما مصير هذا الكتاب كثيراً؟ وهو موضوع يستحق الاستقصاء.

(١) الإسفراييني، عصام الدين، الأطول في شرح التلخيص، المطبعة السلطانية، اسطنبول، ١٩٤٤.

(٢) كلام العصام في أغلبه منقول نصاً عن أستاذه السيد الشريف الجرجاني، الذي يلقبه أحياناً (السند). أنظر حاشية السيد الشريف على الأطول (ص: ٢٣٨) فهو العقل المفكر وراء الكثير المفرد والعصام وغيرهم من الشراح.

(٣) السيوطي، جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، المكتبة الثقافية، بيروت، ١٩٧٣: ٧٩.

الكله فيما يخص استخدام الاستفهام فقط. وهناك بالطبع نفس القدر من التحليلات والاستنتاجات فيما يخص الأمر والنهي والخبر وأنماط الجمل التي نجح بها كتب شراح التلخيص وغيرهم ويضيق بها المجال. لهذا توجب علينا أن نتقائين.

أورد أن أعود فأؤكد ما سبق أن ذكرته من أنه كان حرياً بالمغربي وبقيّة شراح أن يسموا الأفعال الكلامية غير المباشرة التي حللوها (مجازاً مركباً)، لأن هذه مهمة في الموضوع. فالفعل الكلامي غير المباشر هو، حسب تعريف (سيرل)، كالم فعل كلامي لإنجاز فعل كلامي آخر، أو إضافة إلى الفعل الكلامي الحرفي المنمط الجملة. وهذا هو بالضبط مفهوم (المجاز المركب): فهو عبارة عن جملة أو التركيب يأكمله أو بصورته المجموعية، في غير ما وضع له، لعلاقة السياق وسترائية المستمع في الاستنتاج. فالاستفهام، مثلاً، وضع في الأصل لفهم أو طلب التزود بالمعلومات التي يجهلها المستفهم، وليس للأغراض غير المجازية التي أوردنا أمثلة على بعضها.

إلهان لفظة (مجازي) في مصطلح (استفهام مجازي) تتعلق بالمجاز المركب الأولي. أما ما ذكره المغربي والشراح الآخرون من أنه (مجاز مرسل)، فهو مع كونه مجازاً مركباً، فالأمثلة التي أوردناها كانت في أن واحد مركبة على علاقتها ليست علاقة تشبيه.

ذكر القاري، بما سبق أن أكدناه من أن هناك نوعاً من المجاز المركب علاقتهم حسب رأي البلاغيين، وهو المجاز التمثيلي أو الاستعارة التمثيلية. وهذا أصل للنقاش، في رأيي. فقد سبق أن أهدينا رأياً رددنا فيه كافة علاقات المجاز التي التعريض، إلى قاعدة الصلة واستغلالها. وهذا يفسر إصرار البلاغيين تحاشياً على ذكر ما يسمونه بـ (العلاقة) بين المعنى الحرفي الحقيقي وبين المعنى المجازي من علاقة أو صلة، أي صلة بين المعنى والسياق، وبين (معنى الجملة) المتكلم، أو بين المعنى الوضعي الحقيقي والمعنى المجازي غير المباشر. وقد هي المجازي غير المباشر لأن استغلال (قاعدة الصلة أو المناسبة) لا بد أن ينتج عن غير ذي صلة ظاهرياً، أي مفرد غير مباشر؛ وهذا يشمل (التعريض) و (كيب) بكل أنواعه.

قول قائل إن المغربي وبقيّة الشراح حللوا المجاز المركب بنفس المعايير التي حللها المرسل المفرد، مثل علاقة السببية التي يمثل لها بقول القائل (رعينا من النبات الذي سببه الغيث وهو المطر، لذلك فالعلاقة هي السببية؛ أو مثل

علاقة المسببية كما في قوله تعالى ((ونزل لكم من السماء رزقاً))، فالنبيات، الذي الرزق، مسبب عن المطر الذي ينزل من السماء، فهو مجاز علاقته المسببية. وعلاوة على ذلك، المجاز المرسل، كالسببية والمسببية، ليست مقتصرة على المجاز المفرد، فالمجاز المجاز قد يكون مركباً، كما أسلفنا. وفي تلك الحالة، تكون العلاقة التي يتحدث عنها البلاغيون، مثل السببية وغيرها، علاقة بين جملة كاملة وجملة كاملة أخرى، وليست علاقة لفظية مفردة بلفظة مفردة أخرى، أي أنها علاقة تركيب وليست علاقة مفردة. وهذا أمر معروف ومفروغ منه قبل ابن الشجري الذي قال في أماليه في كلامه على المعاني المجازية التي يخرج إليها الكلام^(١): (وأقول أنه كما جاز في الألف المفردة ما يتفق لفظه ويختلف معناه، كذلك أن يكون من الألفاظ المركبة المفردة ما يتفق معناه واللفظ واحد).

إذن فليس هناك ما يدعو إلى الخوف من أن شراح التلخيص كانوا يتحدثون عن المجاز المفرد. وأمثلة التي ساقوها أكبر دليل على كلامنا. فكل الأمثلة كانت عبارة عن استخدام تركيب أو جملة بمعنى آخر مغاير للمعنى الحرفي لذلك التركيب في الجملة بصورتها المجموعية، مع قرينة مانعة من إرادته (أي إرادة المعنى الحرفي) وعلاقة مصححة هي علاقة (اللزوم أو الاستلزام). وعلاقة اللزوم هذه هي علاقة السببية والمسببية، وهي، من ثم، تتضمن مفهوم الاستنتاج الذي تسلفنا نظرية التلويح لدى (كرايمس). أما القرينة المانعة من إرادة المعنى الموضوع له، فتشمل الذهن عنه، فهي إما قرينة حالية، وتشمل حال المتكلم، لكن يمكننا أن نتصور أنها تشمل (المقام أو السياق المقامي) Context الذي يتضمن المعلومات والمعاني السياقية المشتركة والعرف والتقاليد وما شاكل، أو هي قد تكون قرينة لم يقصدون بها (السياق اللغوي أو اللفظي) Cotext. فالقرينة المانعة هي السياق المقامي والحالي من جهة، والمقالي (اللفظي) من جهة أخرى. والقرينة هي التي تلعب دوراً في الكشف عن طبيعة (العلاقة المصححة) التي تربط بين المعنى الحرفي والمعنى المجازي.

(١) ابن الشجري، أبو السعادات، الأمالي الشجرية، جندب آباد الدكن، دائرة المعارف العثمانية، ١٩٠٩

المصادر والمراجع

المصادر العربية

- ابن الأثير، ضياء الدين، المثل السائر، مطبعة الحلبي، مصر، ١٩٣٩.
- ابن الشجري، أبو السعادات، الأمالي الشجرية، حيدر آباد الدكن، دائرة المعارف العثمانية، ١٣٤٩هـ.
- الإسفرابي، عصام الدين، الأطول في شرح التلخيص، المطبعة السلطانية، استانبول، ١٢٨٤هـ.
- الفتازاني، سعد الدين، المطول على التلخيص، مطبعة أحمد كامل، استنبول، ١٣٣٠هـ.
- التهانوي، محمد علي الفاروقي، كشاف اصطلاحات الفنون، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٣.
- الجرجاني، السيد الشريف، حاشية على المطول، مطبعة أحمد كامل، استنبول، ١٣٣٠هـ.
- الجرجاني، عبد القاهر، أسرار البلاغة، المكتبة التجارية الكبرى بمصر، ١٩٣٢.
- الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز، تحقيق محمد عبده، مكتبة القاهرة، القاهرة، ١٩٦١.
- الخصري، محمد الدمياطي، حاشية على السمرقندية، المطبعة الأزهرية، ١٩٣١.
- الدسوقي، محمد بن أحمد، حاشية الدسوقي على شرح السعد، مطبعة السعادة بمصر، ١٣٤٢هـ.
- المسكي، بهاء الدين، عروس الأفراح، مطبعة السعادة بمصر، ١٣٤٢هـ.
- المسكاني، أبو يعقوب يوسف، مفاتيح العلوم، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٣٧.
- المصالكوتي، عبد الحكيم، حاشية على المطول، الشركة الصحافية العثمانية، ١٣١٢هـ.
- السيوطي، جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، المكتبة الثقافية، بيروت، ١٩٧٣.
- العلوي، يحيى بن حمزة، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة، دار الكتب الخديوية، القاهرة، ١٩١٤.
- مهنا، شكري محمد (١٩٦٧): كتاب أرسطوطاليس فن الشعر، دار الكاتب العربي، القاهرة.
- القرظيني، جلال الدين محمد، تلخيص المفتاح، مطبعة أحمد كامل، استنبول، ١٣٣٠هـ.
- الغري، ابن يعقوب، مواهب الفتاح، مطبعة السعادة بمصر، ١٣٤٢هـ.

جملة من الملفوظات تنتظم في مواقف لغوية تحكمها قواعد اللغة واستعمالاتها، والمواقف الخارجية التي يمثلها السياق غير اللغوي الذي يوجه المتكلم والسامع على حد سواء في توجيه الدلالات اللغوية للكلام. من هنا نجد (فان دايك) الذي يعد أحد الرائدین في اللسانيات النصية، يضيف سمة أخرى إلى سمات النص، ألا وهي التداولية (*Pragmatics*)^١، فهي التي تقوم بمهمة معالجة القبول التي تجعل المنطوقات اللغوية مقبولة أو ملاممة في موقف اتصالي يعبر بواسطته مستعمل اللغة، يقول (فان دايك): ((والتداولية كأكبر مكون ثالث لأي نظرية سيميوطيفية... ينبغي أن تكون مهمتها دراسة العلاقات بين الرموز والعلامات والمستعملين لها (...)) أعني أن التداولية يجب أن تعين المجال الأميريقي (التجريبي) القائم على القواعد المتواطأ عليها في اللغة، والبرهنة على هذه القواعد من خلال إنتاج العبارات الملفوظة وتأويلها، وبخاصة يجب أن تسهم إسهاماً مستقلاً في تحليل الشروط التي تجعل تلك العبارات جائزة ومقبولة في موقف معين بالنسبة للمتكلمين بتلك اللغة))^(٢).

والتداولية^(٣) بوصفها مياقاً تواصلية، تقوم أساساً على تفسير النص بوصفه فعلاً كلامياً، أو بوصفه سلسلة من أفعال كلامية، ((فالوعد والتهديدات، والتأكيدات، والأمثلة، والطلبات، والأوامر الخ... هي أمثلة على الأفعال الكلامية. تقوم بفعل كلامي

• تعرف التداولية (*Pragmatics*) بأنها: (دراسة التواصل اللغوي، وبصفة خاصة العلامات بين الجمل والسياقات والأحوال التي استعملت اللغة فيها، وهي تدريس:

١. كيفية تفسير الأقوال المستعملة، أو اعتمادها على المعرفة بالعالم الواقعي المحيط بالنص.

٢. كيفية فهم المتحدثين للأحداث الكلامية (*Speech Acts*).

٣. كيفية تأثير تراكيب الجمل في العلاقة بين المتحدث والسامع.

اللفي (د. صبحي إبراهيم): علم اللغة اثنصي بين النظرية والتطبيق، دار فضاء للطباعة والنشر والتوزيع: ط ١، القاهرة، ٢٠٠٠: ١ / ١٢.

(١) فان دايك (تون أ): النص والسياق: ترجمة عبد القادر قنهن: أفريقيا الشرق، ط ١، الدار البيضاء: ٢٠٠٠: ٢٦٥-٢٦٦.

(٢) نجد الإشارة هنا إلى أن تودوروف في دراسته عن فكر ميخائيل باختين، وعند حديثه عن مصطلح (*metalinguistics*) الذي يقترح له مترجم الكتاب تسمية (عبر اللسانيات)، يقول تودوروف: "والاصطلاح المستخدم حالياً والذي يطابق تماماً مع غرض باختين هو التداولية *Pragmatics* على الأغلب، ويمكن للمرء أن يقول من دون مبالغة إن باختين هو المؤسس الحديث لهذا الحقل من حقول المعرفة".

بنظر: تزفتان تودوروف، المبدأ الحوارية، دراسة في فكر ميخائيل باختين، ترجمة: فخري صالح، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ط ١، ١٩٩٢: ٤٠.

حين نلتحق بجملته أو بعدة جمل في سياق ملائم لها^(١). ويقدم (فان دايك) المثال الآتي: ((هل تستطيع مساعدتي في دفع السيارة))^(٢) على أن لفظه يعني القيام بفعل الطلب، وأن هذا الفعل لا معنى له ما لم تتوافر فيه بعض الشروط التي تتعلق بالسياق الذي تلفظ فيه العبارة بوصفها فعلا كلاميًا. ففي هذه الحالة (حالة الطلب) يجب أن يكون المتكلم راغبًا في شيء ما، ويفترض بالمتلقي أن يكون مستعدًا لفعل ذلك الطالب وقادرا عليه. ومن ثم فإن هنالك جملة من العوامل التي يتألف منها السياق التداولي تتمثل في المعرفة التي يمتلكها مستعملو اللغة، ورغبتهم أو إرادتهم، وأشيائهم المفضلة، وآرائهم، وأيضا علاقاتهم الاجتماعية (علاقة سلطوية، علاقة صداقة... وغيرها)^(٣).

وفي حديثه عن تداولية النصوص بوصفها متتاليات أفعال كلامية، يرى (فان دايك) أن من المهم أن تحدد العلاقات التي تمكن من ترتيب أفعال كلامية في متتاليات أفعال كلامية أكبر منها، وعن طريق ارتباط هذه المتتاليات بمتتاليات جمل أو عبارات النص المنطوق، يرى أن هناك مجموعة من العلاقات هي التي تحكم هذا الارتباط منها علاقة التعليل أو التفسير - التي تكون بين الطلب والإبلاغ مثلا- ((بواسطة النطق بوجه طلب، وبواسطة الجملة السابقة أو اللاحقة للأولى أعطى طلب، وأعرض أسبابه، إذن يمكننا بوجه عام أن نجعل أحد الأفعال الكلامية معقولا أو ممكن التصديق بواسطة فعل آخر))^(٤).

وبشير (فان دايك)، إلى أن من الممكن أن تشكل متتاليات الأفعال الكلامية للنص المأخوذ ككل - مثلما في بيان المعلومات والسرد والعرض والمحادثة - بالاستدلال الذي قدمه اعتمادا على بني تداولية كبرى لكي ((تتمكن من الكلام على الوظيفة الإجمالية لنص معين. في الواقع حينما نلتحق بنص مأخوذ بكليته، إنما نقوم أيضا بفعل كلامي إجمالي أو حتى بفعل كلامي كبير))^(٥)، فهذه الأفعال الكلامية الكبيرة مشتقة من

(١) فان دايك (٢٠٠١): النص: بناؤه ووظائفه مقدمة أولية لعلم النص: ترجمة جورج أبي صالح: مجلة

العرب والفكر العالمي: مركز الإنماء القومي، العدد الخامس، شتاء ١٩٨٩: ٦٩.

(٢) المرجع نفسه: ٦٩.

(٣) يُنظر: المرجع نفسه: ٧٠.

(٤) فان دايك (٢٠٠١): النص: بناؤه ووظائفه مقدمة أولية لعلم النص: ترجمة جورج أبي صالح: مجلة

العرب والفكر العالمي: مركز الإنماء القومي، العدد الخامس، شتاء ١٩٨٩: ٧٠.

(٥) المرجع نفسه: ٧٠.

هو تفاعل المعلومات التي يعرفها النصّ مع المعرفة المسبقة بالعالم.

٣. القصدية (Intentionality):

تتضمن القصدية موقف ملثى النصّ من صورة معينة من صور اللغة قصد بها أن تكون نصّاً يتمتع بالاتساق والانسجام، وأن نصّاً مثل هذا يمثل الوسيلة المرجوة للوصول إلى غاية بعينها.

٤. المقبولية (Acceptability):

تشمل المقبولية موقف مستقبل النصّ إزاء كون صورة ما من اللغة لها أن تكون مقبولة من حيث هي نصّ ذو اتساق وانسجام.

٥. رعاية الموقف (Situationality):

ويطلق عليها المقامية، وتتضمن العوامل التي تجعل النصّ مرتبطاً بموقف سائد يمكن استرجاعه. ويأتي النصّ في صورة عمل يمكن له أن يراقب الموقف وأن يغيّره. وقد لا يوجد إلا القليل من الوساطة في عناصر الموقف كما في حالة الاتصال بالمواجهة في شأن أمور تخضع للإدراك المباشر، وربما توجد وساطة جوهريّة كما في قراءة نصّ قديم ذي طبيعة أدبيّة بشأن أمور تنتمي إلى عالم آخر (مثلاً: ملحمة كلكامش، أو الأوديسا).

إن مدى رعاية الموقف بشيردائماً إلى مكانة طرفي الاتصال في الأقل، ولكن قد لا يدخل هذان الطرفان في بؤرة الانتباه بوصفهما شخصين.

٦- التناصّ (Intertextuality):

يتضمن التناصّ العلاقات بين نصّ ونصوص أخرى مرتبطة به. وقعت في حدود تجربة سابقة، بوساطة كانت أو بغير وساطة. فالجواب في المحادثة، أو أي ملخص بذكر نصّ ما بعد قراءته مباشرة.

٧. الإعلامية (Informativity):

هي العوامل المؤثرة بلا حتميّة الحكم على الوقائع النفسيّة، أو الوقائع في عالم نصّي في مقابل البدائل الممكنة. فالإعلاميّة تكون عالية الدرجة عند كثرة البدائل وعند الاختيار الفعليّ لبدل من خارج الاحتمال ويرى (دي بوجراندي) أنّ اثنين من هاتين المعايير السبعة لهما صلة وثيقة بالنصّ، وهما (الاتساق والانسجام)، واثنان مهمّ نفسيّان، هما (رعاية الموقف والتناصّ). أما المعيار الأخير (الإعلاميّة) فهو بحسب

التقدير^(١). ويرى أنّ هذه المعايير لا يُفهم أيّ منها من دون التفكير في العوامل الأربعة، اللغة، والعقل، والمجتمع، والإجراء (Processing)، وأنّ النصّ لا يعدّ نصّاً إلاّ بمراعاة هذه المعايير السبعة. ويرى أيضاً أنّه لا بدّ من مبادئ تنظيميّة تمنح أيّ أنموذج لغوي قيمة ليعترف له من ثمّ بأنه نصّ. ويقترح معايير تؤدي الوظيفة التنظيميّة، يطلق عليها معايير التصميم، وهي^(٢):

- كفاءة النصّ: وتأتي من انتفاعه في الاتصال بأفضل نتائج الاقتصاد في الجهد حتى يصل إلى سهولة متزايدة.
- تأثير النصّ: يتوقف هذا المعيار على قوة تأثيره في مستقبله، وهي تعزز عمق الإجراء. كما يتوقف على الإسهام في الوصول بمنتجه إلى غايته بتأسيس صلة ما بين مادة النصّ وخطوات خطّة ما.
- ملاءمة النصّ للتوافق الكميّ بين مطالب الموقف الاتصاليّ ودرجة مراعاة معايير النصيّة. ويشير إلى أنّ هذه المعايير التصميميّة أكثر حيوية فياسا بمقدرة مستعملي اللغة على التفريق الشهير بين الجمل واللاجمل، أو التفريق بين النصّ واللانصّ^(٣).

وفضلاً عن المعايير التنظيمية آنفة الذكر ثمة بعد وظيفي يوجّه العلاقة بين النصّ/الكلام، والتواصل/السياق، إذ يحاول هذا البعد الربط بين البنية اللغوية للجمل، والظروف المقامية التي تنجز فيها، فهو يعالج الظاهرة اللغوية ضمن ظروف خارجية تحيط بالعملية الكلامية، من دون حصر هذه المعالجة في إطار لغوي خالص، لذا فإنّ هذا الاتجاه ينظر إلى الأبعاد غير اللغوية على أنّها علاقات قائمة بين مكونات الجملة، على غرار العلاقات التركيبية والدلالية، وعليه ينبغي عند تحليل الجملة أن يكون ثمة تمثيل للوظائف غير اللغوية، مثلما تمثل الوظائف التركيبية والدلالية، ولذلك يقصد تحقيق الأهداف التواصلية بين مستعملي اللغة، التي هي الغاية الأساسية التي تسعى إلى تحقيقها اللغة.

ومن هنا جاءت الإسهامات التي قدمها علم اللغة النصي بالربط بين اللغة بوصفها

(١) يُنظر: دي بوجراند: ١٠٦.

(٢) يُنظر: سعيد بحري نغلا عن (دي بوجراند) و (درسلر) إلى أنّ الإعلامية ورعاية الموقف هما المعياران اللذان يتصلان بكل من السياق المادي والثقافي المحيط بالنصّ. يُنظر: بحري (سعيد حسن): ١٦٩.

(٣) يُنظر: دي بوجراند: ١٠٧.

(٤) يُنظر: دي بوجراند: ١٠٧.

❖ المراجع الأجنبية

- Gazdar, G. (1979). *Pragmatics: Implicature, Presupposition and Logical Form*. New York: Academic Press.
- Gazdar, G. (1981). *Speech Act Assignment*. In Joshi, Webber and Sag (1981).
- Levinson, S.C. (1983). *Pragmatics*. Cambridge: CUP.
- Searle, J.R. (1975). *Indirect Speech Acts*. In Cole and Morgan.
- Sperber, D. and Wilson, D. (1986,1995). *Relevance*. Oxford: Blackwell.

الحجاج ونظريات التواصل

د. فاطمة داؤد*

❖ مدخل

تناول هذا البحث قضية الحجاج في الدرس البلاغي المعاصر الذي تبدي في حقلين اثنين: الحقل اللساني، والحقل النقدي، وانقلت الحجاج ليصبح من فروع نظرية التواصل، ومن هنا ستبين الباحثة العلاقة بين الحجاج ونظريات التواصل، وتوضح ارتباط الوثيق بين البلاغة ونظريات التواصل والسيمانيات في مجال وصف خصائص الإقناعية للنصوص وتقويمها.

لقد تناول المفكرون - قديما - قضية الحجاج في إطار الخطاب الشفوي المباشر من جهة، والمساعداة المقامية الشكلية من جهة أخرى، وإذا كانت البلاغة القديمة - يونانية والعربية - قد تناولت الحجاج إلا أنها اكتفت بالإشارة إلى مقامات نامعين، وما يدور في فلك الخطيب في دعم خطابه.

أما الحجاج في الدرس البلاغي المعاصر فقد برز الاهتمام به في الحقلين، اللساني النقدي خاصة، وقد فرضت البلاغة نفسها في مختلف ميادين المعرفة؛ الاجتماعية السياسية، والقانونية، والإعلامية بكل أنواعها، إضافة إلى الدينية، والنفسية، الأدبية، والفنية. ومن هنا نشأ ارتباط وثيق الصلة بين البلاغة ونظريات التواصل، سيميانيات في مجال وصف الخصائص الإقناعية للنصوص وتقويمها.

كما أصبح للتواصل مجاله الواسع، الذي يقوم على القصيدة الصريحة، وعلى آلة الإبلاغية من خلال التأثير والتأثير المباشر في سلوك المخاطب. وانقلت الحجاج من التأثيرات التقليدية للديالكتيك والمنطق ليستخدم في فرع من فروع النظرية السيميائية للتواصل، ذلك الفرع الذي اعتنى بالرسائل الإقناعية، فانتقل الحجاج من عالم النفس إلى عالم الإعلام، وتحول من الخطيب إلى العالم النفسي الاجتماعي، إلى الإعلامي الذي استخدم معرفته بخفايا النفس والجماعة لإقناع كل من شعور بمزايا منتج، أو بخصال مرشح في حزب سياسي، أو غير ذلك. فأصبح الحجاج شأنا من شؤون سيميانيات التواصل.

لما أن الحجاج نبت في بيئة بلاغية وكلامية تعني بالحوار وفن الإقناع، وأضحى

*أستاذة محاضرة، قسم اللغة العربية، كلية الآداب والعلوم، جامعة عبد الحميد بن باديس - مستغانم.

البلاغة تسير في أفق إنساني يتلاقى مع المسميولوجيا، وتخطت دراسة جماليات اللسان وتحليل النصوص إلى فلسفة تفكير، وثقافة للمجتمع وأسلوبية للحوار، وهذا جعلها تكتسب طبيعة الأزواجية بين الآلية الحجاجية والآلية التواصلية على مستوى الملفوظ والمكتوب، وبهذا يظل المظهر الحجاجي من أبرز خصائص الفكر البلاغي في مراحلها المختلفة من القديم إلى المعاصر.

والإشكال المطروح هو: ما العلاقة بين نظريات التواصل والحجاج؟ كيف استغل الحجاج بعض رؤاه من التنظيم السميائي والنظريات التواصلية؟ ما العلاقة بين البلاغة والحجاج، والتواصل؟ عبر محاور هذا البحث سنحاول الكشف عن نظريات التواصل التي تعددت توجهاتها، ملقنين الضوء على أهمية الحجاج في هذه النظريات

❖ اللغة وسميائيات التواصل

تعددت تعاريف اللغة بين القدماء والمحدثين، وسنحاول ذكر بعضها يقول ابن جني في اللغة: (أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم)^(١)، يؤكد ابن جني على شمول اللغة واجتماعيتها، ووظائفها التعبيرية، حيث حصّر اللغة في الطبيعة الصوتية والوظيفة الاجتماعية بقوله (أغراضهم) وهذه الأغراض تشمل الأدوات أيضاً. ويقول الأمدي: (لما كان الواحد لا يستقل بتحصيل معارفه بنفسه وحينئذ يعين، ومساعد له من نوعه، دعت الحاجة إلى نصب دلائل يتوصل بها كل واحد إلى معرفة ما في ضمير الآخر من المعلومات المهيئة له في تحقيق غرضه، لذلك استعمل الإنسان ما يتركب من المقاطع الصوتية التي خص بها نوع الإنسان دون سائر الحيوانات ومن اختلاف تركيبات المقاطع الصوتية، حدثت الدلائل الكلامية والمعنى اللغوية)^(٢).

وهذا التعريف لا يخرج عن كون اللغة أداة للتواصل ومجموعة من العلامات يُستعان بها على توصيل دلالات اصطلاحية، فهي عبارة عن مقاطع صوتية وذات هوائية لها معنى يحدثها الإنسان ليعبر بها عن غرضها بضميرها وهذا الغرض هو التواصل. ويوافق (روي سي هجمان) هذا الرأي فيقول في اللغة: « قدرة ذهنية مكيفة يمكنها نسق يتكون من رموز اعنباطية منطوقة يتواصل بها أفراد مجتمع ما »^(٣).

(١) أبو الفتح عثمان بن جني، مع محمد علي النجار، الخصائص، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦، ط ٢، ج ١، ص ٢٣.

(٢) سيف الدين محمد الأمدي، الإحكام في أصول الأحكام، مع إبراهيم العجوز، بيروت ١٩٨٥، ص ١٦.

(٣) روي سي هجمان، اللغة والحياة والطبيعة البشرية، ترجمة: داود حلبي أحمد السيد، عالم لا

بإعلام مُمَيَّزة، فمفهومه يشبه تعاريف القدماء، وهي: أن اللغة نسق من العلامات صوتياتها (الصوتية، الصرفية، التركيبية، الدلالية) واللغة مكتسبة من جانب: كالكسب الفل، وغريزية فطرية من جانب آخر، وهذا الجانب هو الملكة اللسانية التي ترتبط بهماز النطق والسمع، وهي مرتبطة بالطبيعة الإنسانية والجنس البشري حسب ميسكي.

كذلك، فاللسان بالنسبة لسوسير هو ذلك النمط الرائع للحادث المصطنع (العارض)، الموضوع الذي يقوم العالم بإعادة بنائه عن طريق التجريد انطلاقاً من المادة التي يلاحظها. وضمن هذا المنظور، سنتطوي مهمة الألسني على جمع أوفر كمية لغة من الرسائل التي ينتجها مستخدمو اللسان، وبعد أن تجمع مادة البحث هذه، الألسني بالبحث - بدون أن تكون لديه فكرة مسبقة عن الوحدات التي تتكون من مادة البحث، ثم تصنيف هذه الوحدات، واستخلاص قوانين تكوينها. هذه المهمة، الألسني هي التي أنجزتها اللسانيات المسماة: (البنوية).

فحقيقة أن اللسانيات البنوية برعت في وضع مناهج فعالة - بشكل أساسي في معالجة المتعلقة بالتواصل - تمكنت بعضها - وبدقة كبيرة من تقطيع مادة البحث إلى الوحدات الدالة والوحدات الصوتية الصغرى غير الدالة، في السلسلة المتصلة بشكل مادة البحث، كما تمكنت من التعرف على السمات *Semes* المميزة التي تقابل الوحدة كافة الوحدات الأخرى الواقعة في المستوى نفسه (المورفيمي أو اللفظي)، وضم العناصر التي لها بعض الخواص التوزيعية المشتركة في جنس *Pardigme*

وأي دو سوسير في اللغة: (هي نظام من الرموز الصوتية في أذهان الجماعة اللغوية للتواصل بينهم ويكتسبها الفرد سماعاً من مجتمعه)^(١). ونجد التأكيد على الطبيعة الاجتماعية للغة في قول (بلوك وتريجر): (اللغة منظومة من الرموز الصوتية التي يمكن بواسطتها لمجموعة من الناس أن تتعاون)^(٢). يربط سوسير علم اللغويات بالتواصل الإنساني، فالسيميولوجية - كما هي عند كثير من اللسانيين - علم يختص بدراسة ما يعود إلى الظاهرة التواصلية في شكلها اللفظي

(١) ٢٠٠٢، ط ٢، ص ١٥.

(٢) بلوك وتريجر، اللغويات، ترجمة قاسم المقداد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ١٩٩٨، ص ١٢.

(2) DE SAUSSURE, F: Cours de linguistique générale. Paris, Editions Payot. Préparé; TULLIO DE MORO, 1979. p 65.

عبد فارع، جهاد حمدان، موسى عمارية، محمد العناني، مقدمة في اللغويات المعاصرة، دار وائل، ٢٠٠٧، ط ١، ص ١٣.

أساسا، فالعلامات هي أدوات يستعملها باحث بشكل قصدي من أجل التواصل مع من ضمن دورة كلامية نبأها موسير يرسم حدودها في محاضراته (دروس في اللسانيات العامة).

إذاً؛ فالتواصل نشاط قائم على قصدية صريحة، وهو يتضمن حالات للفهم والدلالة بحيث لا يمكن الفصل بين الدلالة والتواصل كما ذهب إلى ذلك بعض الباحثين، والدلالة باعتبارها «سيرورة لا تتحدد من خلال نية التأثير المباشر في مخاطب مخصوص، وهي لا تخلو من قصدية إبلاغية صريحة أو مفترضة فقط» خلال المقام التلفظي^(١). وتعتبر اللغة تقنية أو مجموعة من التقنيات تُمكن شخص من توجيه أفكار شخص آخر من خلال استخدام السلوك الكلامي. أي استعمال كتمق من الرموز النطقية الاصطلاحية للتواصل^(٢)

ويرى ساير أن اللغة: (طريقة بشرية غير غريزية لنقل الأفكار والأحاسيس والبرهنة بواسطة رموز تُنتج طوعا)^(٣). فاللغة نظام من الرموز للتواصل لأغراض نفسية واجتماعية... الخ، وتكون برموز منطوقة من خلال الكلام أو مكتوبة من خلال الكتابة وهو يركز على الوظيفة التواصلية للغة.

هذه التعاريف شملت الاتصال والتفاعل والاستخدام الشفهي السمعى للمتلقي المتكلم والمستمع، ولعل اكتساب اللغة واستخدامها تحكمه مجموعة من العوامل المتشابهة؛ (بيولوجي، إدراكي، نفسي، بيئي، ثقافي...)، وهذا كله لفهم عملية التفاعل فيها عميقا، ويتبدى هنا مصطلح الملقوظية الذي يقابل الملقوظ بالمعنى الأكثر لهذه العبارة، مثلما تقابل صناعة الشيء، الشيء المصنوع وهي فعل الاساس الفردي للسان، بينما الملقوظ يعني نتيجة هذا الفعل.

والملقوظية تتكون من جملة العوامل والأفعال التي تتسبب في إنتاج الملقوظ، ذلك التواصل الذي يشكل حالة خاصة من حالات الملقوظية^(٤)، وقد أثار هذا جاكوبسون الشهيرة التي نتحدث عن وظائف اللغة اعتراضات لم تتوقف حتى الآن.

ف(جاكوبسون) يرى، كما يرى (سوسير)، أن وظيفة اللغة تكمن في

(١) المرجع نفسه، ص ١٢.

(٢) ينظر: روي مي هجمان، اللغة والحياة والضبعة البشرية: ترجمة: داود حلمي أحمد السليمان، ط ٢، القاهرة ٢٠٠٠، ص ١٥.

(٣) ينظر: اللغة والحياة والطبيعة البشرية، ص ٧٥ - ٧٧.

(٤) جان سيرفوتي، الملقوظية، ترجمة فاسم المقداد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ١٩٩٨، ص ٧.

الرموز بواسطة مدونة، بينما يرى المعارضون أن اللغة أكثر من ذلك بكثير. اللغة كمدونة، أي أداة أو وسيلة تواصل إنما هي تطرح قواعد لعب تختلط اختلاطاً بالحياة اليومية. وتعددت الآراء في تعريف الملفوظية. فهذا (بينفينيست) يقول: «الملفوظية هي عملية تشغيل اللسان عن طريق فعل استخدام فردي»^(١). أما أنكومبر فيريان فيها ذلك النشاط اللغوي الذي يمارسه المتكلم في لحظة كلامه، يمارسه المستمع في لحظة استماعه»^(٢).

الوظيفة التي تؤديها العبارات اللغوية هي توصيل المعاني في حين يعتبر توصيل آثار المتعلقة باستعمال اللغة -أمراً عرضياً- بالنسبة لوظيفة الأدوات الأساسية: استعمال الاستعمال، فيتحدث الأشخاص من أجل التأثير في تفكير الآخرين وسلوكهم، لغة الكلام هي التواصل بين البشر^(٣)، أما الكتابة كتقنية من التقنيات: فهي الوسائل الحياتية الكلامية بتحويلها إلى مادة أكثر دواما باستعمال مجموعة من الرموز، أي النمق الكتابي، وتعتبر أكثر الوسائل أهمية وتوصيلاً للمعلومات، فهي أداة يدوية تساعد الحضارة اللغوية وتكثفها^(٤).

الكلام إلا وسيلة حياتية مُنتجة، وقدرة على أداء النشاط الكلامي: إن قدرة أي قدرة على صنع هذه الوسائل الحياتية، وبالتالي يعمل التكلم على إحداث أثر في العالم المادي لخدمة الأغراض البشرية، كما رأى ابن جني. ومن خلال هذه الأثر نتجنى سمانيات التواصل: فالكلام، والكتابة، وكل ما يدور حولهما من حركات... ألخ كلها علامات للتواصل الفعال. وانطلاقاً من ذلك فاللغة لغة من التقنيات لإنتاج هذه الوسائل وهي ترتيب الأشياء من أجل خدمة غرض وهذا الغرض هو التواصل الذي يؤثر به الناس بعضهم في بعض.

استعمال تقنيات اللغة لتكوين جملة ما (صوتياً، أو صرغياً، أو نحويًا) يُوجّه إنتاج جمل لا متناهية، وإذا كانت التقنية هي: (الأسلوب المكتسب لإنجاز شيء فمن خصائص الإنسان الأكتساب والتعلم، فانتقلت هذه التقنيات من جيل إلى جيل بالتعلم رغم التجديد والتغيير الذي يلحق اللغة على الدوام.

تظهر وظيفة اللغة من هذه المضامين حيث تبدأ هذه الوظيفة بملاحظة الأثر

١- نفسه، ص ٧.

٢- نفسه.

٣- اللغة والحياة والطبيعة البشرية، ص ٧٨.

٤- المرجع نفسه، ص ٧٦.

٥- الحياة والطبيعة البشرية، ص ١٤٢-١٤٣.

المباشر والفوري للوسائل الحياتية المنتجة من الذبذبات الهوائية المتمثلة في التعبير اللغوية المنطوقة التي لها أثر في جذب انتباه السامع، إنها أدوات تُمكن شخصا من تسخير قوى خيال شخص آخر لينتج صوراً ذهنية مطلوبة^(١). والرموز المطلوبة تشتت على المعرفة الاجتماعية المشتركة لتسهيل عملية التواصل. ويتم ذلك باستعمال جمل وعبارة منطوقة أو تفوهات مترابطة، وهذا جلي في سلوكنا اليومي، ولذا يول الاهتمام بمستوى الخطاب المنطوق والمكتوب ويقودنا هذا إلى الحديث عن كفاءة استخدام الجمل المقبولة نحوياً ودلالياً في سياق معقول ومثال ذلك: قولنا في التهنئة (عظم الله أجركم)، وإذا قيلت للتهنئة، فهي في سياق مرفوض اجتماعياً^(٢).

وفي هذا الشأن نذكر القواعد التوليدية والتحويلية التي وسعت نطاق البحث الكفاية اللغوية التي تتضمن قدرة المتكلم / المستمع على تقييم نص ما إذا كان صحيحاً متماسكاً أو غير ذلك، وهذه الكفاءة هي التي تقود عملية الأداء الكلامي: الاستعمال الآني للغة ضمن سياق معين، وفيه يعود المتكلم إلى القواعد الكلامية بصورة طبيعية كلما استعمل اللغة في مختلف أحوال التكلم^(٣).

ويرى (هول) أن يُمي البشر يقومون بواسطة اللغة بالاتصال والتفاعل بعضهم (برموز شفوية سمعية توفيقية يستخدمونها بحكم العادة)^(٤). فالتواصل ونقل المعلومات وتبادلها عن طريق هذه اللغة التي تعد نظاماً معقداً من الرموز. وليتم التفاعل الإنساني لا بد من فهم عملية التواصل التي تقع في اهتمامها المنطوقة أكثر من المكتوبة، فتعني بالأصوات والصرف والنحو والدلالة والأسلوب اللغوي، لتحقيق أفعال في الواقع؛ فإذا شكرت شخصاً قمت بنطق الشكر: (شكر) وتسمى أفعالاً كلامية.

فالفعل الكلامي أو المحادثة هي: (كيفية القول وطريقة استعمال اللغة)^(٥) الفعل يحدد دور المتكلم والمستمع وعلاقتهما من مركز متكافئ أو غير متكافئ^(٦) وعلى الأجهزة - كالجهاز التنفسي، الصوتي، العصبي - التي تُمكنه من استخدام بشكل فعال، والتي لم يتوقف دورها على الوظيفة التواصلية بل تعداه إلى نحو

(١) ينظر: مقدمة في اللغويات المعاصرة، ص ١٩٨.

(٢) ينظر: ميشال زكريا، الألسنية التوليدية والتحويلية، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت ١٩٨٢، ص ٣٣.

(٣) مقدمة في اللغويات المعاصرة، ص ١٣.

(٤) جورج يول، معرفة اللغة، ترجمة محمود فراج عبد الحافظ، دار الوفاء، الإسكندرية ١٩٩٩، ص ١٠.

(٥) ينظر: المرجع نفسه، ص ٢٠.

(٦) ينظر: المرجع نفسه، ص ٢٠.

تلفة والمهارات والمعلومات مع ارتباطها بالزمان والمكان^(١). كما يكتب الاتصال، بواسطة شرعية بتحقيق الانتظام عن طريق التراكيب وانتلافها، فلا يكتب لها هود الفعلي (المنطوق/ المكتوب) إلا في هذه الدائرة (الاتصال)، وتمارس اللّغة أداءها في دقة لتضمن البقاء والتجدد بنقل الأفكار والمفاهيم والتفسيق بين الصور معية^(٢). يقول (روي سي هجمان): (كثيراً ما تُمكن اللغة شخصاً من إحداث تغيير سلوك شخص آخر، حيث تعمل المعرفة على توجيه السلوك)^(٣)، فليضع أحدنا روي موقف كلامي، وينتج عبارة لغوية منطوقة، ماذا يحدث.

حسب (روي هجمان) يتم التأثير والتأثر عن طريق الفعل الكلامي أو الإنتاج الكلامي، فكل عبارة منطوقة تخدم غرضاً معيناً مما يجعل الكلام سلسلة من أطاات حيث يتم تصميم هذه العبارة وتنفيذها، وهي تتفاوت استخداماً حسب البعبارات في حل المشاكل. إن استخدام اللغة يمر بمراحل إنتاج الكلام انطلاقاً من البنية الصوت أو المستوى الصوتي، فالنحوي ثم الدلالي، من أجل إنجاز الفهم عبر العلاقة الوثقى بين الفهم والكلام.

يتم الفعل الكلامي أو التفاعل أي المحادثة؛ (وهو نشاط يتداول الحديث فيه بين أو أكثر)^(٤) وهو كذلك كيفية القول، وطريقة استعمال اللغة كما يرى جورج ي. وقد وضعت مبادئ وأسس هذا التكلم لتوضح هذه العملية التي يتشارك فيها السامع، وما ينبغي لكل واحد القيام به رغم أنّ الكثير من التقسيمات جاءت هلة، واندرجت في مراحل واحدة يشترك فيها كلاهما (المتكلم والسامع) وستذكر كل عملية (الكلام/ الفهم) مراحلها كالآتي:

تحدد التغيير الذي سيحدث الأثر المطلوب في معرفة السامع، ويتجلى في هذه كتحقيق سلسلة من الرموز الصوتية إذا كان متكلماً أو الرموز الكتابية إذا كان سامعاً، فهنا تتم مرحلة فهم الفعل الصوتي أي مجموع الأصوات أو الكلمات التي لها دلالة معينة أي أنّ يناسب الحديث موضوع الحوار.

إنتاج صورة ذهنية عن طريق فكرة تجسد ذلك التغيير في المعرفة التي يعتقد

١- عبد القادر عبد الجليل، علم اللسانيات الحديثة، دار الصفاء، عمان، ٢٠٠٢، ص ١٤، ص ٢٥
 (2) LOHISSE, J. La Communication Anonyme. Paris, Éditions Universitaires, 1967
 ٣- صالح بلعيد، دروس في اللسانيات التطبيقية، دار هومة، الجزائر، (د.ط) ص ٤٢.
 ٤- الحياة والطبيعية البشرية، ص ١٦٥.
 ٥- المرجع نفسه، ص ١٢٨-١٢٨.

أتمها لدى السامع^(١)، وهنا المقصود معنى العبارة (الفكرة) بالنسبة للمتكلم أو مواعدها من السامع والفعل المقصود من كلامه حيث يدخل قصد المتكلم أيضا، وتعتبر المرحلة الأولى والثانية أكثر أقسام الفعل الكلامي إبداعا، وهما إجراءان معرفيان لاستيعاب اللغة.

ثالثا: تفتيت الفكرة إلى أجزاء، تُحدد برموز منطوقة اصطلاحيا لتكون منطوقة. وهذه مرحلة التحليل الدلالي الاختزالي^(٢) حيث تُحلل الفكرة التي تم إنتاجها في المرحلة الثانية ثم اختزالها في رموز صوتية وبدون هذه المرحلة يصبح التواصل ممكن.

رابعا: تنظيم الرموز المنطوقة في سلسلة بواسطة القواعد النحوية لنتمكن من إعادة تركيب الفكرة الأصلية^(٣) وهنا يقرر المتكلم إنتاج جمل على وفق قواعد اللغة (المستوى النحوي) وتسمى بمرحلة التركيب وفقا للقواعد حيث يرتب الأجزاء المعنى الذي تعرض للتفتيت بإصدار تعليمات لإعادة تركيبها واختيار الأساليب وفقا للقواعد وللبعد المعرفي، ولا تخلو هذه المرحلة من إبداع.

يتضح - في هذه المراحل - التداخل بين عملية الكلام، والفهم التي سنشير إليها مراحل أوردتها بعض الباحثين متداخلة ومزدوجة بين الكلام والفهم، بين المفهوم والسماع وهي باختصار: (مبدأ النوعية، مبدأ الكمية، مناسبة الحديث لموضوع الحوار، الوضوح أو كيفية نقل الرسالة)^(٤)، وأدراجها تداوليا في مبدأ النعارة الحديث.

كما افترض (رويان لاكوف) *Robin Lakoff* مبدأ الأدب في الحديث^(٥) بعدم تقبل الرأي وإعطاء الخيار للمستمع، كما أن هذه المرحلة الكلامية قد أثبتت بمعايير التماسك اللغوي، وهو ترابط الجمل، كالإحالة عند استعمال الضمير أو الإحالة بالعطف، والحذف، والترادف، وغيرها، وهذا العنصر هو ألصق بالمرحلة الرابعة مراحل الفعل الكلامي.

ونخلص هنا إلى أن استخدام اللغة في سياق المتكلم ذو علاقة وثيقة بنوع الخطاب الذي يهتم بلغة التواصل (منطوقا/مكتوبا) والحوار والنص مقيما للعلاقة

(١) جورج بول، معرفة الألفة، ص ١٤٨.

(٢) ينظر: المرجع نفسه، ص ١٤٨.

(٣) المرجع نفسه، ص ١٦٧.

(٤) المرجع نفسه، ص ١٦٦-١٦٧.

(٥) المرجع نفسه، ص ١٦٧.

السياق كما يظهر التداخل في الفعل الكلامي، فالمتكلم يعيد صياغة أفكاره للوسائل المتاحة قبل أن ينتج - فعلا - عبارة منطوقة، ويمكن أن يخوض جميع

الخيارات ثم يقرر رفض نطق العبارة المنطوقة فلا يقولها. في المقابل يتلقى السامع هذا الكلام بمراحل: كالفهم، فالفهم نشاط معقد يتم، وهو أساس عملية التحويل التي يقوم بها المتكلم لأنها صورة منعكسة لعملية الفعل الكلامي، وفهم السامع لما يقول المتكلم يتوقف على مراحل أربعة أيضا وهي: التعرف على الرموز المنطوقة والقواعد الموجودة في السلسلة الصوتية^(١)، فمن هذه المرحلة فهم قصد المتكلم أو الأثر الصوتي أو معنى العبارة المنطوقة، يتطلب الانتباه إلى نمط الأصوات ومعرفة رموزها، فقد يقصُر الفهم إذا نُصص من عناصر التركيب أو كان غير مألوف لدى السامع.

أيضا ينبغي أن ينتج فكرة متكاملة مستخدما المفاهيم التي استدعتها هذه الرموز^(٢)، وهذه مرحلة التركيب الدلالي، فهكُون فكرة من استنتاجه للعبارة المراد، ونجاح هذه العملية يحدده تطابق المعنى حسب فهم السامع وقصد المتكلم، الفكرة التي تكوّنت في المرحلة الثانية من مراحل الكلام أي أثر فكرة المتكلم في السامع.

أيضا يقرر السامع قبول الفكرة أو رفضها^(٣)، ثم تبرز استجابة السامع إثباتا أو إنكارا لفظيا أو حركيا، وتنتج في مبدأ النوعية، ولكي تنجح هذه العملية لابد من السامع لقول المتكلم، لأنَّ العبارة المنطوقة تؤدي وظيفة نقل المعرفة أو أمر أو نهي أو قول شيء، ويُشترط فيها صدق المتكلم وثقة السامع.

أيضا في حالة القبول تحدث تغيرات مستمدة من معرفته بالعالم والتي ستلزمها هذه المرحلة هي مرحلة الالتزام بتنفيذ السامع رغبات المتكلم عن طريق تغيير في المعرفة والسلوك المتضمن في معنى العبارة، وهذا يتناسب مع مبدأ أو ما تقدمه، ويكون مناسباً لهدف الحوار.

أيضا، فإن الفهم الناجح يكون عند تنفيذ جميع المضامين المعرفية، والسلوكية للعبارة المنطوقة، وأحيانا يتطلب الفهم العميق جهدا أكبر من السامع عندما يكون الاهتمام بالمعرفة التي يتم توصيلها، ويكون الفعل الكلامي ناجحا إذا أنتج

١- مقدمة في اللغويات المعاصرة، ص ٢١٢

٢- المرجع نفسه، ص ٢١١-٢١٢

٣- الحياة الطبيعية البشرية، ص ١٦٨

المرجع نفسه، ص ١٦٨.

السامع نفس المعنى المقصود من المتكلم، وتصبح المشاركة في المعرفة أمرا متبادلا كما تقل الفوارق بين المتكلمين وتزول الحواجز وبذلك يتم التواصل، ويتبادل كل المتكلم والسامع طرفي الفعل الكلامي ويتعاونان على تكوين نموذج مشترك عن المراد انطلاقا من خبراتهم، وتجاربهم، وهما يعملان على خلق حضارة.

وتعتبر هذه المراحل المتبادلة بين السامع والمتكلم كأفعال الكلام التي تدفع إلى المخاطبين إلى إنجاز الأفعال المنطوقة، فنرى أن الحجاج اللغوي كامن في الأفعال اللغوية بوصفه علاقات توجه القول وجهات معينة ذات مضامين دلالية مفهومة وأفاق تواصلية واسعة قائمة على التأويل والاحتمال لأن المدار هنا على البنية التلغيفية التواصلية والتحليلية.

ب - نظريات التواصل؛

إنّ التواصل أساس الوجود الإنساني؛ وهو أبسط الطرق لوصف وظيفة الإنسان رغم أن عملية التواصل البشري أكثر تعقيدا، ودراسة التواصل يجب أن ينظر إليها زوايا مختلفة ومتنوعة منها؛ (تصنيف ظواهره التواصلية، وتحديد أشكاله، حجم النواصل وعمقه ومناطقه، ووظائفه في النفس والاجتماع...)، فالتواصل أمر التوازن النفسي والاندماج الاجتماعي للفرد، وأساس الانتماء الثقافي إلى ثقافة ويؤدي انعدام التواصل إلى انعدام السلوك، كونه الميكانيزم الذي بواسطته تتم العلاقات الإنسانية وتتطور، كما يتضمن أيضا الإشارات وتعبير الوجه وهم الجسم والحركات والمطبوعات والقطارات والتلفزيون وكل ما تم من اكتشاف في المكان والزمان^(١) فكل وسائل الاتصال اللغوي هي أشكال للتواصل كاستخدام أدوات حديثة وأجهزة سمعية بصرية كالكمبيوتر أو الحاسوب، التلفاز وشبكة الانترنت فهذا الاتصال الآلي أفرزته الثقافة الإلكترونية^(٢) حيث أدخلت البرامج ووظفت الآلة للتواصل بين بني الإنسان وبين المتعلمين والمعلمين، وفقا للاستراتيجية التنموية تطوير الإنسان. ويتضح هنا أنّ التواصل لا ينحصر في تبادل لفظي تحركه قضية صريحة، بل مجاله أوسع من ذلك، وهو مجموع ما ينتهي إلى التجربة الإنسانية تستوطن الذات؛ (كالإيماءات الجسدية، وطريقة الجلوس، واستقبال الضيف... فضلا عما يحيط بالذات من مكان وزمان وأشكال وعمران^(٣)).

(١) المرجع نفسه، ص ١٦٨.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٦٨.

(٣) ينظر: عبد الهادي بن طاهر الشهري، استراتيجيات الخطاب: دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت.

يستمر (توماس هال) هذه الأشكال وحدودها ليكشف عن الآليات الداخلية للمجسمة التي ينتجها الجسد في تفاعله مع محيطه الإنساني والمادي، فأناطل مجال الحواس تكشف عن الاختلافات الموجودة بين ثقافات الشعوب^(١). وتؤدي دورا مهما في تحديد طبيعة التعامل مع المحيط المباشر للكائن البشري بأبعاده المكانية، وتأثيرها في مجمل الاستعمالات الخاصة بالجسد وعوامله المتعددة، يهبط به.

الظواهر الإنسانية لا يمكن أن توجد خارج رغبة الكائن البشري في التواصل، فمما ينتجه الإنسان عبر لغته وأشياءه وجسده وإيماءاته وطقوسه ومعمارها ضمن سيروية تواصلية متعددة المظاهر والوجود والتجلي إلى الحد الذي جعلها في كليتها سيروية تواصلية^(٢). ورغم الطابع الإنساني المحض للتواصل إلا أنه في أحضان نشاطات علمية أخرى؛ (الأنثروبولوجية، والتلغراف، والاتصالات اللاسلكية، وقياس المسافات الافتراضية، والسيرنيطقا).

التواصل قد يكون بدعيا، اجتماعيا نفعيا، وقد يكون اصطناعيا (مصطنعا) يتخذ أشكالا إلزاميا تفرضها الوسائط والوسائل الحديثة حسب الأفكار، والتفكير، والمعتقدات التي تحكم السلوك، وتشمل كل الأساليب الحديثة في نقل من؛ (دعاية سياسية، أو توجيه ديني أو تكوين إيديولوجي، إضافة إلى الإشهار التلفزيوني والإذاعي...)^(٣). وهذه من أهم الأساليب التي يمارس فيها الحجاج

أهتدى (توربيير فير) الذي ينسب إليه علم السيرنيطقا (*Cybernetique*) - إلى مفهوم (الإرجاع)^(٤) من خلال المدفع الأرضي الذي يتصيد الطائرة، محددًا اتجاهها وسرعتها، لتكون في الموعد المحدد من خلال ضبط دقيق للمدار الذي تتحرك الطائرة. وقد أعطى لمفهوم الإرجاع بُعدا كونيا ينطبق على كل الظواهر الطبيعية الطبيعية، وهو قدرة الفعل المنجز أنها على التأثير في سبب وجوده وفي ارتباطه بغيره، (فكل نتيجة تؤثر بشكل إرجاعي على سببها، وكل شيء يجب أن ينظر إليه

٢٠٠٠، ص ١٢-١٣

١- ليويل بليجر. الأتية الحجاجية للتواصل. ترجمة عبد الرفيق بوري، مجلة علامات، ص ٣٦ مع نفسه

٢- سميد بنكزي، السمياتيات وموضوعها. مجلة علامات، عدد ٢١، ص ٧٩.

٣- GUIRAND PIERRE, *Théorie de la Communication*, in « le Langage », sous direction d'A. MARTINET, Paris, Encyclopédie de la Pléiade, 1968, p145.

باعتبار بعده الدائري لا الخطي^(١).

وبعد علم السيرنطيقا - الذي يعني القيادة والمراقبة - جهازا علميا غايتها التحكم في أليات التواصل كما تتحقق عند الآلة، وعند الحيوان^(٢)، وهذا التحكم يشمل الكائن البشري، وبالتالي إمكانية التحكم في السلوك الإنساني وتوجيهه من خلال البرمجة الإرجاعية، كالتحكم في السلوك الاجتماعي من خلال ما يشبه البرمجة لردود الأفعال والذوق والوجدان، وقد انتقل مفهوم الإرجاع إلى الإثنوبولوجية، واستخدم من أجل فهم السلوكات الإنسانية، وإنتاجها لفهم تسهم إرجاعها في حماية النسق المنتمية إليه، ومن خلال فكرة الإرجاع يتم ضبط الظواهر^(٣)، مثل حالة التواصل الإسهاري، ليتم التحكم في البنك الشرائي الاستقبالي للمستهلك وتوجيهه، وذلك بمعرفة قدرته الشرائية، وميوله الذوقية، ومعتقداته... الخ، لتحدد هويته الشرائية ومن خلالها تبرز حدود الفرد، وممارسة نشاطاته.

لقد كانت نظرية المهندس الأمريكي (كلود شانون) الرياضية وخطاطته التواصلية الاتصالات الهاتفية منطلقا للتواصل الإنساني مستندا إلى نموذج الإخبار عن التعرف. كما طبّقها (رومان جاكبسون) في وظائفه الست^(٤) في السنينات بطرق مختلفة، وقدّم (شانون) هذه الخطاطة في سبيل تحمين مردودية الاتصالات الصوتية التي تتم عن بُعد نقاديا للتشوّش الذي يحدث على الإرسالية بسبب القصور النفاذ وعدم ملائمة الآلات الموجدة لمتطلبات الاتصال.

وما يميّز هذه الخطاطة هو تركيزها على الخبر؛ الذي يُعدّ كيانا أعمى، فهو (وحيث إحصائية مجردة تتعامل مع الإرسالية في انفصال عن دلالاتها)^(٥)، ويرتبط نجاة الإرسالية أوقشلها بسلامة ووضوح الكم الخبري الميثوث، وهو خبر أعمى لأنه يستدعي حالة انفعالية عند طرف من أطراف التواصل، كما أنه لا يفترض لبس غموضا في دلالات الإرسالية، ولا يفاش بالكم المعلوماتي، وتظهر الخطاطة كالاتي^(٦):

مصدر الخبر - الإشارة الميثوثة - الإرسالية

وتبيّن هذه الخطاطة التابع الخطي المنطقي، وهو وجود مصدر للخبر ينتج إرسالا

(١) المرجع نفسه

(٢) المرجع نفسه.

(٣) المرجع نفسه

(٤) ينظر: استراتيجيات الخطاب، ص ١٢.

UCROT. O et TODOROV Y. Dictionnaire Encyclopédique des Sciences du Langage, paris, Editions du seul, 1972, p 117.

(٦) نفسه

(التحدث في الهاتف)، ووجود باث يحوّل الإرسالية إلى إشارات (الهاتف الناقل الصوت إلى موجات كهرومائية)، ووجود القناة (الأسلاك الهاتفية)، وهي الأداة المستخدمة لإنجاز التواصل، ووجود منلقٍ ليعيد بناء الإرسالية انطلاقاً من الإشارات الحرارية، بوجود نهاية الإرسال، وهو مستقبل الإرسالية^(١).

ورغم أهمية نظرية (شانون) وخطاطته كحدث معرفي في تاريخ التواصل إلا أنّ تطورات التي عرفها البحث في مجال التواصل دعت إلى النخلص من طابعها الآلي، لتفتح التواصل على مجالات الحياة الإنسانية المختلفة بما فيها الأبعاد الزمانية المكانية.

ويفتقر (رومان ياكبسون) من (شانون) في خطاطته، غير أنه يفتقر عنه في اعتماد خطاطته على الانفعالات الواقعة مع التواصل، ويتحدّد جوهر التواصل عنده في علاقته بالوظائف الممكنة للغة، ولذلك وصفت خطاطة شانون بأنها عمياء، وقد سميت بالنموذج التلغرافي. وأدت الوظائف الست: (انفعالية، شعرية، إهامية، مرجعية، لغوية، ميتالغوية)^(٢)، إلى استعادة المعنى الأصلي للتواصل الذي يدلّ على مشاركة والتفاهم، مما فتح للتواصل أبعاداً وأفاقاً للفعل الإنساني. وتظهر خطاطة ياكبسون كالآتي^(٣):

السياق

الباث.....الإرسالية.....المتلقي

الاتصال

السنن

مرجعية

انفعالية.....شعرية.....إهامية

لغوية

ميتالغوية

٢- بلاغة الحجج بين نظرية التواصل والسيمياثيات:

المنه

عبد الهادي بن ظاهر الشبري، استراتيجيات الخطاب: دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت- ليبيا ٢٠٠٣.

ط ١، ص ١٢-١٣.

الرجع نفسه.

أ- الحجاج والتواصل

لقد اقترنت الحجاج عند الفلاسفة القدماء بالاستدلال والبرهنة، كمر اقترب من الديالكتيك (فن الحوار) والبلاغة (فن الإقناع)، والحجاج يقتضي تفاعل الذات، أي البرهنة فتتضي الذات^(١)، مبتعدة عن تأثيرات اللغة، والعواطف، وظروف المكان والزمان وملابساته، كما تتعد عن دور المستمع والمخاطب، وكان الحجاج أكثر اقتراباً من فن الحوار والبلاغة. وقد اهتم أرسطو - وهو مؤسس الاستدلال والبرهنة بالحجاج معتمداً على الاستدلال وأساليب التحاور مبيناً تقنيات الحجاج في محاوره أفلاطون بناء على خاصية مبدأ التناقض، وعمق تصويره الاستدلالي المنطقي معتمداً على البلاغة حيث جعلها فن الكلام والإقناع، وصنف أنواع الخطاب، وأنماط الحجج المقنعة^(٢).

ويُفرق أرسطو بين بلاغة الخطاب وبلاغة الشعر، في أن الأولى تقنية بلاغية تنفذ في التواصل اليومي، والخطاب وسط الجمهور في حين أن التقنية الشعرية تنفذ الاستحضار التخيلي، كما يرى أن الخطابة فن من الجدل، وفرع منه وهنا نلاحظ وعيه المبكر كما هو في البلاغة المعاصرة^(٣).

إذن، شكلت البلاغة والديالكتيك والمنطق مصادر الحجاج وأطره، وما زال يتخلل هذه المعارف الثلاث: (فن الجدل- وتقنيات الاستدلال- وفن الخطاب) روافد الدراية المعاصرة خاصة عند بيرلمان وميشيل ماير^(٤) ومن تبعه، فقد برز الحجاج وأصبح كمبحث أساسي في البلاغة المعاصرة، وقد اعتمد بيرلمان على اللغة، واعتبر الإنسان حيواناً بلاغياً مشيراً إلى الأبعاد الاجتماعية للبلاغة الجديدة، وأعطاهم دفعا جدياً وأعاد لها روحها بالعودة إلى بلاغة أرسطو، وقد اقتحمت تصورات بيرلمان تخصصات جديدة كالإنثروبولوجيا، والتحليل النفسي والفلسفة والسميائيات واللسانيات. وتمثلت الأطر الحجاجية في العلاقات القائمة بين الحجاج والاستدلال، ثم الحوار والبلاغة، والحجاج والجدل لإقامة الدليل، والبحث عن آليات الافتناع لإنجاز المقصود، وهذا كله لا يستغني عن مجال التواصل وإطاره، وقد جعل البلاغة الحجاج عمدة دراستهم بعد وضوح معالمه، فأصبح محور الآلة البلاغية حيث بدأ

(١) محمد سالم محمد أمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، دار الكتاب الجديد المتحدة، ٢٠٠٨ ط ١، ص ٢٣ وما بعدها.

(٢) ينظر: المرجع نفسه، ص ٣١.

(٣) ينظر: المرجع نفسه، ص ٣٢-٣٣.

(٤) ينظر: المرجع نفسه، ص ١-١٠.

أبرز في الحجج إنه: (جهد إقناعي وبعد جوهري في اللغة لكون كل خطاب يسعى إلى بلوغ من يتوجه إليه)^(١).

والحجاج يستمد خصائصه من الحياة اليومية للناس وقيمهم، والتواصل بينهم، كل خطاب يصبح بهذا المعنى كما نرى داخل اللغة حيث تمنحه اللغة / الحياة العناصر التي لكل مضامينه، أي عناصر الاستدلال والتدليل، وقد سعت الحقول المعرفية مع الحجج ضمن معارفها، مما أدى إلى اختلاف وتعدد مفهوم الحجج وحدوده بمرات.

لاشك أن اللغة التواصلية كان لها الدور المهم في الحجج وتقنياته، كما اهتم الباحثون ببلاغة الحجج في المجالات المرئية الخاصة بالإعلام والخطابات الفنية التي يكون المتكلم المرسل حاضرا فيها بنفسه وصورته أمام مخاطبه.

ويجد أن البرلمان وضع تساؤلات حول العلاقة بين المخاطب والموضوع، وتداخل بينهما والموضوعات بفعل الثورة التكنولوجية والاتصالية. وما يتطلبه ذلك من تزيين المخاطبين الفعليين والمخاطبين الكونيين، وما يستدعيه كل منهما من آليات، ومن هذا جعل الحجج حوارا علميا بعيدا عن المفالطات^(٢).

إن موضوع نظرية الحجج عند البرلمان يتعلق بالبلاغة وتقنيات الخطابات الموجهة لجمهورين المستمعين: سواء كانوا جمهورا مجتمعا في ساحة، أم مختصين، أم شخصا واحدا، أم تعلق الأمر بالإنسانية كافة، أم بالحجج التي يوجهها الشخص إلى غيره في مقام حوار ذاتي. ونظرية الحجج باعتبارها بلاغة جديدة تشمل حقل الخطاب في مجموعته الذي غايته الإقناع، بغض النظر عن نوعية المستمع الذي يتوجه إليه الخطاب.

الحجج لا يختص بالخطابات الثبوتية، والأخلاقية، والفنية، والفلسفية، القانونية حسب، لأن الحياة اليومية والعائلية والسياسية أصبحت توفر لنا كما هائلا من أمثلة الحجج البلاغي. إن أهمية هذه الأمثلة المنتمة إلى الحياة اليومية تكمن في أنها التي تسمع به مع الأمثلة التي يوفرها الحجج الأكثر سموا عند الفلاسفة اليونانيين.

وهكذا وسع البرلمان من حدود الخطابة، بدمج الفلسفة والعلوم الإنسانية عامة، حوار اليومي، في نموذج الموحد الذي أطلق عليه: البلاغة الجديدة والواقع أن

^(١) نصح نفسه، ص ١٠٢.

^(٢) نصح المرجع نفسه، ص ١٠٦.

بيرلمان بهذا قد وقف على آليات مشتركة بين كل أشكال الكلام سواء الفصيح الشخصي^(١)، أو الثنائي، أو الجماهيري، أو الشعري، أو خطاب المختصين في القانون والعلوم الإنسانية.

وانقلبت الحجج بهذا ليستخدّم كفرع من فروع النواصل الذي يهتم بالاقناعية، وصار شأنها من شؤون نظرية التواصل، فبحثوا في فن الحوار الفصيح والرسائل الإشهارية، والحملات الدعائية، وغيرها من ميادين الحياة الفكرية والفنية والإيديولوجية والاقتصادية... فارتباط الحجج بالكلام والحوار وما يحويه من نصوص شفوية ومكتوبة، ويؤكد ما يبرهنا هذا البعد الحججاني المؤسس على اللغة والبلاغة خاصة، كما يقيم العلاقات الخطابية على النواصل في ضوء التطور في الاتصال^(٢).

لقد استقى ماير تنظيره من مقولات أستاذه بيرلمان، وإضاف إلى الفلسفة المعنى حيث شكّل أبعادا ثلاثة: تداولية حين درس ظروف إنجاز الخطاب وتأويلية من حيث علاقة السؤال والجواب، وما يصير لهما من تأويل، وبلاغية ربط البلاغة بالحجاج، وفتح بابها على تقنيات الاتصال المختلفة في حاضرنا، إلى بروز العلاقة بين الحجج والتداولية^(٣).

وتنطلق التداولية من استثمار الممكن والمتاح من الآليات لتوصيل رسالة معينة في إطار إنجازها، ولهذا اعتبرت التداولية فن الوصول إلى تعديل المستمع، والبلاغة تداولية في صميمها لأنها تمارس الاتصال بين المتكلم والتأثير على بعضهما. وبذلك تصبح الأفعال المنجزة لغويا أفعالا اجتماعية ضمن تفاعل تواصلي وهو يخص المقامات الاجتماعية^(٤). وأصبحت الصحف والتلفزة توظف بلاغة الحجج توظيفا واضحا للوصول إلى التأثير في المستمع النواصل الجماهيري. كما أن الخطاب الحججاني يتميز بخاصية بنائية تداولية، وبذلك تعد الحوارية سمة أساسية لكل خطاب، وبصير بذلك والتواصل الحواريان في صميم كل عملية حجاجية.

(١) ينظر: المرجع نفسه، ص ١٣٥.

(٢) ينظر: المرجع نفسه، ص ١٣٦.

(٣) ينظر: المرجع نفسه، ص ١٣٨.

(٤) ينظر: المرجع نفسه، ص ١٨٠-١٨١.

ب. الحججاج والسميانيات

أشارت الكثير من الدراسات إلى هذا التداخل بين العلوم اللسانية والتداولية، عن ذلك تلمس تداخلا جليا بين الحججاج وعلمي الدلالة والعلامات أي اللغات، وخاصة السميانيات التداولية، ففي الجانب السمياني أبحاث (هفريش) في البلاغة والأسلوبية حيث أكد على الطابع التداولي للبلاغة القديمة متبنيًا لأهمية دلالية، وسعى لتكون البلاغة علما للحجاج وعلما للنص بكل المكونات من (الصوتية، الصرفية، النحوية، الدلالية، العلامية، السياقية، الحجاجية،...^(١))

مع مما سبق أن تمازج اللسانيات التداولية بنظريات التواصل والسميانيات، واستقرار الحججاج في البنية اللغوية جعله من بين العمليات التداولية والتأويلية، فعولج الحججاج كظاهرة نصية لسانية وسعي الحججاج اللساني مع روابط الحجاجية، وتحليلها داخل الأقوال مع إظهار مراتب المتكلمين. وكان من بحث في الأبعاد التداولية للغة التواصلية اليومية، واللغة الإبداعية^(٢).

هذه التوجهات إلى استثمار السميانيات التداولية في نظرية الخطاب التي لبوام البلاغة الجديدة، فبحث فيها المهتمون عن الأنساق السميانية الدالة، ووصفة للخطابات الاجتماعية. وصارت هذه الأنساق الموضوع الأكثر رواجًا حيث تجمع أنماط العلامات المختلفة، واستعان بشتى وسائل التواصل وأصبحت الصورة من أهم وسائل الإقناع، واتسم اقتراب البلاغة الجديدة بأبحاث بمقاربات التحليل السمياني للخطاب بالكشف عن قوانينه وكتيباته^(٣).

حولت السيميولوجية إلى نظرية للتواصل بمراعاة العناصر الخارجية لفهم ما أصبح التواصل يشمل العمليات المتبادلة بين المتخاطبين للتأثير بينهم، أو حدث يعتبر مظهرًا تواصليا، وبذلك أصبحت السميانية تواصلًا^(٤). في دراسة حياة العلامات داخل الحياة الاجتماعية، وهو علم عام للدلائل لغوية وغير لغوية، فاعتنت بكل ما يمس التجربة الإنسانية العادية

١- جمع نفسه، ص ١٩٧-١٨٠.

٢- جمع نفسه، ص ١٩٢.

٣- جمع نفسه، ص ١١٢.

٤- عبد الوهي، السيميوطيقا والتواصل، مجلة علامات، العدد 5، 1996 ص ٨٨.

المشروطة بضرورة دلالية، فإنناج المعنى والدلالة هو من أساسيات السيميائية^(١) .
 وختاما نتمين التشاجر الذي برز واضحا بين السيميائيات بفرعها اللساني، التبادلي
 والتواصل بالآيات، والحجاج بنقنياته الحوارية، التي لا تنفك عن الأولين، فالحوار
 فعالية للتواصل، والدلالة والقصد جوهر السيرورة التواصلية، وكل تواصل يشتمل
 مقاماً ومكاناً وكلاماً، كما لا يمكن تصور سيميائيات من دون تواصل، فالنواصل بين
 السيميائيات وحدودها، والتواصل لا يتحقق إلا ضمن وضعية تفاعلية تنسم بالمتبادلي
 الحجاجية بين المتخاطبين، وهذه القوالم المشتركة تتفق في أن كل نشاط لغوي
 موجه للتواصل في إطار إبلاغ الحجج وبلاغة الحجاج، أي التبادل الاجتماعي في
 الإقناع والتأثير، باللغة هذه الأداة الأساسية للتواصل الإنساني ضمن أدوات
 فرضها التطور الحضاري والتقني وهي معظم وسائل الاتصال التي بلورت العديد من
 المفاهيم والنظريات الحجاجية في العلوم الإنسانية واللسانية المعاصرة.

(١) ينظر: سعيد بنكرتد، السيميائيات وموضوعها: مجلة علامات، عدد ٢١، ص ٧٨-٩٧.

المصادر والمراجع

- الإحكام في أصول الأحكام، الأمدي، تحقيق إبراهيم العجوز، بيروت ١٩٨٥.
- الأسنة التوليدية والتحويلية، ميشال زكريا، المؤسسة الجامعية للدراسات، ط ١ بيروت ١٩٨٦.
- الحجاج في البلاغة المعاصرة: محمد سالم محمد أمين الطليبة، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط ١، بيروت - ليبيا ٢٠٠٨.
- الخصائص، ج ١، ابن جني، تحقيق محمد علي النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط ٣، القاهرة ١٩٨٦.
- دروس في اللسانيات التطبيقية، صالح بلعيد، دار هومة، الجزائر.
- العربية وعلم اللغة الحديث، د. محمد محمد داود، دار غريب، القاهرة ٢٠٠١.
- علم اللسانيات الحديثة، دار الصفاء، ط ١، عمان ٢٠٠٢.
- اللغة والتواصل، عبد الجليل مرناض، دار هومة، الجزائر ٢٠٠٠.
- اللغة والحياة والطبيعة البشرية، روي سي هجمان، ترجمة داود حلبي أحمد السيد، عالم الكتب، ط ٢ القاهرة ٢٠٠٠.
- مباحث في علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، نور الهدى لوشن، المكتبة الجامعية، الإسكندرية ٢٠٠٢.
- معرفة اللغة، جورج بول، ترجمة محمود فراج عبد الحافظ، دار الوفاء، الإسكندرية، ١٩٩٩.
- الملفوظية: جان سيرفوتي، ترجمة قاسم المقداد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق ١٩٩٨.
- مقدمة في اللغويات المعاصرة، د. شحدة فارح، جهاد حمدان، مومى عمابرية، محمد العتاني، دار وائل، ط ١، عمان ٢٠٠٠.
- مجلة علامات العدد ٥ سنة ١٩٩٦، والعدد ٢١، موقع سعيد بتراد.
- *De SAUSSURE F. Cours de Linguistique Générale, Editions payothèque, préparé par: de MORO TULLIO, 1972.*
 - *DUCROT. O et TODOROV. T. Dictionnaire Encyclopédic Sciences du Langage, Paris, Editions du seuil, 1972.*
 - *GUIRAND PIERRE, Théorie de la Communication, Langage» sous la direction d'A. MARTINET, Paris, Encyclo de la Pléiade, 1968.*
 - *LOHISSE. J. La Communication Anonyme. Paris, Universitaires. 1965.*

بين نظرية السياق ونظرية الاستلزام الحوارية مقاربة تداولية

د. هيثم محمد مصطفى*

مدخل

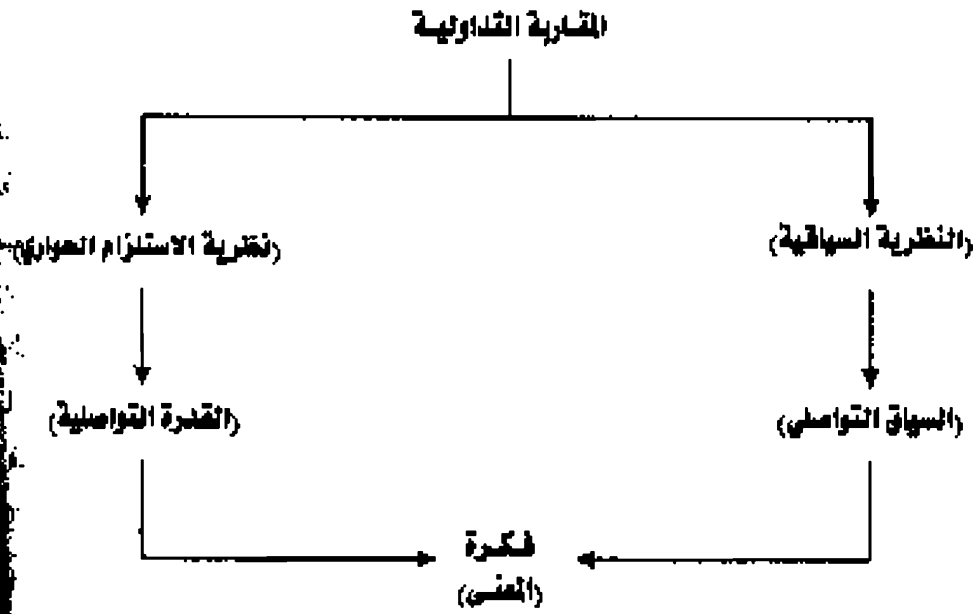
هذه الدراسة منعى المقاربة والجمع والتحليل لنظريتين مهمتين من نظريات تفصّل من خلالها بيان وظيفة الأقوال اللغوية وخصائصها في التواصل اللغوي. التواصل السياقي الاجتماعي بين أطراف العملية التخاطبية، من حيث الصلة بين هذا الخطاب وعلاقته بمسئوليتها.

فهرتان الثتان حاول البحث كشف المقاربة بينهما تداوليا بالنظر إلى بنية المعنى فيسواءهما الوظيفي في النص وأدائهما كتحصيل سياقي ملائم مع الجو الخطابية، الخطاب بأحوال المتخاطبين ومقاصدهم، هما (النظرية السياقية *Contextual* (J) و(نظرية الاستلزام الحوارية *Conversational Implicature*)، والنظرية هي (السياق التواصلية *Communicative Context*) للألفاظ والعبارات لكل ما يحيط بالحدث اللغوي من ظواهر غير لغوية ك(المقام، والمتكلمين، وهم، وحيثيات الاستعمال) وغيرها وأثر ذلك في استخلاص المعنى من النص أو في حين تعنى النظرية الثانية بالبحث عن معايير وضوابط (القدرة *Communicative Competence*) كوسيلة لاستقصاء المعنى في شكله المطلوب، ذلك أن أصل الخطاب حسيما تفترضه هذه النظرية وجود قوانين هادئة خاصة يلتزم بها المخاطب بالكيفية التي يتطلّبها الغرض متسما في ذلك والإبانة قدر المستطاع لتحقيق المقصود التخاطبي، غير أن المتكلم عادة ما يحدّى معاور هذه المحادثة فيلجأ إلى خرقها، وينوّل لإدراك المعنى بغرض أداء لغوي غير مباشر، أو مستلزم من مقام خطابي آخر يقصده المتكلم فيها نحو خلق الدلالة المتضمنة من القول.

النظريتين إذن يتشيران المعنى تداوليا ويسعيان إلى إنتاج علاقة خطابية مع أوضاع المتخاطبين ومقاصدهم وظروفهم المرهونة، حيث يوظف الخطاب لتلويح المقصد التواصلية، من خلال الربط بين النص وغرضه، بغية استكناه

المعنى النموذجي.

والمخطط الآتي يحاول إعطاء أسبقية البيان لهذه المقاربة الحاصلة في البحث النظريتين:



على أن الولوج في غور هذه المقاربة والشراكة التداولية العميقة هو ما نهض به البحث الأول من الدراسة والذي حمل عنوان (البعد التداولي المشترك بين السياقات ونظرية الاستلزام الحوارية)، وخلص إلى استدلال نوفر الإطار التداولي المتكامل بين النظريتين والقضايا العملية الوظيفية للغة، والذي يكون المعنى فهما من بخصوصيات سياق المقام الكلامي وقدرة المبادئ الحوارية المفترضة على التحديد عملية الاتصال الضرورية للعبارة اللغوية، من خلال القدرة على المناقشة والمناسبة للخطاب بما يهيئ التواصل الناجح بين المتكلم والمخاطب.

ثم كانت دراسة (المعنى التداولي في ضوء النظريتين السياقية والحوارية) للبحث الثاني، والتزعة التداولية التي انطلق منها هذا البحث هو بيان الأثر التداولي للمعنى بين كلتا النظريتين وتوجهاتهما القصدية في تحليل المواضع النصية، يحتل المسار اللغوي الذي يبسط العلاقة بين المتكلم والمخاطب طريقة أو مخصصة، من حيث صلة المعنى الجادة بأطراف خارج النص في (النظرية السياقية) وتحكيم المواضع غير القولية أو الحالة المفهومية الإشارية التي يلوح بها النص (النظرية الحوارية)، وبذلك يغدو المعنى هو الواقعة المهيمنة والحدث الذي ينشأ

بمغلاصه من سلسلة التحولات الدلالية والتغيرات المقامية التي يستعرضها النص، يصبح شرط الغاية والفهم التداولي ركبا استداليا، لتفعيل وتحقيق الاستجابة لعملية المناسبة للتواصل اللغوي.

وقد تبنت الدراسة منهجا تحليليا جعل من مسيرورة البحث عن ملامح المشتركات الدقيقة بين النظريتين، بالمقاربة التي ارتهن بها من تطابق نسبة الكلام مع الواقعة التي بل فيها، وجهة خصائصية محكمة ومنتظمة لتفسير الوحدات اللغوية، من خلال (العنصر الذاتي) في هذا التوجيه المتمثل بمعتقدات المتكلم ومقاصده، و(العنصر الموضوعي) المشتمل على الوقائع الخارجية من استحضار المقام الذي يمثل الوضعية الاجتماعية للخطاب، و(العنصر الدواتي) الدال على المعرفة المشتركة بين طرفي عملية التخاطبية^(١).

والرؤية التي تقوم عليها الدراسة كما بينا تحمل وجهة نظر تداولية على وفق الفها وألياتها الخاصة، وهي تباين في ذلك الرؤى الألسنية الأخرى كالرؤية العقلية لنية السلوكية المجردة مثلا، في انصراقهما لتفسير الظاهرة اللغوية وتصورتها بالمعنى والنص، عكس التداولية التي تأخذ بالأبعاد كلها في دراسة النص، بل على حضور سياق النطق ودوافع المتكلم وكافة الملامبات المحيطة بالمنطوق، حيث والكثير من الجوانب التي يقف عليها بناء المعنى وإنتاج الكلام. ومعلوم أن الخطاب أن بمجموعة من القرائن التي تحيط بعملية التلقظ والخلفيات المعرفية التي عليها الكفاءة التداولية لكل من المخاطب والمخاطب، إضافة إلى الفعل الذي الذي يرومه الخطاب من بين عدد من الغايات التي قد تفيده في سياق

(١) بحث اللساني والميمماني: طه عبد الرحمن، ندوة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، محمد الخامس، ١٤٠٦هـ: ٢٩٩.

المبحث الأول

البعد التداوئي المشترك بين نظرية السياق ونظرية الاستلزام الحوارية

تنطلق النظرية التداولية *Pragmatics* بدراسة اللغة في حيز استعمالها، وبذلك حدودها الوضعية الأصلية المجردة. بالنظر إلى محتوى الكلام الخاص لمقاصد المتخاطبين وأغراضهم الدلالية، حيث يستدعي ذلك توجيه الاهتمام بكيفية تشكيل السياق الخطابي والنظر إلى جميع الأوضاع المؤثرة في توجيه المفردة وقيمتها التأثيرية للمخاطب بتخليصها إلى إنجاز وأثر في متحقق الواقع^(١). فالبحث عن المعنى هو السمة الأساسية للتداولية، وهذا المعيار المفتوح للبحث معيار البحث عن المعنى وصياغة القواعد والتنظيم والمبادئ حوله. هو ما تهيئه وتشارك فيه النظريتان (السياقية، والاستلزام الحوارية)، حيث يصبح المعنى جدليا متداولا بين المحيط وظرفه المعين، وبين المخاطب وفهم مقاصده ومحل خطابه باقتضاء الملاءمة الحاصلة لتسهيل عملية التخاطب.

وعند العودة إلى أصول البناء المعرفي لكنتا النظريتين وبيان المنطلق الوظيفي منهما تجاه النص، يتضح معلم اتفاق الوحدة التداولية لمعالجة النظام والموقف الدلالي الخاص المشترك بينهما.

والنظرية السياقية أو سياق الحالة كما تسمى، هي النظرية الفيثريته *Theory Of Meaning* نمسية إلى جون فيث مؤسس المدرسة الانكليزية الحديثة للمدرسة الشكلية التركيبية. ووفقا لهذه النظرية فإن معنى الكلمات يعتمد على السياق، أي أن المعنى مركب من العلاقات السياقية^(٢)، وأن الوظيفة التي تتأتى إلا بعد أن تتجسد القولة في موقف فعلي معين^(٣).

وقد سعى فيث إلى وضع مجموعة من المبادئ البارزة في التحليل اللغوي يمكن التفرير أنها كانت كفيلة بصنع هيكل جديد لنظرية لغوية واسعة القبول.

(١) التداولية اليوم، علم جديد في التواصل: أن روبول، وجاك موشلان: ترجمة: سيف الدين محمد الشيباني: ٣١ - ٣٢، والتداولية والسرد: جون ك. آدمز، ترجمة: خالد مبر: ٨.

(٢) *Papers in Linguistics*, p. 19.

(٣) *Linguistic Semantics*, p. 35.

من حضورية بين النظريات اللسانية المختلفة، وأهم مبدئين لهذه النظرية هما: أن اللغة ظاهرة اجتماعية، فلا يمكن فهمها وتحليلها إلا على هذا الأساس. والمبدأ الثاني المشهور هو التمرکز حول فكرة (السياق) بكونها الأساس العملي في نظرية التحليل اللغوي^(١).

النقطة الرئيسة لهذه النظرية هي أهمية السياق الذي يقال فيه الكلام كما في الكلام لا يقال في فراغ بل نقوله في سياق، فيكون مدار فهمه والقدرة على النظر إليه في إطار اجتماعي معين سماه فيرث (بسياق الحال Situation of) أو الموقف الكلامي، وهو يتكون من عناصر معينة متكاملة دورية في عملية الفهم والإفهام^(٢)، والسياق على هذا الاعتبار في جزء منه لغوي (الأشياء التي قيلت مسبقاً)، وفي جزء آخر منه غير لغوي (غير مباشر) الظروف المتحدثين كمعرفتهم للعالم من حولهم وخبراتهم وتوقعاتهم^(٣)، ومن عناصر غير اللغوية المكونة لسياق الحال أو الموقف الكلامي المحيط بالنص^(٤):

الشخصية المتكلم والسامع وتكوينهما (الثقافي)، وشخصيات من شهد الكلام غير المتكلم والسامع - إن وجدوا - وبيان ما لذلك من علاقة بالسلوك اللغوي، ودورهم أيقنصر على (الشهود) أم يشاركون من أن لأن بالكلام، والنصوص الكلامية التي تصدر عنهم.

العوامل والظواهر الاجتماعية المختلفة ذات العلاقة باللغة وبالسلوك اللغوي خاصة، يشارك في الموقف الكلامي كحالة الجوان كان لها دخل، وكالوضع السياسي وكتمان الكلام... إلخ، وكل ما يطرأ أثناء عملية الكلام ممن يشهد الموقف الكلامي من انفعال أو أي ضرب من ضروب الاستجابة، وكل ما يتعلق بالموقف الكلامي أيا كانت درجة تعلقه.

في النص الكلامي لمشتري عملية الكلام أو الصياغة التخاطبية كالإقناع أو الكيم أو الإغراء أو الضحك... إلخ.

والعناصر حسب فيرث هي التي تحدد التمثيل الدلالي للمفردة وتظهر قيمتها التسميية.

^(١) اللغوي بين القديم والحديث: كمال بشر: ١٣١.

^(٢) ص ٥٠.

^(٣) اللغة: ريك تراست، ترجمة: رانيا إبراهيم يوسف: ٧٨. واللغة والتأويل: عمارة ناصر: ٣٥.

^(٤) المقدمة للقارئ العربي: محمود السمران: ٣٣٨.

فصلة التداولية بالنظرية السياقية تتحدد في أن كليهما تأسس على عمق التخاطب والتواصل بين طرفي العملية التخاطبية، وأن ظروف المتكلم والمخاطب اللغوية ممثلة بالعوامل غير المباشرة حسب الفكرة التداولية، تقوم بدور مهم تحديد خصائص الخطاب ومتطلبات التخاطب على اختلاف مستوياتها، فهما يمثلان أي (الاتجاه التداولي والسياسي) (بأثر التفاعل التخاطبي في موقف الخطاب، ويسبب هذا التفاعل دراسة كل المعطيات اللغوية وغير اللغوية، والخطابية المتعلقة بالتلفظ وبخاصة المضامين والمدلولات التي يولدها الاستعمال في السياق)^(١).

وإذا علمنا أن التداولية تدرس في جانب كبير منها علاقة العلامات بمسئولها، يكون للسياق التواصلي دور مهم في تفسير المفردة خلال النص، والعلاقة بالخطاب الثقافية بين المتحدثين والقواعد المتواصلة عليها في اللغة المتداولة بينهم. وهذا ما يبرهن من إنتاج العبارات لا معنى لها ما لم تتوافر فيها الشروط اللازمة التي تتعلق بالخطاب الذي تلفظ فيه العبارة في موقف معين بوصفها فعلا كلامياً^(٢). فالعنى المقامري للتداوليين أي ما يستدعيه السياق من اختيار ألفاظ معينة وترتيبها في النص عمدة التفسير التواصلي للتراكيب من خلال الاستعمال الوظيفي للغة، ذلك الاتجاه السياقي للغة لا ينفصل عن الاتجاه الوظيفي الذي يعنى في النهاية بكيفية استخدام اللغة ومن ثم عن قيمتها الاتصالية، وهو ليس شيئاً منفصلاً أي الإحاطة الوظيفي عن النظام اللغوي نفسه، وعلى ذلك فإن تداخل الأدوار والمشاركين النظام التركيبي المستخدم حسب نمط معين لأية لغة مرتبط ارتباطاً وثيقاً ومتمم بالوظيفة التي تؤديها تلك العجمل في سياقاتها المختلفة، وهذا ما يعني أن اللغة والبنائي يوظفان حسب السياق الذي يردان فيه والصورة المتشكلة في ظلها^(٣). المنحى الوظيفي المشار إليه قبلاً يكتسب منطلقاته الجامعة بين التداولية والسياسية من اعتبار النص، أي نص، رسالة لها قصدها متمثلة بالغاية التي يحيلها وموقفها وظروف تلقها، فتغدو العملية التواصلية ذات استراتيجيات خاصة المحاورين: المقتضى التداولي وخصائص الدور الاجتماعي أو التغييرات الاجتماعية يحكم الموقف الكلامي، والوجهة الأدائية المقصودة التي تحدد اللغة خلالهما^(٤).

(١) دراسات في اللسانيات العربية: عبد الحميد مصطفى السيد: ١١٩.

(٢) الملموظية: جان سيرفوني، ترجمة: قاسم المقداد: ١٠٩، وفعل القول من الذاتية في اللغة:

ك. أوريبكوي، ترجمة: محمد نظيف: ٩٥.

(٣) في اللسانيات العامة: مصطفى غلفان: ٨.

(٤) مغامرة المعنى من النحول التداولية، قراءة في شروح التلخيص للخطيب القزويني: صابر الجبلي:

الدراسة التداولية للنصوص إنما تستند في تفسير معنى النص وترجمته وتأويله
إلزاماً هو مؤطر ضمن ظرفه الخارجي وفي سياق يكون ملائماً له، فأفعال اللسان
بمازاة على سبيل المثال لا تتحقق فعليتها وهدفها وتأثيرها في الخارج ما لم تتلاءم
مع إنجازها بالسياق الذي يتم فيه التلقظ بالعبارة بوصفها فعلاً للسان، وهذا
الوط يمكن تحديدها بالأمور الآتية:^(٧٩)

١- الظروف والأشخاص المشاركون في إنجاز الفعل اللغوي وإخراجه من كمونه
الاعتيادي.

٢- مقاصد الأشخاص.

٣- نمط التأثير المرتبط بإنتاج الفعل اللغوي.

الظهير بجملة (سأسافر غدا) نجد أنها توحى بعدة معاني وذلك بحسب السياق،
فستدعي الإخبار في سياق ما، وتفيد الوعد في سياق آخر، وقد تحمل معنى التهديد
في سياق ثالث، وغيرها من التوجهات التي يكون عامل حضور السياق فيها شرطاً
فيها لقيام المعنى ومن ثم تحقيق عملية الفهم والنواصل الضروريتين بين المخاطب
المطرب، ولا شك أن الفعل القصدي هو الذي يحدد وجهة وإطار هذا النوع من
العمل. وهذا الفرع من التداولية المشار إليه أي الفعل اللساني الإنجازي ينحو منحاً
مختلفة في تفسير الظاهرة اللغوية حين يتجه نحو (الكشف عن الأعمال اللغوية
التي تطابق الحدث اللغوي مع الحدث الفعلي، وهذا جانب من اللغة يكرس أهمية
الذي تنشئه اللغة، كما يعكس خطورة القوة الإنشائية للغة باعتبارها قانوناً
يأسرع لا للتفكير والنواصل فحسب بل وللسلوك كذلك)^(٨٠).

نتيجة لما مضى نقول (إن فعل اللسان يكون ملائماً لسياق معين عندما تكون
الشروط الضرورية لإنجاز هذا الفعل قد اكتملت، وهذه المهمة هي مهمة التداولية
التي أن تعدد الشروط التي على كل فعل من أفعال اللسان أن ينجزها لكي يكون
ملائماً للسياق الخاص)^(٨١)، وشرط السياق التداولي يتعاقب ويمتلك حضوره بشكل
مدمج (الاستلزام الحوارية) والذي يمثل الطرف الآخر المقابل والمقارن لموضوع
العمل كما سيأتي.

عمل العناصر الثلاثة المذكورة سابقاً والتي حددها فيرث وجعلها أساساً للتفسير
في الاجتماعي للغة ممثلة بـ (العنصر البشري "الأشخاص" - وعنصر الموضوع -

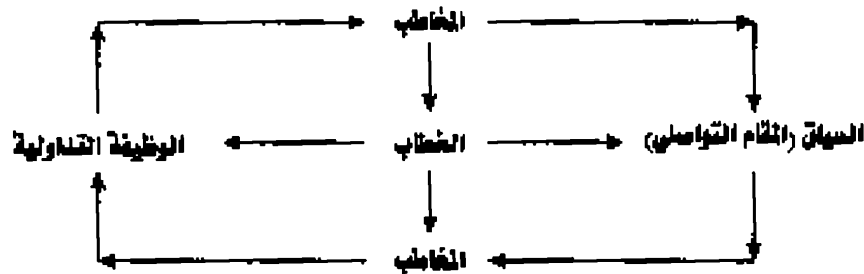
(٧٩) أولية من أوستن إلى غوفمان: فيليب بلانشيه، ترجمة: صابر العياشة: ٧٨، ٧٩.

(٨٠) العياشة الفكر اللساني في النحو والدلالة والتداولية: صابر العياشة: ١٨.

(٨١) العياشة وعلم النص: إعداد وترجمة: منذر عياشي: ١٧٢.

وعنصر الهدف أو الأثر) هي عناصر تمتزج مع الفكرة التداولية في تحليلها للنصوص والعبارات بصورة واضحة والمعاني المستلمة منها، وهذه هي مهمة التداولية الاجتماعية *Socio-pragmatics* كما بصنفها البعض، في اهتمامها بدراسة شرائط الاستعمال اللغوي المستنبطة من السياق الاجتماعي، عكس التداولية اللغوية *Linguistics Pragmatics* الصرفة إن صح التعبير، التي تدرس الاستعمال اللغوي من وجهة نظر تركيبية فقط^(١).

ولأن المستوى التداولي كما يرى فان ديك *Van Dijk* هو مستوى عملي *Action* فإن النصوص والخطابات العملية تقتضي ملاءمتها مع السياقات التواصلية التي تنجز فعلها وتتحدد مناسبتها لذلك نسبة للحضور المقامي لكل من المخاطب والمخاطب فضلاً عن الخطاب^(٢)، لذا فالذي يحدد بنية المعنى وفق هذه الصورة ليس الأقوال وحدها، رغم أن المعنى الفعلي في التداولية ينشأ في جزء كبير منه من بنية الأقوال، إلا أن لظروف المقام التواصلية ومظهر إنتاج الكلام فيه يتكأ على الموقف الخارجي بشكل كبير، وهنالك الموقف أو السياق الخارجي كما يسمى ليس مجرد مكان يلقي فيه الكلام، وإنما هو ذو عناصر متكاملة كما بينا يتعاقب بعضها مع البعض الآخر في سبيل كشف المعنى الملائم للخط البياني المقامي الذي يوجه فيه النص والتركيب، والمخطط الآتي لتوضيح العلاقة بين التداولية والسياق (الموقف الخارجي):



يتضح مما ذكر أن العناصر والشروط المركز عليها في التحليل التداولي للنص اللغوي تتقارب مقارنة شديدة مع نظرية السياق في مقاصدها التوجيهية والتحليلية والتأثيرية للغة بشروطها الخارجية المذكورة، وسعياً نحو بناء سيرورة التواصل الناتجة والمنميين أطراف عملية التخاطب.

(١) *Robins, R.H., A Short History of Linguistics, p. 97.*

ومدخل إلى علم اللغة النصي: فولفجانج هانبه من، وديتر فيهنيجر، ترجمة: فالح بن شبيب العجمي، ٦١ - ٦٢.

(٢) لسانهاث النص، مدخل إلى إتسجام الخطاب: محمد خطابي، ٢٨ - ٢٩.

أما نظرية الاستلزام الحوارية أو التلويح الحوارية كما نسمى أيضا، فهي قائمة في الأساس على فكرة المحادثة وإدارة الحوار واستقامته. والتي تتبين في استعمال التراكيب الصحيحة منطلقة من كيفية الأداء الحوارية والتدرج فيه وصولا إلى انتهائه وسلامته اللغوية وتوفيقه بين أطراف العملية التخاطبية.

وأصل فكرة النظرية تعود إلى الفيلسوف اللغوي بول غرايس *P. Grice*، التي تعد واحدة من أهم الاتجاهات الخاصة بعلم مفاهيم الكلام التي نستند عليها التداولية بشكل خاص. وذلك بالترقية التي أقامتها النظرية بين المعنى اللغوي الحرفي (المحض) الذي يحمله الملفوظ في محنواه الأصلي، وبين المعنى السياقي المقصود في عملية التواصل^(١)، حيث يدل دلالة غير مباشرة على المعنى المطلوب من النص.

والسؤال الذي طرحته التداولية عبر هذه النظرية والتي جاءت تفسيرا للتعارض أو التباين الحاصل بين المعنى الوضعي والمعنى السياقي هو أنه (كيف يمكن لعمل قوته (أ) أن يدل على عمل قوته (ب)، وكيف يتمكن المتكلم من إبلاغ (ب) عن طريق (أ)، وما الذي يعتمده المخاطب لفهم الغرض المقصود)^(٢)، وبمعنى آخر كيف يتسنى لنا أن نلبيد من المعاني أكثر مما نقول ونعبر عنه حرفيا بالدلالة اللفظية المنطقية المباشرة^(٣).

عندما نتأمل التعبير الآتي:

(أ) أين كان عبد الله البارحة؟

(ب) لقد وصل عمرو من عند خالد الليلة الماضية متأخرا.

ظاهر هذه الإجابة يبدو غريبا، فالسائل طرح سؤالا بشأن (عبد الله) ولكن المجيب (ب) لم يشر بكلمة واحدة بخصوصه، بل ذكر وصول (عمرو) من عند (خالد) متأخرا واللذين لم يرد ذكرهما في السؤال بأي حال من الأحوال، ولكن بالرغم من ذلك فإن الإجابة رغم عدم صراحتها ومنطقيتها اللغوية الواضحة والمفهومة مباشرة، فإن الإجابة جاءت من (ب) بصيغة تضمنية مستلزمة من خلال الحوار المحادثي الدائر بينهما، كأن المجيب ينوي القول: (أنا لا أعرف أين قضى عبد الله الليلة الماضية يقينا ولكن يبدو من الأسباب ما يجعلني أعتقد بأنه قضى تلك الليلة في بيت (خالد) مصاحباً له عمرو، ولا سيما إذا علمنا مسبقا أن موعد اللقاء بين هؤلاء الأصدقاء الثلاثة أنت شبه دورية يتناوبون الزيارة والمصاحبة كل ليلة في بيت واحد منهم يوميا.

ولا شك أن الخلف السياقي والمحيط الذي يقال فيه هذا النوع من التعابير

(١) التداولية: جورج يول، ترجمة: قصي المتابي: ٦٧.

(٢) أهم المدارس اللسانية: عبد القادر الميربي وأخرون: ١١٤.

(٣) الخطاب وخصائص اللغة العربية. دراسة في الوظيفة والبنية والنمط: أحمد المتوكل: ٥٠.

يحضران بقوة ويتواجدان لاستخلاص المعاني المطلوبة والمفهومة إدراكا للمعنى نجاح العملية التواصلية، ويؤكدان من ناحية أخرى أن الوظيفة التداولية تجمع النظريتين (المصاحفية والحوارية) على صعيد بناء لغوي إقناعي واحد ومشارك.

ولما كان لهذه النظرية صلتها بتحديد معايير القدرة التواصلية وسلامة الاتصال ونجاحه بين المتخاطبين، فقد رأى النداوليون أن المقياس الذي وضعه غرايس في مبادئ الحوار والمحادثة يعد بعدا مهما وأساسيا من أسس ضبط قوانين القبول اللغوية وتسييرها بصورة محكمة في تحقيق المعنى المطلوب بين المتكلم والمخاطب^(١) وقد صاغ غرايس هذه المعايير على وفق ما أسماه بمبدأ التعاون *Operative Principle*، بين المتكلم والمخاطب، وهو مبدأ تداولي حوارية عام يشتمل على أربعة مبادئ فرعية، يقتضي أن المتكلمين متعاونون في تسهيل عملية التخاطب، وتتلخص هذه المبادئ فيما يأتي^(٢):

١. مبدأ الكمية *Quantity*: اجعل مساهمتك ذات كفاءة إعلامية بالقدر المطلوب أي كمية الإخبار الملتزمة والمطلوبة في الخطاب من زيادة ولا نقصان.
 ٢. مبدأ الكيف *Quality*: وهو مبدأ يتصل بالصدق، أي لا تقل ما تعتقد غير صدقه ولا دليل عليه.
 ٣. مبدأ العلاقة *Relation* أو المناسبة: اجعل كلامك متناسبا، أي أن يكون كلامك متناسبا لسياق الحال.
 ٤. مبدأ الطريقة *Manner*، أو الأسلوب كما يسمى أيضا: وهذا المبدأ يتفرع إلى:
 - أ- الوضوح: حيث يجب أن يكون خطابك واضحا في قصده، كي يسهل السمع أمام ما يقصده المتكلم من أقواله.
 - ب- تجنب الغموض والإبهام: بالابتعاد عن الكلمات الملتبسة التي تحتمل معاني مختلفة في سياقات مختلفة.
 - ج- الإيجاز: بتركيز المخاطب على ما يجب أن يقال.
 - د- الترتيب: والمقصود ترتيب المفردات في الخطاب، وبضرورة عرض ما للمتكلم من معلومات كما يطلها الآخرون.
- وتوضح هذه المبادئ الرئيسة بالمثال الآتي:

(١) علم التخاطب الإسلامي، دراسة لسانية لمنهج علماء الأصول في فهم النص: محمد محمد بولاع علي: ١١٣.

و التداولية: جورج بول: ١٩٨، ٣٠٥. *H. P. Grice, Logic and Conversation: p. 305.*

قولنا:

(س) أين زيد؟

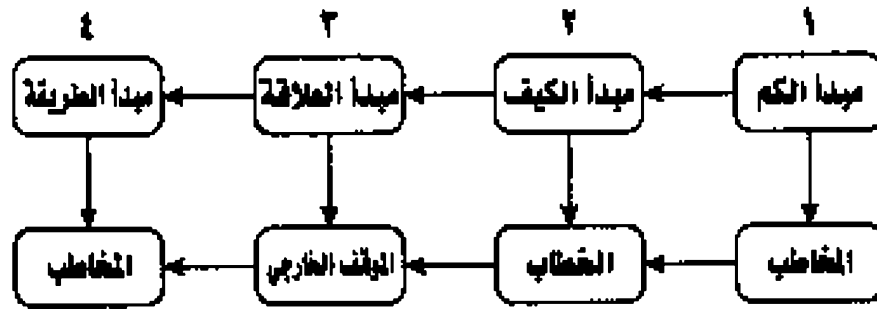
(ج) في الجامعة.

نجد أن هذه المبادئ العامة والفرعية المذكورتين قد تحقق حضورها في هذا الحوار لحادثي القصير، فالإجابة وردت واضحة مفهومة غير ملبسة (مبدأ الطريقة)، وكانت ملائمة لمعيار الصدق لأنها جاءت صريحة وصادقة (مبدأ الكيف)، وكمية المعلومات الواردة في الخطاب استخدمت القدر المطلوب من الكلمات دون تزيد أو نقص (مبدأ الكم). كما أن الإجابة كانت ملائمة ومناسبة لسياق السؤال، وذات صلة وثيقة لسؤال (مبدأ المناسبة)، ولذلك كانت العملية التواصلية ناجحة بين المتخاطبين.

وتأتي نظرية الاستلزام الحوارية لتعلق حصولها في الخطاب أو النص عند خرق إحدى القواعد الأربعة المذكورة، فلئن عدنا إلى مثالنا السابق بين (عبد الله - وعمرو - خالد) نجد أن جملة الإجابة: لقد وصل عمرو من عند خالد الليلة الماضية متأخرا، تلتزم حواريا ضمنيا وبصورة غير مباشرة وجود (عبد الله) في بيت (خالد) ومعهم عمرو، فحصل مفهوم الاستلزام نتيجة خرق مبدأ (العلاقة) أو المناسبة الكلامية بين طرفين (المتكلم والمخاطب)، مما جعل الإجابة غير ملائمة ظاهريا ومباشرة للسؤال بطروح، وبالتالي مبدأ (العلاقة) لم يوصف بالاتصال بالنجاح مثلما هو طبيعي نتعارف عليه لفقدانها الملاءمة التعبيرية كما ذكرنا. وينبغي الملاحظة هنا أن المتكلم إليها ما يتقصد خرق إحدى هذه المبادئ متبعا للإيهام واللبس في الكلام بغية إدراك لبود المعنى والغاية التي يتوخاها من الخطاب بصيغة أسلوبية غير مباشرة. وذلك بأن يربط تعبيره استنتاجيا ملوحا غير مصرح، ليلتمس المخاطب وراء صياغته الكلامية مضاها في سبيل تحليلها وتفكيكها للوصول إلى مناحي الدلالة المطلوبة.

ومن خلال تتبع القراءة لهذه المبادئ والأسس الأربعة التي وضعها (غرايس) وفصل قول فيها، نجد أنها تتجانس وتجتمع مع عناصر عملية التخاطب الأربعة الرئيسية وهي: مخاطب (المتكلم)، والمخاطب (المستقبل)، والخطاب (الرسالة)، وسياق الحال (الموقف الخارجي)، لكون بعض هذه المبادئ يتعلق بالمخاطب (مبدأ الكم) بقدراته إمكاناته الحوارية، وبالمخاطب (مبدأ الطريقة) في كيفية استقباله للخطاب بتفكيك إيضاح لبسها وعموضها، وبالمخاطب (مبدأ الكيف) بما يتسم به من السمات المفهومة والمستعملة خطابيا، وبالموقف الخارجي (مبدأ العلاقة) الذي هو حلقة وصل تسير واحكام ربط الخطاب بين المخاطب والمتلقي^(٧)، وتوضيح العلاقة بين مبادئ (غرايس) وعناصر العملية التخاطبية بالمخطط الآتي:

(٧) نحو نظرية أسلوبية لسانية: فهلي سانديرس، ترجمة: خالد محمود جمعة: ١٩٨.



ويبقى للسياق دخلاً قوياً ودوراً مميزاً في تسهيل وتسيير عملية المحادثة أو الحوار للبلوغ إلى العمل غير المباشر، ولا سيما إذا علمنا أن هذه المبادئ ليست إلا جزءاً من مبادئ اجتماعية^(١) ترتب معانيها وتغير لتتناسب سياقها الظرفي الاجتماعي الذي يقال فيه الكلام، خاصة أن إحدى هذه المبادئ التي يتيناها (غرايس) وهو مبدأ العلاقة أو المناسبة، يتطابق كلها مع فكرة (سياق الحالة) التي صاغها (فيرث) في تحليله لمستويات المعاني المستقاة من النص وذلك بمراعاة الطرف العام من حال المتكلم والمخاطب، إلى حال الخطاب الذي ينتج في حدود الموقف الخارجي الملانم لمقتضى السياق.

ولا ننسى الإشارة في هذا المقام ونحن نختم هذا المبحث بأن (الخطاب الحوارية) الذي مثلناه بنظرية الاستلزام يختلف عن (الخطاب الإنجازي) ذي الأثر المتحقق في الواقع، فالأول يندرج ضمن الفعل التواصلي غير المباشر، ويعتمد في العادة على خلفية من المعلومات المشتركة بين المتكلم والمخاطب، كما أنه يتطلب كفاءة تواصلية من خلال عملية استدلالية من لدن المخاطب بإقناع المتلقي في التماس الفصـد الدلالي المطلوب^(٢)، ويتدخل المقام فيه كما ذكرنا بصورة فعلية في توضيح ذلك عبر التفرقة بين المعنى الوضعي والمعنى السياقي الاستلزامي، وبعبارة أخرى بين قصد التعبير وفصـد التواصل.

أما الخطاب الإنجازي فهو يصنف ضمن الأفعال المباشرة* عادة وهو ميدان نتجـر فيه أعمالاً لا تتحقق إلا بواسطة اللفـة على حد قول أوستن *J. Austin*، وهذا الخطاب يحمل صفة براغماتية لأنه يبحث عن أثر القول في الخارج^(٣)، لذلك فهو ذو دلالة نفسية عملية بالدرجة الأولى، توظف اللفـة من خلاله لإحداث أثر أو لتغيير ما في العالم

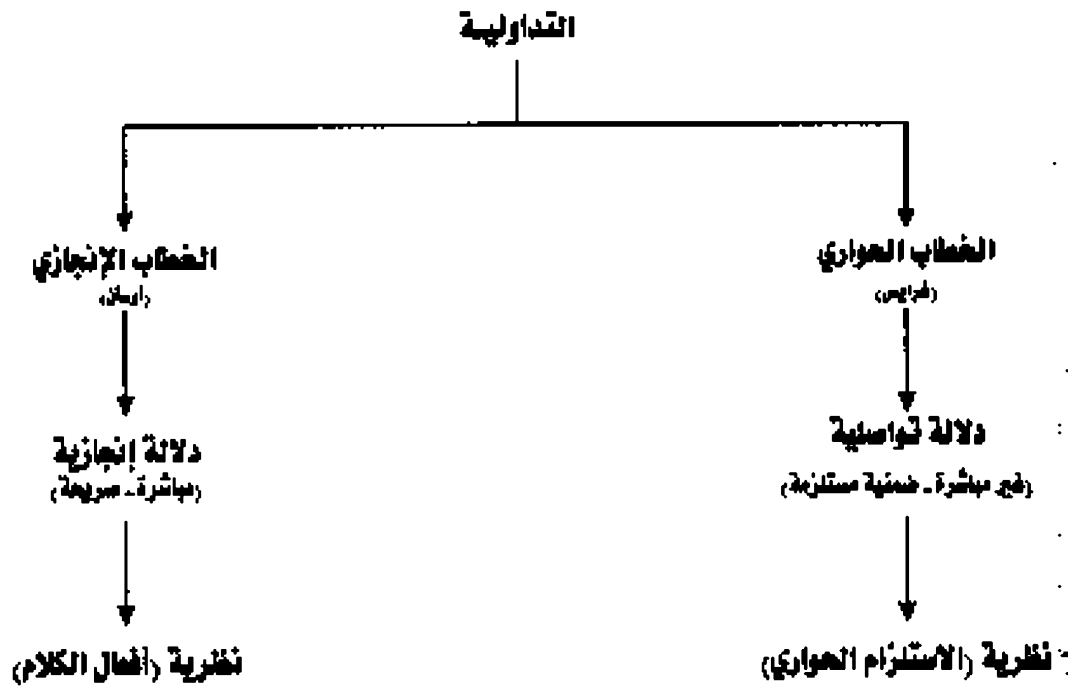
(١) العجاج في أثـبـلـة المعاصـرة، بحث في بلاغة النقد المعاصر: محمد سالم الأمين الطلبة: ١٦٨.

(٢) اللفـة والمعنى، مقاربات في فلسفة اللفـة: إعداد وتقديم: مخلوف مريد أحمد: ٣-٣.

* استثنينا في هذه العبارة ذكر الأفعال الإنجازية المباشرة، دون الأفعال غير المباشرة كما طرحها سيرل لتكون الإنجاز المباشر للأفعال أصل في هذه النظرية لمسة إلى واضعها أوستن

(٣) نظرية أفعال الكلام: جون أوستن، ترجمة: عبد القادر فنيهي: ١٢٣.

أو الهاجر. وتوضيح ما ذكرناه بهذا المخطط:



يلحظ مما مضى تقابل المنحى التداولي الذي نبحث به كل من نظريتي (السياق) (الاستلزام الحواري) في تلاؤم شروط العناصر السياقية ل(فيريث) ومبادئ التعاون والمساهمة في تحديد معايير المقدرة التواصلية الناجحة ل(غرايمس)، مع أجواء الخطاب التداولي، واشتراكهما في بلورة قاعدة تلازم يمنحهما التفاعل في سبيل اكتشاف المعنى وتلخيص وظيفته في الخطاب أو النص.

المبحث الثاني

المعنى التداولي في ضوء النظريتين (السياقية والحوارية)

لا تقتصر طبيعة المعنى واكتسابه من جهة واحدة، بل هي حصيلة تداخلات معرفية متعددة، كما أن حيثيات استخلاصه تمثل مكنن الوعي المختلف منذ اللحظة التي بنيت عليها اللغة في تواصلها مع الوجود، ولأن المعنى في النص مشروع انفتاحي للفهم فإنه يكتسب حضوراً ظاهراً أحياناً أو تلازماً وتأويلاً أحياناً أخرى، يستكشف مغزاه من السياقات التي تحف بالكلام، لذا فقد أضحت ضرورة التوسل بالنسبية والظن في إدراكه منهجاً موازناً يخدم الغرض والفائدة المتوخاة منه والتماس المطلوب كذلك، تماشياً مع القيمة المتاحة من فضاء التعبير، بعيداً عن الإطلاق قريباً من المعنى الدلالي المتاحم للواقع.

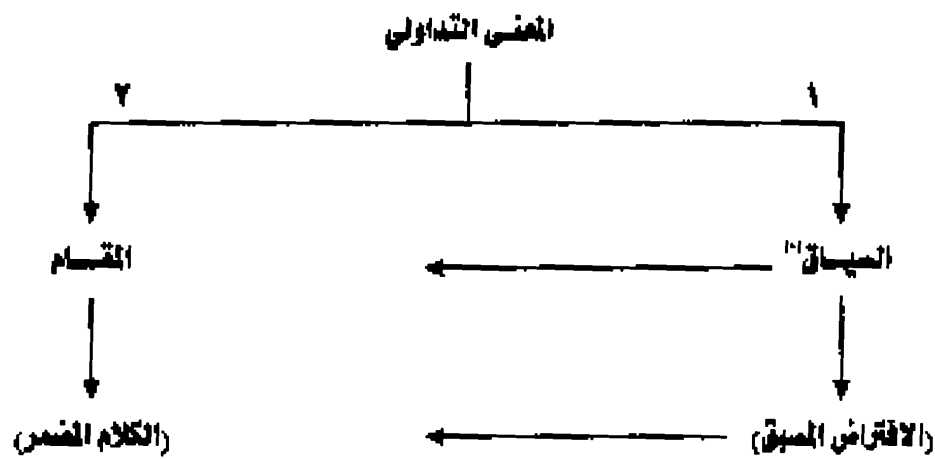
والفكرة الغائية للمعنى تعد المنطلق التداولي للنص في أشهر صورها لكنها ليست الوحيدة، فما بين أيدينا من النظريتين اللتين سنتناول فكرة (المعنى) فهما هي تداولية أيضاً لكن من وجهة استعدادية مختلفة، توجه النص وتفسره وتحلله وفق المعيار المقامي التواصلي بالدرجة الأولى، وبما يقتضي مزيداً من الحفر للنسق الظاهري للنص، كي تكتسي هذه المقاربة صفة المفهوم المتصل جذرياً بالمتجه التداولي الذي يسعى إلى المسألة دوماً في نقل دلالة النص من البناء الشكلي العلائقي الداخلي المعتاد وهو ما نسميه بالبنية المنغلقة، إلى حيز الإسقاط الخارجي من وضعيتها الاستعمال والمقام اللتين تحددان مسيرة عملية التخاطب عن طريق ما نسميه بالبنية المفتوحة.

تتجه النظرية السياقية إلى السياق للحصول على معنى الكلمة كما ذكرنا، وذلك ضمن المحور المقامي بمكوناته ولوازمه الخارجية ومعطياته المعرفية المعهودة، وهو ما تدور حوله الرؤية التداولية كذلك في استكناه المعنى المستفاد من النص من خلال جدل العلاقة الدائريين السياق التداولي والسياق الاجتماعي الخارجي. ومن هنا يشترط جون لايتز J. Lyons، للنص توفر علاقات ولوازم خارجية يحكمها السياق، ويخلص إلى أن كلا من النص والسياق يتم أحدهما الآخر، ويفترض مسبقاً كل منهما الآخر، لذا فهو يعد النصوص مكونات للسياقات التي تظهر فيها، أما السياقات فيتم تكوينها وتحولها وتعديلها بشكل دائم بواسطة النصوص التي يستخدمها المتحدثون والكتاب في مواقف معينة^(١)، ولا شك أن حضور الموقف في النص له دور وظيفي وتداولي كبير

(١) اللغة والمعنى والسياق: جون لايتز، ترجمة: عباس صادق الوهاب: ٢١٥.

في مستوى التخاطب والتلقي، ويوفر الإنجاز للمعنى بمعطيات الحالة غير القولية الحافة حول النص.

وهناك عنصران أساسيان يرتبطان. كما يرى التداوليون. أشد الارتباط بتحليل الموقف الخطابي في إطار المقصد التواصلية وصولاً إلى استكناه المعنى التداولي من الكلام، وينعكسان في تعلقهما من حيث الإحالة مع كل من (السياق) و(المقام)، هذان العنصران هما (الافتراض المسبق *Pre-supposition*) و(القول المضمّن)^(١٧)، ويشترط احتواءهما ضمن النصوص والتراكيب اللغوية التي تنحو المعنى التداولي في الفهم والتحليل، والمخطط الآتي يوضح ذلك:



ويتحقق (الافتراض المسبق) عندما يتوفر لدى كل من المتكلم والمخاطب معطيات لغوية مسبقة متفقة ومتعارفة فيما بينهم قبل الدخول في عملية التخاطب، بخلاف (الكلام المضمّن) الذي يصاغ فهمه ويتعلق مدلوله بمعطيات خارج لغوية (مقامية)^(١٨)، لاعتبار أن (المقام) يرتبط بالسياق الخارجي، ومجموع الشروط التي تتحكم في عملية إنتاج وتلقي النص، عكس (السياق) الذي ينحصر مدلوله في العلاقات بين الوحدات اللسانية داخل النص^(١٩)، فالفرق إذن قائم بين (سياق الكلام) و(مقام الكلام)، والمعنى التداولي ينسحب مدلوله ويكون استنباطه من الثاني، أما الأول فهو وسيلة لفهم الأخير

(١٧) المقروظية: ١١٠، ١١١.

(١٨) المقصود بالسياق هنا، السياق اللفظي (النطقي أو الكتابي).

(١٩) مدخل إلى اللسانيات: محمد محمد يونس علي: ٩٩.

نظرية النص من بلية المعنى إلى سيميائية الدال: حسن خمري: ١٨٤.

ويريد نحو امتلاك القيمة التداولية من النص. مع التنبيه هنا إلى أن مصطلح (مقام الكلام) يناظر مصطلح (سياق الموقف) أو (سياق الحالة) الذي جاء به فيرث كما مر بنا، سوى أن مصطلح المقام ارتبطت نشأته وتسميته عند البلاغيين العرب في تمرسهم لأساليب البيان المختلفة في النصوص التي تناولها كتابة وفهما وتحليلاً.

فقول القائل: هل لك أن تعبرني كتاباً من المكتبة غدا؟ يفهم من سياق هذا المثال ويفترض مسبقاً أن المخاطب يعرف القراءة، كما أن لديه خبرة في الإعارة. أما إذا كان النص منفتحاً على أكثر من جهة في التأويل والتحليل بحيث يكون سياق الحالة أو المقام هو الفيصل في إفراد المعنى التداولي المتعدد من التركيب أو النص فهو كما في المثال التالي: الجو شديد الحر اليوم، فعن طريق تدخل المقام في هكذا تعبير يؤول الكلام نحو أكثر من جهة من الفهم المتاح للمخاطب، فقد يكون المغزى: تأجيل موعد اللقاء أو السفر، المكوث في البيت، اللبس الخفيف تحاشياً من حرارة الشمس الخ... فالوجود المتحقق لهذه التعبيرات في الواقع مرهونة معانيها التداولية بظروف المقام وخصوصياته التي تلقى ضمنها النصوص والتراكيب.

ولو حاولنا الإيغال في هاتين المقولتين التداوليتين لتلتصم منهما الشبح التداولي لمعاني الألفاظ والعبارات لتبين لنا أولاً أن مقولة (الافتراض المسبق) أوسع إثارة ودلالة ونظيرتها (الكلام المضمر)، بكون هذا الأخير ومن خلال ما نستنتجه يكون محتواة ضمن الأول ومندرج تحته بما أسميناه (الافتراض الناتج عن القصد) كما سيأتي، إلا أننا في ذلك نكرر البيان فنقول: إن أي تحليل للخطاب يقوم على أساس المكون الكلي وهو ثنائيتا (المقال والمقام) كما هو حاصل في الدرس اللساني القديم والمعاصر، حيث إن العلاقة بين المقام والمقال تسير في اتجاهين على نحو مستمر، فكما أن المقال يعلو على المقام، فكذلك نجد المعرفة بالمقام ضرورة في فهم المقال^(١). ولما كانت التداولية في أصبح وصف لها تعني المجاوزة للبنية إلى الاستعمال، ومن قدرة اللغة إلى الكلام، ومن الجملة إلى النص أو الخطاب، ومن ثم دراسة المنجز الخطابي في التواصل، نجد أن هذا التوجيه يتبنى المنهجية في إلحاق البنية الشكلية بالأداء المقامية للنص وذلك لتحديد معناه منساقاً مع الموقف التواصلية.

ورغم ما للمقال من أهمية لسانية كونه يمثل القاعدة في تأصيل المعنى العادي للخطاب، إلا أن حصره للدلالة في أفق ضيق يجعل منه ملكة معرفية نسبية الإفادة، ومن هنا أتى اللجوء لقرائن السياق والمقام لإدراك ما انتقى من المعاني،

(١) الدراسات الإحصائية للأسلوب، بحث في المفهوم والإجراء: سعد مصلوح، عالم الفكر، الكويت، ٢٠٠٢م، ج٣، ١٦٨٩م: ١١٥.

أتبع التداوليون مقولة (القصيدة) أو القصيدة^(١) تعضيدا للمقام في فك إغلاق التلغظ وانفتاحها نحو مديات إقهامية واسعة، ليأخذ (الافتراض المسبق) بعد ذلك، وبعد هذه المزاوجة الخارجية بين (المقام - والقصيدة) نمطين تداوليين فرعيين نحاول هنا التمييز بينهما. وإن على سبيل الاجتهاد والتبسيط. مما لم يشر إليهما في المصادر التداولية المطلعة حسبنا نعلم وهما:

افتراض مسبق منشؤه العرف.

افتراض مسبق منشؤه القصيدة.

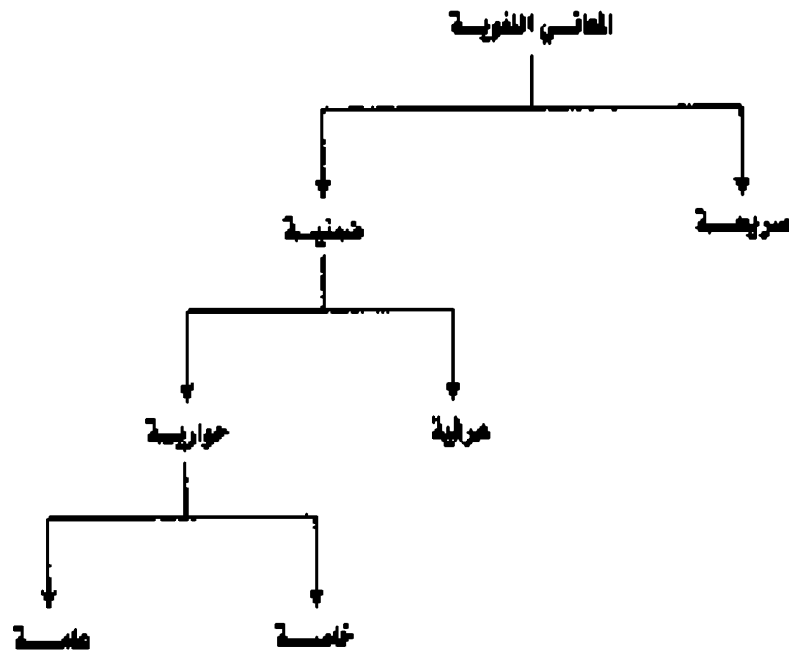
فالافتراض الذي منشؤه العرف هو ذلك الخطاب التداولي ذو المعنى المحدد، الذي يصاغ في مقام محدد وضمن ظروف إنجازية مناسبة بالنظر إلى عناصر السياق. كقولنا مثلا: لدي ثلاثة من الأولاد المتعلمين، فالافتراض الذي ألمح إليه الخطاب جاء بالاعتماد على مرجعية (ضمنية) دالة وبصيغة إفادية محددة، وهو أن المخاطب تزوج ولديه أسرة تربية وتعليمية ناجحة، فيكون معيار هدف الخطاب قد توصل إليه تواصلية مفهومة ومقدرة في ذهن المتلقي يستطيع كشف دلالة كلام المرسل استبان مغزاه بسهولة.

أما الافتراض الذي منشؤه القصيدة، وهو يناظر مدلول (الكلام المضمرة)، فهو ذلك خطاب الذي يفتح فيه التأويل على مديات استعمالية متعددة، حيث المعاني المضمرة من قبل المتكلم عندما يتفوه يمثل هذا الخطاب أو ذاك في سياقه القصدي الهرضي، والدلالات الإضافية التي يستنتجها المتلقي من مضمون الكلام المتفوه، مما قد - أي هذا النوع من الافتراض - أن وحدة التحليل في التداولية هي الوظيفة التي تعلق منها النص أو الخطاب، والقدرة التواصلية التي تصطبغ بها عناصره ومكوناته. نلجأ مثلا الذي استدعناه في (الكلام المضمرة) سابقا نستدعيه هنا لكن بصيغة أخرى كقولنا: (الجو حار في الخارج)، من هذا التفوه البسيط الذي يطلقه المتكلم، تصطبغ المخاطب بحكم قناعاته المعرفية بمقاصد الخطاب المختلفة أن يلتمس لها دلالات متعددة، فإما أن يكون القصد مثلا: أعطوني الجملة على لسان المتكلم - أو مظلة تقيتي لهيب السماء، أو أن يتقصد تأجيل خروجه والذهاب لعمله إلى البيت لاحق بسبب الحر المفرط، أو أنه يريد نصيحة من معه في المسكن بعدم التعرض لشمس خشية الإصابة بالمرض إثر أشعتها القوية إلخ... وهكذا فبالإمكان أن نفتح المجال للخطاب نحو مخارج تداولية استعمالية مختلفة، انطلاقا من عامل المقام

(١) نقل واللغة والمجتمع، الفلسفة في العالم الواقعي: جون سيرل، ترجمة: سعيد الغانمي: ٢٠٤.

وقدرة التواصل الحاصلة للخطاب.

والصورة التداولية نفسها تنسحب في النظرية (الحوارية)، ذلك أن المعاني عند غرايس إما (صريحة) أو (ضمنية)، والمعاني الضمنية، التي هي موضوع دراستنا، صنفان الأول عرفية: وهي تلك المعاني المرتبطة بالنص ارتباطاً يجعلها تتلاءم ولا تتغير بتغير السياقات التي يتعرض لها النص، والثاني حوارية: وهي المعاني المتولدة وأيضاً المتعددة طبقاً للمقامات التي ينجز خلالها النص، وهذه الأخيرة بدورها نوعان: فهي إما ناتجة عن سياق خاص، وإما ناتجة عن العموم، وقد اصطلح غرايس على هذين النوعين من المعاني الضمنية الفرعية بـ (الاستلزمات الحوارية الخاصة) و (الاستلزمات الحوارية العامة أو المعممة)^(١)، والمخطط الآت، يوضح ذلك:



(الاستلزام الحوارية)

ومفهوم (الاستلزام الحوارية) يتصل بسياق الموقف الخاص، لأن فيه قصور مسبقة من لدن المخاطب عن طريق تشكيل مغزى خاص للخطاب منوط بظرف ينتقل من (المعنى العرفي) إلى (المعنى الإيحائي)، بحيث لا يكون الأول محتملاً السياق.

(١) اللسانيات الوظيفية، مدخل نظري: أحمد المتوكل: ٩٨ - ١٠٠.

وبالعودة إلى المعاني (العرفية) و(الحوارية)، نجد أن من أبرز الفوارق الملحوظة بين المعنيين، أن المعنى الحواري أو التخاطبي تعددي وتأملي، فالدلالة الملتزمة منه تتعدد ويضد بعضها بعضا، بسبب ارتباطها باستخراجها بظروف وملابسات العملية التخاطبية، ففي المثال الذي قدمناه سابقا: الجو شديد الحر اليوم، رأينا كيف أن الصياغة ارتبطت بالمعنى لا باللفظ، وانفتح التعبير على أكثر من دلالة لدى المتلقي. بخلاف المعاني (العرفية) فإنها واحدة ثابتة لا تتغير بتغير السياق، بسبب ارتباطها بالصيغة ارتباطا وثيقا^(١).

وبما أن التداولية تتجاوز محددات الدلالة الأولية للتمييز. بالسعي نحو دراسة مدى إمكانية الكشف عن قصيدة المخاطب من خلال إحالة النص إلى سياقه الخاص، وذلك لمعرفة مقدار التطابق أو اللاتطابق بين معنى النص لسانيا وظروف المقام المنتج فيه، يكون المعنى (الحواري) عند غرايس ناتجا عن عدم التماثل بين المنطوق والسياق، بسبب خرق وكسر مجموع القوانين السياقية التي يُنتج خلالها الكلام، لذا فإن ما يحدث في حالة غياب الملاءمة السياقية حسب قواعد المحاورة والنأذب التي وضعها غرايس، هو عدول سياقي تداولي، وهذا العدول لا يخرق قوانين صونية أو نحوية أو دلالية، وإنما يحدث نتيجة خرق إحد مبادئ ومحددات السياق الاجتماعي والثقافي، وهذه المبادئ إنما وضعت كي تعطي للمنطوق صورته الأدائية اللازمة، و(الاستلزام الحواري) خروج وانزياح عن هذه المبادئ وعن هذا الأداء المفترض^(٢).

وبناء على ذلك فإن المعنى الظاهر الذي يدل عليه لفظ العبارة أو النص، ليس هو المعنى الوارد والمفهوم دائما، بل العكس فالمعنى في أحيان كثيرة لا تحدده صورة أو وضع العبارة، وإنما ظروف الإنتاج يجعل من المستلزم أولى وأدل من الصريح ويتوجه إليه القصد، وإن كان الصريح هو الأصل والمستلزم هو الفرع في أصل المواضع التعبيرية للغة، ذلك أن الكلام " قد يصاغ في تمثيل تدرك معانيه الحرفية، ولكنها غير كلية لإدراك المقزى...، وعلى هذا فإن النص لا يتمظهر في شاكلة واحدة، وإنما في بقيات مختلفة وراء قصيدة المرسل، ومراعاة مقصدية المخاطب، والظروف التي

(١) النص والسياق، استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي: فان دابك، ترجمة عبد القادر قنبي:

يرجع فيها النص، وجنس النص، وهذه الماورائيات نفسها تؤدي إلى اختلاف استراتيجيات التأويل من عصر إلى عصر، ومن مجموعة إلى مجموعة، ومن شخص إلى شخص^(١).

كما نلاحظ أيضا أن المعنى السياقي التداولي المستخلص في الانتقال من المعنى الحرفي الصريح إلى المعنى البعيد المستلزم، يتم وصفه وصياغته بنفس الإجراءات التي تقوم عليها (قاعدة التعدية الرياضية المعروفة)^(٢)، فإذا كانت أ تقتضي ب، وب تقتضي ج، فإن أ تقتضي ج، فقولنا: زيد مبسوطة يده، واضح أن المعنى الحرفي لزيد العبارة ليس هو مقصود مراد المتكلم حتما بطول ذراعيه أو راحتيه، بل إن معناه: زيد معطاء أو بالغ العطاء، فالعبارة تشير إلى الرمز (أ)، والمعنى الحرفي يشير إلى الرمز (ب)، أما المعنى المفهوم للعبارة فيشير إلى الرمز (ج)، وبذلك يكون (أ) مقتضيا ومستلزما (ج) معنى ودلالة.

وقد بدأ لنا من كل ذلك مدى التلاقي المنهجي والتقارب في المنحى التحليلي والرؤي التداولية المشتركة في استلزام المعنى من النص، للدور الثنائي البارز للنظريتين (السياقية) و(الحوارية)، من خلال سياق الظرف الاجتماعي الذي انطلقت منه النظرية الأولى، والسلوك اللغوي المرتبط بالتفاعل والتعاون الاجتماعي بما يفهم وحداتهم الكلامية. أي المخاطبين، على أنها معقولة وتعاونية^(٣) وذلك ما انطلقت منه النظرية الثانية.

وأخيرا لا بد من الإشارة إلى أن هدف غرايس من نظرية (الاستلزام الحوارية) الأصل هو وضع آليات ضابطة للحوار من خلال المعاداة اليومية المباشرة، وليس صدد تأسيس وتبني قوانين شاملة تأخذ على عاتقها حصر العملية التخاطبية بتلك القوانين والمبادئ^(٤)، وإنما هذه المبادئ سبيل لتحقيق التعاون المطلوب بين المتكلم والمخاطب، ليلوغ العملية التواصلية أفقها الملائم المتزن، فلا يحيطها الغموض يشوبها الثقل فيتعذر الفهم والإفهام عند إلقاء النص أولا، لاحتمالات التأويل التي تجيزه تبعاً للتغاير السياقي الحاصل له بظروفه وأحواله. وعلى ذلك فما نراه من التعبيرات المجازية التي يتضمنها (الاستلزام الحوارية)، ليس الهدف المطموح إليه

(١) إستراتيجية الخطاب، مقارنة لغوية تناولية: عبد الهادي بن ظافر الشهري: ٢١٢.

(٢) الفلسفة وقضايا اللغة، قراءة في التصور التحليلي: بشير خليفي: ١٣٢.

(٣) اللغة والمعنى والسياق: ٢٣٤.

Holliday, M.A.K. and Hassan, R. Cohesion in English, p. 84.

لكن غرايس تفسر هذا النص والإفراط في تعليل سبب التوجه ووقوع الاختيار له من قبل المتكلم والإستئثار به دون غيره، وإنما الغاية التي يودها من هذه الأماليب، هي التمييز بين ما يقال فعلا وما يقصد، طبقا للملاءمة السياقية التي يحددها الطرف الاجتماعي والثقافي. فضلا عن قيود تفرضها معتقدات المشاركين في الحوار والتراضياتهم في مثل هذه الأنواع من النصوص والخطابات^(٧).

(٧) اللغة والمعنى والسياق: ٢٣٩.

المصادر والمراجع

- أساميات اللغة: ر. كد. تراسك، ترجمة: زانبا إبراهيم يوسف، ط١، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٢م.
- إستراتيجية الخطاب، مفارقة لغوية تداولية: عبد الهادي بن ظافر الشهري، ط١، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ٢٠٠٤م.
- أهم المدارس اللسانية: عبد القادر المهيري وآخرون، المطبعة الرسمية للجمهورى التونسية، منشورات المعهد القومى لعلوم التربية، تونس، ١٩٩٠م.
- البحث اللساني والسيميائي: طه عبد الرحمن، ندوة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، جامعة محمد الخامس، ١٤٠١هـ.
- التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد: صلاح إسماعيل عبد الحق، ط١، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٣م.
- التداولية: جورج يول، ترجمة: د. قصي العتايي، ط١، الدار العربية للعلوم، بيروت، ٢٠١٠م.
- التداولية اليوم، علم جديد لتواصل: أن روبول، وبك موشلار، ترجمة: د. محمد الشيباني، ط١، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ٢٠٠٣م.
- التداولية من أومتن إلى غوفمان: فيليب بلانشيه، ترجمة: صابر الحباشة، ط١، الحوار للنشر والتوزيع، سوريا، ٢٠٠٧م.
- التداولية والمرد: جون سك آدمز، ترجمة: د. خالد سهر، ط١، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ٢٠٠٩م.
- التفكير اللغوي بين القديم والحديث: د. كمال بشر، ط١، دار غريب، القاهرة، ٢٠٠٥م.
- الحجاج في البلاغة المعاصر، بحث في بلاغة النقد المعاصر: د. محمد سالم الأمين الطلبة، ط١، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ٢٠٠٨م.
- الخطاب وخصائص اللغة العربية، دراسة في الوظيفة والبنية والنمط: د. أم المنوكل، ط١، الدار العربية للعلوم، بيروت، ٢٠١٠م.
- الدراسات الإحصائية للأسلوب، بحث في المفهوم والإجراء: د. سعد مصلوح، عالم الفكر، الكويت، م٢٠٠٣، ٣٤، ١٩٨٩م.
- دراسات في اللسانيات العربية: د. عبد الحميد مصطفى السيد، ط١، دار النشر للنشر والتوزيع، عمان، ٢٠٠٤م.
- العقل واللغة والمجتمع، الفلسفة في العالم الواقعي: جون سيرل، ترجمة: د. الغانمي، ط١، الدار العربية للعلوم، بيروت، ١٩٨٢م.
- العلاماتية وعلم النص: إعداد وترجمة: منذر عياشي، ط١، المركز الثقافي للعلوم، بيروت، ٢٠٠٤م.

- علم التخاطب الإسلامي. دراسة لسانية لمناهج الأصول في فهم النص: د. محمد محمد بونمس علي، ط١، دار المدار الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٦م.
- علم اللغة مقدمة للفارئ العربي: د. محمود السعران، دار النهضة العربية، بيروت، (د. ت).
- فعل القول من الذاتية في اللغة: ك – أوريكيوني، ترجمة: محمد نظيف، أفريقيا الشرق، المغرب، ٢٠٠٧م.
- الفلسفة وقضايا اللغة، قراءة في التصور التحليلي: بشير خليفي، ط١، الدار العربية للعلوم، بيروت، ٢٠١٠م.
- في اللسانيات العامة: د. مصطفى غلفان، ط١، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ٢٠١٠م.
- لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب: محمد خطابي، ط٢، المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٦م.
- اللسانيات الوظيفية، مدخل نظري: د. أحمد المتوكل، منشورات عكاظ، الرباط، ١٩٨٩م.
- اللغة والتأويل، مقاربات في الهرمينوطيقا الغربية والتأويل العربي الإسلامي: عمارة ناصر، ط١، الدار العربية للعلوم، بيروت، ٢٠٠٧م.
- اللغة والمعنى، مقاربات في فلسفة اللغة: إعداد وتقديم: مخلوف سيد أحمد، ط١، الدار العربية للعلوم، بيروت، ٢٠١٠م.
- اللغة والمعنى والسياق: جون لايفز، ترجمة: عباس صادق الوهاب، مراجعة: د. يونيل عزيز، ط١، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٨٧م.
- مدخل إلى علم اللغة النصي: فولفجانج هاتيه من، ديتر فنهنيجر، ترجمة: د. فالح بن شبيب المعجعي، مطبعة جامعة الملك بن سعود، ١٩٩٩م.
- مدخل إلى اللسانيات: د. محمد محمد بونمس علي، ط١، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ٢٠٠٤م.
- مخامرة المعنى من التحول إلى التداولية، قراءة في شروح التلخيص للخطيب القزويني: صابر الجباشة، ط١، دار صفحات للدراسة والنشر، دمشق، ٢٠١١م.
- من قضايا الفكر اللساني في النحو والدلالة والتداولية: صابر الجباشة، ط١، دار صفحات للنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠٠٩م.
- الملفوظية: جان سيرفوتي، ترجمة: قاسم المقداد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ١٩٩٨م.
- نحو نظرية أسلوبية لسانية: فيلي سانديرس، ترجمة: د. خالد محمود جمعة، ط١، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٣م.
- النص والسياق، استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي: فان ديك، ترجمة: عبد القادر فنيقي، ط١، أفريقيا الشرق، ٢٠١٠م.

- نظرية أفعال الكلام: جون أوستن. ترجمة: عبد القادر فنيهي، أفريقيا الشرق، الدبي البيضاء، ١٩٩١ م.
 - نظرية النص من بنية المعنى إلى سيميائية الدال: د. حسين خمري، ط١، الدبي العربية للعلوم، بيروت، ٢٠٠٢ م.
- المراجع الأجنبية

- Firth, J.R. (1957). *Papers in Linguistics*, Oxford University Press.
- Grice, H.P. (1991). "Logic and Conversation ", in Steven Davis, *Pragmatics: A Reader*, Oxford University Press.
- Halliday, M.A.K. and Hassan, R. (1976). *Cohesion in English*. London: Longman Group.
- Lyons, J. (1995). *Linguistic Semantics: An Introduction*. Cambridge: Cambridge University Press.
- Robins, R.H. (1978). *A Short History of Linguistics*. London: Longman.

مشكلة اللغة والمنطق في تعلم اللغة والترجمة

أ. م. د. سوسن صالح سرينة*

❖ مدخل

يتناول هذا البحث دراسة بعض المشاكل التي يواجهها دارس ومدرس اللغة الأجنبية إضافة إلى المترجم والتي تتعلق بابتعاد اللغات في بعض الأمور عن المنطق مما يصعب عملية الفهم والتواصل بين المعلم والمتعلم. وبعض هذه المشاكل دلالية وبعضها نحوية وبعضها نحوية وبعضها صرفية بل وبعضها حسية. ولكن البحث لا يسعى منهيقها. كما لا يحاول البحث تفسير أو محاولة فهم هذه الظاهرة بل يكتفي بالإشارة إليها والتنبيه لوجودها لأن تفسيرها لا يخضع للمنطق. ويركز البحث على الاختلافات بين أربع لغات تسنى للباحثة دراستها أو تدريسها وهي العربية واللاتكليزية والألمانية الصينية.

ويطرح البحث أسئلة مثل: هل تخضع اللغة للمنطق؟ وهل نشترك الأمم المختلفة بمنطق واحد؟ وعندما يتحدث الناس من أمم مختلفة عن الأشياء نفسها هل يأتون بالصور المنطقية التي تخلفها عقولهم وبالتالي يتحدثون عن الفكرة ذاتها بنفس أسلوب والمنطق؟ وهل يرى الناس من أمم مختلفة الأشياء بالمنظار نفسه؟ وهل يسمع آذانهم للأصوات والموسيقى بالطريقة نفسها؟ وهل يمكن تطبيق بعض أهم التداولية على كل اللغات بطريقة متكافئة؟

فهل سبيل المثال عند دراسة اللغة أو تدريسها يجد المرء نفسه أمام اختلاف بين اللغات مع مسألة التنكير والتعريف فما هو نكرة في لغة نجده معرفة في اللغة الأخرى. وينطبق هذا الأمر على التنكير والتأنيث، والتعامل مع العدد، مثل المعدود من المعدود، وكذلك الإفراد والتثنية والجمع. وحتى التعامل النحوي يختلف بين لغات مثل التعامل مع استمرارية الحدث وتمامه، وترتيب الجمل والعبارات، ووجود أجزاء كلام في لغة وانعدامها في أخرى. ولا نجد المنطق كذلك في نظرة متحدثي اللغة لفهم من حيث الشمولية والتعميم ونسمية الأشياء فما يراه أحدهم منطقياً في بعده الآخر بعيداً عن المنطق. بل يتعدى الابتعاد عن المنطق في اللغات المختلفة

*جامعة العراقية- كلية التربية للبنات- قسم الشريعة.

إلى أمور حسية مثل رؤية الألوان بطريقة مختلفة وتحديد جمالية الأصوات بصورة مختلفة.

ومن خلال تجربة الباحثة في التعامل مع هذه المشكلة عند الترجمة، وعند تدريس اللغة على وجه الخصوص ترى الباحثة ضرورة تنبيه الطلبة إلى هذه المشكلة وضرب الأمثلة على البعض منها مما يجعل الطلبة أكثر تفهماً لمسألة اختلاف وجهة النظر المنطقية للغات المختلفة مما يسهل عملية تقبلهم لهكذا اختلاف وبالتالي تسهل عملية التعلم لأنهم سيبتعدون إلى حد ما عن عملية قياس كل اللغات بمقياس لغتهم الأم وسيقبلون المقياس الجديد للغة التي يتعلمونها. وينطبق هذا الأمر على المترجم كذلك.

❖ مواقع الاختلاف في التفكير بين اللغات

يعرف المعجم الوسيط^(١) المنطق بأنه "الكلام" وكذلك "علم يعصم الذهن من الخطأ في الفكر. ويقال: فلان منطقي: عالم بالمنطق، أو يفكر تفكيراً سليماً." فمفهوم المنطق في هذا البحث يعني التفكير السليم الشائع الذي يتفق الناس عليه عادة في مجتمع من المجتمعات وليس في كل المجتمعات، فما تعده مجموعة من الناس منطقاً قد لا تعده مجموعة أخرى كذلك.

وستتناول الباحثة التالية بعض مواقع الاختلاف في التفكير بين اللغات التي يمكن تفسيرها تفسيراً منطقياً والتي لاحظت الباحثة وجودها من خلال دراسة أرباب لغات هي العربية والانكليزية والألمانية والصينية (المندرين). ولا يعني هذا التقسيم حصر الاختلافات فيه أو انه التقسيم الوحيد، فهناك مواقع اختلاف كثيرة أخرى يسهل مجال البحث الخوض فيها. بيد ان هذا التقسيم يلقي الضوء على بعض المسائل التي يكثر الخوض فيها في قاعات الدراسة عند تعلم لغة أجنبية أو تعليمها أو عند ممارسة عملية الترجمة.

تباعدت وتقاربت اهتمامات الفلاسفة وعلماء المنطق واللغة فيما يتعلق باللغتين سواء في الشرق أو الغرب على مر العصور. فهناك من اهتم بالبنية ومن اهتم بالصوت ومن اهتم بالمعنى ومن اهتم بهذه الجوانب كلها كما فعلت التداولية. ولم يكن اهتمام العلماء العرب اقل من اهتمام الغرب بموضوع التداولية في اللغة^(٢) بل انهم كان

١ المعجم الوسيط. ابراهيم أنيس وآخرون، الطبعة الثانية، اسطنبول: دار الدعوة، ١٩٧٢، ص ٩٣١، ج ٢
٢ يُنظر. كتاب نظرية الفعل الكلامي: بين علم اللغة الحديث والمباحث اللغوية في التراث العربي الاسلامي هشام عبدالله الخنيفة، بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، ٢٠٠٧ في نظرية الفعل الكلامي بين علم اللغة الحديث والمباحث اللغوية في التراث العربي الاسلامي

سباقين في هذا المجال. وعلى الرغم من محاولة علماء اللغة تجنب المنطق والمعنى في بحوثهم الأولى - فقد أدرك العلماء صعوبة هذا الأمر وتشعبه وتعقيده في اللغة الواحدة - إلا أنهم رضخوا في نهاية الأمر واضطروا الى تضمين المعنى والمنطق في دراساتهم الأخيرة.

وهذا ما فعله غرايس (1975)⁽¹⁾ في نظريته في التلويح الحواري (*conversational implicature*) التي حاول فيها أن يفسر كيف يتسنى للمرء أن يعني أكثر مما يقول فعلاً. إذ يعتقد أن:⁽²⁾ (هنالك مجموعة سامية من الفرضيات التي تهدي بها عملية الحوار وانها تتبع في ظاهر الحال من اعتبارات عقلانية أساسية يمكن صياغتها كإرشادات لاستخدام اللغة استخداماً كفوئاً ومؤثراً في الحوار للحصول على غايات تعاونية)⁽³⁾ ووضع غرايس مبادئ للحوار لتفسير ظاهرة التلويح في الخطاب منها ما يسميه مبدأ التعاون (*Cooperative Principle*) الذي ينص على الآتي: (اجعل مساهمك الحواري، حين تدلي به، مناسباً للاتجاه والغاية المتوخاة من المحاوراة التي تشارك بها) كما وضع غرايس⁽⁴⁾ قواعد لهذا المبدأ:

أولاً: قاعدة الصلة *Maxim of Relation*: (ليكن كلامك ذا صلة بموضوع الحديث)
 ثانياً: قاعدة النوعية *Maxim of Quality*: حاول أن تجعل كلامك صحيحاً، خصوصاً:

أ- لا تقل ما لا تعتقد انه غير صادق.

ب- لا تقل ما ليس لديك دليل كافٍ على صدقه.

ثالثاً: قاعدة الكمية *Maxim of Quantity*:

اجعل مساهمك في المحاوراة مفيداً بالمعلومات الضرورية (بالنسبة للأغراض الحالية في المحاوراة).

ب- لا تجعل مساهمك بالمعلومات أكثر مما هو مطلوب.

رابعاً: قاعدة الأسلوب (الكيف) *Maxim of Manner*: كن واضحاً، وخصوصاً:

أ- تجنب غموض العبارة

1 Grice, H. P. (1975). "Logic and Conversation". In Cole, P. and Morgan, J. L. (eds) *Syntax and Semantics 3: Speech Acts*. New York: Academic Press, pp. 41-58.

ترجمت الباحثة النصوص الانكليزية الواردة في النص جمعها الى العربية إلا اذا ذكر اسم المترجم.

3 Levinson, Stephen C. (1981). *Pragmatics*. Cambridge: Cambridge University Press, 101.

أفراهيم، صص ١٠٠-١٠٦. وانظر ترجمة الخليفة في نظرية الفعل الكلامي، ص ١٦٦.

ب- تجنب اللبس

ج- تكلم بإيجاز

د- ليكن كلامك مرتباً بالنسب

وعلى الرغم من ان غرايمس يقصر ان هذه القواعد لا تمثل وصفاً لواقع حال المتحاورين فكثيراً ما يخالفها (*violate*) المتحاورون كما هو الحال عند الكذب او اخفاء معلومات، أو يستخفون بها (*flout*) ليلوحوا تلويحاً متعمداً لإعطاء الصور البلاغية ولكي يلوحوا بمعانٍ أخرى يدركها السامع من الاستدلال *inference*، وقد يتقيدون بها تقيداً مباشراً، وتكون مقدرة السامع في هذه الحالات على التوسع في التفسير عن طريق الاستنتاج المباشر المبني على افتراض ان المتكلم يطبع القواعد. كما ويقر غرايمس بأهمية العرف في اللغة حيث يضع انواعاً غير عرفية (*non-conventional*) من التلويح والتي يسميها اللغويون العرب (غير لفظية) تختلف عن التلويحات العرفية (*conventional*) التي لا تتولد بواسطة قواعد المحاور بل بواسطة ألفاظ متعارف عليها في توليد ذلك النوع من التلويح وتعد هذه التلويحات لفظية في المصطلح اللغوي العربية^(١). وبما ان لغات المختلفة اعرافاً مختلفة فمن البديهي ان تختلف تلويحاتها ويزداد الامر تعقيداً عند تعدد اللغات المدروسة. حيث يفرق ليتش^(٢) بين علم التداولية العام *General Pragmatics* والتداولية الاجتماعية *Socio-pragmatics* انه: (يميز دراسة الظروف العامة للاستخدام التواصلية للغة، ويستبعد الظروف المحلية) على وجه الخصوص في استخدام اللغة. اذ يمكن القول ان الأخيرة تنتمي إلى حقل اقل تطبيقاً من حقول التداولية الاجتماعية، فمن الواضح ان مبدأ التعايش ومبدأ التأدب يعملان بطريقة مختلفة في الثقافات المختلفة او المجتمعات اللغوية المختلفة... فالتأدب (على سبيل المثال) يؤول تأويلاً مختلفاً في المجتمعات الصينية الهندية أو الأمريكية بحيث تصبح الأوصاف التداولية في نهاية الأمر متعلقة بظروف اجتماعية بعينها) وسيبدو ذلك جلياً في المباحث الآتية.

١- التنكير والتعريف

مسألة التنكير والتعريف في اللغة من المسائل التي يحاول دارسو اللغة وضعها في إطار المنطق فيحققون أحياناً ويصيبون أحياناً أخرى. فظاهر الحال يدل على ان التعريف بشكل عام يستخدم لإزالة الإبهام عن تكرة وتستخدم اللغات عدة وسائل

١ نظرية الفعل الكلامي، الخنيفة، ص ١٦٣.

Leech, Geoffrey. (1983[1996]). *Principles of Pragmatics*. New York: Longman, p.10.

التعبير عن ذلك. وسيتناول هذا البحث منها استخدام أدوات تحديد ما هو معرفة وما هو نكرة ونخصص منها (أل) التعريف العربية وما يقابلها في الانكليزية أداة التعريف *definite article the* والتنوين الذي يشير في العربية للنكرة وأداتي التنكير الانكليزيتين (*a* أو *an*).

ومن ناحية منطقيّة لا تشير أداة التعريف العربية (أل) إلى التعريف وإزالة الإبهام وإنما فهناك ظلال من المعاني. يبين عباس حسن^(١) وجود "أل" المعرفة التي تفيد التعريف وهي نوعان: "أل العهدية" التي تشير للعهد (الذكري، والذهني أو العلمي، والعضوري) والجنسية التي تدخل على نكرة لتفيد معنى الجنس المحض من غير ان العهد، والزائدة التي لا تغير التعريف أو التنكير، والموصولة.

وفي الانكليزية نجد ان بوغرانند^(٢) يذكر تسعة كيانات يمكن ان تشير إليها أداة التعريف *the*: *mentioned, specific, episodic, unique, institutionalized, default, prototypical, superlative and relational*^(٣).

فظلال المعاني الموجودة في معاني أدوات التعريف والتنكير في اللغتين العربية والانكليزية تبعد أحياناً عن مسألة الإبهام والمعرفة والنكرة وتتطرق إلى درجة الزيادة وحتى الإشارة إلى كل الجنس مما يجعل لغة ما تستخدم أداة تعريف بينما تشير اللغة الأخرى إلى المعنى نفسه باستخدام أداة تنكير أو حتى بعدم استعمال الأداة. على سبيل المثال، أل الجنسية تترجم إلى أداة غير معرفة في الانكليزية، انظر الامثلة الآتية:

A lion is stronger than a mouse.

أسد أقوى من الفأر

Basra is an Iraqi city.

بصرة مدينة عراقية

God's messenger said, "The prescribed punishments are not to be inflicted in mosques and a father is not to be killed for a son."^(٤)

قال رسول الله ﷺ: "لا تُقام الحُدُود في المساجد، ولا يُقتل بالولد الوالد."^(٥)

١- النحو الوافي، عباس حسن، القاهرة: دار المعارف بمصر، ١٩٧٥، صص ٤٢٦-٤٣٦، ج ١.

2 Beaugrande, Robert de. (1980). *Text, Discourse and Process*, London: Longman Group Limited, p. 183.

(المقارنة بين استخدامات ومعاني أل التعريف وترجمتها انظر بحث المؤلفة:

Sirriyya, Sawson Saleh. 2010. "Translation of the Arabic Definite Article into English." *Translation Studies*. Vol. 11, pp13-20.

٣- مشكاة المصابيح، محمد بن عبدالله الخطيب التبريزي، تحقيق ناصر الدين الألباني، ط ٣، بيروت: المكتب الإسلامي، ١٩٨٥، ص ١٠٣٢.

4 Robson, James, tr. 1963. *Mishkat Al-Masabih: English Translation with Explanatory Notes*. 4 vols. By Muhammad bin Abdullah 'At-Tibrizi (completed the work in AD1336). Lahore: Sh. Muhammad Ashraf, p. 738.

عند تدريس اللغة تثير ظلال المعاني هذه والتي تبعد أحياناً عن المنطق حيرة الكثير من دارسي اللغة وخصوصاً من غير المتبحرين في لغتهم الأم فيأخذون المعنى العام للتعريف والتكبير ويعممونه على اللغة الأخرى. إضافة إلى ذلك لا يفهم الكثير من العرب الذين يتعلمون اللغة الانكليزية لماذا نضع للنكرة أداة تسبقها (*a* أو *an*) على الرغم من أننا نستخدم التنوين للتذكير. ويمكن أن يعزى هذا للجهل أكثر منه للمنطق ولحل هذه المعضلة يستطيع المدرس إعطاء بعض الأمثلة عن بعض الاستخدامات الأخرى لأدوات التكبير لإلقاء الضوء على بعض ظلال المعاني الأخرى لهذه الأدوات فكثيراً ما أضرب لطبتي أمثلة عن أل الجنسية وأنها تعطي معنى (كل) وليس إزالي الإبهام وكيف انها تقابل أدوات التكبير في الانكليزية. والحقيقة ضرب مثل واحد يكفي لفتح أبواب الاختلافات المنطقية بين اللغات ويجعله أكثر تقبلاً لهذه الاختلافات وبالتالي تعلمها.

٢- المفرد وغير المفرد

يشكل الاستخدام العددي بين اللغات معضلة منطقية أخرى تسبب اللبس وتعميق الفهم والاستيعاب في عملية التعلم كما تترك المترجمين وخصوصاً من ذوي الخبرة المحدودة. فلماذا يوجد في العربية مفرد ومثنى وجمع ولا يوجد في الصينية سوى المفرد وإذا أريد الإشارة إلى الجمع تكرر الكلمة مرتين، بينما الانكليزية والألمانية فهن المفرد والجمع فقط.

ولماذا نجد كلمات معدودة في العربية ولكنها غير معدودة في الانكليزية والعكس صحيح مثل *money, information, news* وفي العربية مال وتجمع أموال، ومعلمين وتجمع معلومات وخبر وتجمع أخبار ولكنها غير معدودة في الانكليزية. وحتى بعض الكلمات غير المعدودة مثل كلمة ماء تجمع أحياناً على مياه في العربية لتضيق قلب جديدة لمعنى الكلمة وجمعها. بل ان الجمع نفسه في العربية قد يشير إلى جموع قليلة جموع كثيرة فيتحدد بذلك الحد الأعلى للعدد بثلاثة فما فوق ولا يعود مطلق العدد. ومن الطريف الإشارة إلى ان اللهجة العامية العراقية تجمع بعض الكلمات المعدودة في العربية ليس للإشارة إلى الجمع والتكثير ولكن للتقليل، على سبيل المثال نبط - نقطات وثمان - ثمنات (رز)، وحنطة - حنطات... الخ.

تنبيه الطالب لابتعاد العدد عن المنطق يخفف وطأة تقبل الاختلاف، بل انني أرى أحياناً إلى ضرب أمثلة اللهجة العراقية واستخدامها العكسي لعملية الجمع في المنطق لأنبه الطلبة إلى ذلك. فارتباك الطالب في تحديد مسألة العدد كثيراً ما كانت تهيئ

أخطاء في الامتحانات. فمثلاً إذا ما بدأت القطعة المطلوب ترجمتها إلى العربية بعبارة: *"Two women went to the market because they wanted to buy dresses and shoes for their children. They entered the first shop ..."*

جد الكثير من الطلبة يبدؤون ترجمة النص ترجمة صحيحة ثم يخطئون بعد ذلك في عدد فتكون ترجمة الطالب:

ذهبت امرأتان إلى السوق لأنهم أرادوا شراء الملابس والأحذية لأطفالهم. ودخلوا أول محل...

ليس "ذهبت امرأتان إلى السوق لأنهما أرادتا شراء ملابس وأحذية لأولادهما ودخلتا أول محل..."

والغريب أنني كثيراً ما أجد الطلبة يترجمون ضمير الجمع الانكليزي مذكراً وليس أنثى كما هو الحال في المثال أعلاه.

استمرارية الحدث وتمامه

تطبيق القاعدة الثالثة من قواعد غرايس، أي قاعدة الكمية *Maxim of Quantity*:

اجعل اسهامك في المحاوره مفيداً بالمعلومات الضرورية (بالنسبة للأغراض الحالية في المحاوره).

ولا تجعل اسهامك بالمعلومات أكثر مما هو مطلوب.

هل اللغات المختلفة نجد اختلافاً كبيراً بين ما يعده متحدثو لغة ما ضرورياً وما لا يراه ضرورياً. فعلى سبيل المثال عند التحدث عن الحدث في اللغات المختلفة نلاحظ التركيب بين اللغات عما يسمى المتحدث لمعرفته. وهذا المعنى لا يخضع لطلب. فلأن العربية فيها ماضٍ ومضارع ومستقبل فقط لا يدرك العربي لماذا يحتاج ان يعرف هل الحدث مستمر أم تام، حيث يوجد في الانكليزية الماضي البسيط والمستمر والتام، بل وحتى الماضي التام المستمر، والأمر نفسه ينطبق على المضارع البسيط والمستمر والتام والمضارع التام المستمر، ويتكرر الأمر نفسه مع المستقبل. وعلى الرغم من أن العربي يستخدم أساليب أخرى للتعبير عن الاستمرارية أو التمام إلا أنها ليست بالضرورة المهمة التي يحتاج الانكليزي ان يعبر عنها بل تحدث عنها في الفعل في كل حين، فالعربي يلجأ للبحث عن الاستمرارية والتمام في اللغة محدودة فقط يستخدم لأجلها أدوات وإضافات معجمية مثل (قد، وأخوات ان

أو أخوات كان وظروف زمانية... الخ) وليس حاجة ضرورية دائمة قائمة مع كل فعل كما هو الحال في الانكليزية. كما في الأمثلة أدناه:

<i>Speaks, is speaking</i>	يتحدث
<i>Spoke, has spoken, has been speaking, had spoken, was speaking, had been speaking</i>	تحدث، ظل يتحدث، كان يتحدث، قد تحدث، كان قد تحدث،

ان تنبيه الطلبة وخصوصاً طلبة الترجمة منهم لحاجة الانكليزي لمعرفة استمرارية الحدث وتمامه على عكس العربي تجعلهم يسعون لتوخي الدقة في الحديث والترجمة.

٤- التذكير والتأنيث

ويشبه ما ذكر في (٣) أعلاه عن قاعدة غرايس الثالثة في كمية المعلومات المطلوبة في الحوار مسألة السعي لمعرفة التذكير والتأنيث في الكلام. حيث يذكر العربي ويؤنث الفعل والاسم والضمير والاسم الموصول. بل المفرد قد يختلف عن الجمع في هذه المسألة ففي حين ان (يوم) مذكر في العربية نجد ان جمعه (أيام) مؤنثة.

ولا يذكر ويؤنث الانكليزي الا مع الضمائر وقل القليل من الأسماء والصفات مثل:

Poet-poetess, husband-wife, son-daughter, father-mother, uncle-aunt, lion, lioness

بل ان العربي يبحث عن التذكير والتأنيث في اللفظة حتى وان كانت أجنبية بينما يفعل الانكليزي ذلك. ففي إحدى المرات كنت أتحدث بالانكليزية مع فتاة نيوزيلندية حديثة الإسلام نسبياً وكانت تجلس معنا فتاة عربية تتحدث الانكليزية هي الأخرى وبدأت الفتاة النيوزيلندية تتحدث عن *my friend* (صديقي أو صديقتي بالعربية) وبعد عدة جمل استخدمت فيها ضمير الجمع *we* (نحن) ولم تستخدم فيها ضمير يشير إلى جنس هذا الصديق بدا نفاذ الصبر على الفتاة العربية فسألتهما:

Is your friend a male or female? هل الصديق ذكر أم أنثى؟

وعندها اندهشت النيوزيلندية وبدأ عليها الانزعاج الشديد لان معرفة جنس الصديق لم يخطر ببالها لأنه ليس ضرورياً في لغتها بينما وجدت العربية صعوبة في فهم الفكرة من دون معرفة جنس الصديق.

فبينما يبحث الانكليزي في اللفظة عن استمرارية الفعل وتمامه يبحث العربي عن تأنيثه وتذكيره.

وحتى لو استخدم الجنس في الكلام فإنه قد لا يستخدم بالمنطق نفسه في اللفظ المختلفة. ففي حين ان الشمس مؤنثة في العربية والقمر مذكر، نجد الشمس مذكر

في الانكليزية والقمر مؤنثاً. وقد نتساءل أيهما أقرب للمنطق أن يكون القمر - مضرِب
المثل في الجمال والشاعرية - مؤنثاً أم مذكراً؟ وهل الأصح أن تكون الشمس القوية
اللاهية الحارة مذكرة أم مؤنثة؟ ولماذا نستخدم في العربية المؤنث والمذكر فقط، في
حين تستخدم الألمانية المذكر والمؤنث والمحايد. لماذا تكون (المنضدة) مؤنثة في العربية
ومذكرة *der Tisch* في الألمانية.

ان مسألة التذكير والتأنيث هذه تخلق الكثير من المشاكل في اللغات التي تتغير فيها
الأفعال والصفات والضمائر... الخ في اللغة مع الجنس كالعربية والألمانية. وأذكر انني
عانيت كثيراً من ذلك عند دراستي للألمانية. فما هو مؤنث في العربية قد يكون مذكراً
أو حتى محايداً في الألمانية. وقس على ذلك تغير الصفات والأفعال والضمائر... الخ.
كما مبين في الأمثلة التالية:

الكلمات المذكرة بالعربية والمؤنثة في الألمانية	
<i>die Platte</i>	لوح
<i>die Maske</i>	قناع
<i>die Kiste</i>	صندوق
<i>die Anzahl</i>	عدد
<i>die Geduld</i>	صبر
<i>die Krähe</i>	غراب
<i>die Tasche</i>	جيب
<i>die Waage</i>	ميزان
<i>die Krawatte</i>	رباط العنق

الأسماء المؤنثة بالعربية والمذكرة في الألمانية	
<i>der Ring</i>	حلقة
<i>der Fisch</i>	سمكة
<i>der Fels</i>	صخرة
<i>der Anteil</i>	حصة
<i>der Kutsch</i>	عربة

der Löffel	ملعقة
der Korb	سلة

الأسماء المذكرة أو المؤنثة في العربية ولكنها معايدة في الألمانية	
das Gedicht	قصيدة
das Ziel	هدف
das Herz	قلب
das Gebet	صلاة
das Blatt	ورقة
das Fenster	نافذة
das Knie	ركبة
das Grab	قبر

أما الصينية فتستخدم أدوات للتذكير والتأنيث في بعض الأحيان ولكنها تستخدم في الكتابة ولا تنطقها. وهذا أحد الأسباب التي تجعل المسلمات الصينية التفلان تلجأ إلى إضافة ترجمة مكتوبة للحوار على الصور الموجهة للصينيين أنفسهم ولغيرهم. بل حتى الأخبار والبرامج الأخرى تأتي مصحوبة بترجمة مكتوبة للصينيين أنفسهم. وكأن الكلام المنطوق لا يكفي لإبصار المعنى!! والحقيقة كان هذا من الأمم التي أثارت دهشتي عندما شاهدت الترجمة مكتوبة لنص موجه للمتحدث باللغة الأم

٥- موسيقية الأصوات وجماليتها

إن مختلف الأمم تستمع إلى الأصوات وتستجيب لها بطرائق مختلفة. بل إن ما يراه الجمال نفسه قد لا تخضع للمنطق. فمرة كنت أتحدث مع فتاة صينية بالانكليزية ونظرنا إلى لغتينا الأصليتين وجماليتيهما. فتلوت عليها أبياتا من الشعر العربي وادركت أن ما قلته شعراً إلا بعد أن أخبرتها أنه شعر. فتلوت عليّ هي الأخرى أبياتاً من الشعر الصيني وفي الحقيقة لم أجد فيها أية موسيقية ولا جمالية ولا عرفت بدا القصيدة من نهايتها. وتذكرت هذه الحادثة عندما رأيت رد فعل الطلبة العرب في الشعر الانكليزي عندما كنت أدرّس الأدب الانكليزي أو ترجمته. فالطلبة العرب يدركون أن مسرحيات شكسبير كتبت بالشعر إلا عندما يبلغون بذلك: وبعد

ينسون أصلاً أن هذا شعر؛ أما الشعر الانكليزي القديم الذي كان يبني على التبرة stress فيصعب كثيراً على الطلبة تذوقه أو فهم انه شعر. وعلى الرغم من تأثير الشعراء المحدثين بالشعر الانكليزي وتقليدهم له ونشوء قصيدة النثر وغيرها من الأشكال الحديثة إلا أن الطلبة العرب ما يزالون يبحثون عن القافية في اغلب الأحيان فيما يسمى شعراً. وحتى إذا ترجم الطلبة العرب - ولا أتحدث عن المحترفين - الشعر الانكليزي شعراً عربياً فإنهم يركزون على القافية ولا يعيرون الوزن اهتماماً يذكر.

ويضع كثير من الطلبة تلقائياً حاجزاً نفسياً أمام ما هو غريب عن ثقافتهم شعورهم وحسهم الجمالي فيحاولون أن يؤولوا هذه المسألة تأويلاً منطقياً وأن كان المنطق براءً من هذا الأمر. إن تنبيه الطلبة الدارسين للأدب أو ترجمة الأدب إلى هذه المسألة تقلل من هذا الحاجز النفسي وتوسع الأفق الذي ينظرون به لأدب اللغات الأخرى.

٣- الشمولية والتعميم وتسمية الأشياء

بعد تطبيق قاعدة غرايس الرابعة في الأسلوب (الكيف) *Maxim of Manner*: كن واضحاً، وخصوصاً:

أ- تجنب غموض العبارة

ب- تجنب اللبس

ج- تكلم بايجاز

د- ليكن كلامك مرتباً بالتسلسل

على اللغات المختلفة نجد البون الشاسع بين ما يعده بعضهم غامضاً أو يسبب لبس وبين ما هو ليس كذلك. فنظرتنا إلى لغاتنا تبتعد عن المنطق أحياناً. فقد تهبت عند دراستي اللغة الصينية في تايبيه عاصمة تايوان بشاب من الاوروغواي مهمل في تايبيه ويستخدم الانكليزية وسيلة في التخاطب معهم. وأخبرني كيف انه صعب في توصيل التفاصيل الدقيقة لعمله إلى الصينيين الذين يعملون معه ذلك لان لفهمهم - كما يعتقد - تمهل إلى التعميم والنظرة الواسعة الشمولية لتكون هاملون الانكليزية المعاملة نفسها. وفي الحقيقة انتابني الشعور نفسه عند دراستي جلودة للصينية وعند تعاملي معهم وعندما ترجمت كتاباً يتحدث عن إحدى نظريات الصينية. حيث تقول مؤلفة كتاب *Architect's Guide to Feng Shui*

(دليل المعماري إلى الفينغ شوي) كيت برامبل^(١): (تختلف الهندسة الصينية عن الهندسة الغربية - فعلى سبيل المثال لا يتوافق أي اسم صيني مع كلمة (مثلث). ففي الهندسة الصينية تعني الخطوط المستقيمة الماء، وتعني الأشكال المحددة (مستديرة الطرف) النار، والأشكال المدورة التربة/ الأرض، والأشكال المنحنية الخشب، والأشكال المربعة المعدن.)^(٢)

كما أخبرني إحدى الصينيات المسلمات ان لغتنا العربية لا تسمي الأشياء الدقيقة بأسماء محددة في حين ان اللغة الصينية تراعي حتى الاختلافات البسيطة وأخبرني بأسماء بعض الأشياء المختلفة اختلافاً بسيطاً ولكن لكل واحد منها اسم خاص بالصينية. فهي ترى ان لغتها أكثر شمولية في تسمية الأشياء ونحن نرى ان لغتنا هي الأكثر دقة.

هل الأمر يرتبط بمدى استخدام الناس لشيء معين فيطلقون عليه أسماء مختلفة تشير إلى الاختلافات الدقيقة لذلك كما يفعل شعب الاسكيمو الذين لديهم الكثير من التسميات للثلج، أو كلمة "اعصار" والذي يطلق عليه في الانكليزية تسميات عدة مثل *tornado, hurricane, cyclone, twister, typhoon* ولا ادري كم اسماً يسميه الصينيون لانهم يعانون من موسم الأعاصير كل سنة بينما يندر حصوله في الدول العربية فتكاد لغتهم تقتصر على اسم واحد له. هل هي مسألة استخدام فقط؟ هل هي مسألة منطلق؟ اذن لماذا تميل الانكليزية إلى إعطاء الكثير من الأسماء لكلمة (نافذة) أو (كرمي) تزيد كثيراً عن مكافئها العربية إضافة إلى الكثير من الأسماء الأخرى التي تكاد نستخدم تعبيراً واحداً لها بالعربية على الرغم من ان (نافذة) و(كرمي) كلمتان شائعتان في العربية ايضاً؟ واعتقد ان المترجمين بين العربية والانكليزية يدركون ذلك جيداً ويشاركونني في هذا الرأي. ولكن هل يعني ذلك ان الانكليزية اهم من العربية؟ ام انها أكثر تفصيلاً؟ وهل الصينية أكثر تفصيلاً من الالفين؟ ولماذا توجد اسماء للحصان في العربية أكثر بكثير من الانكليزية علماً ان الانكليز استخدموا الحصان في نفس الفترة التي استخدم فيها العرب الحصان؟ ولم يكن اهتمام الانكليز بالقروسية قليلاً هو الآخر. فهل المسألة تعود للمنطق؟ أم للاستخدام؟ أم إلى شيء آخر؟

Bramble, Cate. (2003). *Architect's Guide to Feng Shui*. Oxford: Architectural Press, 15.

٢ ترجمت المؤلف هنا الكتاب إلى العربية: دليل المعماري إلى الفينغ شوي. بغداد: بيت الحكمة، ص ١١، ٢٠١١.

وهناك ما يثير التساؤل في اللغة الواحدة. فلماذا يستخدم العراقيون تسمية "وزارة العمل" بينما يطلق الجزائريون على نفس الوزارة "وزارة الشغل"؟ ولماذا لا يستخدم الانكليزية صيغة الاستمرارية مع بعض الأفعال (مثل أفعال الاحساس والشعور) ويستخدمونها مع الأفعال الأخرى، ويقولون مثلاً *I think he is stupid* (أعتقد انه غبي) ولا يستخدمون معه صيغة المستمر مع العلم انني اعتقد ذلك واستمر في هذا الاعتقاد مثلما أقول *I'm thinking of beating him* (أفكر في ضربه) بمعنى هنالك تخطيط لفعل ذلك، وفي الحالتين الضعلان مستمران أو يشيران إلى الزمن الحالي للكلام ولكن أحدهما يأخذ صيغة الاستمرار والآخر لا يأخذها.

٢- وجود أجزاء الكلام وانعدامها في لغة أخرى

إن تقسيم أجزاء الكلام في اللغات وأنواعها في اللغات المختلفة لا يخضع هو الآخر للمنطق فمكونات الفعل في العربية ليست مطابقة لمكوناته في الانكليزية أو الألمانية مثلاً. وما يستخدم للحصول على النفي أو الإثبات أو التوكيد هو الآخر يختلف وهكذا. هذا الاختلاف بسبب صعوبة أخرى تضاف لمسألة تحليل اللغة تحليلاً منطقياً عند الطلبة ويجعل استخدام الترجمة الحرفية وسيلة للتعليم أكثر صعوبة.

كما يختلف الخطاب المحكي عن النص المكتوب وفي هذا السياق يقول فان ديك^(١): خطاب اللغة الطبيعية لا يشبه الخطاب الرسمي في انه ليس صريح العبارة *explicit* براحة تامة. فالعلاقات بين الجمل او الفرضيات قد تحصل من دون التعبير عنها بكلمات. وهذا هو السبب الذي يجعل التركيب النظري لنص ما ضرورياً في اظهار كيف يمكن تأويل الخطابات تأويلاً مترابطاً مترابطاً منطقياً حتى لو بقيت معظم الفرضيات الضرورية لصياغة الترابط المنطقي *coherence* ضمنية *implicit*، مثلاً فرضيات مضمنة لفرضيات صريحة يعبر عنها في الخطاب.)

الا ان عدم ذكر بعض الكلمات ذكراً صريحاً مع بقاء الترابط المنطقي بين الجمل عبارات قد يزداد تعقيداً مع اختلاف اللغات. على سبيل المثال يكثر استخدام ترابط المنطقي *coherence* في ربط النصوص في اللغة الانكليزية اكثر من استخدام تماسك *cohesion* الذي يستخدم الكلمات. بينما تفضل العربية التماسك استخدام الكلمات على الترابط المنطقي من دونها. انظر للفرق بين الربط بين الجملتين الآتيتين في العربية والانكليزية على سبيل المثال:

1 Van Dijk, Teun A. 1977[1989]. *Text and Context: Explorations in the Semantics of Pragmatics of Discourse*. New York: Longman, p.94

- لن يأتي لأنها تمطر مطراً غزيراً
It's raining heavily. He'll not
come.

ويشعر الكثير ممن يترجمون النصوص الانكليزية الى العربية بأن بعض الجمل الانكليزية لا ترتبط بما يلها من جمل مما يجعل المترجمين يضيفون روابط تعوض عن هذا النقص الذي يشعربه في الترجمة العربية. وعند عكس الترجمة من العربية الى الانكليزية يضطر المترجم الى حذف الكثير من الكلمات العربية الرابطة والاستعاضة عنها بالترابط المنطقي في الانكليزية.

ويتجاوز هذا الاختلاف بين اللغات مسألة الترابط المنطقي والتماسك تجاوزاً كبيراً ففي أحد الأيام وبينما كانت المعلمة الصينية تعلمنا كيفية توجيه السؤال بالصينية طلبت مني الإجابة على سؤال وجهته، وكان الجواب (نعم) فسألتها "كيف تقولون (نعم) أو (لا) بالصينية؟" فأجابت "ليس لدينا مكافئ لنعم yes ولا لكلمة لا no فأصابني دهشة عظيمة فسألتها "وكيف أجيب بالإيجاب اذن؟" فقالت انها تستخدمون صيغة أشبه بصيغة فعل الكينونة بالانكليزية مثل I am لنعم وهناك أداة تستعمل للحصول على النفي فيكون النفي مثل I am not وليس كلمة بسم مثل "لا" أو "no".

ومثل ذلك وجود الأفعال والأسماء فالكثير من الأفعال الانكليزية لا يوجد لها في مرادف في العربية ولكن يوجد لأسمائها أو صفقاتها مرادفات أو نجد مرادفات للأفعال ولا نجد للأسماء وهكذا. ففي الأمثلة التالية نجد أفعالاً عربية لا تقابلها أفعال انكليزية بل صفات تحتاج إلى أفعال ترافقها لتعطي المعنى المكافئ:

صفة	فعل
(gets) Old	يتكبر
(gets) Near	يقترِب
(is) Just/ fair	يعدل
(makes) Easy/ facilitate	يسهل
(becomes) Proud	يتكبر
(is) grateful	يتمن

وفي الأمثلة التالية نجد أفعالاً إنكليزية لا تقابلها أفعال عربية بل أسماء تحتاج أفعالاً ترافقها عند الترجمة:

اسم	فعل
(يعطي) بخشيش	tip
(جهزياً) رجل / رجال	man
(يعرض لـ) خطر	jeopardize
(يضيف) الكمال	idealize
(يحفظ في) ملف	file
(يضع في) الفراش	bed
(يرسل) هاتورة	bill

- ترتيب الجمل والعبارات

يقول فان ديك^(١) ان العلاقة بين ترتيب الجمل وترتيب الحقائق تمثل جانباً من جوانب علم دلالة الخطاب، ويضيف: (سيسمى ترتيب الخطاب للافعال والاحداث لبعياً إذا ما توافق ترتيبها الزماني والسببي مع الترتيب الخطي للخطاب. وسيفترض بالنسبة لأوصاف الحالات حيث تتواجد الحقائق جميعها سوية في ذات الوقت - ان الترتيب الطبيعي يتوافق مع علاقات العام-الخاص والكل-الجزء بين الحقائق). ولن نتمكن من تطبيق ذلك على كل اللغات بشكل عام. فترتيب الجمل والكلمات العبارات في اللغات المختلفة هو الآخر لا يخضع للمنطق. مما يضع الجزء الرابع من قاعدة غرايس (قاعدة الأسلوب) (الكيف) *Maxim of Manner*: كن واضحاً، خصوصاً: د- ليكن كلامك مرتباً بالتسلسل) على المحك عند تطبيقها على اللغات المختلفة.

فحيث نقول في العربية "الكتاب فوق المنضدة" بينما يقول الصينيون "المنضدة تحت الكتاب." وتتبع الصفة الموصوف في العربية فنقول "كتاب ابيض" بينما تأتي بالهبة الصفات في الانكليزية قبل الموصوف فنقول "ابيض كتاب" *white book*. وقد أتى الخبر قبل المبتدأ في العربية وقد يلحقه. وفي الألمانية عندما يتكون الفعل من فعل مساعد وفعل آخر رئيس يُذكر الفعل المساعد أولاً ثم باقي أجزاء الجملة من

المصدر نفسه، ص ٩٢.

مفعول به وظروف زمان ومكان... الخ وأخيراً يأتي الجزء الرئيس من الفعل في نهاية الجملة كما في المثال الآتي:

Ich habe das Buch in den Schrank gestellt.

وهذا التسلسل غير ممكن لا في العربية ولا في الانكليزية:

I have put the book in the closet.

قد وضعت الكتاب في الخزانة.

٩- الألوان

لا يرى متحدثو اللغات المختلفة العالم بالألوان نفسها ويبدو ان استخدامهم المجازي للألوان هو الآخر لا يخضع للمنطق. وهذا الأمر دفع الكثير من اللغويين للبحث في موضوع الألوان ومجاميعها والنظرة الثقافية لها ووجود بعض الألوان في لغة وانعدامها في لغة أخرى أو وجود ظلال للألوان في لغة لا نجدتها في اللغة الأخرى (١) فلو نظرنا للأمثلة التالية في اللغة الانكليزية من رواية نورا روبرتس (الداليا الزرقاء):

- *Sentiment was only going to make her blue.* (p.188)

- لن تزيدها رقة الشعور الا حزناً واكتئاباً. [حرفياً: لا إزرقاقاً]

- *The other two [boys] woke up, and Harper said he was going, and we could stay behind if we were yellow coward dogs.* (p.196)

- استيقظ الولدان الآخرون وقال هاربر انه سينذهب وبإمكاننا البقاء ان كنا

كلاب جبانة يمكن إخافتها بسرعة. [حرفياً كلاب صفراء جبانة]

- *My neighbors are going to be green with envy.* (p.272)

- سيحسدني جيراتي حسداً شديداً. [حرفياً: سيصبح جيراتي خضراً

الحسد]

لماذا يكون المكتئب الحزين بالانكليزية أزرق اللون أو السريع الإخافة أصفر الحسود والغيران أخضر اللون. بل ان هذا الاستخدام يتعارض مع قاعدة غران الأولى (قاعدة الصلة *Maxim of Relation*: ليكن كلامك ذا صلة بموضوع الحديث) ويجعل متحدثي اللغات المختلفة يظنون ان لا صلة لاستخدام هذه الألوان بصياغة الموضوع.

١ يُنظر على سبيل المثال لا الحصر:

علم الدلالة. احمد مختار عمر. الكويت: مكتبة دار العربية للنشر والتوزيع. ١٩٨٢.

As, Asim J. (no date). "Idiomatic Colour Expressions in English and Arabic with Reference to Translation." *Adab Al-Rafidayn*. Vol. 16

Ymer, F. R. (1981). *Semantics* (2nd ed). Cambridge: Cambridge Univ. Press.

Jaberts, Nora. 2004. *Blue Dahlia*. New York: Jove Books.

ويضرب اليأس^(١) بعض الأمثلة الأخرى التي يستخدم فيها العرب والانكليز الألوان استخداماً مختلفاً غير متكافئ:

النص الانكليزي	الترجمة الحرفية	النص العربي
White tea	شاي ابيض	شاي بالحليب
Black foot	قدم سوداء	هندي أحمر
White collar	ياقة بيضاء	موظف حكومي
Blue collar	ياقة زرقاء	عامل
Cold steel	فولاذ بارد	السلاح الأبيض
Barren land	ارض قاحلة	أرض بيضاء
Blue laws	قوانين زرقاء	قوانين قاسية
Wine and meat	الخمر واللحم	الأحمران
Green meat	لحم اخضر	لحم طازج

بل نجد في العربية أحياناً ان الشيء نفسه يوصف بلونين متناقضين فيقال أسودان (للتمر والماء) ويقال الأبيضان (للبن والماء) فهزى الماء مرة أبيض ومرة أسود. من هنا نجد أن المنطق ودقة التعبير في اللغة مسألة نسبية وليست منطقية. أي العربية ليست أكثر منطقية من الانكليزية أو ان الألمانية أكثر دقة من الصينية أو ان صينية أشمل من العربية. فأحياناً تكون لغة ما في موقف ما أكثر منطقية ودقة من لغة الأخرى ويكون العكس صحيحاً في موقف ثان.

كل اللغات يمكنها التعبير عن الفكرة الواحدة ولكن الأساليب أو التراكيب تختلف. بينما تركز لغة على نقطة معينة تركز الأخرى على نقطة أخرى وإذا اختلفت لغة إلى غير عن فكرة ما فإنها تعبر عن فكرة أخرى بوضوح أفضل.

إن نظريات التداولية العامة لا تنطبق على جميع اللغات من حيث التطبيق بشكل مومي. فما يصدق في عرف لغة ما يتناقض مع اعرف لغة أخرى ولا بد من الحذر جنب التعميم عند تطبيق هذه النظريات ومحاولة دراسة صفات كل لغة على حدة. لقد أدرك بعض علماء اللغة هذه المسألة وبدؤوا بتناولونها في علم التداولية الاجتماعية.

1) Ilyas, Asim I. (no date). "Idiomatic Colour Expressions in English and Arabic with Reference to Translation." *Adab Al-Rafidayn*. Vol. 16, pp. 30-35.

وإذا ما سقط حاجز اللغة عن الاعتبار كما هو الحال أثناء موسم الحج مثلاً فسرى البشر من كل أنحاء العالم وبكل لغاتهم يتواصلون بطرائق تتجاوز حاجز اللغة وقد تصل إلى وسائل بدائية كالإشارات ولكن التعبير عن الفكرة والتواصل يظل قابلاً للحصول.

الحقيقة ان مسألة المنطق واللغة هذه تسبب الكثير من المشاكل لمعلم اللغات ومنعلمها. فعدم ادراك الطالب لسبب الاختلاف يجعله يضع حاجزاً ثقافياً نفسياً بينه وبين اللغة الثانية مما يعيق عملية استيعاب المادة وبالتالي حفظها. ولأن اللغة لا تتصرف تصرفاً منطقياً في كثير من الأحيان كما بين البحث فيستطيع المدرس كسر هذا الحاجز النفسي بتسليط الضوء على مسألة عدم ربط اللغة بالمنطق.

ولا بد من التأكيد على هذه المسألة وتكرارها كلما تكرر حصولها في قاعة الدرس سواء حصلت دلالية أو نحوية أو أدبية.

وينطبق هذا الأمر على دارسي الترجمة وممارسيها. فإدراك المترجم لهذه المسألة يجعله يسعى لتبني منطق اللغة المترجم إليها وليس منطق اللغة الأصل.

والحل الأمثل الذي يمكن اللجوء إليه أثناء التدريس هو أن يضرب المدرس للطلبة لهم أحد الأمثلة أعلاه ثم يقول للطلبة "لا تفكروا بمسألة المنطق هنا، فاللغة لا تخضع للمنطق في كثير من الأحيان. ولكن أقول لكم هكذا قال العرب وهكذا قال الانكليز فاحفظوا ما قالوه كما قالوه".

❖ المصادر والمراجع

١- المصادر العربية

- أنيس، إبراهيم؛ ومنتصر، عبد الحليم؛ والصوالحي، عطية؛ وأحمد، محمد خلف الله. ١٩٧٢. المعجم الوسيط. جزءان. الطبعة الثانية. اسطنبول: دار الدعوة.
- برامبل، كيث. (ترجمة سوسن صالح سرية). دليل المعماري للفينغ شوي: تفجير الأسطورة. في طريقه للنشر في دار الحكمة إن شاء الله.
- التبريزي، محمد بن عبدالله الخطيب. ١٩٨٥. مشكاة المصابيح. تحقيق ناصر الدين الألباني. ط ٣. ٢٠٢. مجلدات. بيروت: المكتب الإسلامي.
- حسن، عباس. النحو الوافي. ١٩٧٥. أربعة أجزاء. القاهرة: دار المعارف بمصر.
- الخليفة، هشام (عبدالله). ٢٠٠٧. نظرية الفعل الكلامي: بين علم اللغة الحديث والمباحث اللغوية في التراث العربي الإسلامي. بيروت: مكتبة لبنان ناشرون.
- عمر، أحمد مختار. ١٩٨٢. علم الدلالة. الكويت: مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع.

٢- المصادر الانكليزية

- *Beaugrande, Robert de. (1980). Text, Discourse and Process. London: Longman Group Limited.*
- *Bramble, Cate. 2003. Architect's Guide to Feng Shui. Oxford: Architectural Press.*
- *Grice, H. P. 1975. "Logic and Conversation." In Cole, P. and Morgan, J. L. (eds.) Syntax and Semantics 3: Speech Acts. New York: Academic Press, pp.41-58.*
- *Ilyas, Asim I. (no date). "Idiomatic Colour Expressions in English and Arabic with Reference to Translation." Adab Al-Rafidayn. Vol. 16, pp.27-37*
- *Leech, Geoffrey. 1983[1996]. Principles of Pragmatics. New York: Longman.*
- *Levinson, Stephen C. 1981. Pragmatics. Cambridge: Cambridge University Press.*
- *Palmer, F. R. 1981. Semantics. 2nd ed. Cambridge: Cambridge Univ. Press.*
- *Roberts, Nora. 2004. Blue Dahlia. New York: Jove Books.*
- *Robson, James, tr. 1963. Mishkat Al-Masabih: English Translation with Explanatory Notes. 4 vols. By Muhammad bin Abdullah 'At-Tibrizī (completed the work in AD1336). Lahore: Sh. Muhammad Ashraf.*
- *Sirriyya, Sawsan Saleh. 2010. "Translation of the Arabic Definite Article Jī into English." Translation Studies. Vol. 11, pp13-20.*
- *Van Dijk, Teun A. 1977[1989]. Text and Context: Explorations in the Semantics and Pragmatics of Discourse. New York: Longm*

قصيدة النثر مقولة تداولية في مشروع الجماعة المفسرة

د. محمود خليف الخياني *

❖ مدخل

يشغل مشروع ستانلي فش على مسار ومراحل يبدأ بالأسلوبية. وخبرة القارئ، والتأويلية وينتهي بتداولية الجماعة المفسرة وسلطتها التي تقوم على إنتاج النص وإعادة كتابته على وفق استراتيجيات تؤمن بقدرة القارئ باستعمال النص وتشكيله بتطوُّلوجيا إذ يؤمن فيش أنه لا يوجد نص إلا من خلال القارئ مستبدلاً. فش. السؤال القديم عند الشكلانية والبنوية والنقد الجديد والأسلوبية (ماذا تعني هذه الجملة)؟ إلى سؤال أكثر فاعلية ماذا تفعل هذه الجملة؟ وما تفعله هذه الجملة في الواقع أنها تحول دور القارئ من مكتشف المعنى أو الدلالة في النص إلى حدوثه المعنى، فالمعنى شيء يحدث للقارئ وبمشاركته وبذاتيته وبراغماتيته التي تربط المعنى أو الكلمة بالسياق الذي وقع استعمال الكلمة فيه أو بالمقام الذي نطقت به منتقلاً بالمعنى والكلمة من النموذج القاموسي إلى النموذج الموسوعي (السياق) ومسلطة الجماعة المفسرة التي تعمل بوصفها ضابطاً لتداولية واستعمال النص التي تتماهى مع ضوابط أخرى تساعد على الحد من استعمال القارئ وتطرفه؛ لذلك استعان بنظرية الفعل الكلامي عند سيرلي وأوستن من خلال مفهوم الموقف والسياق والظروف الاعتقادات أو الأحكام المسبقة، إذ إن السياق والظروف المكانية والزمانية التي تقال بها الجملة أو الكلمة تساعد على تكوين سياق خاص يعمل على وضع حدود لدلالة الكلمة ويساعد على فهم المعنى؛ وذلك لأن التواصل لا يحدث حسب فش إلا في إطار نظام السياق أو الموقف أو الجماعة المفسرة، وإن الفهم الذي ينجزه شخصان أو أكثر يتفصل عن هذا النظام وهو مفهوم في نطاق حدوده، وهذا ما أثار تعليق فش على سؤال طالبة لأحد الأسانذة في جامعة (جونز هوبكنز) عندما سألته هل يوجد نص في هذا الفصل؟ فأصاب الأستاذ سوء الفهم مما أخطأ في إجابة الطالبة، ومما بسبب سوء الفهم حمص فش الظروف المرتبط بالموقف والسياق وموسوعية الكلمة، لذلك نلأينا أن تكون قراءتنا لفش على أساس أنها مشروع تداولي يستعمل النص، وبعد

تقويض وتفكيك مركزية خطاب المرحبين والمشككين بقصيدة النثر المتبلور في الأسمى النصية والتاريخية، فكان لا بد أن نلمس اتجاه ثلاثا لقراءتنا لقصيدة النثر على وفق مشروع فش بأنها مقولة تداولية من إنتاج واستعمال الجماعة المفسرة التي تعيد كتابتها حسب الظروف والسياقات المتغيرة، وبذلك تتحول النظرية الأدبية عند فش والتداوليين من نظرية قائمة على التثبيت أو الثبات المنهجي إلى الإقناع والاستعمال والتغيير السياقي التداولي.

❖ تداولية السياق، الموقف، الجماعة المفسرة

يطور ستانلي فش مقارنة تداولية تنمى مع الأسلوبية في بدايتها وخبرة القارئ وتداولية الجماعة المفسرة في نهايتها، إذ إن مسار تداولية فش تتدرج في مراحل زمنية ساعدت على تكوين مشروعه التأويلي، فالقارئ يستطيع أن يرصد ثلاث مراحل في مسيرة فش نحو استجابة القارئ في المرحلة الأولى التي تظهر جلية في محاولته تأكيد تأثير النص الأدبي على قارئه وللوقوف على هذا التأثير يستلزم تحليل استجابات القارئ المتصاعدة في نسق من تعاقب الكلمات الواحدة تلو الأخرى في الزمن، والمرحلة الثانية يقرر فيها فش أن خبرة القارئ بالنص هي المعنى ذاته، وأنه في هذين المسارين المرحلتين لا يخرج عن مسار النص، فالقارئ يستقي خبرته من النص، أما في المرحلة الثالثة فإنه ينفي وجود النص أو يكاد ويعزز سلطة الجماعات المفسرة التي ينتمي إليها القارئ وهي التي تنشئ المعنى^(١)، إذ إنه في المرحلة الأولى من مشروعه التأويلي طور منظورا تأويليا متجها إلى القارئ سمي (الأسلوبية العاطفية) مركزا على التعديلات التي يجربها القارئ على التوقعات والفرضيات في أثناء مروره بالنص، متأملا على المستوي الموضوعي المباشر للجملة مميزة عن النقاد الشكلانيين والنقاد الجدد والأسلوبيين استراتيجيات القراءة التي تطور استجابة القارئ فيما يخص الكلمات والجمل الأنساق وهي تقوالت زمنية^(٢)، متحدية فكرة أن النص مكتفيا ذاتيا (بالمعنى معتمدا على أثبات أن شكله الفضائي الظاهري يناقض بعده الزمني الذي تتحقق فيه معانيه، وكنه أجادل بأن الشكل المتصاعد لهذا التحقق هو الأجدربأن يكون هدف التفسير النقل بدلا من الشكل الاستاتيكي للصفحة المطبوعة باختصار استبدلت بالبنية الشكل

(١) ينظر هل يوجد نص في هذا الفصل؟ سلطة الجماعة المفسرة. ستانلي فش. ترجمة احمد الشبيبي.

(٢) ينظر نقد استجابة القارئ نقاده ونظرياته، رمان سلدن، ترجمة سعيد الغانمي: ٣٤.

للنص بنية خبرة القارئ^(١)، وعلى وفق قوة تفسيرية تأخذ القارئ في الاعتبار بوصفه كياناً ووسيطاً فعالاً يستجيب للأثر النصي حسب إستراتيجية أو فعلاً يقع على القارئ بدلاً من كونه أي المعنى وعاء يستخرج منه رسالة، وتمثل الإستراتيجية والفعل اللائقين المتصاعداً، إذ إن القارئ يسلم نفسه للجزم في الكلمة والعبارة الأولى من الجملة وبمجرد فهمه لهذه العبارة من خلال استبداله السؤال القديم في النقد الأدبي الذي كان عند الشكلانيين وأصحاب النقد الجديد والأسلوبيين، ماذا تعني هذه الجملة؟ إلى سؤال أكثر فاعلية ماذا تفعل هذه الجملة؟ وما تفعله هذه الجملة في الواقع هو أنها تمنح القارئ شيئاً سرعان ما تسلمه إياه من خلال استجابة القارئ لها ليتحول المعنى من شيء يمكن اكتشافه في النص إلى حادثة، شيئاً يحدث للقارئ وبمشاركته، وبذلك يحدث نفسه ليس ما يقال عنه أو أنه أخبار يمكن استخراجها منه بل هو معنى الجملة وفي هذه الحالة ينفي وجود الأخبار، وإن القراءة التي تحدث للقارئ تتحول إلى خبرة زمانية، تستلزم تطبيقها تحليل استجابات المتصاعدة للقارئ للكلمات وهي تعاقب الواحدة تلو الأخرى في الزمن، وتشمل لفظة الاستجابة كل الأنشطة التي يجرها متواليات من الكلمات مكونة جدلية في ذهن القارئ تتركز على كل ما يتعلق بالتوقعات والاحتمالات التركيبية والمعجمية، وهكذا يحدث نوعاً من التفاعل بين هدفق الزمني لخبرة القراءة مفترضا أن القارئ يستجيب على وفق جريان الزمان ليس للقول ككل، وإن قيمة هذا الأجراء يتأسس في واقع الأمر على فكرة المعنى وصفه حادثة شيئاً يحدث بين الكلمات وعقل أو ذهن القارئ، شيء لا تراه العين مجردة بيد أنه بالإمكان رؤيته أو جعله ملموساً يقع في حدود الممكن، وبذلك يكون المعنى سهل الصناعة مما يؤدي إلى أن يصنع القارئ المعنى ومما يكون خبرة للقارئ في المعنى، وهذه السيرة الزمنية من الاستجابات تختلف عن معطيات وفرضيات نظريات الشكلانيين الروس والنقاد الجدد والأسلوبيين التي تبحث عن ملامح شكلية خصائص ومميزات في النص، وتنظر إلى العناصر النصية بناء على انطولوجية مكانية (ضابطة) النص، إذ تربط عناصر النص التي تكون نسيج من الجمل دفعة واحدة وحدة ومكتشفة المعنى الخفي في النص وليست منتجة أو صانعة^(٢)، ويتقدم فحش خطوة أخرى في المرحلة الثانية معززاً فيها مهمة القارئ في إنتاج المعنى أخذاً من صواب أو سلطة النص ليضيفه إلى حساب أو سلطة القارئ من خلال تأكيد حدوثية

(١) هل يوجد نص في هذا الفصل؟: ٤٠.

(٢) هل يوجد نص في هذا الفصل؟: ٦١-٨٨. وينظر نقد استجابة القارئ من الشكلانية (إلى ما بعد البنيوية،

ب. ب. تومبكتز، ترجمة حسن لاطم، علي حاكم: ١٤١-١٦٠.

المعنى التي تتساق مع خبرة القارئ المرتبطة بالنص التي تصنع المعنى، مقترحا خبير الكلمة من خلال فرضيته المؤمنة بعدم وجود علاقة " مياشرة بين معنى الجملة (فقر) أو رواية أو قصيدة) وبين معاني كلماتها أو حتى تكون المسألة أقل استفزازا، إن الحقائق التي يحملها كل تعبير هي بمنزلة الرسالة التي ينقلها ليست ألا مكون من مكونات المعنى، وهي بالتأكيد لا يمكن أن تتطابق معه، فالخبرة بالكلمات، الخبرة ذاتها وليس ما يدور حولها من حديث هي معنى هذه الكلمات^(١). وبذلك فقد جعل من القارئ نقطة ارتكازه الأساسية وليس النص من خلال الخبرة الزمانية التي تؤسس حدوثية المعنى، وتعد كلمة المفنح في تحليل النص هي الخبرة، وأن القراءة والضم هي عملية استخراج المعنى من المادة المطبوعة إلى أمام وتمثل القراءة. حدثا لا يمكن أن ننسى منه جزء، وفي هذا الحدث يتحقق المعنى إذ تلعب البنية العميقة دوراً مهماً فيه، بيد أنها ليست كل شيء، لأن قدرتنا على الفهم لا تأتي من البنية العميقة وحدها بل بالاعتماد على العلاقة بين الكشف في الزمن عن البنية السطحية ومراجعتها المتواصلة لها، وعلى أساس تصورنا سنكشف عنه البنية العميقة وعندها يتم الانكشاف الأخير ويتم فهم البنية العميقة التي اختبرها القارئ وكانت موجودة في حياته، وبصور فيش قارنه الخبير على شكل بنية تصويرية مجردة قارئ مثالي أو صفات مثالية ناضجة وكفاء ويكون محملا بأدوات ثقافية ومعرفية ترتب بعصره، ويمتاز القارئ الخبير بالقدرة على أن يتحدث اللغة التي كتب بها النص بكفاءة ويكون على إلمام تام بعلم الدلالة وبمعانيه ويمتلك ثقافة لغوية تتجلى المفردات المعجمية والاحتمالات والترادفات المصاحبة للفظة والتعبيرات الاصطلاحية النقدية واللهجات الحرفية وغير الحرفية، وذائقة أدبية عميقة بالقراءة التي يمكن خلالها أن يستبطن خصائص الخطاب والأجناس الأدبية وأنواعها المختلفة، ولا تعجز الصواب إذ قلنا إنه ليس مثالياً فقط إنما هو خليط من القارئ الفعلي والمصنعي المثالي إذ أن القارئ الفعلي يعمل كل ما بوسعه حتى يجعل من نفسه قارنا خبيراً وبذلك أطلق فش يد قارنه الخبير على مصراعيه في تفسير النصوص عاملاً على ثنائية الذات والموضوع متمحوراً حول ذاتية القارئ حتى نجده في النهاية يبدل القارئ الخبير بالنص والمؤلف محاولاً تشكيل أو إنتاج انطولوجيا يستجيب له النص ويدخل القارئ في تفاعل معه ولعل محاولته في التفريق بين اللغة العادية واللغة

(١) هل يوجد نص في هذا الفصل؟: ٦٢.

(٢) ينظر من يوجد نص في هذا الفصل؟: ٧١-٩١، وقد استجابة القارئ من الشكلاية إلى ما بينوية: ١٦٠-١٨٥.

المجازية أو الأدبية التي حاول من خلالها المشكلانيين الروس وأصحاب النقد الجديد والأسلوبيين تشكيل نظرية منهجية صارمة تؤمن بمبدأ الاختلاف بين اللغة العادية واللغة الأدبية من خلال فرض نموذج الملامح أو المميزات أو الخصائص الشكلية أو الأسلوبية ما بين الأدبي أو اللادبي، والتي عمل فش على تقويضها وتفكيكها من خلال فكرة أن الأدب مقولة تداولية من صنع القارئ الخبير والجماعة المفسرة القائمة على فرضية أن الملامح والمميزات الشكلية الموجودة في النص الأدبي هي نفسها موجودة في اللغة العادية، وبذلك يعيب على البنيوية والأسلوبية طريقتها في فرض نموذج مسبق على النص تلك التي يتم في ضوءها النص التي يتم في العثور في تضاريس النص على ملامح مميزات أو انحرافات أسلوبية. متجاوزاً فيش هذه الثنائيات اللغة العادية والأدبية. وفروض البنيوية والأسلوبية في فكرة الملامح والمميزات من خلال وصفه المؤلف أو الكاتب بأنه قارئ خبير يرتبط بجماعة مفسرة تعمل على تكوين أو تشكيل نماذج أو مقولات الأجناس الأدبية، مهما الدراسات البنيوية والأسلوبية بأنها دراسات تفسيرية وليست دراسات وصفية عاملاً من خلال تجاوزه لثنائية اللغة العادية والأدبية التأكيد على أن الحقائق أو الوقائع يمكن أن توجد في الأدب، وبذلك فإن لغة والمفالة في القارئ الخبير أدت إلى أن يكون المؤلف والنص من إنتاج وصنع القارئ الخبير^(١)، ولكن بعد أن استشعر فش الخطر الكامن في إطلاق يد القارئ في التفسير والتأويل واستعمال النص وتداوله دون ضابط مما قد يسفر عن فوضى شديدة حذر منها الكثيرين من النقاد، فكانت المرحلة الثالثة تتمحور حول مفهوم جماعة المفسرة والتي تعمل بوصفها ضابطاً عاماً ومضلة تحد من افراطية عملية التفسير ولا سيما بعد أن أصبح قارئ فش يقرأ النص ويعيد كتابته في ضوء استراتيجية القراءة التي يحيا بها النص، والتي هي في الواقع ليست إستراتيجية فردية بل إستراتيجية الجماعة المفسرة^(٢)، أو نوعاً من الاستراتيجيات التفسيرية التي عند وضعها موضع التنفيذ تصبح فعل القراءة بمعناه الواسع أي أنها الاستراتيجيات التفسيرية لا توضع موضع التنفيذ بعد القراءة إنما هي شكل القراءة التي تمنح النصوص شكلها وتصنعها بدلاً منه، وهذه الاستراتيجيات تخلق نوعاً من القراءات الكلية وغير متناسبة أو مؤتلفة إذ إن كل واحد منها يخضع لمفهوم الجماعة المفسرة الخاصة به. وتتألف هذه الجماعة المفسرة من أولئك الذين يشتركون في

١. أرسل يوجد نص في هذا الفصل؟: ١١٧-١٦٥.

٢. المصدر نفسه: ٣٦.

الاستراتيجيات التفسيرية لا من أجل القراءة بالمعنى العرفي بل من أجل كتابة النصوص وتداوله وكذلك من أجل تحديد خصائصها المائزة وتعيين مقاصدها وبعبارة أخرى إن هذه الاستراتيجيات سابقة في وجودها على فعل القراءة وأنها تحدد شكل ما يقرأ، فضلاً على أنها لا تخضع لحدود أو الضوابط فقد تتزايد وتتناقض في فترات مختلفة وقد ينتقل أفرادها من جماعة إلى أخرى أو قد تكون هناك جماعات رئيسية وأخرى ثانوية وقد تقلب مصطلح "فش" في فهمه لهذه الجماعة بين المؤسساتية، والأكاديمية، والثقافة والمعرفة، والتعليم، والفلسفة العصرية، والأذواق الأدبية التي تساعد على تكوين توافقية أو تجانس لمعنى من المعاني أو لعمل من الأعمال أو لجنس من الأجناس الأدبية^(١)، وكذلك يحاول فش أن يقدم ضوابط أخرى في الحد من ممارسة القارئ الخبير وتطرفه مستعينا بنظرية الفعل الكلامي عند سيرلي وأوستن^(٢) من خلال الاستعانة بمفهوم الموقف، والسياق، والظروف، والاعتقادات أو الأحكام المسبقة التي ترتبط بالتقاليد الأدبية أو الثقافية التي تساعد على ضبط استعمال النص والحد من تعويم المعنى في النص، إذ إن السياق والظروف المكانية والزمانية التي نقال فيها الجملة أو الكلمة تساعد على تكوين سياق خاص يعمل على وضع حدود للدلالة الكلمة ويساعد على فهم المعنى وذلك لأن التواصل لا يحدث حسب فش إلا في إطار نظام السياق أو الموقف أو الجماعة المفصرة، وأنّ الفهم اللغوي ينجزه شخصان أو أكثر لا يفصل عن هذا النظام وهو مفهوم في نطاق حدوده، وهذا ما أثار تعليق فش على سؤال طالبة لأحد الأساتذة في جامعة (جونز هوبكنز) عندها سألته هل يوجد نص في هذا الفصل؟ فأصاب الأستاذ سوء الفهم مما أخطأ في إجابه الطالبة عندما قال (نعم مختارات نورتون الأدبية)، فأسرعت الطالبة بالقول (لا، أقصد في هذا الفصل الدراسي هل سنؤمن بالقصائد والأشياء أم هي ليست شيئاً لأنها (نحن) فيعود فش سبب سوء الفهم عند الأستاذ إلى تعدد المعاني والخيال السياقي والظروف المكانية والاعتقادات والمعلومات المسبقة التي ارتبطت بمكانية المؤسسة الأكاديمية مما أدى إلى إطلاق لحظة الاحتمالات السياقية^(٣)، ولكن هذه الضوابط لم تمنع فش من استلاب أو سرقة النص^(٤) من مؤلفه مركزاً على القارئ الخبير وقدرته المنطولوجية على صنع النص، وبذلك يكون القارئ هو الوحيد الذي

(١) المصدر نفسه: ٢٤٩ - ٢٥٦.

(٢) المصدر نفسه: ٢٨٢ - ٣٤١.

(٣) ينظر هل يوجد نص في هذا الفصل؟: ٤١١ - ٤٣٠.

(٤) ينظر الخروج من التيه، عبد العزيز حمودة: ٩٩ - ١٣٠.

يمتلك الساحة النصية والجماهير واللعب الأدبية مكونا الملامح الأسلوبية ومنتجا للنص، حتى أننا نجد فئس من خلال أيمانه العميق بالقارئ أو الجماعة المفسرة قد اتهم النظرية الأدبية بأنها نظرية اقتناعية وليست تثبتية مؤكداً على أن البنيوية والأسلوبية والنقد الجديد كانت تقنع الجماعة المفسرة والذوق الأدبي في السبعينات، أما الآن فإن نظرية التلقي والتأويل والتداولية هي التي تمارس هذا الدور في أقطاع الجماعة المفسرة والذوق الأدبي والنظرية الأدبية خاضعة لمسلطة الجماعة المفسرة التي تحيي قراءات وتميت أخرى وتبدل وتعديل وتغير اعتقادات وفناعات الجمهور من خلال الإقناع.^(١)

ولعل من أهم الانتقادات التي وجهت إلى هذه النظرية اختفاء أو تجاوز ثنائية الذات والموضوع من خلال الإيمان بالجماعة المفسرة^(٢)، وكذلك من الانتقادات الأخرى التي وجهت إلى هذه النظرية كونها قائمة على القارئ الخبير الذي (يظهر كمجرد شرط ضروري لحدوث سيرورة تؤدي إلى تحسين كفاءة القارئ وليس أداة إجرائية تمكننا من وصف ما يحدث خلالها وزيادة على ذلك فإن مفهوم القارئ الخبير يمتنع عن النظرية أصلاً أي أنه من الصعب التفسير له لأنه لا يملك تحديداً فاصلاً ونهائياً)^(٣)، فضلاً على أن قارئ ستانلي فيش (لا يشعر بأي عذاب ولا يمكن أن يثير أي تغيير في نفسه فهو من الناحية النظرية يستطيع أن يقنع الآخرين ولكنه لا يستطيع تجاوز معتقدات الأعراف التي تحدده ولا يستطيع إشعال أي ثورة، ويكون الميدان قد فهم دائماً ومضم بل أنتج جميع حجج إعادة تنظيمه التي يولدها القارئ)^(٤).

❖ إشكالية التجنيس والاصطلاح بين القبول والرفض:

لا يتمظهر الانتهاك في قصيدة النثر في تداخل الحدود والتجهين بين جنسين أدبيين مختلفين (الشعر والنثر): لذلك مثل حضورها - قصيدة النثر - تقويضاً وهذا لجوهرو وكزبة الشعر العربي القديم الوزن والقافية التي ظلت الذاكرة والوعي العربي محافظان عليه لمدة طويلة، ولاسيما في تبلورها بوصفها مشروعاً أو جنساً أدبياً مفرزاً حدث ارتباكاً ومعضلة في المشهد النقدي العربي في ثنائية القبول والرفض متجلية في مجال نقدي وضعها وسط خطابين متناقضين خطاب الأصالة والمعاصرة، وإن ثمة

(١) ينظر هل يوجد نص في هذا الفصل: ٤٦٧-٤٨٢.

(٢) ينظر نقد استجابة القارئ نقاده ونظرياته: ٣٥.

(٣) من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة، عبد الكريم شرفي: ١٨٢-١٨٨.

(٤) المعنى الأدبي من الظاهراتية إلى التفكيكية، ولهم راي، ترجمة يوهيل بومف: ١٩٠.

حالات من الانفلات والخروج عن الوزن والقافية في المدونات العربية القديمة (فقد وجدت نصوص منذ الجاهلية تحاول الخروج على نظام الوزن وتقفياته، ومنها ما أصاب من خروجات على العروض في قصيدة عبید بن الأبرص / المعلقة. وأشعار عدي بن زيد العبادي^(١) وأبي العتاهية الذي قال قولته المشهورة (أنا أكبر من العروض)^(٢) وأبي تمام والمعري وأبي فراس الحمداني وغيرهم، فضلا عن ظهور تنوعات على نموذج وزن وقافية القصيدة العربية القديمة كالموشح والبند والإجازة والنشيطر والتخميس ولزوم ما لا يلزم^(٣)، والتي لم تفسر جوهر القصيدة العربية القديمة، أما انطلاقة المرحبين بقصيدة النثر ومشروعيتها بوصفها جنسا أدبيا فقد اصطدمت بإشكاليات كثيرة كالترسمية والتجنيس والمرجعيات ومرحلة التأسيس والتاريخ، إذ إنه في وقت وجيز تجمعت في سلة الشعر العربي مصطلحات كثيرة مثل الشعر المنثور، القصيدة المنثورة، الشعر المرسل، الشعر المطلق، الشعر الحر، النثر المركز، النثر المشعور، النثر الموقع، البيت المنثور، النثر الشعري، قصيدة النثر، النثرية، غير العمود والحر، القول الشعري، قصيدة الكتلة، الشعر الأجد، النص المفتوح، شذرات شعرية، الكتابة خارج الوزن، الكتابة الخطائرية، كتابة خنثى، الجنس الثالث^(٤)، وإن كان حضور مصطلح قصيدة النثر الغالب في الاستعمال النقدي، ولكن هذا الارتباك في التسمية انتقل إلى محاولة تعريفها^(٥) فعلى سبيل المثال لا الحصر عرفها جبرا إبراهيم جبرا^(٦) بأنها القصيدة التي يكون قوامها نثرا متواصلًا في فقرات كفقرات أي نثر آخر، وقصيدة النثر على كل، ترجمة لمصطلح فرنسي الأصل (poeme en prose)^(٧)، أما أدونيس فيعرفها

(١) قصيدة النثر في الأردن: الإشكالية والتجليات، عبد الرحيم مرشدة، مجلة أبحاث اليرموك، مع ٢٤، ع ١، ٢٠٠٦، جامعة اليرموك، الأردن: ٣٣، ٣٤.

(٢) ديوان أبي العتاهية، أبو العتاهية، فتح مجيد طراد: ٨.

(٣) المنهل الصافي في العروض والفواقي، عبدالله فتحي الظاهر: ٢١٩، ٢٤٧.

(٤) ينظر قصيدة النثر نأملات في المصطلح، محمد الصالح، لزوى، ع ١٠، www.nizwa.com، وقصيدة النثر: إشكالية التسمية والتجنيس والتاريخ، عز الدين المناصرة، لزوى، ٢٩، www.nizwa.com.

(٥) نجد أن إشكالية تحديد وتعريف قصيدة النثر لا ترتبط بالبيئة أو العاضنة العربية إنما نلمس هذه الإشكالية عند الغرب فقد عرفت قصيدة النثر في موسوعة برنستون بأنها "أنشاء قادر على أن يكون له بعض ملامح القصيدة الغنائية أو جميعها باستثناء كونه (الأنشاء) بوضع على الصفحة كالنثر ويعرفها أي جالو بأنها "قطعة نثر، موجزة من غير إخلال، موحدة ومضغوطة كقطعة من بلور نثرية فيها مئة من الانعكاسات المختلفة" وتعددها سوزان بيرنار "بأنها قطعة نثرية موجزة موحدة ومكثفة مثل كتلة من البلور والكثافة وهنا صنوا للإجازة"، ينظر قصيدة النثر مغزبية أولية، عبد الفتاح النجار، أبحاث اليرموك، جامعة اليرموك، عمان، مع ١٩، ٢٤، ٢٠٠١، ٢٧٧، ٢٧٦.

٥. أفتحة الحقيقة والخيال، جبرا إبراهيم جبرا: ٢١٦.

بأنها " شعر خاص يستخدم النثر لغايات شعرية خالصة"^(١) في حين يكتفي يوسف الخال بوصفها شكلاً (من أشكال التعبير الشعري)^(٢) ويحد عبد الستار جواد المتأثر بالغرب قصيدة النثر في كونها (جنماً أدبياً نثرياً يستعير بعض خصائص الشعر كالإيقاع والخيال والعاطفة واللغة المجازية المكتنزة بالمعاني والصور، وإن طولها يتراوح بين نصف صفحة وخمس صفحات، وأنها تختلف عن الشعر الحر بكونها تخلو من التقسيمات القائمة على السطر أو الشطر، فلا وجود لوقفه في آخر كل سطر فيها، كما تختلف عن النثر الشعري بأنها قصيرة ومحكمة العبارة وعن القطعة النثرية الصغيرة بأن فيها إيقاعات أكثر وتأثيرات وصوراً وعمقاً في التعبير، وقد تضم عبارات موزونة وفواحي داخلية، وقصيدة النثر إن طالت أصبحت نثراً شعرياً وفقدت التوتر والتأثير)^(٣) وبعضهم عرف قصيدة النثر بقصيدة (اللاشك أو اللاقصيدة)^(٤)، وإن الاضطراب وعدم الدقة والقارية في مفهوم وتعريف قصيدة النثر لا يمنع من القول إن معظم التعاريف لا تبعد عن كونها ركزت على أنها " شعر" عند أدونيس ويوسف الخال، أو أنها " نثر" في تعريف جبرا إبراهيم جبرا، وعبد الستار جواد^(٥)، أو أنها قطعة من الكتابة أو لا شكل لها يحدد نوعها عند فاضل العزاوي وشعراء التجريب، ويمكن القول إن الارتباك في التعريف انسحب إلى حالة التجنيس أو وضع حدود لقصيدة النثر، وذلك بمسب التداخل بين منطقتين أو خانتين متنازعتين ومتنافرتين التجنيس والحدود (الشعر والنثر)، فالشعر نمط خاص من الوزن والقافية وأسلوب تعبير عن الخيال والعاطفة الذي يمثل النثر الحد الآخر المناقض له من خلال العقل والانتظام والإخبار والسكون^(٦)، والتي سببت إشكالية في محاولة كل جنس الشعر والنثر. بأن يدعي أحقية ومرجعية ومشروعية انتماء الجنس الجديد له، فضلاً على إشكالية وضع قصيدة النثر في سيرورتها التاريخية الصحيحة، فمنذ ولادتها بوصفها جنساً أدبياً

١. مجلة شعر (البيروتية)، ع ١٤، سنة ٤، ١٩٦٠، بيروت: ٨١، وينظر مفهوم قصيدة النثر في النقد العربي الحديث، الأصول والتحويلات، أحمد علي محمد، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة بغداد، إشراف د. جميل نصيف التكريتي، ٢٠٠٥، الملحق التعريفي بالمصطلحات (ج).

٢. الخدالة في الشعر، يوسف الخال: ٤٥.

٣. مجلة الأدب المعاصر (العراقية) ٢٠٠٥ اتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق، ع ٤١، كانون الثاني، العراق، ١٩٩٠: ٤٨.

٤. الروح الحية، جهل الستينات في العراق، فاضل العزاوي: ٢٧٨.

٥. ينظر قصيدة النثر مقارنة أولية: ٢٧٨.

٦. ينظر قصيدة النثر، سليمان الشطي، مجلة البيان، تصدر عن رابطة الأدباء في الكويت، الكويت، ع ٢٢٦، ١٩٨٤، م، والشعر والنثر، المساق والمفاضلة، حورية الخليلي، نزوى، ع ٤٥، www.nizwa.com

في سياق المخاضات الثقافية والفلسفية والبيئية وحاضنتها الغربية ارتبطت بولادتها على يد بيرتران ١٨٢٨م بوصفها طريقة جديدة إلى استوائها كجلس أدبي عند بودلير، ولازميه، ورامبو، ولوتريامون^(١)، ودخولها شكلاً غربياً دخيلاً إلى المشهد النقدي العربي في عام ١٩٥٧م في مجلة شعر البيروتية في مقالة لادودينس معتمداً على كتاب سوزان برنار، فضلاً عن إصدار أنسي الحاج لديوان (لن) الذي ينطوي على مقدمة نقدية تعريفية لقصيدة النثر مع تضمينه مجموعة من قصائد النثر^(٢) حتى شيع حضورها في الخطاب النقدي العربي عام ١٩٦٠م مصطلحاً ومفهوماً وممارسة بشكلٍ رسمي بوصفها حركة جديدة^(٣)، وإن كان ثمة من يعود بظهور قصيدة النثر قبل هلال التاريخ إلى الإرهافات الأولى في كناية الشعر المنثور عند محاولة أمين الريحاني عليه ١٩٠٥م متأثراً بالشاعر الأمريكي والت وثمان ومنتطورة عند جبران خليل جبران ورشيد أيوب وأمين مشرق وأبو شادي والبيراذيب^(٤)، وثمة من يمرحل قصيدة النثر على وفق مسارات مختلفة ومتدرجة التطور وتمثل تصنيفاً ثالثاً يأتي بعد مرحلتين الإحياء، والديون، ومرحلة ابولو واصفاً مرحلة قصيدة النثر (بالشعر نسبة إلى مجلة شعر)^(٥)، ولا تكمن إشكالية قصيدة النثر في التسمية والتجنيس والتاريخ إنما يضاف إليها إشكالية الريادة وادعاء أسبقية الأبوة للجنس الجديد، ما بين أنسي الحاج، وادودينس، والماغوط، وإن كان الماغوط يمكن أن يعد صاحب تيار ثانٍ يختلف عن قصيدة النثر في ريادته وابداعه للقصيدة الحرة^(٦) المتجاوزة للوزن والقافية، وابن بوادها توفيق الصايغ وجبران خليل جبران، وإن حدود القصيدة الحرة تختلف عن

(١) ينظر قصيدة النثر من بودلير إلى أمانا، سوزان برنار، زهير مجيد مفاسس، دار المأمون، بغداد ١٩٩٣، ١٠٦-٦١.

(٢) لن، أنسي الحاج: ١٥٠.

(٣) ينظر الإيهام في شعر الحدائق، عبد الرحمن محمد العمود: ١٥٢، ١٥٧، وقصيدة النثر مقاربة أولية: ٢٨١.

(٤) بتنظر محاولات التجديد في الشعر العربي المعاصر، طراد الكبيسي: ٢٦ - ٣٨، والقصيدة الحرة مجرى الماغوط نموذجاً، فاضل العزاوي: ٤٨، ٥٢.

(٥) ينظر القصيدة الحرة محمد الماغوط نموذجاً: ٥٤.

(٦) لا تنطق مع الرأي القائل إن الشاعرة العراقية نازك الملائكة عام ١٩٤٧ ارتكبت أخطاء معرفية ونقالي عندما أقدمت على نظم القصائد القائمة على تعدد التفعيلات معتقدة بذلك أنها تعيد إنتاج قصيدة الشعر الحر المعروفة في الغرب في حين أن ما فعلته هو أنها انتقلت من شكل خاص للقصيدة العربية إلى شكل شعري تفعيلي، ويمكن الرد على هذا الرأي في أن نازك الملائكة لا تنفصها الثقافة والمعرفة واللغة الإنكليزية لكي تخطى في فهم وترجمة مصطلح الشعر الحر، ينظر بعيداً داخل الغابة، فاضل العزاوي: ٩٩-١٠١، القصيدة الحرة محمد الماغوط نموذجاً: ٦٤-٦٥.

قصيدة النثر المنجلية في الشكل الكتابي أو التنظيم الخطي فيما تنتهي قصيدة النثر في نهاية الجملة تعتمد القصيدة الحرة بقطع الجملة أي أنها تكتب على نمق شعر التفعيلة أو نمق الاشطر لكن دون وزن وقافية^(١)، وإن ثمة رأياً يصنف قصيد النثر إلى اتجاهين القصيدة الرؤيا ممثلة بانسي الحاج وادوينس، والقصيدة الشفوية ممثلة بالماغوط^(٢) وهو الذي لا تتفق معه لأن قصائد الماغوط وانسي الحاج وادوينس تتفق في الجوهر على تجاوز الوزن وقافية القصيدة العربية القديمة، أما تقنيات الكتاب فيمكن عدها من حركات التنوع في الشكل لكل اتجاه أو شاعر، وأما قضية التمازج بين قصيدة النثر وارتباطها بجينات الشعر الحر والمتبلورة في عدها حالة من حالات تطور الشعر الحر الذي مارس نوعاً من نظام حر للتفعيلة متحرراً من القافية^(٣)، وهو رأي يعهد عن الصواب لأن الشعر الحر لا يمكن أن يعد خروجاً على جوهر القصيدة العربية القديمة وقيود الوزن والقافية، وإن كان قد تجاوز القافية جزئياً لكنه حافظ على أهم ركن للقصيدة العربية القديمة الوزن، وبذلك يمكن أن نعد الشعر الحر تنوعاً وحواراً مع نموذج القصيدة العربية القديمة، وما يعزز ذلك رفض نازك الملائكة لقصيدة النثر لأنها خرجت عن الوزن والقافية^(٤)، ولعل من المفارقات الغريبة أن يأتي رفض قصيدة النثر من قبل شعراء كانوا يحسبون لمدة من الزمن على حركة مجلة شعر (قصيدة النثر) فخليل حاوي، ومحمد الماغوط عضوان مؤسسان للحركة، ونازك الملائكة قد نشرت مجموعة من قصائدها في مجلة شعر مهمين قصيدة النثر بانفصالها عن الواقع وهشاشة الصرح الأيديولوجي الذي عملت مجلة شعر على ترسيخه، وأنها لا تمثل فقط سوى قطعة نثرية^(٥)، وفي محاولة للحفاظ على كيان القصيدة النثر ومشروعيتها من خلال تقنياتها فقد استعار انسي الحاج وادوينس خصائص وشروط قصيدة النثر من كتاب برنار في أن قصيدة النثر ينبغي أن تكون وحدة عضوية مستقلة ولها عالمٌ مغلقة يحفظها كقصيدة، فضلاً عن التسليم بأن ليس لقصيدة النثر أي غاية بيانية أو سردية خارج ذاتها وإن العناصر السردية الوصفية لأغراض شعرية وهنا يبرز عنصر المجانية الذي يتحدد بفكرة اللازمية في

١. ينظر المصدر نفسه، ٦٠-٦٤.

٢. ينظر الإيهام في شعر الحدادة، ١٣٨.

٣. ينظر محاولات التجديد في الشعر العربي المعاصر: ١٠، ٣٠.

٤. ينظر قضايا الشعر المعاصر، نازك الملائكة: ٤٦٣.

٥. ينظر الأسس النظرية لقصيدة النثر في الأدب العربي الحديث (مرحلة التأسيس)، حسن مخافي، نزوى.

www.hizwa.com.٢٠١٢

الحد الذي لا تتطور فيه القصيدة نحو هدف ولا تعرض سلسلة أفعال أو أفكار إنمّا كتلة لازمنية، وهذان الشرطان الوحدة، والمجانبة يقودان إلى شرط ثالث الإيجاز والتكثيف والإيقاع الداخلي واتحاد المتناقضات إذ توجد قوة فوضوية مدمرة تمثل رفض الإشكال الموجود وقوة منظمة تحافظ عليها في ثنائية مميزات الشعر والنثر^(١)، ولكن بمرور الوقت أثبتت هذه الخصائص والشروط فشلها؛ لأنها مجرد خصائص ومفاهيم مجردة ومثالية لا تمت إلى الواقع الإبداعي بصلة فضلاً عن أن قصيدة النثر قائمة على مبدأ الرؤيا والتجريب وحرية الشكل الذي ينبع من التجربة الشعرية الخاصة بالشاعر^(٢)، أما عن جانب محافظة قصيدة النثر على أصالتها من خلال العودة بها إلى خلفيات ومرجعيات عربية قديمة فقد ارتبطت بالتراث النثري الفني، والمقامات، والنصوص الصوفية عند النفري وابن العربي والحلاج والقران الكريم الذي تبناه ادونيس، وإن كانت في أحد وجوهها لا تجسد تجاوزاً للشكل القديم ورفضه، وإنما هي حسب رأي انسي الحاج عمل طبيعي تجاه التقليد الذي يشبه سجننا لأبد من التحرر منه، وتكون بذلك نموذجاً مستعاراً من الغرب^(٣)، ولعل هذا السبب في تبعيتها للغرب وتجاوزها للشعر العربي القديم فضلاً عن أنها أوحى بفكرة خطيرة حول القران الكريم تسمح بالقول بأنه شعر مما لم يقنع الراضين والمشككين بها^(٤).

■ قصيدة النثر مقولة تداولية عند الجماعة المضرة

وجدير بالذكر أنّ السجال النقدي القائم على الجدل والتناقض بين المرشحين والمشككين بقصيدة النثر يقودنا إلى أن نتلمس زاوية نظر أو اتجاهاً ثالثاً يقع بين منطقتي التنازع أو التنافر في الخطاب النقدي العربي، محاولاً حل هذه الإشكالية من خلال إقامة الدليل على أنّ قصيدة النثر مقولة تداولية، ويكمن تميزها عن غيرها بقربها من نخبة الجماعات المفسرة (المتلقي) وقبل الخوض في البرهنة على هذه الفرضية لا بد أن نتطرق من مسلمة أولية تقوض وتفكك مركزية الخطاب الذي حاول المرشحين والمشككين الانطلاق منه في بناء فرضياتهم إذ إن السيرة التاريخية وشهادة مبادئ قصيدة النثر أثبتت بأنها اتهامات وتجاوز للموروث العربي والقصيدة الكلامية

١ - ينظر قصيدة النثر من بودليير إلى أماتا: ٢٣، ٢٥.

٢ - ينظر عمداً داخل الغابة: ١٢٠، ١٣٨، وقصيدة النثر من بودليير إلى أماتا: ١٦، ١٧.

٣ - ينظر الإبهام في شعر الحداثة، ١٣٣، ١٣٥، وما لا تؤديه الصفة المقترحات النسانية والأسلوبية والشعرية حاتم الصكر: ٣٤، ٣٥، وقضايا الإبداع في قصيدة النثر، يوسف حامد جابر: ١٥، ٢٠.

٤ - ينظر قصيدة النثر بين القبول والرفض، شمس الدين درمش، صاهرين شمردل، مجلة الأدب الإسلامي تصدر عن رابطة الأدب الإسلامي، المملكة العربية السعودية، مج ١٢، ٤٥٤، ٤٥٧، ٢٠٠٥.

وبذلك نسقط فرضيات وبراهين الذين يحاولون أن يدخلوا قصيدة النثر في حوار مع القصيدة العربية القديمة من خلال تكوين معيار حكمهم النقدي على مرجعية الوزن والثقافة العربية الذي لا يتسق مع ولادة قصيدة النثر في بيئة وثقافة ومرجعيات شعرية غربية مختلفة، أما التسليم الآخر المتبلور في المعيار الشكلي أو الملامح والخصائص الشكلية التي انطلق منها المشككون والمرحبون في التفريق بين قصيدة النثر والقصيدة العربية والنثر الأدبي ومحاولة كل فريق جرح قصيدة النثر من خلال الملامح الشكلية إلى منطقة وحدود جنس الشعر أو النثر فقد سبب جدلاً وسجالاً وشكاً بين رفض أو قبول قصيدة النثر، ولعل إشكالية المرجعية واللامح الشكلية يلقي بظلال من الشك على الفريقين، المرحبين والمشككين معاً، وإن قمة الإشكالية هو في كيف يتم في غياب مرجعيات ثقافية ومعايير شكلية واحدة تحديد جنس قصيد النثر؟

وانطلاقاً من الفرضية التداولية التي تقول أن المتلقي هو الذي يصنع النص فإننا نجد أن الملامح والخصائص الشكلية التي ينطلق منها المرحبون بقصيدة النثر قائمة بالدرجة الأساسية على الفرق ما بين اللغة العادية^(١٤) ولغة الأدب، وإن خصائص لغة الأدب تمثل انحرافاً وانزياحاً أسلوبياً ينطوي على غرض أو هدف، وقيمة جمالية، وفصيحية، والتزام، وهذه الخصائص تختلف عن اللغة العادية التي تتصف بالموضوعية، والحقيقتية، والرسالة الإخبارية^(١٥). ولو وسعنا الرؤية فإننا نجد أنه لا يوجد فرق بين اللغة الاعتيادية واللغة الأدبية لأن المشترك فيما بينهما هو الاعتماد اللغوي الذي ينطوي على الملامح التي نعرف سلفاً أنها خصائص أدبية مشتركة وهذا ما حدا ببارت إلى تأكيده بأن الأدب ينتمي داخل نظام ليس هو نظامه إنما هو نظام اللغة العادية، وأنه ينتمي حسب قواعده الخاصة ولكن مع بقائه داخل إطار اللغة العادية^(١٦)، إذ أثبتت الدراسات اللسانية والبنائية أن الملامح الأسلوبية المتجسدة في الفونيمات والمورفيمات والنبرات والقوالب النحوية والصرفية والتكرار والتنغيم نجدها في اللغة الأدبية والعادية على حد سواء، وعلى وفق هذا النحو فإن جميع النصوص تحمل في طبيعتها احتمالية أن تعد أدباً، وإن أي اعتماد لغوي يتضمن ملامح تعرف سلفاً

١٤ - هناك عدة تسميات للغة العادية مثل اللغة الطبيعية، اللغة الحرفية، اللغة العملية، اللغة الخيرية، لغة المنطقية، اللغة الدلالية، اللغة المحايدة، اللغة اليقينية، اللغة الجادة، اللغة اللامجازية، اللغة التصويرية، اللغة العاملة للرسالة، اللغة الإحالية، اللغة الوصفية، اللغة الموضوعية، اللغة الصناعية، انظر هل يوجد نص في هذا الفصل: ١٥٥.

١٥ - ينظر المصدر نفسه: ١٥٥، ١٧٠.

١٦ - ينظر الأدب عند رولان بارت، فانسان جوف، ترجمة عبد الرحمن أبو عني: ٤٩، ٥٠.

بأنها من خصائص الأدب وبعبارة أخرى لا يدفعنا الأدب للنظر إليه لأنه يظهر خصائص شكلية بعينها بل احتفالنا به هو الذي يحدد مفهومنا له الذي يسفر عن بروز الخصائص التي تعرف سلفا على أنها من الخصائص الأدبية أو الجنس الأدبي التي تقودنا إلى القول بأن قصيدة النثر مقولة تداولية مفتوحة لا تحدها العناصر الخيالية الموجودة فيها بل بما نقرر نحن أن نضعه فيها، وبذلك يكون القارئ هو الذي يصنع الجنس الأدبي (قصيدة النثر) وهذا لا يعني أن المتلقي أو القارئ له اللفظ الطويلة في صنع الجنس الأدبي كيفما يشاء، بل بوصفه عضوا في جماعة تكون فرضياتها بشأن الأدب والجنس الأدبي، وهي (الجماعة) التي تحدد طبيعة الاهتمام الذي توليه للنص ومن ثم طبيعة الأدب والجنس الأدبي الذي يصنعه وهكذا فإن فعل التعرف على الجنس الأدبي (قصيدة النثر هنا) لا يصدر عن ملامح ومميزات تكمن في النص ولا يصدر عن إرادة المتلقي المتعسفة، بل ينشأ عن قرار جماعي يحدد الجنس الأدبي (قصيدة النثر) ومفهومه وتعريفه الذي يصبح ساريا طالما تلتزم به جماعة القراء أو جماعة المؤمنين به، وهذه الطريقة في تحديد الجنس الأدبي (قصيدة النثر) يعيدنا عن الثبات الدائم وتختلف باختلاف الثقافات والأزمان وطبيعة المؤسسة الأدبية والسياسات التداولية وعلاقتها بالمؤسسات الأخرى التي تشكلت بالطريقة نفسها، والتي سوف تكون عرضة للتغير المستمر⁽¹⁾، وهذا لا يعني أن الجنس الأدبي (قصيدة النثر) لا يكون ذات طبيعة سوسولوجية وانطولوجية، إذ إن فكرة جوهر الأدب والجنس الأدبي دائمة لكنها تتغير حسب تغير الظروف الثقافية والتاريخية⁽²⁾ وتداولية الجماعة المفسرة، وإن انفتاح الأدب أو قصيدة النثر بوصفها مقولة تداولية تستوعب في المستقبل أي تجديد وانتهاك يتبلور على ضوءه جنسا جديدا مرتبطا بصيرورة المجتمع والجماعة المفسرة.

١. ينظر هن يوجد نص في هذا الفصل: 100 . 170.

٢. ينظر الأدب عند رولان بارت: 29 . 44.

﴿ المصادر والمراجع ﴾

- الإيهام في شعر الحدائث، عبد الرحمن محمد القعود، عالم المعرفة، الكويت، ط٢٠٠٢، ١٠٢٠٠٢
- الأدب عند رولان بارت، فانسان جوف، ترجمة عبد الرحمن (أبو علي)، دار الحوار، اللاذقية، ط٢٠٠٤، ١٠٢٠٠٤
- أقنعة الحقيقة والخيال، جبرا إبراهيم جبرا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، د.ط، ١٩٩٢
- بعيدا داخل الغابة، البيان النقدي للحدائث العربية، فاضل العزاوي، دار المدى، ١٩٩٤، ط١، سوريا.
- الحدائث في الشعر، يوسف الخال، دار الطليحة، بيروت، د.ط، ١٩٧٨.
- الخروج من التيه، عبد العزيز حمودة، عالم المعرفة، ٢٠٠٣، ط١، الكويت.
- ديوان أبي العتاهية، أبو العتاهية، تح مجيد طراد، دار الكتاب العربي، ١٩٩٩، ط٣، بيروت.
- الروح الحية، جيل الستينات في العراق، فاضل العزاوي، دار المدى، ط٢، ٢٠٠٣، سوريا.
- القصيدة الحر محمد الماغوط نموذجا، فائز العراقي، مركز الإنماء الحضاري، حلب، ط١، ٢٠٠٧.
- فضايا الإبداع في قصيدة النثر "دراسات في نصوص القصيدة"، يوسف حامد جابر، دار الحصاد للنشر والتوزيع، ١٩٩١، ط١، دمشق.
- فضايا الشعر المعاصر، نازك الملائكة، دار العلم للملايين، بيروت، ط٥، ١٩٧٨.
- قصيدة النثر من بودلير إلى أيامنا، سوزان بيرنار، زهير مجيد مغمص، دار المأمون، بغداد، ط١، ١٩٩٣.
- ما لا تؤديه الصفة المفتربات اللسانية والأسلوبية والشعرية، حاتم الصكر، دار كتابات، بيروت، ط١، ١٩٩٣.
- محاولات التجديد في الشعر العربي المعاصر، طراد الكبيسي، الموسوعة الصغرى، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ط١، ١٩٨٩.
- المعنى الأدبي من الظاهرية إلى التفكيكية، ولهم رأي، ترجمة يوثيل يوسف عزيز، دار المأمون، ١٩٨٧، ط١، بغداد.
- من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة، عبد الكريم شرقي، منشورات الاختلاف، ط١، ٢٠٠٧، الجزائر.
- المهمل الصبائي في العروض والقوافي، عبدالله فتحي الظاهر، ابن الأثير للطباعة والنشر، ط١، الموصل، ٢٠٠٧.

- نقد استجابة القارئ من الشكلائية إلى ما بعد الهيغوية، جين ب. تومبكنز، ترجمة حسن ناظم، علي حاكم، المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٩، مصر
- نقد استجابة القارئ نقاده ونظرياته، رمان سلدن، ترجمة سعيد الفانحي، آفاق أدبية، دار الشؤون الثقافية، ١٩٩٣، ط١، العراق
- هل يوجد نص في هذا الفصل؟ ملطعة الجماعة المفسرة، ستانلي فشر، ترجمة احمد الشبيبي، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٤، ط١، القاهرة.

❖ الدوريات:

- قصيدة النثر بين القبول والرفض، شمس الدين درمش، صابرين شمردل، مجلة الأدب الإسلامي، تصدر عن رابطة الأدب الإسلامي، المملكة العربية السعودية، مج ١٢، ع ٤٥، ٢٠٠٥
- قصيدة النثر في الأردن، الإشكالية والتجليات، عبد الرحيم مرashedة، مجلة أبحاث اليرموك، جامعة الأردن، مج ٢٤، ع ١٤، ٢٠٠٦
- قصيدة النثر، سليمان الشطي، مجلة البيان، تصدر عن رابطة الأدباء في الكويت، الكويت، ع ٢٢٢، ١٩٨٤
- قصيدة النثر مقارنة أولية، عبد الفتاح النجار، أبحاث اليرموك، جامعة اليرموك، عمان، مج ١٩، ع ٢٤، ٢٠٠١
- مجلة الأديب المعاصر (العراقية) الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق، ع ١ كانون الثاني، العراق، ١٩٩٠
- مجلة شعر (البيروتية)، ع ١٤، سنة ٤، ١٩٦٠، بيروت.

❖ الرسائل والأطاريح الجامعية:

- مفهوم قصيدة النثر في النقد العربي الحديث، الأصول والتحويلات، احمد علي جميل رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة بغداد، إشراف د. جميل نصيف التكريتي، ٢٠٠٥

❖ المواقع الإلكترونية

- الأسس النظرية لقصيدة النثر في الأدب العربي الحديث (مرحلة التأسيس)، حسن مخافي، نزوى، ٢٨٤، www.nizwa.com
- الشعر والنثر، السياق والمفاضلة، حورية الخمليشي، نزوى، ع ٤٥، www.nizwa.com
- قصيد النثر: إشكالية التسمية والتجديس والتاريخ، عز الدين المناصرة، نزوى، ع ١٩، www.nizwa.com
- قصيدة النثر تأملات في المصطلح، محمد الصالحي، نزوى، ع ١٠، www.nizwa.com

الفصل الثالث

مسارات الروى في التطبيق

أ.د. عبد العظيم بن هبسي
د. همام محمود شهاب
د. ورقاء يحيى المعاضبي
د. هبة الله يعرر الراشدي
م.م. نور وليد هيد صالح

الفعل الكلامي المنصي - قصيدة - (وتضمنت لغة الكلام) لغوي زكريا أنموذجاً
الأبعاد التداولية عند الخطيب القزويني
الحجاج في الخطاب الشعري العربي الحديث، قصيدة (لا تصالح لأمل دنقل نموذجاً)
إنجازية أفعال الكلام - مقاربة تداولية نماذج من الشعر العباسي
الاقتضام التخاطبي.. دراسة تداولية في آيات من سورة الأنعام

الفعل الكلامي النصي

قصيدة (وتعطّلت لغة الكلام...) لفدي زكريا أنموذجاً

أ. د. عبد الحليم بن عيسى*

❖ مدخل

عرف التحليل النصي في الدراسات المعاصرة تحولات كبيرة، والسرف في ذلك يعود إلى تأثير إفرافات المسار الذي عرفته الدراسة اللسانية؛ من الاهتمام بالجملة إلى توسيع الأفاق لتشمل ما هو أشمل وأعم؛ أي النص. وكان من نتائج ذلك أن استدعى الاهتمام به ضرورة الانفتاح على مكوناته وعدم البقاء في الإطار النسقي الذي ينبي عليه المناهج اللينوية التي أقصت عمدا المعطيات الخارجية في الممارسة النصية). وقد نم ذلك في رحاب الدراسات التي دعا فيها روادها إلى الأخذ بعين الاعتبار ما تملبه معطيات عملية التواصلية في الكشف عن مكانم السياق وفعاليته.

وتعد الدراسات التداولية من بين أهم المجالات التي دعا فيها أصحابها إلى تفعيل (سياق) من أجل ضبط المقاصد التي يقتضها التفاعل الكلامي. وتعدّ (نظرية أفعال الكلامية) من بين أهم المجالات التي احتضنت هذه الدعوة؛ إذ بيّن فيها (أوسين) وتلامذته أنه لا يمكن ضبط الفعل الإنجازي الذي يقوم عليه الفعل الكلامي من غير الأخذ بعين الاعتبار معطيات مسرح القول الذي ينتج فيه.

والمطلع على المسار الذي عرفته هذه النظرية يدرك أنها قد عرفت تطورات مختلفة نوعية الدراسة، وبعد (فان ديك) من أهم المنظرين لهذه التقلة النوعية من (الفعل الكلامي الجزئي)؛ والذي تم على يد (أوسين) و(سيرل) وغيرهما، إلى (الفعل الكلامي الشبي)؛ والذي يُنظر فيه إلى النص بوصفه سلسلة من أفعال الكلام تخدم فعلا ميا شاملا.

وبحثنا يندرج ضمن هذه الرؤية؛ نضبط من خلاله طبيعة هذه التقلة، والأسباب التي أدت إليها. ولتوضيح كل ذلك سنعتمد على مدونة أدبية لتطبيق إجراءات هذا النهج في النص الشعري. وننتقل فيه من إشكالية البحث عن طبيعة الفعل الكلامي الشبي، والكشف عن التصور الذي يضبط ويحدّد كيمييات تحديد قوته الإنجازية

١. نشأة نظرية الأفعال الكلامية وتطورها

ترتبط هذه النظرية - كما يذكر معظم الدارسين - بإرائدها (أوستين) الذي قدم مفاهيم دقيقة حول (الفعل الكلامي *Speech act*) وطبيعته وشروطه وأصنافه. وقد طرحها انطلاقاً من عدم رضاه عما آل إليه الخطاب الفلسفي الحديث على وجه الخصوص^(١)، فقدّم ملاحظات لاذعة تصف أعمال الفلاسفة بأنها واهية مبتذلة، ثم إنهم ينطلقون في بحوثهم من أحكام جاهزة، مما جعل دراساتهم غير دقيقة.

ولهذا كانت العبارات الأولى التي افتتح بها كتابه تدعو إلى أنه سيناقش ظاهرة واسعة الانتشار، ولكن - كما يقول - لم يولها أحد الاهتمام الذي يليق بها. فانطلق من الوهم الذي وقع فيه الفلاسفة حينما افترضوا أنّ شأن الحكم في القضية إما أن (يصف) حالة شيء ما، وإما أن (يثبت واقعة عينية). مما يعني أنّ حكم القضية إما أن يكون صادقاً أو كاذباً^(٢).

ويظهر أنّ (أوستين) من البداية أراد أن يتجاوز ما كان سائداً في الفكر الفلسفي واللغوي المشائعي آنذاك، والذي أعطيت فيه المكانة الأولى للجميل الذي تصف الواقع على حساب الجمل التي تنشئه أو تهدف إلى ذلك على الأقل باعتبارها - كما يرى المناطقة - مجرد أشباه إثباتات أو مجرد تعبيرات انفعالية قد تصلح في ميدان الشعراو التعبير الخيالي بعامة، ولكنها لا تصلح لصياغة قضايا المنطق^(٣). فاقترح طرحاً جديداً بين فيه أنّه من غير الممكن اعتبار الوظيفة الوحيدة للغة هي (الوصف)، ولذلك أطلق شعاره المشهور في معارضة هذه الوظيفة؛ وهو (الوهم الوصفي *L'illusion descriptive*)، لينتدب أنّ القول هو بدون شك نقلٌ لمعلومات معينة لأخرين حول موضوع ما نتكلم عنه؛ ولكنه أيضاً (فعل)^(٤). فحاول إبراز (الوجه الإنجازي) من القول، والذي تمثله استعمالات معينة من اللغة، بعد أن كان (الوجه الإخباري) هو المسيطر في الدراسات اللسانية والفلسفية. فأراد أن يجتهد ذلك ابتداءً من عنوان كتابه (كيف ننجز الأشياء بالكلام *How to Do Things with Words*)، وهو عنوان ينحو - كما نلاحظ - نحو النزعة التطبيقية، وذلك انطلاقاً من تلك العناوين التي تقوم على هذه

(1) Voir, Austin, *Quand dire c'est faire, traduction Gilles Lane, (Préface) P: 9.*

(2) أوستين، نظرية أفعال الكلام كيف ننجز الأشياء بالكلام، ترجمة: عبد القادر قينهي، ص ١٢.

(3) إدريس مرجان، الأمر والنهي في نظرية الأفعال الكلامية، أطروحة لنيل السراقات العليا إشراف دكتور الوهاب التازي، المغرب جامعة فاس، ١٩٨٨، ص ١٢.

(4) Voir: Charaudeau et Maingueneau, *Dictionnaire d'analyse du discours, Paris édition du seuil, 2002, p: 16.*

و أيضاً جون ليونز، اللغة وتعلمها والتساق، ص ١٩١، ومحمود أحمد نحلة، أفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص ٥٧، وصالح إسماعيل عبد الحق، التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد، ص ١٢٥.

الزعة من مثل: (كيف تبني شخصيتك؟) و(كيف تختار صديقك؟) و(كيف تكون ناجحاً؟) فجسد هذه الزعة ضمن (نظرية الفعل الكلامي).

ويقوم التحليل اللغوي الذي اعتمده (أوستين *Austin*) في اكتشاف الأفعال الكلامية وتصنيفها على دعائمين منهجيتين أساسيتين^(١):

أ- القصدية: وشكلت الأساس الذي انبنت عليه نظرية الأفعال الكلامية، وتتجلى انطلاقاً من الربط بين العبارات اللغوية وغرض المتكلم أو مقصده من الفعل الكلامي: إذ (يجب أن ينظر إلى الإنجاز بوصفه جانباً قصدياً لفعل كلامي في سياق الموقف الكلي البراجماتي النواصلي (السياق البراجماتي-التواصلي))^(٢). فكل فعل كلامي يقوم على قصد معين، وله تأثير ودور في ضبط القوة الإنجازية المرادة.

ب- السياق العام بأنواعه: أي السياق الذي يجري فيه القول؛ بكل معطياته الثقافية والاجتماعية والنفسية. وقد فرّز (أوستين) أن الأقوال تُنجز ضمن سياقات محددة، فتضحي دلالاتها جزءاً لا يتجزأ من هذه السياقات.

وفي رحاب هذا التحول تغيرت بؤرة الدرس اللساني؛ بحكم أن نظرية الأفعال الكلامية لا تفرض أن الوحدة الأساسية للتواصل الإنساني هي (الجملة)، ولا أي تعبير آخر؛ بل هي (إنجاز) بعض أنماط الأفعال^(٣). وذلك انطلاقاً من موقف معين.

ولكن حتى وإن كان هذا الطرح قد تبلور مع (أوستين) فإنه يجب أن ننبه إلى أمرين مهمين:

الأمر الأول يتعلق بأهمية الجهود السابقة عليه في إرساء الأرضية الخصبة التي نعمت معطيات هذه النظرية؛ ومنها على الخصوص صنيع (فتجنشتاين) الذي كان له الفضل الكبير في التأسيس لهذه النظرية؛ إذ بين من قبل أيضاً أن اللغة قد تستخدم لوصف العالم من حولنا، وقد نستعمل أيضاً لغير وصف وقائع العالم؛ كالأمر والاستفهام والشكر والتحية والدعاء وغيرها من الاستعمالات التي أطلق عليها مصطلح (ألعاب اللغة *Language Games*)، وأسعى كل استعمال منها (لعبة).

وينجّه مفهوم (اللعبة اللغوية) حسب (فتجنشتاين) نحو الاستعمالات اللغوية انطلاقاً من مقتضيات التواصل الاجتماعي في المقامات المختلفة، وقد بين أن استعمال لغة شبيه بلعبة، علينا أن نتعلم قواعدها بممارستها في حد ذاتها (تطبيقها في سياقات

(١) د. مسعود صحراوي، الأفعال المتضمنة في القول بين الفكر المعاصر والتراث العربي، ص ٦٩.

(٢) ريميسلاف واورزنيالك، مدخل إلى علم النص مشكلات بناء النص، ترجمة سعيد حسن بحيري، ص ٢١.

(٣) فرانسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، ترجمة سعيد علوش، مركز الإنماء القومي (د ش)، ص ٦٠.

معينة): ف(نحن لا نصبح ممتلكين للسان ما بداية بتعلم مجموعة وحيدة من القواعد الوصفية التي تتحكم في استعماله في كل حالة، ولكن بمشاركتنا في كثير من الألعاب اللغوية المختلفة التي ترتبط كل واحدة منها بصنف من السياقات الاجتماعية مخصوص ومحدد، عبر مواضع اجتماعية مخصوصة)^(١). فاللغة اللغوية هي استعمال للغة في موقف محدد، أما ضوابطها فهي مستمدة من الحال الذي تستخدم فيه.

ولذلك أكد (فتغنشتاين) في غير مرة أن نماذج الألعاب اللغوية تنوع، غير أن مظهراتها لا تتم إلا من خلال استعمالها المختلفة حيث تتعين مقاصدها: يقول معلقاً على قولنا: (المطر ينزل): (أليس غريباً أنني لا أستطيع بالضرورة أن أفكر أن المطر سيكف حتى دون المؤسسة اللغوية وكل ما يحيط بها؟ أتريد أن تقول إنه من الغريب أنك تستطيع أن تنطق هذه الألفاظ وتفصدها دون ما يحيط بها)^(٢) وفي كل ذلك تأكيد واضح على ضرورة ربط مقاصد اللغة بالمقامات الاجتماعية التي نستعمل فيها العبارات اللغوية.

والأمر الثاني يرتبط بما قدمه تلامذته من بعده في استجلاء خصوصيات هذه النظرية، والذين كان لهم الفضل الكبير في تطوير مقولاتها، واستكمال طروحاتها؛ منهم (سيرل) و(ريكانتي) و(غوفمان) و(أوركينوني) و(فوندرليش) وغيرهم. قد نركز في هذه المناسبة على عمل (سيرل) الذي قدم رؤية متطورة لذلك، استفاد فيها من الهفوات التي وقع فيها أستاذه (أوستين)، فاستطاع أن يطور ويعمق أكثر في طروحاته، وأن يعدل ويزيل الكثير من التباسات التي بقيت عالقة مع التحليل الأوستيني، مستفيداً في ذلك أيضاً من آراء غيره من فلاسفة اللغة أمثال: (فيتغنشتاين)، و(غرايس)، و(ستراوسن) وغيرهم.

ويمكن تلخيص أهم القضايا التي قدمها (سيرل) فيما يلي:

- بين في غير مرة من كتابه (أفعال الكلام *Les actes de langage*) أنه من غير الممكن أن ينحصر ويقوم مفهوم الفعل الكلامي على مراد المتكلم فحسب؛ بل هو مرتبط أيضاً بالعرف اللغوي والاجتماعي الذي يتقاسمه أفراد البيئة اللغوية المعينة^(٣)، والذي يسهم بشكل كبير في تحقيق الإنجازية المطلوبة.

(١) صابر حباشة، التداولية والعجاج مداخل ونصوص، دمشق صفحات للدراسات والنشر، ط ٢٠٠٨/١، ص ٧٧.

(٢) لودفيك فيتغنشتاين، تحقيقات فلسفية، ترجمة وتقديم وتعليق د. عبد الرزاق بنور، بيروت مركز دراسات الوحدة العربية، ط ٢٠٠٧/١، ص ٣٤٩.

(٣) Voir Searle, *Les actes de Langage*, p: 84-85.

• تمييزه بين مفهومين أساسيين في الفعل الكلامي: (فعل القول) و(الفعل المتضمن في القول): فالأول يوافق فيه أستاذه في بيان مفهومه^(١)، ومعناه هو الفعل اللغوي ذو المعنى المحدد في لغة من اللغات. أما الثاني فيقدم فيه مفهومًا آخر يتعلق بالقوة الإنجازية التي يُبنى بها اللفظ، كأن يكون فعل القول ظاهره الاستفهام، والقوة التي يتضمنها هي (الإنكار أو التوبيخ أو التهديد)، أو غير ذلك. ولكن هذا لا يعني كما يذكر (سيرل) أن كل فعل لغوي مؤسس على ذلك: بل لاحظ أنه قد يحدث أن يتداخل الفعلان، فيكون التلقظ بجملة ما خالها من أية قوة ضمنية: بل يكون ما تدل عليه الجملة معنى ظاهريًا صرفًا خالها من أي فعل متضمن في القول.

وتفادها للتداخل بين الفعلين: (الفعل الإحالي)، و(الفعل الإنجازي)، يقترح (سيرل) تمييزًا آخر يحدد به نمطين من الأفعال في كل جملة وهما:

١. فعل القضية أو الفعل القضيوي: وهو الجملة الدلالية الإحالية المباشرة التي تحملها الجملة، وهو مأخوذ من المعجم في العادة، وهو معادل لمفهوم (فعل القول) (الدلالة الإحالية المباشرة)، ويرمز لها (سيرل) بـ (P) التي تُرجمت بـ (ض)، وتعني (قضية).

٢. فعل القوة: ويتعلق بالطاقة المفهومية (الإنجازية) التي تتضمنها الجملة: كالإخبار والاستخبار أو الوعد أو الوعيد، وغير ذلك. وفعل القوة هو الفعل الكلامي الحقيقي، ويرمز له بالرمز (F) الذي تُرجم في العربية بـ (ق).

وعليه يرمز للمحتوى القضيوي لكل الملفوظات الإنجازية بـ $F(P)$ ، والتي تُرجمت في العربية بـ (ق ض)^(٢).

ولكي يوضح ذلك قدم الأمثلة الأربعة التالية التي تحمل محتوى قضويًا واحدًا لكنها تختلف في قوتها الإنجازية وهي:

- (جون يدخن كثيرًا).
- (هل يدخن جون كثيرًا؟)
- (دخن كثيرًا جون).

(١) وقد بين (أوسلين) أن (الفعل الكلامي) يمثل وحدة مركبة من ثلاثة عناصر فعلية مرتبطة لهما بينها، ولا يمكن فصل بعضها عن بعض. وهذه العناصر أو الأفعال هي: (فعل القول)، و(الفعل المتضمن في القول) و(الفعل الإنجازي)، و(الفعل الناتج عن القول) (الفعل التأثري).

(٢) د. مسعود صحراوي، الأفعال المتضمنة في القول بين الفكر المعاصر والتراث العربي، ص ٨٤.

- (كم إنْ جون يدخُن كثيرا!) حيث تختلف القوى الإنجازية في هذه الأقوال بين: الإخبار والاستفهام والأمر والتعجب، على الرغم من أن المحتوى القضوي واحد؛ إذ يعبر عن قضية واحدة موضوعها (جون) ومحمولها (التدخين)^(١).
- قدّم تصوّرا آخر للأفعال المنضمّة في القول (الفعل الإنجازي)، وحول فيها الاهتمام من (الفعل المتضمّن في القول) إلى (القوة المتضمّنة في القول)؛ باعتبارها الأساس الذي يقوم عليها الفعل الكلامي.
- أعاد النظر في تصنيف الفعل الإنجازي، مؤكداً أن جهود (أوستين) كانت موجهة إلى دراسة الألفاظ وليس الأفعال؛ أي دراسة لفظ الفعل، وليس الفعل متجزأ بكل ما يحمله من حركية ومادية^(٢). وقد ارتكز في ذلك على أسس منهجية مضبوطة على أساسها يختلف الفعل الإنجازي المعين عن غيره، وترتبط في عمومها بالفرض الإنجازي، واتجاه المطابقة، وشرط الإخلاص^(٣). وضبطها هو الآخر ضمن خمسة أصناف:

١. (التقريرات): والهدف أو الفرض من هذا النوع يربط بمسؤولية المتكلم (وبدرجات متفاوتة) حول حقيقة الاقتراح المعبر عنه (الغرض التقريري)، وهي نصف حقيقة الأشياء المعبر عنها، واتجاه المطابقة فيها من الكلمات إلى العالم ويتضمّن هذا الصنف معظم (أفعال الإيضاح) عند (أوستين) وكثيرا من أفعال الإحكام^(٤).
٢. (التوجهيات): ويقوم الهدف الإنجازي لهذه الأفعال على العمل الذي يتكوّن من محاولات (بدرجات متفاوتة) من جانب المتكلم لفعل شيء ما من خلال المستمع، وهي ما يسعى فيها إلى القيام بأشياء للأخرين؛ فالغرض الإنجازي هو

(١) Voir : *Les actes de Langage*, Searle, P : 60.

(٢) وقد أوضح (سارل) أن تصنيف (أوستين) يطرح سمة مأخذ بارزة، وهي بحسب أهميتها؛ هناك احتلال بين (الأفعال Verbes) و(الأفعال (الأداءات) Actes) فالأفعال ليست جميعها (أفعالا Des verbes) إنجازية، ثم الأنواع المذكورة بينها هوة واسعة، ثم هناك الكثير من الأنواع غير المتجانمة. ثم الكثير من (الأفعال Des verbes) مدمجة في نوع لا توافق المعنى العام له. وفي الأخير الأمر المهم ليس هناك أسس متناسق في الترتيب). Searle, *Sens et expression*, P51.

(٣) وهذه الشروط خارجة عن إطار المعطيات اللغوية، تتعلّق أكثر مع معطيات سياق الموقف، وقد شرح انطلاقا من الاختلافات التي قد تكون بين مختلف القوى الإنجازية، يقول: (هناك وفي رأيي اثنا عشر (Dimensions) للاختلافات الدلالية يمكن أن تجعل الأفعال الإنجازية تختلف الواحدة عن الأخرى). Voir Searle, *sens et expression étude de théorie des actes de langage*, P:40.

٤. Voir Searle, *sens et expression*, P:52-53.

محاولة المتكلم توجيه المخاطب إلى فعل شيء ما. واتجاه المطابقة فيها من (العالم إلى الكلمات *Du monde aux mots*)، وشرط الإخلاص فيها يتمثل في الإرادة أو الرغبة الصادقة، والفعل القضوي فيها هو دائماً فعل السامع شيئاً في المستقبل. والأفعال التي تدلّ على هذا الصنف هي: سأل، طلب، أمر، اعترض، استعطف، دافع، النمى، توسل، دعا، سمح، نصح، تحدى، وكثير من أفعال (القرارات *Exercitifs*) عند (أومتين) تدخل في هذا الصنف^(١). فأساسها (حمل المخاطب على القيام بفعل ما).

٣. (الالتزاميات *Promissifs*): وتضم الأفعال الكلامية التي يكون فيها الهدف الإنجازي إجبار المتكلم (وبدرجات متفاوتة أيضاً) على تبني تصرف ثابت مستقبلي، نتعهد فيها بالقيام بأشياء للآخرين^(٢).

واتجاه المطابقة في هذه الأفعال من العالم إلى الكلمات، وشرط الإخلاص هو القصد، والمحتوى القضوي فيها دائماً فعل المتكلم شيئاً في المستقبل، (وظاهر أن اتجاه المطابقة في الالتزاميات والتوجيهيات واحد؛ فهل يسوغ ذلك ضمهما في قسم واحد؟ والجواب أن ذلك غير ممكن لسببين: أحدهما أن المرجع في الالتزاميات هو المتكلم، أما في التوجيهيات فهو المخاطب. والثاني أن المتكلم في الالتزاميات لا يحاول التأثير في السامع، وفي التوجيهيات يحاول التأثير فيه)^(٣)، ومن ههنا يظهر الفرق الواضح بين الالتزاميات والتوجيهيات. ففي الأفعال الأولى يكون التركيز على المتكلم أما في الثانية فالمستهدف فيها هو السامع.

٤. (التعبيريات *Expressifs*): والغرض الإنجازي لهذا الصنف هو التعبير عن الحالة النفسية المخصوصة ضمن شرط الإخلاص، وتتعلق بحالة أشياء محدّدة في المضمون القضوي. ومن نماذج الأفعال التعبيرية نذكر: (شكر، هنأ، اعتذر، قدّم التعازي، حزن، رغب)، ففي التعبيرات نعتز عن أحاسيسنا وواقعنا. ولا وجود لأثر المطابقة بين العالم والكلمات لاقتضاء حقيقة القضية المعبر عنها فقط.

٥. (الإيقاعات *Déclarations*): والغرض منها إحداث تغيير في العالم بحيث يطابق العالم المحتوى القضوي بمجرد الإنشاء الناجح للفعل الكلامي. ويتم ذلك بالاستناد إلى مؤسسة غير لغوية بحيث نعتبر هذه المؤسسة عن الأداء

(1) Voir Searle, *Ibid*, P: 53.(2) Voir Searle, *Ibid*, P: 54.

د. محمود أحمد نحلة، أفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص ٧٨.

الناجح لذلك الفعل الكلامي إحدائاً للتغيير المطلوب، واتجاه المطابقة هو الاتجاه المزدوج؛ إذ تتميز الإيقاعيات عن غيرها من الأفعال الكلامية بأن أداءها بنجاح يكفي لتحقيق المطابقة بين القول والعالم. وأما الحالة النفسية التي تعبر عنها الإيقاعيات فهي الاعتقاد بوقوع الفعل ناجحاً والرغبة في وقوعه ناجحاً، ويتوافق الاعتقاد والرغبة مع القصد في تحقيق الغرض المتضمن في القول^(١).

• أدخل مفهوم آخر في هذه النظرية ضمّنه تلك الأفعال التي لا توحى مباشرة إلى قوتها الإنجازية سماها (الأفعال الكلامية غير المباشرة)؛ والتي ترتبط أساساً بقصد المتكلم. وقد أشار هينا إلى المشكلة التي قد تعترضنا في تحديد القوة الإنجازية غير المباشرة هي كيف يمكن للمتلفظ أن يقول شيئاً، ويريد شيئاً آخر؟^(٢) ليتضح لنا أنّ الحل يكمن في مبدأ التعاون الحوارية بين طرفي العملية التخاطبية، وما عند المخاطب من علم بجوانب الموضوع، وبما سماه أيضاً باستراتيجية الاستنتاج التي تتوافق لدى المتلقي بما تمكنه من ضبط المقصد المراد.

وهنا نشير إلى قيمة الأفعال الكلامية غير المباشرة وأهميتها في تحقيق الفعل التأثيري المنوط بها، كونها تعطي للفعل الكلامي فعالية أكثر في تحقيق القوة الإنجازية وبالخصوص لدى الأديب والمسيامي.

• ومُنع في الشروط التي اقترحها (أوستين)، والتي تقتضيها إنجازية العبارة اللغوية^(٣) وقد حاول احتواء كل ما من شأنه أن يسهم في تأطير الفعل الكلامي وتحفيز إنجازيته، وسماها (شروط الملاءمة أو الاستخدام)^(٤)، إذا تحققت في الفعل الكلامي كان ناجحاً، وقد طبّقها على التحية والاستفهام والتحذير والتهنئة والوعيد وغير ذلك.

لكن كل هذه التوضيحات التي تمت مع (سيرل) بقيت في حدود الفعل الكلامي البسيط الذي لا يتعدى حدود القول أو الجملة، ليلتفت بعده بعض العلماء إلى

(١) د. طالب هاشم طيطيان، نظرية الأفعال الكلامية، ص ٧٢.

(٢) Voir John Searle, *Sens et expression*, P: 72.

(٣) وقد خصص لها ثلاثة فصول، الأول سماه: (شروط مطابقة مقتضى الحال في الإنشاء)، أما الثاني فعنونه (الخروج عن مطابقة مقتضى الحال عدم توحّي قصد النظم)، وثالث الثالث (بالخروج عن مطابقة مقتضى الحال الشطط في صلاحية الاستعمال). أوستين، نظرية أفعال الكلام كيف يتم الأشياء بالكلام، ص ٢٢-٧١. ولاحظنا كيف أنه ما استطاع احتواء كل ما قد تقتضيه تداعيات هذه الشروط وتأثيرها في تحقيق القوة الإنجازية المطلوبة، ونعتقد أن ارتباطها بالسياق ومصلحته المتوقعة والمتجددة التي قد يجري فيه التخاطب هو السبب المباشر في ذلك.

(٤) Voir, John Searle, *Les Actes de langage*, P: 98-103

ضرورة تجاوز ذلك، وهذا من أجل احتواء الأفعال الكلامية الأكبر، وبالأخص تلك التي تكون على مستوى النص ككل، ومنهم (فان دايك) و(مانفونو) وغيرهما. وفي هذا السياق يذكر (فان دايك) أنه يمكن أن نحليل النصوص على المستوى التداولي بوصفها (تتابعات من أفعال اللسان). وتحليل (النص) من هذا المنظور يستدعي الوقوف على (السياق التداولي) الذي يُنتج فيه، كما يقتضي أيضاً تناول النص بوصفه فعلاً كلامياً أكبر انطلاقاً من سياق ما، وهنا قد تتساءل ونقول: ما هو الفعل الكلامي النصي؟ وما هي سماته؟

٢. الفعل الكلامي النصي

قبل الحديث عن ماهية (الفعل الكلامي النصي) نشير إلى أن مصطلح (الفعل الكلامي) يرتبط بـ(أوستين)، وقد حُدّد بتعريفات مختلفة، ويعود السري ذلك إلى المرجعيات المتنوعة التي انطلق منها الدارسون. فقد عرفه (مانفونو) بقوله: (والمقصود به الوحدة الصفري التي بفضلها تحقق اللغة فعلاً بعينه (أمر، طلب، تصريح، وعد...)). غايته تغيير حال المخاطبين. إنَّ المتلفظ المشارك لا يمكنه تأويل هذا الفعل إلا إذا اعترف بالطابع القصدي لفعل المتلفظ^(١).

أما (فان دايك) فقد ربطه بالحدث الذي يعني في أساسه (التغيير)^(٢). ولا تكمن طبيعته (العملية) أو (الحدثية) هذه في كونه إنجازاً أو ممارسة فيزيولوجية فقط؛ بل لأنه فضلاً عن ذلك سلوك لغوي، أو ممارسة يستطيع المتكلم تجسيدها عبر العملية التواصلية، فلا يختلف الفعل اللغوي عن باقي الأفعال غير اللغوية^(٣). يقول (فان دايك): (وما نعنيه بقولنا إننا نفعل شيئاً ما متى صغنا عبارة معينة هو أننا نقوم بإنجاز فعل اجتماعي؛ كأن نعد وعداً ما، ونطلب ونصح، وغير ذلك مما شاع وذاع أنه يطلق عليه (أفعال الكلام)، ويطلق عليه على نحو أخص (قوة فعل الكلام). ومن الواضح علاوة على ذلك أنه يوجد بون شاسع بين حال إصدار بعض الأصوات من ناحية أولى، وبين القيام بإنجاز فعل مجتمعي معقد من ناحية ثانية)^(٤). ومنه نلاحظ أن (الفعل الكلامي) لا يقف عند حدود النطق الكلامي؛ بل يتعداه إلى النمط الإنجازي الفاعلي الذي يبتغيه المتكلم من المتلقي.

ومن الضروري أن نشير إلى البنية الإنجازية العميقة للفعل الكلامي، فنحن

(١) مانفونو، المصطلحات المفتاح لتحليل الخطاب، ترجمة محمد يعقوب، ص ٧.

(٢) فان دايك، النص والسياق، ص ٢٢٨.

(٣) عبد السلام إسماعيلي علوي، التلغظ والإنجاز، www.fitrwanakd.aljabriabed.net/n58.

(٤) فان دايك، النص والسياق، ص ٢٦٢.

بتحقيقه ننصح بالإحالة على حدث ما، (أمر، وعد...)، يتم ذلك بالتعبير بالجملة في سلسلة فونيتيكية صرفية ونحوية ودلالية، لتتحقق بعد ذلك (إنجازية) الفعل الكلامي لربط العبارة اللغوية بحدث ذي غاية معينة. وفي هذا الإطار يتخذ الكلام - كما يرى (أوستين) و(سيرل) - مجرى آخر ينقله من الظواهر الصوتية التي لا أثر لها في العالم الخارجي، إلى الظواهر الفاعلة والمؤثرة في الواقع، وبهذا يبرز الوجه الآخر للغة؛ وهو الوجه (الإنشائي)، بعد أن كان الوجه (الإخباري) مهيمنًا على الدراسات الفلسفية واللسانية^(١).

وقد عرفه (أوستين) بأنه (الفعل المؤسّس من قبل متكلم يتمتع بصلاحيات معينة)^(٢)؛ وفيه تأكيد على الصلاحيات بمنظور اجتماعي باعتبار أن الفعل الإنجازي المعين لا يمكن أن يتحقق من غير أن تتوافق في المخاطب الشروط التي تمكّنه من خلق الفعالية فيه. ومنه فالفعل الكلامي هو الملفوظ المتحقق من قبل متكلم محدد في سياق معيّن، والذي لا تكون اللغة معه مجرد أداة تواصلية؛ بل فعلا اجتماعيا له سلوكا فرديا أو مؤسّساتيا.

وقد دقق أكثر (أوستين) في مصطلح (الفعل) الذي تقوم عليه هذه النظرية فقال (ونحن نتصور الفعل على أنه حدث مادي فيزيائي نقوم بإنجازه، ونعتبره متمایزا عن ضروب التواصل والتواظف في كيفية الوقوع، ومتمایزة أيضا عن آثاره ونتائجه)^(٣). ومنه نلاحظ الطبيعة العملية الإنجازية التي تطبع الفعل الكلامي، والتي تجعله يتجاوز حدود البنية اللغوية التي توقفت عندها النظرية اللسانية.

ومنه نلاحظ هذه النقلة النوعية في اللسانيات التداولية، والتي تجاوزت في دراسة الإنتاج اللغوي البنية الصوتية والنحوية والدلالية إلى البحث في الآثار الاجتماعية للإنجازية للغة، فأصبحت اللغة في ظل هذا التحول فضاء للإنجاز والممارسة والفعل؛ حيث الوعد والأمر والنهي والاستفهام والتهديد والسخرية وغيرها مما يمثل إنجازات لغوية.

أما (الفعل الكلامي النصي) فقد نوصّله انطلاقا من الدعوة الصريحة التي دعا خلالها (فان دايك) إلى ضرورة استثمار مقولات (الفعل الكلامي) في تحليل النص ضمن ما معناه (النص كفعل كلامي)^(٤). لذلك حاول أن يلفت الانتباه إلى السمات التداولية

(١) *Les actes de langage*, Searle, Paris édition Hermann, 1972, p11.

(٢) د. مسعود صحراوي. الأفعال المتضمنة في القول بين الفكر المعاصر والتراث العربي، ص ٨٢.

(٣) أوستين، نظرية أفعال الكلام. كيف ننجز الأشياء بالكلام، ص ١٣٨.

(٤) فان دايك، النص بناء ووظائفه مقدمة أولية لعلم النص، ترجمة جورج أبي صالح، مجلة العرب والفكر

الخاصة بالنصوص، وليس بالجمل فحسب^(١). ويرى في رحاب هذا المسألة أنه لا يكفي أن ندرس النصوص من جهة بنائها فحسب؛ بل يجب أن نطرقها من جهة وظيفتها أيضا، باعتبار أننا لا نبقى إلى معرفة (الأشكال) و(المحتويات) التي قد يختص بها (نص) ما فحسب؛ بل نروم أيضا معرفة الوظائف المحتملة التي يمكن أن ينجزها هذا النص بفضل الشكل والمحتوى الخاص اللذين يتمتع بهما^(٢).

٢. تحليل (النص) في رحاب نظرية الأفعال الكلامية

وهو التحليل الذي ينظر فيه رواده إلى النص ليس كمتوالية من الجمل ذات الطبيعة الدلالية؛ بل يُنظر إليه كمتوالية من الأفعال الكلامية المتعلقة بفعل كلامي كلي يقوم على إنجازة معينة. وقد نستأنس في هذه المناسبة مع (زنسيسلاف واورزنيك) الذي أشار إلى قصور نحو النص، واقتضاره على مسائل تكوين النص من غير احتواء للعلاقات التداولية التي قد تكتنفه^(٣).

ومن هنا تتبدى لنا هذه النقلة النوعية في التحليل النصي من النظرية النسقية التي تراهن على ما يُكشف عنه ضمن المستويات اللغوية المعروفة؛ الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية، إلى النظرية التداولية التي تراهن على كل ما من شأنه أن يسهم في العملية الاتصالية ككل، ويؤثر في تحقيق مقاصدها.

وفي هذا الإطار يشير محمد العيد إلى أنه قد أتاحت تداولية أفعال الكلام لتحليل الخطاب بهذا الطرح منهجية لسانية جديدة، من حيث إنها نظرت إلى الكلام الأدبي وغير الأدبي بوصفه (فعلا كلاميا) أكبر يدل عليه قصد المتكلم، ثم إنها برهنت على أن إدراك المعاني الحقيقية للمنطوقات اللغوية إنما يتحقق في سياقات الاتصال الفعلية. وقد أدّى هذا الطرح إلى فسخ المجال واسعاً للتعريف بتداولية أفعال الكلام وتكييف بعض مفاهيمها لأهداف التحليل النصي، والتي رأيتها ضرورية لاكتعمال دائرة فهم المنطوقات والنصوص المرتبطة بوظائفها وسياقاتها الحقيقية^(٤).

١- العالقي. مركز الإنماء القومي، العدد الخامس ١٩٨٩، ص ٦٩.

(١) فان ديك، النص بنائه ووظائفه مدخل أولي إلى علم النص، ضمن كتاب نظرية الأدب في القرن العشرين، ترجمة وإعداد د. محمد العمري، الدار البيضاء أفريقيا الشرق، ٢٠٠٥، ص ١١٨، ود. منذر عياشي، العلاماتية وعلم النص، المغرب المركز الثقافي العربي، ط ٤/٢٠٠٤، ص ١٧١.

(٢) فان ديك، النص بنائه ووظائفه مدخل أولي إلى علم النص، ضمن كتاب نظرية الأدب في القرن العشرين، ترجمة وإعداد د. محمد العمري، ص ٦٦.

(٣) زنسيسلاف واورزنيك، مدخل إلى علم النص مشكلات بناء النص، ترجمة د. سعيد حسن بحوري، ص ٧٤.

(٤) محمد العيد، النص والخطاب والاتصال، ص ٢٧٨.

وأكد (فان دايك) في رحاب هذا الطرح أنه من الممكن تحليل (النص) على أنه (متوالية من أفعال الكلام)، مثلما يُحلل على أنه (متوالية من الجمل)، وأنه يمكن إدخال (أبنية كبرى) تداولية لأفعال الكلام كما أدخلت أبنية كبرى لمضمون النص: بل يمكن النظر إلى النص عنده على أنه (فعل كلامي إجمالي أو (فعل لغوي كبير) من أفعال الكلام^(١).

ولشرح هذا التصور أكثر فقد قُدِّم مجموعة من الطروحات التي تبين طبيعة الفعل الكلامي النصي وتأويله وشروطه وإنجازته وتنوعه وأصنافه وعلاقاته، نركز في هذه المناسبة على ما يلي:

١. للمسياق دور كبير في تشكيل النص وتأويله بوصفه متوالية من أفعال الكلام:

ثم إنَّ (بنية النص) ضمن سياق الاتصال لا تتأثر فقط (بمعرفة الفرد أو مقاصده أو بوظائف النص في تأثيرها في مواقف أفراد آخرين وسلوكهم، فإِنَّ جماعات ومؤسسات وطبقات تتواصل أيضاً تواصلًا جماعياً أو عبر أفرادها من خلال إنتاج النص. ويبرز كذلك مكان الفرد ودوره ووظيفته في هذه الأبنية الاجتماعية من خلال سلوكه اللغوي، وقد رأينا أنَّ الفرد يجب أن يتصرف من خلال سلطة أو وظيفة محددة أيضاً لإنجاز أحداث لغوية معينة مثل القاضي أو الراهب أو المدير^(٢)). وفي كل ذلك إشارة دقيقة إلى تنوع معطيات السياقات التي يتشكل فيها الفعل الكلامي النصي، والتي تضفي عليه صبغة خاصة تسهم في تحديد إنجازته.

٢. يتكون السياق التداولي الذي يُنتج فيه النص من مجمل العوامل الاجتماعية

والنفسية التي تُحدِّد بدقة مناسبة أفعال الكلام، ومن بينها المعرفة والرغبة أو الإرادة، والأسبقيات المتبعة عند مستعملي اللغة وأحكامهم من جهة وعلاقاتهم الاجتماعية من جهة أخرى كعلاقات الصداقة أو السلطة أو غيرها ذلك^(٣). وفي إطار هذه المعطيات تتحدّد القوى الإنجازية المقصودة للنص.

والسياق بهذا الطرح هو الديناميكية أو المسرح الذي تتمظهر وتتوال من خلاله أفعال الكلام، إنَّه الاتجاه الذي تتنامى من خلاله مجرى الأحداث؛ ابتداءً من حال

(١) فان دايك، النص يتناهى ووظائفه مدخل أولي إلى علم النص، ترجمة وإعداد د. محمد العمري، ص ١٦ وسماه أيضاً (الفعل الكلامي الشامل) أو (الفعل الكلامي الكلي)، فان دايك، النص والسياق، ص ٣٦٦.

(٢) فان دايك، المصدر نفسه، ص ٢٧.

(٣) فان دايك، النص يتناهى ووظائفه مدخل أولي إلى علم النص، ترجمة محمد العمري، ضمن كتاب الرياض في نظرية الأدب مقالات ودراسات، يصدر عن مؤسسة الهامة الصحفية، ص ٨٥.

ابتدائية، ثم حالات وسطى إلى الحالة النهائية، وهذا الاتجاه هو الذي ينظم التمثل الذهني للمضامين المعبر عنها.

٣. تؤوّل متوالية الأفعال الكلامية كفعل واحد إذا صح تعيين الغرض أو الهدف الكلي العام الذي تقوم عليه^(١).

٤. يتأسس الفعل الكلامي النصي على سمات خاصة تقوم على الترابط والاتساق وتوزيع المعلومات والجمل، وترتيب متوالياتها بما يخلق ملاءمة تلك الخصائص لغاية القيام بإنجاز متواليات قوى أفعال الكلام، وهي خصائص لا تكتفي بما تقتضيه العلاقات الدلالية باعتبار أنّ (مسألة توزيع المعلومات في الخطاب ليست مسألة دلالية فقط؛ إذ في ضروب عملية إنجاز الفعل المشترك الإيقاع التواصلي يتوقف هذا الترتيب على ما نعرفه ونصدقه، وعلى اعتقاداتنا الخاصة بمعرفة شركائنا في التحاور. وكذلك وبالمثل فإنّ المعلومات المركبة هي من شأن أمانينا ومقاصد إنجاز فعلنا، وبضروب التخمين المتعلق بأولئك المخاطبين)^(٢). وفي ذلك توضيح لطبيعة الأفعال الكلامية المركبة التي قد تختلف في تأليفها بحسب تداعيات السياق سواء في تركيبها أو في تراتبيتها.

وقد بين (فان دايك) أنّ التراتبية التي تقوم عليها الأفعال الكلامية تستدعي طريقة معينة في تأليفها وترابط قضاياها، وحتى في اقتضاءاتها التعبيرية. فالعلاقات بين الأفعال القولية ليست دلالية فحسب^(٣)؛ بل هي علاقات تداولية تؤدّيها مجموعة الروابط ذات السمات المميزة، والتي تستمد فعاليتها من معطيات السياق الذي تتعالق به؛ مثل أدوات الربط العلية والاستنتاجية من مثل (من أجل ذلك، لأن، بما أن، إذ، ولغاية أن). ومنه يفرّق بين (الاستعمال الدلالي) للروابط، و(الاستعمال التداولي) لها؛ فالأول يشير إلى العلاقات بين الوقائع، أما الثاني فينصل ب تلك العلاقات التي تتم بين الأفعال الكلامية ذات صلة بالسياق الاتصالي.

كما أوضح أنّ كل صنف من الأفعال الكلامية يقتضي متواليات معينة؛ فالحكم مثبت مثلا (الإثبات والتقرير) قد يتبعه تفسير أو إضافة معنى زائد، كما ينبع الإثبات مسيحيا أو خيارا بديلا، أو قد يعقبه حكم مثبت إنكارا أو تناقضا. قد نمثّل لذلك بقول مفدي زكريا^(٤):

(١) فان دايك، النص والسياق، ص ٢٨٧.

(٢) فان دايك، المصدر نفسه، ص ٢٧٦.

(٣) فان دايك، علم النص مدخل متداخل الاختصاصات، ص ١٤٤، والنص والسياق، ص ٢٧٦.

(٤) مفدي زكريا، اللهب المقدس، ص ٥٠.

وَبِلَادُنَا يَبْدُ الْكُلَاصِ خَلَاصُهَا هَهَاتَ يُجْسِدِي مَجْلِسَ وَخَصَامَ
حيث يؤكد الشاعر في الفعل القول الأول (وَبِلَادُنَا يَبْدُ الْكُلَاصِ خَلَاصُهَا) أَنَّ بِلَادِنَا
لَا تُحَرَّرُ إِلَّا بِالرِّشَاشِ، وَيُنْكَرُ فِي الْقَوْلِ الثَّانِي (هَهَاتَ يُجْسِدِي مَجْلِسَ وَخَصَامَ) فِي صِيغة
تَهْكُمْيَّةٍ أَنَّ يَكُونُ الْخَلَاصُ مِنَ الْمُسْتَعْمَرِ بِمَجْلِسِ الْأَمْنِ؛ أَي بِالْكَلامِ. وَكُلُّ ذَلِكَ تَمُّ فِي
إِطَارِ التَّرَاتِيبيَّةِ الَّتِي اقْتَضَاهَا الْفِعْلُ الْكَلَامِيُّ النَّصِييُّ الْكَلْبِيُّ؛ وَالَّذِي يَفِيدُ أَنَّ لُغَةَ الْكَلَامِ
مَعَ الْمُسْتَعْمَرِ فِي الْحَصُولِ عَلَى الْاِسْتِقْلَالِ قَدْ تَعَطَّلَتْ. فَلَا تَجْدِي مَعَهُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَّا لُغَةَ
الْجِهَادِ؛ لِأَنَّهُ كَمَا يَقُولُ^(١):

تُكَذِّبُهُ فِي كُنِّي قَوْلِي فِعَالُهُ مَرِيضٌ يَصُوعُ الْوَهْمُ أَفْكَارُهُ الْبَهْرُ
٥. يَفْهَمُ التَّرَابِطُ الَّذِي تَفْتَضِيهِ مَتَوَالِيَةُ الْأَفْعَالِ الْكَلَامِيَّةِ عَلَى ضَرُورَةِ تَرْبِي
العلاقات بين كل فعل كلامي وما يمكن أن يتعلق به انطلاقاً من شروط
معينة؛ فكوني شاعراً بالبرد -مثلاً- هو شرط صريح لصياغة الفعل الكلامي
الأمري في نحو: (إِنَّ الطُّقْسَ بَارِدٌ هُنَا وَمِنْ فَضْلِكَ أُغْلِقُ الْبَابَ)، وَمِنْهُ قَوْلِي
مَفْدِي زَكْرِيَا فِي رِفَاقِ (أَحْمَدُ زَيَانَا) فِي الْجِهَادِ:

أَنْتُمْ يَا رِفَاقُ قَرِيانُ شَغِبَ كُنْتُمْ الْبَعَثَ فِيهِ وَالتَّجْدِيدَ
فَأَقْبَلُوهَا إِيْتَالَهُ صَنَعَ الرِّشَاشَ شَأْنُ أَوْزَانِهَا فَصَارَتْ قَصِيدَةً
وَاسْتَرِيحُوا إِلَى جِوَارِكِ رِيمِ وَاطْمَئِنُّوا فَإِنَّتَا لَنْ نَجْهَلِي
فالبيت الأول يمثل إثبات حكم لرفاق الشهيد (أحمد زيانا)، شكّل شرطاً للأفعال
الأمرية التي وردت بعد ذلك في مجمل الأقوال التي تلتها. والنتيجة التي قد نستخلصها
من هذه الأمثلة هي أَنَّ قَوَى أفعال الكلام قد تتوالى وتتسجم بحسب سُلمِ
الإنجازات التي تتعلق بها، تجسدها ههنا عبارات (اقبلوها)، ثم (استريحوا) ثم
(اطمئنوا)، ويؤكدها الرابط التداولي (الواو).

٦. من المهم بالنسبة للتداولية النصية أن تحدد الشروط التي يمكن أن تألف
من خلالها أفعال الكلام، لتكوّن متواليات معدّدة من جهة، وتوضح الكيفية
التي تتعالق فيما بينها من جهة أخرى. فأتضح ل(فان دايك) أَنَّ هَذِهِ الشُّرُوطُ
ليست مقصورة على خواص محيط الأفعال؛ كالتأثير على الأشياء، ولا على
المقاصد والأغراض، وإنما أيضاً على الخواص الأولى للأشياء والمحيط، وعلى
قدرات الفاعل واستعداداته^(٢). وتقرّر لديه أَنَّ إحدى العلاقات الأساسية إلى

(١) مفدي زكريا، المصدر نفسه، ٣١٣.

(٢) فان دايك، النص والسياق، ص ٢٢٨-٢٢٩.

تحكم متولية أفعال الكلام النصية هي (علاقة تعليل ونفسير)^(١)؛ أي كل فعل يعلّل ويعطي الأحقية لتحقيق الآخر ضمن متواليات أفعال كلامية كلية، وبالتالي النجاح الكامل للفعل الكلامي النصي.

وهذا ما نلاحظه -مثلا- في قصيدة (وتكلم الرشاش جل جلاله!!)، التي يقوم الفعل الكلامي النصي على متولية كلامية غايتها التأكيد أن حرية الجزائر أخذت بالقوة؛ ولذا لا تسترجع إلا بالقوة أيضا؛ ولذلك حاول مفدي زكريا من بداية هذه القصيدة أن يثبت جرائم فرنسا الشنيعة، والتي لم تراع فيها أية اعتبارات إنسانية، ولهذا لا يمكن أن يكون هناك سبيل للاستقلال من غير الرشاش، ومن ذلك قوله^(٢):

ودماء من... هذي التي تتفطر؟
فوق المذابح للسمما تتعطر؟
حبيل المشائق، طلقمة تتبختر؟
من كل شاهقة لظى تتعمز؟
من كل فج نقمة تنفجر
لما طغى في أرضه المستعمر؟
ذكروا الجراح فأقسموا أن يثأروا؟
فاهتزت الدنيا وضجّ النير...
بصلى بها المستعمر المتكبر

أكبأذ من... هذي التي تتفطر؟
وقلوب من... هذي التي أنفأسها
برؤوس من... تلك التي ترقى إلى
ومن الذي... عرض الجزائر شها
أجسهنم... هذي التي أهواها
أم أرض ربك زلزلت زلزالها
فغيب الجزائر ذلك... أم أحرارها
تكلم الرشاشن جل جلاله!!
النازفي مس الجنون عزيمة

فتدغمي الأفعال الكلامية لهذه القصيدة غايتها تأكيد الفعل الإنجازي الكلي الذي يقوم عليه، وهو مواصلة الجهاد بالقوة؛ لأن فعل القول الذي دام طويلا لم يأت بأية لهجة، وهذا ما ظل يؤكد عليه في مناسبات متنوعة؛ منها قوله^(٣):

إذا الجزائر بالسلاح أسنعتت
فمصيبرها بسلاحتها يتقزر

٧. من اللازم إدخال بنيات تداولية كبرى لتأويل النص للكشف عن الوظيفة الإجمالية له، ولذا يمكن أن ترتبط متولية الأفعال الكلامية المبسطة فيه بفعل كلامي كبير. ولهذا إذا كان التحليل النصي من هذا المنظور يتجه إلى الفعل الكلامي الكامل أو الأكبر للنص فليس معناه إغفال الأفعال الكلامية البسيطة التي تسهم في إنتاجه وتحقيقه، ولهذا لا يمكن التغافل عن أهميتها

(١) فان ديك، النص بلياته ووظائفه مدخل أولي إلى علم النص، ترجمة محمد العمري، ضمن كتاب الرياض في نظرية الأدب، ص ٨٦، والنص والسياق، ص ٢٧٦.

(٢) مفدي زكريا، اللهب المقدس، ص ١٣٣.

(٣) مفدي زكريا، المصدر نفسه، ص ١٣٩.

وقيمتها، غير أنّ هذا التحليل يقتضي الكشف عن هذا التعالق الذي يكون بين هذه الأفعال.

٨. يقوم النص على (أفعال كلامية مركبة)، و(أفعال كلامية جزئية بسيطة)؛ (الأفعال الكلامية المركبة) ما تركبت وتوالت فيها مجموعة من الأفعال البسيطة، ذات القصد الكلي الواحد؛ والفعل الإنجازي البسيط هو ما أتى وحقق أثرا واحدا لحال إنجاز واحدة^(١). ونتائج الأفعال البسيطة ههنا تدخلت تحت مجال فصد كلي واحد مما يحققه حصول الفعل المركب في شموليته؛ فبناء منزل ما هو فعل مركب؛ إذ يتكون من جملة أفعال، كل واحد منها يمكن أن ينجز بنجاح، أو قد يفشل، إلا أنها أفعال مقصود بها كل جزء من أجزاء تحقق الخطة أو التصميم؛ فالفعل المركب يكون ناجحا إذا تحقق تصميمه^(٢). معنى هذا أنّ بناء الفعل المركب مرهون بالتخطيط العام الذي ينهني عليه، مما يستدعي تصميميا ما وفق علاقات مضبوطة، يضمن إنجازها المقصودة. لتبقى غاية التحليل هي تركيب أفعال الكلام مع الكشف عن الفعل الإنجازي المشترك. وقد لاحظ (فان دايك) التعقيدات التي قد تظهر في ذلك^(٣).

٩. ومن المفيد ههنا إدخال (الأفعال الكلامية الإضافية المساعدة) في تنامي الفعل الإنجازية الكبرى التي يقوم عليها النص؛ و(الفعل المساعد هو كل فعل تقصده نتيجته كشرط كافٍ لنجاح فعل رئيسي (أصلي). وكل فعل مركب مما تكون بعض أجزائه أفعالا مساعدة يسمّى بالفعل المعقد. وأجزاء الأفعال المتعللة بالأفعال المركبة يجوز أيضا أن تكون شروطا لما يعقب من أفعال)^(٤).

وقد لاحظنا من خلال كل هذه المعطيات أنّ الهدف الذي يبتغيه (فان دايك) هو اقتراح كيفية معينة في الكشف عن بنية أفعال الكلام النصية، وهي قائمة في جوهرها على (التصنيف والتمييز) (الفعل الكلامي المركب، الفعل الكلامي المساعد) و(الاختزال والحذف)؛ فالأفعال الكلامية التمهيدية والمساعدة يمكن أن تختزل، كما تحذف تلك الأفعال الجزئية المكونة التي إن أخذت مجتمعة تعرف العنصر الجوهري مما تنتجه الأفعال الكلامية الشاملة، و(التصميم)؛ أي نتيجة تأويل متواليات الأفعال

(١) فان دايك، النص والسباق، ص ٢٣٩.

(٢) على آيت أوشان، السباق والنص الشعري من البنية إلى القراءة، ص ٨٧.

(٣) فان دايك، النص والسياق، ص ٢٦٢.

(٤) فان دايك، المصدر نفسه، ص ٢٤٠.

الكلامية؛ أو الفعل المشترك الإنجازي بوجه عام^(١). وكل ذلك من أجل تحديد الفعل الإنجازي الكلي الذي يقوم عليه الفعل الكلامي النصي المحدد، ولذلك اقترح هذه الطروحات من أجل تحقيق ذلك. ولكن رغم ذلك أحس بالصعوبة التي تكتنف هذا الأمر، ولذا صرح وقال: (إن التأويل التداولي الإجمالي لنص ما؛ أي تحديد الأفعال الكبرى اعتمادا على متتاليات من الأفعال اللغوية مهم في الإعداد المعرفي (البرمجة) لمتتاليات أفعال اللغة وتنفيذها وتوجيهها وتأويلها... ليس لدي لحد الآن أكثر من إستراتيجية (جمالية)^(٢).

ونعتقد أنه ليس من السهل الوفوف على الفعل الإنجازي الكلي الذي قد يقوم عليه الخطاب المعين، ومن المؤكد - في الوقت نفسه - أن الأخذ بالطروحات التي قدمها (فان دايك) بعين الاعتبار سيسهم في الكشف عن ذلك.

٤. تحليل قصيدة (وتعطلت لغة الكلام)

نحاول في هذا العنصر تحليل قصيدة (وتعطلت لغة الكلام) لمفدي زكريا بغية لكشف عن فعالية التصور السابق حول (الفعل الكلامي النصي)، وسنكشف أولا عن الفعل الإنجازي المهيمن فيها، ثم نضبط علاقاته مع بقية الأفعال الإنجازية الأخرى التي تخدمه، ونبين عن الأفعال الكلامية المساعدة، ونحدد أيضا (دور الروابط التداولية) في تحقيق (الاتساق) في بنية القصيدة، ثم نضبط السياق التداولي لقصيدة.

وبداية تعريف بالمناسبة التي أنتجت فيها هذه القصيدة، فقد نظمها الشاعر بسجن (بربروس) في فبراير (شباط) ١٩٥٧ م إثر خذلان المنظمة العربية للقضية الجزائرية في برها الثالثة عشرة، فمماق هذا الخطاب ليؤكد فيه أن الحرية تؤخذ ممن أصابته وفريغير لغة الكلام: إنها لغة الجهاد.

ومن الضروري أن نذكر عناصر السياق التواصلية ككل؛ لأنها تسهم في ضبط بنية النص؛ فالمتكلم هو الشاعر (مفدي زكريا)، والذي تكلم في بعض الأحيان على شأن الشعب الجزائري الغيور على وطنه. أما المتلقي فهو فرنسا وحلفائها في هيئة ككل، أما المناسبة فهي الرد على قرارات المنظمة الدولية التي خذلت القضية الجزائرية. ونلاحظ أن كل هذه المعطيات تساعد على تلقي النص وتحليله.

(١) فان دايك، المصدر نفسه، ص ٣١٢-٣١٨.

(٢) فان دايك، النص بنياته ووظائفه مدخل أولي إلى علم النص، ترجمة د. محمد العمري ضمن كتاب نظرية الأدب في القرن العشرين، ص ٦٨.

أ- الفعل الإنجازي الكلي للقصيدة:

تقوم مجمل الأفعال الكلامية في قصيدة مفدي زكريا على قوة إنجازية كلية؛ وهي التأكيد للاستعمار ومنه لمنظمة الأمم المتحدة أنه بعدما أن خيبت آمال الشعب الجزائري المناضل والمكافح لا مجال للكلام أو التفاوض، ولتحل محل ذلك لغة الرشاش. وقد عكست ذلك القصيدة؛ إذ هناك علاقة وطيدة بين البنية الخطية المستقيمة والبنية المتوالية للنص وبين البنية الخطية للسياق نعني بين متواليات الجمل ومتواليات إنجاز الفعل الكلامي. ولذلك كان الفعل الكلامي النصي المسطر هو (الفعل التقريري)؛ ويتضح ذلك ابتداء العتبة الأولى؛ إذ كان العنوان: (وتعطلت لغة الكلام). ونوضح ذلك أكثر من خلال الأفعال الكلامية التقريرية التي ساقها الشاعر من بداية القصيدة وهي قوله^(١):

وَجَرَى الْقِصَاصُ قَفَا يُنَاخُ مَا
وَجَرَى الْقَضَاءُ وَتَمَّتِ الْأَحْكَامُ
كُنَيْتُ فَكَانَ بَيَانَهَا الْإِهْرَامُ
مَا شَلَّتْ تُصَفِّقُ عِنْدَهَا الْأَخْلَامُ
وَضَعَتْ لِمَنْ فِي مَشْفَعَتِهِ صَمًا
رُفِعَتْ لِمَنْ فِي نَاطِرِيهِ زَكَاةُ
سُجِرَتْ لِمَنْ فِي مَنَحْرَتِهِ زَكَاةُ
عَثَبَ الْوَجْوهُ وَخَرَّتِ الْأَصْنَامُ
هَيْهَاتَ يُجْسِدِي مَجْلِسِينَ وَخَصَامًا

نَطَقَ الرُّصَاصُ قَفَا يُبَاخُ كَلَامًا!
وقضى الزمان فلا مرد لحكمه
السيف أصدق لهجة من أحرف
والنار أصدق حجة فأكتب بها
لغة القنابل في البيان فصيحة
ولوافح النيران خير لوائح
ورواح البارود مسك نوافح
والحق والرشاش إن نطقا معاً
وبلادنا يهد (الكلامي) خلاصتها

إلى نهايتها في قوله:

وَعَلَيْكَ يَا أُمَّةَ السَّلَامِ سَبًا

فَعَلَيْكَ يَا أَرْضَ الْكِرَامِ تَجَنَّةُ

وهي كلها أفعال كلامية (تقريرية) وردت في اتساق خطابي تراتبي يخدم تنامي الفعل الإنجازية الكلية التي يريد أن ينبتها الشاعر؛ وهي التأكيد على فعل الجهاد.

ولخدمة هذه القوة الإنجازية الكلية ساق مجموعة من (الأفعال الكلامية المساعدة) على تحقيق القوة الإنجازية الشاملة للقصيدة؛ منها توظيف (الالتزام) في قوله^(٢):

لا السجين، لا التنكيل، لا الإعتاق
لا الشمامخات تدغها الألف

لا النار، لا التفتيل يُنسي عزمه
لا الذارباتي، السامحات، هو اطلأ

(١) مفدي زكريا، اللهب المقدس، ص ٤٢-٥٢.

(٢) مفدي زكريا، المصدر نفسه، ص ٤٥.

لا القاصرات، العاقلات كواعبا
لا الحمامات، يطوئها مبقورة
لا، والمراضع عوّضت أئداؤها

وهي كلها أفعال إنجازية مساعدة تخدم وتؤكد دائما الفعل الإنجازي الشامل الذي تقوم عليه القصيدة، غذاها أكثر تكرار النفي الذي أعطى شحنة إضافية لتداعيات القوة الإنجازية الكلية؛ فالشاعر يأخذ على لسان الشعب الجزائري عهدا بأنه ليس هناك أي قوة ستثنيه عن غايته؛ وهي تحقيق الاستقلال، وكل ذلك قد يحدث أثرا كبيرا في المتلقي مما يجبره أكثر على الإدعان والافتناع بمطالب هذا الشعب المشروعة. وقد استعمل شاعر الثورة (التوجهيات) أيضا، خاطب فيها (جهة التحرير) من أجل حمل الثوار على المواصلة في الكفاح من أجل الشهادة أو نيل الاستقلال، وذلك في قوله:

يا جهة التحرير أنت زجاؤنا
بقي طريقي الخالدين وستطري
استنطفي الأجدات عن أجدينا
استخوي الأفلاك عن أمجادنا

ففي هذا المقطوعة أنماط تعبيرية واحدة، يمثلها الأمر في (شقي)، و(واستنطقي)، (واستخوي)، ولكنها سبقت في تفاعل نواصلي ذي غرض إنجازي محدد: من (الأنما) مخاطبة؛ وتمثل الذات الجزائرية الحاملة لرجائها، إلى (الأنم) المخاطبين، وهم ماهدو الوطن والحاملون لواء الثورة من أجل تجسيد لغة الكفاح ميدانيا، وبالتالي تحقيق النصر.

وقد قام الفعل الكلامي النصي للقصيدة على سمات خاصة أفصححت عنها أشكال رابط والاتساق وتوزيع أصناف الأفعال الإنجازية وتواليها، ندرك ذلك من خلال البنية التي انبنت مجمل الأفعال الكلامية، والتي ظلت مرتبطة بمقتضيات الفعل إنجازي الكلي؛ فالشاعر منذ البداية ساق مجموعة من (الأفعال الكلامية التقريرية) تثبت أنه قد تطق الرصاص فلا راد له بعدما أن فشلت لغة الأفلام؛ فلا التقتيل والتعذيب ولا التنكيل سيثني عزيمة الشعب الجزائري عن هدفه. ثم أورد أفعالا مهمة أخرى (توجيهية) دعا فيها جهة التحرير إلى مواصلة الكفاح فهي أمل الوطن من البيت السادس والأربعين إلى البيت التاسع والأربعين). ثم قدم (أفعالا كلامية بنية) أكد فيها للمستعمر وذئبهم بأنه قد انتفضى وقت الشلب والتهب، وحل وقت جهل بعقد الجهاد لا يعقد الندوات (من البيت الخمسين إلى البيت السابع

والستين). ثم ساق أفعالا كلامية تقريرية أخرى أكد فيها الشاعر على مدى الترابط مع الأمة العربية من جهة، وسمو الرسالة التي يحملها شهداء الثورة فكان لسان حالها، فحيا أرض الجزائر وودّع أمم السلام! (من البيت الثامن والستين إلى البيت الأخير). وهذه التراتبية التي قامت عليها الأفعال الكلامية تخدم القوة الإنجازية الشاملة للقصيدة؛ إذ جعلت كل صنف من أصناف الأفعال التي ذكرناها تسهم في الغرض الكلي الذي تقوم عليه (التقريريات)؛ (وهو حيازة المتكلم على شواهد أو أمس إلى مبررات ترجّح أو تؤيد صدق المحتوى القضوي والحالة النفسية التي تمرر عنها التقريريات هي الاعتقاد)^(١). فالشاعر من بداية القصيدة يريد أن يقّم من الشواهد والمبررات ما يثبت للمستعمر أنه لا ثقة في لغة الكلام؛ بل اللغة الأفصح والأبلغ هي لغة الكفاح. وعلى هذا الأساس ظلّ يشرح ويوضّح الحالة النفسية له، ومنه لكل الثوار الذين يشاركونه في الشعور نفسه بتوظيف أفعال كلامية مساعدة، تخدم هذه الوظيفة وتدعمها.

ومما دعم ذلك استعماله في بعض الأحيان الأفعال الكلامية القائمة على السخرية، ومن ذلك قوله^(٢):

ملكاً أُسْمِعُ لُصُوصِي كَلَامِي	كاللص يسرق المتاع وتُدعي
يا ناسٍ ليس على المريض علاج	لا تَعَجَبُوا فَالْقَوْمُ ضَاعَ صَوَابُهُمْ
وَيَطْرُقُ.. فعلى الحبوب سأل	إن أنخفناكم في القديم خبوتنا
لَمْ يَبْقَ فِي هَذِي الكُروم مُدَام	أو أسكرتكم بالمسدام كزوتنا
لَمْ يَبْقَ فَمَا لِلدخيل إدام	أو أبشمتكم في البطون زبوتنا
حقّ الزوال إذا يُقال تسعنا	فكما نزلتم راحلون... هكذا

وهي كلها أفعال تناسب القوة الإنجازية الكلية؛ إذ يريد الشاعر بلهجة ساخرة أن يثبت أنه لم يبق للاستعمار مقام، فالسطر الثاني من البيت الأول ظاهره استفهام ولكن غرضه تأكيد الدعوى التي يريد أن يثبتها شاعر الثورة؛ وهو أنه لا ثقة ولا تحكّم ولا كلام مع الاستعمار. والأمر نفسه في بقية أبيات المقطوعة فظاهاها إخبار؛ ولكن غرضها الإنجازي هو الإثبات بلهجة ساخرة أن وقت الرحيل قد حان.

ولتدعيم الفعل الكلامي النصي أيضا وتأكيد استعمل الشاعر صور المعاني المختلفة في الأفعال الكلامية (أفعال كلامية غير مباشرة). مما يفتح مجالاً جديداً

(١) طالب سيد هاشم الطلطياني، نظرية الأفعال الكلامية بين فلاسفة اللغة المعاصرين والبلاغيين العرب الكويت مطبوعات جامعة الكويت، ١٩٩٤، ص ٢٨.

(٢) مفدي زكرياء، اللهب المقدس، ٤٨-٤٩.

لحركة التقرير التي أرادها الشاعر، ولكنه ظلّ يقدّم أنماطه وفق المبتغيات المقصديّة التي بقّيت تحرّكه؛ وهو يمثّل في جوهره (عاملاً فعالاً في تعويض الواقع الفعلي من الخطاب الشعري، بحكم عدم أهلية اللغة في عمومها لنقل تفاصيل التجربة في الواقع الحقيقي الذي أفرزها)^(١).

ولنوضّح ذلك نمثّل بالاستعارات التي تكرّرت تقريباً في كل بيت من أبيات القصيدة؛ قد نستأنس بقول شاعر الثورة (نطق الرصاص) و(قضى الزمان) وقالت الأيام) و(لغة القنابل في البيان فصيحة) و(خرت الأصنام)، والنشبهات المتكررة أيضاً من مثل (وروائح البارود مسك) و(وكالصل يسترق المتاع)، وغير ذلك من الأفعال التقريرية غير المباشرة، التي تعطي لهذه القصيدة بعداً تأثيرياً أبلغ من التقرير المباشر.

ب. السياق التداولي للفعل الكلامي النصي؛

ونقصد بالسياق التداولي ما قضى به (فان دايك) باعتبار أنّ ضبط وظيفة (الفعل الكلامي النصي) لا تقتضي التوقف عند بنيته فحسب؛ بل لابد من توسيع هذه الدراسة لتشمل السياق الذي يتعالق به. ويضم مجمل المعطيات الاجتماعية والدينية والتاريخية والنفسية التي أسهمت في تدامي إنجازية الفعل الكلامي الكلي الذي قامت عليه القصيدة، والتي أسهمت في إنتاج الفعل القولي من جهة، وفي تحقيق قواه الإنجازية من جهة أخرى. ومن بينها المعرفة والرغبات أو الإرادة والعلاقات الاجتماعية والقيود المؤسساتية^(٢). وقد تبلورت أكثر في تعابير كثيرة ومتنوعة تعكس غنى تجربة الشاعر وإيساعها.

وفي هذا الإطار يذكر (أوستين) أننا (نستعمل الكثرة من التعابير التي يضعها غنى لغتنا بتصرفنا من أجل توجيه الانتباه إلى كثرة وغنى تجاربنا. فاللغة تستعمل هنا كلسان حال من أجل ملاحظة الوقائع الحية التي تولّف تجربتنا)^(٣). ونبرز قيمة ذلك التركيز على ما يلي:

السياق الاجتماعي؛

يسهم السياق الاجتماعي في تحديد الخصوصيات التي يمكن أن تطبع الخطاب

(١) د. نوازي سعودي أبو زيد، في تداولية الخطاب الأدبي المبادئ والإجراء، الجزائر: بيت الحكمة، ط١/٢٠٠٩، ص ٨١.

(٢) فان دايك، النص بلباته ووظائفه مدخل أولي إل علم النص، ضمن كتاب نظرية الأدب في القرن العشرين، لمحمد العمري، ص ٦٧.

(٣) عندما يكون الكلام هو الفعل، جيل يلان، ترجمة جورج كتورة، مجلة العرب والفكر العالمي، لبنان - مركز الإنماء القومي، العدد الخامس ١٩٨٩، ص ٣٧.

الأدبي، فالقصيدة لمفدي زكريا موجهة في أساسها إلى فرنسا، ومنه إلى منظمة الأمم من أجل التأكيد أن الشعب الجزائري بعد خذلانه قد تعطلت معه لغة الكلام. كما أنها موجهة إلى ثوار الجزائر من أجل استنهاض هممهم وشد عزيمتهم على المقاومة أكثر، وعليه فقد طبعت بخصوصيات اجتماعية مخصوصة قوامها الاحترام والوقار للشهداء والثوار من جهة، والاحتقار الأذراء للأعمال الإجرامية التي قامت بها فرنسا من جهة أخرى.

ولتحقيق القوة الإنجازية التي قام عليها (الفعل الكلامي النصي) ظل الشاعر يستمد من طبيعة المجتمع الجزائري بعض الاستعمالات التي تسهم في بلورة هذا الفعل، ومن ذلك عبارات (مَفْصُوصُ الجُنَاح) و(خَرِبَ الخَلْصَن) و(ثَمَام)، و(خَوَّكَ الفُضِيحَةَ) و(للدُّخِيل) و(إِدَام)؛ وهي ألفاظ وتعبير مستفاد من البيئة اللغوية الجزائرية، وهي في هذا الموقف أبلغ وأصح وأوقع من غيرها؛ لأنها أقرب إلى الأسماع، وأسهل في الأفهام.

السياق الديني

وظف الشاعر معطيات هذا السياق في بلورة الوظيفة الكلية التي ابتغاهها من إنجازية النص؛ قد نسلها ببعض المفردات والتعابير القرآنية التي وظفها مفدي زكريا والتي صبغت القصيدة بصيغة خاصة، ومن ذلك (القصاص، يوم النشور، جفني الأقدام، عنت الوجود، والأصنام، والزرع أخرج شطاه، قربانها، الذاريات، الأنصاف والأزلام، الأجدات، يسترق، أسرى)؛ وهي اقتباسات أعطت للفعل الكلامي النصي قوة وشرعية من نوع خاص لدى المتلقي، ومن ذلك قوله^(١):

وَالْحَقُّ وَالرُّشَاءُ إِنْ نَطَقَا مَعَا عَنَّتِ الْوُجُوهُ وَخَرِبَتِ الْأَصْنَافُ
فهو اقتباس من قوله تعالى: (وَعَنَّتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا)^(٢)؛ والغرض (الإنجازي) - كما يسميه (سيرل) - من ذلك هو بيان الأثر الكبير الذي قد تحققه لغة الرشاش وبالخصوص حينما تقوم على حق، ومنه كذلك قوله^(٣):

وَالزَّرْعُ أَخْرَجَ فِي الْجَزَائِرِ شَطَاهُ فَمَضَى وَهَبَ إِلَى الْخَصَادِ كِسْرَاهُ
وهو اقتباس من قوله جل جلاله: (مُعَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سُجَّدًا يَقْتَضُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي

(١) مفدي زكريا، اللهب المقدس، ص ٤٤.

(٢) طه: ١١١.

(٣) مفدي زكريا، اللهب المقدس، ص ٤٤.

وَجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوَارِثِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطَاؤَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلِظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيْفَيْضَ بِهِمُ الْكُنْفَارَ وَغَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا^(١)، يريد الشاعر أن يفخر بالرجال الذين أنتجهم الجزائر؛ فهم أكثر شدة وقوة وعظمة، ومثل الصحابة (رضوان الله عليهم) أصحاب الرسول (صلى الله عليه وسلم).

السياق النفسي

ويتعلق بمختلف التعابير والألفاظ التي يوظفها كمؤشرات تقوم بوظيفة وصف النفس الشاعرة، ولخدمة الفعل الكلامي النصي وظف الشاعر مجموعة من الأقوال التي تؤكد ردة الفعل القوية التي نتجت عن خذلان منظمة الأمم المتحدة للقضية الجزائرية، إذ أضى الثوار الجزائريون، ومنهم الشاعر، كلهم عزما وثقة وصلابة وإرادة بأنه لا جدوى من الكلام؛ بل كما يقول^(٢):

إِنَّ الصَّخَائِفَ لِلصُّفَانِحِ أَمْزَاجًا
عَرُّ الْمَكَاتِبِ فِي الْحَيَاةِ كِتَابُ
لُغَةُ الْقَنَابِلِ فِي الْبَهَائِ فَصِيحَةٌ
وَفِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ نَلْمَسُ ذَلِكَ الشُّعُورَ بِالتَّعَجُّبِ وَالْحَسْرَةِ مِنْ هَذَا الْمُسْتَعْمَرِ الَّذِي
كَالِبَ عَنِ الْجَزَائِرِ يَقُولُ^(٣):

مَا لِلْجَزَائِرِ تَرْجُفُ الدُّنْيَا لَهَا؟
مَا لِلْقِيَامَةِ فِي الْجَزَائِرِ أُرْعِدَتْ؟
وَالْكَوْنُ يُفْغَدُ حَوْلَهَا وَتَقَامُ؟
فَقَدَا لَهَا فِي الْخَافِيفِينَ غَمَامُ؟

وتخدم الأغراض الإنجازية وهنا القوة الإنجازية الكبرى التي تقوم عليها القصيدة. مما سبق يتراءى لنا من خلال المطارحة العلمية التي عقدتها حول الفعل الكلامي النصي أنه في جوهره نظرية تطويرية في التحليل وبيان طبيعة الفعل الإنجازي من الفعل الكلامي الجزئي إلى الفعل الكلامي الكلي، والذي قد يشمل النص أو الخطاب ككل. واتضح لنا أنه لا يمكن تحديد قوته الإنجازية من خلال النظرة التجزئية التي تبنى في حدود إنجازية الأفعال الكلامية الجزئية؛ بل تتعدى ذلك لترتبط بالنص برمته. كما اتضح لنا أن تحديد (إنجازية النص) لا تقف عند معالم الضوابط التركيبية والدلالية؛ بل تتسع لتشمل معطيات أخرى (تداولية) تخلق حوارية بين النص وعالمه المنتج فيه، والذي يبنى به في ذاته، باعتبار أن هذا التحليل يتجاوز الوصف الشكلي

(١) الفتح: ٢٩.

(٢) مفدي زكريا، اللهب المقدس، ٤٣-٤٤.

(٣) مفدي زكريا، اللهب المقدس، ص ٤٤.

القائم على التجزئة من غير ربط كل ذلك بالإنجازية الكلية للقصيدة، ومن غير استحضار للمعطيات السياقية المتنوعة التي لها دور كبير في ضبط مقاصد المتكلم وغايات النص المنجز.

ثم إن أي نص لا بد أن يقوم على فعل كلامي شامل تدعّمه أفعال مساعدة على تحقيق قوته الإنجازية المنوطة به، وهذا ما لاحظناه على قصيدة مضدي زكريا (وتعملت لغة الكلام)، والتي أراد من خلالها أن يثبت أن القول أضحى غير مجدي، لذلك ساق لخدمة الفعل الكلامي المسيطر مجموعة من الأفعال الكلامية المساعدة على تأكيد القوة الإنجازية المقصودة وهي أخذ الحرية بالقوة.

وقد لاحظنا أيضاً أن دينامية الفعل الكلامي النصي لا ترتبط بالنص كمتواليات لغوية فحسب؛ بل تشكل المعطيات السياقية المتنوعة التي يبنى بها أهم مشكلات القوة الإنجازية فيه .

المصادر والمراجع

- أوسنين، نظرية أفعال الكلام العامة، كيف تتجزأ الأسماء بالكلام، ترجمة عبد القادر قبنيني، المغرب أفريقيا الشرق، ط ٢٠٠٨/٢.
- إدريس مروحان، الأمر والنهي في نظرية الأفعال الكلامية، أطروحة لنيل الدراسات العليا إشراف د. عبد الوهاب التازي، المغرب جامعة فاس، ١٩٨٨.
- جون ليونز، اللغة والمعنى والسياق، ترجمة عباس صادق الوهاب، العراق دار الشؤون الثقافية العامة للطباعة والنشر، ط ١٩٨٧/١.
- زتسيملاف واورزنيالك، مدخل إلى علم لغة النص مشكلات بناء النص، ترجمة سعيد حسن بحيري، القاهرة مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، ط ٢٠٠٣/١.
- صلاح إسماعيل عبد الحق، التحليل اللغوي عند فلاسفة أوكسفورد، بيروت دار التنوير للطباعة والنشر، ط ١٩٩٣/١.
- صابر حباشة، التداويلية والحجاج مداخل ونصوص، دمشق صفحات للدراسات والنشر، ط ٢٠٠٨/١.
- طالب سيد هانم الطبطبائي، نظرية الأفعال الكلامية بين فلاسفة اللغة المعاصرين والبلاغيين العرب، الكويت مطبوعات جامعة الكويت، ١٩٩٤.
- علي آيت أوشان، السياق والنص الشعري من البنية إلى القراءة، الدار البيضاء دار الثقافة (د.ت).
- فان ديك، النص بنياته ووظائفه مدخل أولي إلى علم النص، ضمن كتاب نظرية الأدب في القرن العشرين، ترجمة وإعداد د. محمد العمري، الدار البيضاء أفريقيا الشرق، ٢٠٠٥.
- فان دايك، النص والسياق استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، ترجمة عبد القادر قبنيني، الدار البيضاء أفريقيا الشرق، ٢٠٠٠.
- فان دايك، النص بنياته ووظائفه مدخل أولي إلى علم النص، ترجمة محمد العمري، ضمن كتاب الرياض في نظرية الأدب مقالات ودراسات، يصدر عن مؤسسة الإمامة الصحفية.
- فان دايك، علم النص مدخل متداخل الاختصاصات، ترجمة وتعليق د. سعيد حسن بحيري، القاهرة دار القاهرة، ط ٢٠٠٥/٢.
- فرانسواز أرمينكو، المقاربة التداويلية، ترجمة سعيد علوش، مركز الإنماء القومي (د.ت).

- لودفيك فيتغنشتاين، تحقيقات فلسفية، ترجمة وتقديم وتعليق د. عبد الرزاق بنور، بيروت مركز دراسات الوحدة العربية، ط١/٢٠٠٢.
- دومينيك مانفاتو، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، ترجمة د. محمد يجهان، الجزائر منشورات الاختلاف، ط١/٢٠٠٥.
- محمد العبد، النص والخطاب والاتصال، القاهرة الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، ط١/٢٠٠٥.
- محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، الإسكندرية دار المعرفة الجامعية، ٢٠٠٢ م.
- مسعود صحراوي، الأفعال المتضمنة في القول بين الفكر المعاصر والتراث العربي، رسالة دكتوراه، جامعة باتنة، إشراف الدكتور عبد الله العشي، جامعة باتنة، ٢٠٠٣.
- مفدي زكريا، اللهب المقدس، الجزائر موفم للنشر والتوزيع، ط٤/٢٠٠٠ م.
- منذر عياشي، العلاماتية وعلم النص، المغرب المركز الثقافي العربي، ط١/٢٠٠٤.
- نوارى سعودي أبو زيد، في تداولية الخطاب الأدبي المبادئ والإجراء، الجزائر بيت الحكمة، ط١/٢٠٠٩ م.
- **المصادر والمراجع الأجنبية:**
 - *John Austin, Quand dire c'est faire, traduction Gilles Lane, Paris édition du seuil, 1970.*
 - *Charaudeau et Maingueneau, Dictionnaire d'analyse du discours, Paris édition du seuil, 2002.*
 - *John searle, Les actes de langage essai de philosophie, du langage, paris, hermann, 1972.*
 - *Searle, Sens et expression études de théorie des actes de langage, Paris les éditions de minuit, 1982.*
- **المقالات في المجلات والأونلاين**
 - جويل بلان عندما يكون الكلام هو الفعل، ترجمة جورج كتورة، مجلة العرب والفكر العالمي، لبنان مركز الإنماء القومي، العدد الخامس ١٩٨٩.
 - فان ديك، النص بناء ووظائفه مقدمة أولية لعلم النص، ترجمة جورج أبي صالح، مجلة العرب والفكر العالمي، مركز الإنماء القومي، العدد الخامس ١٩٨٩.
 - عبد السلام إسماعيلي علوي التلغظ والإنجاز
www.fikrwanakd.aljubriabed.net/n58

نطق الرصاص فما يُباح كلام!
 وقضى الزمان فلا مرد لحكمه
 وسعت فرنسا للقيامه وانطوى
 والغابضون على البسيطة أفصحوا
 وتعلم المستعمرون شعوبها
 هم حرروا الميثاق، هلاً حرروا
 ما إن تقام لما يُسطر حرمة
 المسيف أصدق لهجة من أحرف
 والنار أصدق حجة فأكتب بها
 أن الصخائف للمصقايح أمرها
 من المكاتب في الحياة كتائب
 همز المحافل في الزمان جعافل
 لغة القذابل في البيان فصحة
 الوافح الديبران خير لوائح
 زواج البارود مسك نوافح
 الحوق والرشاش إن نطقاً معاً
 ما للجزائر تزجف الدنبا لها؟
 ما للقيافية في الجزائر أزعدهت؟
 تمجباوا فالدهر مسجل دورة
 البرزخ أخرج في الجزائر شطأه
 شعب شق إلى الغلود طريقة
 نارهنا حرباً لأجل بقائه
 النار، لا التقتيل يُثمي عزمه
 الذارباتي، الماحقات، هو اطلأ
 القاصرات، الغافلات كواعبا
 الحمامات، بطونها مبقورة
 والمراضع عوّضت أئداؤها

وجرى القصاص فما يُتاح ملام
 وجرى القضياء وتمت الأحكام
 يوم النشور وجفت الأقاليم
 والكون باح وقالت الأيام
 أن التحكم في الشعوب حرام!
 أمما تُسام حجارة وتسام؟؟
 أو يعضد القلب الرفيغ حسام
 كتبت فكان بياتها الإيهام
 ما شئت تُضغق عندنا الأعلام
 والجنز خرب والكلام كلام
 زحفت كأن جنودها الأعلام
 رفعت على وحدتها الأعلام
 وضعت لمن في منمعه صمام
 زفقت لمن في ناظره زكام
 سُجرت لمن في منخرنه زكام
 عنت الوجوه وخربت الأضنام!
 والكون يُفقد حولها وتقام؟
 فغدا لها في الخافقين غمام؟
 ما للخطوب على الشعوب دوام
 فقضت وقبت إلى الخصاص كرام
 فوق الجماجم والخميس لها
 قربانها الأرواح والأنسام
 لا السجن، لا التكيل، لا الإعدام
 لا الشامخات تدجها الألفام
 ديمت قداستها، وقض ختام
 ذبحت أجتتها وفك جزام
 بغم المسدس، والرصاص فطام

والأم يهتك عرضها وفحولتها
يا للفضاعة من وحوش جوع
وضعت فرنسا في النذالة بدعة
يا لعنة الأجيال! أنت شهادة
والعدل زور والسلام خرافة
فلتكتب الأعلام سفر هنايتكم
ولتشهد الأكيوان أقدس ثورة
يا ثورة التحرير أنت رسالة
لك في الجزائر حرمة قدسية
الشعب أنت ضمير و صوابه
ليس الجهاد زعامة وندبة
ذاق الخناق على دعاة هزيمة
وتناثرت تلك الهياكل وانطوت
ولقد بهزت العالمين وطا طأت
وتقمصت فيك الجزائر وانبرى
يحدوهم للنصر (مجلس ثورة)
وحباهم طول الجهاد حصافة
وأنالهم صدق الضمير كرامة
يا جبهة التحرير أنت زجاؤنا
شقي طريق الخالدين ومسطري
وأمسئططي الأخذات عن أجدونا
وأمسئطجوي الأفلاك عن أمجادنا
زعمت فرنسا في المحافل ضلة
كاللص يسرق المتاع وتدعي
لا تفجؤوا فالقوم ضباع صوابهم
من يسرق الأخرار في كبد السما
يا معشر المستعمرين ترصوا
إن أتخمتكم في القديم حبوبنا

حول الفضيحة شاخصون قيام
تسمو على أخلافها الأنعام
لم تروها الأعصار وهي ظلام
أن التمدن للشروع لثبات
لغة تحلل باسمها الأنام
للعالمين وننطق الأفلاك
للحق حارث دونها الأقبام
أزلية إعجازها الإلهام
ويكل قلب في الوجوه هبل
والجيش أنت دماغه العلام
إن الجهاد شجاعة ونظر
زنت بهم في الثورة الأقدام
وتهاوت الأنصاب والأبن
يا ثورة التحرير دونك هي
شيخ يحارب في الوغى وغيا
أركانها صبرهم الألام
وزكت بهم في المحنة الأعبام
وسما بهم في الطامحين من
وعلى يدك إلى المصير زقنا
بدم الشهادة قالدماء هبل
قمهد لنا في الخالدين عبل
تدخض كذايا تدعيه طلف
ملك الجزائر والجنون غم
ملكاً أيسمغ للصوم كلال
يا ناس ليس على المريض قيام
يسرق شعوباً واللصوص ليل
ودعوا المطامع فالسحاب جه
وتبطرتم. فعلى الحبوب منهم

أَوْ أَسْكَرْتَكُمْ بِالْمَسْدَامِ كُرُومُنَا
 أَوْ أَنْشَمْتَكُمْ فِي الْبُطُونِ رُبُوثُنَا
 فَكَمَا نَزَلْتُمْ رَاحِلُونَ... هَكَذَا
 فَتَعْلَمُ الْأَقْطَابُ أَنَّا لِلْفِدَا
 السَّرْمَطُ فِي أَرْضِ الْجَزَائِرِ خَالِصٌ
 إِنْ تَنَكَّرَ الْحَقُّ الْمَصْرَاحُ سِيَّاسَةً
 فَلْنَا عَلَى عِبَثِ السِّيَّاسَةِ ثَوْرَةً
 مِمَّ حِرَاوُنَا فَوَارَةً بِنَضْبَارِنَا
 أَرْزَاقِنَا وَقَفًّا عَلَى أَبْنَانِنَا
 وَحَقُوقِنَا اعْتَرَفُوا بِهَا أَنْكَرُوا
 فَبَلَدُنَا بِنَيْدِ الْكُلَاصِ خَلَاصُهَا
 وَجِهَادُنَا مَا كَانَ قَطُّ لِنَدْوَةٍ
 يَا أُمَّةَ الْعَرَبِ الْكِرَامِ كِرَامَةٌ
 فِي كُلِّ أَرْضٍ لِلْعَرَبِيَّةِ عِنْدُنَا
 إِنْ صَبَّاحَ فِي أَرْضِ الْجَزَائِرِ صَبَّاحٌ
 فِي الْمَغْرِبِ الْعَرَبِيِّ عَرَفُ نَابِضٌ
 لِرَّالْعَرَبِيَّةِ فِي حَمَى اسْتِقْلَالِنَا
 لِنَدِي تَحِيَّةُ شَاعِرٍ يَسْمُو بِهِ
 سَالَةَ صَبَّاحِ الشَّهِيدِ بِيَانَتَهَا
 نَرَى بِهَا مِنْ بَرْتَرُوسِ خَيَالِهِ
 لَمْسَ بِهَا فِي اللَّيْلِ يَعْرِفُ لِحَمَّهَا
 بِقَلْبٍ بِالْأَنْبَاتِ بِقَطْعِ بَحْرَهَا
 يَا أَرْضَ الْكِرَامِ تَجِيَّةُ

لَمْ يَبْقَ فِي هَذِي الْكُورِومِ مُدَامٌ
 لَمْ يَبْقَ فِيهَا لِلْسِدْخِيلِ إِدَامٌ!!
 حَقُّ الزَّوَالِ إِذَا يُقَالُ تَسْقَامٌ!
 تُرْنَا وَأَنْ الْاِنْعِتَاقُ لِرَّزَامٌ
 وَالسَّنْقَطُ فِي أَرْضِ الْجَزَائِرِ خَامٌ!
 فِيهَا تَوَزَعُ فِي الْخَفَاءِ سِهَامٌ!
 وَلْنَا لِرَّالطَّامِعِينَ سِهَامٌ!
 فِيهَا مِنْزَالُ عِنْدُنَا وَخِيَامٌ
 لِمَ يَعْطِيهَا لِسَوَاهِمِ الْقِسَامِ
 فَطَرِيقُنَا لِبَلُوغِهَا إِرْغَامٌ
 فَهَاتِ يُجْدِي مَجْلِسُ وَخِصَامِ
 بِصِوَاهِهَا تَتَحَكَّمُ الْأَرْقَامِ
 لَكَ فِي الْجَزَائِرِ خُرْمَةٌ وَذِمَامِ
 رَحِمٌ نَشَابِكُ عِنْدُهَا الْأَرْحَامِ
 لِيُثْنَهُ مِحْرُورٌ وَأَدْرِكْتَهُ شَامِ
 بِذِكْمِهِ فِي حَرْبِ الْخَلَاصِ ضِرَامِ
 أَيْطَلِبُ مَقْصُودَ الْجَنَاحِ حَمَامِ؟
 فِي دَوْلَةِ الْأَدَبِ الرَّفِيعِ نِظَامِ
 وَذِكْمِهَا فِي الْخَالِدِينَ عَصَامِ
 وَقَفَّتْ بِهِ لِيَجْمَعُكُمْ الْأَحْلَامِ
 وَقَفَّ السَّلَامُ وَالرَّفَاقُ نِيَامِ
 دِقَاتُ الْاَوْزَانِ وَالْاِنْفِصَامِ
 وَعَلَيْكَ يَا أُمَّةَ الْمُلَامِ سَلَامِ

الطيب المقدس، ص ٥٢-٤٢.

الأبعاد التداولية عند الخطيب القزويني

التقديم والتأخير في كتاب الإيضاح نموذجاً

أ. م. د. هناء محمود شهاب*

❖ مدخل

❖ البلاغة والتداولية

تناول الباحثون حديثاً العلاقة بين البلاغة والاتصال منطلقين من أن البلاغة إبلاغ، بحسب المعنى اللغوي للفظ، الذي هو فرع على معنى الإبلاغ أو التواصل الذي هو موضوع من موضوعات علم الاتصال، فصارت البلاغة شعبة خاصة بفن التواصل^(١).

إن عملية التواصل (بين المرسل والمتلقي التي حرصت البلاغة على إبرازها قد وجدت طريقها إلى نظرية الاتصال، ومن ثم إلى التداولية التي عنيت بالسياقات المختلفة، وأطراف الموقف التواصلي عناية كبيرة)^(٢).

ويلاحظ أن طرفي الاتصال - المتكلم والمخاطب - أكثر عناصر المقام تحكماً وحضوراً، المبدع كونه مصدر التراكيب، والمتلقي من خلال قيامه بعملية الفهم والمعرفة. وتأتي بين هذين الطرفين الرسالة بشقها الإبداعي والإخباري فضلاً عن الحال التي يكون عليها المتكلم والمخاطب في أثناء أداء الخطاب.

وكان للبلاغيين والنقاد العرب اهتمام خاص بطرفي العملية البلاغية، بل إن تمامهم بالمخاطب يكاد يغطي على أي اهتمام بجانب المتكلم، إذ إن البلاغة مراعاة لتنضى الحال، والحال عندهم هي حال المخاطب لا المتكلم، لأنه ليس من المنتصور أولاً وديناً أن يتناول هؤلاء المنظرون القرآن من جهة مصدره، لذا اتجهت مباحثهم إلى جهة المتلقي ومحاولة ربط الأسلوب بطروقه الاجتماعية أو الثقافية أو الدينية^(٣) وتلك

البحث مقبول للنشر في مجلة التربية والعلم لجامعة الموصل

كلية التربية - جامعة الموصل

تحو منظور تداولي لدراسة البلاغة العربية مشروع لربط البلاغة بالاتصال. د. خليفة يوحد، جامعة سطيف، الجزائر، ندوة الدراسات البلاغية، الواقع والمأمول، ١٤٢٩هـ، ص ٧١٤؛ والمصطلح البلاغي القديم في ضوء البلاغة الحديثة، تمام حسان، مجلة فصول، مج ٧، ع ٤٣ و ٤٤، أبريل - سبتمبر، ١٩٨٧م: ٨٧.

علم لغة النص المفاهيم والانجازات، سعيد حسن بحري، ٢٢.

البلاغة والأسلوبية، محمد عبد المطلب: ١٧٥.

هي سمة اللسانيات التداولية الحديثة (Pragmatics)، إذ إن من أهم مجالاتها الاهتمام بالمتلقي، والاعتداد بكل العناصر الفاعلة في الإبداع^(١)، فالنُرس التداولي (يُعي بأثر التفاعل التخاطبي في موقف الخطاب ويستتبع هذا التفاعل دراسة كل المعطيات اللغوية والخطابية المتعلقة بالتلفظ وبخاصة المضامين والمدلولات التي يولدها الاستعمال في السياق)^(٢).

إن قنوات الالتقاء بين البلاغة والتداولية عميقة وذلك لأن كليهما (تعتمدان على اللغة كأداة لممارسة الفعل على المتلقي على أساس إن النص اللغوي في جملته إنما هو نص في موقف) فكل رسالة لها قصدها وموقفها وظروف تلقيها^(٣).

ويرى أحد أصحاب النظرية أن (البلاغة تداولية في صميمها إذ إنها ممارسة الاتصال بين المتكلم والسامع بحيث يحلان إشكالية علاقتهما مستخدمين وسائل محددة للتأثير على بعضهما)^(٤).

فالتداولية تقوم على الاهتمام بكشف الدوافع النفسية للمتكلمين وردود أفعال المتلقين، أي أنها لا تدرس الكلام من حيث هو رسالة بين المتكلم والمتلقي فقط، بل تدرسه بوصفه نتاج ثقافة عصر معين يشتمل على سمات مميزة للشخص المرسل وسمات مميزة للشخص المتلقي وهو يخضع لزمن إنتاجه وزمن تلقيه كما يخضع لمكان إنتاجه وتلقيه أيضاً^(٥).

إن مفهوم التداولية هذا يغطي بطريقة منهجية منظمة، المساحة التي كان يشهد لها في البلاغة العربية بعبارة (مقتضى الحال) وهي التي أنتجت المفولة الشهيرة لك في مقام مقال^(٦).

(١) نحو منظور تداولي لدراسة البلاغة العربية مشروع الربط البلاغة بالاتصال: ٧٦٦.

(٢) البراهمانية وعلم التراكيب بالاستناد إلى أمثلة عربية، عثمان بن طالب، سلسلة اللسانيات، جامعة التونسية، المطبعة العصرية، تونس، ١٩٨٦م: ١٢٥.

(٣) علم لغة النص: ٢٣-٢٤: بلاغة الخطاب وعلم النص، صلاح فضل: ٩٨.

(٤) بلاغة الخطاب وعلم النص: ٩٧-٩٨، علم لغة النص: ٢٣.

(٥) البلاغة والنقد، المصطلح والنشأة والتجديد، محمد كريم الكوازي: ٢٧٩.

(٦) بلاغة الخطاب وعلم النص: ٣٦.

❖ الأبعاد التداوئية عند الخطيب القزويني

من مظاهر العبقريّة عند العلماء القدامى أنهم لم يفهموا من اللغة أنها منظومة من القواعد المجردة حسب، وإنما فهموا منها أيضاً أنها لفظ معين يؤديه متكلم معين إلى مخاطب معين في مقام معين لأداء غرض تواصلية (بلاغي معين لذلك جعلوا من أهداف دراستهم البلاغية والنحوية إفادة المخاطب معنى الخطاب وإيصال رسالة بلاغية إليه^(١).

إن الدرس التداولي في التراث اللغوي العربي كان متحركاً تحرك البحث النحوي والبلاغي وارتبط بهما ارتباطاً وثيقاً وكان جزءاً لا يتجزأ من المنظومة الفكرية سواء في راستها للغة ورصد خصائصها أم البحث في أسباب الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم بطريقة نظمه، ومن ثم ارتبطت التداوئية بالدرس النحوي والبلاغي في التراث العربي بداية من سيبويه ومروراً بعبد القاهر الجرجاني والسكاكي والاستراباذي والخطيب القزويني^(٢).

فكتاب الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني (ت ٧٢٣٩هـ) الذي يعد خلاصة لسبقه من البحث البلاغي، يحتوي على الكثير من القضايا التي تتعلق بما بشرت به التداوئية الحديثة، إذ يلخص القزويني في بداية كتابه قول عبد القاهر الجرجاني في آلال الإعجاز معنوناً له (بنتبيه) مشيراً إلى أهمية مشاركة الأطراف الأساسية للعملية التواصلية وهما المتكلم والسماع بقوله: (أعلم أنه لا يصادف القول في هذا الباب وقفاً من السامع، ولا يجد لديه قبولا، حتى يكون من أهل الذوق والمعرفة، وحتى يكون ممن تحدثه نفسه بأن لما نومن إليه من الحسن أصلاً، فيختلف الحال عليه عند تأمل الكلام، فيجد الأريحية تارة ويعرى منها قارة أخرى، وإذا أعجبته تعجب، وإذا نته لموضع المزية انتبه)^(٣).

فهذا التنبيه القزويني بالاهتمام بمنتج الخطاب وبأثر التفاعل التخاطبي والمعرفة المشتركة بينهما أي الدلالة والفهم هي العناصر الأساسية في التحليل التداولي من أجل تتواصل عملية التبادل الفكري والشعوري بين قطبي الخطاب.

لذا حاول البحث استكشاف جهود القزويني ودرامته للتغييرات التي تجري في

١. التداوئية عند العلماء العرب، د. محمود صحراري، ١٧٤: التداوئية الهندسة والمفهوم، مزيد عبيد، مجلة الأملام، ع ٢٠٠٨، ٥: ٣٩.
٢. مسانبات الخطاب وأنساق الثقافة، د. عبد الفتاح أحمد يوسف، ٢٢.
٣. الإيضاح: ٢٧.

العلاقات السياقية ضمن إجراء التغيير الرتبي الذي يطلق عليه بلاغياً بأسلوب التقديم والتأخير، وبيان الوظائف الدلالية التي تؤديها التغييرات الرتبية عن النمط المؤلف ضمن المكونات النحوية في ضوء التداولية، وذلك بعرض النصوص التي ذكرها القزويني وتعليقاته عليها وتحليلاته لها لاستخلاص قنوات التشابه والتلاقي بين دراسة القزويني البلاغية في القرن الثامن الهجري وبين الدراسة التداولية المعاصرة.

❖ التقديم والتأخير

بعد التقديم والتأخير مُتغيراً أسلوبياً في اللغة لأنه انزياح سياقي لغرضي يتطلبه المقام ليصبح معلماً متميزاً للشعرية^(١) فهو (تبادل في المواقع، تترك الكلمة مكانها في المقدمة لتحل محلها كلمة أخرى لتؤدي غرضاً بلاغياً ما كانت لتؤديه لو انها بقيت في مكانها الذي حكمت به قاعدة الانضباط اللغوي)^(٢)

ان العلاقة السياقية بين المُفردات الموسومة بالرتبة عند اللغويين المحدثين هي التي تعني ظاهرة التقديم والتأخير عند القدماء، وهذا التحويل في الرتبة أولاها المحدثون عناية كبيرة لما لها من الأثر البليغ في توجيه الناتج الدلالي للخطاب. يقول محمد عبد المطلب: (ان سياقات التقديم تدور على اعتبارات يعود بعضها إلى المبدع وحركته الذهنية ويعود بعضها إلى المتلقي واحتياجاته الدلالية ويخلص بعضها الثالث للصياغة ذاتها)^(٣). وهذه العلاقة الايجابية القوية بين المتكلم والمتلقي تبرز المعطيات التداولية في الدراسة الحديثة.

وقد ركز الخطيب القزويني على هذه المعطيات في حديثه عن التقديم على نهج التأخير وأورد له أمثلة من النصوص الشعرية وحللها تحليلاً يقترب من الدراسة التداولية لأن التداولية تحدد (مناسبة الجمل والخطاب للسياقات التواصلية التي تنجز فيها)^(٤). إذ ركز على مقصدية المتكلم (*speaker's intention*) وإيصال هذا المقصدية إلى المتلقي من خلال إجراء هذه التحولات الرتبية.

لقد نهج القزويني منهجاً متميزاً في تحليل الظواهر التركيبية كظاهرة التقديم والتأخير التي هي اغراض وغايات نواصلية يسعى المتكلم الى تحقيقها، وأما بلغ التداولين المعاصرين فهي افعال كلامية يراد بها تخصيص الخطاب او الحرص على

(١) بنية اللغة الشعرية، جون كوهين، ترجمة محمد الولي ومحمد العمري: ١٨.

(٢) بلاغة الكلمة والجمله والجمل، منير سلطان: ١٢٨.

(٣) البلاغة العربية قراءة أخرى، محمد عبد المطلب: ١٢٨.

(٤) نسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، محمد خطابي: ٢٩.

(٥) التداولية عند العلماء العرب: ٢١٩.

نضمينه فائدة تواصلية معينة أو تأكيد الرسالة الإيلاجية للمخاطب أو تنبيهه أو توبيخه وهذه الأفعال الكلامية تؤدي عن طريق تركيب كالتقديم والتأخير مثلا الذي يعد ظاهرة أسلوبية^(٢٧).

سنذكر طائفة من التراكيب العدولية (التحويلية) التي عرض لها القزويني، ونقف عندها من حيث هي ظواهر تداولية مختلفة تتحدد خصائصها التركيبية ونواتجها الدلالية على وفق المقامات المنجزة فيها، وسنقسم البحث على عنوانات جانبية تبين نمط المتقدم نحويًا وما أحدثه ذلك التقديم في سياقه من تغييرات إجرائية تبعاً للمدلولات والرسائل التي يريد المتكلم إيصالها للمتلقي كما يرى القزويني.

❖ سياقات تقديم المسند إليه على المسند

ذكر القزويني سبب تقديم المسند إليه على المسند في قوله (هو يعطي الجزيل) مشيراً إلى إجراء التحويل الربحي بتقديم الضمير (هو) الذي يدل على الفاعل على الفعل (يعطي) ليناسب حال المخاطب ويقوي الحكم ويمكنه في ذهنه فيقول: (لا يفيد إلا تقوي الحكم ونقرره في ذهن السامع وتمكنه، كقولك (هو يعطي الجزيل) لا تريد أن يغيره لا يعطي الجزيل، ولا أن يعرض بإنسان، ولكن تريد أن تقرر في ذهن السامع وتحقق أنه يفعل إعطاء الجزيل)^(٢٨).

ان تقديم المسند إليه (هو) يحمل وظيفة تداولية وهي (كشف الإرادة الاستعمالية للتركيب المنجز، وهذه الإرادة شيء زائد على التركيب لأنها مرتبطة ببيان الحال الموافقة لمقتضاه)^(٢٩) ومقتضى الحال هنا هو أنك تريد ان تحقق المعنى على السامع وثبت له ان العطاء دأبه وتمكن ذلك في نفسه، لأن حال المخاطب شاك في ذلك، ويستطرد القزويني مُعضداً رأيه بتوجيه تداولي فيقول: (وسبب تقويه هو أن المبتدأ استدعي أن يستند إليه شيء، فإذا جاء بعده ما يصلح أن يستند إليه صرّفه إلى نفسه لينعقد بينهما حكم فيكتمى الحكم قوة)^(٣٠). والإسناد هو أحد أسس اكتمال العملية التواصلية في بعدها التداولي لتوقف تمام الفائدة عليه، ولحاجة المخاطب في وضعه انتظاري إعلانه مما تتوقف عليه الفائدة^(٣١).

(٢٧) الإيضاح: ٦٧.

(٢٨) التراكيب النحوية من الوجهة التداولية، عبد الحميد السيد، مجلة مؤنة للبحوث والدراسات، مج ١٦،

ع ٢٠٠١، ٦٥.

(٢٩) الإيضاح: ٦٧.

(٣٠) السند التداولي عند سيبويه، مفضل إدريس، مجلة عالم الفكر، ع ١٦، مج ٢٣، يوليو سبتمبر ٢٠٠١م:

٢٦٨.

من تحليلات القزويني يتبين حدوث مقارنة تداولية من خلال مقصدية المتكلم من خطابه وهي إيصال رسالة إلى المتلقي لتأكيد الأمر وإبراز المؤكد وزيادة تقرير المعنى في ذهنه. فقد تنبه القزويني إلى العناصر التي يركز عليها التداوليون بين المخاطب والمخاطب عبر السياق الخطابي المنسجم مع الموقف الخارجي بذكره السبب المؤدي إلى إجراء هذا التغيير في الصياغة، لينتقل الفاعل (من موضعه الأصلي إلى موضع طارئ في حركة أفقية مرتبطة مع حركة الفكر لدى المتكلم ومقصدية الدلالة في ذهنه التي يريد إيصالها إلى المتلقي من ناحية وطبيعة المقام من ناحية أخرى)^(١).

ويعرض القزويني اثر تقديم الفاعل النكرة - دون الفاعل المعرف - على الفعل مبيناً النتائج الدلالية لكلا التركيبين لأن مفتضى الحال أو الاعتبار المناسب للحال يستدعي في كل من التركيبين المختلفين بنية، ناتجاً دلالياً يوافق مساقهما ومقامهما فيقول (فإن بني على منكر أفعال ذلك تخصيص الجنس أو الواحد بالفعل، كقولك: (رجل جانبي) أي لا امرأة، أو لا رجلاً)^(٢) فالإخبار في ذلك السياق يكون إما عن الجنس أو عن العين (الذات) وهذا لا يتحقق مع الفاعل المعرف (وذلك لأن أصل النكرة أن تكون للواحد من الجنس فيقع القصد بها تارة إلى الجنس فقط، كما إذا كان المخاطب بهذا الكلام قد عرف أن قد أتاك آت، ولم يدرك جنسه: أرجل هو أو امرأة؟ أو اعتقد أنه امرأة، وتارة إلى الوحدة فقط كما إذا عرف أنه قد أتاك من هو جنس الرجال، ولم يدرك أنه رجل هو أم رجلاً أو اعتقد أنه رجلاً)^(٣).

لقد كان القزويني يحوم في تحليلاته حول العلاقة القائمة بين قطبي العملية التواصلية فضلاً عن الخطاب والمقام، فمراعاة المتكلم للمتلقى بتحديد جنس الجاني وعدده كلها أمور تؤثر في تركيب الخطاب ولا يخرج الاتجاه التداولي عن هذا الإطار، كونه يتضمن إشارات مباشرة يتمكن المتلقي من التقاطها للدخول مع المرسل في حوار متكافئ على أساس من الفهم المتبادل)^(٤).

❖ تقديم المسند إليه في سياقات الوعد والضمنان والمدح والفخر

ركز القزويني على المواقف أو السياقات التي تحتاج إلى هذا التقديم أو التغيير في الإجراء الرتبتي إذ أشار إلى سياقات الوعد والضمنان في قوله: (كقولك للرجل (أنا) أكفيك، أنا أقوم بهذا الأمر) لأن من شأن من تعده وتضمن له أن يعترضه الشك في

(١) البلاغة العربية قراءة أخرى: ٢٣٥، ٢٣٨.

(٢) الإيضاح: ٧.

(٣) م.ن.

(٤) الضمانات والدلالة (الكلمة)، منترعياشي: ٩٤.

إنجاز الوعد والوفاء بالضمان، فهو من أحوج شيء (إلى التأكيد)^(١)

أنا أكفيك

فعل + فاعل + مفعول به

جملة إخبارية تؤدي إلى التأكيد وإزالة الشك عما يساور المخاطب لأن التقديم يولد تأكيداً هو أحوج ما يكون إليه طالب الوعد أو الضمان.

وأشار القزويني إلى سياق أخريحتاج فيه المتكلم إلى التأكيد والقوة والتحقيق وهو سياق المدح والفخر فيقول (وفي المدح والافتخار لأن من شأن المدح أن يمنع المامعين من الشك فيما يمدح فيه ويبعدهم عن الشبهة وكذلك المفتخر)^(٢)

وهذا المنظور يكون التأكيد (معنى اسلوبياً) يتميز بإفادة خاصة متعلقة بمراعاة السامع وهي دفع الاحتمالية والتجاوز عن ظنه وإزالة الشك عنه، أما بلغة التداوليين المعاصرين فهو فعل كلامي مندرج ضمن صنف التقريريات *Assertif* والغرض المتضمن في القول لهذه المجموعة الكلامية عندهم هو التقرير أو بعبارة أخرى إدراج مسؤولية المتكلم عن صحة ما يتلفظ به^(٣) وهذا يكون المتكلم قد رفع الاحتمالية أو الشك عن ذهن السامع.

ويواصل القزويني إيراد الأبيات الشعرية والآيات القرآنية الكريمة مبيناً سياقات المقام ومقصدية المتكلم التي يريد تشبيه المتلقي إليها^(٤) ولا يسعنا حجم البحث أن نتناولها جميعاً بالدراسة، إلا أننا سنقف عند مثال شعري واحد في سياق الفخر ذكره القزويني مشيراً إلى المقاصد التداولية التي تصاحب التراكيب التحويلية أو العدول عن الأصل في قول الشاعر طرفة^(٥) [الرملة]:

نحسن فسي المشتاة ندعو الجفالى

لقد توسل الشاعر بأكثر من وسيلة ليفتخر بنفسه ويقومه فقدم الممسند إليه (عن) وكذلك الجار والمجرور (في المشتاة) قصد التأكيد ولفت انتباه المخاطب وإرادة تحقق فحوى الخبر بأنهم كرماء وأنهم وحدهم من يقوم بالإكرام وإطعام الطعام في الشتاء خاصة.

(١) الإيضاح: ٦٨.

(٢) الإيضاح: ٦٨.

(٣) التداولية عند العلماء العرب: ٢٠٧.

(٤) ينظر، الإيضاح: ٦٤-٧٣.

(٥) الشاعر الجاهلي الشاب طرفة بن العبد، تحقيق ودراسة لشعره وشخصيته، د. علي الجدي: ٧٩.

٦. بيرتراند رسل (١٩٧٠-) طوّر لغة رمزية وحلّل معطياتها

٧. إرفينغ غوفمان (١٩٨٢-) المحادثات اليومية وتفاعلها

وتعدّ النزاعية أو النفعية (*Pragmatism*) المعين الفلسفي الرئيس الذي انطلقت منه التداولية، ويُعدّ شارلز بيرس (١٩١٠-) مؤسس النزاعية إلى جانب وليم جيمس (١٩١٠-١٩٥٢) وجون ديوي (١٩٥٢-). والنفعية نظرية فلسفية في العمل تختزل الحقيقة في المصلحة انطلاقاً من العقلانية والتجريبية^(١).

ومن المظاهر الفلسفية لاستغالات التداولية نظرية أفعال الكلام التي تقوم على النظر إلى اللغة على أنها أداء أعمال مختلفة في آن واحد، وما القول إلا واحد منها، ويقسم أوستن الفعل الكلامي على ثلاثة أفعال فرعية^(٢):

١. فعل القول: النطق بالمفردات بناء على قواعد اللغة.

٢. الفعل المتضمن في القول: الحدث الذي يفصده المتكلم بالجملة.

٣. الفعل الناتج من القول: التأثير العملي للقول الذي يقوم به المتلقي.

وقد وضع (غرايس) انطلاقاً من معايير (كانت) (١٨٠٤-) المتعالية المستندة إلى القياس الإرسطي مفهوم التعاون في سياق المقاصد التخاطبية، الذي يقتضي أن المتكلمين متعاونون في تسهيل التخاطب، ويرى أن هذا المفهوم تحكمه مبادئ تخاطبية تواصلية هي^(٣):

مبدأ الكم: وهو أن نقول ما هو ضروري دون استطراد.

مبدأ الكيف: لا نقول ما لا نستطيع البرهنة على صدقه.

مبدأ الأملوب: الإيجاز دون الغموض والإبهام.

مبدأ المناسبة: مناسبة الكلام لسياق الحال.

ويمكن القول إن المسار الفلسفي للتداولية له رافدان:

الأول: الفلسفة التحليلية. الثاني: الفلسفة النزاعية.

إذ نهج الرافد الأول المتمثل بمعطيات (فريجه، وأوستين، وغرايس، وسيرل، وفيتغنشتاين، ورسل، وغوفمان) على إعادة الإنشكالات والموضوعات الفلسفية المتعلقة باللغة على أساس علمي، ففهم الإنسان لذاته ولعالمه يتركز في المقام الأول على اللغة، لذلك يجب تحليل المباحث اللغوية^(٤).

(١) المصدر نفسه: ٢٨.

(٢) ينظر: التداولية اليوم: ٣٠ - ٣١.

(٣) ينظر: المصدر نفسه: ٥٥ - ٥٦، والتداولية من أوستن إلى غوفمان: ٨٤.

(٤) ينظر: التداولية عند العلماء العرب، مسعود صحراوي: ٢٠ - ٢١.

أما الرافد الثاني المتمثل بمعطيات (تشارلز بيرس، ووليم جيمس، وجون ديوي، وديتشارد رورتى) فقد نهض على أن المعرفة باللغة هي فكرة، وهي خطوة تمهيدية للعمل وإحداث النتائج في العالم المحسوس، وأصبحت النتائج التي ستترتب على الفكرة برهاناً على صحتها، فقيمة الفكرة ليست في الأشكال، وإنما في الأعمال وفي التفريعات التي تنتجها^(١).

وترتبط الفكرة عند البراجماتية بالصواب والحقيقة، بشرط أن تؤدي بعض النتائج الواقعية، فإن لم نؤد ذلك فلا مكان لها في التعامل الواقعي، فالموضوع موجود إذا كان للفكرة وظيفة تؤديها، والدليل على حقيقة أي شيء إنما هو أثر هذا الشيء عمله ووظيفته^(٢).

وتتلخص معطيات البراجماتية انطلاقاً من رواها بالآتي^(٣):

بيرس: الفكرة التي تقود إلى العمل، تكون فكرة صالحة وحقيقية.
 جيمس: العمل الذي يؤدي إليه الفكرة، إنما هو البرهان القاطع على صحتها.
 ديوي: الأصل في الفكر أو العقل ليس المعرفة فالعقل ليس أداة المعرفة، إنما هو أداة الحياة.

تفسر هذه المعطيات إلى التوجه الفلسفي الذرائعي النفعي للبراجماتية بوصفها لها فلسفياً مادياً تجريبياً^(٤)، لا يؤمن بوجود المعرفة السابقة على الفكر، ولا يعترف بتحقيق الشيء وجوداً إلا إذا كان ملموساً بمعنى أنها لا تعترف بالمعرفة المتحققة خارج الجواس وشرط الأعمال كلها أن تتصل بما يحقق المصلحة أو المنفعة.

المحور الثاني: المسار النقدي

يتناول هذا المحور الحديث عن التداولية تعريفاً ومصطلحاً وتطوراً، فقد حددت التداولية على أنها توجه لساني يُعنى بأثر التفاعل التخاطبي المتعلق باللفظ في موقف الخطاب، وقيل إنها دراسة الأثار اللغوية التي تظهر من الخطاب، أو هي الدراسة التي يبنى باستعمال اللغة وتتجه لدراسة التلازم بين التعابير والسياقات المرجعية، وهناك من عرفها بوصفها ميداناً لسانياً لدراسة كل شيء إنساني في العملية التواصلية، أو هي دراسة العلاقة بين اللغة والسياق، أو هي إيجاد قوانين كلية للاستعمال اللغوي

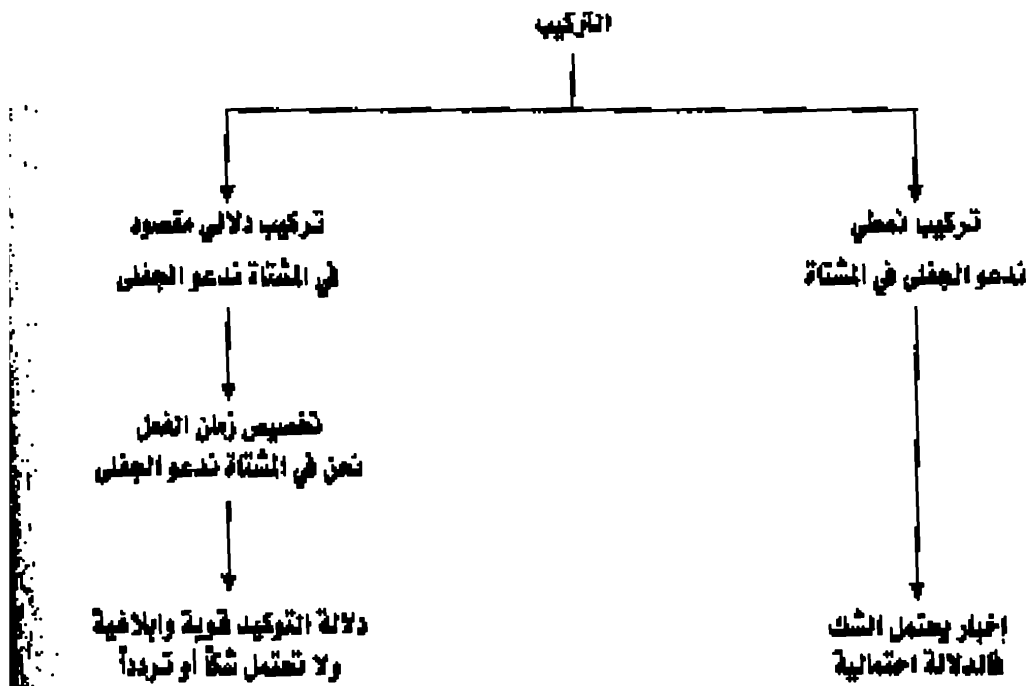
(١) ينظر: البراجماتزم أو مذهب الذرائع: ١٥٠ - ١٥١.

(٢) المصدر نفسه: ١٥٥.

(٣) المصدر نفسه: ١٥٩.

(٤) وهبمت الناقدة الفرنسية (فرانسواز أرمنكو) مخطوطاً معرفياً تفصيلاً دقيقاً بعنوان (توالدية التداولية) يوضح الأصول الفلسفية للتداولية. ينظر: المقاربة التداولية، ته: سعيد علوش: ٨٨ - ٨٩.

فانسجم الخطاب مع السياق من خلال لفت انتباه المتلقي وإيصال الرسالة له محملاً تلك الرسالة دلالتها المقصودة.



ان هذه التحليلات القزوينية لا تبتعد عن تحليلات التداوليين التي تؤكد دراسة الدور الذي يلعبه السياق في المعنى الذي يقصده المتكلم أو المقصود من العبارة المنطوقة^(١). فالتراكيب عندهم تؤخذ في موطنها وسياقاتها، لأن نجاح الخطاب تداولياً مرهون بسياقه المنجب له.

❖ تقديم المسند إليه (مثل وغير)

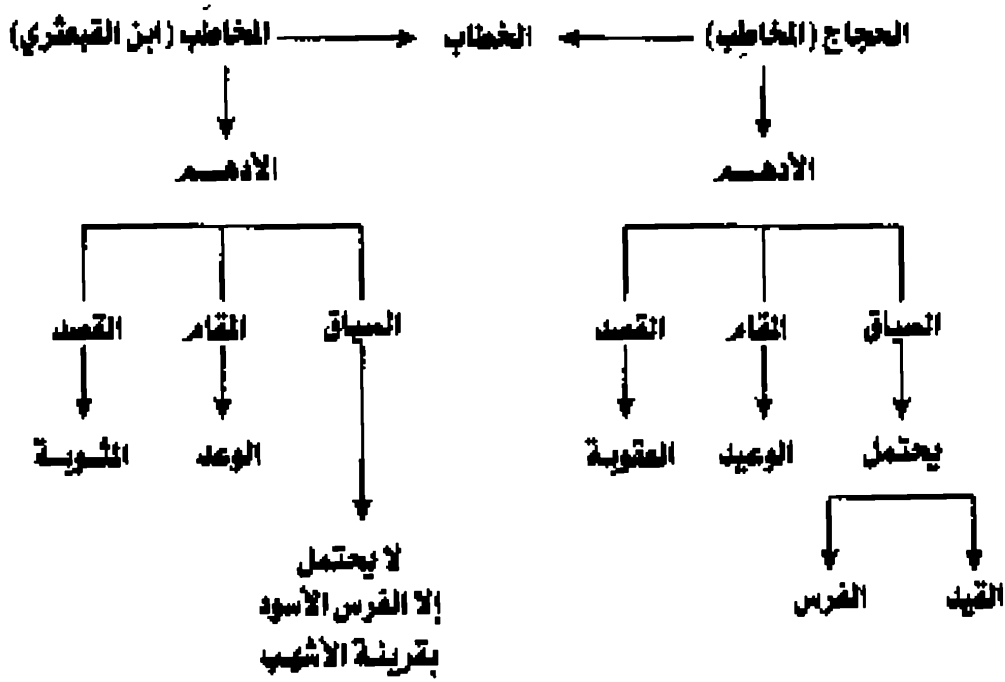
ينتقل القزويني في تحليلاته المنقارية مع التداولية مشيراً إلى كلمتي (مثل وغير) كقولنا (مثلك لا يبخل) التي ترد في سياق لا يدل على التعريض بشخص آخر، وإنما أريد بها أن من كان على هذه الصفة التي هو عليها كان من مقتضى القياس وموجب العرف أن يفعل ما ذكر، أو أن لا يفعل^(٢). ويستشهد بقول الفيعثري^٣ للحجاج لما توعدده بقوله: (لأحملنك على الأدهم) فأجاب:

(١) إشارات في علم اللغة، د. أحمد شفيق الخطيب: ١٢١.

(٢) الإيضاح: ٧٣.

• من فرسان الخوارج الذين حاربهم الحجاج بن يوسف.

(مثل الأمير حمل على الأدهم* والأشهب) (أي من كان على هذه الصفة من السلطان وبسطة اليد، ولم يقصد أن يجعل أحداً مثله)^(٦).
ويمكننا أن نوضح هذه المحاورة التداولية في المخطط الآتي:



من هذا المخطط نلاحظ أن ابن القبعثري كان أكثر حنكة في هذه المحاورة التداولية من الحجاج، لأنه اعتمد على القرائن الثلاث، السياق والمقام والقصود، وذلك ليقطع دلالة اللفظ على معناه، لأنه كان في موقف ضعف لذا احتاج إلى قوة الدلالة ووضوحها، بخلاف الحجاج الذي جعل كلامه محتملاً.
لقد عد القزويني تقديم المسند إليه (مثل) في هذا السياق والمقام المدحي من أقوى القرائن في دفع ظن السامع باحتمالية الدلالة وتجاوزها.
ويضيف بشأن (غير): (وكذلك حكم (غير) إذا سلك به هذا المملك: فقيل: غيري فعل ذلك، على معنى أني لا افعله فقط، من غير إرادة التعريض بإنسان)^(٧).

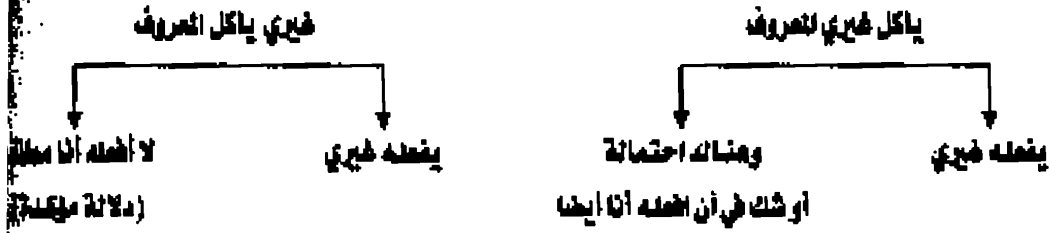
القيد لغلبة سواده على بياضه.

*قصد به الفرس الذي يغلب سواده على بياضه.

(٦) الإيضاح: ٧٣.

(٧) الإيضاح: ٧٤.

ويستشهد بقول الشاعر أبي تمام^(١) (الوافر):
وغيري يأكل المعروف سَجْتاً
ويشحب عنده بيض الأبي



فيعلق (فانه لم يرد أن يعرض بشاعر سواد، فيزعم أن الذي قُرِفَ به عند المملوك من انه هجاء، كان من ذلك الشاعر لا منه، بل أراد أن ينفي عن نفسه أن يكون ممن يكفر النعمة ويلوم لا غير)^(٢)

فالسفر في تقديمهما كما يقول القزويني لإفادة (تقوي الحكم وتقريره فالمطلوب بالكناية في مثل قولنا (مثلك لا يبخل) و (غيرك لا يجود) هو الحكم وإن الكناية ابدا من التصريح فيما قصد بها، فكان تقديمها أعون للمعنى الذي جلبنا لأجله)^(٣)
فالعناصر الأساسية في التحليل التداولي تبدو جلية للمتفحص لمعالجة القزويني للأمثلة التي ذكرها إذ يركز على عملية الاتصال بين طرفي العملية مع العناية والاهتمام بكيفية صياغة الخطاب فالمبدع لا يهدف إلى التواصل مع المتلقي قفزاً عن الصياغة، وإنما يهدف إلى توصيل الصياغة ذاتها إليه، أي أنها اتصال يجعل لهتم الصياغة الأولوية على ما عداها من عناصر الاتصال^(٤).

❖ تقديم المسند إليه في سياق النفي

وعالج القزويني في تحليلاته للنصوص الشعرية والآيات القرآنية الكريمة تغير النسق التركيبي في سياق النفي إذ يقول: (وكذا إذا كان الفعل منفيًا، كقولك (أنت تكذب) فإنه أشد لنفي الكذب عنه من قولك: لا تكذب وكذا من قولك لا تكذب أنت

(١) شرح ديوان أبي تمام، الخطيب القزويني: ٢٠٢.

(٢) الإيضاح: ٧٤.

(٣) من.

(٤) البلاغة العربية لرواة أخرى: ٢٥٩-٢٦٠.

أنه لتأكيد المحكوم عليه، لا الحكم^(١)، ففي هذه الموازنة بين ما يجب أن تقول وما لا تقول تبعاً لقصدي المتكلم بعد تداولي إذ إن المتكلم (يعذل منطوقه أو يكيّفه لمقصده في سياق اتصالي بعينه)^(٢).

وعليه قوله تعالى: (وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ) المؤمنون: ٥٩ (فإنه يفيد من التأكيد في نفي الإشراك عنهم ما لا يفيدته قولنا: والذين لا يشركون برهم ولا قولنا: الذين برهم لا يشركون)^(٣).

فحدوث عملية التفسير في البناء التركيبي بتقديم الضمير في الآية الكريمة دليل على تأكيد نفي الشرك عن هؤلاء المؤمنين وإصرارهم على التوحيد وإخلاص العمل لوجهه وحده، لا يعبدون معه غيره^(٤)، فهنتقل المعنى إلى عرض انجازي وفقاً للمقصد والسياق.

وهكذا تمتاز تحليلات القزويني بأبعاد تداولية تربط الخطاب بقائله وبمستلقيه في سياق تواصل يركز على المقصدية ومتطلبات المحيط الخارجي في موقف سياقي عبر إجراءات تحريكية على العناصر التركيبية في بنية الخطاب.

﴿ تقدير المسند إليه ليفيد التخصيص بالخبر الفعلي ﴾

ويورد القزويني قول الجرجاني في تقديم المسند إليه ليفيد تخصيصه بالخبر الفعلي أن جاء بعد حرف النفي فيقول:

قال عبد القاهر: (وقد يقدم المسند إليه ليفيد تخصيصه بالخبر الفعلي ان ولي حرف النفي، كقولك: (ما أنا قلت هذا) أي لم أقله مع أنه مقول: فألفاد نفي الفعل عنك وثبوته لغيرك، فلا تقول ذلك إلا في شيء ثبت انه مقول وأنت تريد نفي كونك قائله)^(٥).

ويمثل له بقول المتنبي^(٦) {المتقارب}:

وما أنا أسقمت جسدي به ولا أنا أضرمت في القلب نارا

ثم يحلل البيت بقوله (اذ المعنى ان هذا السقم الموجود والضرم الثابت، ما أنا

(١) الإيضاح: ٦٩.

(٢) تعديل القوة الانجازية دراسة في التحليل التداولي للخطاب، معهد العبد، ضمن كتاب التداوليات علم استعمال اللغة، إعداد وتقديم د. حافظ إسماعيل علوي: ٣٢٢.

(٣) الإيضاح: ٦٩.

(٤) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني: ٢٧٠/٢.

(٥) الإيضاح: ٦٥؛ ودلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني: ٩٧٠٩٦.

(٦) شرح ديوان أبي الطيب المتنبي، أبو العلاء المعري: ٣٢٨/٣.

جانب لهما، فالقصد إلى نفي كونه فاعلاً لهما لا إلى نفيهما^(١)، وفي هذا بعد تداولي لأنه (يربط الصيغة بالمقصد، ومفهوم القصد والمقصدية من المفاهيم التي نجدتها عنده التداوليين فالكلام عندهم قد يحصل بغير قصد فلا يدل، وأما مع القصد فيدل، ويفيد)^(٢)، ولإبراز مفهوم القزويني نوضح ذلك بالخطاطة الآتية:

الإضرام حاصل

الاسقام حاصل

ينفي عن نفسه فقط جلب الإضرام

ينفي عن نفسه فقط جلب الاسقام

هناك من جلب الإضرام

هناك من جلب الاسقام

تعريض بآخر

تعريض بآخر

ولا يكتفي القزويني بهذا القدر وإنما يقلب هذه التراكيب على أوجه مختلفة ليتحرى الدقة في اختيار البنية النظمية لتجنب حدوث تناقض أو تضارب في البنية الدلالية، فميز بين التراكيب السليمة وغيرها من التراكيب (التي تنخرم فيها شروط المطابقة بين النسبة الكلامية والنسبة الواقعية الخارجية والنسبة العقلية كما يعبر البلاغيون وكذا التداوليون)^(٣) فيقول: (ولهذا لا يقال: (ما أنا قلت، ولا أحد غيري) لمناقضة منطوق الثاني مفهوم الأول، بل يقال: (ما قلت أنا ولا أحد غيري...)^(٤).

❖ تخصيص المسند إليه بالمسند

ويؤكد إقادة تخصيص المسند إليه بالمسند راداً على من زعم انفراد غيره به أو مشاركته فيه، فيستشهد بالقول التداولي: (أنا كتبت في معنى فلان، وأنا سمعت في حاجته، وإذا أراد المتكلم أن يؤكد ذلك قلت للزاعم في الوجه الأول أنا كتبت في معنى فلان لا غيري ونحو ذلك وفي الوجه الثاني أنا كتبت في معنى فلان وحدي ونحو ذلك)^(٥) إن استخدام الوسائط المعجمية (لا غيري، وحدي) يعد مؤشراً أو علامة دالة لزيادة القوة الانجازية للخطاب، وإيصالها إلى المتلقي محملة بدلالة قطعية مؤكدة تحفيقاً لمقصد المتكلم وإزالة اللبس عن المخاطب، وتعد هذه الإضافة دعامة لسانية

(١) الإيضاح: ٦٦.

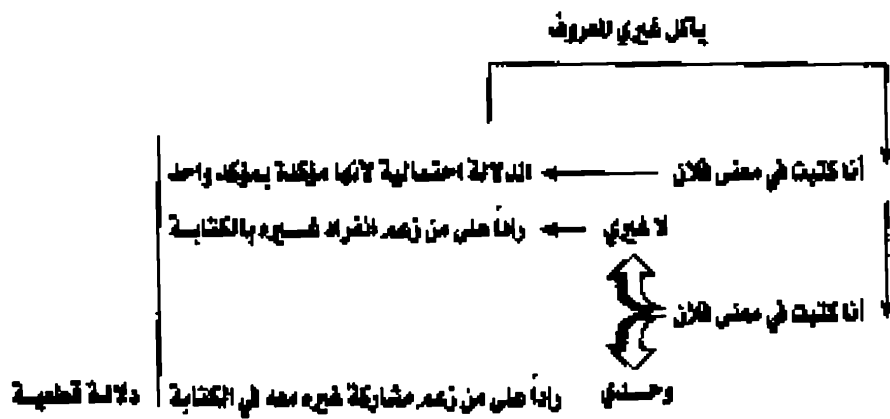
(٢) البعد التداولي عند سيبويه، مقبول إدريس، مجلة عالم الفكر، ١٤، مج ٣٣، يوليو - سبتمبر، ٢٠١١، ٢٦٨.

(٣) البعد التداولي عند سيبويه: ٢٤٦.

(٤) الإيضاح: ٦٦.

(٥) م.ن.

تداولية أساسية في النظرية الأدبية المعاصرة، وذلك ان المتكلمين لا يستعملون كلمات زائدة دون سبب^(١) (فلا قيمة لفعل كلامي خارج دائرة السياق التواصلي)^(٢).
ويبين القزويني الدوافع والأسباب التي حدثت بالمتكلم إلى توظيف مثل هذه الاستراتيجيات في الاتصال بقوله: (لأن جدوى التأكيد لما كانت إمطة شبهة خالجت قلب السامع وكانت في الأول ان الفعل صدر من غيرك، وفي الثاني انه صدر منك، بشركة الغير، أكدت وأمطت الشبهة في الأول بقولك (غيري) وفي الثاني بقولك (وحددي) لأنه محذو)^(٣)



❖ تقديم المسند إليه (كل)

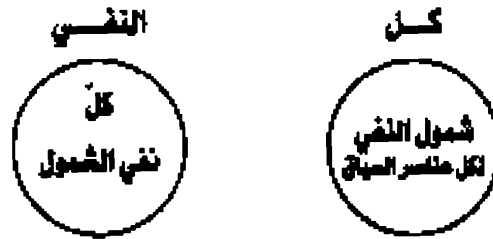
ويستطرد القزويني في بيان نظريته التحليلية والتداولية على السياق الذي يرد فيه لفظ العموم (كل) وينقل عن الجرجاني قوله: (كل إنسان لم يقم، فبقدم (كل) ليفيد في نفي القيام عن كل واحد من الناس، أما إذا أخرج اللفظ وقدم عليه لفظ كقول أبي الطيب^(٤) [البسيط]:

ما كل ما يتمنى المرء يدركه
تجري الرياح بما لا تشتهي السفن
توجه النفي إلى الشمول خاصة دون اصل الفعل، وأفاد الكلام ثبوته لبعض أو

(١) تعديل القوة الانجازية دراسة في التحليل التداولي للخطاب، محمد العبد، ضمن كتاب التداوليات علم استعمال اللغة: ٣٢٢.
(٢) سلطة الوسائل البرغماتية في فهم الخطاب وتأويله، حليقة الميساوي، ضمن كتاب التداوليات علم استعمال اللغة: ٣٦٦.
(٣) الإيضاح: ٦٧.
(٤) شرح ديوان أبي الطيب المنيني: ١١٨/٤.

تعلقه ببعض^(١).

فالاتداء بعنصر (كل) حمل وظيفة تداولية لأنه (يعد مكوناً حاملاً للمعلومة وهي الأكثر أهمية وبروزاً في الجملة)^(٢) وبناء النفي عليه يؤدي إلى هيمنة الدلالة الكلية (الشمول) على أجزاء النفي وأفراده جميعاً. أما إذ أخرج عنصر (كل) ووقع في حيز النفي فدل الحدث اللغوي على نفي دلالة العموم المفهوم من (كل) نفسه. فالسياق العام وظروف الحدث اللغوي وما يتعلق به من ظروف المخاطب والمخاطب لها الأثر الكبير في تغيير نمط هذه الدلالة وتوجيهها مع ما ينسجم ومقتضيات المقام وذلك ما يعزى به التداوليون.



◆ تقديم المسند على المسند إليه

بعد التحويل بالترتيب تحويلاً جذرياً، فالجملة التي فيها تقديم على نية التأخير من تحويل جذري بمفهوم اللسانيات الحديثة، لأن التحويل فيها وسيلة لفت انتباه السامع إلى منطلق مشترك بينهما، وهو يمثل صاحب الأولوية^(٣). وقد عالج القزويني ذلك في تقديم المسند على المسند إليه في الشاهد التداولي الذي ذكره بقوله: (وكذلك إذا قلت (يزيد مررت) أفاد أن سامعك كان يعتقد مرورك بزيد، فأزلت عنه الخطأ مخصصاً مرورك بزيد دون غيره)^(٤). إن تقديم الخبر (يزيد) الذي هو محط فائدة السامع (يحمل وظيفة تداولية داخلية تسمى المحور (Topic) وتُسند للمحدث عنه داخل الجملة)^(٥) وهي التي تمثل محور اهتمام المتكلم والمخاطب، وهذا ما أوضحه القزويني عندما بين المقاصد التداولية التي

(١) الإيضاح: ٧٦؛ وينظر دلائل الإعجاز: ٢١٥.

(٢) التراكيب النحوية من الوجبة التداولية، عبد الحميد السيد، مجلة مؤنة للبحوث والدراسات، مج ١٦

ع ٢٠١١، م: ٨١.

(٣) نظرية النحو العربي ووظيفتها لتحليل البنى اللغوية، د راجح يومعة: ١٦٠.

(٤) الإيضاح: ١١٦.

(٥) التراكيب النحوية من الوجبة التداولية، عبد الحميد السيد، مجلة مؤنة للبحوث والدراسات، مج ١٦

ع ٢٠١١، م: ٨١.

صاحبت العدول عن الأصل.

وعرض القزويني أحوال تقديم المسند على المسند إليه في موضع آخر من كتابه^(١) وذكر أربع غايات لهذا التقديم وهي:

١. لتخصيصه بالمسند إليه وأورد عدداً من الآيات الكريمة منها قوله تعالى: (لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ) الكافرون: ٦. وجملاً متداولة ك(قولك (قائم هو) لمن يقول: زيد إما قائم أو قاعد، فيرده بين القيام والقعود من غير أنه يخصصه بأحدهما).

إن هذه النماذج التي عرضها القزويني تثبت أنه أراد أن يقول إن الجملة بين المتكلم والمخاطب حية ومتداولة يراعي فيها المتكلم ما يأخذ باهتمام مخاطبه فيقدم ما يجب تقديمه ويؤخر ما يجب تأخيرها، حسب درجة الشك لدى المخاطب لأن الشك يرتبط بحالة التردد في قبول الحكم^(٢) وهي عين المعرفة المشتركة التي نص عليها التداوليون التي هي شرط من شرائط التواصل بين المتكلم والمخاطب.

٢. التنبيه على أن المسند خبر لا نعت كقوله تعالى: (فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ) البقرة: ٣٦ وهذه إشارة نحوية خالصة كما ذكر أحد الباحثين وهي تبدو بهذا المعنى غير مندرجة في الأبعاد التداولية التواصلية لكن الباحث يعود لمعالج هذه الغاية تداولياً أيضاً كونها تعتمد على كفاءة المخاطب النحوية للوصول إلى التاويل الصحيح الذي أراد صاحب الملفوظ أن يبلغه غير أنه ليزيل عنه المشكل أو الغموض التداولي لأن المخاطب يعلم أن النعت لا يسبق المنعوت، فإذا جاء قبله انتفى عنه كونه نعتاً، وبالاعتماد على منظومة التقديم والتأخير واستناداً إلى كفاءة المخاطب النحوية أمكن حدوث ذلك^(٣).

وهذا التعليل التداولي يندرج ما يبدو نحوياً خالصاً في معالجة القزويني إلى الدرس اللساني الحديث، لأنه ذو حصة دلالية داخل سور النحو لا يتجاوزها فهو خروج من نظيفة إلى نظيفة^(٤).

٣. للتفاوت ولم يذكر شاهداً على ذلك.

٤. للتشويق إلى ذكر المسند إليه تذكر منها امتشاده بقول المعري^(٥) (الواقر):

كالنار الحياصة، فمن رمادٍ أواخرها، وأولها دخان

(١) الإيضاح: ١٠٧-١٠٦.

(٢) البلاغة العربية قراءة أخرى: ٢٠٦.

(٣) مقامرة المعنى من النحو إلى التداولية، صابر العياشي: ١٣٨.

(٤) م. ن.

(٥) مقط الزند، أبو العلاء المعري: ٦٤.

إذ قدم المسند على المسند إليه ليجعل المخاطب يتشوق لمعرفة المسند إليه المتأخر وهذه غاية تداولية وهي قصد التأثير في المخاطب و (غاية التشويق ضرباً من الأهداف التي تستعملها الإستراتيجية الخطابية، لتحقيقه نجاح الغرض من التواصل)^(١) فتأخير المسند إليه أسهم في إنجاح المقصد التشويقي للبيت من أجل تحقيق أهداف تواصلية محددة.

❖ سياقات تقدير المفعول على الفعل

قد يتقدم المفعول على الفعل في تركيب مغيراً التشكيل البنائي المألوف من أجل إيصال ناتج دلالي إلى المخاطب، فأشار القزويني إلى اجرائيات التغيير تلك وضرب مثلاً لذلك في الشاهد التداولي (زيداً عرفت) إذ ذكر بأن التقديم البنائي في المفعول به لإزالة الشك عن السامع فائلاً (لمن اعتقد أنك عرفت إنساناً وأنه غير زيد، وأصاب في الأول دون الثاني)^(٢)، أي أن المعرفة حاصلة لكن الشك واقع في الشخص الذي تعرفت عليه (وتقول لتأكيدده وتقريره زيداً عرفت لا غيره)^(٣)، فـ(زيداً) إذن يحمل وظيفة تداولية (البؤرة) لأنه الأولى بالاهتمام فضلاً عن وظيفته التركيبية (مفعول به)^(٤)، وتقديم هذا العنصر يكون بمقتضى الموقف التداولي وموقف المخاطب الذي يؤثر في المخاطب ويجعله يتصرف في موقعية كل عنصر من عناصر كلامه. فإذا ن على المخاطب أن يقوم برصف مفرداته السياقية حسب تردد المخاطب والجهة التي يقع عليها ضغط التردد. ولأدراك هذه القيمة التداولية في التراكيب يستلزم إحضار الأصل لتقاس عليه ضبط درجة العدول كما وكيفاً^(٥).

عرفت زيداً ← عملت الجملة شكاً عند المتلقي في الشخص الذي تعرفت عليه.
زيداً عرفت ← أزال الاحتمال في التأويل للتأكيد على الشخص الذي تعرفت عليه.
ويستطرد القزويني في تقليب بنيات التراكيب تبعاً لحاجة المخاطب كونه متلقياً لا تخلو أحواله من انفعال نفسي أو حراك فكري لينمراستجابة منه يتمثل تلك الدلالة المرادة من الخطاب فيقول (لا يصح أن يقال (ما زيداً ضربت ولا أحداً من الناس) لتناقض دلالي الأول والثاني ولا أن تعقب الفعل المنفي بإثبات ضده كقولك: (ما زيداً

(١) مقابلة المعنى من النحوال التداولية: ١٣٩.

(٢) الإيضاح: ١١٦.

(٣) م.ن.

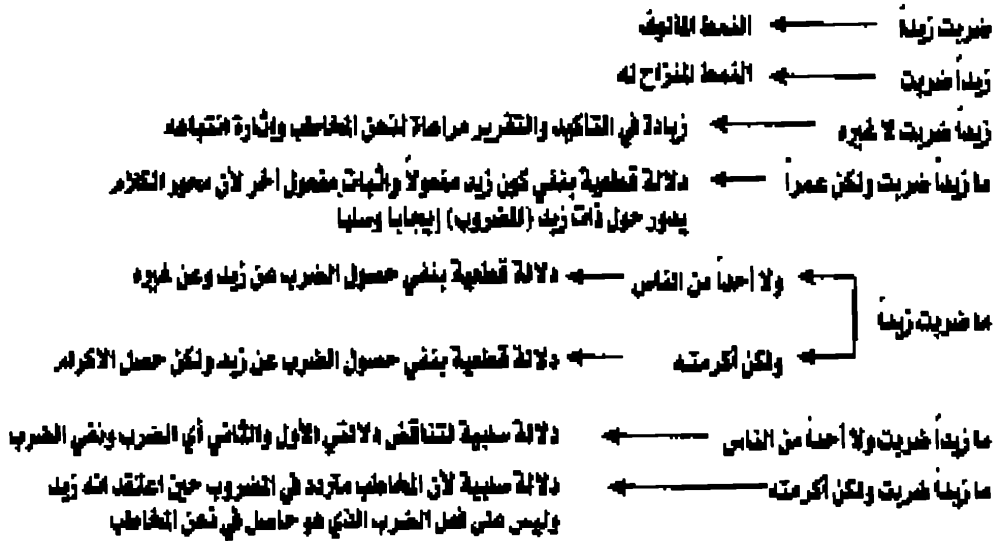
(٤) الوظائف التداولية في اللغة العربية، د. أحمد المنوكل، ١٢٦.

(٥) التراكيب النحوية من الوجهة التداولية: ٦٥.

ضربتُ ولكن أكرمته) لأن مبنى الكلام ليس على الخطأ في الضرب، فترده إلى الصواب في الإكرام، وإنما هو على الخطأ في المضروب حين اعتقد أنه زيد، فرده إلى الصواب أن نقول: ولكن عمراً^(١).

وهكذا نظر القزويني إلى التراكيب على أساس صورتها الظاهرة المنجزة في إطار من التفاعل بينها وبين مقتضيات المقام، وفي إبرازه لدور المتلقي في العملية التخاطبية - كونه أهم عناصرها - منع القزويني بعض التراكيب لما فيها من تناقض في الدلالة، وقد أطلق التداوليون على هذا الممتنع (الذي يستحيل وجوده منطقياً)^(٢) (باللحن التداولي)^(٣).

فحاجة المخاطب الفكرية أدت بالمخاطب إلى إجراء هذا التغيير في البناء الذي يبحث عن مقصدية الخطاب، وهذه هي العناصر التي يركز عليها التداوليون في معالجاتهم للخطاب.



إن هذه الموازنات بين أنماط الكلام في النماذج التي طرحها القزويني للاستشهاد بنفسج مع المواقف التداولية، فالأنماط التي تجري على القاعدة النحوية المنضبطة والأنماط المزاحة عنها اقتضاءً للحاجات والمقاصد التي يبتغيها كلا الطرفين المخاطب

(١) الإيضاح: ١١٦.

(٢) المعجم الفلسفي، صليبا جميل: ٢٥٠/٢.

(٣) البعد التداولي عند سيبويه: ٢٤٦.

والمخاطب. فوضوح المعنى ووجه قبوله فائمه على صوابه وصحته مع ما يقدمه من فائدة للمخاطب وهذا هو مبدأ المنفعة وهو أحد أسس التداولية اللسانية الحديثة لموافقته لمقام السامع وحاله وقصود المتكلم وأحوال السياق^(١).

♦ التقديم والتأخير في سياق الاستفهام

ويلاحظ التحليل التداولي والعناية بإبراز مظاهر التداول عند القزويني في تناوله لأسلوب التقديم والتأخير في سياق الاستفهام فيقول في سبب تقلبات التركيب اللغوي في سياق الاستفهام وخروجه إلى معانٍ ثانية (غير الاستفهام بحسب ما يناسب المقام ومنها التقرير فيشترط في الهمزة أن يلها المقرر به، كقولك أفعلت؟ إذا أردت أن تقرره بأن الفعل كان منه، وكذلك أنت فعلت؟ إذا أردت أن تقرره بأنه الفاعل)^(٢).

فتغير المواقع بعد همزة الاستفهام بالفعل أو الفاعل تشير إلى دينامية التواصل بين المخاطب والمخاطب في توجيه المسار الدلالي لنسيج الخطاب فهذا التحويل الريمي يتم لمقصدية بلاغية يحددها وضع المخاطب والمقام الذي قيل فيه الخطاب، ويكون تعليقه لتقديم العنصر الذي يلي الهمزة تعليلاً تداولياً لأنه قائم على المقصدية فالمتكلم (عنصر فعال في تحديد خصائص النص إذ على عاتقه تقع كلفة إخراجها على سمع يستجيب لمقتضيات الوظيفة الإسنادية والإبانية والمقام)^(٣).

ويضيف القزويني إلى معاني الاستفهام معاني أخرى كالإنكار فيقول (وإنكاراً كالتقرير يشترط أن يلي المنكر الهمزة كقوله تعالى: (أَلَمْ يَكْفُرْ بِاللَّذِينَ كَفَرُوا لَمَّا كَانُوا هُنَا وَمَا يَكْفُرُونَ إِلَّا جَهَنَّمَ كَانُوا لَهَا كَافِرِينَ) (٣٢) والتهكم نحو (قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَخْبُؤُا أَيْدِينَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ) هود: ٨٧ والتحقير والتهويل والاستبعاد، والتوبيخ والتعجب)^(٤). ويورد أمثلة قرآنية لكل غرض.

لقد حدد القزويني طبيعة الخطاب (إنكار، تقرير، تهكم، تحقير، تهويل، استبعاد، توبيخ، تعجب) بعد أداة الاستفهام التي تعبر عن القوة الانجازية^(٥) بحسب الظروف المحيطة وبحسب غرض المتكلم وقصده ثم بحسب المخاطب وهذه كلها العناصر

(١) نحو منظور تداولي لدراسة البلاغة العربية: ٢٣٧.

(٢) الإيضاح: ١٤١.

(٣) التفكير البلاغي عند العرب نصوصه وتطوره إلى القرن السادس، مشروع قراءة، حمادي صفيق: ٢٤٨.

(٤) الإيضاح: ١٤٥-١٤٦.

(٥) الوظائف التداولية في اللغة العربية: ١٢٣.

المتضافرة في إنتاج الخطاب، كما يشرحها التداوليون^(١). ويكون تعليقه تعليلاً تداولياً لأنه قائم على القصدية.

فالعنصر الذي يلي الهمزة هو الركن الذي توجه إليه عدسة الفكر لأن المتكلم عندما نقل إحدى المفردات من موقع إلى موقع آخر يكون لغاية يقنضها المقام وبهذا التحليل الذي لا يبعد عن الاتجاه التداولي يوضح القزويني أن المخاطب يستطيع التصرف في مواقع عناصر خطابه استناداً إلى الحدث الخطابي وإلى التفاعل المزدوج القائم بينه وبين المنلقي في مقام جامع بينهما.

مما سبق يتأكد لنا بطلان فكرة كون تراثنا البلاغي في رأي كثير من المعاصرين عبارة عن كتب صفراء قد آل بها التاريخ إلى سلة المهملات، وإن البلاغة فيها قد قضت نحبها. لأنها بلاغة جافة جامدة، ذلك أن معاشرتنا تلك النصوص - ولاسيما القزوينية - تثبت أنها ما زالت حية وفاعلة ومتواصلة عبر الأجيال، إذ إنها تقدم في كل جديد مكتشف مفاهيم سبق أن عرفتها ووسائل امتلاكها يمكنها من التفاعل والبقاء. بحيث تجعل من الدرس البلاغي القديم واقعاً حياً، وإن هذا التراث قد عرف قبل أكثر من ألف عام نظرية بلاغية متطورة جداً، تلك هي نظرية التواصل التي بشرت بها النظريات اللسانية الحديثة. فالنتائج التي خرج بها البحث في أسلوب واحد من أساليبها تثبت ذلك، ونذكر هنا أهم ما توصلنا إليه:

١. إن معالجة القزويني للتقديم والتأخير فيه حس تداولي، وهو ذات صلة وثيقة بالتداول اللغوي، لأنه يهتم بأركان العملية التواصلية وهي المخاطب، المخاطب، مقتضى الحال، الذي يعد أساس الدرس التداولي الحديث.
٢. يرى القزويني أن التقديم والتأخير في النظام الرتبي أي الخروج عن الانضباط النحوي في التراكيب لغاية، وهي الاهتمام بالمخاطب وبآليات تحريكه، والتأثير عليه لإزالة شك في نفسه، أو تغيير في موقفه، أو تأكيد موقف حاصل لديه، وهذا ما جاءت به نظرية الإفادة (*pertinence*) التداولية.
٣. كشف القزويني أن على المتكلم أن يحدد خصائص تراكيبه ونواتجها الدلالية وفقاً للمقامات المنجزة فيها، فنظر إلى التراكيب على أساس موافقة الكلام لمقتضى الحال، فدرس الأحوال التي تطرأ على البنية الاسنادية من أنماط تركيبية تنشأ بسبب التغييرات الرتبية، وما يصاحبها من وظائف تداولية، فالمقام والحال عنده لا يختلف عن السياق في مفهومه التداولي الحديث.
٤. حرص القزويني على قلب أوجه التراكيب ليميز بين العبارات السليمة التي تطابق الواقع والمنطوق، وبين تلك التي تنخرم بها أوجه المطابقة أو ما يطلق عليها

(١) نحو منظور تداول لدراسة البلاغة العربية: ٢٣٨.

عند التداولين باللحن التداولي. أن رصد هذه الفوضى الدلالية وتقنينها من أجل إيصال رسالة سليمة إلى المنلقي محملة بدلالاتها القصصية هي مطمح اللسانيات التداولية الحديثة.

❖ المصادر والمراجع

- الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني (ت ٧٣٩هـ)، تحقيق محمد عبد القادر الفاضلي، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، د. ط. ٢٠٠٨م.
- البرغماتية وعلم التراكيب بالامتناد الى أمثلة عربية، عثمان بن طالب، سلسلة اللسانيات، ٦٤، الجامعة التونسية، المطبعة العصرية، تونس، ١٩٨٦م.
- البعد النداولي عند سيبويه، مقبول إدريس، مجلة عالم الفكر، العدد ١، مج ٣٣، يوليو - سبتمبر ٢٠٠١م.
- بلاغة الخطاب وعلم النص، د. صلاح فضل، سلسلة عالم المعرفة، ١٩٩٢م.
- البلاغة العربية فراءة اخرى، د. محمد عبد المطلب، الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان، ط ١، ١٩٩٧م.
- بلاغة الكلمة والجملة والجميل، منير سلطان، منشأة معارف الإسكندرية، د.ت.
- البلاغة والأسلوبية، د. محمد عبد المطلب، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٤م.
- البلاغة والتقد، المصطلح والنشأة والتجديد، محمد كريم الكواز، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت - لبنان، ط ١، ٢٠٠٦م.
- بنية اللغة الشعرية، جان كوهين، ترجمة محمد الوالي ومحمد العمري، دار نوبقال للنشر، الدار البيضاء - المغرب، ط ١، ١٩٨٦م.
- النداوليات علم استعمال اللفة، إعداد وتقديم د. حافظ إسماعيل علوي، عالم الكتب الحديث، اردن - الأردن، ط ١، ٢٠١١م.
- التداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، د. مسعود صبحراوي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط ١، ٢٠٠٥م.
- التراكيب النحوية من الوجة التداولية، عبد الحميد السيد، مجلة مؤتة للبحوث والدراسات، مج ١٦، ٢٤، ٢٠٠١.
- التفكير البلاغي عند العرب، تصوصه وتطوره الى القرن السادس / مشروع قراءة، حمادي حمود، منشورات الجامعة التونسية، ١٩٨١م.
- دلائل الإعجاز، عبد الفاهر الجرجاني (٤٧١هـ)، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان ن ١٩٧٨م.
- سقط الزند، ابو العلاء المعري، دار صادر، بيروت، ١٩٦٣م.
- الشاعر الجاهلي طرفة بن العبد، تحقيق ودراسة لشعره وشخصيته، د. علي الجندي، دار الفكر العربي، د.ت.
- شرح ديوان أبي تمام، الخطيب التبريزي، قدم له ووضع هوامشه وفهارسه راجي الأسمر، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ط. ٢٠٠٧م.

- شرح ديوان أبي الطيب المتنبي، أبو العلاء المعري، تحقيق ودراسة عبد المجيد دياب، دار المعارف، مصر، ط٢، ١٩٩٢ م.
- صفة التفاسير، محمد علي الصابوني، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ط١، ٢٠٠٤ م.
- علم لغة النص / المفاهيم والاتجاهات، أ.د. سعيد حسن بحيري، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٤ م.
- قراءات في علم اللغة، د. أحمد شفيق الخطيب، دار النشر للجامعات، القاهرة، مصر، ط١، ٢٠٠٦ م.
- لسانيات الخطاب وأنماق الثقافة، د. عبد الفتاح أحمد يوسف، امدار العربية للعلوم ناشرون ومنشورات الاختلاف، ط١، ٢٠١٠ م.
- لسانيات النص، مدخل الى انسجام الخطاب، محمد خطابي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، - بيروت ط١، ١٩٩١ م.
- اللسانيات والدلالة (الكلمة)، منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، حلب، ط١، ١٩٩٦ م.
- مجلة الأعلام، العدد ٥، أيلول - تشرين الأول، ٢٠٠٨ م.
- المصطلح البلاغي القديم في ضوء البلاغة الحديثة، تمام حسان، مجلة فصول، مج ٧، ع ٣، ٤ ابريل - سبتمبر، ١٩٨٧ م.
- المعجم الفلسفي، صليبا جميل، دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٢ م
- مغامرة المعنى من النحو الى التداولية / قراءة في شروح التلخيص للخطيب القزويني، صابر الحباشة، صفحات للدراسات والنشر، الإصدار الأول، دمشق، سورية، ٢٠١١ م.
- نحو منظور تداولي لدراسة البلاغة العربية / مشروع لربط البلاغة بالاتصال، د. خليفة بوجادي، جامعة سطيف، الجزائر، ندوة الدراسات البلاغية الواقع والمأمول، ١٤٢٩ هـ
- نظرية النحو العربي ورؤيتها لتحليل البنى اللغوية، د. رابع بو محزة، عالم الكتب الحديث، اربد - الأردن، ط١، ٢٠١١ م.
- الوظائف التداولية في اللغة العربية، د. أحمد المتوكل، منشورات الجمعية المغربية للنأليف والترجمة والنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط١، ١٩٨٥ م.

الحجاج في الخطاب الشعري الحديث قصيدة... لا تصالح.. لأمل دنقل* نموذجاً

أ. م. د ورقاء يحيى قاسم العاضدي*

❖ مدخل

تكمن أهمية هذا البحث في الكيفية التي يمكن للحجاج أن يشتغل فيها داخل إطار الشعرية . وبيان علاقة هذا المصطلح بالتداولية ، وكيف أفاد الحجاج من نظرية أفعال الكلام، عبر دراسة الأفعال الإنجازية، التي تؤسس لعملية التواصل عن طريق اللغة منطلقين من فكرة (أن كل شيء عند الإنسان تواصل) على رأي فليب بلا نسيه، والخطاب الشعري المدروس هنا هو قصيدة (لا تصالح) للشاعر أمل دنقل وحجابه فيها يهدف إلى رفض الصلح مع العدو الصهيوني الذي اغتصب فلسطين وامتد اغتصابه لأراضي عربية أخرى . كما ألحق بالشعب العربي مجازر ومذابح عدة وهذه القصيدة تمثل هدف المؤلف في توصيل فكرة وقعت ضمن الأفق التداولي الذي تشكل بالاحتجاج وبني نفسه من خلال تواصل المتكلم مع المخاطب، بدواعٍ مقصودة عبر السياق العام .

يُعدُّ الحجاج (أهم أركان التداولية إلى جانب نظرية الأعمال اللفوية)^(١) وظهر اهتمام التداولية بالحجاج في السنوات الثمانين من القرن العشرين، ومن المهتمين بدراسة الحجاج العالمان أوزفالد ديكر وجان كلود انسكومبر. إذ عاد أوزفالد ديكر إلى مفهوم المواضيع لوصف أليات اللغة الحجاجية^(٢). والحجاج في ذاته بناءً تتلمسه في

* ولد أمل دنقل (محمد أمل فهيم محارب دنقل) في ٢٢ يوليو ١٩٤٠ بقرية الفلعة في محافظة قنا، خَلَفَ أمل دنقل ستة دواوين (البيكاء بين يدي زرقاء اليمامة ١٩٦٩ ببيروت، تعليق على ما حدث ١٩٧١، بيروت ومقتل القمر ١٩٧٤ بيروت، والعهد الآتي ١٩٧٥ بيروت، وأسئلة جديدة عن حرب البسوس ١٩٨٣ القاهرة، وأوراق الغرفة ٨، ١٩٨٣ القاهرة ومجموعة من القصائد المنترقة جمعت كلها فيما بعد في الأعمال الشعرية الصادر عن مكتبة مدهوني. توفي في ٢١ مايو ١٩٨٣. ينظر: أمير شعراء الرفض، أمل دنقل، مجلة آفاق عربية، (نسيم مجلي) دار الشؤون الثقافية، بغداد، ٨٤ لسنة ١٩٩٦، ٩٣.

* كلية الآداب - جامعة الموصل

(١) التداولية والحجاج مداخل ولبصوص، صابر الجياشنة، ١٥، دار صفحات للدراسات والنشر، ٢٠٠٨.

(٢) م. ن. ٦.

الخطاب من خلال مستويات ثلاثة: اللسانيات أو البلاغة أو الأسلوبية^(١) أما التداولية ففي أحد تعريفاتها (دراسة المعنى في صلته بظروف الخطاب وقد أدخل في هذه الظروف المتخاطبين ومسياق الخطاب والأهداف من الخطاب)^(٢).

وتسهم التداولية بنحو كبير في ممارسة تأويل *Interpretation* إلى حد ما، والعمل على فحص آلية اشتغال الحجاج *Argumentation* وموجهاته^(٣)، ولاسيما أن التداولية هي (دراسة للآثار اللغوية التي تظهر من الخطاب، وتتنظر في عنصر الذاتية للخطاب، ويشمل هذا التداول ضمائر الشخص ومبهمات الزمان والمكان، وينظر في الجانب الضمني والتلميحى والحجاجي للكلام)^(٤) وتتشكل العلاقة بين التداولية والحجاج من خلال عد التداولية القاسم المشترك بين أبلية الاتصال النحوية والدلالية والبلاغية، وإن الخطاب الحجاجي كما يراه التداوليون المعاصرون متميز بخصائص بنائية تواصلية (براغماتية) تجعله مختلفاً عن غيره من الخطابات السردية والحكاية والإخبارية، فضلاً عن تميزه بصوره البنائية الاستدلالية والكلامية وخضوعه لشروط القول والتلقي والمقام والرغبة في التأثير والفعل^(٥).

والتداولية *Pragmatics* ومقابلته بالعربية علم العمليات^(٦) وعدد أوسنن (نظرية الفعل الكلامي)، التي حلل فيها أفعال الكلام إلى ثلاثة أفعال: فعل القول، والفعل الكلامي، والأثر أو التأثير الكلامي، ترتبط بالحجاج تحت الأثر أو التأثير الكلامي، لأن الأفعال التحقيقية التي يندرج الحجاج تحتها، ينتظرون منها تسويغات قبل أن يمنحوا انضمامهم إلى صف الملفوظ فيها... بمعنى يتوجب على المتحدث إقناع سامعيه، والنجاح مرهون بفاعلية الحجاج المقدم^(٧).

ومن السمات المهمة التي يميز بها أي خطاب (الجوارية) والخطاب الحجاجي بشكل خاص يهتم بالتواصل الجوارية، الذي يبرز بوضوح على صعيد التواصل الفكري الذي اتضح مع (التداولية المعالية) لدى كارل أوتو أبل و(التداولية العالمية) لدى يورغن

(١) الحجاج في البلاغة المعاصرة، د محمد سالم محمد الأمين الطلبة، ١٧٦. دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط ١، ٢٠٠٨.

(٢) *Principals of Pragmatics*, p. 13.

نقل عن ومضات من التداولية في كتاب الرسالة للأمام الشافعي (ت ٢٠٤هـ)، بريخان محمد طاهر، ١٦، رسالة ماجستير مقدمة إلى جامعة صلاح الدين - أربيل ٢٠٠٥م.

(٣) التداولية محاولة لضبط النرس اللساني تجريبياً، فالج حسن، ١٥، الأعلام، ملف التداولية ١٩٩٥.

(٤) التداولية النشأة والمفهوم، مؤيد عبيد، ٣٦، الأعلام، ملف التداولية ١٩٩٥.

(٥) الحجاج والاستدلال الحجاجي، حبيب أعراب، ١٣٤، مجلة عالم الفكر عدد يوليو، ٢٠٠١ نقل عن الحجاج في البلاغة المعاصرة، ١٧٦.

(٦) الفعل الكلامي، هشام عبد الله خليفة، ١١، مكتبة ناشرون، لبنان، ط ١، ٢٠٠٧.

(٧) التداولية محاولة لضبط النرس اللساني، ٢١.

هاير ماس، إذ إن أساس الججاج في منظور بعض هذه الاتجاهات التداولية هو الجوارية وما تتطلبه من عمليات ججاجية تنوع وتباين تقنياً بتنوع وتباين أنماط التحوير ومراتب الجوارية^(١).

وهذه الدراسة تسعى إلى تحليل الخطاب الشعري بوصفه خطاباً ججاجياً (لا يرى في الججاج نمطاً من أنماط الخطاب المتعددة، بل هو ركنٌ متضمنٌ في الخطاب ذاته)^(٢) وذلك من خلال وصف الخطاب بـ(اللغة التي يسيطر عليها المتكلم في حالة استعمال، ليكون مرادفاً للكلام Parole وهو وحدة تساوي أو تفوق الجملة، مكون من متتالية تشكل رسالة ذات بداية ونهاية، وتشتغل اللغة فيه وسيلة تواصل)^(٣) وتشتغل جوليا كرستيفا في الخطاب التواصل في سياقات معرفية وتداولية وسوسيوثقافية وتاريخية^(٤).

وقد اهتمت السيميائيات التداولية (بماهية المتكلم ومصدر الكلام وفي أسبقة إنتاج الخطاب وملازمة التواصل ومقصديات الكلام والمتكلمين)^(٥).

وفي دراستنا للججاج في الخطاب الشعري الحديث لابد من الوقوف على مصطلح الججاج فالججاج لغة: الدليل والبرهان^(٦) والججاج جملة من الججاج التي يؤتى بها للبرهان على رأي أو إبطاله، أو هو طريقة تقديم الحجج والاستفادة منها^(٧). وفي الاصطلاح: هو فن الإقناع وطرائق الاستدلال الحاضر في الخطاب كما تؤكد النظرية الحديثة^(٨).

ويرتبط الججاج بالخطاب أي باللغة مستخدمة في سياق مما يعني انه ليس وقفاً على خطاب معين ولا بطرائق تنظيم للخطاب محددة^(٩).

(١) الججاج في البلاغة المعاصرة، ١٧٧.

(٢) الججاج بين المتوال والمثال، د. علي الشيعان، ٧٢، مسكلياتي للنشر، ط. ١، ٢٠٠٨.

(٣) لسانيات النص نحو منهج لتحليل الخطاب الشعري، د. احمد مداس، ١٠، عالم الكتب الحديث، الأردن، ٢٠٠٩.

(٤) انفتاح النص الروائي، د. سعيد بقطين، ٨٣، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ٢٠٠١.

(٥) الدلالات المفتوحة مقارنة سيميائية في فلسفة العلاقة، احمد يوسف، ١١٤-١١٥، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط. ٢، ٢٠٠٩.

(٦) المعجم الوسيط، ج. ١، ١٥٧، (مادة حج) مجمع اللغة العربية، القاهرة.

(٧) المعجم الفلسفي، جميل صليبا، ٤٤٦/١، دار الكتاب اللبناني، بيروت/ لبنان.

(٨) دراسات في الججاج قراءة لتبصير مختارة من الأدب العربي القديم، ٤، د. سامية الدريدي الحسيني، عالم الكتب الحديث، ٢٠٠٩.

(٩) في تحليل الخطاب السردية وجهة النظر والبعد الججاجي، محمد نجيب العمالي، ٨٩، الشركة التونسية للنشر، تونس.

أما الخطاب فهو جملة التقنيات الخطابية التي تمكن مستخدمها من إثارة الاعتقاد أو ترميغها في العقول خلال أطروحات مقدمة أو أقوال معروضة^(١).

وارتبط العجاج بالخطابة بوصفها فن الحمل على الإقناع، إذ يلجأ الخطيب لحمل مخاطبه على الإقناع إلى قوة الكلام وفعل العبارة والأداء كما يرتبط العجاج بالاستدلال والمنطق^(٢).

لكن هناك من النقاد ومنهم (بيرلمان) في كتابه (مقال في البرهان: البلاغة الجديدة)، الذي يعتمد فيه على محاولة لإعادة تأسيس البرهان أو المحاجة الاستدلالية^(٣) إذ يرى أن العجاج ليس استدلالاً تلهيياً يدور في حقل البرهان المنطقي وخارج كل اندراج للذات بل يتطلبُ أمراً آخرًا معاكساً لذلك تماماً هو وجود العلافية التفاعلية بين البات والمتقبل^(٤).

وبعد العجاج جزءاً من الدراسات التداولية كون الأخيرة تشدد على أن سلوك الأفراد إزاء الخطاب مرهونٌ بحجة صاحبه أي المتلفظ به، وأن ما يدعى (بالتفكير بالحجة) تحديداً، التفكير إذ تتأني قيمة الجملة من حجة صاحبا، من هنا يقع على محلل الخطاب أن ينظر في الشروط التي تجعل الخطاب ذا حجة أي الإبانة عن السياق الذي يجعل الخطاب مشروعاً وفعالاً من خلال المشاركين في التخاطب^(٥) ومن خلال إقناع الآخرين بمصدقية طروحاته وحمل المتلقي على القبول بها فيتحقق التواصل معه بقصدية مسبقة، وتنجلي مقولة القصدية بالخصوص في الربط بين التراكيب اللغوية ومراعاة غرض المتكلم والمقصد العام من الخطاب في إطار مفاهيم مستوف للأبعاد التداولية للظاهرة اللغوية^(٦).

والعجاج من الناحية العملية لدى التداولين (فاعلية لفظية واجتماعية للعقل ترمي إلى مضاعفة قبول وجهة نظر مخالفة في نظر السامع أو القارئ أو تقليصها وذلك من خلال تقديم جملة من الاقتراحات تستعمل في البرهنة على نقض وجهة نظر الآخر وفق حكم عقلي)^(٧) ويلزم البعد العجاجي خطابات متعددة^(٨)، والخطاب الشعري

(١) العجاج بين المنوال والمثال، ١٥.

(٢) م. ن، ١٥.

(٣) بلاغة الخطاب وعلم النص، د صلاح فضل، ٧٣، سلسلة عالم المعرفة (١٦٤) المجلس الوطني للثقافة والفنون - الكويت، ١٩٩٢م.

(٤) العجاج بين المنوال والمثال، ١٥.

(٥) المصطلحات المفاهيم لتحليل الخطاب، دومينيك مانفوتو، ت محمد يحياتن، ١٢-١٣ الدار العربية للعلوم، بيروت، ط١، ٢٠٠٨.

(٦) التداولية عند العلماء العرب، د مسعود صحرأوي، ١٠، دار الطليعة، بيروت، ط١، ٢٠٠٥.

(٧) العجاج بين المنوال والمثال، ١٨.

(٨) في تحليل الخطاب السردية، وجهة النظر والبيد العجاجي، ٨٩.

واحد من هذه الخطابات بوصفه تعبيراً عن رؤية الشاعر وتوجهاته التي تمنح النص فرادته وتميزه في الموضوعة التي يختارها ليعبر عنها في سياق ثري تتناسل فيه الدلالات التي تتضافر لغاية واحدة هي إقناع المتلقي بوجهة نظر معينة تهدف إلى التأثير في المتلقي واستمالاته لقبول وجهة النظر تلك.

لقد توسعت دائرة تحليل الخطاب الحجاجي وأصبحت لها منطلقات متعددة تعتمد بدورها مقاربات كثيرة منها^(١):

المقاربة اللغوية	المقاربة التخاطبية	المقاربة التحاورية - التفاعلية
المقاربة الأنواعية	المقاربة الأسلوبية	المقاربة النصائية

ولكن تعدد هذه المقاربات لا ينفي توحيدها في سمتين بارزتين موجودتين داخل كل خطاب حجاجي:

الأولى: التفاعل ويكون على ضربين فعلي حقيقي وافتراضي

الثانية: التحاورية.

أما أبرز خصائص النص الحجاجي فهي^(٢):

١- الانسجام والتناغم.

٢- الحياد.

٣- التوجيه.

٤- الاستدلال.

فالنص الحجاجي نص يسوده الانسجام بين أقسامه الكبرى فلا تناقض بين المقدمات والنتائج، لأن كل تناقض يقوض يقوض الحجاج ويُجهز على كل محاولة إقناع.

أما الحياد: فميزته تكمن في أنه كلما أنكر الحجاج نفسه كان قوياً ناجحاً لأن للنص كلما كان موضوعياً محايداً يعرض الحقائق ولا يسعى إلى فرض فكرة أو موقف كان ناجحاً، ويمكن أن يلجأ الباحث أحياناً إلى النزوع نحو المخاتلة والخداع لممارسة التأثير.

أما التوجيه: فيقوم على توجيه المتلقي وقيادته إلى غاية واحدة أو وجهة واحدة في الخطاب هي الفكرة المراد الإقناع بها.

أما الاستدلال: فهو سياق النص العقلي أي تطوره المنطقي.

فالنص الحجاجي نص قائم على البرهنة يبني نفسه على وفق نظام معين تترايط فيه العناصر وفق نسق تفاعلي وتهدف جميعاً إلى غاية مشتركة هي إقناع المتلقي بوجهة نظر معينة. ويرد الحجاج بطريقتين:

(١) الحجاج بين المنوال والمثال، ٢٠٠.

(٢) دراسات في الحجاج، ٧-٨.

١- متخفياً أو غير مباشر.

٢- صريحاً أو مباشراً.

وورود الججاج في هذين الشكلين حمل بعض الدارسين على التمييز بين:

١- المقصد الججاجي الصريح والمباشر.

٢- والبعد الججاجي المضمرو وغير المباشر.

ويتخذ الججاج الذي يرسمه الشاعر لنفسه آليات مختلفة تهدف جميعها إلى تحقيق هدف واحد، هو إقناع المتلقي بالججاج التي يسوقها معبراً عن وجهة نظره في الموضوعات المختلفة.

ومن أهم آليات الججاج^(١): الاخبار والتفسير والإقناع، اذ تظهر آلية الاخبار من خلال الأسلوب الخبري في قصيدة (لا تصالـخ) لأمل دنقل وتعد ظاهرتا الإثبات والنفي من أكثر الظواهر وروداً في هذا الأسلوب لذلك بنى النحاة العرب عليهما كثيراً من الأصول النحوية والمسائل التطبيقية بحكم أن الأغراض التواصلية تتحقق فائدتها عبر ضروب الخبر والإنشاء ومنها الضربان الخبريان (الإثبات والنفي)^(٢).

فعلى صعيد العنوان بوصفه جزءاً من استراتيجية النص، يعمل موجهاً رئيساً للنص الشعري^(٣) ولاسيما أن القصيدة بدأت وانتهت به وهذا يدل على أهمية الهدف الذي يحمله وهو الغاية التي يقف وراءها قصد الشاعر في عرض القضية بوصفها قضية رأي عام للنقاش، فضلاً عن معي النص للتمسك بهذه القضية من خلال معاودة تكرار العنوان الذي مثل القضية وشكل نوعاً من (المغالطة القصدية، التي تعد فيها القصيدة تعبيراً عن ذات المؤلف، وبهذا تكون القصيدة سبيلاً يفضي إلى المؤلف ذاته)^(٤)، فالعنوان يفترض وجود الجملة الإنشائية الطلبية القائمة على النهي (لا تصالـخ) انه بالإمكان أن يتوفر فعل انجازي احتمالي مستقبلي (صالـخ)، أمناً الافتراض المسبق الذي يعد من مضمورات القول هو وجود خصومة، وجود اعتداء، وجود خسارة، وفي حالة النفي تحديداً (لا تصالـخ) يفترض أن المتخاصم لن يتجاوباً معك إذ إن تشجيع البات وتحفيزه للأخر بعدم الصلح يستند على أن في الصلح خسارة نسبي بال تأكيد هدر الحق لعدم توفر النية الطيبة من الآخر، في المقابل انعدام الصلح يستلزم مقاطعة العدو وما يترتب على المقاطعة من جوع وتشرذم واضطهاد، فالقوة الانجازية الحرفية توفرت في الجملة بوجود النهي (لا تصالـخ) وينهض هذا الملقوظ بوصفه فعلاً قولياً غايته التأثير في المتلقي بالرفض أو القبول.

(1) www.ar.wikipedia.org/w/index.php?Title.

(٢) الأندولية عند العلماء العرب، د مسعود صحراوي، دار الطليعة، بيروت، ط١، ١٩٤٠، ٢٠٠٥.

(٣) سمياء العنوان، أد بسام قطوس ٦١، دائرة المطبوعات، وزارة الثقافة الأردن، ط١، ٢٠٠١.

(٤) دليل الناقد الأدبي، دمهجان الروبلي، د سعد الهازعي، ١٥٦، المركز الثقافي العربي، ط١، ٢٠٠٠.

ولذلك فالنص الججاجي يفترض مرحلة للتفكير به
 الأطروحة المعروضة المفترضة ⇐ صالح
 والأطروحة الرافضة المقترحة ⇐ لا تصالح
 فبنية المقابلة الناشئة بين الإثبات والنفي تفترض وسائل إقناع تتوزع:



فعلى الصعيد المنطقي الاستدلالي:-
 لدينا مقدمة أولى كبرى أساسية (لا تصالح)^(١)
 ومقدمة ثانية صغرى ثانوية (لا تتوخ الهرب)^(٢)
 من هاتين المقدمتين يمكن أن نستنتج نتيجة بعد أن نسأل
 إذا لم يصالح
 وإذا لم يتوخ الهرب
 ستكون النتيجة:

الإعداد للمواجهة ورفض التصالح.

وهذا ما يسعى النص إليه (أوما يسعى وجهة نظر المؤلف/الشاعر التي يريد إقناع المتلقي بها) وهي نبذ التصالح مع العدو لأن فيه ضياعاً للحقوق وقد جاءت مكررة (٢٢) مرة، ولاسيما أن بنية التكرار من البنى المهمة في الخطاب الججاجي ويفهم منها توكيد الكلام وتقدير المعنى وإثباته^(٣) فضلاً عن أنها وسيلة بلاغية مهمة يقصد إليها المتكلم لتقوية قوة المنطوق الإنجازية، كما تعد بنية التكرار استراتيجية للإقناع بالتكرير الهدف منها تثبيت تبريره دعواه^(٤). وإذا كان من صفات المقدمة أن تكون واضحة^(٥) لا لبس فيها، وإذا كان الججاج تبريراً فينبغي أن يوجز المحتج جملة تبريرات أو حجج بوصفها دعائم لإقناع المتلقي، ويفترض أن تكون الحجج واقعية وفي الخطاب

(١) الأعمال الشعرية، أمل دلفن، ٣٩٤، مكتبة مديوني.

(٢) م. ن. ٣٩٥.

(٣) النص والخطاب والاتصال د. محمد العبد، ٢٣١، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٥.

(٤) م. ن. ٢٤٠.

(٥) <http://ar.wikipedia.org/windaxphb>

الشعري يمكن أن تتوفر في صور ججاجية تمتد إلى أفعال إنجازية نسبة إلى نظرية الفعل الكلامي التي قال بها أوستن في كتابه (كيف نصنع أشياء بالكلمات). لأن أوستن صاغ المصطلح بإضافة *per* وتعني بواسطة إلى *locutionary* أي كلامي وذلك للدلالة على التأثير الذي يحصل على المخاطب عن طريق أو بواسطة الفعل الكلامي وكنتيجة له^(١).

ويسمى الشاعر من خلال أفعال إنجازية متعددة أن يوجز أحداثاً كبيرة من أجل أن يوفق في إقناع المتلقي، وقد تعددت في قصيدة (لا تصالخ) وسنأتي عليها في التطبيق.

يحصّر هنغفلد وما كنزي عدد القوى الإنجازية في اثنتي عشرة قوة إنجازية وهي: (الخبر والاستفهام والأمر والنهي والتمني والدعاء والتحضيس والنصح والالتزام والالتماس والاستغراب)^(٢).

وإذا تتبعنا النص الشعري المدروس نجد نوافر كل هذه القوى تقريباً، مما يدل على قدرة المؤلف على الاستعانة بكل ما يساعده على إثبات دعواه، ليحقق ميل القارئ اتجاه قضيته المطروحة، وسنأتي على توضيح ذلك من خلال النص.

أترى حين أفقاً عينيك.
ثم اثبت جوهرتين مكانهما.
هل ترى...؟^(٣)

إن معنى الاستفهام بوصفه (فعللاً كلامياً استعمالياً) يصنع كما يرى (أوستن) فعلاً اجتماعياً هو في المبدأ التداولي الفائدة المرجوة في إقناع المتلقي بالتصديق أو عدمه^(٤). ومن هنا يشتغل الاستفهام ب(الهمزة وهل) في النص بوصفهما صيغتين بلاغيتين تعمدان إلى تدبيه المتلقي، فالفعل (ترى) الذي ولي أداة الاستفهام: هل هو المشكوك فيه والمستفهم عنه (هل ترى...؟)

من خلال أداء الفعل (أفقاً) في الجملة الإنجازية (أترى حين أفقاً عينيك) بوصفه فعلاً إنجازياً بدلالته على (القلع)^(٥) الذي يولد العجز عن الرؤية وانقطاع الحياة عن العينين، والذي لا ينفع معه تثبيت جوهرتين مكانهما، فمقابلة الفعل أفقاً/اثبت قد يعيد شكل الوجه لكنه لن يعيد الرؤية بالسؤال

(١) نظرية الفعل الكلامي. هشام إبراهيم عبد الله خليفة. ٢٩. مكتبة ناشرون، لبنان، ط ١. ٢٠٠٧.
(٢) الخطاب وخصائص اللغة العربية، دراسة في الوظيفة والبنية والنمط، أحمد المتوكل، ٥٧-٥٨. الدار العربية للعلوم ناشرون، ط ١. ٢٠١٠ م.
(٣) الأعمال الشعرية، ٣٦٤.
(٤) التداولية عند العلماء العرب، ١٩٦-١٩٧.
(٥) لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين بن منظور، مادة (فقا)، م ١١١٥/٢، دار صادر، بيروت، ١٩٥٦.

هل ترى...؟

بكل ما يحمله من دلالة استنكار ضمني يدخر جواباً في داخله لن ترى.

هي أشياء لا تشتري

ذكريات الطفولة بين أخيك وبينك^(١).

وهذه النتيجة التي ينهي الشاعر بها هذا النص متشكلة في حقيقتين:

الأولى: إن في الحياة أشياء لا تشتري: البصر/الوطن.

الثانية: ذكريات الطفولة التي ستفتي، وفقدانها لا يمكن أن يعوض، وهذا من باب

تدعيم القيمة، قيمة المني المقضود، والقيمة مفهوم يستخرج مما يقوله الناس، ومما يفعلونه، ومما تبنيه المجادلات^(٢).

ومن التدعيم بالقيمة أيضاً ورود المثل ضمنياً في قوله:

هل يصيرُ دمي بين عينيك ماءً؟^(٣) فهذه الجملة الاستفهامية تضمّر المثل الذي يقول

(الدم ما يصير ماء) في دلالة على الرابط الأخوي بينهما، وقد أكد ابن وهب على علاقة

المثل بالججاج إذ يقول (المثل مقرون بالحجة)^(٤).

أما الجمل الخبرية فهي الأخرى حاضرة في النص، ومعزيزة مبررات الحاجة التي لن

نغيب عن الذاكرة وإن خفّت بفعل مشاغل الحياة، وتستخدم في دحض أمل المعقدي

بالموافقة على التصالح.

ذكريات الطفولة بين أخيك وبينك^(٥).

هذا الحياء الذي يكتب الشوق... حين تعانقه^(٦).

الصمّت - مبتسمين - لتأنيب أمكما^(٧).

جثثاك كي تحفن الدم^(٨).

سيقولون:

ها نحن أبناء عم

قل لهم: (نهم لم يراعوا العمومة فيمن هلك

(١) الأعمال الشعرية، ٣٩٤.

(٢) ينظر النص والخطاب والأنصال، ٢١١.

(٣) الأعمال الشعرية، ٣٩٥.

(٤) البرهان في وجوه البيان، ابن وهب (أبو الحسين اسحق بن إبراهيم بن سليمان)، تع. د. أحمد مطلوب، ود. خديجة الحديثي، ١٦، ساعدت جامعة بغداد علي لشرة، العراق، ط١، ١٩٦٧ وينظر: النص

والخطاب والأنصال، ٢١٠.

(٥) الأعمال الشعرية: ٣٩٤.

(٦) م. ن: ٣٩٤.

(٧) م. ن: ٣٩٤.

(٨) م. ن: ٣٩٦.

وأغرس السيف في جبهة الصحراء...
إلى أن يجيب العدم^(١).

فالجملية الإنجازية (أغرس السيف في جبهة الصحراء) التي وجه المؤلف بها (الفارص) بعد شحنه بكل الذكريات، وقد وفق في تخيره الفعل (أغرس) وهو فعلٌ إنجازيٌّ يعمل بصيغة الأمر بوصفه فعلاً إيجابياً يتكئ على الغرس، وهو الشجر الذي يثبت في الأرض بكل ما فيه من دلالة الثبات المادي والانتفاع الروحي بإحساس القوة والتشبث بالتراب والغزول منزلة المالك الأصلي للأرض التي يحاول العدو الغاصب أن يمحوها من ذاكرة الجيل، ولاسيما أن الفزاع على ملكية الأرض جزءٌ من الاعتراف بالوطن المسلوب أرضاً وشعباً فصهغه الأمر (أغرس) فيما استنقار للهمم وحجة قاطعة للبقاء على الأرض وتعميرها، ولكن إقصاء الزرع وتقديم السيف (أغرس سيفك) بكل ما تحمله دلالة السيف من قوة بمقابلة العدو والانتصار عليه وما استعان به النص بعد ذلك من أفعال مضارعة موحية بالهفاء المستقبلي للفارص الموعود (بولد، يوقد، يطلب)

سوف يولد من يلبس الدرغ كاملةً
يوقد النار شاملةً

ويختتم النص بـ (إلى أن يجيب العدم) وما تولده دلالة (العدم)، التي تعني قيل أن يكون الإنسان شيئاً، وبعد أن يستجيب ويصبح شيئاً (الولادة)، وما يرافق ذلك من مخاض وشدة ليس في الولادة حسب وإنما في فعل الثورة الذي تجسده دلالة (يوقد) بوصفه فعلاً إنجازياً حركياً، والوقد نفسُ النار وتوقدت واتقدت النار (هاجت) بكل ما يحمله التهييج من أصوات، اختصرت فيه الفعل الحركي لثورة ببعده السياسي الذي يخترن فيه الحرب الشاملة التي يطلها التائر ممن سلبوا الأرض وأضاعوا العرض.

سوف يولد من يلبس الدرغ كاملةً،

يوقد النار شاملةً.

يطلب النار

يستولد الحق،

من أضلع المستحيل^(٢).

ولو تأملنا القصيدة لرأينا الصور الحجاجية، التي استعان بها الشاعر، إذ توفرنا في هذه الصور ممارسات حياتية مختلفة بدأت بالطفولة والانتقال إلى مرحلة الصبا والشباب، إذ مثلت مرحلة الصبا بكل ما تحمله من عنفوان وما توفره هذه المرحلة من

(١) الأعمال الشعرية: ٣٩٦.

(٢) م. ن: ٤٠٤، ٤٠٣.

روح الدعابة والمرح بين الأخوة، ذلك الجو العائلي الذي يدل على الاستقرار والطمأنينة في بيت آمن يحمل الذكريات على مدى العمر، وفي انتقاله مفاجئة لمرحلة الرجولة التي نحمل في أجل معانها المسؤولية الحقيقية اتجاه الأسرة والوطن.

حسكما فجأة - بالرجولة -

هذا الحياة الذي يكتب الشوق... حين تعانقه

الصمت - ميتسمين - لتأنيب أمكما...

وكأنكما

ما تزالان طفلين! تلك الطمأنينة بينكما^(١).

وصورة حجاجية أخرى تمثل مرحلة البهجة والفرح الطفولي، حينها لم يكن العدو موجوداً تلك هي ذكريات الطفولة لفتاة صغيرة (ابنة أخيه) هذه الصورة التي تُعري بألق الطفولة البرينة لفتاة صغيرة تحبو ممسكة بساقه، وما يشكل ذلك من ثقافة نبي معنى هذه الحركات الطفولية وتمسك بها على صعيد الذاكرة الدائمة.

تعدو على درج القصر

تمسك ساقى عند نزولي

فأرفعها - وهي ضاحكة

فوق ظهر الجواد^(٢).

وتبرز صورة حجاجية أخرى كانت نتيجة للعدوان الغادر، تلك هي صورة الفتاة الصغيرة التي أنكبها العدوان أباهما لما ختفت وراءها صورة الجد الذي يداعب الأحفاد، وهي ليست قضية موت طبيعية عادية وإنما هي قضية جيل يسعى العدو إلى تدميره وقتل لحظات الفرحة فيه...

حرمتها يد الغدر

من أب يتبسم في عرسها...

ونعود إليه إذا الزوج أعضها...

وإذا زارها... بتسايق أحفاده نحو أحضانها

لينالوا الهدايا...

ويلهو بلحيته (وهو مستسلم)

وينشدوا العمامة^(٣).

ومن وسائل الإقناع اللفوية التوكيد والمشرط والنفي، والتكرار اللفظي والمعنوي،

(١) الأعمال الشعرية: ٣٩٤.

(٢) م. ن: ٣٩٧.

(٣) الأعمال الشعرية: ٣٩٩.

والاستنفهام والنداء والأمر وقد احتضنت القصيدة هذه الوسائل^(١).
فالتوكيد في النص (إن) فيه تأهيل لحقيقة يدركها المتكلم وهو يسعى للانتصار
لقضيته وإن كان الثمن غالياً (التضحية / الموت)، فعلى مستوى القول يرون لفعل
التضحية من خلال إقناع المقاتل بأن بيته وطفله في أمان لأن مهمته ليست شخصية
وإنما هي خدمة للوطن الذي تقف خلفه الجموع محتضنة ابده وحارسة لبيته.

إنك إن مت

للبيت رب

وللطفل أب^(٢).

أما أحرف العرض فهي أيضاً حاضرة في النص ومنها (لو) التي استخدمها الشاعر
كثيراً في النص وغالباً ما تستخدم في النص الججاجي لتقوية المنعة لديه مهما حاولوا
إغراءه بالمال والسلطان، لأن الوعي الذي يهينه الشاعر/ الباحث، من خلال التقليل من
أهمية العروض المقدمة من قبل المعتدي (الذهب، تاج الإمارة)^(٣). ولاسيما أنه يجلي
عن بصورة الفارس الخداع الذي يخفيه المعتدي هو ومن يسانده ممن باعوا الوطن.

جنناك كي نحقن الدم^(٤)

ولو قيل ما قيل من كلمات السلام^(٥)

لا تقتم مع من قتلوك الطعام^(٦)

لو ناشدتك القبيلة

باسم حزين (الجليلة)

أن تسوق الدهاء^(٧).

لو قيل إن التصالح حيلة،

لو حذرتك النجوم^(٨).

ولو وقفت ضد سيفك كل الشيوخ^(٩)

(١) اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان، ١٢٤، عالم الكتب، القاهرة، ط ٥، ٢٠٠٦.

(٢) اللغة العربية معناها ومبناها، مصدر سابق، ٣٩٥.

(٣) المرجع نفسه، ٣٩٤ و ٣٩٩.

(٤) الأعمال الشعرية، ٣٩٦.

(٥) المرجع نفسه، ٤٠٦.

(٦) المرجع نفسه، ٤٠٦.

(٧) المرجع نفسه، ٤٠٢.

(٨) المرجع نفسه، ٤٠٣.

(٩) المرجع نفسه، ٤٠٧.

كما أن الحوار جزء مهم في الحجج. ولا سيما إذا (استطاع المرسل (المُحاجج) أن يقدم أطره البرهانية، من خلال (محاولة إقصاء) كل المساعدات على حجج مستقبلي يدحض (الراهن)^(١) وهذا ما نلمسه في النص باختيار براهين منطوية على مستوى الفكرة التي يدافع عنها من جانبيين:

الأول: استبعاد صفة القدمية عن عدوه. ليكون له الحق في التحكم بمصيره.
الثاني: القيمة التي أعطاها لنفسه بوصفه معادلاً لخصمه (نداً مساوياً) باستخدامه النبي (ليس) وصيغة أفعل التفضيل (أنبل، أمهر) التي توغر بمصاحبتها للنبي تساوي الخصمين في القوة والمهارة.
الذي اغتالي: ليس رياءً...

ليقتلني.. بمشيتته

ليس أنبل مني... ليقتلني بمكينته،

ليس أمهر مني.. ليقتلني باستدارته الماكرة^(٢).

إن صدق الحجج يجب أن يقدم لها بمبررات توظف من قبل الباحث لإرساء حقيقة معينة، لأن النص في جملة إنما هو (نص في موقف)^(٣).

ولقد استطاع المؤلف أن يفعل ذلك باستخدامه أسلوب الجزم عن كل ما يجعله مداناً في قضية أو مفتصباً أو قاتلاً كما هو العدو.

لم أكن غازياً،

لم أكن أتسلل قرب مضارهم

أو أحوم وراء النخوم

لم أمد يداً لثمار الكروم

أرض بستانهم لم أطأ

لم يصيح قاتلي بي (انتبه)^(٤)!

ومن مهمات المُحاجج بناء القيم التي يريد لها لأنه يؤسس لوعي مجتمعي له "دورٌ فعالٌ في بناء الثقة بين المتحاورين، لذا فقد عدها ببرنامج قواعد حججية يستند عليها المُحاجج لكي يحيل المُخاطب على القيام بأفعال معينة دون أخرى^(٥).

عندما يملأ الحق قلبك:

تندلع النار إن تنفّس.

(١) الحجج و البلاغة المعاصرة، ١١٢.

(٢) الأعمال الشعرية، ٤٠٦.

(٣) علم لغة النص المقاهيم والاتجاهات، أد سعيد بحيري، ١٥٠، مؤسسة المختار، القاهرة، ط١، ٢٠٠٣.

(٤) الأعمال الشعرية، ٤٠٤.

(٥) ينظر الحجج والبلاغة المعاصرة، ١١٢.

س لا تصالح^(١)

إن قيمة (الحق) معيار لصدق القضية التي ندافع عنها، والقيمة يمكن أن تعززها من ناحيتين: ذاتية وموضوعية .
الذاتية: هي التي تجعل الشيء مطلوباً أو مرغوباً فيه عند شخص واحد أو عند طائفة معينة من الأشخاص.

والموضوعية: هي ما يتميز به الشيء من صفات تجعله مستحقاً للتقدير كثيراً أو قليلاً^(٢) والقيمة تعزز في الذات بالرغبة أولاً، إلا أن ما يطمح الإنسان إليه هو الوصول إلى الموضوعية لأن قيمة شيء من الأشياء هي إمكان الرغبة فيه ومن ثم يوفق كل امرئ. أن يبلغ في تقديره لقيمة ما منزلة الموضوعية. ويتزعج في جميع الأحوال إلى التخلص من الذاتية حتى يهب القيمة صبغة الحقيقة. من هنا كان ارتباط القيمة بالواقع ومن ثم بالوجود^(٣)، وبنية القيمة وبنية الوجود تشمل على تعاون الضرورة والتجاوز دوماً في تأليفها، لأن كل بحث في القيمة ينطلق من الإنسان ويلزم وجوده لذلك كانت القيمة تعالياً على الذات أو تجاوزاً للذات^(٤) والقيمة (تعرف بالاهتمام وكلما زاد الاهتمام زادت القيمة)^(٥)، لذلك كان اهتمام الشاعر بهذه القيمة بوصفها قيمة عليا سامية يدرك من خلالها أهمية صدق القضايا كلها في الواقع الذي يعيش فيه، في ظل هيمنة المعتدي الفاضب لكل الحقوق، إلا أن ذلك لم يثنه عن الدفاع عن قضيته، بل شكلت هذه القضية حياته التي يعيش النضال والمعاناة من أجل تحقيقها والتي جسدها المؤلف بانفتاح لحدود له عندما أعطاها لصيغة المجهول (س) الذي يفتح بأفق النص ليضم كل فلسطيني يدافع عن حقه بالعودة وتبذ التصالح الزائف الذي يصادر دم الأبرياء.

وقد يستعين العجاج بالاستعطاف من أجل استمالة وإقناع محاوره اتجاه إحساس عاطفي يثير انفعالاً، ولا سيما في حالة الموت وفقدان الأحبة.

تذكر

(إذا لأن قلبك للنسوة اللابسات السواد ولأطفالهن الذين تخاصمهم الابتسامه)

إن بنت أخيك (اليمامة)

زهرة تتمريل - في سنوات الصبا.

(١) الأعمال الشعرية، ٤٠٠.

(٢) المعجم الفلسفي، مادة قيمة، ٢١٢/٢-٢١٣.

(٣) القيمة، بول سيزاري، ت عادل العوا، ٧٧، دار الكاتب اللبناني، بيروت، لبنان.

(٤) م، ن، ٧٧.

(٥) القيم في الواقعية الجديدة عند ألف بارنون بيري، ت احمد عبد الحلیم عطية، ٢٢٧، دار الثقافة،

القاهرة، ١٩٨٩.

بثياب الحداد^(١).

ومن تقنيات الحجاج الحشد والجمع^(٢) وقد يكون في الصفات والنعوت، وقد يكون في حشد صور حياتية مختلفة يشكل فقدانها خسارة تُعرض لها هو ضد خصمه الذي فاز بكل شيء.

كلُّ شيء نَحطُّمُ في لحظة عابرة:

الصبا - بهجة الأهل - صوتُ الحصان - التعرفُ بالضيف - مهمةُ القلب حين يرى
برعماً في الحديقة يدوي - الصلاةُ لكي ينزل المطرُ الموسمي - مراوغة القلب حين يرى
طائر الموت^(٣).

ومن تقنيات الحجاج أيضا استخدام حجج السلطة^(٤).

ولقد ظهر في النص من خلال صيغة الأمر (ارو) التي تكررت لأقرار وتثبيت ما يدعو إليه وما يشككه هذا الفعل من دلالة على عطش معنوي جمع كل أدوات التضحية (الدم، التراب، الرافدين، العظام)

ارو قلبك بالدم..

وارو التراب المقدس...

وارو أسلافك الرافدين...

إلى أن تردَّ عليك العظام!^(٥)

وأخيراً لا بد للحجاج من نتيجة يختم بها المحاج نصه بعد أن قدم مقدمة وعرض جملة مبررات بتقنيات مختلفة، من نتيجة يتوصل بها مع من يحاول إقناعه بالبراهين التي استعرضها في نصه، والنتيجة التي ينتهي إليها هي عدم التصالح مع المعتدي منتقداً كل الرؤساء والزعماء العرب والشيوخ الذين طعموا الثريد وامتطوا العبيد، العميان الذين تدلت عمائمهم فوق أعينهم.

لا تصالح

ولو وقفت ضدَّ سيقك كلُّ الشيوخ،

والرجال التي ملأها الشيوخ،

هؤلاء الذين يُحبون طعم الثريد،

وامتطاء العبيد،

(١) الاعمال الشعرية، ٤٠٦.

(٢) الحجاج والبلاغة المعاصرة، ١٣٦.

(٣) الاعمال الشعرية، ٣٩٧.

(٤) م. ن: ٤٠٥.

(٥) م. ن: ٤٠٦.

هؤلاء الذين تدلت عمائمهم فوق أعينهم،
 وسيوفهم العربية قد نسيت سنوات الشموخ،^(١)
 وقد بنى هذه النتيجة من خلال إعطاء الثقة بالنفس بالتدليل عليها بكلمة (فارس)
 هذا الزمن الوحيد الذي يصلح برغبته وفي الوقت الذي يريد، ليس بأمر من
 أحد، لأنك فارس هذا الزمان بكل ما تحمله من دلالة على الثقة والقوة التي يبنيها
 المؤلف وهي من متطلبات الحجاج المهمة، من خلال المقابلة غير المتكافئة الفارس /
 المسخ

لا تصالغ.

فليس سوى أن تريد

أنت فارس هذا الزمان الوحيد

وسواك... المسوخ!^(٢)

ولا يكتفي المؤلف بذلك بل يقدم له شروط الصلح، عندما يعود كل شيء،

إلى أن يعود الوجود لدورته الدائرة:

النجوم . ل . مهقاتها.

الطيور . ل . أصواتها

الرمال . ل . ذراتها

القتيل . ل . طفلته^(٣)

إن في استحالة تحقيق هذه المطالب بوجود العدو الصهيوني، من خلال اغتصاب
 الأرض الفلسطينية أمام مرأى ومسمع العالم، ستكون عملية الصلح سلبية، لذلك
 انتهت القصيدة بنفس المقدمة (لا تصالغ) على البناء الدائري، بعد أن استطاع
 المؤلف على صعيد التلقي أن يمارس الإقناع المنطقي بتتابع الأحداث وانسجامها في
 خطابه الشعري الموجه، على صعيد التواصل والتأثير الثوري، الذي شكل جزءاً من
 نجارب الواقع المعيش، الذي لا يسعف من قبل الحكام لتحقيق الانتقال الحقيقية من
 التهاون إلى تحصيل الحقوق، التي تشكل في كل الأحيان أمل الجماهير العربية بالانتصار
 لكل القضايا.

إن توسيع دائرة النقد الأدبي وممارساته تعني تبني مصطلحات جديدة وتشكيلها
 على وفق رؤية معرفية تسهم في إثراء الدراسات النقدية الأدبية، ومصطلح الحجاج
 واحد من المصطلحات التي تمثل مسارا من مسارات التداولية التي تهتم بمفهوم

(١) م. ن: ٤٠٧.

(٢) الأعمال الشعرية: ٤٠٧.

(٣) م. ن: ٤٠٥.

النواصل الانساني وهو يمارس ادواره الاجتماعية اذ يشتغل على وسائل الاقناع التي توظف لاحداث التأثير في المتلقي بالقبول او الرفض، من هنا وجدنا كيف اعتمدت القصيدة على بعض الوسائل الاقناعية التي توزعت بين المنطقي الاستدلالي واللغوي والبلاغي الذي يثبت اهمية تقديم الدعائم والمبررات من اجل البرهنة على رفض معادلة الصلح مع العدو كونها معادلة خاسرة لاسباب اهتمت القصيدة بعرضها شعريا . كما وصل البحث الى اهمية نظرية الفعل الكلامي التي تعتمد على الافعال الانجازية المختلفة والتي تنوعت في الخطاب الشعري المدروس بين الخبر والامتفهام والامر والنهي والتمني والدعاء وغيرها ، مؤكدا عبر محاوره قدرة الحجاج على الافادة من الجوانب البلاغية من خلال التشكيلات الصورية التي أثرت فعل الحجاج وهو يتواشع شعريا . وأخيرا فان مساءلة الخطاب الشعري حجاجيا تعني إحضار الوعي للانطلاق نحو المعارضة والاختلاف فضلا عن التحذير من اخفاء الحقيقة وكشف طبيعة الواقع المزيف للعدو الصهيوني .

- **المصادر والمراجع**
- الأعمال الشعرية، أمل دنقل، مكتبة مدبولي.
- انفتاح النّص الروائي، د. سعيد يقطين، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ٢٠٠١.
- البرهان، ابو الحسين اسحق بن ابراهيم بن سليمان بن وهب، تح دا أحمد مطلوب د. خديجة الحديثي، ساعدت جامعة بغداد على طبعه، بغداد، العراق، ط١، ١٩٦٧.
- بلاغة الخطاب وعلم النّص، د صلاح فضل، سلسلة عالم المعرفة (١٦٤) المجلس الوطني للثقافة والفنون - الكويت، ١٩٩٢م.
- التداولية عند العلماء العرب، د. مسعود صحراوي، دار الطليعة، بيروت، ط١، ٢٠٠٥.
- التداولية والحجاج مداخل ونصوص، صابر العباشنة، دار صفحات للدراسات والنشر، ٢٠٠٨.
- الحجاج بين المنوال والمثال، د. علي الشبعان، مسكلياتي للنشر، ط١، ٢٠٠٨.
- الحجاج في البلاغة المعاصرة، د محمد سالم محمد الأمين الطلبة، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط١، ٢٠٠٨.
- الخطاب وخصائص اللغة العربية، دراسة في الوظيفة والبنية والنمط، احمد المتوكل، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط١، ٢٠١٠م.
- دراسات في الحجاج قراءة لنصوص مختارة من الأدب العربي القديم، د. سامية التريدي الحسيني، عالم الكتب الحديث، ٢٠٠٩.
- الدلالات المفتوحة مقارنة سيميائية في فلسفة العلاقة، احمد يوسف، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط٢، ٢٠٠٩.
- دليل الناقد الأدبي، دميحان الرويلي، د سعد البازعي، المركز الثقافي العربي، ط٢، ٢٠٠٠م.
- مسمياء العنوان، أ. د بسام قطوس، دائرة المطبوعات، وزارة الثقافة الأردن، ط١، ٢٠٠٦.
- علم لغة النّص المفاهيم والاتجاهات، أد سعيد بحيري، مؤسسة المختار، القاهرة، ط١، ٢٠٠٣.
- في تحليل الخطاب السردي وجهة النظر والبعد الحجاجي، محمد نجيب العمامي، الشركة التونسية للنشر، تونس.

- القيم في الواقعية الجديدة عند رالف بارتون بيري، ت احمد عبد الحليم عطية، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٨٩.
- القيمة، بول سيزاري، ت عادل العوا، دار الكاتب اللبناني، بيروت، لبنان.
- لسان العرب، ابو الفضل جمال الدين بن منظور، اعداد يوسف خياط، دار صادر بيروت، ط ٣، ١٩٩٤.
- لسانيات النص نحو منهج لتحليل الخطاب الشعري، د. احمد مداس، عالم الكتب الحديث، الأردن، ٢٠٠٩.
- اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ط ٥، ٢٠٠٦.
- المصطلحات المفاهيم لتحليل الخطاب، دومينيك مانفوتو، ت محمد بحياتن، الدار العربية للعلوم، بيروت، ط ١، ٢٠٠٨.
- المعجم الفلسفي، جميل صليها، دار الكاتب اللبناني، بيروت/ لبنان.
- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة، د.ت.
- النص والخطاب والاتصال د. محمد العبد، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٥.
- نظرية الفعل الكلامي، هشام إبراهيم عبد الله خليفة، مكتبة ناشرون، لبنان، ط ١، ٢٠٠٧.
- الرسائل الجامعية
- ومضات من التداولية في كتاب الرسالة للأمام الشافعي (ت ٢٠٤هـ)، بريخان محمد طاهر، رسالة ماجستير مقدمة إلى جامعة صلاح الدين - أربيل ٢٠٠٥م.
- المجلات
- أمهر شعراء الرفض، أمل دنقل، نسيم مجلي، مجلة آفاق عربية، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ع ٨ لسنة ١٩٨٦
- التداولية، محاولة لضبط التدريس اللساني تجريبياً، فالح حسن، مجلة الاقلام، دار الشؤون الثقافية، بغداد، العراق، ع ٥ لسنة ٢٠٠٨.
- التداولية، النشأة والمفهوم، مؤيد عبيد، مجلة الاقلام، دار الشؤون الثقافية، بغداد، العراق، ع ٥٤، ٢٠٠٨.
- الحجاج والاستدلال الحجاجي، حبيب أعراب، مجلة عالم الفكر، دار المساهمة، الكويت، عدد يوليو، ٢٠٠٦.
- المواقع على شبكة الانترنت:

▪ www.ar.wikipedia.org.

إنجازية أفعال الكلام مقاربة تداولية لنماذج من الشعر العباسي

د. عبدالله بغير يونس الراشدي*

❖ مدخل

أصبح مفهوم الفعل الكلامي (*Speech Act*) نواة مركزية في كثير من الأعمال التداولية، وفحواه: أن (كُلُّ ملفوظٍ ينهض على نظام شكلي دلالي إنجازي تأثيري، وعلاوةً على ذلك، فهو يُعدُّ نشاطاً مادياً نحوياً يتوسلُّ بأفعال قولية (*Locutoires Actes*) إلى تحقيق أغراض إنجازية (*Illocutoires Actes*) كالطلب والأمر والوعد والوعيد... الخ) وغايات تأثيرية (*Prolocutors Actes*) تخصُّ ردود فعل المتلقي (كالرفض والقبول)، ومن ثمَّ هو فعل يطمح إلى أن يكون ذا تأثير في المخاطب، اجتماعياً أو مؤسسياً، ومن ثم إنجاز شياً ما^(١).

وقد يعود الفضل في التنظير لهذا المفهوم إلى الفيلسوف الإنجليزي أوسن الذي حرص في محاضراته الأولى على التنبيه إلى أن الأكثر أهمية في الكلام أنه يعمل على إحداث فعل ما قبل أن يكون ما يعنيه، الأمر الذي دفعه إلى التمييز بين أمرين:

- ١- المنطوقات التقريرية التي تصف وقائع العالم الخارجي، وتكون صادقة أو كاذبة.
- ٢- المنطوقات الأدائية التي تُنجز بها الأفعال؛ أي: تُؤدي بها أعمال في أثناء نطقها؛ إذ يقتزن فيها النطق أو القول بأداء الفعل، أو إنجازه، وهي - لذلك - لا توصف بصدق ولا بكذب، وإنما تكون- بحسب شروط معنية^(٢) - موفقة الأداء، أو غير

* كلية التربية - جامعة الموصل

(١) في الجهاز المفاهيمي للدرس التداولي المعاصر، مسعود صحراوي بحث مقدم ضمن كتاب التداوليات (عداد وتقديم د. حافظ إسماعيل علوي: ٥٦-٥٢).

(٢) حدد أوسن شروط المنطوقات الأدائية بما يأتي:

١. وجود إجراء عرضي مقبول، وله أثر عرضي محدد وأن يشتمل هذا الإجراء على كلمات محددة، ينطق بها أشخاص محددة في ظروف محددة.
٢. وجوب أن يكون أولئك الأشخاص مناسبين لهذا الإجراء المحدد، ووجوب أن تكون هذه الظروف مناسبة.
٣. وجوب أن يؤدي هذا الإجراء جميع المشاركين فيه أداء صحيحاً بالبعد عن استعمال العبارات الغامضة أو الملتبسة.
٤. يجب على المشارك في الإجراء أن تكون لديه الأفكار والمشاعر التي يتطلبها الإجراء، ينظر: نظرية أفعال الكلام العامة: ٧٣.

موفقة^(١).

لقد أنكر أوستن أن تقتصر وظيفة اللغة على وصف وقائع العالم وصفاً يكون إما صادقا وإما كاذباً، ورأى أن هناك نوعاً آخر من العبارات يشبه العبارات الوظيفية (الخبرية) في تركيبها لكنه لا يصف وقائع العالم، ولا يوصف بصدق ولا كذب، كأن يقول رجل مسلم لامرأته: أنت طالق، أو يقول: أوصي بنصف مالي لمرضى السرطان... ألخ فهذه العبارات وأمثالها لا تصف شيئاً من وقائع العالم الخارجي، ولا توصف بصدق أو كذب، بل إنك إذا نظقت بواحدة منها أو مثلها لا تنشئ قولاً فحسب، بل تؤدي فعلاً، فهي أفعال كلام، أو هي أفعال كلامية^(٢).

إن جوهر نظرية أوستن يكمن في أن الأقوال قد تكون أحياناً أفعالاً، أو بعبارة أدق: (مؤدية إلى أفعال)، وأهميتها ترجع إلى إثبات أن تلك المنطوقات ليست خالية من المعنى، وإلى تحديد السمات المميزة لها، التي تجعلها مخالفة للمنطوقات الأخرى، وأهم هذه السمات هو ارتباطها بالموقف الذي تُقال فيه، من حيث (إنها ثلاثية له، أو غير ثلاثية)^(٣).

إن الفكرة الأدائية هي التي هيمنت على ذهن أوستن حتى أصبح لا ينظر بحدّة إلى هذين القسمين بوصفهما متميزين، بل حاول النظر إلى الجمل أو المنطوقات بمعيار الأدائية التي تحققها هذه المنطوقات بالفعل، ولذا فإن جملة (في الحقل ثور) قد تكون تحذيراً، وقد لا تكون، فإذا كانت تحذيراً تصبح جملة (أدائية) وقد تكون خبرية فحسب، تبعاً للظروف المحيطة بالملفوظ^(٤).

❖ التمييز بين جوانب الفعل الكلامي الثلاثي:

عندما تبين لأوستن تعدد الاحتفاظ بالتمييز الأصيل بين المنطوقات الأدائية والمنطوقات التقريرية، وذلك حينما اكتشف أن لكل منطوق - بما في ذلك المنطوقات التقريرية أو العبارات - بُعداً أدائياً، ومن ثم انهيار الأمل في العثور على معيار يفصل - بصورة حقيقية - المنطوقات الأدائية عن كل ما سواها من أنواع أخرى للمنطوق، أثر أن يعود الفهري لبحث من جديد عن الطرائق العديدة التي يكون فيها:

١- قول شيء ما (هو) فعل شيء ما، أو:

(١) نظرية أفعال الكلام: ١٥-١٦.

(٢) ينظر: أفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، د. محمود أحمد نحلة: ٤٣، ٦١، ٦٢.

(٣) ينظر: التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد، صلاح إسماعيل عبد الحق: ٣٩، وفي البراجماتية الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة، د. علي محمود حعي الصراف: ٣٢.

(٤) ينظر: دلالة المسباق، د. ردة الله بن ردة بن ضيف الله الطلحي: ٢٢٥، نقلاً عن الخطاب القرآني دراسة في البعد التداولي، د. مؤيد آل صولنت: ٣٤.

٢- (في) قول شيء ما تؤدي شيئاً ما، أو:

٣- (عن طريق) قول شيء ما تؤدي شيئاً ما^(١).

رأى أوستن أن الفعل الكلامي مُركَّبٌ من ثلاثة أفعال تؤدي في الوقت نفسه الذي يُنطق فيه بالفعل الكلامي، فهي ليست أفعالاً ثلاثة يستطيع المتكلم أن يؤديها واحداً وراء الآخر، بل هي جوانب مختلفة لفعل كلامي واحد^(٢).

وقد قادته هذه الملاحظة إلى تمييز جديد لا يزال مقبولاً إلى يومنا هذا، ولا سيما لتعيينه الفعل الإنجازي بشكل أكثر وضوحاً في هذه المرحلة^(٣)، فقد ميّز أوستن في الفعل الكلامي ثلاثة أفعال فرعية وعلى النحو الآتي:

١- الفعل اللفظي *Locutoires Act*

٢- الفعل الإنجازي *Illocutoires Act*

٣- الفعل التأثيري *Perlocutors Act*^(٤)

وقد أطلق الدارسون العرب على الأفعال السابقة تسميات عديدة^(٥)، وقد ارتضينا في هذا البحث الاصطلاحات التي وضعها الأستاذ الدكتور محمد حسن والأستاذ الدكتور محمود نحلة لدقتها واختصارها^(٦).

١. الفعل اللفظي:

يتساءل أحد الدارسين عن وجه اعتبار القول، أو التلفظ عملاً أو فعلاً، فيقول: بأي وجه يكون مجرد (القول) فعلاً؟^(٧)

لا شك في أن الأمر في النطق يتعلّق بنوع من الفعل طبعاً، ألسنا فاعلين لشيء ما عندما تصدر عبارة ما؟ أليس إصدار العبارة هذا في حد ذاته يُمثّل تصرفاً عملياً؟ أليس إصدار العبارة هو قولها أو النطق بها؟ (إذن نطقُ عبارة ما هو عمل أو فعل، ويمكن توضيح ذلك بالتفريق بين من فعل، ومن لم يفعل؛ فمن فعل هو من تكلم، ومن لم يفعل هو من لم يتكلم، فقد تكتفي بالتفكير في الشيء دون أن تُعبّر عملاً فكرت

(١) ينظر: التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد: ١٨٣.

(٢) ينظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ٦٧، ٦٨.

(٣) في البراجماتية: ٤٠.

(٤) ينظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ٤٥، ٦٨، وفي البراجماتية: ٤١.

(٥) يسميها الدكتور عبد القادر فتحي (فعل الكلام)، و(قوة فعل الكلام)، و(لازم فعل الكلام) (نظرية أفعال الكلام العامة: ١٢٢). وسميها الدكتور مسعود الصحراوي: (فعل القول أو الفعل اللغوي). و(الفعل المتضمن في القول)، و(الفعل الناتج عن القول) (الندوة عند العلماء العرب: ٤٦-٤٢).

(٦) ينظر: كيف ننجز الأتشاء بالكلمات؟، محمد حسن عبد العزيز: ٨٧، وآفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ٧٣.

(٧) ينظر: كيف ننجز الأتشاء بالكلمات؟: ٨٧.

فيه. وهذا يعني أنك لم تحقق الفعل اللفظي، وعندما تتجاوز التفكير إلى التعبير فإنك حينها تقوم بالفعل^(١). لكن هذا الفعل اللفظي ليس بالبساطة التي قد تُفهم من الكلام السابق، لأنه فعل معقد، مُركب - فيما يرى أوستن - من ثلاثة عناصر تركيبية يمثل تنفيذ كل عنصر منها فعلاً بذاته، هذه العناصر هي:

أ- الفعل التصويتي، ويتمثل في إصدار الأصوات المعينة من مخارج صوتية معينة.
ب- الفعل التأليفي، ويتمثل في إصدار متواليات الأصوات طبقاً لنظام تأليف هذه الأصوات.

ج- الفعل الإحالي، ويتمثل في مراعاة ارتباط الوحدات التأليفية بالمراجع الخارجية للدلالة على معانٍ مخصوصة^(٢).

إذن يتألف الفعل اللفظي من نطق أصوات معينة تُؤلف ألفاظاً أو كلمات معينة، وتتركب هذه الألفاظ في جمل نحوية محددة، وتسنعمل هذه التراكيب النحوية بمعنى مُحدّد تقريباً، وبإشارة محددة تقريباً؛ أي: بمعنى معين^(٣).

وبدلاً ما سبق على أن الفعل اللفظي يتألف من فعل صوتي وفعل تركيبني نحوي وفعل دلالي.

٢- الفعل الإنجازي:

وهو الفعل الأساس الذي يتأتى من خلاله معنى الإنجاز، وهو المقصود من النظرية برمتها، ويُقصد به أن المتكلم حين ينطق بقول ما، فهو ينجز معنىً قصدياً، وهو ما أسماه أوستن بقوة الفعل^(٤)، وقد اشترط أوستن لتحقيق هذا المعنى الإنجازي ضرورة توفر السياق العرفي للمؤسّساتي لغة ومحيطاً وأشخاصاً^(٥)، فعبارة مثل: سأحضر لرؤيتك غداً، يعتمد معناها الإنجازي - الوعد هنا على مدى تحقق شروطها - من حيث يكون على المتكلم الإيفاء بوعده، وأن ينوي فعل ذلك، وأن يكون واثقاً من أن المتلقي يرغب في رؤيته؛ وذلك لأن انتفاء رغبة المتلقي في رؤية المتكلم قد يحيل المعنى هنا من وعد إلى وعيد^(٦).

((إن تحقيق الفعل اللفظي، بوجه عام هو في ذات الوقت إنجاز لفعل ما، إنجاز تؤديه الصيغة اللفظية الناتجة عن تحقيق الفعل اللفظي؛ أي: الناتجة عن قول شيء

(١) ينظر: في البراجماتية: ٤١.

(٢) ينظر: نظرية أفعال الكلام العامة: ١٢٥.

(٣) ينظر: التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد: ١٨٤.

(٤) ينظر: نظرية أفعال الكلام العامة: ١٢٣.

(٥) ينظر: م. ن. ٢٠.

(٦) ينظر: في البراجماتية: ٤٢.

ما، ويتعلق الأمر هنا بالوظائف التي تؤديها الألفاظ اللغوية في سياقات استعمالها كأن تكون الاستفهام، أو الإخبار، أو الوعد، أو غيرها))^(١).

إن الفعل الذي يحققه مستعمل اللغة بهذا المعنى هو ما يسميه أوستن الفعل الإنجازي؛ لأننا بقولنا لشيء ما نكون - في الوقت نفسه - منجزين لهذا الشيء؛ أي: إننا كلما حققنا فعلاً لفظياً في سياق استعماله معين نكون منجزين للفعل، كأن نخبر، أو نعد، أو نتساءل^(٢).

وتتضح العلاقة بين الفعل اللفظي والفعل الإنجازي في أن الأول يتحقق في ألفاظ أو تعبيرات لغوية ذات دلالات مرجعية إحصائية، أما الثاني - الفعل الإنجازي - فيتمثل في تحقيق ألفاظ أو تعابير لغوية تنطوي - زيادة على ما يخوله مستوى الفعل اللفظي من دلالة - على قوى إنجازية قد يمثلها الإخبار، أو الاستفهام، أو غير ذلك هذه القوى الإنجازية هي التي تمثل القصد التداولي من تحقيق الفعل اللغوي، وبهذا يكون الفعل الإنجازي هو الفعل الذي تبرز من خلاله معالم الاستعمال^(٣).

ولكي يؤدي المتكلم الفعل الإنجازي عليه أن ينفذ بعض الشروط لهذا الفعل، وهي:
أ- أن يؤدي الفعل اللفظي: أي: ينطق (أو يستعمل) الجمل المحتوية على الفعل، ((إن ماهية الفعل الكلامي هي: الإنجاز الذي يتحقق من طريق الملفوظ، لذا أسمى أوستن كتابه (كيف ننجز الأشياء بالكلام؟)، فهو مرتبط بالكلام والنطق، أما الأفعال التي تتحقق من طريق الإشارة فهي غير داخلية في حقل الأفعال الكلامية، وإنما تدخل في مجال السيمياء))^(٤).

ب- أن يقصد بهذا الفعل اللفظي (الجملة المنطوقة) امتلاك القوة الإنجازية المعينة (الغرض البلاغي للتعبير المستعمل).

ج- أن يتأكد من الفهم: أي: يتأكد من أن المتلقي قد فهم غرضه من المنطوق.

د- أن يستوفي أعرافاً معينة تُحدد ممارسة الفعل في بعض الحالات^(٥).

٣- الفعل التأثري:

((ويقصد به الأثر الذي يحدثه الفعل الإنجازي في المتلقي))^(٦)، ويعني ذلك أن

(١) في البرجماتية: ٤٢.

(٢) ينظر: أفعال الكلام العامة: ١٨.

(٣) ينظر: في البرجماتية: ٤٢، والتداولية عند العلماء العرب: ٤٢.

(٤) الضطاب القرآني - دراسة في البعد التداولي: ٣٤.

(٥) ينظر: التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد: ١٩٥-٢٠١، وفي البرجماتية: ٤٣.

(٦) ينظر: أفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ٤٦، ٦٨.

الكلمات التي ينتجها المتكلم في بنية نحوية منتظمة مُحمّلة بمقاصد معينة في سياق مُحدّد تعمل على تبليغ رسالة، وإحداث تأثيرات معينة على مشاعر وأفكار وسلوكيات المستمع كنتيجة لما يقول^(١).

إذن يتعلق الأمر هنا بالفعل الذي نحقق بواسطة قولنا شيئاً ما، وتحققنا بالفعل الإنجازي، والشاهد على تحققنا لهذا الفعل يظهر في وقع القول، أو الأثار التي يحدثها القول في المتلقي كأن نقول شيئاً ما يترتب عليه عادة إحداث بعض الأثار في الآخرين بتعديل أنظمتهم المعرفية، وعاداتهم السلوكية^(٢).

يمكن أن نميز بين الفعل الإنجازي والفعل التأثري من خلال متابعة الفرق بين الصياغتين الآتيتين:

- في حال قولي كذا، فقد حققت إخباراً، أو وعداً أو تحذيراً...

- بوساطة قولي كذا، فقد أزعجت مخاطبي، أو أفرحته، أو أقمعته.

إذ تنسحب الصياغة الأولى على الأفعال الإنجازية، وتنسحب الثانية على الأفعال التأثيرية^(٣).

❖ جهود سيرل وإسهاماته في نظرية الأفعال الكلامية

يشغل الفيلسوف الأمريكي (جون سيرل) موقع الصدارة بين أتباع أوستن ومريديه، فلقد أعاد تناول نظرية أوستن، وطورها^(٤) ولا سيما ما يخص الأفعال الإنجازية - أصل نظرية أفعال الكلام - ((حيث انطلق جون سيرل في تحديده للأفعال الإنجازية بتصنيف جديد هو الفعل الإنجازي المباشر والفعل الإنجازي غير المباشر))^(٥).

١- الفعل الإنجازي المباشر

يمثل الفعل المباشر عند سيرل الفعل الذي يطابق قوته الإنجازية مراد المتكلم، أي أن يكون القول مطابقاً للقصد بصورة حرفية تامة، ويتمثل في معاني الكلمات التي تتكون منها الجملة، وقواعد التأليف التي تنتظم بها الكلمات في الجملة، ويستطيع المتلقي أن يصل إلى مراد المتكلم بإدراكه لهذين العنصرين معاً^(٦).

ويفترض في الفعل الإنجازي المباشر أن لا تكون به حاجة إلى بيان أي معنى إضافي

(١) ينظر: نظرية أفعال الكلام العامة - ١٢١، والتحليل اللغوي عند مرسية أكسفورد: ٢٠٣.

(٢) الفلسفة واللغة، نقد المنعطف اللغوي في الفلسفة المعاصرة، د. أنزواوي بغودة: ١٠٨.

(٣) ينظر: نظرية أفعال الكلام العامة: ١٥٥.

(٤) ينظر: التداولية اليوم علم جديد في التواصل، أن روبول وجاك موشلانز: ٣٣.

(٥) في البراهماتية: ٩٨.

(٦) ينظر: العقل واللغة والمجتمع الفلسفة في العالم الواقعي، جون سيرل: ٢٢٠.

فهو يقدم منطوقاً محدوداً واضحاً لا يحتمل التأويل ولا يقصده، وهذه الخصيصة تنبع من المباشرة التي بها سيجي الفعل بالإنجازي المباشر^(١).
وعرّف سيرل الفعل المباشر بأنه ((الذي يلفظ به المرسل في خطابه، وهو يعني حرفياً ما يقول، وفي هذه الحالة فإن المرسل يقصد أن ينتج أثراً إنجازياً على المرسل إليه ويقصد أن ينتج هذا الأثر من خلال جعله المرسل إليه يدرك قصده في الإنجاز))^(٢).

٢- الفعل الإنجازي غير المباشر:

يرى سيرل أننا في حالة التعبير البسيط ننطق بجملة واحدة ونقصد ما نقول تماماً، ولكن المشكلة تكمن في أن الأمور لا تسير دوماً بهذه البساطة، ففي كثير من الأحيان يختلف المعنى المقصود عن التعبير الحرفي الدلالي للمنطوق، كما يحدث في الاستعارة والتشبيه والكناية، كما لو قلت (زيد أسد) فأنا أريد بذلك القول مدحه ووصفه بالشجاعة^(٣).

وتعرض مجموعة من العلماء والباحثين لتعريف الفعل الإنجازي غير المباشر وفقاً لرؤية سيرل المطوّرة عن فكرة أوستن: ومن هذه التعريفات:
((إذا ما تمّ القيام بفعل ما داخل في القول بواسطة فعل آخر داخل في القول، فالفعل الأول يُسمى فعلاً كلامياً غير مباشراً))^(٤).

وقيل أنها الأفعال ذات المعاني الضمنية التي لا تدلّ عليها صيغة الجملة بالضرورة، ولكن للسياق دخلاً في تحديدها والتوجيه إليها، وهي تشتمل على معانٍ عرفية وحوارية^(٥).
وقيل بأنها: ((إستراتيجية لغوية تلميحية يُعبّر بها المتكلم عن القصد بما يُغايّر معنى الخطاب الحرفي، لينجز بها أكثر مما يقوله. إذ يتجاوز قصده مُجرّد المعنى الحرفي لخطاب فيعبّر عنه بغير ما يقف عنده اللفظ مستثمراً في ذلك عناصر السياق))^(٦).

إن المشكلة الأساسية التي تطرحها الأفعال الإنجازية غير المباشرة هي معرفة كيف يمكن للمتكلم أن يقول شيئاً ما ويعني ذلك، وهو في الوقت نفسه يريد أن يقول شيئاً آخر، ومن ثمّ معرفة كيف يمكن للمتلقّي أن يفهم الفعل الكلامي غير المباشر، مع أن

(١) ينظر في البراجماتية: ٩٨.

(٢) إستراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية، عبد الهادي بن طاغر الشهري: ١٣٥، ومصادرهما.

(٣) ينظر: العقل واللغة والمجتمع: ٢٢١.

(٤) المعجم الفلسفي، عادل فاخوري: ١٣٤١.

(٥) التداولية عند العلماء العرب: ٣٥.

(٦) إستراتيجيات الخطاب: ٣٧٠.

ما يسمعه يدلُّ على شيء آخر^(١).

وحللاً لهذا الإشكال، يأخذ سيرل بالفرضية الآتية: في الأفعال الإنجازية غير المباشرة يستطيع المتكلم أن يبلغ للمتلقى أكثر مما يقوله بالفعل، بإسناده إلى معلومات خلفية لغوية أم غير لغوية، مشتركة بينهما، وإيسناده إلى مقدرات المتلقي العقلية والاستدلالية، وبوجه أدق، فالأنموذج التفسيري لما هو غير مباشر من الأفعال الكلامية يتضمن نظرية الأفعال الكلامية وعدداً من المبادئ العامة للمشاركة في التحديث وخلفية من المعلومات الواقعية الأساسية المشتركة بين المتكلم والمتلقي، كما أنه يفترض مقدرة من المتلقي على إقامة الاستدلالات^(٢).

إن سيرل يميز بين معنيين للفعل الإنجازي:

أولهما: المعنى الحرفي، والآخر: الفعل - أو الفرض - غير المباشر، هذا التمييز الذي يعنى على التوالي المعنى التداولي للعبارات اللغوية: أي: قيمتها في مقام مشخص والمعنى الدلالي أو المعنى المعتاد للكلمات والجمل مجردة عن الاستعمال^(٣).

♦ أفعال الكلام بين المباشرة وغير مباشرة

ذكر ستانلي فوش في كتابه: ((هل يوجد نص في هذا الكتاب)) أن هناك أفعال كلام مباشرة وأخرى غير مباشرة، ويتأسس هذان النوعان على بنية الجملة، حيث تكون العلاقة بين التركيب والوظائف التوصيلية، ففي حالة فعل الكلام المباشر نقول مثلاً أنت ترتدي حزام الأمان، هل ترتدي حزام الأمان؟ ارتد حزام الأمان، نجد توافقاً بين التركيب والوظيفة التوصيلية في كل جملة (خبر، استفهام، أمر)، أما عندما تكون العلاقة بين التركيب والوظيفة التوصيلية بعيدة عن المباشرة نقول: إن فعل الكلام غير مباشر؛ أي: عندما تكون الجملة خبرية يستعملها صاحبها في الوقت نفسه لتوصيل طلب نصيح أمام فعل كلام غير مباشر، فعندما نقول مثلاً: الجو بارد في الخارج ونقصد به الإخبار عن حالة الجو فإننا نؤدي فعلاً كلامياً مباشراً، وعندما نقصد إلى أن ندفع السامع إلى أن يخلق الهاب فإننا بذلك نتجر أمراً أو طلباً ويكون فعلاً كلامياً غير مباشر^(٤).

♦ أهمية الأفعال الكلامية في الأدب

قبل نقاد الأدب فكرة الإنجازية بوصفها إحدى الأشياء التي تساعد على تمييز

(١) ينظر: في البراجماتية: ١٢٥

(٢) ينظر: المعجم الفلسفي: ١٣٤٠.

(٣) ينظر: في البراجماتية: ١٢٥.

(٤) ينظر: هل يوجد نص في هذا الفصل؟ سلطة الجماعات المفسرة: ٢٨٨.

خصائص الخطاب الأدبي، وأكد المنظرون طويلاً على أننا يجب أن نَعْنَى بما تفعله اللغة مثلما نَعْنَى بما نقول، والمفهوم الفعل الإنجازي يقدم تبريراً لغوياً وفلسفياً لهذه الفكرة؛ أي: أن هناك صنفاً من المنطوقات تفعل شيئاً ما في الغالب، إن المنطوق الأدبي مثل الإنجازي، لا يُشير إلى الحالة التي كانت عليها الأمور سلفاً فحسب، ذلك أنه يخلق الحالة لأمره، أو شؤونه التي يسير إليها في العديد من الوجوه ونختار منها وجهين وهما:

أ- يُحَدِث، أو يوجد الشخصيات أو أفعالها.
ب- يُحَدِث، أو يُوجِدُ الأفكار والمفاهيم التي ينشرها^(١).
إن الإنجازية - باختصار - تُركِّز الانتباه على استعمال اللغة بوصفها نشاطاً وصناعة للعالم تشبه اللغة الأدبية، التي كان يُنظَرُ إليها سلفاً على أنها شيء هامشي، وتساعدنا على أن نفكر في الأدب بوصفه فعلاً، أو حدثاً^(٢).
(إن العلاقة بين أفعال الكلام والأدب قد لا تتوقف عند اعتبار ما قدمته التداولية في مجال التفكير حول اللغة، وبالفعل فهي تدفع إلى تمييز خصوصية الملفوظات الأدبية باعتبارها أفعال كلام[...]. إن الأدب مكون من أعمال وليس ملفوظات معزولة، ليس بإمكاننا حصر الخيال الأدبي في موقف المتكلم بالنسبة للفظه الخاص بما أنه من بين خصوصيات الخطاب الأدبي جعل مفهوم المتلفظ نفسه مسألة إشكالية وتمييز الشخص الذي يكتب عن صور الكاتب التي يمكن أن تحددها المؤسسة الأدبية)^(٣).

إن تصور الأدب بوصفه منطوقاً إنجازياً يؤدي إلى دفاع عن الأدب من حيث إنه ليس مقولات زائفة وتافهة، ولكن يأخذ موقعه بين أفعال اللغة التي تحول العالم خالقة للأشياء التي تسميها^(٤).

(إن وظيفة الأعمال الخيالية تكمن في أنها تنقل رسالة أو رسائل عبر الخطاب السردي دون أن تكون محصورة المعنى في ذلك الخطاب)^(٥).

إن بنية العمل الخيالي - ومنه الشعر- لا بُدُّ أن نجد فيها ملفوظات تحيل على شخصيات ومواقع وأحداث، وجدت وتحققت من خلال فعل السرد يمكن للمتكلم أن

(١) ينظر: مدخل إلى النظرية الأدبية، جوناثان كولر: ١٣٥.

(٢) ينظر: م. ن: ١٣٥.

(٣) تداولية الخطاب الأدبي، تومنيك مالفينو: ٨٢.

(٤) ينظر: مدخل إلى النظرية الأدبية: ١٣٥.

(٥) بنية الخطاب السردية مقارنة تداولية، بن فندوز هواري: ١٠١.

ينجز من خلالها أفعالاً تعبيرية أخرى^(١).

﴿ إنجازية الشعر ﴾

إن التمثيل الشعري لأي خطاب - ومنه الخطاب المدحي الموجه للخليفة- يمتلك فعالية بالغة؛ لانكائه على تاريخ من الخبرة الجمالية، وتفعيله لأقصى مستويات اللغة في التأثير^(٢)، وللشعر خاصية الموسيقا التي تنفعل لها النفوس وتتأثر بها القلوب، والتي تُعدُّ جوهر الشعر وأقوى عناصر الإيحاء فيه^(٣)، وذلك من خلال امتلاكه الوزن والإيقاع الذي يُؤلد ذلك التناغم اللذيذ فتطرب له النفوس وتتفاعل معه، فالوزن هو ((الوسيلة التي تمكن الكلمات من أن يؤثر بعضها في البعض الآخر على أكبر نطاق ممكن))^(٤).

هذا فضلاً عن أن العرب كانوا يعتقدون بوجود علاقة بين الجن والسحر والشعر، وكانوا ينسبون الموهبة الشعرية لشیطان يوحىها، والإخبار عن هذا الاعتقاد تنتشر في كتب الأدب والتاريخ العربية^(٥)، ((ولعلَّ حيرة العرب أمام شدة تأثير هذه الكلمات المنمقة الحكيمة، وعدم مقدرتهم على فهم مصدرها وتعليل تأثيرها، هي التي ردت الأسباب إلى قوى خارجية جعلاً للشاعر مركزاً مرموقاً))^(٦)، وليس أدلُّ على هذا من الخبر الآتي: ((كانت القبيلة من العرب إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهناًها بذلك، وصنعت الأطعمة، واجتمعت النساء يلعبن بالمزاهر، كما يصنعون في الأعراس، وتباشر الرجال والولدان، لأنه حماية لأعراضهم، وذبت عن أحسابهم وتخلدُ لمآثرهم، وإشادة بذكرهم، وكانوا لا يهنتون إلا بفلام يولد، أو هرس تنقع، أو شاعر ينبغ فيهم))^(٧).

وبضيف بروكلمان في هذا أن الشعراء لم يكونوا في العهد الوثني مفخرة قبائلهم فحسب، بل كانوا يلعبون أدواراً سياسية أيضاً^(٨)، وقد قيل في الشعر: إنه يرفع من قدر الوضيع الجاهل، مثلما يضع من قدر الشريف الكامل^(٩).

(١) ينظر: م . ن : ١٠١ .

(٢) ينظر: نبرات الخطاب الشعري، د. صلاح فضل: ١١ .

(٣) ينظر: النقد الأدبي الحديث، محمد غنيمي هلال: ٤٦٦ .

(٤) مبادئ النقد الأدبي، ريتشاردز: ١٩٤ .

(٥) ينظر: خطاب الطبع والصنعة "رؤية نقدية في المنهج والأصول"، د.مصطفى درواش: ١١٠ .

(٦) الشعر الأموي بين الفن والسلطان، د.عبد المجيد حسين زراقط: ٢٥ .

(٧) العمدة في محاسن الشعر وأدابه، ابن رشيق القيرواني: ٧/١ .

(٨) تاريخ الأدب العربي: ٥٧/١ .

(٩) ينظر: العمدة: ٤٦/١ .

إن قدرة الشاعر هذه على الضلع في المتلقي، قد حملت المجتمع العربي القديم على الإقرار بسلطة الخطاب والاحتفاء بها وبأصحابها شعراء كانوا أو خطباء، وما الاستعادة من فتنة القول إلا إقراؤ صريح بسلطة النص وقدرة صاحبه التأثيرية حتى ليصور الحق في صورة الباطل والباطل في صورة الحق.

ومن الأمثلة على قُوَّة أثر الشعر ودوره في الحياة السياسية أشعار الكميت بن زيد التي أثارت حروباً بين القبائل وأسهمت في تدعيم الفتنة التي عجلت بأقول الحكم الأموي وقيام الدولة العباسية على أنقاضه، فإذا بالشاعر فطرة سياسية عظيمة، وإذا بالشاعر مُحَرِّك تاريخي يصنع الأحداث أو يغير مجرى الأحداث، ويوجهها نحو الغاية التي يُريد^(١).

إن الوعي الكامل لحقيقة دور الشعر بوصفه سلاحاً فتاكاً في وجه الخصوم، وناشراً للمآثر يُؤثر في الرأي العام، وسجلاً خالداً لا يبلى... جعل أغلب الدارسين لا يُعدُّ الشعر فناً إبداعياً فحسب، بل هو فكرٌ وتصورات ومقاصم لها أثرها اللغوي الفاعل في نفوس المتلقين وتوجهاتهم. فالشعر ((ليس كلمات مصفوفة على ورقة أو في كتاب ولكنه بناء يتنفس داخل نغمة المتلقي))^(٢).

ولعلَّ من الضروري أن نضيف ملحوظة مهمة في هذا الإطار تتصل بقيمة البيئة الثقافية في تحديد وظيفة الشاعر الفعلية (التأثيرية)، فالشعر لا يُؤثر في الآخرين ويغيِّر من سلوكهم ومواقفهم، ويبدل من واقعهم إلا إذا كان منحرفاً في نظرية بلاغية تُسَلِّمُ للشعر بهذه القدرة العجيبة وتُعرِّف بسلطانه على النفوس والعقول من جهة، ومُخاطباً من جهة أخرى متلقين يعترفون للشاعر بمنزلة الريادة ويُعيِّونه بمثابة الرائد القادر على الضلع والتأثير^(٣).

(١) ينظر: الحجاج في الشعر العربي القديم. د. سامية البريدي: ٧٤، وقد ذكر ابن رشيق أمثلة كثيرة على أثر الشعر في نفوس متلقيه. ومن هذه الأمثلة:

١- أن عرابة الأوسي ما كان ليرتفع ويشهر لولا شعر الشماخ بن ضرار فه:

رأيتُ عرابة الأوسيّ بسمو
إلى الخيبرات مُنقطع القرنين
إذا ما رأيتُ رُحمت لمجسب
تلقاهما عرابية باليمن

فصارت هذه الأبيات مثلاً سائراً. وأثراً باقياً.

٢- وبنواتق اللاقة الذين كالوا يأنفون من لسبتهم إلى هذا الاسم، صاروا بمد قول الحطينة فيهم:
فوم هم الأنف والأذنان غيرهم
ومن يُسموي بأنف الدابة الذنبا

يتظاهرون بهذا الاسم، ويتطاوون بهذا النسب، ويُمدون به أصواتهم في مهارة، ينظر: العمدة: ٤٧/١، ٥٥.

(٢) الخطاب في الشعر، د. محمد منال عبد اللطيف: ١٦٩.

(٣) ينظر: الحجاج في الشعر العربي القديم: ٧٤.

ولا يخفى أن الشعر في الحقب الماضية كان له حضور كبير ومؤثر في نفسية المتلقي، هذه الخصائص التي ميّزت الشعر عن سواه من فنون الأدب الأخرى هي التي جعلتهم أقدر على حمل مضامين الخطابات المختلفة التي تدعو إلى إنجاز أعمال أو أفعال في أثناء النطق بها، وخير شاهد على هذا الكلام شعر المديح الذي كان يخاطب به الخلفاء والأمراء.

ويمكن أن تقسم الأفعال الإنجازية في شعر مديح الخلفاء إلى ما يأتي:

١. القتل

للشعر دور كبير في التحريض وتحريك الأحقاد والضغائن، وهذا ما فعله سديف بن ميمون، عندما علم بسقوط دولة بني أمية وقيام دولة بني العباس، حيث استوى على راحلته، وعدّ المسير إلى أبي العباس السفاح (عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله بن عباس بن عبدالمطلب، ت ١٣٦هـ) وهناك في مجلسه وجد بعض بقايا بني أمية وعلى رأسهم سليمان بن هشام بن عبد الملك - وكان صديقاً للسفاح - فتنور في رأس سديف كل أسباب الكراهية لبني أمية، وينشد مادحاً مؤلباً^(١)، يقول^(٢):

١- أصبح الملك ثابت الأماس	بالبهاليل مسن بني العباسية
٢- بالصُّدُورِ المقدمين قديماً	والرؤوس القماقم الرؤاسية
٣- يا أمير الأطهرين من الدُّمِّ	ويا رأس من منتهى كُليلِ رأسنا
٤- أنت مهدي هاشم وهداها	كم أناس رجوك بعد إيامنا
٥- لا تقبلن عهد شمس عثارا	واقطعن كليل رقلة وغرامنا
٦- أنزلوها بجهت أنزلها الـ	لسه بدار الهوان والاعتاسنا

(١) ينظر: رحلة الشعر من الأموية إلى العباسية، د. مصطفى الشكعة: ٤-٢.
 (٢) شعر سديف بن ميمون: ٢٢-٢٤، والبهاليل: جمع نهلول: وهو الضحك، والحيي الكريم، العزيز الجامع لكل خير، (لسان العرب: ٧٢/١١)، والقماقم: السيد الكثير الخور الواسع الفضل (لسان العرب: ٤٩٤/١٢)، الرؤاس: المتقدم من السحاب (لسان العرب: ١٠٣/٦)، والرقلة: النخلة الطويلة (لسان العرب: ٢٩٣/١١).

والحمين: يعني به الحسين بن علي بن أبي طالب (رضي الله عنهما) قتل كربلاء ٦١هـ
 وزيد: يعني به زيد بن علي بن الحسين، كان قد خرج على هشام بن عبد الملك، وقتله يوسف بن عمر الثقفي في ١٢١هـ

وقتيلاً بجانب المهراص: هو حمزة بن عبد المطلب عم الرسول (ﷺ) استشهد في معركة أحد ٣هـ
 والمهراص: ماء بأحد، وإنما نسب سديف قتل حمزة إلى بني أمية لأن أبا سفيان بن حرب كان قائد الناس يوم أحد.

والقتل بحران: هو إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس شعي بالإمام، قتله مروان بن محمد سنة ١٣٢هـ، ينظر: شعر سديف بن ميمون الهامش: ٢٢.

٧- خوفهم أظهر النودذ منهم
 ٨- أقصمهم أمها الخليفة وأحسم
 ٩- واذكرن مصرع الحسين وزيد
 ١٠- والإمام الذي بجران أمسي
 ١١- فقد ساءني وساء سواني

فتغير لون أبي العباس وأخذته رعدة بعد سماع هذه القصيدة، فأمر بقتل من كان عنده من بني أمية، ثم كتب إلى عماله في النواحي بقتل بني أمية^(١).
 قد لا تتضح أبعاد الرؤية السياسية عند الشاعر في هذه الأبيات^(٢)، ولكنها تفصح عن جانب عظيم من الكره والحقد على السلطة السابقة، فقد استطاع أن يحيي ثارات بني هاشم من خصومهم، وأن يوغر صدر الخليفة، فيبدأ عهده بسفك دماء بغايا الأمويين، وقد كان له ما أراد، فقتل منهم كل من كان في ذلك المجلس، ولم يسلم سوى عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز إكراماً لوالده^(٣).

إن المتأمل في لغة هذه القصيدة يجدها سهلة مباشرة لا يُشكّل المجاز - بمعناه المألوف - عصبها الأساس، وقد وصف الدكتور الشكعة هذه الأبيات بأن ليس لها من الشعر إلا نظمه^(٤)، ومع ذلك فإن لهذه القصيدة قدرتها الهائلة على التأثير، أعني على تجسيد موضوعها، أو الإفصاح عن رؤياها الخاصة بطريقة استثنائية إلى حد كبير.

إن هذه القصيدة التي خاطب بها سديف الخليفة قد أنجزت فعلاً كلامياً مباشراً، فقد حركت في نفس السفاح روح القتل ونية الانتقام من أعيان بني أمية الذين كانوا يحضرون مجلسه، لقد دعت هذه القصيدة صراحة إلى قتل من بقي من بني أمية الذين كانوا يرغبون في عفو الخليفة العباسي عنهم.

ونجد هذه الملفوظات^(٥) التي تلتقط بها الشاعر أمام الخليفة قد انقسمت على

(١) ينظر: الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني: ٤/٣٤٠.

(٢) كان الشاعر سديف علويّ الهوي، وما كان اتفاهه مع السفاح إلا من جهة اتفاقهما في العدو المشترك، وهو الأمويون، أمّا ما بعد ذلك من الوفاء وإدامة العهد فهذا ما فنكره سديف مع أول ظهور للوردة العلوية في عهد العباسيين، ينظر: الإبداع والمنطقة في شعر العصر العباسي الأول، د. عيسى المصري: ١١٣.

(٣) ينظر: الأغاني: ٤/٣٤٠.

(٤) ينظر: رحلة الشعر: ٤٠٣.

(٥) يطلق الملفوظ للدلالة على نتاج فعل التلفظ، وهذا المصطلح متعدد المعاني ولا يكتفي دلالة بعضها إلا في صلب نقابلات شني وهي:

قسمين:

القسم الأول: تمثل في الملفوظات الأربعة الأولى التي عبّر الشاعر فيها عن رؤيته المؤيدة للعباسيين في ظل أول خلفائهم، من خلال التأكيد على الأسس السليمة التي قامت عليها الدولة الجديدة، ولعلّ الموقف الذي عبّر فيه عن رؤيته لم يسعفه في توضيح هذه الأسس، لأن الغاية الأهم في نظره هي القضاء على بقايا السلطة القديمة، كي لا تقوم لها قائمة بعد الآن، ومع ذلك فهو يشير إلى بني العباس (المطهرين من الذم) أصحاب هذه الأسس القوية، التي أقاموا عليها دولتهم، وقائدهم مهدي بن هاشم، وهو أبو العباس حيث تشير بعض المصادر أن المسفاح كان يسمى بالمهدي الذي هو رجاء الناس وأملهم ومخلصهم بعدما أصابهم اليأس^(١)، ويُعرّض ببني أمية وبنو أس الناس منهم نتيجة ظلمهم لهم، هذه الأسس التي أقام عليها الشاعر القسم الأول من قصيدته هيأت سمع الخليفة لاستقبال فكرة الانتقام والقتل التي بنيت عليها هذه القصيدة.

القسم الآخر: ويبدأ من الملفوظ الخامس حتى الملفوظ الأخير من القصيدة، ولعلّ من الممكن أن نصنف هذا القسم ضمن مجال التوجيهات *Directives*، من أفعال الكلام الإنجازية^(٢) التي يتحدد غرضها الإنجازي في محاولة المتكلم توجيه المتلقي نحو فعل.

- من الوجهة التركيبية، كثيراً ما يوضع تقابل ما بين الملفوظ والجملة بوصف الجملة نوعاً من الملفوظ، فيحدد الملفوظ هاهنا بوصفه وحدة اتصالية تطبيقية أولية ومتوالية لغوية ذات معنى وتامة من حيث التركيب.
- أما الدالولون ممن نبتوا المنطور التلقظي والذي نذهب برأهم في تحليلاتنا للنصوص الشعرية، فهم ينظرون إلى الجملة كبنية خارجة عن الاستعمال وتطابق عدداً لا متناهياً من الملفوظات وفق التنوع غير المتناهي للسماقات الخاصة.
- على صعيد أعلى، يعدّ الملفوظ وحدة مساوية للنص، أي متوالية لغوية منوطة بمقاصد نفس الملفوظ والتي تشكل كياناً ل نوع خطابي معين، بنظر: المصطلحات المقاتيح لتحليل الخطاب، دومينيك مانغونوا ٥١.

(١) ينظر: العباسيون في سنوات التأسيس تفسير جديد للثورة والشرعية ونظام الحكم، د. عصام سخيني، ١٨٤.

(٢) قسم سيرل أفعال الكلام الإنجازية إلى مجالات خمسة هي:

١. الإخباريات *Assertives*

٢. التوجيهات *Directives*

٣. الالتزامات *Commissives*

٤. التعبيرات (أو اليوحيات) *Expressives*

٥. الإعلانات *Declarations* . بنظر: العقل واللغة والمجتمع: ٢١٧.

شيء ما، أو التأثير فيه ليفعل شيئاً معيناً^(١)، إن التوجيهيات هي ((محاولة توجيه المخاطب إلى فعل سلوك ما في المستقبل، وشرطها الإزادة والرغبة... وتمثلها صيغ الامتقهاام والأمر والنهي والرجاء والنصح والتشجيع والدعوة والأذن))^(٢).
والبات - في التوجيهيات- يحاول ((دفع السامع إلى فعل شيء، وتحاول التوجيهيات - كذلك - أن تجعل العالم يطابق الكلمات: حيث يقوم السامع بعمل ذي نتيجة إيجابية أو سلبية للمتكلم فتأتي النصيحة بعمل لصالح السامع...]) وهذه المجموعة تحوي أفعالاً صريحة مثل: يأمر، يطلب))^(٣).
وتتلخص الأفعال الإنجازية (التوجيهية) التي حرص الشاعر من خلالها الخليفة على القتل فيما يأتي:

١. النهي عن الصفح وترك عقوبة من بقي من بني أمية، وذلك في قوله:
لا تقبلنَّ عبسَدَ شمسٍ عثاراً وعبد شمس هو جدُّ بني أمية
ويقال: أقال اللهُ فلاناً عثرته. إذا صفح عنه وترك عقوبته^(٤).
٢. الأمر: وقد تمثل في أفعال إنجازية دعا الشاعر من خلالها إلى قتل من بقي من بني أمية صراحة، وأفعال الأمر التي جاء بها الشاعر هي:

أ- فعل (القطع) إذ يقول: واقطعن كل رقلة وغراس

دعوة إلى قتل الكبير والصغير من بني أمية، وقد شبه الشاعر - في هذا الملفوظ - رجال بني أمية بأشجار النخيل على سبيل الامتعارة، وأن موت هذه الأشجار يكون من خلال عملية القطع، وفي هذا الخطاب دعوة صريحة إلى قطع أصول بني أمية من خلال قتل من بقي منهم، ولا يخفى ما لنون التوكيد - الملحقه بفعل الأمر- من دلالة تأكيد هذا الأمر وعدم التهاون فيه.

ب. فعل (الإنزال)

وذلك في قوله:

٦- أنزلوها بحيث أنزلها الس له بدار الهوان والاعماس
ولا يكون النزول إلا من ارتفاع إلى هبوط، وإنما قالوا: نزلت في موضع كذا وكذا لأنه ينزل عن دابته أو يتجاوز منزلة إلى منزلة^(٥) وفي هذا الملفوظ دلالة واضحة على أن بني

(١) ينظر في البرجماتية: ٦٢.

(٢) مدخل إلى التحليل النحوي للخطاب الشعري، د. نعمان بوقرة: ١٠٢.

(٣) الخطاب القرآني دراسة في البعد التداولي- ٢٧.

(٤) ينظر: تهذيب اللغة، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري: ٣٠٧/٩.

(٥) ينظر: جمهرة اللغة، أبو بكر محمد بن الحسن الأزدني البصري المعروف بابن دريد: ١٨٧/٣.

أمية قد خرجوا على الدين وارتثوا عنه وبذلك حلَّ عليهم غضب الله، ومن غضب الله عليه فلا بُدَّ للخليفة أن يفضب عليه كذلك. بصفته ظلُّ الله في الأرض والثامن بأموره. لذا كان العقاب المناسب لبني أمية في نظر الشاعر هو إنزال الموت والقتل فيهم.

ج. فعل (الحز)

كما في قوله: (وهم منكم كحز المواسي) والحزُّ من خَرَّ الشيء يحزُّه حزاً، إذا أثر فيه بسكين وغير ذلك^(١).

ففي هذا الملفوظ يدعو الشاعر إلى قطع الرؤوس وتصفية من بقي من بني أمية.

د. فعل (الإقصاء)

وذلك في قوله: (أقصم أيها الخليفة) والإقصاء في اللغة: الإبعاد، يقال: أقصيتُ الرجل إقصاءً إذا أبعدته^(٢). ففي هذا الملفوظ يدعو الشاعر الخليفة إلى إبعاد هؤلاء الذين استحقوا القتل من مجلسه بما يعنيه من مأكَل ومشرب ونعيم تمهيداً لتصفيتهم والقضاء عليهم.

هـ. فعل (الحسم)

وهو قوله: (واحسم عنك بالسيف شأفة الأرجاس)

والحسم: من حسم، وهو قطع الشيء عن آخره، والحسم: القطع وشيئ السيف حساماً، ويقال حسامه حدة؛ أي: ذلك كان فهو من القطع، والحسم أن تقطع عرقاً وتكويه بالنار كي لا يسهل دمه. ولذلك يقال: احسم عنك هذا الأمر؛ أي: اقطعه وأكفهِ نفسك^(٣).

فهذا الملفوظ يدعو صراحة إلى حسم آخر دولة بني أمية وذلك من خلال القضاء على من بقي من أهلها.

وتنفيذاً للأمر الوارد في هذه الملفوظات، وخضوعاً لسلطة اللغة ومنطقها، كان لسديف ما أراد من فعل القتل من بني أمية، ((فسلطان الكلام ليس فوقه سلطان[...]) وسلطة الشعر من سلطة الخطاب^(٤))).

إن سديفاً من خلال هذه الأفعال التوجيهية (الطلبية) يتحدث عما يختلج في طيات نفوس بني العباس، وما يعتمل في ثنيات دواخلهم، والذي أراده من هذه الأفعال إنما

(١) ينظر: م - ن: ٥٩/١.

(٢) ينظر: م - ن: ٨٦/٣.

(٣) ينظر: معجم مفاتيح اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا: ٥٧/٢.

(٤) سلطة الكلام وقوة الكلمات، د. أبو بكر العزاوي: ١٤٣.

هو الحرُّ من المفضل، وإتيان الأمر من مآناه، وفاء وترجمة لتلك الانفعالات التي تراودهم، فهو بهذا الخطاب الشعري يضرب على أوتار نغم العباسيين الذين أدركوا ثأرهم من الأمويين؛ لذا فهم جِراسٌ كُلُّ الحرص على سماع هذه الأنغام التي تُشفي العليل، ولا سيما إذا كان تردادها أمام الأمويين.

وفي نهاية قصيدته هذه يُذَكِّرُ الشاعر الخليفة بما جنته أيدي الأمويين من قتل:

- الحسين بن علي (عليه السلام)

- وزيد بن علي بن الحسين (عليه السلام)

- وقتيل بجانب المهراس وهو حمزة بن عبد المطلب (عليه السلام)

- وقتيل بحرّان (الإمام) وهو إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس (عليه السلام)

ولعلَّ من الممكن أن يصنف التذكير بهذه الأمور ضمن مجال ((الإخباريات)) بحسب رؤية سيرل لمجالات الأفعال الإنجازية^(١)، إذ يكون الغرض منها هو نقل المتكلم لواقعة ما (بدرجات متفاوتة) من خلال قضية محددة يُعبرُ بها عن هذه الواقعة؛ أي: تعهد المتكلم - بدرجات منوعة - من خلال منطوقه بكون شيء ما حقيقة واقعة. فضلاً عن تعهده بصديق القضية المعبر عنها^(٢). فالغرض الإنجازي العام هنا هو التقرير، واتجاه المطابقة في أفعال هذا الصنف من الكلمات (القول) إلى العالم، وشرط الإخلاص فيها يتمثل في النقل الأمين للواقعة والتعبير الصادق عنها^(٣).

لقد كان هذا المجال من أهم الإضافات التي قدمها سيرل في المفهوم الإنجازي. لقد استبعد أوستن من قبله كثيراً من صور الإخباريات بوصفها مجرد إخبار أو تقرير أو صف. ولكن سيرل أشار إلى أن إنجازيتها تتمُّ من خلال خطوتين:

الأولى: تتمثل في أن الإنجاز يتحقق من خلال (نطق الكلام وأدائه).

أما الأخرى: فمن خلال (الإخبار أو الوصف) على أساس أن الإخبار أو الوصف غرضان إنجازيان شأنهما شأن أي غرض آخر كالرفض والقبول^(٤). وقد أكد العلماء هذا الرأي من خلال قولهم بأن الجمل كلها إنجازية، ولكن هذا الإنجاز قد يظهر في البنية المسطحة من خلال استعمال ألفاظ إنجازية بعينها مثل، أقسم أو أعد، أو من خلال كونها متضمنة في البنية العميقة للمنطوق لتدل بمعناها العام على إنجاز الإخبار

(١) ينظر: في البراجماتية: ٦١.

(٢) ينظر: التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد: ٢٣٢.

(٣) ينظر: في البراجماتية: ٦١.

(٤) ينظر: م. ز: ٦١.

أو الوصف^(١).

إن استظهار الماضي الأليم الذي حلّ بآل هاشم من قبل الأمويين يجسد معاني الصراع السيامي، ويثير الأحقاد والضغائن الكامنة في صدور العباسيين، أو على حد وصف الدكتور مصطفى الشكعة ((يقاظ للفتنة وتذكير بالثأر، وإثارة لنخوة جاهلية))^(٢).

ومع اجتماع التوجيه نحو القتل والانتقام باستظهار الماضي الأليم من خلال الإخبار بعمليات القتل التي قام بها بنو أمية وإيراد كل ذلك في قوالب شعرية قائمة على الوزن والقافية مترادفاً هذا النص الشعري مع الأحداث التي صاحبت الثورة العباسية والنفوس المشحونة بالقضاء على بني أمية أحيى الضغائن في نفس أبي العباس واستفزّه وأخرجه من وقاره حتى أمر بضرب أعناقهم انتقاماً لقتلى الهاشميين من العلويين والعباسيين الذين صرعهم بنو أمية، وما قام به أبو العباس هو الفعل الناتج لتلك الأفعال التي أوردتها الشاعر في هذه القصيدة (الأثر).

وفد عدّ بعض الباحثين هذه القصيدة ((أخطر وصية سياسية في الحياة العربية لأنها أجرت دماء كثيرة))^(٣).

٢- تولد المشورة

إن الملفوظات التي شكلت نسيج الخطاب السديفي أمام أبي العباس السفاح، والتي امتازت بالتحريض والدعوى إلى القتل والانتقام، هي أنفسها التي كونت خطاب إبراهيم بن هرمة وهو يخاطب أبا جعفر المنصور ويحثه على ترك مشورة حاشيته والذين من حوله.

فقد روى المسعودي في مروج الذهب عن عيسى بن علي أن أبا جعفر المنصور كان يشاورهم في جميع أمره حتى امتدحه إبراهيم بن هرمة في قصيدة وصفه فيها بأنه^(٤):
إذا ما أراد الأمر ناجي ضميرُهُ فناجي ضميراً غيرَ مختلفِ العقلِ
ولم يُشرك الأذنين في سرِّ أمرِهِ إذا انتقضت بالأضعفين قوى الحبلِ
وقد علّق الغدامي على البيتين قائلاً: ((تفكير المنصور من رجل يستشير في كل أمره إلى رجل مستبد ومطلق، غير بيت من الشعر، وهو ليس بيتاً مفرداً ومعزولاً، إنه بيت نسقي يحوي دلالة نسقية تتمثل فيها وظيفة الشعر بعده السليبي من حيث صناعة

(١) ينظر: التداولية اليوم، والتحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد: ٢١٢.

(٢) رحلة الشعر: ٤٠٣.

(٣) الوصايا في الشعر العربي القديم، د. سهام الفرع: ٢٦.

(٤) ديوان إبراهيم بن هرمة: ٨٩.

الفعل المتفرد ذي الصفات الاصطناعية النسقية^(١)، ويؤكد الدكتور عيسى المصري - كذلك- نسقية بيتي بن هرمة، على أساس أن الأنساق- بشكل عام- فاعلة ومؤثرة^(٢)، ولكنه يرى أن هذه الفاعلية والتأثيرية - النسقية - هي إيجابية وليست سلبية، إذ يقول: ((أما أبيات الشَّعر، فهي تحمل دلالة نسقية [الفاعلية والتأثيرية] تتمثل فيها وظيفة الشَّعر ببعده الإيجابي لا السلبي كما ظنَّ عبد الله الغدامي، فقد رسم الشاعر صورة لخليفة الأديب الفطن الذي يرجع إلى ضميره في الحكم على الأمور، لمكان الضمير من الصفاء، والنقاء، والبعد عن الهوى، فهو يطلب منه أن يوظف ضميره في كل أحكامه متوخياً في ذلك العدل، وهذا ما لا تحققه مشورة الحاشية دائماً والتي تتصارع بينها المصالح والأزباب، فيصغى بعضها بعضاً))^(٣).

والباحثان وإن اختلفا في تفسير فعل الأثر الناجم من هذين الملفوظين من حيث السلب والإيجاب إلا أنهما اتفقا على إنجازتهما في نفس الخليفة، حتى تحول المنصور - كما تذكر الرواية - من رجل يستشير في كل أمره إلى رجل ينفرد باتخاذ القرارات والأوامر، فالنظرة التداولية ((ترى بأن اللغة [ومنها اللفظ الشعري] فعلٌ مزوَّدٌ بقوة إنجازية وتأثيرية موجهة نحو المخاطب، فهي من جهة أولى قوة تتميز بالمقصدية اللغوية للذات المتكلمة، ومن جهة ثانية، إلزام المخاطب بإتباع سلوك لغوي مناسب لمميزات هذه القوة، وفي هذه الحالة تكون هي ذاتها فعلاً، فهي تفعل أو تؤدي إلى الفعل الذي نبر عنه بطريقة مباشرة أو غير مباشرة))^(٤).

إنَّ القوة الإنجازية التي اكتسبها هذان الملفوظان جاءت من خلال حسن توظيف الشاعر للأفعال الإنجازية فيهما، فقد ((يلجأ المتكلم في بعض المواقف إلى استعمال الفعل الإنجازي مرتين، أو أكثر من منطوق واحد متصل في أثناء موقف تداولي معين))^(٥)، ففي الملفوظ الأول حقق الفعل الكلامي إنجازيته من خلال وصف الضمير - الذي يرجع إليه الخليفة- بالحكمة والرجاحة والدراية، وخليفة يمتلك مثل هذا

(١) النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، عبد الله الغدامي: ١٥٦. والنسق: يتعدد عبر وظيفته، وليس عبر وجوده المجرد، والوظيفة اللسقية لا تحدث إلا في وضع مُحدَّد ومقيد، وهذا يكون حينما يتعارض نسفان أو نظامان من أنظمة الخطاب أحدهما ظاهر والآخر مضمير، ويكون المضمير ناقصاً وناسخاً للظاهر، ويكون ذلك في نص واحد، ويشترط في النص أن يكون جالياً جماهيرياً. ومروج الذهب ومعادن الجوهر، أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي: ٣٠١/٣، والنقد الثقافي: ٧٧.

(٢) ينظر: النقد الثقافي: ٧٩.

(٣) الإبداع والسلطة في شعر العصر العباسي الأول: ٢٥.

(٤) إستراتيجية الخطاب الشعري عند أبي الطيب المتنبي، مقارنة تداولية، خليفة يولفعة: ١٧٧.

(٥) في البراجماتية: ١١٦.

الضمير حري به أن يعود إليه بدلاً من أن يعود إلى الآخرين الذين تتجاذبهم الأهواء والأطماع - وربما الخوف - في أن يكونوا صادقين في أقوالهم ومشورتهم.

أما الملفوظ الثاني فقد أتى به ليؤكد فكرة الرجوع إلى الضمير في اتخاذ المواقف والقرارات في الملفوظ الأول وذلك من خلال ((المنفي)) الذي غالباً ما يعتمد في تأكيد موضوع ما، إن الملفوظ المنفي في أصله قضية موجبة، وظهوره بهذا الشكل هو إشارة إلى كونه قد انتقل من مرحلة السلب إلى مرحلة الإيجاب، وبذلك فهو إثبات من الدرجة الثانية بنم إدراكه ضمنياً فعندما يقول شخص ما: ((السماء لم تمطر)) فهذا اعتراف منه بأن هناك شخصاً أخرق أثبت أن السماء تمطر، إذن فالملفوظ المنفي كما قال شارل بالي يمثل رفضاً لإثبات^(١)، فالشاعر عندما نفي أن يشرك ممدوحه المقربين منه في أسراره وما يعزم أن يقوم به من أمور البلاد، فهذا اعتراف من الشاعر بأن هناك شخصاً - صديقاً أو عدواً - قد أثبت أن الخليفة يكشف أسرار البلاد لحاشيته، فالنفي إذن هو إنكار للإثبات^(٢)، وقد علل الشاعر نفي الإشراك بضعف المقرئين من الخليفة، والضعف لا يصنع قراراً ولا يهرب عدواً، بل ينتقض به - على حد قول الشاعر - قوي العبل، فالقوة تأتي مع الحزم والشجاعة وهذا ما كان عليه المنصور في أيام خلافته وقبلها، فقد ذكر المؤرخون أن أبا جعفر المنصور كان داهية، أرباباً، مصيباً في رأيه سديداً، وكان مُحَنِّك السني حازم الرأي، قد عركته الدُهور، وحلَّت الأيام سلطوته، وروى العلم وعرف الحلال والحرام، وكان يسوس سياسة الملوك، ويثب وتوب الأسد العاري، لا يُبالي أن يحرس مُلكه بهلاك غير^(٣)، إن شخصية المنصور هذه بما امتازت به من العصامية، والقوة، ورجاحة العقل، وما تبوأته من مناصب في الدولة، إذ كان مشاور أبي العباس، وساعده الأمين، وفضلاً عن أنه ولي أرمينيا وأذربيجان والجزيرة، واشتغل بالإدارة والسياسة قبل مجيئه إلى الحكم، ما أسهم في تقوية الخلافة العباسية، وتشديد الدولة وعمرائها بعد تولية الحكم^(٤)، دعت الشعراء وعلى رأسهم ابن هرمة إلى أن يدعو الخليفة إلى الاعتماد على تلك التجارب التي خاضها هو في حياته والتي تكلفت بالنجاح والتوفيق بدلاً من المقرئين الذين لا يمتلكون من الخبرة والتجربة ما يمتلكه المنصور نفسه، فالمناسبة موجودة بين كلمات الشاعر وحال الخليفة، والمقام يدعو - على رأي الشاعر - إلى أن ينفرد الخليفة في صنع

(١) إستراتيجية الخطاب الشعري عند أبي الطيب المتنبي: ١٩٩.

(٢) ينظر: في البرجماتية: ١١١.

(٣) ينظر: البيان والتبيين، الجاحظ: ٥٥٤/٣.

(٤) ينظر: العصر العباسي الأول، عبد العزيز الموري: ٥٥.

القرار بنفسه، فلا غرو من بعد أن نجد أن هذه الكلمات قد وقعت أيما وقع في نفس الخليفة وغيره من حال إلى حال.

٢- (الطرب) والنزوع السلوكي:

إنَّ الطرب مستورد من مصطلحات تقع في دائرة فن الموسيقى أكثر من غيره من الفنون وهو الشعور بالمتعة الفائقة عند السماع، أو ما أصله السماع، الموسيقى والغناء والشعر وما أشبه، مع التعبير الانفعالي العفوي عن ذلك بالهتاف أو الحركة أو التآوه أو الترنج أو

ما قاربه^(١)، وتُسمى هذه الحالة عند النقاد العرب (هزة الطرب)، وابن طباطبا يُشبهه الشعر الحمي في لذته ودخوله على المتلقي بالإيقاع المُطرب المُختلف التأليف^(٢)، ويجعل ورود هذا الشعر على ما يُواف النفس سبباً في أن تهتز له، وتكون قد حدثت لها أريحيةً وطرب^(٣)، ويلحق الوصول إلى الأريحية والاهتزاز والطرب بالوزن والفهم، وهذان مظهران قوتان من مظاهر الحياة البشرية، يقول ابن طباطبا: ((ومثال ذلك الغناء المطرب الذي يتضاعف له طرب مستمع، المتفهم لمعناه ولفظه مع طيب ألحانه، فأما المقنصر على طيب اللحن منه دون ما سواه فناقص الطرب، وهذه حال الفهم فيما يردُّ عليه الشعر الموزون مفهوماً أو مجهولاً))^(٤)، إن الثقارب الذي يجربه (ابن طباطبا) بين الطرب للنص الشعري والطرب للغناء لاهت للتعامل، إذ يُقَرُّ بما للفهم من معنى إيجابي في اكتمال هذه الحالة التي يدخل فيها المتلقي وفي الوقت نفسه، يفارق حديثاً سلف عن حتمية العقلنة والفهم الثاقب للوصول إلى لذة النص، أو الالتذاذ بما فيه، واللذة سابقة على الطرب، فهو مجموعة من اللذات التي تملك المتلقي فأخرجته إلى هذه الحالة، ومعنى ذلك: إن ما يقع على المتلقي من إثارة تُفضي في أول الأمر إلى انفعال جمالي تُمَّ مشاركة بالرغبة في خلق النص ثم الالتذاذ به، فوقع تحت سحره، وسكَّر بما فيه، ثم تحقيق الطرب الذي يكون بصورة الأريحية والاهتزاز، وهو ما قد يدفع بالمتلقي إلى القيام بفعل طائش يرفضه العقل الذي يشترطه (ابن طباطبا) في اتصال المتلقي بالنص^(٥)، وهذا ما يبدو أنه قد تحقق في خطاب الشاعر أشجع الصلي ولا سيما ذلك الذي أمكنه من الخليفة هارون الرشيد وجعله يكسب رهان مودته،

(١) نظريات الشعر عند العرب، الجاهلية والعصور الإسلامية، مصطفى الجوزو: ٢٢٨/٢.

(٢) ينظر: عيار الشعر، ابن طباطبا العلوي: ٥٣.

(٣) ينظر: م. ن: ٥٣.

(٤) عيار الشعر: ٥٣.

(٥) ينظر: مكونات الإبداع في الشعر العربي القديم، رانية العرضاوي: ٣٩١.

والحصول منه على ما كان قد أمّل وهو يتوجّه إليه بذلك الخطاب المدحي، فقد روى ابن المعتز أن أشجع السلمي كان رديء المنظر وقبيح الوجه، وكان على قلب الرشيد ثقيلاً من بين جميع الشعراء، فدخل عليه يوماً، فقال: يا أمير المؤمنين إن رأيت أن تأذن لي في إنشادك، فإن أنا لم أظفر منك ببغيتي في هذا اليوم فلن أظفر بها أبداً، قال: وكيف؟ قال: لأنني مدحتك بشعر لا أطمع من نفسي ولا من غيري في أجود منه، فإن أنا لم أهزرك في هذا اليوم فقد حرمتُ منك ذلك إلى آخر الدهر، فقال الرشيد: هات إذن نسمع، فأنشد قصيدته المهمة التي يقول فيها^(١):

وعلى عدوك يا بن عمي مُحَمَّدٍ رَصَدَان: ضَوْءُ الصُّنْبُجِ وَالْإِظْلَامِ

فإذا تَنَّبَهُ رُغْمَتُهُ وَإِذَا غَمَّأ سَلَّتْ عَلَيْهِ مَيُوفُ الْأَخْلَامِ

قلماً بلغ هذين البيتين اهتز الرشيد وارتاح، وقال: هذا والله المدح الجيد، والمعنى الصحيح، لا ما علّلت به مسامعي هذا اليوم، وكان قد أنشده في ذلك اليوم جماعة من الشعراء، ثم أنشده قصيدته التي على الجيم وفيها يقول^(٢):

ملك أبوه وأمه من نبعه منها سراج الأمة الوهاج

شرباً بمكّة في زبي يطعهاها ماء النبوة ليس فيه مزاج

فلما سمع الرشيد هذين البيتين كاد يطير (فرحاً) وارتاحاً، ثم قال: يا أشجع لقد دخلت إليّ وأنت أثقل الناس على قلبي، وإنك لتخرج من عندي وأنت أحب الناس على قلبي، فقال له الشاعر: فما الذي أكسبني هذه المنزلة؟ قال له: الفنى، فاسأل ما بدأ لك، قال: ألف ألف درهم، قال: ادفعوا له^(٣).

إن الأفعال الكلامية في هذه الأبيات قد حرّكها فعل تأثيري (سلي) سابق، وقد تمثل الفعل التأثيري السلبي لدى الخليفة في:

- المظهر الخارجي للشاعر

- قصائد تقليدية لا تتوافق ورغبة الرشيد ومهامته.

ومن ثمة فقد ركّز الشاعر على تغيير الفعل التأثيري من الكره إلى الرضا، يتضح هذا من خلال قول الشاعر للخليفة وهو يخاطبه: ((فإن أنا لم أهزرك في هذا اليوم

(١) أشجع السلمي حياته وشعره، د. خليل بنيان الحسون: ٢٥٢.

(٢) م. ن: ١٩٦.

(٣) ينظر: طبقات الشعراء، ابن المعتز: ٥٠.

فقد حرمت منك ذلك إلى آخر الدهر...))، وظفر الشاعر بما كان يؤمّل من الوصول إلى قلب الرشيد ومخاطبته بما يحب وذلك عن طريق تغيير ملفوظاته الشعرية من أبيات تقليدية إلى أبيات تتوافق مع رغبات الرشيد الذي كان يُحبُّ - حاله حال أي خليفة عباسي - أن يمدح بشرف النسب والشجاعة، وبما يبين عن أحقيته بالملك والخلافة دون غيره؛ لذا تجده يهتزُّ طرباً عندما ناداه الشاعر بآبِن عم محمد (ﷺ) وفي القصيدة الثانية يبالغ في مديحه فيجعل الرسول (ﷺ) قد انحدر من نسل هذا الملك (هارون) إشارة من طرف خفي من قبل الشاعر إلى أحقية العباسيين بالملك فهم أعمام النبي (ﷺ) والعمُّ صنو الأب كما ورد في الأثر^(١)، وهذا المعنى كان مهماً عند الخلفاء العباسيين وكانوا أكثر ما يُطربون له ويجيزون عليه والسبب يكمن ((في أن العلويين في الدولة العباسية كانوا لا يزالون يُشكّلون قوة تُهدد الدولة وكيانها، لذا كانت السلطة [العباسية] بحاجة إلى إقناع الناس بعدالة حكمهم وصحة خلافتهم، فاستعانوا لذلك بالشعر))^(٢).

وفي سياق وصف الرشيد بالقوة والشجاعة نجد أن الشاعر يُصوِّر مدى امتلاء قلب عدوه بالخوف والذعر منه؛ لأنه - أي: الخليفة - قد ترصد له في كل الأوقات، بل إن سيوف الخليفة تلاحقه حتى في المنام، في إشارة من الشاعر إلى استعداد الخليفة وجاهزته لمواجهة خصومه في أي زمان ومكان. وقد قصد الشاعر إلى توظيف الاستعارة في قوله:

سَلَّتْ عَلَيْهِ سِيُوفُ الْأَحْلَامِ

بما يحمله الفعل (سَلَّتْ) من معنى القوة والدموية ليحدث من خلاله رعدة انفعالية لدى المتلقي (الخليفة)، فالاستعارة الجمالية أو الشعرية تعطي انطباعاً جديداً في مناخ جديد، ومعيارها هو تعمد الشاعر إثارة هزة انفعالية^(٣). وهذا المعنى الأخير كانت الإشارة إليه مهمة جداً في أيام الرشيد التي تعرّضت فيها البلاد الإسلامية إلى هجمات واعتداءات من قبل الروم فضلاً عن حركات التمرد التي كانت تحدث في الداخل^(٤).

ولعل من الممكن أن ندرج الملفوظات الشعرية الأربعة التي كان لها وقع جميل في

(١) قال رسول الله (ﷺ) للعباس رضي الله عنه: ((إن عمّ الرجل صنو أبيه)). صحيح مسلم، الإمام أبو الحسين مسلم بن الحجاج: ١٧٧/٢.

(٢) الإبداع والسلطة في شعر العصر العباسي الأول: ١٥٢.

(٣) ينظر: مقدمة لدراسة التطور الدلالي في العربية الفصحى في العصر الحديث، أحمد محمد فديور: ٩٠٦.

(٤) ينظر: العصر العباسي الأول، د. شوقي ضيف: ٣٧.

نفس الخليفة ضمن مجال الإعلانات التي يكون غرضها الإنجازي إحداث تغيير في العالم: أي: أن العالم يطابق القضية المُعَبَّر عنها بالفعل الإنجازي، بمجرد الأداء الناجح للفعل، ويتم ذلك بالاستناد إلى مؤسسة غير لغوية (بلاطية، اجتماعية خارجية، شعرية..). تسوّغ الفعل الإنجازي عند أدائه بصورة ناجحة إحداثاً للتغيير المطلوب، ولا تحتاج الأفعال هنا من شرط الإخلاص سوى الاعتقاد بأن الفعل وقع ناجحاً، والرغبة في وقوعه ناجحاً^(١).

إن الخصيصة المحددة لهذه الفئة (من الأفعال الإنجازية) هي أن الأداء الناجح لأي عضو من أعضائها يحدث تناظراً بين المحتوى القضوي والوجود الخارجي، ويضمن الأداء الناجح للفعل أن يناظر المحتوى القضوي العالم: أي: أن أداءها الناجح يتمثل في مطابقة محتواها القضوي للعالم الخارجي، فإذا أدت فعل إعلان الحرب أداءً ناجحاً فالحرب معلنة^(٢)، ويُشير بعضُ الدارميين في مجال الإعلانات إلى أن ((المتكلم يمكن أن يصوغ خطابه في أكثر من قالب لغوي؛ إذ لا يوجد قالب واحد أساس تقوم عليها كل التعبيرات ذوات المعنى، بل يوجد تنوع ضخم للجانب الشكلي؛ حيث يستخدم المتكلم الاسم أو جملة اسمية للتعبير عن الإنجاز تارة ويستخدم الجملة الفعلية أو الفعل للتعبير عن الإنجاز تارة أخرى))^(٣)، وأما من حيث القضايا والمعاني فلها تنوع لا نهائي، إذ يمكن للمتكلم باستمرار أن ينتج ما يناسب احتياجاته، وبصورة عامة يُحدّد المتكلم بنية الحدث الإنجازي وفقاً للمعرفة الإدراكية والإنجازية الملائمة للمسياق الذي يتجزأ خلاله فعله الكلامي^(٤).

ولو عدنا إلى الملفوظات الأربعة التي اهتز لها الرشيد وطرب لوجدنا أنها تعلن عن أمرين مهمين، هما:

- ١- ربط الخليفة بالرسول (ﷺ) عن طريق التأكيد على النسب، وهذا الربط مهم فيما يخص صراع العباسيين مع العلويين أبناء عمومتهم الذين كانوا يتكفون على النسب في أحقيتهم بالخلافة.
- ٢- إثبات أن الخليفة يقظٌ ومنتبهٌ، وهو خطاب موجه لأعداء الداخل والخارج، أن كونوا على حذر من الخليفة الذي يترصد بكم في كل وقت وحين.

(١) ينظر: في البراجماتية: ٦٣.

(٢) ينظر: أفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ٥٠، والتعليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد: ٢٣٥-٢٣٦.

(٣) في البراجماتية: ٦٣.

(٤) م. ن: ٦٤.

٤- العطاء:

لا مشاقفة من عبد الطرب والنزوع السلوكي عند المتلقي صورة من صور النص الرجعي أو رجوع الصدى الذي يكمل العملية الإبداعية بعودته من جديد إلى المبدع ليستفز نصاً آخر فيه، وغياب هذا النص عن ساحة المتلقي غير ممكن، فحتى صمته هو صورة من صور النص المرجعي الذي يبتئ إلى المبدع، وما يرسله الممدوح من عطايا للمبدع هو صورة كذلك من صور النص المرجعي الذي يتحوّل إلى باعث يحكم على الإبداع بالتواصلية اللانهائية.

يروى ابن المعتز في طبقاته أن منصور النمري مدح الرشيد يوماً بقصيدة رائنة حتى إذا بلغ قوله^(١):

وأنتك حين تبلغهم أداة - وإن ظلموا - لتحرق الضمير

قال الرشيد: وبحك ما هذا؟ شيء كان في نفسي منذ عشرين سنة فأردت إظهاره فأظهرته بهذا البيت، ثم قال للفضل بن الربيع خذه إلى بيت المال ودعه يأخذ ما شاء^(٢).

إن فوز الشاعر بجائزة الخليفة، دليل واضح على إنجازية ملفوظه الشعري، ولا سيما في هذا البيت الذي تعجب منه الخليفة، لأن هذا المعنى مما كان يبحث عنه الرشيد منذ مدة ليست بقليلة - عشرين سنة - ويحب أن يمدح به وأن يلشربين الناس، فجاء الشاعر منصور النمري في هذا البيت وأظهر هذا المعنى الذي وافق هوى الرشيد، وهذا دليل واضح على كفاءة الشاعر الاتصالية ومقدرته على أفعال الكلام التي أكسبته ود الخليفة وجائزته.

ولو عدنا إلى الملفوظ (البيت الشعري) الذي أثر في الخليفة وجعله يأمر حاجبه بإدخال الشاعر إلى بيت المال وأخذه منه ما شاء لوجدنا أن هذا الملفوظ (البيت الشعري) يُشير إلى أمرين مهمين جداً وهما:

أولاً: مواجهة الظلمة (الخارجين على الحاكم) وإنزال الأذى بهم، وفي هذا دلالة واضحة على تمالك السلطة وقوتها.

ثانياً: تصوير الجانب العاطفي الرحيم والمشفق لنفس الخليفة، وهو يوقع الأذى هؤلاء الذين وصفهم الشاعر بالظلمة، في إشارة إلى أن هؤلاء الظلمة كانوا - غالباً - من العلويين الذين رفضوا الخلافة العباسية وناصروا خلفاءها العداء: لأنهم كانوا

(١) شعر منصور النمري: ٨٨.

(٢) ينظر: طبقات الشعراء: ٢٤٥.

يروون أن العباسيين مقتصبون للخلافة والحكم، وأنهم أولى بالخلافة منه، ومن ثم فإن إلحاق الأذى ((بمقوم أيوهم أبي ونسبهم نسبي، وأصلهم وقرعهم أصلي وفرعي)) كما وصفهم الرشيد مما يحزن القلب ويدعو إلى تأنيب النفس وتقريعها، وهذه الصور مما كان يحرض الرشيد على أن يظهرها أمام الناس، فجاء الشاعر وعبر عنها بأبيات شعرية مميزة ضمن لها الانتشار والخلود والتأثير كذلك.

يقول أشجع السلمي يمدح الرشيد بالنصر العظيم على الروم وفتح هرقله^(١)

لا زلتَ تنشرُ أعياداً وتطويها
تمضي بها لك أيامٌ وتُنسيها
مستقبلاً بهجةَ الدُّنيا ولذتها
أيامها لك نظمٌ في ليلها
العبيدُ والعيبدُ والأيامُ بينهما
موصولةٌ بك لا تفتني وتُنسيها
ولا تقضتُ بك الدُّنيا ولا برحت
يطوي لك الدهرُ أياماً وتطويها
ولبيدك الفتحُ والأيامُ مُقبلةٌ
إليكَ والنصرُ معقودٌ نواصبها
أمنت هرقلهُ مكلوماً جوانبها
وناصرُ الدين بالتدبيرِ يرمسها
فلكنها وقتلت الناكثين بها
بناصر من يملك الدنيا وما فيها
ما زوعي الدينُ والدُّنيا على قدم
بمثل هارون راعيه وراعيتها

يذكر صاحب الأغانى أن الخليفة أمر لأشجع بألف دينار، وقال: لا ينشدني أحدٌ بعده، فقال أشجع: والله لأمره بالألا ينشد أحدٌ غيري أحبُّ إليَّ من صلته^(٢).

إن هذه الملقوظات التي قالها الشاعر أمام الخليفة والتي عملت في الرشيد فعلاً التأثير، حتى دعت الخليفة إلى إكرام الشاعر وقوله في حقه بأن لا ينشد في ذلك اليوم أحدٌ بعده، قد امتلكت الكفاءة التداولية فضلاً عن الكفاءة اللغوية؛ إذ أن قصة فتح هارون الرشيد لهرقله تُعدُّ مفخرة من مفاخر المسلمين على مَرِّ العصور، ذكرتها جُلُّ مصادر التاريخ والأدب^(٣)، وهي فرصة ثمينة لشاعر السلطنة كي يتغنَّى بها، ويُخلد بها بشعره كي تبقى ماثلة في صفحات التاريخ المشرق، فقد كان عيدُ المسلمين عيدين: عيد الفطر وعيد النصر بالفتح الكبير الذي زاد من هيبة الدولة وجعلها مهيبة في عيون أعدائها.

وقول الشاعر في الخليفة بأنه (ناصر الله والإسلام) فيه إشارة إلى أن النصر الذي تحقق على يد الخليفة يمثل نصراً وعزة لدين الله، فالخليفة لم يخذل دين الله ولم

(١) الأغانى: ١٣/١٤٤.

(٢) أشجع السلمي حياته وشعره: ٢٦٨-٢٦٩.

(٣) ينظر: الأغانى: ١٨/٢٥٤-٢٥٥.

(٤) ينظر: م. ن: ١٨/٢٤٧-٢٥٥.

بترك الأمر للتفاوض أو لم يبطن في الرد على من نكث بالعهد، فكان جوابه أسرع مما يتصوره تقفور ملك الروم ((والجواب ما تراه لا ما تسمعه))^(١)، وكانت النتيجة (ملكها وفعلت الناكثين بها)، وكان ذلك بتأييد من الله (عز وجل)، ثم يُقرر الشاعر حقيقة أفرحت الخليفة كثيراً؛ لأنها تدور حول المعاني التي كان يُحبُّ أن يمتدح بها (ما روعي الدين والدنيا على قدم... يمثل هارون راعيه وراعها)، مما دفع الخليفة أن لا يسمح لأحد بعده أن ينشده، فقد اكتفى بما قاله: لأنه لا يرى بعد هذا المدح من مدح فتلك أعظم صفة كان يحبها هارون، الجمع بين الدين والدنيا، فالخليفة الصالح هو البصير بأمور دينه المطبق لحدوده، المدافع عنه، وهو القائم على أمور الرعية بما يعكس على حياتها معاشها، وبهذا يجمع الدين والدنيا معاً.

إنَّ المخاطب (الشاعر) ((إذا تمكَّن من مخاطبة ذوي الأقدار بما يريدون، وبالطريقة التي يريدون، وفي الوقت الذي يريدون، فقد أمكن هذا المخاطب لخطابه منهم، أعني لقد جعل لخطابه الناتج في هذا السياق - والمحقق إرادتهم في المعنى والصورة والزمان - سلطة بالغة عليهم))^(٢)، أو قل: إنه قد جعل خطاباً ملازماً لهم، بالغ التأثير فيهم، فاعلاً فيهم فعلاً من شأنه أنه ((أنقذ من نفذ السحر، وأخض ديبياً من الرحي، وأشدَّ إطراباً من الغناء، فسلَّ السخائم، وحلَّ العقد، وسخى الشحيح، وشجَّع الجبان، وكان كالخمر في لطف ديبية وإلهائه، وهزه، وإثارته))^(٣).

وهذا ما وعاه شعراء البلاط وطبقوه في أعمال القول الشعري لديهم، فكانت لتلك الأفعال القولية إنجازات قد تحققت في أرض الواقع تأثراً وتأثيراً، من هنا يتبين لنا أن مفهوم الفعل الكلامي نواة مركزية في كثير من الأعمال التداولية، وهو كُـلُّ ملفوظ يهض على نظام شكلي دلالي إنجازي تأثيري، وعلاوة على ذلك فإنه يُعدُّ نشاطاً مادياً تحويلاً يتوسلُّ بأفعال قولية إلى تحقيق أغراض إنجازية وغايات تأثيرية تخصُّ ردود فعل المتلقي (كالرفض والقبول)، ومن ثمَّ فهو فعل يطمح إلى أن يكون ذا تأثير في المخاطب، اجتماعياً أو مؤسسياً لإنجاز شيء ما، وهو المقصود من نظرية أفعال الكلام برمتها، ويُقصد به أن المتكلم حين ينطق بقول ما، فهو ينجز معنى قصدياً، وهو ما أسماه أوستن بقوة الفعل، وقد بيَّنت هذه الدراسة دور المقام في صنع الخطاب وتشكيله لغوياً، فضلاً عن اختيار الكلمات والتراكيب المناسبة بما يُؤهله لأداء المعنى، وقد كان أغلب الشعراء العباسيين على دراية بأهمية المقام وهم يخاطبون الخلفاء، كما

(١) تاريخ الخلفاء، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي: ٢٢٩.

(٢) ما الخطاب وكيف نحله؟، د. عبد الواسع الحميري: ٢٥٧.

(٣) عيار الشعر: ٢٢.

أسهمت الدراسة في إثبات إنجازية الخطابات الشعرية التي كانت تقال بين يدي الخلفاء، وهي لا تفسر كيفية بنائها ونموها الموضوعاتي وأدوات اتساقها فحسب، بل تفسر نوعية العلاقة التواصلية القائمة بين المتكلم (المبدع) والمتلقي عبر النص الإبداعي المنتج، كما نهت المحاور إلى أن الشعر لا يُعدُّ فتاً إبداعياً فحسب، بل هو فكرٌ وتصورات ومفاهيم لها أثرها اللغوي الفاعل في نفوس المتلقين وتوجهاتهم. مبينة ضرورة مقارنة الشعر مقارنة تبتعد عما اعتادت عليه معظم الدراسات الأدبية التي تناولت هذا الشعر من الواجهة الفنية أو الشكلية فحسب، أما كيف أنجز هذا العمل، ومن أنجزه، ولماذا أنجز؟ وما دلالاته بالنسبة لمن أنجزه ولبن تلقاه؟ وما هي المضامين والرؤى التي تحملها؟ فأسئلة كثيرة ما نفتقد لها جواباً في النقد الاعتيادي، فالشعر عامة والشعر الذي كان يقال بين يدي الخلفاء والأمراء خاصة لا يخضع للشروط الجمالية وحدها، وإنما تُراعى فيه الشروط التداولية والاجتماعية التي تقتضي صوراً من السلوك القولي بحسب المقامات، فهو يقتضي منا ضروباً خاصة من الاستغلال النقدي، فكانت التداولية برأينا المنهج الأنسب لمقارنة هذا النوع من الشعر.

المصادر والمراجع

- آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، د. محمود أحمد نحلة، ط١، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية - مصر، ٢٠٠٦م.
- الإبداع والسلطة في شعر العصر العباسي الأول، الشاعر والخليفة، د. عيسى المصري.
- إستراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية، عبد الهادي بن ظافر الشهري، ط١، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت - لبنان، ٢٠٠٤م.
- أشجع السليحي حياته وشعره، د. خليل بليان الحسون، ط١، دار المسيرة، بيروت - لبنان، ١٩٨١م.
- الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني (ت ٣٥٦هـ)، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ١٩٨٦م.
- البيان والنبين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق فوزي عطوي، د. ط، دار صعب، بيروت - لبنان، د. ت.
- تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان، ترجمة د. عبد الحليم النجار، د. ط، دار المعارف، القاهرة - مصر، ١٩٥٩م.
- تاريخ الخلفاء، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت ٩١١هـ)، ط١، دار ابن حزم، بيروت - لبنان، ٢٠٠٣م.
- التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد، صلاح إسماعيل عبد الحق، ط١، دار التنوير، بيروت - لبنان، ١٩٩٣م.
- التداوليات علم استعمال اللغة، (مجموعة باحثين) إعداد وتقديم د. حافظ إسماعيلي علوي، ط١، عالم الكتب الحديث، إربد - الأردن، ٢٠١١م.
- التداولية عند العلماء العرب (دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية) في التراث اللساني العربي، د. مسعود صحراوي، ط١، دار الطليعة، بيروت - لبنان، ٢٠٠٥م.
- التداولية اليوم، علم جديد في التواصل، أن رويول وجاك موشلار، ترجمة د. سيف الدين دغفوس ود. محمد الشيباني، ط١، المنظمة العربية للترجمة، بيروت - لبنان، ٢٠٠٣م.
- تهذيب اللغة، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهرى (ت ٣٧٠هـ)، تحقيق: عبد السلام هارون، د. ط، المؤسسة المصرية العامة، ١٩٦٤م.
- جمهرة اللغة، أبو بكر محمد بن الحسن الأزدي البصري المعروف بابن دريد (ت ٣٢١هـ)، ط١، دار صادر، بيروت - لبنان، ١٣٤٤هـ.

- الحجاج في الشعر العربي القديم، من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة، بنيته وأمايبه، د. سامية الدريدي، ط ١، عالم الكتب الحديث، ليريد-الأردن، ٢٠٠٨م.
- خطاب الطبع والصنعة (رؤية نقدية في المنهج والأصول)، د. مصطفى درواش، د.ط، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق-سوريا، ٢٠٠٥م.
- الخطاب في الشعر، د. محمد منال عبد اللطيف، ط ١، دار البركة، عمان-الأردن، ٢٠٠٣م.
- الخطاب القرآني - دراسة في البعد النداولي، د. مؤيد آل صونيت، ط ١، مكتبة الحضارات، بيروت - لبنان، ٢٠١٠م.
- ديوان إبراهيم بن هرمة، تحقيق محمد جبار المعبيد، د. ط، مطبعة الآداب، نجف - العراق، ١٩٦٩م.
- رحلة الشعر من الأموية إلى العباسية، د. مصطفى الشكعة، ط ٣، عالم الكتب، بيروت - لبنان، ١٩٧٩م.
- الشعر الأموي بين الفن والسلطان، عبد المجيد حسين زراقط، ط ١، دار الباحث، بيروت - لبنان، ١٩٨٣م.
- شعر شديف بن ميمون، جمع وتحقيق: رضوان مهدي العبود، ط ١، مطبعة العربي الحديثة، نجف- العراق، ١٩٧٤م.
- شعر منصور النمرى، تحقيق الطيب العماش، د.ط، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، اتحاد طباعة دار المعارف، القاهرة - مصر، ١٩٨١م.
- شعرية التفاوت، مدخل لقراءة الشعر العباسي، د. محمد مصطفى أبو شوارب، د.ط، دار الوفاء، الإسكندرية - مصر، ٢٠٠١م.
- صحيح مسلم، الإمام أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري ت ٢٦١هـ، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقى، د.ط، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة مصر، د.ت.
- طبقات الشعراء، عبدالله بن المعتز بن المتوكل بن المعتصم بن هارون (ت ٢٩٦هـ) تحقيق عبدالستار أحمد فراج، ط ٤، دار المعارف، القاهرة-مصر، ١٩٨١م.
- العباسيون في سنوات التأسيس، د. عصام سخيني، ط ١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت - لبنان، ١٩٩٨م.
- العصر العباسي الأول، د. شوقي ضيف، ط ١٤، دار المعارف، القاهرة-مصر، ١٩٦٦م.
- العصر العباسي الأول - دراسة في التاريخ السياسي والإداري والمالي -، عبد العزيز الدوري، ط ١، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت - لبنان، ٢٠٠٦م.
- العقل واللغة والمجتمع الفلسفة في العالم الواقعي، جون سيرل، ترجمة: س. الغانمي، ط ١، منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة-الجزائر، ٢٠٠٦م.

- العمدة في محاسن الشعر وأدابه، أبو علي الحسن بن رشيق الفيرواني (ت ٤٥٦هـ).
- تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ٢٠٠١م.
- عيار الشعر، محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي (ت ٣٢٢هـ)، تحقيق: عباس عبد السّاتر، ط ٢، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ٢٠٠٥م.
- الفلسفة واللغة، نقد المنعطف اللغوي في الفلسفة المعاصرة، د. الزواوي بغورة، ط ١، دار المطبوعة، بيروت - لبنان، ٢٠٠٥م.
- في البراجماتية: الأعمال الإنجازية في العربية المعاصرة دراسة دلالية ومعجم سبافي، د. علي محمود حجي الصراف، ط ١، مكتبة الآداب، القاهرة - مصر، ٢٠١٠م.
- لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين بن مكرم بن منظور، د. ط، دار صادر، بيروت - لبنان، ١٩٥٥م.
- ما الخطاب وكيف نحلله؟، د. عبد الواسع الجميري، ط ١، مجد المؤسسة الجامعية، بيروت - لبنان، ٢٠٠٩م.
- مبادئ النقد الأدبي، إ.أ. ريتشاردز، ترجمة: د. مصطفى يدوي، د. ط، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة - مصر، ١٩٦١م.
- مدخل إلى التحليل اللساني للخطاب الشعري، د. نعمان بوقرة، ط ٢، عالم الكتب الحديث، إربد - الأردن، ٢٠٠٨م.
- مدخل إلى النظرية الأدبية، جوناثان كولر، ترجمة: مصطفى بيومي عبد السلام، المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة - مصر، ٢٠٠٣م.
- مروج الذهب ومعادن الجواهر، أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، (ت ٣٤٦هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر، ط ٢، ١٩٤٨م.
- المصطلحات المفتاح لتحليل الخطاب، دومينيك مانفونو، ترجمة محمد يحياتن، ط ١، منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة - الجزائر، ٢٠٠٨م.
- المعجم الفلسفي، عادل فاخوري، معهد الإنماء العربي، ط ١، ١٩٨٨م.
- معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (ت ٣٩٥هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، د. ط، دار الفكر، بيروت - لبنان، ١٩٧٩م.
- مكونات الإبداع في الشعر العربي القديم ابن طباطبا نموذجاً، رانية محمد شريف صالح العرضاوي، ط ١، عالم الكتب الحديث، إربد - الأردن، ٢٠١١م.
- نبرات الخطاب الشعري، د. صلاح فضل، دار قباء، القاهرة - مصر، ١٩٩٨م.
- نظرية أفعال الكلام العامة (كيف ننجز الأسماء بالكلام)، جون لانكشواوستين، ترجمة عبد القادر قينيني، ط ٢، دار أفريقيا الشرق، الدار البيضاء - المغرب، ٢٠٠٨م.
- نظرية المصطلح النقدي، عزت محمد جاد، ط ١، الهيئة المصرية العامة للكتاب،

- القاهرة - مصر، ٢٠٠٢م.
- نظريات الشعر عند العرب، الجاهلية والعصور الإسلامية، مصطفى الجوزو، ط٢، دار الطليعة، بيروت - لبنان، ١٩٨٨م.
- النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، عبد الله الغداهي، ط٢، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء- المملكة المغربية، ٢٠٠٥م.
- النقد الأدبي الحديث، محمد غنيمي هلال، د.ط، دار العودة، بيروت- لبنان، ١٩٧٣م.
- هل يوجد نص في هذا الفصل؟ سلطة الجماعات المفسرة، سقاني فشي، ترجمة وتقديم: أحمد الشحي، ط١، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر، ٢٠٠٤م.
- الرسائل والأطوارح الجامعية
- إستراتيجية الخطاب الشعري عند أبي الطيب المنفي مقارنة تداولية، خليفة بولقعة، إشراف د. محمد قريبيز، كلية الحقوق والعلوم الاجتماعية/ قسم اللغة العربية وأدائها، جامعة عمارتليجي، الأغواط، الجزائر، ٢٠٠٨م.
- تداولية الخطاب الأدبي ك دومينيك مانقينو- دراسة وترجمة - مني بدري، إشراف د. عبد القادر يوزيدة، (رسالة ماجستير)، كلية الآداب، جامعة الجزائر، الجزائر، ٢٠٠٨م.

❖ الدوريات

- بنية الخطاب السردي، مقارنة تداولية، بن قندوز هواري، مجلة اللغة والأدب، قسم اللغة العربية وأدائها، كلية الآداب واللغات، جامعة الجزائر، ع١٧٤، ٢٠٠٦م.
- سلطة الكلام وقوة الكلمات، د.أبو بكر العزاوي، مجلة المناهل، تصدرها وزارة الثقافة والاتصال المغربية، ع٦٢-٦٣، ٢٠٠١م.
- كيف نجز الأشاء بالكلمات؟ د. محمد حسن عبد العزيز، مجلة كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، ١٨٤، ١٩٩٥م.
- مقدمة لدراسة التطور الدلالي في العربية الفصحى في العصر الحديث، أحمد محمد قدور، مجلة عالم الفكر، وزارة الإعلام في الكويت، مج١٦، ع٤٤، ١٩٨٦م.
- الوصايا في الشعر العربي القديم، د. سهام الفرع، مجلة البيان، الكويت، ع٢٥٧، ١٩٨٧م.

الاقتضاء التخاطبي

دراسة تداوليَّة في آيات من سورة الأنعام

م. م. نوروليد^١

❖ مدخل

عُنيت هذه الدراسة بموضوع التداوليَّة التي تُعد منبجاً جديداً أخرج اللسانيات مما كانت عليه بعزلها للغة عمّا يُحيط بها من ظروف المتكلم والمتلقي وأثر تلك الظروف على الحدث الكلامي، أي باعنائها باللغة دون الكلام وبالكفاءة دون الأداء، فجردت التَّصوُّص واختزلتها ولم تصل إلى مرادها، فجاءت التداوليَّة بوصفها جزءاً لا يتجزأ من اللسانيات فأكملتها من خلال تركيزها على المتكلم وعلاقته بالمتلقي وكيفية فهم الأخير لما يُريده المتكلم بالضبط لا ما تعنيه العبارة، فعدت الأفعال إنجازاً لعمل ما أثناء قولها، لا قولها وتأثير ذلك في المتلقي، وهي بذلك سلطت الضوء على التواصل بين مُستعملي اللغة فعالجت التَّصوُّص في بؤرة التواصل اللغوي، فضلاً عن أنها درست المِسياق بكل أشكاله بوصفه أهم أجزاءها ودعامته من دعائم التواصل، ولم تكن بالسِّياق وعلاقات الألفاظ فيما بينها بل خصت ما يُراد من الألفاظ غير المنطوقة والتي يتوصل إليها المتلقي بالاستنتاج والإستدلال جزءاً كبيراً من عنايتها.

إنَّ الدراسات الغربية الحديثة ربما تأثرت بالتراث العربي فعملت على فتح أوراقه بشكل جديد وأبانت عن كثير مما كان مُختبئاً في جوانبه، وطُورت أموراً، وكشفت أخرى، وقد يعود سبب ذلك إلى أنَّ الغربيين درسوا ودرَّسوا التُّراث العربي كثيراً في جامعاتهم واستوعبوه وأخرجوه بحلته هذه.

التداوليَّة: قاعدة اللسانيات، وهي درس جديد وغزير^(١)، وهي في أبسط تعاريفها: العلاقات التي تُشير إليها التراكيب اللغوية، والعلاقات القائمة بين اللغة والسِّياقات التي تُستعمل فيها، والذين يصنعون هذه السِّياقات هم الناطقون بالغة^(٢). وقد عُرفت بأنها دراسة العوامل التي تحكم اختيارنا للغة في التفاعل الاجتماعي، وتأثيرات هذا الاختيار في الآخرين، وكيف يتوصل هؤلاء إلى الأسس العامة التي يعتمد

• كلية التربية - جامعة الموصل

(١) المقاربة التداوليَّة: فرانسواز أرمينكو، ترجمة: د. سعيد علوش، ص. ٧.

(٢) منازل الرؤية - منهج تكاملي في قراءة النص: د. سمير شريف أستينبة، ص. ١١٥، ١١٢.

عليها الناس في تفاهمهم^(١)، فهي تُعالج (كيف تتفاعل الخصائص اللغوية والعوامل النصية في تأويل الملفوظات لتمكن السامعين من جسر الفجوة بين معنى العبارة ومعنى المتحدث)^(٢).

وتُعنى التداولية بالعلاقات بين الخطابات ومنشئها وبين العلامات ومستعملها، وأبرز مقولاتها الانجاز، والسِّياق، والفعل بنوع خاص، وذلك حيث الكلام يُعامل بوصفه فعلاً يُنجز في سياقه، سواء من جانب المتكلم أم من جانب المتلقي^(٣). وتُعنى أيضاً باستعمال اللغة، وتدرسيها بوصفها ظاهرة خطابية وتواصلية واجتماعية في الوقت نفسه، وتدرس التلاؤم بين التعمير الرمزية والتبنيات المرجعية والمقامبة والحديثية واللسانية، وتصف معنى الملفوظات في سياقها، وتنصب أكثر عنانيها على دراسة اندماج مشاريع معرفية متعددة في ظامرة التواصل اللغوي وتفسيره؛ لأن كل شيء عند الإنسان هو تواصل، فالإنسان نفسه - وهو مباشر أداوره الاجتماعية - هو موضوع التداولية^(٤)، وهذا فهي تُعد مجالاً جديداً في حقل الدراسات الإنسانية وليس في مجال اللسانيات حسب^(٥).

وتدرس التداولية كيفية استعمال المتكلمين للغة بطرائق لا يُمكن التنبؤ بها من خلال المعرفة اللغوية فقط... فهي ليست علماً لغوياً محضاً بالمعنى التقليدي، علمه يكتفي بوصف البنى اللغوية وتفسيرها ويتوقف عند حدودها وأشكالها الظاهرة، ولكنها علمٌ جديدٌ يدرس الظواهر اللغوية في مجال الاستعمال والتواصل فتصبح التداولية بذلك جديرة بأن تُسمى (علم الاستعمال اللغوي)^(٦)، فهي تجعل النص في خضم دورة التواصل^(٧)، ونصف وظائف الأقوال اللغوية وخصائصها خلال إجراءات التواصل.

(١) شظايا لسانية: أ. د. مجيد الماشطة، ٨٧-٨٨.

(٢) التداولية محاولة لضبط الدرس اللساني تجريبياً: فالج حسن، مجلة الأعلام، عدد خاص عن التداولية، أيلول/تشرين الأول، ٢٠٠٨/٥، م، ٢١.

(٣) العالم ومأزقه، ١٥٣. وسيرك هو الذي أشار إلى دراسة العلامة من خلال قوله بأن لباس الشرطة واللحنم يخاتم الزواج كلها أعمال كلامية وإن لم تستخدم الكلمات يقول الشخص من خلالها أنا شرطي وأنا متزوج: العقل واللغة والمجتمع، ٢٢٨.

(٤) التداولية من أوستن إلى غوفمان، ١٨-١٩، ١٨٥، والمصطلحات المقابح لتحليل الخطاب، ١٠١، والتداولية عند العلماء العرب - دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، ٢٦.

(٥) لسانيات الخطاب وأتساق الثقافة - فلسفة المعنى بين نظام الخطاب وشروط الثقافة: د. عبد الفتاح أحمد يوسف، ٣٥.

(٦) شظايا لسانية، ٨٨، والتداولية عند العلماء العرب - دراسة تداولية لظاهرة (الأفعال الكلامية) في التراث اللساني العربي: د. مسعود صحراوي، ١٦-١٧.

(٧) المقاييس الأسلوبية في الدراسات القرآنية: د. جمال حضري، ٢١٠.

بشكل عام مما يجعلها ذات صبغة تنفيذية عملية^(١)، فضلاً عن أنها تركز أهمية الكون الذي تنشئه اللغة وتعكس خطورة القوة الإنشائية لها بوصفها - أي اللغة - قانوناً صارماً يشرع لا للتفكير والتواصل فحسب بل وللمسلوك كذلك^(٢).

ويعمل التواصل على توطيد العلاقة بين اللسانيات والثقافة لما يمتاز به من ثراء معجمي وثقافي^(٣)، فالتيادولية تعد مرحلة مهمة للإنسان في التعرف على الأشياء، وفهم أسرار الكون، وهي مرحلة مهمة تلي مرحلة التواصل للإنسان، فتداول فكرة ما أو عبارة ما في أي مجتمع لا تتم إلا بعد وجود تواصل بين أفراد هذا المجتمع^(٤).

يبدو مما سبق وجود علاقة وطيدة بين التواصل والتيادولية فيما أنها تلتها هي التأكيد سترتكز عليه وستكون هي بناءه المتين الذي يجب أن يؤسس بدعائم مهمة وهذا ما فعلته التيادولية من خلال دراستها لعملية التأثير في المتلقي، وإن كان هذا المفهوم غير لغوي، إلا أنه ذو تأثير في الجوانب اللغوية، فكلما كانت أكثر متانة وقوة وتماسكاً جعلت المتلقي يقوم بعمل ما أو يبتعد عنه أو يرفض أو يحب أو يكره أو يتمنى إلى غير ذلك، هذا من جهة المتلقي، أما المتكلم فتمنحه معرفة أكبر بطرائق التأثير مما يؤدي به إلى التعديل في سلوكه أو تغييره وتطويره ليصبح ذا أثر جلي في المتلقي، ويجب أن يكون لدى كل من المتكلم والمتلقي قدرات كالتمكن من اللغة والصرف والنحو والمعجم وغير ذلك.

ولم يستعمل أكثر المهتمين بالتيادولية تعريب المصطلح (براجماتية) بل عمدوا إلى استعمال ترجمته؛ وذلك لاحتراز خلط هذا (المصطلح الوليد باستخدام الدال نفسه لمصطلح آخر يختلف معه في الوجود وفي المفهوم)^(٥).

وحسب مفهوم التيادولية (تنتقل الحقيقة من طابعها الدلالي المتعلق بقيمتي الصدق والكذب إلى طابعها التداولي المتعلق بقيم الاستعمال والفعالية والتأثير)^(٦) وكانت أول ترجمة لمصطلح *Pragmatics* (التيادولية) على يدي الفيلسوف المغربي (د. طه عبد الرحمن) سنة ١٩٧٠م إذ يرى أن لفظة التداول تفيد في العلم الحديث

(١) بلاغة الخطاب وعلم النص: د. صلاح فضل، ١٠.

(٢) من قضايا الفكر اللساني في النحو والدلالة واللسانية: صابر العباشة، ١٨.

(٣) لسانيات الخطاب، ٤٧.

(٤) م، ن، ٤٨.

(٥) في التيادولية... إشكالية المصطلح بين المفهوم والترجمة والتعريب: د. محمد بنوع، مجلة الأفلام، عدد خاص عن التيادولية، أيلول / تشرين الأول، ٢٠٠٨/٥، م، ٣٠.

(٦) الفلسفة والبلاغة - مقارنة حجاجية للخطاب الفلسفي: د. عمارة ناصر، ٦٨.

الممارسة وتفيد أيضاً التفاعل في التخاطب^(١).

وترجم (د. محمد محمد يونس علي) المصطلح إلى (التخاطبية)^(٢) إذ يقول: (وإذا نظرنا في تراننا البلاغي، والأصولي فسنلاحظ أن الاستعمال - الذي يقابل الوضع عادة - يطلق على النشاط الذي يقوم به المتكلم في عملية التخاطب، ولذا فإن ترجمة *Pragmatics* بعلم التخاطب أنسب)^(٣). ولكن سيتبادر إلى الأذهان عند ترجمة المصطلح إلى (التخاطبية) بأنه (نظرية لتحليل الخطاب، وإن اللسانيات نظرية للجملة، فتقابلها أو تكملها ذلك إن لسانيات الخطاب تقتضي بنية خطابية وقواعد خطابية)^(٤). ويرى (سعد مصلوح) استعمال (المقاميات)، فضلاً عن وصف المباني والمعاني الوظيفية للغة يُعنى الباحث بتشخيص المقام وربطه بالاستعمال اللغوي^(٥). إلا أن هذا المصطلح لا يُغطي المصطلح الأجنبي فال *Pragmatics* لا تُعنى فقط بالمقام وربطه بالاستعمال فهي تدرس أيضاً أفعال الكلام والنظرية الحوارية والتلويح وغير ذلك. وأما (هشام إبراهيم عبد الله الخليفة) فيفضل استعمال مصطلح (الفعليات) بدلاً من غيره^(٦)؛ بسبب كونه يشمل ما نعنيه حين نتكلم على المعنى أو المعزى (الفعلي) للكلام تمييزاً عن المعنى اللغوي الوضعي الذي هو موضوع علم الدلالة، ويشير إلى كون اللغة نوعاً من الفعل وهذا واضح في نظرية أفعال الكلام التي تشكل الجزء الأهم في الفعليات^(٧). ولكن هذا المصطلح لا يستوعب كل مفاهيم المصطلح الأجنبي لأن الناظر فيه سيفهم أنه منهج خاص بالأفعال وهذا غير صحيح لأن التداولية تضم مفاهيم ونظريات عديدة حتى وإن كانت أفعال الكلام أكبر جزء منها. وهناك من ترجمها بـ (القصدية)^(٨). وقد اختار البحث مصطلح (التداولية) دون

(١) استراتيجيات الخطاب - مقارنة لغوية تداولية - عبد الهادي بن ظافر الشهري، ٥٧٤، والأسس

الإبستمولوجية والتداولية للنظر التحوي عند ميبويه، د. ادريس مقبول، ٢٦٢.

(٢) وصف اللغة العربية دلالتها في ضوء مفهوم الدلالة المركزية - دراسة حول المعنى وظلال المعنى: محمد محمد يونس علي، ١٦.

(٣) مدخل إلى اللسانيات، محمد محمد يونس علي، ١٠٢.

(٤) التداولية عند العلماء العرب، ٢٨.

(٥) علم لغة النص - المفاهيم والتجاهات - أ.د. سعيد حسن بحوي، هامش ٢٦٣.

(٦) نظرية الفعل الكلامي - بين علم اللغة الحديث والمباحث اللغوية في التراث العربي والإسلامي: هشام إ. عبد الله الخليفة، ١٦.

(٧) م.ن، ٢٦.

(٨) علاقات الحضور والغيب في شعرية النص الأدبي: د. سمير الخليل، ٢٢.

المصطلحات الأخرى لأنه الأكثر انتشاراً وقبولاً^(١)، والأكثر استيعاباً وتغطية للمصطلح الأجنبي. فلم نجد المصطلحات الأخرى إلا عند مقترحها وكتابتها.

❖ تطبيق المنهج التداولي في القرآن الكريم

عدت التداولية آلية في البحث اللغوي^(٢)، وُحددت على أنها اتجاه في الدراسات اللسانية^(٣)، إلا أن عدّها آلية أو اتجاهًا يقلل من شأنها فمفاهيمها المتشعبة، ونظرياتها العديدة، أعددتها لتكون منهجًا في الدراسات اللسانية.

والتداولية لا تكون مذهباً فالذهب له بطانة ايديولوجية يصعب تحريكها^(٤)، وهو يدلّ على الفلسفة التي تطرح جانباً النظر الماورائي وتقصّر همتها على دراسة المهاني لتبني خصائصها وقوانينها وبدل على التفكير الخيالي^(٥)، وهذا لا ينطبق على التداولية التي تركز على العلم والوقائع ففكرة المنهج تتطابق مع التداولية^(٦) فهو (يتكئ في الدرجة الأولى على مفاهيم عقلية أو منطقية أو علمية يمكن حراكها وتغييرها...) [ان الطابع المرن للمنهج يرتبط بصفة أساسية وهي اقتران المنهج بالعلم]^(٧).

ولعل سائلاً يسأل: إذا كان (لا ثبات في الأفكار والقيم والهويات من منظور تداولي؛ لأن كل ما يخضع للتداول بين الناس، يجري تحويله على نحو ما، إيجابياً أو سلباً، تومسحاً وتطورياً أو تراجعاً وانهيئاراً، ابتكاراً وثرارة أو مسحاً وافتقاراً. وهكذا فما دُمنا نتواصل ونتباحث أو نتبادل ونتفاعل، ثمة إمكانٌ لأن نُغَيِّرَ وَنَتَغَيَّرَ. تلك لغة التداول وذلك منطق التحول)^(٨) فكيف نطبق مثل هذا المنهج على دراسة سورة من سور

(١) على سبيل المثال، الوظائف التداولية في اللغة العربية، د. أحمد المتوكل، صدر في ١٩٨٥م. والمقاربة التداولية، ١٩٨٦م. و النحر والسياق - استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي: فان دايك: ترجمة: عبد القادر فليبي، ٢٠٠٠م. و التداولية اليوم - علم جديد في التواصل: أن رويول، و جاك موشلار، ترجمة: د. سيف الدين دغفوس، و د. محمد الشيباني، مراجعة: د. لطيف زينوني، ٢٠٠٣م، وإستراتيجيات الخطاب - مقارنة لغوية تداولية - ٢٠٠٤م، والأنسج الأيسنمولوجية والتداولية للنظر التحوي عند سيبيويه، ٢٠٠٦م. و عندما نتواصل نغير مقارنة تداولية معرفة لآليات التواصل والحجاج: د. عبد السلام عشير، ٢٠٠٦م، والتداولية من أوسغن إلى غوقمان، ٢٠٠٧م، ومجلة الأهللام، عدد خاص عن التداولية، ولف الباحثون مصطلح التداولية في عناوين دراساتهم، ٢٠٠٨/٥م.

(٢) في التداولية (بحث سابق)، ٢٠٠٨/٥م، ٢٦.

(٣) التداولية... النشأة والمفهوم: مؤيد عبده، مجلة الأهللام عدد خاص عن التداولية، أيلول/نشرين الأول، ٢٠٠٨/٥م، ٢٦، ومن قضايا الفكر اللساني في النحو الدلالة واللسانية، ١٨.

(٤) في النقد الأدبي: د صلاح فضل ١١.

(٥) المنهل: سهيل أدرمس، ود- جيور الثور، ٥٣٣.

(٦) ممن عدّ التداولية منهجاً على سبيل المثال: إستراتيجيات الخطاب، ٢٦، وعندما نتواصل نغير، ١٥.

(٧) في النقد الأدبي، ١١، ١٢.

(٨) العالم ومازقه - منطق الصدام ولغة التداول: علي حرب، ١٦.

القرآن الكريم؟

نقول: لا علاقة لنا بالنصوص فهي ثابتة ولا تتغير ولكن الذي يتغير طرائق التفكير والتحليل والأدوات المستعملة لذلك، فالتداولية (تأخذ في حياها العناصر السياقية المختلفة المرتبطة بعملية الإنتاج والتلقي مهما تفاوتت ملامسات التلقي عبر الزمن فارتبط التلقي بعناصر سياقية تداولية جديدة، فإذا اتسمت عملية الإنتاج بالثبات تاريخياً فإن عملية التلقي تنسم - بلا شك- بالتغير الدائم، فكل عملية تلقي جديدة تعني ارتباط التأويل بملامسات سياقية جديدة،... ومن هنا يمكننا القول بأن دراسة اللغة حال استعمالها لا يعني بحال من الأحوال قصر الاستعمال على الموقف الخطابي الأول المرتبط ارتباطاً مباشراً بالتلقي الأول، بل إن الاستعمال يعني أيضاً مراحل استعمالية متعددة عبر الزمن، فكل قراءة في مرحلة زمنية معينة هي بشكل ما مرحلة استعمالية جديدة^(١)، وهذا ما يتعلق بالضبط في عملية تفسير وتحليل وتأويل القرآن الكريم، مع الحفاظ على مرتكزاته العقائدية في آياته المحكمات فمن أوائل من فسره (ابن عباس، مجاهد بن جبر، الطبري، القرطبي) -على سبيل المثال- ومن جاء بعدهم كل واحد منهم نظر إلى الخطاب القرآني بطريقة مختلفة عن الآخر بحيث يتأثر بمن قبله ويؤثر فيمن بعده ومن هنا نجد معجزة القرآن العظيم باستيعابه للقراءات المتعددة والتأويلات المختلفة التي تضيف عليه مزيداً من العظمة المختلطة بالمشكل قال الإمام علي رضي الله عنه في وصية له لعبد الله بن العباس رضي الله عنهما لما بعثه للاحتجاج على الخوارج: (لا تُخاصمهم بالقرآن فإن القرآن حمالٌ ذو وجوه تقول ويقولون ولكن حاججهم بالسنة فإنهم لن يجدوا عنها محيصاً)^(٢) وبذلك فالقرآن العظيم قابل لتحليلات جديدة عبر الأزمنة كلها إلى قيام الساعة وهذا ما جعل أحد مزاياه القدرة على التأثير في الآخرين - وهذه غاية التداولية- بكافة الوسائل الممكنة إن لم يكن بهذا الأسلوب وهذه الطريقة فبأسلوب آخر وطريقة أخرى، فضلاً عن أن القرآن الكريم يكلم الناس على قدر عقولهم ويحاور تارة بأوضح عبارة، ويلوح بألطف إشارة تارة أخرى، كل ذلك دليل على تداولية الخطاب القرآني.

كثيراً ما اعتمد التواصل بين البشر وبشكل كبير على اللغة، وعلى الكم الهائل من المعلومات، والألفاظ التي تستوعمها، ولولا قدرتها الهائلة على الإيحاء والإيجاز، لما أمكن قول عبارات مكثفة بألفاظ يسيرة، وهذا تحديداً ما يُسمى (بالافتقضاء

(١) في التداولية (بحث سابق)، ٢٦-٢٧.

(٢) شرح نهج البلاغة الجامع لخطب ورسائل وحكم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب: ابن أبي العديد، ٢٣٦/٤.

التخاطبي) (*Conversational Implicature*). وواضع هذا المفهوم هو (غرايس).
اختار البحث ترجمة *Implicature* الى الاقتضاء بدلاً من الاستلزام^(١)، أو
التضمين^(٢)، إذ تستعمل في التراث العربي نفس لفظي الاستلزام أو اللزوم للدلالة بنوع
عام على أي واحدة من عمليتي الاستدلال، أي الاستلزام المنطقي *Logical*
Implication الذي هو محور علم المعاني و *Implicature* وهو من أهم المفاهيم
التداولية دون تفريق بينهما. إلا أن ثمة فوارق حاسمة دعت "غرايس" إلى اشتقاق
مصطلح جديد من المصدر *Implicate* ونخصيص عملية الاستدلال التي تجري في
التداول اللفظي باسم *Implicature* وعليه أخذ مصطلح الاقتضاء المستعمل في
أصول الفقه بمعنى شبيه بمفهوم (غرايس)^(٣).

فالقول الذي لا يتجاوز ظاهر لفظه، ولا يثير أسئلة، لا يقيم علاقة حجاجية بين
المتخاطبين، سواء أكان المعنى الذي يحمله خفياً أم صريحاً^(٤). فمثلاً قول الأم لابنها:
الطور جاهر.

فيجيب الابن: الدوام اليوم مبكراً على غير العادة.

فقد اعتمدت إجابة (الابن) رفض تناول الطور بسبب تقدم موعد الدوام الذي
لم يُقدّم سابقاً.

عدّ (غرايس) الاقتضاء التخاطبي السابق وأمثاله ضمن تصنيف عام لبعض المعاني
التي يمكن أن تستدل عليها العبارات اللغوية، فهناك معان صريحة وأخرى ضمنية.
وتشمل المعاني الصريحة ما يأتي:

أ. المحنوي القضوي: المتمثل في معاني مفردات الجملة. ب. القوة الانجازية الحرفية.
أما المعاني الضمنية فتشمل:

أ. المعاني العرفية المرتبطة بجمالها ارتباطاً يجعلها لا تتغير بتغير السياقات، وتنشطر إلى:
الافتراض المسبق والاستلزام المنطقي.

ب. المعاني السياقية التخاطبية تولد حسب السياقات التي تنجز فيها الجملة وهي
بذلك معانٍ اقتضائية تخاطبية^(٥). وقد افترض (غرايس) مبدأ تعاونياً لرصد هذه

(١) الاستلزام التخاطبي بين البلاغة العربية والتداوليات الحديثة: أحمد المتوكل (بعث ضمن كتاب)
التداوليات - علم استعمال اللغة، ٢٩٥.

(٢) عندما نتواصل نغير، ٤٦، والتداولية، ٦٥.

(٣) الاقتضاء في التداول اللساني: عادل فاخوري، مجلة عالم الفكر، الكويت، أكتوبر، نوفمبر،
ديسمبر، مج ٢٠، ٣/١٩٨٩م، ١٤١.

(٤) عندما نتواصل نغير، ٢٠٧.

(٥) بين تداوليات سورل وتفكيكية درسا: عبد الله بري، (بعث ضمن كتاب) التداوليات، ٢٦٦.

الاقتضاءات التخاطبية التي يعدها خرقاً لمبدأ أو أكثر من المبادئ، وسابقاً كان يتوقف تأويل الملفوظات على عاملين اثنين هما، معنى الملفوظ، والسياق المقامي لإنتاجه. وأضافت النظرية هذه عاملاً ثالثاً تمثل في مبدأ التعاون^(١). بعد الاقتضاء عند كثير من اللغويين واحداً من المفاهيم الأساسية في التداولية؛ فالأقتضاء مثال حي ونابض للأكثر الذي يتم إيصاله دون قول^(٢)، والذي يمكن استدلاله بقرائن الأحوال والعلاقة بين القول والسياق^(٣). وأنواع الاقتضاء التخاطبي هي:

١- الاقتضاء العام *Generalized Implicature*

٢- الاقتضاء الخاص *Special Implicature*

وسيدرسان بالتفصيل، وهناك اقتضاء آخر هو الاقتضاء العرفي *Conventional Implicature* الذي لا ينجم عن مبادئ تداولية عليا كحكم وقواعد التخاطب، بل إنه يعود إلى المفردات المعجمية بالعرف أو بالاتفاق^(٤).

وعُدت الأفعال الكلامية غير المباشرة اقتضاءات تخاطبية^(٥)، ويبدو أن هذا الرأي غير دقيق فقد يكون هناك تقارب بينهما ولكن بشكل بسيط، وهو أن معنى الجملة المراد غير ظاهر بل يُعرف من قرائن الأحوال والسياق، فمثلاً قول أب لولده: - أعتقد أن الأذان قد حان، هل تذهب معي إلى المسجد؟ هي جملة ظاهرها استفهام، إلا أن الاستفهام ليس فعلاً كلامياً مباشراً بل غير مباشر، وهو أمر بالذهاب، أي: اذهب معي إلى المسجد

ومعنى الجملة الاقتضائي غير ذلك، فهي تقتضي أن: وقت الأذان قد حان فعلاً وليس اعتقاداً، / أو أن الأب في مرحلة تعليم ولده الصلاة / أو الأب متدين والابن على عكسه. فالأقتضاء إخفاء المعنى، إلا أن الفعل الكلامي غير المباشر لفظه موجود، ولكننا نأخذ المعنى غير المباشر له.

(١) ما التداوليات: عبد السلام إسماعيلي علوي، (بحث ضمن كتاب) التداوليات، ٢١.

(٢) التداولية، جورج يول، ترجمة: د. قصي العتاي، ٧٩.

(٣) عندما نتواصل نفير، ٤٧.

(٤) الاقتضاء في التداول اللساني (بحث سابق)، ١٦٤.

(٥) الفعل اللغوي بين الفلسفة والبلاغة، عرض وناصيل لمفهوم الفعل اللغوي لدى فلاسفة اللغة ونظرية النحو الوظيفي: يحيى بمبیطش (بحث ضمن كتاب) التداوليات، ٢٠٧.

❖ الاقتضاء التخاطبي عند العلماء العرب

اللغة كلها اقتضاء على وفق قول عبد القاهر الجرجاني: (وأما (نظم الكلم) [فإنك] تفتضي في نظمها آثار المعاني، وترتبها على حسب ترتب المعاني في النفس. فهو إذن نظم يُعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض، وليس هو (النظم) الذي معناه ضم الشيء إلى الشيء كيف جاء [ف] ليس الغرض بنظم الكلم أن توالى ألفاظها في النطق، بل أن تفاسقت دلالتها وتلاقت معانيها، على الوجه الذي اقتضاه العقل)^(١).

والاقتضاء في اللغة من قضى (فإن كل ما أحكم عمله أو أتم أو حتم أو أذى أداء أو أوجب أو أعلم أو أنفذ أو أمضى فقد قضى)^(٢)، والمقتضي نحو أخ وشريك وابن، كل واحد منها إذا ذكر اقتضى غيره لأن الشريك مقتضى شريكاً والأخ مقتضى آخر^(٣)، أي: مطالبة المعنى لغيره كأنه ناطق بأنه لا بد منه^(٤).

وورد الاقتضاء عند النحويين نحو قولهم: (لا يكون الاسم مجروراً إلا بالإضافة وهي المقتضية للجر، كما أن الفاعلية والمفعولية هما المقتضيان للرفع والنصب)^(٥)، وقد ربطوا الاقتضاء بنظرية العامل^(٦)، وأما عند البلاغيين فقد ورد الاقتضاء، بمعنى قريب قريب من المعنى الحديث وذلك ما يعرف بـ (المعنى الضمني، أو المعنى غير الحرفي، أو معنى المعنى)^(٧)، وهي نظرية (النظم) لعبد القاهر الجرجاني.

وقد أدرك علماء الأصول هذه الظاهرة، حين جعلوا (الفهم) صفة السامع والإفهام صفة المتكلم، وقسموا الدلالة على قسمين: لفظية وغير لفظية والثانية قد تكون وضعية أو عقلية^(٨).

وقسموا الأحكام الثابتة بظواهر النص على أربعة أقسام: الثابت بعبارة النص،

(١) دلائل الإعجاز في علم المعاني: عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني (ت. ٤٧٠هـ). تحقيق: د. عبد الحميد منداوي، ٤٢، وللاستزادة عن موضوع الاقتضاء بشكل مفصل: الاقتضاء: دلالاته وتطبيقاته في أسلوب القرآن الكريم: د. أشواق محمد إسماعيل النجار.

(٢) لسان العرب: جمال الدين محمد بن منظور (ت. ٧١١هـ)، ١٨٦/١٥.

(٣) الصحاح في فقه اللغة العربية ومماثلها وسنن العرب في كلامها: أبو الحسين أحمد بن فارس (ت. ٣٩٥هـ)، ٥١.

(٤) الفروق في اللغة: أبو هلال الحسن بن عبد الله العمكري (ت. ٣٩٥هـ، ٢٨٥).

(٥) المفصل في علم العربية: أبو القاسم جبار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت. ٥٢٨هـ)، وبذيله كتاب المفصل في شرح أبحاث المفصل: السيد النعماني، ٧١.

(٦) والاستزادة كتاب مشكلة العامل النحوي ونظرية الاقتضاء: د. فخر الدين قباوة.

(٧) الألفاظ الكلامية والاستلزام الحوارية بين القدماء والمحدثين: د. نادية رمضان النجار (يعت منشور على الإنترنت)، www.dr.nasioramudon.9f.com.

(٨) البحر المحيط للزركشي، ٢/١، ٢٦٨، ٢٦٩.

والثابت بإشارته، والثابت بدلالته، والثابت بمقتضاه، وهذا الأخير عبارة عن زيادة على المنصوص يشترط تقديمه ليصير المنظوم مفيداً أو موجباً للحكم وبدونه لا يمكن أعمال المنظوم فكان المقتضى مع الحكم مضافين إلى النص ثابتين^(١). فالأقتضاء يحتاج إلى تأمل ونظر فهو إسقاط شيء من الكلام، ولا يتم الكلام إلا به نظراً إلى العقل أو الشرع أو إليهما لا إلى اللفظ^(٢).

وهذا نجد أن الاقتضاء موزع بين علوم العربية لا يوجد علم إلا ونراه فيه، وهذا دليل واضح على أهميته وأن اللغة والتواصل لا يمكن أن يتما إلا بوجوده.

❖ المبحث الأول: الاقتضاء الخاص

يُعتمد على السياق في فهم النصوص وإدراك مكنوناتها بوعي؛ وذلك لأهميته من جهة ولأن المتكلم لا يمكنه قول كل شيء من جهة أخرى، فيذهب متعمداً إلى التكنيف والإيجاز وقول عبارات قليلة بمراد كثيرة؛ لتسويق الملقى وترغيبه أو إيمكاته وإفحامه وزلزلة معتقداته أو إفناعه وغير ذلك، فالمخفي دائماً يحمل إبعاءات تؤثر أكثر مما يؤثر القول الصريح، وإن هذا المخفي والموجي قام "غرايس" بتسميته الاقتضاء الخاص.

يُعرف الاقتضاء الخاص بكونه يتطلب وجود سياق حالي معين، وهو أكثر أنواع الاقتضاء التخاطبي شيوعاً. فاقْتِضَاؤُنَا ل سَمِيرٍ هُوَ الْمَارِقُ مِنَ الْخَيْرِ أَنْ: سَمِيرٌ اشْتَرَى شِقَّةً.

لا يصح إلا استناداً إلى معرفتنا بظروف وأحوال مخصوصة، كحصول سرقه بنكسر وعدم وجود سمير في هذه المدة، وكون سمير معدوم الحال... الخ^(٣). فكلما حصل الملقى على معلومات عن السياق تكونت أمامه خطوط قوية لفهم الخطاب وتأويله^(٤). أراد الله سبحانه من الإنسان المسلم وغير المسلم أن يفكر بطريقة عقلية ولا يأخذ الأمور بشكل تقليدي، ولذلك نجد القرآن الكريم لم يقل: أنا أحسن الكتب أو أنا أفضل الكتب، إلا بدليل عقلي، فأول تحدٍ كان في قوله تعالى: ((قُلْ لَيْسَ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ

(١) أصول السرخسي: أبو بكر محمد بن أبي سهل السرخسي (ت- ٤١٩هـ)، حقق أصوله: أبو الوفاء الأحمدي منشورات محمد علي بوضون، ٢٣٨/١-٢٥٥، إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول: محمد علي بن محمد (ت- ١٢٥هـ)، تحقيق وتعليق: د. شعبان محمد إسماعيل، ٥٠/٢، ٦٧٧-٦٩٩.
(٢) البحر المعيط الرزكشي، ٢/٤/٢١٩، ٢٢٠، وقد درس كتاب علم التخاطب الإسلامي: د. محمد محمد بنونس علي. وتابع في دراسته المنهج التداولي الذي يُعنى بمسألتي اللغة والتخاطب.
(٣) الاقتضاء في التداول اللساني، (بحث سابق)، ١٦٢، ١٦٣، والتداولية، ٧٤، ٧٥.
(٤) لسانيات النص - مدخل إلى انموذج الخطاب، محمد خطابي، ٢٩٧.

ظهيراً)) [الإسراء: ٨٨] فقد فرض الخطاب القرآني فرضيات تقتضي القول بأن الكفار سيحاججون بقولهم: ما الذي يجمع الأنس والجن؟ هذا محال. فبدأ بالتسهيل عليهم. قال تعالى: (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتِطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) [هود/ ١٣] وإتيانهم بعشر سور مثل سورة البقرة أيضاً صعب. فنزل بهم في التحدي في قوله: (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) [البقرة/ ٢٣] وعندما لم يستطيعوا تحقيق أي شيء، انتصر القرآن الكريم، وهذا كان أولى تعدي.

ومما سبق اقتضت سورة الأنعام (إبطال جميع أنواع الشرك)^(١)؛ بدعوتهما إلى مخاطبة أصحاب العقول من خلال التفكير والتأمل في الخلق والكون لتحقيق الغرض الرئيس في المسورة (التوحيد) قال تعالى: (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبُرُوجِ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مَبِينٍ)) [الأنعام/ ٥٩] فالضمير [هو] يعود عليه سبحانه، والمشركون لبلاد عقولهم اختاروا الكفر. فالكفار وإن اتبعوا ملة آباؤهم إلا أنهم كانوا يفكرون أيضاً بدليل قوله تعالى عن الوليد بن المغيرة وهو أحد الكفار والمشركين: ((إنه فكر وقدر ○ فقتل كيف قدر ○ ثم قتل كيف قدر ○ ثم نظر ○ ثم عبس وبسر)) [المدثر/ ١٨-٢٢]

ومن هنا جاءت سورة الأنعام تركز على البعد العقائدي، فالعقيدة حتى تكون سليمة يجب أن تصل إليها عقلاً لا بالتلقي قال تعالى: (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) [محمد/ ١٩] (علم ولا تقلد ولا تردد من دون تفكير أو وعي بمعطيات العلم، وعلى الإنسان أن يجعل نور القرآن نوراً لعقله، والمسلمون الأوائل نشروا بهذه الطريقة الإسلام، وما قصة سيدنا إبراهيم (عليه السلام) في السورة إلا اقتضاء لذلك،

قال تعالى: ((وإذ قال إبراهيم لأبيه أزر أتخذ أصناماً آلهة إنني أراك وقومك في ضلال مبين ○ وكذلك نرى إبراهيم منكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين ○ فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الأفلين ○ فلما

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي (ت ٨٨٥هـ)، ٦/٧، وأنواع الشرك هي عند اليهود والنصارى والذنوبية والصابئون وأصحاب الروحانيات: م. ن. ٦/٧.
• نزلت سورة الأنعام كلها جملة واحدة ونزل معها سبعون ألفاً من الملائكة لأنها مشتملة على دلائل التوحيد والعدل والنبوة والمعاد وإبطال مذاهب المبطلين والملحدين: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ١٨٢/٢، والتفسير الكبير أو مفاتيح الغيب: فخرالدين محمد بن عمر الرازي (ت ٧٦١هـ)، قدم له: هاني الحاج، حققه وعلق عليه: عماد زكي البارودي، ١٢٢/١٢/٦.

رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أهل قال لمن لم يهدني ربي لأكونن من الضالين ﴿ فلما رأى الشمس بازغاً قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قومي إني بريء مما تشركون ﴿ إني وجهت وجهي لربي فطر السماوات والأرض حديفا وما أنا من المشركين ﴾ [الأنعام/٧٤-٧٩].

كان قوم إبراهيم (عليه السلام) من الصابئة، ومؤلاء على فريقين: أصحاب الروحانيات، وهم عبدة الكواكب، وأصحاب الأشخاص، وهم عبدة الأصنام. وقد ناظر الخليل (عليه السلام) هذين الفريقين^(١). فالحجة تداولياً تقتضي الاستقامة في النظر والمضي فيه على طريق مستقيم من رد الفرع إلى الأصل^(٢)، وذلك يقتضي رد الأصنام والكواكب (الفرع) إلى خالقها الله تعالى (الأصل).

كان إبراهيم (عليه السلام) أكثر جدلاً وحججاً مع أبيه فقد كان أبوه اعلم القوم بعمل الأصنام، وكان القوم يشتركون منه ومن غيره^(٣). وعلى هذا جاء قوله تعالى: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرَزَّ أَتَّخِذُ مِنْكُمْ مُنَادًا أَلَيْهَ إِنِّي آرَاكُ وَقَوْمِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) [الأنعام/٧٤]. تقتضي (إذ) الذكرى والموعظة والإنذار، فهي غالباً ما تُذكر في أوائل قصص التنزيل مفعولاً به لفعل محذوف تقديره (أذكر)، أو ظرفاً لمضاف إلى مفعول محذوف، أي: واذكريا محمد قصة إبراهيم^(٤).

إن قصة إبراهيم (عليه السلام) في هذه الآية وما يلحقها من آيات تقتضي حجاج مشركي العرب ومجادلتهم ممن يدعون أنهم على ملته^(٥)، وذلك ب(تفنيد الحججة بالحجة لإثبات القضية نفسها وحدانية الله عز وجل)^(٦)، فهذه الآيات (تجمع الموضوع الأسامي في السورة وهو بناء العقيدة على قاعدة من التعريف الشامل بحقيقة الألوهية وحقيقة العبودية، وما بينهما من ارتباطات، ولكنه يعالجه في أسلوب آخر غير ما جرى به السياق، أسلوب القصص والتعقيب عليه مع استصحاب المؤثرات الموحية)^(٧).

(١) الملل والنحل: أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني (ت ٥٤٨هـ)، صححه وعلق عليه: أحمد فيبي محمد، ٣٤٨/٢-٣٥٤.

(٢) الفروق في اللغة، ٦١.

(٣) الملل والنحل، ٣٥٤/٢.

(٤) مقني اللبيب عن كتب الأعراب: جمال الدين عبد الله بن يوسف بن أحمد بن هشام الأنصاري (ت ٧٦١هـ)، قدم له ووضع حواشيه وفهارسه: حسن حمد. أشرف عليه وراجعته: د. إميل بديع يعقوب، ١٦٦/١، ١٦٧.

(٥) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي (ت ١٢٧٠هـ)، تحقيق وتخرج: د. السيد محمد السيد، وسعد إبراهيم عمران، ٢٥٠/٧/٤.

(٦) الترابط النصي في ضوء التحليل اللساني للخطاب: خليل بن ياسر البطاشي، ١٣٠.

(٧) في ظلال القرآن: سيد قطب، ٢٨٧/٧/٣.

ونجد في قوله تعالى: (أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) استظهاراً توبيخياً إنكارياً اقتضاه السياق يظهر تخوف إبراهيم (ﷺ) على أبيه وقومه من الهلاك، وجاءت (تَتَّخِذُ) و (أَرَاكَ) بصيغة المضارع فكانما هناك مُتَلَقٍ تتمثل أمامه بشاعة موقف عبادة الأصنام واتخاذها آلهة، فضلاً عن أن الدلالة الإيحائية لصيغة الجمع في (أَصْنَامًا آلِهَةً) تقتضي وجود اله واحد وليس آلهة متعددة، فعبادة الآلهة المتعددة عمل (باطل بالدليل العقلي الذي فهم من قوله تعالى: ((لَوْ كَانَ فِيهَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ)) [الأنبياء/٢٢])^(١)، وكذلك تعدد الأصنام باطل إذ (إن هذه الأصنام لو حصلت لها القدرة على الخير والشركان الصنم الواحد كافياً، فلما لم يكن الواحد كافياً دل ذلك على أنها وإن كثرت فلا تنفع فيها البتة)^(٢).

فضلاً عن أن عود الضمير في (قَوْمَكَ) على (أزري) يقتضي براءة إبراهيم (ﷺ) من أبيه وقومه، ويقتضي وصف الضلال بالإبانة في قوله: (في ضَلَالٍ مُّبِينٍ) توكيداً وتخصيماً لضلالهم وكون هذا الضلال لاشك فيه.

تأتي كاف (كذلك) في لغة التنزيل بمعانٍ متنوعة فهي للتشبيه، وذلك عندما يراد عقد الصلة بين أمرين، ولمح ما بينهما من ارتباط، وتأتي بمعنى مثل، ولتحقيق المعنى وتثبيته^(٣) نحو ما جاء في قوله تعالى: ((وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ))، وقد اختلف في تقرير الآية وإيضاح المراد، فإذا دلت (على تشبيه شيء بشيء والمشبه به ظاهر مشار إليه أو كالظاهر... فقد يكون المشبه به المشار إليه مذكوراً)^(٤)، أي: وكما أرىناه قبح الشرك نرى بصيرته بدائع خلق السماوات والأرض^(٥).

وهي بمعنى (مثل) عند الرازي (ومثل ما أرىناه من قبح عبادة الأصنام نرى ملكوت السماوات والأرض)^(٦)، إلا أن لفظة مثل هنا أفادت التشبيه ولم تفد معنى المثلثة

(١) التفسير الكبير، ٣٥/١٢/٧.

(٢) م. ن، ٣٥/١٢/٧.

(٣) من بلاغة القرآن: أحمد أحمد بصوي، ٢١٢-٢١٥، وأسماء الإتمارة في القرآن الكريم: عمر محمد عولي، أطروحة دكتوراه، بإشراف: أ.د. عبد الوهاب العدواني، كلية التربية، جامعة الموصل، ٢٠٠٣م، ١٦٨.

(٤) التحرير والتنوير: تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد: محمد الطاهر ابن عاشور، ١٦/٢/١.

(٥) تفسير القرآن الجليل - المسعى بمدارك التنزيل وحقائق التأويل: أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النمسي (ت ٧٠٠هـ)، ٤٨١/٧/١.

(٦) التفسير الكبير، ٣٥/١٢/٧.

[المطابقة التامة]. وهذا فإن رؤية المملوك تقتضي رفض عبادة الأصنام واتخاذها آلهة. ولكل ما سبق فإن سياق الآية يقضي هداية إبراهيم (عليه السلام)، فكما هديناه إلى الدعاء إلى الله وإنكار الكفر، أريناه مملوك السماوات والأرض^(١).
 أو أن يكون التشبيه على تقدير: وكما أريناك يا محمد ما في السماوات والأرض من الآيات والحجج والبراهين الدالة على وحدانية الله عز وجل وعظمته، كذلك كنا أرينا إبراهيم من قبل^(٢)، وهذا يقتضي كونك من الموقنين كما كان إبراهيم (عليه السلام) من الموقنين أيضاً، ويقتضي إيقان المتلقي بهذه الوجدانية كون الآيات ليست خطاباً للنبي (صلى الله عليه وسلم) وحده، وليست للموعظة والتسلية فحسب، بل للاقتداء، فمن مميزات الاقتضاء التداولي، (أنه استناداً إلى عدد قليل من المبادئ قادر على تفسير كثير من الأمور التي تبدو في غاية التفاوت والتباعد)^(٣).

(وقد يكون المشبه به المشار إليه مفهوماً من السياق)^(٤)، ولهذا وجهان، الأول: اعتبار التشبيه: وتكون الكاف بمعنى مثل أي: ومثل ذلك التعريف والتبصير والإراءة العجيبة نري إبراهيم ونعرفه ونبصره مملوك السماوات والأرض^(٥). والتشبيه على هذا الوجه مقصوداً منه المبالغة، فلو أراد المشبه أن يشبه هذا في غرابته لما وجد له إلا أن يشبهه بنفسه، وفي هذا قطع للنظر عن التشبيه في الواقع^(٦).
 واسم الإشارة في مثل هذا الاستعمال يقتضي ملازمته الأفراد والتذكير لأنه جرى مجرى المثل^(٧).

أما الوجه الثاني فباعتبار المفعولية المطلقة، على أن تكون الكاف زائدة، لا تدل على تعثيل ولا تشبيه، ويصير اسم الإشارة على هذا نائباً عن مفعول مطلق على تقدير: تلك الإراءة نري إبراهيم، فعدل عن المصدر إلى اسم إشارته النائب عنه،

-
- (١) المحرز الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي (ت ٥٤٦هـ)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، ٢٥٤/٥.
 (٢) تأويلات أهل السنة - تفسير الماتريدي: أبو منصور محمد بن محمد بن محمود الماتريدي (ت ٣٣٣هـ)، تحقيق: د. مجدي باسلوم، ١٣٠/٤.
 (٣) اقتضاء في التداول اللساني، (بحث سابق)، ١٤٣.
 (٤) التحرير والتنوير، ٣١٥/٧/٣.
 (٥) الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعميون الأفاويل في وجوه التأويل - أبو القاسم جبار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٢٨هـ)، ضبط وتوثيق: أبو عبد الله الداني بن منبر آل زهوي، ٣١١/٢، والتحرير والتنوير، ٣١٥/٧/٣.
 (٦) التحرير والتنوير، ١٦، ١٥/٢/١.
 (٧) م.ن، ٣١٥/٧/٣.

لاقتضاء عجايزة تلك الرؤية. ومثله قول الشاعر^(١):
كذلك أدبت حتى صار من خلقي أني رأيت ملاك الشيمة الأدبا
أي أدبت هذا الأدب الكامل العجيب^(٢).

ويبدو أن القول بزيادة (الكاف) لا يحقق المعنى المراد منها، إذ إنها جاءت لمعنى مقصود وثبته، فلو تتبعنا سياق الآية لوجدنا التأكيد على رؤيته عليه السلام للملكوت مما اقتضى كونه من الموقنين، (ولعل السر في المجيء بكاف التشبيه هنا، هو بيان تمام المطابقة بين الحقيقة الخارجية والحقيقة الكلامية، أي ما يكون في الواقع مطابق ما دل عليه الكلام)^(٣).

وقد أسند الفعل (نري) لفاعل مضمر، إذ تقتضي عظمته إضماره، وفي ذلك (إشارة إلى حجة مستنبطة من دلالة أحوال الموجودات على وجود صانعها)^(٤). ومن ثم يقتضي وجود اله واحد أزلي عظيم خالق للملكوت.

وقد اختلف المفسرون في تقدير زمن الفعل (نري) على وجود فقيل:

أ- حكاية حال ماضية: وبذلك يكون من مقتضيات السياق، أن تكون الآية على تقدير وكذلك كنا نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض فكانما هناك مسائل يسأل: وكيف بلغ إبراهيم (عليه السلام) هذا المبلغ العظيم من قوة الدين لدرجة مشافهة أبيه بكلام خشن تعصباً لذلك الدين...؟ فأجيب بأنها كنا نريه ملكوت السماوات والأرض وقت طفولته لأجل أن يصير من الموقنين زمن بلوغه^(٥).

ب- جاء بصيغة المضارع لاستحضار الإراءة العجيبة^(٦) وكأنها ماثلة أمام عين المتلقي ليكون لها وقع أكبر في داخله.

ج- إن زمن الفعل هو المستقبل، إذ إن دلالة ملك الله تعالى، وملكوته على نعوت جلاله وسمات عظمته وعزته غير متناهية، وحصول المعلومات التي لانهاية لها دفعة واحدة في عقول الخلق محال، فلا طريق إلى تحصيل تلك المعارف إلا بأن يحصل بعضها عقيب الآخر لا إلى نهاية، وهذا هو المراد من قول المحققين السفر

(١) ديوان الحماسة: أبو تمام حبيب بن أوس الطائي (ت ٢٣١هـ)، رواية: أبو منصور الجواليقي (ت ٥٤٠هـ)، شرحه وعلق عليه: محمد حسين بسج، ٢١٠.

(٢) التحرير والتنوير، ١٧/٢/١.

(٣) من بلاغة القرآن، ٢١٦.

(٤) التحرير والتنوير، ٣١٥/٧/٣.

(٥) التفسير الكبير، ٣٦/١٣٧.

(٦) التحرير والتنوير، ٣١٥/٧/٣.

إلى الله له نهاية، وأما السفر في الله فإنه لا نهاية له^(١).
وبذلك فإن متعلق الإراءة لا يتناهى وجه دلالته فلا يمكن الوقوف على ذلك إلا
بالقرصيح^(٢).

ويمكن القول باقتضاء السياق القرآني للأقوال السابقة كافة، فالمتلقي حينما
يقف أمام الخطاب باحثاً عن معانيه ودلالاته من خلال إبعاءاته المسكوت عنها فهو
بهذا يحاكي الفعل بزمنه الماضي حين معاورة إبراهيم (عليه السلام) لأبيه، وبزمن المضارعة
حينما استدعيه ذلك الزمن لاستحضار تلك الرؤية العجيبة وإمعان النظر في الآيات،
وبزمن المستقبل كذلك إذ إن رؤية الملكوت لا يتناهى وجه دلالته لا عند إبراهيم
(عليه السلام)، ولا عند متلقي الخطاب القرآني الذي يكتشف بدائع خلق الله تعالى ليس في
كتابه العزيز فحسب بل في الوجود كله، فالمتلقي فاعل يتعدى فعل القراءة (عبر جسد
النص الذي تشيده الألفاظ، ويخترق مسطحها بحثاً عن أعماقها، إن في النص نداء...
[ولاسيما في النص القرآني] والقراءة تلبية لهذا النداء)^(٣).

وكما اختلف المفسرون في زمن الفعل اختلفوا في كيفية الرؤية أكانت بصرية^(٤)، أم
قلبية، وقد فُتدت الرؤية البصرية بحجج قاطعة فَرَّدَ على من قال أنه (عليه السلام) رأى
المسماوات السبع والأرضين السبع وغير ذلك^(٥)، وبذلك رجحت الرؤية القلبية. فيرى
الرازي أن الإراءة كانت بعين البصيرة والعقل، لا بالبصر الفلأهر، وإن ملكوت
المسماوات عبارة عن ملك السماء، والملك عبارة عن القدرة، وقدرة الله لا ترى^(٦)،
ويقول ابن عاشور: (والرؤية هنا مستعملة للانكشاف والمعرفة، فالإراءة بمعنى الكشف
والتعريف، فنشمل المبصرات والمعقولات المستدل بجميعها على الحق وهي إراءة الهام
وتوفيق)^(٧).

ويرى آلوسى، أن رؤية إبراهيم (عليه السلام) للمسماوات السبع والأرضين وغير ذلك لا
تفضي كون الإراءة بصرية، إذ ليس المراد برؤيتها مجرد تمكينه من إبصارها

(١) التفسير الكبير، ٣٦/١٣/٧.

(٢) روح المعاني، ٢٥٤/٧/٤.

(٣) ما لا تؤديه الصفقة المقتربات اللسانية والأسلوبية والشعرية: حاتم الصكر، ١٣٤.

(٤) على سبيل المثال: تأويلات أهل السنة، ١٣٠/٧-١٣٣، والجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي): أبو عبد
الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (ت ٦٧١هـ)، تقديم: هاني الحاج، حقه وخروج أحاديثه: عماد زكي
البارودي، وخبري سعيد، ٢١/٧.

(٥) على سبيل المثال: التفسير الكبير، ٣٦/١٣/٧.

(٦) التفسير الكبير، ٣٧/١٣/٧.

(٧) التحرير والتنوير، ٣١٥/٧/٣.

ومشاهدتها في أنفسها، بل اطلاعها على حقائقها وتعريفها من حيث دلالتها على شؤونه عزوجل ولا ريب في أن ذلك ليس مما يدرك حساً^(١).

يتضح مما سبق أن الإنسان لا يمكن أن يؤمن قلبه من دون أن يرى أدلة وبعائنها، وهذا ما عهدناه لدى الأنبياء منذ أول الخليقة، فهم يدعون الناس إلى التوحيد ويأتونهم بالمعجزات والبراهين القاطعة ليرققوا قلوبهم حيناً وليرهبوهم ويخوفوهم أحياناً أخرى، (سأريهم آياتنا في الأفق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم تكف يديك أنه على كل شيء شهيد) [فصلت/٥٣] أي: يروا الآيات ويدركوها ثم يتفكروا فيها ليتبين لهم أنه الحق، وكقوله تعالى: (أولم يروا كيف يُبدئُ اللهَ الخلقَ ثم يُعيدُه إن ذلِكَ على الله يسيرٌ) ﴿٢٠-١٩﴾، وهذا ما فعله الله تعالى مع إبراهيم (عليه السلام) إذ أراه من الآيات والمعجزات الحسية، ومنها قوله تعالى: (قلنا يا نازكوني بزدا وسالماً على إبراهيم) [الأنبياء/٦٩]، وقوله: (وإذ قال إبراهيم رب أرنى كَيْفَ تُخَيِّمُ المَوْتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن لِنَظْمِئُن قَلْبى) [البقرة/٢٦٠] ما أشبع بها إحساسه لإدراك وحدانيته تعالى وجلاله وعظمته حتى أصبح (عليه السلام) ينظر إلى الملكوت بعين يقينه وقلبه، فيذهب بفكره أبعد مما تراه عيناه في إدراك حقائق الوجود وقدمية الإله الحق.

وأما الملكوت فهو مجاز في هذه الآية، إذ يقتضي فيها إطلاق المصدر وإرادة اسم المفعول وهو المملوك، كإطلاق الخلق على المخلوق^(٢)، وهذا هو المراد من لفظ الملكوت أي ما هو مملوك تحت سيطرة الله تعالى وقهره، وأي شيء في الكون غير داخل في إرادته...!

وقد افتضى سياق العطف، عطف قوله تعالى: (وَلْيَكُونَنَّ مِنَ الْمُتَّقِينَ) على قوله) وَكَذَلِكَ نُرِي إِبراهيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) لَأَنَّ (وَكَذَلِكَ) أُنْجَدَ كَوْنُ المِشْبَهِ بِهِ تَعْلِيماً فَائْتِجَا، فَالتَّقْدِيرُ: وَكَذَلِكَ نُرِي إِبراهيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) (رَأَى تَبصِيرَ وَفَهُمْ لِيَعْلَمَ عِلْماً وَفَقاً لِنَدِكَ التَّفْهِيمِ وَهُوَ العِلْمُ الكَامِلُ (وَلْيَكُونَنَّ مِنَ الْمُتَّقِينَ)^(٣).

و (كلما كان استعمال (كذلك) نفع بعد ذكر أفعال عظيمة صلح الفعل المذكور بعد الإشارة لأن يكون علة لأمر من شأنه أن يغفل بمغله صح أن تعطف عليه علة أخرى كما هنا... بخلاف ما لا يصلح ولذلك فإنه إذا أريد ذكر علة بعده ذكرت بدون عطف، نحو قوله: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ)

(١) روح المعاني، ٢٥٥/٧/٤.

(٢) التحرير والتنوير، ٣١٦/٧/٣.

(٣) المصدر نفسه، ٣١٦/٧/٣.

{البقرة/١٤٣}}^(١).

ومتهم من قال: إن رؤية الكوكب والقمر والشمس هي الإراءة التي استدلت بها إبراهيم (عليه السلام) على وجود الإله الحق ووصل إلى رتبة الإيقان، فيصير تقدير الآية: نُري إبراهيم مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لِأَجْلِ أَنْ يَصِيرَ مِنَ الْمُؤَقِنِينَ، واليقين عبارة عن علم يحصل بعد زوال المشبهة بسبب التأمل إذا كان مسبوقاً بالشك؛ ولهذا لا يوصف علم الله بكونه يقيناً؛ لأن علمه غير مسبوق بالشك وغير مستفاد من العلم والتأمل. ولما كان اليقين هو العلم المستفاد من الدليل اقتضى أن تكون تلك الإراءة عبارة عن الاستدلال^(٢).

{إلا أن يقينه (عليه السلام)} غير مسبوق بالشك، فهو من الراسخين في الإيقان البالغين درجة عين اليقين من معرفة الله تعالى، وهو لا يقتضي سبق الشك كما لا يخفى^(٣)، فضلاً عن أن الموقن هو العالم علماً لا يقبل الشك^(٤)، وكونه من الراسخين في المعرفة الواصلين إلى ذروة عين اليقين مما يفتضي بأن يحكم باستحالة ألوهية ما سواه سبحانه من الأصنام والكواكب التي كان يعبدها قومه^(٥).

وقوله {وَلْيَكُونَنَّ مِنَ الْمُؤَقِنِينَ} أبلغ من قوله موقناً، إذ يشهد له بكونه معدوداً في زميرهم، ويجوز أن يريد من الكاملين في الإيقان^(٦)، كما يفيد السياق القرآني تعريف الجنس {المُؤَقِنِينَ} اقتضاء عده واحداً من الفئة التي تعرف عن الناس بفئة الموقدين^(٧).

يمارس إبراهيم (عليه السلام) فعلاً حجاجياً على قومه في الآيات: (٧٩-٧٦) والحجاج فعالية تداولية جدلية تقوم عناصره على معطيات عملية تواصلية في صلب اللغة أو الخطاب^(٨)، ويعتمد على الحجية والاستدلال الذي هو: طلب الشيء من جهة غيره^(٩)، فهو (عليه السلام) حاول الوصول إليه تعالى عن طريق مخلوقاته. وعليه يُعرف الحجاج بأنه:

(١) التحرير والتنوير، ٢٦٠/٧/٣.

(٢) التفسير الكبير، ٣٨-٣٧/١٣/٧.

(٣) روح المعاني، ٢٥٥/٧/٤.

(٤) التحرير والتنوير، ٣١٦/٧/٣.

(٥) روح المعاني، ٢٥٥/٧/٤.

(٦) الكشاف، ٢٥٠/٣.

(٧) التحرير والتنوير، ٢٦٣/٧/٣.

(٨) اليعرب التداولي في الحجاج النساني - استثمار التداولية المدمجة / مناظرة منى بن يونس وأبي سعيد المرآة نموذجاً، د. بن عيسى أزييط، (بحث ضمن كتاب)، الحجاج مفهومه ومجالاته، دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، ٢٩٧/٤.

(٩) القروق في اللغة، ٦٦.

تلك الخطوات التي يحاول بها الفرد أو الجماعة قيادة المتلقي إلى تبني موقف معين، وذلك بالاعتماد على تمثيلات ذهنية مجردة أو حسية ملموسة تهدف إلى البرهنة على صلاحية رأي أو مشروعينه^(١).

أقام (شفيق) حجاجه على المحاوراة التي تقتضي إبراز المنطق العقلي والحجة، ولا تعتمد المحاوراة على المعاني المجردة لضعف تأثيرها في المتلقي، وإنما تعتمد على تجسيد المعاني في قوالب وصور محسوسة؛ لإثارة عناية المتلقي بصورة أشد، وترسيخ المعنى في النفوس^(٢).

وإن هذه الآيات تدل على أنّ الدين يجب أن يكون مبنياً على الدليل لا على التقليد^(٣).

وفي قوله تعالى: (فَلَمَّا جَنَّ) نجد أن الفاء تقتضي الترتيب^(٤) فهبت أن هذه الواقعة إنما وقعت بعد أن صار إبراهيم (شفيق) من الموقنين العارفين بربه^(٥). وقد ارتكزت الآيات على أسلوب الشرط بالأداة (لَمَّا) التي وردت ست مرات، وبالأداة (إِن) التي وردت مرة واحدة، وتختص (لَمَّا) بالماضي فتقتضي جملتين وجدت ثانيتهما عند وجود أولاهما، نحو: (لَمَّا جَاءَنِي أكرمته). ويقال فيها: حرف وجود لوجود، وبعضهم يقول حرف وجوب لوجوب^(٦).

وقد يعود سبب اختيار إبراهيم (شفيق) لليل هو أن الكوكب والقمر يظهران ليلاً، إلا أن هذا الاختيار (وقت الليل) وما يحمله معنى جَنَّ من (الاستتار والخفاء)^(٧) يقتضي أن القضية التي يريد إثباتها هي قضية واضحة، ولا يستطيع الليل إخفاءها وسترها، ولا يوجد عاقل واع إلا ويؤمن بها.

بدأ (شفيق) بمناظرة قومه برؤيته للكوكب. ولكننا لم نسمع في الحوار إلا صوته ولم نجد لقومه صدى، ويقتضي ذلك السكون أمران: إما أنهم أقروا بما قاله، أو أنهم لم يقتنعوا ولكن قلة حيلتهم ونفاذ أجوبتهم وعدم القدرة على المحاججة والرد الجاهم إلى المكوث، وإن بدأه بالأصغر (الكوكب) فالأكبر فالأكبر يقتضي (أن نمسك السبب وراء

(١) البعد التداولي في الحجاج اللساني، ٢٩٩/٤.

(٢) أسلوب المحاوراة في القرآن الكريم: عبد العليم حفيق، ٣٠، ٤٤.

(٣) التفسير الكبير، ٤٧/١٣/٧.

(٤) مغني اللبيب، ٣٢٤/١.

(٥) التفسير الكبير، ٤١/١٣/٧.

(٦) مغني اللبيب، ٥٣٧/١.

(٧) الكلمات - معجم في المصطلحات والفروق اللغوية - أبو البقاء أيبوب الكفوي (ت ١٠٩٤ هـ)، تحقيق: د. عدنان درويش، محمد المصري، ٢٩٣.

السبب وراء السبب.. إلى مالك الملك جلت قدرته^(١)، أي: الذي تنقطع الحاجات بسبب وجوده. قال تعالى: (وَأَنْ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى) [النجم/٤٢]^(٢).

وقوله: (هذا ربي) قيل انه مقول على سبيل الاستهزاء كما يقال لذليل ساد فوماً: هذا سيدكم^(٣)، ولا يمكن لنبي أن يستهزئ لأن الموقف في إثبات وحدانية الله عز شأنه وبطلان ما يعبدون. وقيل: (هو على معنى الاستهزاء والتوبيخ منكرأ لفعلهم والمعنى أهذا ربي؟، أو مثل هذا يكون رباً؟ فحذف الهمزة)^(٤). وقيل: هو على إضمار القول كأنه قال: تقولون: هذا ربي أي: أنتم تقولون هذا ربي^(٥).

وإن في تكرار قوله: (هذا ربي) وعدم قوله مثلاً هذه الهة يقتضي وجود إله واحد يعبده وليس آلهة متعددة كما كان يفعل قومه، فضلاً عن أنه استعمل في مناظرته (ما يسمى في الجدل بـ(مجاورة الخصم) ليستعمل آذانهم ويأخذ قلوبهم معه)^(٦).

قيل الأقول: الاحتجاب^(٧)، وأنه (فقط) يكرر الأقول مع كل كوكب لما في الأقول من معنى الانهزام^(٨)، أي: أن هذه الأجرام منهزمة أمام خالقها ومنشئها وأنها لا حول لها ولا قوة بوجوده. وقال (فقط) مع الكوكب: ((قال لا أحب الأفلين)). ومع القمر ((قال لأن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين)). ومع الشمس ((قال يا قوم إني بريء مما تشركون)). وهذا يقتضي أنه تبرأ منهم ثلاث مرات على عدد الأجرام وما قسمه في الآية الثانية إلا توكيد لهدايته وتوكيد لضلالهم فقوله بمثابة التعريض بهم والضال: هو الكافر الغائب عن الحجة، فهم في غيبوبة عن حاجته وهدايته بكفرهم وضلالهم^(٩).

ونجد حرف النون في فواصل الآيات؛ لما يختص به هذا الحرف من الجهر، وهو أشد الأصوات قاطبة للتعبير عن المضاعف، ويقتضي لفظه بشيء من الشدة والتوتر النفوذ القسري لموجاته والدخول في الأشياء^(١٠).

وجاء توكيده الرابع في قوله: ((إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض

(١) تفسير الشعراوي: محمد متولي الشعراوي، ٣٧٤٢/٦.

(٢) التفسير الكبير، ٤٤/١٣/٧.

(٣) روح المعاني، ٢٥٦/٧/٤.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، ٢٣/٧.

(٥) معاني القرآن وإعرابه، ٢١٥/٢.

(٦) تفسير الشعراوي، ٣٧٤٥/٦.

(٧) روح المعاني، ٢٥٧/٧/٤.

(٨) القاموس المحيط: مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي (ت ٨١٧هـ)، ٣٢/٢.

(٩) تهذيب اللغة: أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري (ت ٤٣٧هـ)، ٤٦٥/١١.

(١٠) خصائص الحروف العربية ومعانيها - دراسة: حسن عباس، ١٦٠، ١٦١.

حينفا وما أنا من المشركين)) (٧٩) فتوجه (توجه) بوجهه إليه ويقضي ذلك كون توجه القلب كناية عن الطاعة^(١). مما اقتضى قوله وعدم قوله: ((لَلَّذِي)) وعدم قوله إلى الذي؛ ف(توجيه وجه القلب ليس إليه، لأنه متعال عن الحيز والجهة، بل توجيه وجه القلب إلى خدمته وطاعته لأجل عبوديته)^(٢).

وقد ختم الدليل بما افتتحت به السورة وذلك في قوله^(٣) ((لَلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)) فقال: (فطر) ولم يقل: (خلق) وذلك لما اقتضاه معنى الفطر من الشق. فيما أنه واجههم بما عاينوه (الكوكب، القمر، الشمس) كان لا بد وأن يذكر فطرها لأنهم يشاهدون فتق السماء عن الأرض ولكنهم لم يعاينوا كيف خلقنا. والحنيف هو العادل عن كل معبود دون الله تعالى^(٤). وقوله: ((وما أنا من المشركين)) [أي مفكم، وأظهر الوصف المفتضي للبراءة والتعميم، أي لا أعد في عدادكم شيئا أقاربكم به]^(٥).

ومما سبق رأينا كيف عمل الاقتضاء الخاص على التفلغل في الخطاب، وكشف بعضاً من خباياه التي لا يكتمل بدونها، وكيف شكلت اللغة مجالاً واسعاً لهذا الاقتضاء بما تحمله من إمكانيات لغوية وغير لغوية، مما أوصلنا إلى الاقتضاء المتخاطبي التداولي الذي بين ما تحمله السورة من أركان التوحيد القائمة على (لا إله إلا الله) المبينة لجمال عظمته وروعة خلقه وصدق رسله؛ وذلك من خلال ترابط الآيات وألفاظها بعضها ببعض بمضمون السورة ارتباطاً اقتضائها خاصاً كشفه السياق، وذلك كله يجعل المتلقي أكثر حرصاً في قراءته وتفكيره وتحليله للخطاب القرآني العظيم.

❖ البحث الثاني: الاقتضاء العام

يمكن تعريف الاقتضاء العام بأنه: (الذي يحصل من دون أن يوجد بالضرورة سياق حالي معين)^(٦). ففيه (يتم إيصال بعض المعلومات عن طريق اختيار كلمة تعبر عن قيمة واحدة من بين تدرج للقيم، يتضح هذا الأمر جلياً في مصطلحات نستعمل

(١) روح المعاني، ٤/٧/٣٦١.

(٢) التفسير الكبير، ٧/١٣/٤٩.

(٣) نظم الدرر، ٧/٧٩.

(٤) التفسير الكبير، ٧/١٣/٤٩.

(٥) نظم الدرر، ٧/٧٩.

(٦) الاقتضاء في التداول اللساني، (بحث سابق) ١٦٢، والاقتضاء: دلالاته وتطبيقاته، ٣٤٤.

للتعبير عن الكم: كل، معظم، كثير، بعض، قليل، دائماً، غالباً، أحياناً^(١).
 وأساس هذا الاقتضاء أنه عند ثبوت أية صيغة في التدرج فإنه يتم نفي كل الصيغ
 الأعلى في التدرج، أي يقتضي الأقل سلب الأكثر، فمثلاً في (كل، بعض) يقتضي إثبات
 ال بعض سلب الكل^(٢)، فضلاً عن أن إثبات كل يقتضي الوشوق والتأكد من صحة
 العبارة التي ترد فيها، فهي تحتاج إلى الاطلاع والإحاطة والشمول بالشئ، ولهذا
 الاقتضاء أهمية ولا سيما بالنسبة للنظرية اللسانية، فمن الطبيعي تمييز هذه
 الاقتضاءات عن المحنوي الدلالي للألفاظ، فافتراها بالألفاظ الملائمة هو أمر مألوف في
 كل السياقات^(٣).

لنأخذ مثلاً لفظة [كُلُّ] فهي اسم موضوع للإحاطة والشمول ولاستغراق أفراد
 المنكر، نحو: (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ) [الأنبياء/٣٥]. ومعنى (كُلُّ) يتضح بما تضاف
 إليه^(٤)، وهي لغير اثنين إن تجزأ بنفسه، أو بعامله^(٥) أي: للعموم والجميع، يقول
 سيبويه: (كل عَمٌّ وبعض اختصاصاً)^(٦). إذ تقتون بشحنة الإيجاب مفيدة للوجود تقابل
 لا النافية للجنس سلباً ولذلك تشبهها في اقتضاء النكرة بعدها^(٧).

وكثيراً ما وردت (كلّ) في سورة الأنعام وقد يرجع سبب ذلك إلى أن قسماً منها كان
 لإيضاح عظمة الله ولبيان صفات جلاله وذلك في قوله تعالى: ((فهو على كل شيء
 قدير)) ١٧. ((ومسح ربي كل شيء علماً)) ٨٠. ((وخلق كل شيء)) ١٠١. ((وهو بكل شيء
 عليم)) ١٠١. ((خالق كل شيء)) ١٠٢. ((وهو على كل شيء وكيل)) ١٠٢.

لقد اقتضت (كلّ) في هذه الآيات الإحاطة ونفي البعض، فكل هذه الصفات هي
 ولا سيما به تعالى دالة على وحدانيته ونفي عبادة غيره: لأنه الذي يفتقر إلى تلك
 الصفات. وبذلك اقتضت الآيات قوله في نهاية السورة: (قُلْ أَغْنِيَ اللَّهُ عَنْيَ رِزْقًا وَهُوَ رَبُّ
 كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْمِيبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَظِيمًا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ
 فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ) ١٦٤.

(١) التداوليّة، ٧٣.

(٢) م. ن. ٧٣، والاقتضاء في التداول اللساني (بحث سابق)، ١٦٤.

(٣) الاقتضاء في التداول اللساني (بحث سابق)، ١٦٤.

(٤) يدافع الفوائد: أبو عبد الله المشعرباين قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ)، ٢١٢/١، ومعني اللبيب، ٢٨٢/١، ٢٨٨.

(٥) الجامع الصغير في النحو: جمال الدين بن عبد الله بن هشام الأنصاري المصري (ت ٧٦١هـ)، تحقيق
 وتعليق: أحمد محمود الهرمبل، ١٩٠.(٦) الكتاب: أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر المعروف بسيبويه (ت ١٨٠هـ)، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد
 هارون، ٢٣١/٤.

(٧) فصول في الدلالة ما بين المعجم والنحو: د. الأزهر الزناد، ٧١.

ونجد في الآية ١٠١ قوله سبحانه: ((وخلق كل شيء))، وفي ١٠٢ قوله: ((خالق كل شيء)) فكانت الأولى دالة على الماضي، والثانية دالة على الحال والاستقبال فاقتضى ذلك تمام الخلق في الأوقات كلها. ولما كانت الآية ١٠١ في بيان عظمة إبداع السماوات والأرض وما فيها اقتضى قوله: ((وخلق كل شيء))، بجملته فعلية اقتضت التجدد: فخلق الكائنات والأشياء مستمر. وجاءت الجملة اسمية في ((خالق كل شيء)) لأنها في سياق الحديث عن الربوبية وهي دائمة وثابتة؛ فـ(المقام للتوحيد اللائق للإحاطة بأوصاف الكمال التي هي معنى الحمد المفتوح بها السورة)^(١).

وختمت الآية (١٠١) بقوله: ((وهو بكل شيء عليم)) للدلالة على الإحاطة والشمول مرتين، واحدة بـ(كل)، والأخرى، بقوله عليم (أي: على كل شيء قدير؛ لأن شمول العلم يلزمه تمام القدرة)^(٢). فهو سبحانه عارف بما كان وما يكون قبل كونه وبما يكون ولما يكن بعد وقبل أن يكون، لا تخفى عليه خافية في السماء والأرض أحاط علمه بجميع الأشياء باطنها وظاهرها^(٣).

وختمت الآية ١٠٢ ((وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)) لأنه تعالى المستحق للوحدانية وتفتضي صفة الوكيل لله تعالى (الذي توكل بالقيام بجميع ما خلق)^(٤)، وهو المقيم الكفيل بأرزاق العباد، وهو الحافظ الذي يوكل الناس إليه أمرهم ويسلمون شأنهم بيديه^(٥).

وجاءت لفظنا ((عليم)) و((وكيل)) على صيغة المبالغة فهي تعمل على توكيد المعنى وتقويته والمبالغة فيه^(٦)، (وقد أدى ذلك إلى مواخاة بين المياني والمعاني على هذا النحو من التناسق الفني البديع)^(٧).

وفي قوله تعالى: ((هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً قل انتظروا [نا منتظرون]) [١٥٨] يقتضي (بعض) نفي الكل، وهذا يقتضي عدم مجيء آيات الله كلها يوم القيامة؛ لأن من آياته ما تحقق في الدنيا على يد

(١) نظم الدرر، ٢١٨/٧.

(٢) م، ٢١٨/٧.

(٣) لسان العرب، ٤١٦/١٢.

(٤) تهذيب اللغة، ٣٧١/١٠.

(٥) لسان العرب، ٧٣٤/١١.

(٦) التطبيق الصرقي: د. عمده الراجحي، ٧٧.

(٧) الإعجاز الصرقي في القرآن الكريم - دراسة نظرية تطبيقية، التوظيف البلاغي لصفة الكلمة: د عبد

الحميد أحمد يوسف هندواوي، ٢٢٠.

الأنبياء والرسول وإظهار المعجزات والكتب السماوية.

و(إنّ بناء الخطاب في النظم القرآني على المغايرة الأسلوبية لعناصر الإحالة بين الإضمار والإظهار يمثل جانبا كبيرا في ترابط النص)^(١). ومنه قوله تعالى: ((وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون)) [٦١] فقد أقام الظاهر بدل المضمّر فقال: ((جاء أحدكم الموت)) ولم يقل: جاءكم الموت. وإنّ أحد تقتضي نفي الجميع؛ ويقتضي ذلك تخويف المتلقي من خلال بيان كيف أن الموت لا يأتي جماعياً بل فردياً فالإنسان عندما يواجه الأمور بمفرده ولأول مرة يكون في رهبة وخوف وتوجس فعلية أن بعداً لعدّة لذلك وما استعارة المجيء للموت وعود الضمير في ((رسلنا)) إلا تأكيد لذلك واقتضاء لقوة هذا الإله وعظمته واستحقاقه الألوهية والربوبية.

وقال عز وجل ((وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)) الآية [٣٧]. وقال في الآية [١١١] ((وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَهُمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَمَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ فَبَلَا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ)) فيقتضي الأكثر سلب الأقل إلا أنه قال في الأولى: ((وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)) وفي الثانية: ((وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ)). ويقتضي ذلك علمهم ببعض الأسماء إلا أنهم يجهلون تماماً الملائكة ولا يعلمون كيفية إحياء الموتى وتكليمهم وغير ذلك وأنى لهم هذا وهم في الأساس لا يؤمنون بالله؟

وفي قوله تعالى: ((قل فله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين)) [١٤٩] تأتي ((أجمعين)) بمعنى كل فتقتضي الإحاطة والشمول فتقتضي كونها وصفا للتوكيد^(٢).

ولا يقتضي سلب الأقل والأكثر ولا الأقل في قوله تعالى: ((ثمانية أزواج من الضان اثنين ومن المعز اثنين قل ءالذكرين حرم أم الأنثيين أمّا اشتملت عليه أرحام الأنثيين نبشوني بعلم إن كنتم صادقين ﴿٥﴾ ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين قل ءالذكرين حرم أم الأنثيين أمّا اشتملت عليه أرحام الأنثيين أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا فمن اظلم ممن افترى على الله كذباً ليضل الناس بغير علم إن الله لا يهدي القوم الظالمين)) [١٤٣_١٤٤] فالعدد ثمانية ثابت لا يتغير فلا ينقص ولا يزيد بدليل قوله: ((من الضان اثنين)) / ((ومن المعز اثنين)) / ((ومن الإبل اثنين)) / ((ومن البقر اثنين)) وكذلك قوله: ((قل ءالذكرين حرم أم الأنثيين)) / ((قل ءالذكرين حرم أم الأنثيين)).

(١) دراسات في اللسانيات العربية المعاصرة: د. عمرو خاطر عبد الفتحي وهدان، ١٥٥.

(٢) معاني النحو: د. فاضل صالح السامرائي، ١٦٥/٤.

ويوجد نوع آخر من الاقتضاء العام يتعلق بالتنوين^(١)؛ الذي هو نون ساكنة تتبع حركة الآخر^(٢) وسنقف عند نوعين من أنواع التنوين في السورة وكما يأتي: أولاً- تنوين التمكين: وهو تنوين الأسماء المعربة الذي يجري معها رفعاً ونصباً وجرّاً وما شاكل ذلك^(٣).

إن التنوين يشكل عنصراً صوتياً وثراءً لغوياً؛ إذ يحدث رنة تؤدي قوة إسماع، حاملة تردداً زمنياً طويلاً^(٤)، فيستشف المتلقي بعض المعاني من جراء ما يصاحب الصوت من إيماءات، توحى بمعاني زائدة على المعنى الأصلي^(٥)، فتقويه وتؤكدّه، وقد يكشف الصوت أحياناً عن المعنى المراد. مما يقتضي وجود (علاقة واضحة بين الجانب الصوتي الذي يقوم به التنوين في نهاية الاسم)^(٦)، والجانب التداولي الذي يفهمه المتلقي، فهو (التنوين) ذو صلة بالمقاطع الصوتية^(٧)، وبالنبر والتنغيم، فالنبر: ليس إلا شدة في الصوت أو ارتفاعاً فيه، ويؤدي إلى وضوح فيه^(٨)، وأما التنغيم: فهو (رفع الصوت وخفضه في أثناء الكلام؛ للدلالة على المعاني المختلفة للجمل الواحد)^(٩)، وعليه فإن النبر والتنغيم السياقي كليهما يعدان من القرائن اللفظية أو المقالية، وهما من السياق اللغوي الذي يعين على تحديد دلالة الجملة^(١٠).

نزل القرآن الكريم على رسول الله (ﷺ) ومنه إلى قومه ثم إلى الناس كافة، وكان في أول نزوله يتناقله القوم شفاهياً؛ لأن الصوت يكون ذا وقع نفسي يؤدي دوراً تداولياً في التأثير في المتلقي أكثر مما تحمله الكتابة، ولأن التنوين له ما ذكر من الصفات الصوتية فقد ورد كثيراً في سورة الأنعام فإدى دوراً بارزاً في إثبات وحدانية الله تعالى

(١) التداولية، ٧٢.

(٢) شرح الكافية: محمد بن إبراهيم بن جماعة (ت ٧٢٣هـ)، حققه وقدم له وعلق على مسائله وشواهد: محمد عبد النبي عبد المجيد، ٥٦٠.

(٣) التهذيب الوسيط في النحو: سابق الدين محمد بن علي بن أحمد بن يعين الصنعاني (ت ٦٨٠هـ)، تحقيق: د. فخر صالح سليمان فداره، ٤٠٩.

(٤) من وظائف الصوت اللغوي - محاولة لفهم صرقي ونحوي ودلالي: د. أحمد كشك، ١٧.

(٥) الفونولوجيا وعلاقتها بالنظم في القرآن الكريم: د. محمد رزق شعور، تقديم: د. تمام حسان، ٧٧.

(٦) التنوين والدلالة - دراسة في ضوء النماذج العربية المعاصرة: د. خالد إسماعيل حمان، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة الكويت، مجلس النشر العلمي، الرسالة ٢٦٥ - ج ٢٨، سبتمبر، ٢٠٠٧م، ٣٠.

(٧) من أسرار اللغة: د. إبراهيم أنيس، ٢١٨ - ٢٢٠.

(٨) الأصوات اللغوية: د. إبراهيم أنيس، ١٥٩ - ١٦٢.

(٩) الفونولوجيا وعلاقتها بالنظم في القرآن الكريم، ٩٤ - ٩٣.

(١٠) النحو والدلالة - مدخل لدراسة المعنى التحوي - الدلالي: د. محمد حماسة عبد اللطيف، ١٥٨. و اللغة العربية معناها ومبناها: أ. د. تمام حسان، ٢٢٦.

وتبكيك المشركين وغيرهم ممن جاءت السورة لإبطال عقائدهم.
ومن الأمور التي يؤديها التنوين صوتياً، تأكيد الحدث الذي جاءت به الآية، فنجد مثلاً توكيداً لدلائل عظمة الله تعالى وبيانها، فتؤدي هذه إلى أحقية الملكية له جن شأنه والوحدانية لجلاله مبنين بالآية (١٧) (وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) أي: بما هو أكثر التصاقاً بالإنسان، الضر والخير، فاقضى تنوينهما شمول قدرة الله تعالى على الإنسان، وقال ((يَمْسَسْكَ)) بدلاً من ((أصابك)) لأن الإصابة تأتي بمعنى القصد والإرادة^(١)، فضلاً عن أنها كثيراً ما تأتي في القرآن الكريم مع الشدائد والعذاب، ولأن مَمَسَّ: هو ما يشبه المتوار في معصم المرأة^(٢)، فهو يقضي إحاطة الله تعالى بكافة جوانب الإنسان وما يتعلق به وهو الأقرب للآية ولاسيما وهي في سياق سورة تتحدث عن عظم خلق الله تعالى وكيفية سيطرته على الكون، وقال: ((بضري)) ولم يقل: ((بشري)) للإشارة إلى أن المراد من الضر ما هو أعم فكأنه قيل: إن يمسسك بضر وشروان يمسسك بضر وخير فالخير يشمل النفع^(٣)، فضلاً عن أن الشر كثيراً ما استعمل في القرآن مع الكفار. وقدم الضر على الخير؛ لأن الإنسان يدعو الله سبحانه عند الشدائد أكثر من دعوته إياه عند الخير (وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَائِماً أَوْ قَائِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرْغَبَانِ لَمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) [يونس/١٢].

ثم بدأ بالتدرج بالكلمات في توضيح عظمته في قوله: ((وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه قل إن الله قادر على أن ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون)) [٣٧] فاقضى تنوين ((قادر)) تأكيد عموم مقدرته وعدم اقتصرها على تنزيل آية ولهذا عقبتها بقوله: ((وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون)) [٣٨] إذ أنكر المشركون البعث والحساب، قال تعالى: (وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ) [الجاثية/٢٤] فيقتضي تنوين ((دابة)) و ((طائر)) تأكيد شمول الحشر لكل

(١) تهذيب اللغة، ٢٥٣/١٢.

• على سبيل المثال الآيات: البقرة/٢٦٤، آل عمران/١١٧، النساء/٦٢، المائدة/٤٩، ١٠٦/١٠٦، التوبة/٥٢، هود/٨٩، الرعد/١٣، الزمر/٥١

(٢) تهذيب اللغة، ٨٦/١٠.

(٣) التحرير والتنوير، مج ١٣/٧/٣.

• على سبيل المثال الآيات: المائدة/٦٠، الأنفال/٢٢، مريم/٧٥، الفرقان/٢٤، البقرة/٦

• تعطر الآيات: الروم/٣٣، الزمر/٤٩

المخلوقات. وما قوله: ((في الأرض)) إلال (زيادة التعميم والإحاطة، كأنه قيل: وما من دابة قط في جميع الأرضين السبع، وما من طائر فط في جو السماء من جميع ما يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم محفوظة أحوالها.. [للدلالة] على عظم قدرته، ولطف علمه، وسعة سلطانه وتدييره...) (١).

ثم بدأ جل شأنه بتفصيل بعض من عظمته في البر والبحر وذلك من خلال التوكيد الذي يقتضيه تنوين: ((ورقة)) / ((حبة)) / ((رطب)) / ((يابس)) وذلك في قوله: ((وعنده مفتاح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين)) [٥٩] ونجد تفصيلاً أدق في قوله: ((وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضيراً نخرج منه حياً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان متشابهاً وغير متشابهة انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون)) [٩٩]. فقوله: ((ومن النخل من طلعها قنوان)) فالقنوان: عرجون التمر وهو للتمر بمنزلة العنقود للعنب (٢)، ويقتضي تنوينه الشمول لأنواع التمر المعروفة وأشكالها. وتفصيلاً أدق في الطلع فهو: (وعاء عرجون التمر الذي يبدو في أول خروجه يكون كشكل الأثرجة العظيمة مغلقاً على العرجون، ثم يفتح... فيخرج منه العنقود مجتمعاً، ويسعى حينئذ الإغريض، ثم يصير قنوا) (٣). وتدرجاً أكبر في العظمة الإلهية في قوله: ((حياً متراكباً)) أي: ركب بعضه على بعض كالسنبلة (٤). ولا يعني تنوين ((ماء)) العموم له بل يقتضي تنوينه توكيداً لما ينتج عنه من أنواع النبات المختلفة، حسبما يفصح عنه قوله سبحانه: ((وفي الأرض قِطْعٌ مُتَّجَاوِزَاتٌ وَجَنَاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صَبْوَاتٌ وَعَيْبُرٌ صَبْوَاتٌ يُّسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاجِدٍ وَنُفْعِلُهَا عَلَىٰ بُغْيِ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)) [الرعد/٤].

وفي سورة الأنعام أغراض أخرى للتنوين وردت في آيات كثيرة منها ما جاء في قوله تعالى:

في الآية (١٠) ((وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَخَافَ بِالْبُزِينِ سَجَدُوا لَهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَكْبِرُونَ))

والآية (٣٤) ((وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولًا مِّن قَبْلِكَ فَاصْبِرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ

(١) الكشاف، ١٨/٢.

(٢) روح المعاني، ٣٠٧/٧/٤. والتحرير والتنوير، ٤٠٠/٧/٣.

(٣) التحرير والتنوير، ٤٠٠/٧/٣.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، ٤٠/٧.

أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْمُرْسَلِينَ))
 إذ اقتضى تنوين ((رسول)) في الآيتين التخفيف عنه ((و)) وليس مجرد الشمول: لأن
 الرسل معروفون، فالرسول: (من يأتي بشرع على الابتداء أو بنسخ بعض أحكام شريعة
 قبله)^(١).

_ في الآيات ((قد خسر الذين كذبوا بقاء الله حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا
 حسرتنا على ما فرطنا فيها وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون))
 [٣١] و ((فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرجوا بما أوتوا
 أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون)) [٤٤] و ((قل أرميتكم إن أتاكم عذاب الله بغتة أو
 جهرة هل تهلك إلا القوم الظالمون)) [٤٧] اقتضى تنوين ((بغتة)) تؤكد الملكية لله
 سبحانه فالنعيم فيها حصل في ثلاثة أمور: في الآية (٣١) مجيء الساعة بغتة والآية
 (٤٤) الموت، والآية (٤٧) العذاب، فمن بيده كل هذه الأمور المستقبلية المجهولة كان
 لا يذ مستحقاً للتوحيد.

وإن تنوين ((يوم عظيم)) اقتضى التخويف والتهويل في قوله: ((قل إنني أخاف إن
 عصيت ربي عذاب يوم عظيم)) [١٥].

واقضى تنوين ((عذاباً)) في قوله: ((قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من
 فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعاً ويؤدق بعضكم بأس بعض أنظر كيف
 نُصِرْفُ الآيات لعلمهم يفقهون)) [٦٥] تذكير القدرة على الانتقام تخويفاً للمشركين
 وتأكيذاً لقوله: ((قل من يُنجيكم من ظلمات البحر تدعونهُ تضرعاً وخفية لئن
 أنجانا من هذه لنكوننَّ من الشاكرين))^(٢).

واقضى تنوين ((ميتاً)) و ((نوراً)) و ((بخارج)) في الآية (١٢٢) ((أومن كان ميتاً
 فأحييناه وجعلنا له نوراً يمضي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها
 كذلك زُين للكافرين ما كانوا يعملون)) للتنبية على سوء حال الكفار ولا سيما عندما
 قرنهم بالموت وقابل الموت بالنور: ذلك لأن الإنسان يمضي في النور، ولا يتوه في الظلمة
 فقط بل يتوقف ويسكن، وهكذا حال الكافر يبقى قابلاً في موته وظلمته.

ويقوم التنوين مقام التعريف إذ (من الممكن في العربية الفصحى أن نعامل الاسم
 المعرف بأل على أنه نكرة، والعكس في المتنون وذلك من خلال العنصر الدلالي

(١) أصول الدين: أبو منصور عبد القاهر بن طاهر البغدادي (ت ٤٢٩هـ)، حققه وعلق عليه: أحمد شمس
 الدين، ١٧٣.

(٢) التحرير والتنوير، ٢٨٢/٧/٣.

والسياق^(١)، فقد يكون في بعض الأسماء علامة التعريف ووميلته، ولكنه مع ذلك يحكم عليه بأنه نكرة من حيث دلالته، ويعامل معاملة النكرة في الجملة، وهنا ينحكم العنصر الدلالي في العنصر الصوتي المنطوق ويفرض نفسه عليه^(٢). أما في حالة التنوين فيبدو أن التعريف فيه يتضح من خلال السياق، فهناك متكلم ومتلق وعالم خارجي محيط بهما، ولا يجد السامع تعميما في التنوين، فالأداة هنا متضمنة في معنى الكلام، فهي غير ظاهرة لفظيا، فالقصد والخطاب في الكلام مثلا من علامات التعريف في اللغة بغض النظر عن الأداة التي حددها النحاة^(٣)، فلو عرف إنسان بأنه مثلك فقيل فيه: قد جاء مثلك، لكان معرفة إذا أردت المعروف بشبهك، والمعرفة والنكرة بمعانيهما، فكل شيء خلص لك بعينه من سائر أمته فهو معرفة^(٤). إذن فالحكم النحوي على الأدوات ينبع من دلالتها لا من صيغها، وإلا فإن صيغة بعضها واحدة ومعناها يتعدد^(٥). ومن الآيات التي جاء التنوين فيها دالا على التعريف:

- قوله تعالى في الآية (١٩) ((قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنِكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَنتُمْ لَنَسْفَعُونَ أَنْ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةٌ أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بِرِيبٍ مِمَّا تُشْرِكُونَ)) يقتضي تنوين (شهادة) التعريف، فالشهادة حددها السياق بأنها شهادة الله سبحانه، وجاء التنوين لعظم هذه الشهادة.
- كما اقتضى التنوين في (إله) التعظيم في قوله: ((قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انظُرْ كَيْفَ نَصَرَفُ الْآيَاتِ لَمْ هُمْ يَصْدِقُونَ)) (٤٦)، أي ليس له غير الله تعالى يأتي بذلك هذل أيضا على (الوحدانية)^(٦).
- وقوله في الآية (٥٤) ((وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)) فيقتضي تنوين (سَلَامٌ) الدعاء لأن السلام يوجب القصد فهو قصد فئة معينة بالسلام.

(١) التلوين والدلالة، (بحث سابق) ٥٥.

(٢) النحو والدلالة - مدخل لدراسة المعنى النحوي - الدلال، ١٩٠، ١٩١.

(٣) التنوين والدلالة، (بحث سابق) ٣٩، ٤٠.

(٤) الحجة في علل الفراءات السبع: أبو علي العنمن بن عبد الغفار الفارسي النحوي (ت ٣٧٧هـ)، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، شارك في تحقيقه: د. أحمد عيسى المصراوي، ٢١٤/١.

(٥) النحو والدلالة، ١٩٠.

(٦) التحرير والتنوير، ٢٣٤/٧/٣.

• ولعجب هذا الخالق وقدرته اقتضى التنوين التعريف في ((نَفْسٍ وَاجِدَةٍ)) في الآية (٩٨) ((وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاجِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ)) لأن النفس التي خلقت منها البشرية كلها واحدة.

• واقتضى تنوين (أَنْعَامٍ) ثلاث مرات بيان فداحة مرتكب الكفار في الآية (١٣٨) ((وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرَّتْ جِجْرًا لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بَزْعَمِيهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)) لأن الأنعام حددها السياق ((لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بَزْعَمِيهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا)) وهي التي كان الجاهليون يطلقون عليها أسماء معينة قال تعالى: ((مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَعِيرٍ وَلَا سَابِئَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ)) [المائدة/١٠٣]. وقد كان التنوين للتعميم في (حَمُولَةٌ وَفَرَسًا) في الآية (١٤٢) ((وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَسًا كُلُوا مِنَّا رِزْقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ)) لتحليل جميع أنواع الأنعام فكانما كانت ردا على زعمهم.

ومن وظائف التنوين أيضا الفصل أي: فصل ما قبله عما بعده^(١)، وذلك نحو قوله: ((هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ مَمْنُونُونَ)) الآية (٢) : لاختلاف الأجلين: أحدهما الموت، والأخر يوم القيامة وكل منهما له زمانه المحدد.

هناك معان أخرى اقتضاها التنوين في السورة منها عدم تنكبر الشمس والقمر وعدم تنوينهما في ((فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين) فلما رأى الشمس بازغاً قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قومي (إني بريء مما تشركون)) [٧٧-٧٨] لعدم وجود غيرهما. ونون الكوكب في ((فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الأفلين)) [٧٦] لوجود العديد من الكواكب؛ ولأنه تعالى وصف الشمس والقمر بصفتي ((بازغاً)) و ((بازغاً)) وهذا يدل على التسريح العقلي؛ فالكوكب غير منير كل إنارتها فلم يصفه بما وصفهما، والقمر ليس منيرا كالشمس فقال عنها: ((هذا أكبر)) ولم يقل في القمر.

(١) المفضل: أبو العباس محمد بن يزيد المبرد (ت ٢٨٥هـ)، تحقيق: محمد عبد الخالق عزيمة، ١٦٥/٢.

ثانياً... تتوین العوض^(١)؛ ويكون عوضاً عن جملة ولم يرد إلا مرة واحدة في قوله: ((من يصرف عنه يومئذٍ فقد رحمه وذلك الفوز المبين)) [١٦] وعوضاً عن مفرد نحو (بعض) في قوله: ((وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوجِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ)) [١١٢]. وكان الأصل أن يذكر الضميران أي: بعض شياطين الإنس إلى بعض شياطين الجن، ثم حذف المفرد؛ وقد يعود سبب ذلك لتساوي الإنس والجن في العداوة، وعوض بالضمير أي: بعضهم إلى بعضهم، وحذف أحد الضميرين (تخفيفاً)^(٢).

نأخذ مثلاً الآيات: ((ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلا هدينا ونوحاً هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين) وذكربا ويحيى وعيسى وإلياس كلٌ من الصالحين) وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلاً فضلنا على العالمين)) [٨٤-٨٦]

فنجرد ورود (كل) في كل آية وعلى النحو الآتي:

وبما أن (كل) تقتضي نفي القلة أو ال (بعض)، فإذا ن كل الأنبياء أو الرسل الذين ذكرتهم الآيات هداهم الله تعالى وليس إسحاق ويعقوب ونوح (عليهم السلام)، فضلاً عن داود وسليمان وأيوب ويوسف ويونس وموسى وهارون وذكربا ويحيى وعيسى وإلياس وإسماعيل واليسع ويونس ولوط (عليهم السلام) جميعاً والأنبياء والرسل الذين لم تذكرهم الآيات، فمن خصائص (كل) أيضاً (أنها لا تسمى مدلولها تسمية مباشرة وإنما هي بمثابة الإشارة إليه)^(٣).

و((كلٌ من الصالحين)) أيضاً تقتضي (كل) الأنبياء الذين ذكروا أي السبعة عشر وليس الذين ذكرتهم الآية (٨٥) فحسب.

وبما أنهم هداهم الله تعالى كلهم، وكلهم صالحون أيضاً اقتضى ذلك أن يفضلهم جميعاً على العالمين.

ومما يؤكد أن (كل) تضم كل الأنبياء المذكورين وليس الذين ذكروا في الآية، أنها جاءت منونة في المواضع الثلاثة، والتنوين فيها (عوض عن المضاف إليه)^(٤) المحذوف،

(١) ظاهرة التنوين في العربية وما حُبل عليها من المسائل. د. عبد الفلاح أحمد الحموز، فقد شرح هذا التنوين بشكل مفصل. ٦١-٧٥.

(٢) بدائع الفوائد. ١/١٢٧.

• تناول كتاب أسئلة بهانية في القرآن الكريم: د. فاضل صالح السامرائي هذه الآيات بشكل آخر. ٦٠-٦٦.

(٣) فصول في الدلالة. ٦٨.

(٤) المفصل في صنعة الإعراب: أبو القاسم جارا الله محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٢٨هـ)، حققه وعلق عليه: د. محمد محمد عبد المصنود. د. حسن محمد عبد المصنود تقديم: د. محمود فهد حجازي. ٤٦٩.

أي كل أولئك المذكورين من إسحاق إلى الأنبياء الذين أتوا بعده، ومفردة (كل) تقتضي استفراق ما أضيفت إليه و((كل من الصالحين)) أي كل هؤلاء المعدودين وهو يشمل جميع المذكورين إسحاق ومن بعده^(١).

ولم يقل كلاً هديناه لأن الضمير (الهاء) في هذه الحالة سيعود على ما قبلها، وبذلك ستدل كل على الذين قبلها فقط، وينفي اقتضاؤها للأنبياء جميعهم. وإن تقديم ((كلًا هدينا)) أحسن من تأخيرها. لأن التقدير كلهم، فلو أخرجت لما شرت العامل مع أنها منزلة منزلة ما لا يباشره، فلما قدمت أشبهت المرتفعة بالابتداء في أن كل الأنبياء لم يسبقهم عامل في اللفظ^(٢).

وهذا أدى التنبؤين معاني وأغراضاً في السورة تؤثر في المتلقي سواء بإقناعه أم بتخويفه وغير ذلك والله تعالى أعلم.

إن القرآن الجليل يستحوذ على القلوب، فهو ملاذ آمن ودفء وشفاء لا ينضب، ومحاولة كشف مراميهِ جارية منذ أنزل وإلى قيام الساعة، والغوص في أغواره لذة، ومحاولة جني قطفه نوع من السحر، ليس له نهاية، فيه كرم الله تعالى الإنسان فقال جل شأنه: ((فإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ)) [الحجر/٢٩]. كيف لا وهو كلام الله سبحانه الذي له الجبروت، وهو مالك الملك، وخالق الوجود وإليه تنتهي الأسباب، ولأجل ذلك اشتغل فيه البشر قديماً وحديثاً بكل جهودهم فهو الأول بين النصوص قراءة وتأويلاً وحفظاً وتدبراً، وعليه فإن عملية التواصل-أي تواصل الإنسان معه - ستبقى قائمة لقهم مكنوناته والوصول إلى الخالق المستحق للعبادة والطاعة؛ لذلك كله اخترنا سورة الأنعام وهي واحدة من أطول سورهِ وأكثرها تركيزاً على موضوع العقيدة والألوهية والإيمان ومعرفة الله تعالى من خلال مخلوقاته ودلائل عظمته.

وفي الختام تجدر الإشارة إلى أن الآيات الكريمة التي تناولها التحليل التداولي تؤكد

- الوصول إلى الإله الواحد عن طريق مخلوقاته وذلك بالتفكير والتدبر وليس باتباع ما كان يعبد الآباء وهذا ما فعله إبراهيم عليه السلام مع قومه .
- عودتنا إلى السياق في بعض من تحليلنا في الاقتضاء العام سببه أن فلاسفة اللغة جعلوا اللغة العادية بين الناس هي مضمراً دراساتهم ، ثم سحبت هذه الدراسات فيما بعد إلى تحليل النصوص، ومن ثم فالتعامل مع النص يختلف عن التعامل مع الخطابات العادية . فالنصوص ولا

(١) التحرير والتنوير، ٣/٢٤١، ٣٤٣.

(٢) مفتي الشيب، ١/٣٨٦.

مسيما الأدبية كثيراً ما تكون غير مباشرة مليئة بالمجاز توحى أكثر مما تقول، قال ابن جني: ((اللغة كلها مجاز)) ومن هنا جاءت دراستنا للاقتضاء، فالألفاظ تحمل معاني أكثر مما يؤديه اللفظ المكتوب، وغالباً ما تكون هذه المعاني مهمة تسهم في تحديد معنى النص، فضلاً عن أن الفعل يقتضي فاعلاً والفتحة تقتضي ناصباً وحرف الجر يقتضي مجروراً وغير ذلك وهذا ينطبق أيضاً على الصوت والصرف والبلاغة ومواد اللغة الأخرى وعلى ذلك فاللغة كلها اقتضاء.

- وجود الاقتضاء في علوم اللغة العربية بكثرة لثراء هذه اللغة وقدرتها الإيحائية العالية.
- يعطي التنوين بعداً صوتياً يضي على الكلمة اقتضاءات تجعل المتلقي يفكر فيما وراء هذه الكلمة المتونة .

المصادر والمراجع

١. الكتب

- إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول: محمد علي بن محمد (ت ١٢٥هـ)، تحقيق وتعليق: د. شعبان محمد إسماعيل، دار السلام، القاهرة، ط ١/١٩٩٨م.
- أسئلة بيانية في القرآن الكريم: د. فاضل صالح السامرائي، مكتبة الصحابة، الإمارات، مكتبة التابعين، القاهرة، ط ١/٨-٢٠٠٨م.
- استراتيجيات الخطاب -مقاربة لغوية تداولية-: عبد الهادي بن ظافر الشهري، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت_لبنان، ط ١/٤-٢٠٠٤م.
- الأسس الاليمولوجية والتداولية للنظر التحوي عند سيويه: د. ادريس مقبول، جدارة للكتاب العالمي، عمان - الأردن، عالم الكتب الحديث، [ربد - الأردن، ط ١/٦-٢٠٠٦م.
- أسلوب المحاوره في القرآن الكريم: عبد الحليم حفي، الهيئة المصرية العامة، ط ٣/١٩٩٥م.
- الأصوات اللغوية: د. إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، ط ٤/٢٠٠٧م.
- أصول الدين: أبو منصور عبد الفاهر بن طاهر اليفدادي (ت ٤٢٩هـ)، حققه وعلق عليه: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت_لبنان، ط ١/٦-٢٠٠٢م.
- أصول السرخسي: أبو بكر محمد بن أبي سهل السرخسي (ت ٤٩٠هـ)، حقق أصوله: أبو الوفاء الألفاتي، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت_لبنان، ط ٢/٢٠٠٥.
- الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم-دراسة نظرية تطبيقية، التوظيف البلاغي لصيغة الكلمة-: د. عبد الحميد أحمد يوسف منداوي، المكتبة العصرية، صيدا_بيروت، ط ١/١-٢٠٠١م.
- الاقتضاء: دلالاته وتطبيقاته في أسلوب القرآن الكريم: د. أشواق محمد إسماعيل النجار، دار دجلة، عمان_الأردن، (د.ط.)/٢٠٠٧م.
- البحر المحيط: بدر الدين محمد بن بهادر الشافعي الزركشي (ت ٧٩٤هـ)، حققه وخرج أحاديثه لجنة من علماء الأزهر، دار الكتب، القاهرة، ط ٣/٢٠٠٥م.
- بدائع الفوائد: أبو عبد الله المشتهر بابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ)، عني بتصحيحه والتعليق عليه: إدارة الطباعة المنيرية، دار الكتاب العربي، بيروت_لبنان، (د.ط.)/(د.ت).
- بلاغة الخطاب وعلم النص: د. صلاح فضل، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، القاهرة، ط ١/٤-٢٠٠٤.
- تأويلات أهل السنة -تفسير الماتريدي: أبو منصور محمد بن محمد بن محمود الماتريدي (ت ٣٣٣هـ)، تحقيق: د. مجدي ياسلوم، دار الكتب العلمية، بيروت_لبنان، ط ١/١-٢٠٠٥م.

- التحرير والتنوير: تحرير المعنى المسديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد: محمد الطاهر ابن عاشور، دار مصر للطباعة، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس. (د.ط.)/١٩٩٧م.
- التداوليات - علم استعمال اللغة (مجموعة بحوث): إعداد وتقديم: د. حافظ إسماعيلي علوي، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد الأردن، ط١/١١/٢٠١١م:
 - الاستلزام التخاطبي بين البلاغة العربية والتداوليات الحديثة: أحمد المتوكل، ٢٩٣-٣٠٥. - بين تداوليات سورل وتفكيكية دريدا: عبد الله بريهي، ٢٦٠-٢٨٩.
 - الفعل اللغوي بين الفلسفة والبلاغة، عرض وتأصيل لمفهوم الفعل اللغوي لدى فلاسفة اللغة ونظرية النحو الوظيفي: يحيى يعطيش، ٨٩-١٢٣.
 - ما التداوليات: عبد السلام إسماعيلي علوي، ١٧-٢٤.
- التداوليات: جورج بول، ترجمة: د. قصي العتايي، الدار العربية للعلوم، بيروت- لبنان، ط١/١٠/٢٠١٠م.
- التداوليات اليوم - علم جديد في التواصل: أن روبول، وجاهك موشلار، ترجمة: د. سيف الدين دغفوس، ود. محمد المشياني، مراجعة: د. لطيف زيتوني، دار الطليعة، بيروت، ط١/٣/٢٠٠٣م.
- التداوليات عند العلماء العرب - دراسة تداولية لظاهرة "الأفعال الكلامية" في التراث اللساني العربي: د. مسعود صحراوي، دار الطليعة، بيروت، ط١/٥/٢٠٠٥م.
- التداوليات - من أوستن إلى غوفمان: فيليب بلانشيه، ترجمة: صابر الحياثمة، دار الحوار، سورية - اللاذقية، ط١/٧/٢٠٠٧م.
- الترابط النصي في ضوء التحليل اللساني للخطاب: خليل بن ياسر البطاشي، دار جرير للنشر والتوزيع، عمان، ط١/٩/٢٠٠٩م.
- التطبيق الصرفي: د. عبده الراجحي، دار النهضة العربية، بيروت، (د.ط.)/٩/١٩٩٩م.
- تفسير الشعراوي: محمد متولي الشعراوي، أخبار اليوم، قطاع الثقافة، (د.ط.)/(د.ت.).
- تفسير القرآن الجليل - المسعى بمدارك التنزيل وحقائق التأويل: أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النمفي (ت ٧٠١هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت- لبنان، (د.ط.)/(د.ت.).
- التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب: فخر الدين محمد بن عمر الرازي (ت ٧٦١هـ)، قدم له: هاني الحاج، حققه وعلق عليه: عماد زكي البارودي، المكتبة التوفيقية، القاهرة - مصر، (د.ط.)/(د.ت.).
- تهذيب اللغة: أبو منصور محمد بن أحمد الأزهرى (ت ٣٧٠هـ)، مصر (د.ط.):
 - الجزء العاشر: تحقيق: علي حسن هلاي، مراجعة: محمد علي النجار، (د.ت.).
 - الجزء الحادي عشر: تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مراجعة: علي محمد

- الهجاوي، (د.ت).
- الجزء الثاني عشر: تحقيق: أحمد عبد العليم البراوي، لمراجعة علي محمد الهجاوي، (د.ت).
- الهذيب الوسيط في النحو: سابق الدين محمد بن علي بن أحمد بن يعين الصنعاني (ت.٦٨٠هـ)، تحقيق: د.فخر صالح سليمان قداره، دار الجيل، بيروت، ط١/١٩٩١م.
 - الجامع الصغير في النحو: جمال الدين بن عبد الله بن هشام الأنصاري المصري (ت.٧٦١هـ)، تحقيق وتعليق: أحمد محمود الهرميل، مكتبة الخانجي، القاهرة، (د.ط.)/١٩٨٠م.
 - الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي): أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (ت.٦٧١هـ)، تقديم: هاني الحاج، حققه وخرج أحاديثه: عماد زكي البارودي، وخيري سعيد، المكتبة التوفيقية، القاهرة-مصر، (د.ط.)/(د.ت).
 - الحجاج مفهومه ومجالاته - دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة - الجزء الرابع: إعداد وتقديم: د. إسماعيل علوي، عالم الكتب الحديث، إربد الأردن، ط١/٢٠١٠.
 - الحجة في علل القراءات السبع: أبو علي الحسن بن عبد الغفار الفارسي النحوي (ت.٣٧٧هـ)، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، شارك في تحقيقه: د.أحمد عيسى المصري، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط١/٢٠٠٧م.
 - خصائص الحروف العربية ومعانيها دراسة: حسن عباس، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، (د.ط.)/١٩٩٨م.
 - دراسات في اللسانيات العربية المعاصرة: د.عمرو خاطر عبد الغني وهدان، مؤسسة حورس الدولية للنشر، الإسكندرية، ط١/٢٠١٠م.
 - دلائل الإعجاز في علم المعاني: عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني (ت.٤٧٠هـ)، تحقيق: د. عبد الحميد هندراوي، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط١/٢٠٠١م.
 - ديوان الحماسة: أبو تمام حبيب بن أوس الطائي (ت.٢٣١هـ)، رواية: أبو منصور الجواليقي (ت.٥٤٠هـ)، شرحه وعلق عليه: محمد حسين بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/١٩٩٨م.
 - روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: أبو الفضل شهاب الدين المسيد محمود الألوسي البغدادي (ت.١٢٧٠هـ)، تحقيق وتخرىج: د. السيد محمد المسيد، وسيد إبراهيم عمران، دار الحديث، القاهرة، (د.ط.)/٢٠٠٥م.
 - شرح الكافية: محمد بن إبراهيم بن جماعة (ت.٧٣٣هـ)، حققه وقدم له وعلق على مسأله وشواهد: محمد عبد النبي عبد المجيد، مطبعة دار البيان، مصر، ط١/١٩٨٢م.
 - شرح نهج البلاغة الجامع لخطب ورسائل وحكم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب: ابن

- أبي الحديد، دار الرشاد الحديثة، (د.م.)، (د.ط.)/(د.ت).
- شفايا لسانية: أ.د. مجيد الماشطة، دار المساب، لندن، ط١/٨/٢٠٠٨ م.
- الصحابي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها: أبو الحسين أحمد بن فارس (ت٣٩٥هـ)، علق عليه ووضع حواشيه، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط٢/٢٠٠٧ م.
- ظاهرة التعويض في العربية وما حُوِّل عليها من المسائل: د. عبد الفتاح أحمد الحموز، دار عمار للنشر، عمان-الأردن، ط١/١٩٨٧ م.
- العالم ومأزقه- منطلق الصدام ولغة التداول: علي حرب، المركز الثقافي العربي للنشر، المغرب، بيروت-لبنان، ط١/٢٠٠٢ م.
- العقل واللغة والمجتمع- الفلسفة في العالم الواقعي: جون سيرل، ترجمة: سعيد الغانمي، منشورات الاختلاف، الجزائر، المركز الثقافي العربي، المغرب، الدار العربية للعلوم، بيروت-لبنان، ط١/٢٠٠٦ م.
- علاقات الحضور والغياب في شعرية النص الأدبي - مفاربات نقدية: د. مسير الخليل، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد - العراق، ط١/٢٠٠٨ م.
- عندما نتواصل تغير- مقارنة تداولية معرفية لأليات التواصل والحجاج: د. عبد السلام عشير، أفريقيا الشرق، المغرب، (د.ط.)/(د.م.)، ط١/٢٠٠٦ م.
- علم الخطاب الإسلامي - دراسة لمنهج علماء الأصول في فهم النص: د. محمد محمد يونس علي، دار المدار الإسلامي ن بيروت-لبنان ط١/٢٠٠٦ م.
- علم لغة النص - المفاهيم والاتجاهات - أ.د. سعيد حسن بحيري، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، مطبعة مؤسسة المختار الأولى، القاهرة، (د.ط.)، ط١/٢٠٠٤ م.
- الفروق في اللغة: أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري (ت٣٩٥هـ)، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط٣/١٩٧٩ م.
- فصول في الدلالة- ما بين المعجم والنحو: د. الأزهر الزناد، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت-لبنان، دار محمد علي للنشر، تونس، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط١/٢٠١٠ م.
- الفلسفة والبلاغة - مقارنة حجاجية للخطاب الفلسفي: د. عمارة ناصر، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت - لبنان، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط١/٢٠٠٩ م.
- المنولوجيا وعلاقتها بالانظم في القرآن الكريم: د. محمد رزق شعير، تقديم: د. تمام حمان، مكتبة الآداب، القاهرة، ط١/٢٠٠٨ م.
- في ظلال القرآن: سيد قطب، دار إحياء التراث العربي، بيروت-لبنان، ط٧/١٩٧١ م.
- في النقد الأدبي: د. صلاح فضل، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، (د.ط.)/(د.م.)، ط١/٢٠٠٧ م.
- القاموس المحيط: مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي (ت٨١٧هـ)، دار العلم للجميع، بيروت، (د.ط.)، (د.ت).

- الكتاب: أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر المعروف بسيبويه (ت. ١٨٠هـ)، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، عالم الكتب، بيروت، (د.ط.)/ (د.ت.).
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت. ٥٢٨هـ)، ضبط وتوثيق: أبو عبد الله الداني بن منير آل زهوي، دار الكتاب العربي، بيروت-لبنان، ط١/١٠٦/٢٠٠٦م.
- الكليات - معجم في المصطلحات والفروق اللغوية: أبو البقاء أئوب الكفوي (ت. ١٠٩٤هـ)، تحقيق: د. عدنان درويش، محمد المصري، مؤسسة الرسالة، دمشق-سورية، ط٢/١١/٢٠١١م.
- لسان العرب: جمال الدين محمد بن منظور (ت. ٧١١هـ)، دار صادر، بيروت، ط٣/١٩٩٤/١٩٩٤م.
- لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة- فلسفة المعنى بين نظام الخطاب وشروط الثقافة: د. عبد الفتاح أحمد يوسف، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت-لبنان، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط١/١٠/٢٠١٠م.
- لسانيات النص - مدخل إلى انسجام الخطاب: محمد خطابي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط٢/٦/٢٠٠٦م.
- اللغة العربية معناها ومبناها: د. تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ط٥/٦/٢٠٠٦م.
- ما لا تؤديه الصفة - المقتربات اللسانية والأسلوبية والشعرية: حاتم الصكر، دار كتابيات، بيروت-لبنان، ط١/١٩٩٣م.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي (ت. ٥٤٦هـ)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢/٧/٢٠٠٧م.
- مدخل إلى اللسانيات: د. محمد محمد يونس علي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت-لبنان، ط١/٤/٢٠٠٤م.
- مشكلة العامل النحوي ونظرية الاقتضاء: د. فخر الدين قباوة، سلسلة بحوث ودراسات في علوم اللغة والأدب (٥)، المطبعة العلمية، دار الفكر، دمشق، ط١/٣/٢٠٠٣م.
- المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب: دومينيك مانغونو، ترجمة: محمد يحياتن، منشورات الاختلاف، الجزائر، مطابع الدار العربية للعلوم بيروت ط١/٨/٢٠٠٨م.
- معاني القرآن وإعرابه: أبو إسحاق الزجاج (ت. ٢١١هـ)، شرح وتحقيق: د. عبد الجليل عبده شليبي، خرج أحاديثه: علي جمال الدين محمد، دار الحديث، القاهرة، (د.ط.)، ط١/٤/٢٠٠٤م.
- معاني النحو: د. فاضل صالح السامرائي، شركة العاتك، القاهرة، ط٢/٣/٢٠٠٣م.
- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب: جمال الدين عبد الله بن يوسف بن أحمد بن هشام الأنصاري (ت. ٧٦١هـ)، قَدِّم له ووضع حواشيه وفهارسه: حسن حمد، أشرف

- عليه وراجعته: د. إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط١/١٩٩٨م.
- المفصل في صنعة الإعراب: أبو القاسم جاز الله محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٢٨هـ)، حقه وعلق عليه: د. محمد محمد عبد المقصود، د. حسن محمد عبد المقصود تقديم: أ. د. محمود فهمي حجازي، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط١/٢٠٠١م.
 - المفصل في علم العربية: أبو القاسم جاز الله محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٢٨هـ)، وبذيله كتاب المفصل في شرح أبيات المفصل: السيد النعساني، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، ط١/٢٠٠٦م.
 - المقاربة التداولية: فرانسواز أرمينكو، ترجمة: د. سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، (د.م.)، (د.ط.)/(د.ت).
 - المقاييس الأسلوبية في الدراسات القرآنية: د. جمال حضري، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت-لبنان، ط١/٢٠١٠م.
 - المقتضب: أبو العباس محمد بن يزيد البرد (ت ٢٨٥هـ)، تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة، وزارة الأوقاف، لجنة إحياء التراث الإسلامي، مطابع الأهرام، القاهرة-مصر، (د.ط.)/(٢٠١٠م).
 - الملل والنحل: أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني (ت ٥٤٨هـ)، صححه وعلق عليه: أحمد فهمي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط٨/٢٠٠٩م.
 - من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم _ الفاء ونم: د. محمد الأمين الخضري، مكتبة وهبة، القاهرة ط٢/٢٠٠٧م.
 - من أسرار اللغة: د. إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة، ط٨/٢٠٠٣م.
 - منازل الرؤية _ منهج تكاملي في قراءة النص: د. سمير شريف أمستيتية، دار وائل للنشر والتوزيع، عمان-الأردن، ط١/٢٠٠٣م.
 - من بلاغة القرآن: أحمد أحمد بدوي، دار نهضة مصر، الفجالة - القاهرة، (د.ط.)/(١٩٥٠م).
 - من قضايا الفكر اللساني في النحو والدلالة واللسانية: صابر الحياشة، دار صفحات للدراسات والنشر، سورية-دمشق، الإصدار الأول/٢٠٠٩م.
 - المنهل: سهيل ادريس، ود. جيبور التور، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤/١٩٢٧م.
 - من وظائف الصوت اللغوي _ محاولة لفهم صرقي ونحوي ودلالي: د. أحمد كشك، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، ط١/٢٠٠٧م.
 - النحو والدلالة _ مدخل لدراسة المعنى النحوي - الدلالي: د. محمد حماسة عبد اللطيف، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، (د.ط.)/(٢٠٠٦م).
 - النص والسياق _ استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي: فان دايك: ترجمة: عبد القادر قنبي، أفريقيا الشرق، المغرب، بيروت لبنان، (د.ط.)/(٢٠٠٠م).

- نظرية الفعل الكلامي-بين علم اللغة الحديث والمباحث اللغوية في التراث العربي والإسلامي: هشام إ. عبد الله الخليفة، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت لبنان، ط١/٢٠٠٧م.
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي (ت ٨٨٥هـ)، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط١/١٩٧٣م.
- وصف اللغة العربية دلاليها في ضوء مفهوم الدلالة المركزية-دراسة حول المعنى وظلال المعنى: محمد محمد يونس علي، منشورات جامعة الفاتح، ليبيا، (د.ط.)/(د.ت).
- الوظائف التداولية في اللغة العربية: د. أحمد المتوكل، دار الثقافة للنشر والتوزيع، المغرب، ط١/١٩٨٥م.
- ٦. **الرسائل والأطاريح:**
 - أسماء الإشارة في القرآن الكريم: عمر محمد عوني، أطروحة دكتوراه، بإشراف: أ.د. عبد الوهاب العدواني، كلية التربية، جامعة الموصل، ٢٠٠٣م.
 - ٢. **البحوث المنشورة في النوريات:**
 - الاقتضاء في التداول اللساني: عادل فاخوري، مجلة عالم الفكر، أكتوبر، نوفمبر، ديسمبر، مج ٢٠، ٣/١٩٨٩م.
 - التداولية محاولة لضبط الدرس اللساني تجريبياً: قالح حسن، مجلة الأقلام، عدد خاص عن التداولية، أيلول/تشرين الأول، ٥/٢٠٠٨م.
 - التداولية... النشأة والمفهوم: مؤيد عبيد، مجلة الأقلام عدد خاص عن التداولية، أيلول/تشرين الأول، ٥/٢٠٠٨م.
 - التنوين والدلالة-دراسة في ضوء اللسانيات العربية الماصرف: د. خالد إسماعيل حسان، حوليات الآداب والعلوم الإجتماعية، جامعة الكويت، مجلس النشر العلمي، الرسالة ٢٦٥-الحولية ٢٨، سبتمبر، ٢٠٠٧م.
 - في التداولية. إشكالية المصطلح بين المفهوم والترجمة والتعريب: د. عيد بليغ، مجلة الأقلام، عدد خاص عن التداولية، أيلول / تشرين الأول، ٥/٢٠٠٨م.
 - ٤. **البحوث المنشورة على شبكة الأنترنت:**
 - الألفاظ الكلامية والاستلزام الحوارية بين القدماء والمحدثين: د. نادية رمضان النجار، www.dr.nasioramadon.9f.com

التداولية

في البحث اللغوي والنقدي

كانت اللغة وما فنزاع موضع اهتمام الباحثين منذ وعى الإنسان أهميتها في تشكيل مفردات حياته الخاصة والعامه. كونها الحاضرة المثلى والاكثر انصافاً والأرقى درجة في سلم العمليات الذهنية وفي تشكيل أي حدث تخاطبي قادر على انجاز فعل يسمم بكتابة التواصل المطلوب. فقد شغلت اللغة الإنسان في أصلها وطبيعتها وهي نظام ترميزي يشتمل على بنية صورية حسب ام هي بنية ذات طبيعية وفلسفية لها علاقات وثيقة بجوانب الحياة العرفية كافة. ذلك ان طبيعة اشتغال اللغة بعد امرها معضداً. كونه يعمل على تحويل المعرد من الفكر والشاعر الى مادي محسوس عبر الجمل والأصوات التي تحتوي ذلك الفكر وتلك الشاعر مفضولة أو منطوقية. مما يجعلها غير قابلة للاختزال في منظومة بشارية. ويجعل من التواصل بها ومعهما بحاجة تؤزرد غير اللغوي مما يفسح في حقل العمليات الاستدلالية التي يحتاجها الفهم. فالتبحث عن المعنى لا يقتصر على الإنتاج والتأويل في البنية اللغوية المعردة كما فعلت البنيوية وما حولها من سماتيات حسب. لأن ذلك لن يتيح لعملية الفهم ان تستكمل مداها الا من خلال سياق تنضاهر فيه عوامل غير لغوية وتلعب فيه اسائر اتية المورل ومن يخاطبهم دورا في تحقيق هدف الحدث اللغوي الكامل. معتمداً في ذلك على تفاعل حيوي للمعارف المشتركة والظروف التي تكتنف المرسل والمخاطبين معا من خلال دراسة مجمل الاحوال التي تتعلق بعملية الانجاز اللغوية. السياقية ولغامية بكل ما تتضمنه مفردتا السياق والمقام من إشارات زمانية ومكانية ونفسية وبيديولوجية ومن ظروف خاصة وعامة يمكن لها أن تجعل بعملية التواصل